المسلمون
وتجارة الرقيق
خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة

أطروحة دكتوراه الدولة

1

توفيق بن عامر

مبرز في اللغة والآداب العربية

الجامعة التونسية

المسلمون
وتجارة الموفيون
خلال
القرنين الثالث والرابع للهجرة

محمد الطالبي
11 نهج طهران - 2000 باردو
الهاتف : 511.582

تـــــــــــوطئـــــــــــــــة

تـــوطئـــــــــة

أ. ميـــــــدان البحـــــــث

ان الغـــرض الـذي نرمـي اليـــه بانجـــاز هـــذه الدراسة هـــو محـــاولة رفـــع النقـــاب عـــن جـــانب من جـــوانب الحضارة الاســـلامية الوسيطـــة قـد ظـلّ مجهـــولا الى حـدّ الآن لانّـــه لـــم يحـظ بعـد بما يليـــق بـــه من دراســـات رغـــم ما يكتسيـــه من اهميـــــة . فأول ما يـلاحظـــه البـاحث في هـذا الميـــدان هـــو ندره الـدراســات الخـاصـة بمعـالجـة قضـايـــــا الرق التي يطـرحهـــا التاريخ الاســلامي قـديمـــه وحـديثـــــه بالرغـــم من كـــونهـــا تمـــثـــل ركنـــا اساسيـــا من اركـــان ذلـــك التاريـــخ . واننـــا لنتســـاءل كيـــف يتسنى لنـــــا البحـــث في اوضـــاع المسلميـــن الاجتمـــاعيـــة او الاقتصـاديـــة او الثقافيـــة او السياسية او العسكـريـــة دون اهتمـــام باوضـــاع الرقيـــق ودوره في شتى تلك الاوضاع الحضاريـــة خصوصـا اذا علمنـا ان المجتمع الاسلامي قـد كـان كغيـره من المجتمعـات القـديمـة والوسيطـة استرقـاقيا وان فئـة العبيـد قـد كـانت تعتبـر جـزءا منـه لا يتجـــــزأ وعـــامـــلا من عـــوامـــل تكـــوينـــه الاساسيـــة .

وإذا ما حاسبنا انفسنا عن الخطوات التي خطاها البحث العلمي في هذا المجال ادركنا اننا في بداية الطريق والفينا امامنا نقطا استفهام ضخمة فماذا نعلم عن دور الرقيق في الاسرة الاسلامية ودوره في الحياة الثقافية والفنية ومشاركته في الميدان السياسي والبناء الاقتصادي وعلاقته بغيره من ابناء الفئات الاجتماعية الاخرى وظروف معاشه ومستواه ؟ وماذا نعرف عن أثره في ظاهرة تلاقح الحضارات وعطية تمازج الاجناس وفي طبيعة التمدن الاسلامي بطابع خاص؟ حقا اننا لا نعلم الشيء الكثير! وما دمنا مقصرين في فك هذه الالغاز لن يكون من حقنا ان نعتقد اننا قادرون على فهم تاريخ المسلمين الحضاري فهما كاملا.

وقد تساءل ((كلود كاهان)) Cl. Cahen قبلنا نفس التساؤل (1) وعبر عن وجود هذه الثغرة

---

1) كلود كاهان Cl. Cahen - الشعوب الاسلامية في التاريخ الوسيط « Les peuples musulmans dans l'histoire médiévale - Institut français de Damas Damas - 1977 - » ص: 222

- راجع ايضا لنفس المؤلف مقالا بعنوان : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الاسلامي الوسيط - « L'Histoire Economique et Sociale de L'Orient musulman médiéval - Studia Islamica - 1955 - III - pp - 93 - 115

في ميدان البحث وهذه الحلقة المفقودة في سلسلة الدراسات الخاصة بالتاريخ الاسلامي الوسيط فقال: ((كلنا يعلم ان المجتمع الاسلامي في القرون الوسطى وخاصة في المدن هو مجتمع قائم على العبيد. اليس من العجيب اذن ان ننتظر اول نشرة لدائرة المعارف الاسلامية الجديدة لكي نجد مستشرقا يجرؤ على كتابة شيء حول الاسترقاق؟ بينما كانت الدراسات الجديدة الوحيدة هي دراسات ((م. فرلندن)) verLinden الذي لا يعتبر مستشرقا)) (1) ومن الجلي ان صاحب هذه القولة يشير الى المقال الذي كتبه الاستاذ ((برنشفيك)) Brunschvig في دائرة المعارف الاسلامية بعنوان ((عبد)) (2) وتناول فيه ظاهرة الرق في الحضارة الاسلامية من ابرز جوانبها التشريعية والتاريخية بايجاز تحتمه حدود المقال.

---

1) المرجع نفسه -

2) برنشفيك Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص 25-41

ب : الموضوع

ولسنا هنا في مقام تقييم شامل للدراسات التي كان لها مساس من قريب او بعيد بمسألة الرق في الحضارة الاسلامية وانما اردنا الاشارة فقط الى ندرة الدراسات الجدية والمتعمقة في هذا المجال والى ضرورة المساهمة في سد هذه الثغرة ولذلك جعلنا محط انظارنا الاقدام على دراسة قضية اساسية من قضايا الرق في التاريخ الاسلامي الوسيط تتناول وجها من وجوهه الاقتصادية وتبحث في تجارة الرقيق عند المسلمين خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ولست بحاجة الى بيان قيمة هذه المسألة التي ستكون موضوعا لبحثنا هذا اذ يكفي للدلالة على اهميتها التذكير بأنها كفيلة بكشف الحجاب عن مصدر هام من مصادر مادة الرقيق في تاريخ المسلمين الى جانب مصدري الحرب والولادة في الرق وتكفي الاشارة ايضا الى انها صورة معبرة عن ناحية خطيرة من نواحي الحياة الاقتصادية الاسلامية لاسيما اذا علمنا ان الرقيق فضلا عن كونه مادة تجارية وضاعة لها مكانتها في الدورة الاقتصادية قد كان يشكل وسيلة هامة من وسائل الانتاج في المجتمع الاسلامي والمصدر الذي يستمد منه هذا المجتمع الايدي العاملة

للنهوض بشؤونه الاقتصادية بصفة عامة وهو بعبارة اخرى المحرك الاساسي للاقتصاد والدولاب الذي لم يكن بدونه لتتجمع الشركات الطائلة التي قامت على اساسها المدنية الاسلامية" وقد شعر كل من ((كلود كاهان)) cl . cahen و ((برنشفيك)) Brunschvig باهمية هذا الجانب الاقتصادي من مسألة الرق وعمرا عن آمالهما في ان توضع فيه دراسة" في يوم من الايام .

يقول الاستاذ ((كاهان)) cl.cahen معلقا على مقال الاستاذ ((برنشفيك)) بدائرة" المعارف للاسلامية" ما يلي : ((لست في حاجة الى مدح هذا المقال الذي سيكون في المستقبل قاعدة للبحث . ومن الواضح ان مقالا بموسوعة لا يمكن ان يحيط بكل الجوانب وعلينا في المستقبل ان نتعمق خاصة في جوانب الاسترقاق الاقتصادية)) (1) قد وضع

---

1) كلود كاهان cl.cahen . الشعوب الاسلامية" - ص ٢٢٢ الحاشية رقم : ٤

((برنشفيك)) Brunschvig بالفعل حجر الزاوية الذي يحسن بنا ان نبني على اساسه وقد عبر هو نفسه عن نوع الاتجاه الذي يرتئيه لهذا البناء فنبه في سياق مقاله الى ضرورة البحث عن نقاط بقيت مجهولة كمسألة مكانة الرقيق في المعاملات التجارية وكامكان المقارنة بين أثمان الرقيق وأثمان المواد التجارية الأخرى حتى يمكن التعرف على مستوى اسعار هذه البضاعة (1).

فلعل فيما سبق ما يحث على شحذ الهمة وعقد العزم على محاولة تكملة هذا النقص واختيار تجارة الرقيق عند المسلمين موضوعا لاطروحتنا وقد كان من حسن حظنا ان شجعنا على طرقه استاذنا الدكتور محمد الطالبي بحماسه المعهود وتفانيه في خدمة البحث العلمي واهتمامه المتزايد بالحضارة الاسلامية الوسيطة

---

1) برنشفيك Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية ((مقال عبد)) ج 1 ص 33

فشد من ازرنا ووجهنا الى تركيز الاهتمام على القرنين الثالث والرابع للهجرة لتميز هذه الفترة عن غيرها بازدهار التجارة الاسلامية برا وبحرا وبألق المدنية الاسلامية شرقا ومغربا مما سمح للمسلمين بالسيطرة على الطرق والمسالك والقيام بدور الوسيط التجاري والحضاري عموما بين انحاء المعمورة وفي كل ذلك ما يدعو الى التساؤل عن الدور الذي لعبته تجارة الرقيق على صعيد حضارة هذا العصر.

ح : الصعوبات

وتعترض الباحث في الجواب عن هذا السؤال جملة من الصعوبات من اهمها ما نلاحظه بصورة عامة في شتى الحضارات من ان الرقيق الذين كانوا يمثلون طبقة متميزة عن غيرها من الطبقات لها آمالها وآلامها الخاصة وقامت على كواهلها صروح من المدنيات لم يحدثوا عن انفسهم بالمستتهم ولم يكتبوا تاريخهم باقلامهم وانما صمتوا الصمت أو ألزموا فجهلنا بصفتهم

ذلك الكثير من احوالهم . ولعل جل ما نعرفه عنهم قد وافانا عن طريق فئة اجتماعية اخرى هي المالكة لرقابهم فلا يجوز والحالة تلك ان نطمئن الى ما تنقله عنهم كل الاطمئنان (1).

واذا ما تأملنا في التاريخ الاسلامي الوسيط جابهتنا صعوبة اخرى ليست اقل اعاقة للباحث من السابقة وهي ما درج عليه الاخباريون والمؤرخون المسلمون من تركيز الاهتمام على تسجيل الاحداث السياسية او العسكرية وحصر التاريخ في دائرة الاسر الحاكمة دون التفات الى سائر فئات الامة الاغرارا واضطرارا وما حرص عليه كتاب التراجم ومؤلفو كتب الطبقات من اعتناء بشؤون الخاصة دون العامة فارخوا لرجال السياسة والدين والعلم والادب واهملوا اصحاب المهن والصنائع والتجار وغيرهم . وما من شك في انهم قد كانوا خاضعين ادراك لاعتقاد سائد في مجتمعهم يعلي من شأن اصحاب السيف والقلم ويعتبر غيرهم من ارباب الحرف في مرتبة ثانية .

---

1) موريس لنجلي M Lengellé - الرق - ص 44 45
L'esclavage - «Que sais-je ?» - P U F - Paris. 1956
N°667 - P 44 45

د ـ المصادر

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على خمسة اصناف من المصادر منها مؤلفات الاخباريين والمؤرخين وهي مؤلفات قد احتوت على معلومات متفرقة يواجه الباحث في جمعها عسرا كبيرا وذلك لانها لم تهتم بهذه القضية في حد ذاتها وانما اشارت الى بعض متعلقاتها في غضون حديثها عن تاريخ الدول والملوك . ويمكن ان نعتبر من هذا الصنف ايضا كتب الطبقات بشتى انواعها اما الصنف الثاني فهو كتب الرحلة او مؤلفات ((المسالك والممالك)) التي وضعها الرحالة والجغرافيون المسلمون وقد كانت الاستفادة منها اكثر ويسر لاهتمامها بشؤون المبادلات والطرق التجارية ولتعرضها الى موضوعنا بصورة مباشرة ووصفها لعمليات تزويد الرقيق بمختلف اجناسه وتحديدها لمكانته بين سائر البضائع الرائجة في نطاق التجارة الخارجية الاسلامية .

ويتشـــل الصنف الثالث في كتب الحسبة المتضمنـــة لاحكـــام السوق وهـي مؤلفات قد اعتنى اصحابها مـــن المحتسبيـــن بسلامة الاسواق مما يضـر بصالح الناس فنبهـــوا الى حيـل التجار وغشهم وميّزوا بين الجيّد والرديء من البضـــائع على اساس الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وحرصوا على سير المعاملات وفق مقتضيات الشـــرع . وقد خصصوا في كتبهم ابوابا لاسواق الرقيق وصفوا خلالها عدة جوانب من نشاطها وتقاليدها مما يتصل اتصالا وثيقا بموضوعنا وخاصة ما يتصـل منه باوضاع التجارة الداخلية . والملاحظ ان هذه المؤلفات قد وجد بينها تشابه كبير في سياق عـــرض عيوب البضاعة ومحاسنها وتعداد حيل التجار وقد عمهم ذلك راجع الى نقـل المؤلفين عن بعضهم بعضا والى استمرار الظاهرة الواحدة ايضا عبر فترات متلاحقة ويتصل بهذا الصنف المركز على ((نعوت)) البضاعة و ((عيوبها)) بعض الرسائل الخاصة بالرقيق مثل رسالة ابن بطلان (1) وبعض رسائل الجاحظ(2).

---

1) ابن بطلان . رسالة جامعة لفنون نافعة في شراء الرقيق وتقليب العبيد . نوادر المخطوطات عدد ٤ - القاهرة ١٩٥٤

2) الجاحظ ـ الرسائل ـ تحقيق ـ عبد السلام هارون - ط - القاهرة - 1964 - 1965

اما الصنف الرابع فهو المؤلفات الادبية التي نظرنا اليها باعتبارها وثيقة تاريخية فحسب وكانت استفادتنا منها متصلة خاصة باثار تجارة الرقيق في المجتمع وانعكاساتها على الحياة الثقافية والفنية والحضارية عموما وهذه ناحية قد برزت ابعادها في ادب هذا العصر بشكل واضح وارتسمت في الموسوعات الادبية ككتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني (1) ونشوار المحاضرة للتنوخي (2) وغيرهما . ولم تخل دواوين الشعرا يضا في هذه الفترة من قرائن مفيدة بالنسبة الى موضوعنا فاعتمدنا بعضها من وجهة نظر وثائقية دائما وكان اعتمادنا على هذا النوع من المصادر مفيدا خاصة في تحليل العوامل النفسية والاجتماعية التي كان لها دور هام في رواج تجارة الرقيق خلال هذا العصر .

واعتمدنا صنفا خامسا من المصادر لا يقل اهمية عن الاصناف السابقة الذكر ونعني به الاحكام الفقهية المتصلة

---

1) الاصفهاني - كتاب الاغاني - ط بيروت - ١٩٢ - ١٩٦٤

2) التنوخي - نشوار المحاضرة - ط. بيروت - دار صادر - ١٩٧١-١٩٧٣

بتجارة الرقيق يقبنا منا ان فهمنا لاوضاع تلك التجارة رهين بالاطلاع على الأطر القانونية التي تنظمها وان هذه المادة الفقهية لم تكن دائما مجرد احكام نظرية و منفصلة عن الممارسة التاريخية بل هي متصلة بالواقع الاسلامي رغم حرص الفقهاء على ربطها بالمبادئ الشرعية بشكل من الاشكال وقد اعتبرنا ان ذلك الاتصال بالواقع ذو طابع جدلي يتخذ احيانا مظهر الايجاب واحيانا اخرى مظهر السلب وان اغلب الفتاوي التي اصدرها الفقهاء قد كانت نتيجة اصطدام التشريع بمستجدات الاحداث الاجتماعية وتطورها فلا غنى للمؤرخ عن النظر في التراث الفقهي والاستفادة منه لانه يضم العديد من الاشارات الى مشاكل الحياة الاسلامية وهي اشارات لا نظفر بها إلا عرضا في غضون انواع التراث الاخرى فكثيرا ما يضطر الفقيه الى ذكر الحادث الذي استوجب اصدار فتوى من الفقهاء فيكشف لنا عن هذه الصلة المتينة بين الصيغ القانونية والاحداث

اليومية . فلا مراء اذن في ان تكون المادة الفقهية اداة صالحة بيد المؤرخ اذا ما احسن استعمالها ومد خلا يشرف منه على بعض الظواهر التطبيقية مادامت مزيجا من النظر المدئي والملاحظة الواقعية (1).

ومما زادنا تأكدا من سلامة هذا المنهج بالنسبة إلى موضوعنا وشجعنا على توخيه ان القرنين الثالث والرابع للهجرة كانا يشلان اهم نقطة فاصلة في تاريخ التشريع الاسلامي ففيهما اختمرت هذه المادة وأتت اجتهادات الفقهاء اكلها وبرزت اشهر المذاهب معنى ذلك ان حركة التقليد والجمود لم تظهر بعد وان استنباط الاحكام الصالحة للعصر قد كان في اوجه والنظر التشريعي على اشده اما بعد هذا العصر فقد خمدت جذوة الابتكار وفرض الحجر على الاراء الجديدة وصار الفقهاء يجترون غالبا ما استقر في عصور الازدهار من احكام . وقد وصف لنا آدم متز A-MEZ هذا الانتقال ابتداءا من القرن الرابع للهجرة فقال (كان القرن الرابع اهم نقطة فاصلة في تاريخ التشريع الاسلامي فيقال انه في هذا القرن وقف التكوين المستقل للتشريع الاسلامي المبني على الاجتهاء المطلق

---

1) كلود كاهان - Cl Cahen - الشعوب الاسلامية - ص 348-349

وطغى الحكم بالرأي في فهم القرآن والحديث ومضى عصر الابتكار في التشريع واعتبر العلماء الاولون كالمعصومين وأصبح الفقيه لا يستطيع اصدار حكمه الخاص الا في المسائل الصغيرة . وهذا يشبه ما حدث عند اليهود من مجيء الربانيين الذين كانت قصاراهم التناقض في ارراء القدماء وذلك بعد مضي عهد علماء الكتاب الذين يعلمون الكتاب ويحق لهم الاجتهاد) (1) .

لقد وجدت اذن مراكبة تاريخية في هذه الفترة التي ندرسها بين المجهودات التشريعية والاوضاع الحضارية . فاعتمدنا على اجتهادات الفقهاء الذين عاشوا في هذه الحقبة من الزمن ولم نجد اي حرج في الاعتماد على مولفات فقهية اخرى متأخرة زمنيا لانها تحتوي كما قلنا على نفس المادة تقريبا بحكم سنة الاخذ عن السلف والمحافظة على احكام الائمة الاوائل . كما اننا لم نعدم في مواقف كثيرة من هذه التآليف الوقوف على بعض العناصر الشخصية التي ترسم لنا اتجاهها جديدا حتمته الظروف

---

1) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 387

ومما يضاف من جدوى هذه المادة الفقهية بالنسبة الى موضوعنا انه بامكاننا ان نعلم المناطق الجغرافية التي انتشرت بها تلك المذاهب وذلك يتسنى لنا ان ندرك تنوع المعاملات بتنوع الاقاليم الاسلامية وتشريعاتها .

هـ ـ المنهج

وتجدر الاشارة بخصوص تصميم البحث الى اننا لم نتوخ الفصل في المنهج الذي اتبعناه بين القرنيين الثالث والرابع للهجرة ولا بين المشرق والمغرب الاسلاميين للاستمرار الذي لاحظناه على المستوى الزمني والتشابه الواضح على الصعيد المكاني بشأن القضية التي ندرسها واكتفينا بالاشارة من حين لاخر الى الفروق الطفيفة التي قد توجد في ملابسات فترة دون اخرى او اقليم دون اخر وقد سمحنا لانفسنا استنادا الى هذه الاعتبارات وحرصا على ابراز ظاهرة التطور في مسألتنا بان نولي التفاتة الى ما سبق هذه الفترة الزمنية ولحقها لان الفصل الصارم في هذا المضمار بين العصر الذي نهتم به وما سبقه وما تلاه مباشرة قد يضيق زاوية النظر خاصة اذا ادركنا ان مثل هذه الظاهرة التاريخية التي ندرسها لا يمكن ان يتغير وجهها بين يوم وليلة . وهذا ما دعانا الى الاستفادة من مصادر تعرضت الى الموضوع في عصر لاحق او سابق ولكنها تصف مع ذلك واقعاله صلة متينة بهذا العصر .

وعندما يعنصر اهتمامنا بالنصف الثاني من القرن الثاني
او النصف الاول من القرن الخامس للهجرة جزءا من اهتمامنا بالقرنين الثالث والرابع للهجرة وذلك لان المنعرج الذي حدث في تجارة الرقيق قبل القرن الثالث وبعد القرن الرابع والذي اعتبرنا من اجله هذه الفترة ذات خصائص مميزة في هذا المجال قد استغرق ما لا يقل عن نصف قرن قبل وبعد. كما سمحنا لانفسنا ايضا بان نجتزيء ببعض الامثلة على الخاصية الواحدة ولم نذهب مذهب الاستقصاء للامثلة من شتى اوضاع الدول التابعة للعالم الاسلامي اذ ان لان فيه اشقا لا لكاهل بحثنا بما لا يؤكد الا حقيقة واحدة الا في بعض حالات استثنائية نشير اليها. ونحن لا نزعم اننا في بحثنا هذا تمكنا من الاجابة عن كل الاسئلة التي يطرحها هذا الموضوع الخطير بل اننا لمؤمنون بان الغموض لا يزال يكتنف بعض جوانبه وان المصادر التي بين ايدينا قد صمتت عن عدة حقائق الا انه من المفيد ان نلفت الانتباه اليها وان يكون بحثنا معالم على الطريق الموصلة الى كشفها في المستقبل. وقد قسمنا بحثنا هذا الى ثلاثة اقسام تناولنا في القسم الاول منه بيان اهم خصائص تجارة الرقيق قبل القرن الثالث للهجرة في بابين تعرضنا خلالهما الى ملامح هذه التجارة عند الامم السابقة للاسلام وخاصة منها الامة العربية ثم شرحنا موقف الاسلام منها وظاهر تطورها بانتشار الفتوحات خلال القرن الاول للهجرة كما اشرنا الى ما حدث من تغير في اوضاع هذه التجارة خلال القرن الثاني للهجرة وقد ركزنا في كل ذلك على قضية اساسية

هي قضية التزود ببضاعة الرقيق خلال مختلف هذه الفترات التاريخية

امّا القسم الثاني والاساسي من البحث فقد تناولنا فيه بالتحليل خصائص هذه التجارة في القرنين الثالث والرابع للهجرة في ستة ابواب درسنا فيها قضايا العرض والطلب وحركة توريد الرقيق الى العالم الاسلامي كما تعرضنا الى مختلف اجناس الرقيق الرائجة في هذا العصر ثم تطرقنا الى الحديث عن الاسواق الرقيق وما تميزت به من اساليب في المعاملات وتناولنا اثر ذلك بيان خصائص تجارة كل صنف من اصناف الرقيق من مذكر ومؤنث وفحل وخصي ومجلوب ومولد ففصلنا القول في تجارة الجواري والغلمان واولينا اهتماما لتجارة القيان والمغنين . وتطرقنا فيما بعد الى ما يخص المعاملات المالية من مكوس واسعار وما يتعلق بتجار الرقيق وشراته . وامّا القسم الثالث والاخير فقد جعلناه في بابين ركزنا اهتمامنا خلالهما على آثار تجارة الرقيق في المجتمع الاسلامي وختمنا بالقاء بعض الاضواء على مآل هذه التجارة بعد القرن الرابع للهجرة . وقد ذيلنا هذه الدراسة بقائمة مصادر و مراجع ومفهرس ابجدي لعلم لاسماء الاعلام والمدن والدول والاماكن والاقاليم والاجناس والقبائل والامم والمصطلحات ومفهرس لمواضيع البحث والله ولي التوفيق .

القسم الاول

تجارة الرقيق

قبل القرنين الثالث والرابع للهجرة

الباب الاول

تجارة الرقيق قبل الاسلام

الفصل الاول

عند الامم السابقة للاسلام

1) - نشأة تجارة الرقيق

انه بوسع الباحث ان يحدد بالاعتماد على طبيعة الرق وعوامل نشأته تاريخ ظهور تجارة الرقيق في المجتمعات البشرية وان يؤرخ لنشأة هذه الظاهرة منذ اقدم عصور التاريخ ، ويتسنى لنا القول بان البحث عن منشأ هذه التجارة يوقفنا على حقيقة ثابتة وهي انها لم تظهر الا عندما ظهرت الحضارات الانسانية القديمة اي عندما بدأ الانسان ياخذ باسباب التمدن وتعمير الارض ، فالمجتمعات البدائية لم تعرف هذه التجارة لانها لم تكن في حاجة اليها بل ان الانسان المتوحش الذي عاش في العصر الحجري وكان يكافح الطبيعة ويصارعها من اجل الحصول على القوت لم يعرف الرق تماما ، ولدينا صورة عن هذا الانسان ايضا في الشعوب الهمجية المعاصرة مثل سكان اوستراليا الاصليين وشعوب الاسكيمو وقبائل حوض نهر الامازون وفي وسط افريقيا وجزر المحيط الهندي (1)

---

1) وسترماك ـ مصدر الآراء الاخلاقية وتطورها ـ ج 1 ص 668
L'Origine et le dévelop. des idées morales./ Westermarck
عبد السلام الترمانيني ـ الرق ماضيه وحاضره ـ سلسلة عالم المعرفة نوفمبر 1979 ص 15

انما كان يتعاون من ابناء جنسه لصيد الحيوان واكل لحومه او للبحث عن النباتات الطبيعية حتى يقتات منها فاذا قلت موارد هذا القوت اعتدى على الضعيف تلبية لغريزة البقاء فنرى الضعفاء في هذا الصراع يقتلون حتى يفسحوا المجال لمن هم اقوى ساعدا لان قانون الغاب هو الذي كان سائدا في تلك العهود ، وكان القوى في هذا الطور من التاريخ البشري اذا انتصر في محاربته للضعيف قتله وربما اكله اذ لم يكن بوسعه ان يسترقه بما ان الاسترقاق يكلفه تحمل مؤونة الاحتفاظ بالرقيق وسدّ حاجته الحيوية وهي مؤونة يعجز عن تحملها ما دام يجد عسرا في توفير قوته الشخصي كما انه لم يشعر بالحاجة الى هذا الاسترقاق نظرا لبساطة معاشه ولوضعه البدائي الذي لا يستدعي كثرة في السواعد لتنمية الثروة فكانت الحاجة الاساسية بالنسبة اليه ازاحة هذا المنافس باعدامه والانتفاع به بصورة وحشية هي اكله ولذلك عرف هذا الطور من حياة الانسان بطور " الادامة " او اكل لحوم البشر او " الانثروبوفاجيا " (1) .

---

1) موريس لنجلي — الرق — ص 64

Maurice Lengellé - L'Esclavage -
Que Sais-je N° 667 - Presses Universitaires de France - Paris - 1955 -

ثم ان هذا الانسان المتوحش قد غير عبر التاريخ من نمـــط عيشـــه وصار لا يكتفي بما يجده في الطبيعة من موارد بسيطة وجاهزة فادرك ضرورة العمل و السعي لاعداد القوت وصار يسهر على تربيـــة الماشية ورعي الاغنام وصنع الات الصيد والقنص ونتج من هذا التغيـــر في مـعاشه تغير في علاقاتـــه الاجتماعية بغيره وامس اذا ما اعتـــدى على الغرباء والمنافسين له على رزقـــه وحاربهم يفضل استبقاءهم علـــى قتلهم ويشعر بالحاجة الى الاستعانـــة بهم على انجاز عملـــه فادرك منفعـــة استخدام الاسرى في الحروب ، وقد كان هذا التغير في صالح الاسرى كذلك اذ هو ينقذهم من الموت ويخفف من مصيرهم وحدث شبه تكافل بين الغالب والمغلوب هذا ينقذه من الموت ويسد حاجتـــه الـــى الغذاء وذاك يقدم له في مقابل ذلك خدمـــة من الخدمات ،فقد حدث اذن تطور في تاريخ البشرية حل فيـــه استغلال القوي للضعيف محل القتل وظهرت فيـــه ظاهرة الرق لاول مرة في التاريخ .

وقد صاحب ظهور الرق في هذا الطور ظهور المتاجرة بالرقيق وخضوعه لقانون المعاملات التجارية من بيع وشراء ورهن ومؤاجرة وغيرها لان الرقيق متاع يملك وتصرف فيـــه مالكـــه كما يتصرف في سائر ممتلكاتـــه

لكن تجارة الرقيق في هذا الطور لم تبلغ من الازدهار شأوا كبيرا ولم تتسع فيها رقعة التوريد والتصدير والعرض والطلب كما ظهر ذلك فيما بعد عند بروز الحضارات القديمة ، وذلك لان الانسان في هذا الطور رغم استفادته من استغلال اسراه لم يكن في حاجة الى اكثر مما تزوده به حروبه واعتداءاته لان اوضاعه الاقتصادية لم تعد بعد البساطة ولم تتجاوز حاجته اليومية والشخصية الى القوت واكتفاءه بالضروري منه ثم انه انسان غير مستقر في مكان بل هو مترحل يرتاد مواطن المرعى والقنص ولم يعهد بعد حياة الاستقرار والحضارة والتمدن فلم يكن اذن في حاجة الى طاقات بشرية كبيرة تدفعه الى التزود المستمر برقيق الشراء وربما اتفق له ان باع لجاره عبدا او اشترى منه امة ولكن ذلك لاسباب ذاتية وفي نطاق محدود لا يعدو المبادلات المحدودة ، كل هذه المعطيات تدعونا الى القول بان هذا الطور قد عاصر نشأة هذه التجارة ولم يشهد ازدهارها والسيد كان يشارك عبده العمل وكانا يستفيدان معا من ثمرة ذلك العمل ويكتفيان به ولم يكن الهدف ابعد من هذه الغاية الرامية الى التغلب على الطبيعة والتحصيل على القوت.

وكان لا بد ان ننتظر ظهور عهد ثالث من تاريخ الانسان القديم لكي نشهد فيه نشأة هذه التجارة وشعورا بالحاجة اليها وهذا العهد هو الذي اكتشف فيه هذا الانسان نمطا اقتصاديا جديدا عماده الاستقرار بالارض وتعميرها بالزراعة وتشييد البنيان وهو عهد ادى الى ظهور المدينة والى بروز الملكية الفردية واذاك دعت الحاجة الى تنمية هذه الملكية فصار الانسان لا ينتج لنفسه فحسب وانما ينتج لغيره ايضا وبذلك امسى في حاجة الى طاقات عمل كبرى تتجاوز طاقة الافراد ، فاذا نشبت الحروب استعمل الاسرى في خدمة تلك الملكية وربما صار من دواعي الحرب توفير هذه اليد العاملة ايضا ، وشهد هذا العهد ظهور نوع جديد من الرق مختلف عن الاول ويمكن ان نسميه بالرق الاستغلالي الذي تستخدم فيه جماعات العبيد لتنمية ثروات طبقة الاحرار المالكين فلم يعد السادة اذاك مكتفين بما توفره لهم الحرب من سواعد بل راحوا يبحثون عن مصادر اخرى للرق فراحوا يشترون باموالهم هذه الالات الضرورية للانتاج .

كما شهدت هذه المدينة القديمة بروز الصناعات واقامة الهياكل العظيمة وكان لا بد في ذلك من الات تقتنى بالاموال وهذه الالات كانت افواج العبيد وقد واجهت الحضارات القديمة انجاز مشاريعها هذه باسرى الحروب ولكن الحرب لم تكن دائما الحل المناسب ولم تكن ظروف هذه المدنيات تسمح بشنها في كل حين وفي الوقت المطلوب فكان لا بد من مواجهة الامر برصد الاموال لشراء الالات البشرية ويكفي ان نقول ان المنجزات الضخمة التي اقامتها الحضارات الغابرة من معابد وهياكل وطرقات ومقالع ومناجم وآبار قد قامت على كواهل الرقيق وان هذا الرقيق لم يكن دائما مؤلفا من اسرى الحروب بل ان نسبة كبيرة منه كانت ثمرة حركة تجارية.

٤) مـــــع الحضـــــارات الســـــابقـــة للاســـلام

لقـــد عـــرفت الحضـــــارات القـــديمـــة اذن اســـواقـــــا رائجـــــة للـــرقيـــق فكـــانت الدولـــة المنتصـــرة تعقـــد اســـوقـا لبيـــع اســـرى الدولـــة المغلـــوبـة لكـن الامـــر لم يكـــن مقتصـــرا على هـذا الصنف من الاسـواق المرتبـط باوقـات الغـــزو والحـرب بـــل وجـــدت في القـديم اسـواق قـارة يبـــاع فيهـا الرقيـــق المجلـــوب عـــن طـــريـق التجـــارة وقـد عرفت في القـديم اسـواق من الصنـــف الاول في حضاره ((سومـــر)) و ((عيـــلام)) و ((بـابيـــل)) و ((اشـــور)) و ((مـصـــر)) و ((الصيـــن)) و ((الهنـــد)) كمـــا نجـد هـذا الصنف من الاســـواق في ((اثينـــا)) و ((اسبارطـة)) و ((قرطـاجـة)) و ((رومـــا)) امـــا رواج الصنف الثاني من الاسـواق فيبدو متأخـرا من حيث الزمـــن وذلـك عنـــد مـا زادت الحاجـة الى الرقيـــق وصـار يجلـــب عـــن طـــريـق التجـــارة الخارجيـــة (1).

وامكاننا ان نقدم صورا خاطفـه عن هـذه التجارة في بعـــض الحضـــارات القـديمـة السابقـة لظهور الاسلام ففي عهـد الفراعنـــة

---

1) عبد السلام ترمانيني – الرقاضيه وحاضره – ص 87

بصر شلا كان الرقيق ملكا للدولة أو العائلة المالكة تقتنيه للقيام على شؤونها وكذلك لتعهد الهياكل والمعابد ولم يكن البابليون يبالون ان يكون الرقيق منهم او من غيرهم فكان الاب يبيع الابن او المتهتك اذ اجرم احدهما في حقه كما كان الزوج يبيع زوجته المشاكسة وحتى الاسرى كانوا يعاملون عندهم معاملة العبيد (1) وفي اول مملكة بابل كان العبد يوسم ويشترى ويباع وكان ثمنه في عهد حمورابي يساوي ثمن الحمار (2). ولقد كانت عادة الاسترقاق عريقة في مملكة الاشوريين وكانت تصورهم تعج بما يقتنونه من اماء وغلمان اتغاء الجمال والزينة (3) وكانوا مولعين باقتناء الخصيان شأنهم في ذلك شأن ملوك الفرس ويفضلون تكليفهم بالمهام الكبرى لعدم وجود عصبية لديهم ولحرمانهم من الاهل والولد مما يجعلهم

---

1) آدم متز - A MEZ - الحضارة الاسلامية ج ١ - ص 316
2) لاروس Larousse - الموسوعة ج 4 ص 671
3) احمد شفيق باشا . الرق في الاسلام : رد مسلم على الكاردينال لافيجري - تعريب احمد زكي باشا . طبعة مصر الطبعة 2 بدون تاريخ ص 12 . 31

اقـــل محاباة من غيـــرهم او اقـل طمـــوحـــا (1).

وكـــانت بضـاعـة الرقيـــق معـــدودة عنـــد العبـرانييـــــن منـــذ القـــديـــم من اصـــول الثـــروة واسبـــاب الغنـي ومستعطـة اداة من أدوات الخـــدمة او متـاعـا للمتعـة والزينـــة وقـد جـاء في التـــوراة مـا يـدل على شـرعيـة هـذه التجـارة والحث عليهـــــا ومـن ذلـــك هـذه الآيـة الواردة في الاصحـاح الخامس والعشرين مـــن العهـــد القـديـــم ((وامـــا عبيـدك وامـــاؤك الذين يكـــون لـــك فمـــن الشعـــوب الذين حولكـم منهـم تقتنـــون ومـن عشـائـــرهـم الذين عنـدكـم الذين يلـــدونهـم في ارضكـم فيكـــونـــون ملكـــا لكـــم تستملكـــونهـم لابنـــائكـم من بعـدكـم ميـراث ملـــك تستعبـدونهـم الى الدهـــــر))(2) وعـديـدة هي الايـات التي تنص على الرقيـق ((الذي يشتـــرى بالمـال)) للتمييـــــز بينـــه وبين مـــا ((يولـد في البيت))(3) فضلا عن صـادر الرق الاخـرى عنـدهـم مثـل الدين والجريمة والحـرب (4) والتي كـانت موردا ثـريا لهـذه البضـاعـة وعـامـلا من عـوامـل رواجها

---

1) لاروس الموسوعة ج 4 ص 800
2) العهـد القـديم سفر الاصحاح 25 الايـــة 44
3) راجع الاصحاح 20 من العهـد القـديم
4) محمود محمد سيد ـ الاسلام يحارب التفرقة العنصرية القاهـرة 1962 ص 11 . 12

وقد اتخذ الفرس من الامم التي تغلبوا عليها وخاصة الاتراك موردا من موارد جلب الرقيق الذي كانوا في حاجة اليه سواء للزينة او الرعي والفلاح او لخدمة معابدهم وهياكلهم مثل معبد الاله (اناهيد) او (انايتس) بارمينية و مثل هيكل مدينة ((كوماني)) (1) وكان الفرس يشترون الرقيق التركي ويبيعونهم ويتهادونهم مع الملوك الروم ويعتبرون ابناء الاماء منهم من انفس اصناف الرقيق فمن ذلك ما ذكره المسعودي من ان «ابرويز» ملك الفرس اهدى الى «موريقس» ملك الروم مائة غلام من ابناء اراكنة الترك على غاية من الجمال في اذانهم اقراط الذهب فما كان من ملك الروم الا ان اهدى له مقابل ذلك عشرين جارية من بنات ملوك برجان والجلالقة والصقالبة وغيرهن من بنات الشعوب المجاورة المملكة الرومانية (2).

وكانت لتجارة الرقيق مكانة في الحضارة اليونانية اذ كان اليونانيون فضلا عن استعبادهم للشعوب المغلوبة وغارات قراصنتهم على السواحل يستخدمون رقيق البيع والشراء وقد كانت المستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى اسواقا عظيمة لبيع العبيد وشرائه وكانت

---

1) احمد شفيق باشا ـ الرق في الاسلام ص 12- 31
2) المسعودي ـ مروج الذهب ـ طبعة مصر (في جزاين)
1304 هـ ـ ج 1 ص 119

لاثينا نفسها سوق يقف فيها العبيد مجردين ليقع فحصهم وهي من اهم هذه الاسواق لا يزاحمها في ذلك مزاحم لقربها من موارد الرقيق مثل جزيرة قبرص - Chypre وسامسوس - samos - وصاقس - saxe . وقد قيل ان سكان جزيرة صاقس - saxe . هم اول من اتجر بالرقيق . وقد ظهرت اسواق اخرى في الجزر اليونانية مثل كريت - Crète - وردس Rhodes وكانت جزيرة ديلوس - Délos - من اشهر هذه الاسواق (1) اذ كانت خلال القرن الثاني قبل المسيح تصدر عشرة الاف عبد يوميا نحو بلاد الغرب (2). وكانت الدولة تشتري فريقا من الارقاء لخدمة شؤونها كحفظ الامن وحفارة المدينة بينما يستخدم الناس الرقيق في شتى شؤونهم ويتاجرون فيه ويرهنون ويرتهنون كما يضعون مع غيره من البضائع وقد انعكس هذا التصرف فيراء فلاسفة اليونان مثل افلاطون وارسطو الذين يعتبران الرق مظهرا طبيعيا في حياة البشر بل عطية ضرورية للاقتصاد والعمران

---

1) عبد السلام ترمانيني - الرق ماضيه وحاضره - راجع خاصة ص87

2) لاروس الكبير - الموسوعة - ج 4 ص 671

اذ لاحضارة عندهما بدون آلة تعمير والرقيق ((الآلة ذات روح او متاع قائمة به الحياة)) une machine animée (1) عليه المعول في الحرف والمهن لان الاحرار كانوا يرون الاعمال اليدوية تحط من قدرهم وتمنعهم من التفرغ للمشاغل السياسية (2).

وقد عرف الرومان تجارة الرقيق منذ اقدم عهودهم بروما وقد ازدهرت هذه التجارة خاصة منذ بداية التوسع الروماني اي منذ القرن الثالث قبل الميلاد اذ تدفقت افواج الرقيق بسبب تغلبهم على الشعوب المجاورة لهم وتضاعف الطلب على هذه البضاعة لاستعمالها في خدمة الحقول الشاسعة ولم يكن مصدر هذا الرقيق الحرب فحسب بل وجدت مصادر اخرى مثل الوراثة والزواج والاختطاف والدين وغير ذلك مما زاد في تكاثر هذا الرقيق

---

1) احمد شفيق باشا ـ الرق في الاسلام رد مسلم على الكاردينال لافيجيري ـ تعريب احمد زكي باشا طبعة 2 مطبعة الاعتماد بمصر بدون تاريخ ص 12 ـ 31

2) محمود محمد سيد ـ الاسلام يحارب التفرقة العنصرية القاهرة 1962 ص 15 ـ ارسطو ـ كتاب السياسة ـ ترجمه احمد لطفي السيد ـ القاهرة 1947 ص 102 افلاطون ـ الجمهورية ـ ترجمه الدكتور فؤاد زكريا ـ القاهرة 1968 ـ الفقرة 433 ـ 434

حتى كان عددهم بروما في عهد ((تراجان)) Trajan (98-117 م) اربعمائة الف راس كما تدل ثوراتهم سنة (185 ق.م) باتروريا etrurie وسنة (131 ق.م) بصقلية وسنة (78ق.م) بقيادة سبوطاكوس sparracus على كثرة عددهم (1)

وهكذا نشط هذا النوع من التجارة عندهم فكانت الاف الاسرى تباع باثمان بخسة عند الانتصارات العظيمة واكتسب النخاسون ثروات كبيرة وارباحا طائلة وان كانت تجارتهم مخلة بالشرف وكانت العادة بروما تقتضي ان يباع الرقيق بالمزاد في الاسواق حيث يوقف العبد او الامة على حجر مرتفع حتى يتسنى لكل من اراد ان يراه ويمسه بيده ولو لم يكن راغبا في الشراء وقد يطلب المشتري رؤية الارقاء عراة تماما احتياطا من وجود الفرالتي كان النخاسون يستعملونها . وكان الرقيق المتعلم والجميل اثمن انواع الرقيق لاستعمال النوع الأول في اغراض ثقافية مثل تشخيص الروايات والثاني في تجارة البغاء (2).

---

1) لاروس الكبير Grand Larousse الموسوعة ج 4 ص 671

2) احمد شفيق باشا ـ الرق في الاسلام ص 12 ـ 31

الفصل الثاني

عند العرب قبل الاسلام

العرب وتجارة الرقيـــق
قبل الاســـــلام

ان كثيرا من شؤون الحياة العربيـة قبل الاسلام لا تزال طي الغموض وما نعرفـه منها لا يتعدى بعض الجوانب المحددة في الزمـــان والمكان ولا نكاد نتبين التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في هذه العهـــد على وجـه التحقيق واذا ما كان هذا الاعتبار صحيحا بصورة اجماليـــة لقلـة المصادر المعاصرة للحياة الجاهليـة فاننـا نزداد تاكدا من صحته بالنسبـة الى تجارة الرقيـق على وجـه الخصوص، ولعل اكثر المعلومات التي لدينـا حول هذه النقطـة لا تعدو ان تكون بعض الدلائل والقرائـــن الخاصة بالناحيـة الغربيـة والجنوبيـة من الجزيرة العربيـة اى الحجـــاز واليمن وبعض الامارات الشماليـة التي كانت تابعـة لبني لخم المناذرة بالحيرة وبني جفنـة الغساسنـة وهي جميعا مناطق حضريـة بالجزيرة تختلف بلا ريب عن المناطق الاخرى البدويـة التي نجهل عنها كل شيء تقريبـا فعليـنا لذلك ان نتحاشى تعميم احكامنـا على كامل شعوب هذه المنطقة من ناحيـة وان نتجنب اطلاق هذه الاحكام على شتى العهود التي مرت بها بلاد العرب قبل الاسلام لوجود اختلافات نوعيـة بينها على صعيـــد الزمان والمكان وينبغي ان ننتبـه منذ الان الى اننا نركز اهتمامنـا علـى فترة قصيرة نسبيـا وهي العهد السابق مباشرة لظهور الدعوة

الاسلامية وهي فترة لا يمكن ان تتجاوز القرن او القرن ونصف ونحصر معلوماتنا في حيز جغرافي محدد هو بجنوب الجزيرة وغربها وشمالها.

ومن الحقائق المسلم بها بادئ ذي بدء هي ان المجتمع الجاهلي مجتمع استرقاقي كسائر المجتمعات القديمة المعاصرة له اذ كان فيه استخدام الرقيق في العديد من شؤون الحياة وخاصة منها الحرف والمهن التي كان العرب يستنكفون من ممارستها ويشتقون اسمائها من المهانة كما يدل على ذلك الاصل اللغوي فكان من هؤلاء العبيد من يشتغل لخدما او حجاما او حدادا كما كانوا يستعملونهم في حراسة قوافلهم التجارية في طريقها من اليمن الى الحجاز الى الشام فكان هذا الرقيق كثيرا في المدن والمراكز التجارية التي تزدهر فيها الصنائع والاشغال اما مصدر هذا الرقيق فقد كان يتمثل في استعباد الاسرى الذين تسفر عنهم غارات القبائل على جيرانها وعلى بعضها بعضا وهم اسرى كانوا يباعون في الاسواق رقيقا. كما يتمثل هذا المصدر في استيراد الرقيق عن طريق القوافل من ناحيتين على الاقل وهما ~~xxxxx~~ الشمال والشرق فقد كانت هذه القوافل تستورد العبيد من الشام ومصر في جملة ما تستورده من بضائع الى الحجاز وكانت هذه العادة قديمة يرجع عهدها الى قصة يوسف المذكورة

في الكتب المقدسة (1) كما كانت العلاقات التجارية بين غرب الجزيرة وجنوبها وسواحل شرق افريقيا متينة منذ عهد المعينيين والسبئيين والحميريين مما سمح بتبادل تجاري بين اليمن والحجاز وبلاد الحبشة وما حولها من بلاد السودان (2) ويبدو ان الامارات العربية التي نشات في شمال الجزيرة كامارة المناذرة وامارة الغساسنة قد اخذت بطرف من هذه التجارة كما سوف نرى .

وفي الجملة يعتبر اهتمام العرب بالتجارة واضطلاعهم بدور الوسيط التجاري عاملا من العوامل التي لعبت دورا في نشاط تجارة الرقيق عندهم اذ من المعلوم انهم اشتهروا بانواع التجارات وقد وصفت كتب اليونان والرومان غنى بلادهم وثرواتها واموالها المتاتية من هذه التجارات فقد كانوا يقصدون غزة وهي اذاك مركز تجاري كبير ويحملون اليها بضائعهم وبصائع الهند وافريقيا ويشترون مايرد على غزة من حاملات اليونان وايطاليا ومصر (3).

---

1) عبد السلام ترمانيني ــ الرق ماضيه وحاضره - ص 50
2) السيد عبد العزيز سالم ــ تاريخ الدولة العربية ــ دار النهضة العربية ــ بيروت 1971 ص 47 ــ 64
3) جواد علي - تاريخ العرب قبل الاسلام - ج 3 ص 326 - 328

واذا ما كان عرب الجنوب قد عرفوا بهذا النشاط واسسوا المدن التجارية كمدينة يثرب لتكون احدى محطات القوافل الذاهبة نحو الشمال (1) فان عرب الحجاز لم يكونوا اقل نشاطا في هذا الميدان وخاصة منهم اهل مكة الذين اشار القرآن الى تجاراتهم (2) فبعد ان انحسر سلطان عرب اليمن عن غرب الجزيرة امكن لقريش ابراز مواهبها التجارية والقيام بمهمة الوسيط التجاري بين اليمن وبلاد الشام مرورا باهم المراكز التجارية مثل ((بصرى)) وهو ما كان مشهورا عندهم برحلتي الشتاء والصيف (3) وقد ذاع صيت عائلات تجارية عندهم مثل اسرة بني عبد مناف المعروفين باصحاب الايلاف وهم اربعة اخوة انتشروا في الاقاليم من اجل التجارة ومنهم هاشم الذي ارتحل الى الشام ليتاجر مع الغساسنة وعبد شمس الذي استقر بالحبشة ليسهر على تجارتها مع العرب والمطلب الذي تاجر مع اليمن ونوفل الذي عرف بتجارته مع الفرس (4).

---

1) يستفاد ذلك من كتابات المسند
2) القرآن ــ سورة: قريش - آية - 1-4
3) لامنس H.Lammens.مكة قبيل الهجرة ص 26
4) السيد عبد العزيز سالم ــ تاريخ الدولة العربية ص 249 ــ 253

٨) تجارة الرقيق الابيض :

كان العرب قبل الاسلام يمارسون تجارة الرقيق بنوعيه الابيض والاسود وكان الرقيق الابيض عندهم مختلف الاجناس وان كان اقل اهميـــة من حيث العدد من الرقيق الاسود (1) وترجع المتاجرة بالرقيق الابيـــض عندهم الى عهود قديمـة اذ يبدو من خلال التوراة ان السبئيين قد كانوا يشترون السبي من العبرانيين ويستوردونـه من فلسطين ثم ينقلونـه الـى بلادهم للاستفادة منـه فيتخذون الاماء الجميلات زوجات لهم والقويـات للخدمـة ويكلفون الذكور من هذا الرقيق بالاعمال المختلفـة التي تحتـاج الى قـوة وذكاء ومهارة وفن و اتقان (2) وقد ورد في الاصحاح الثالـــث من الايات ما يشير الى هذا النشاط التجاري ومنها هذه الآية : " وابيع بنيكم وبناتكم بيد بني يهوذا ليبيعوهم للسبئيين لامـة بعيدة لان الـرب قد تكلم " (3).

وكانت قوافل الحجاز التجارية تقصد بلاد الشام والعـــراق وتؤوب من المقاطعات الخاضعة للروم والفرس بجملـة من الاسارى البيض مـن

---

1) برنشفيك Brunschvig مقال عبد ــ دائرة المعارف الاسلاميـة . ح ١ ص 25
2) جواد علي ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ج 3 ص 109 ص 120
3) التوراة ــ الاصحاح الثالث ــ الآيـة 8 (يوئيل)

اصل فارسي او رومي لتبيعهم بعد ذلك ببلاد العرب وكانت هذه العمليات التجارية يمارسها تجار الرقيق منذ قصة يوسف التي رواها الانجيل ثم القرآن (1) وتواصلت الى الفترة السابقة مباشرة لظهور الاسلام وقد ساعد على نشاطها دور قريش التجاري وهو دور الوسيط بين البلدان الواقعة شمالي الجزيرة وعرب الجنوب (2) كما يبدو ان الامارات العربية القائمة بشمال الجزيرة والموالية للسلطة الفارسية والرومية كامارة الغساسنة وامارة المناذرة لم تكن بمعزل عن المشاركة في هذه التجارة واقتناء ما تحتاج اليه من رقيق كما سوف نرى (3).

ولم يكن الرقيق الابيض عند العرب قبل الاسلام من اصل اعجمي فحسب بل كان لديهم رقيق عربي الاصل ناشيء عن غارات القبائل على بعضها بعضا وقد يكون لهذا الرقيق مصادر اخرى غير الغارات الا انه لا حجة لدينا على وجود استرقاق بسبب الديون او على بيع الاطفال من قبل عائلاتهم سوى بعض الاخبار التي اوردها صاحب الاغاني والتي لا يمكن اعتبارها مستندا قطعيا لانه يوردها في سياق المعاملات التي كانت تعتبر مستكرهة (4).

---

1) برنشفيك Brunschvig مقال عبد . دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص 25

2) السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ص 249ـ253 - لامنس H. Lammens مكة قبيل الهجرة ص 26

3) السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ص 157 وص 216

4) برنشفيك Brunschvig مقال عبد ـ دائرة المعارف الاسلامية. ج ١ ص 25

ويمكننا ضرب بعض الامثلة على وجود كل صنف من هذه الاصناف فنحن نجد عند العرب الرقيق الفارسي وفي قصة اسر سلمان وبيعه ما يدل على هذا الجانب اذ يروي ان سلمان كان من اهل اصبهان وان اباه كان دهقان قريته وتذكر الروايات انه انتقل الى الشام ثم اتصل بنفر من بني كلب كانوا تجارا فاعطاهم بقره وغنمه على ان يحملوه الى بلاد العرب، فلما وصلوا به الى وادي القرى ظلموه وباعوه من يهودي من بني قريظة فاشتراه منهم وحمله الى المدينة (1) ومما يروي ايضا ان سالما مولى ابي حذيفة بن عتبة اصله من اصطخر وكان مملوكا لبثينة امرأة ابي حذيفة (2) وكان للمناذرة بالحيرة حظ من هذا الرقيق وكان منه في قصورهم مغنون ومغنيات يجلبونهم ويغالون في اثمانهم (3).

ونجد عند العرب رقيقا من اصل رومي فقد ذكر البلاذري من بينهم الازرق والد نافع بن الازرق الخارجي وقد كان عبدا روميا حدادا كما ذكر عبدا روميا بالطائف يقال له عبيد تزوج سمية امة الحارث

---

1) ابن هشام ــ السيرة - ط.مصر - ١٣٣٤ هـ/ ١٩١٤ م - ج 1 ص ١٤٤ وما بعدها
2) جرجي زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 21 ــ ابن قتيبة ــ المعارف مصر 1300 هـ ص 92
3) السيد عبد العزيز سالم ــ تاريخ الدولة العربية ص 215

ابن كلدة الثقفي طبيب العرب (1) واورد ابن هشام اسم غلام لعتبة وشيبة ابني ربيعة يقال له عداس وكان نصرانيا من نينوي (2) وتشير المصادر الى رواج القيان الروميات في بلاط الغساسنة وقد وصف حسان بن ثابت مجلسا من مجالس جبلة بن الايهم ايام كان اميرا الغساسنة فقال " لقد رايت عشر قيان: خمس روميات يغنين بالرومية بالمرابط وخمس يغنين غناء اهل الحيرة اهداهن اليه اياس بن قبيصة وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها " (3) .

وكان بمكة جالية من تجار الروم والاقباط يجلبون اليها عدة بضائع ومنها الرقيق وكانت قريش تفرض عليهم الضرائب والعشور (4) وقد اتخذ بعض هؤلاء الروم موالي من اشراف مكة مثل نسطاس مولى صفوان بن امية (5) وبوحنا مولى صهيب الرومي وكان صهيب نفسه قد اسر بارض الروم فاشترى منهم ثم اسلم (6) وتدل اخباره على وجود امثاله من اسرى الروم عند العرب وعلى طريقة اقتنائهم لهم ويروي ان الرسول قال عنه انه " سابق الروم " كما قال عن

---

1) البلاذري ـ انساب الاشراف ص 489ـ490 ـ راجع أيضا = فتوح البلدان ج 1 ص 65
2) ابن هشام ـ السيرة ـ ج 1 ص 262
3) الاصفهاني ـ الاغاني ج 16 ص 26 ـ طبعة بيروت 1956
4) الازرقي ـ اخبار مكة ج 1 ص101 طبعة مكة 1352 هـ ـ قطب الدين النهروالي ـ الاعلام باعلام بيت الله الحرام ـ تحقيق وستنفلد Wüstenfeld ـ ليبزج Leipzig 1857 ص 50
5) الاصفهاني ـ الاغاني ج 4 ص 76 طبعة بيروت 1956
6) ابن هشام ـ السيرة ج 1 ص 280 طبعة القاهرة ـ 1946 ـ 1955 .

بلال " سابق الحبشة " وكان صهيب مولى لعبد الله بن جدعان حسب ما تذكره بعض الروايات (1) وكان رجلا احمر شديد الحمرة (2) اشترته قبيلة كلب ثم باعته بمكة، ولديدا مثال آخر على وجود رقيق اعجمي من اصل تركي وهو مثال سمية ام عمار بن ياسر التي كانت مولاة لابي حذيفة بن المغيرة عم ابي جهل وقد قتلها ابو جهل بعد الاسلام فاعتبرت اول شهيدة (3) ومما يذكر عنها انها تركية الاصل وقعت في الاسر خلال الحروب التي دارت بين الترك والفرس ثم طوحت بها الانتقالات الى الطائف (4) ولم يكن الجنس العربي مستثنى من بين اجناس الرقيق التي كان العرب القدامى يتاجرون فيها فقد كان استرقاق العربي نتيجة الاسر الذي تسفر عنه غارات القبائل على بعضها بعضا وذلك بالرغم مما عرف عن العرب من تبادل للاسرى

---

1) نجد رواية اخرى تذكر انه من النمر بن قاسط اسر بارض الروم ثم اشتري منهم: ابن هشام - السيرة - مصر - 1936/1355 - ج 1 ص 160

2) الذهبي - سير اعلام النبلاء ج2 ص 10-16 يقول شمس الدين الذهبي في سير اعلام النبلاء "هو ابو يحيى النمري من النمر ابن قاسط ويعرف بالرومي لانه اقام في الروم مدة وهو من اهل الجزيرة سبي من قرية (بيلون من اعمال الموصل)"

3) السهيلي (ابو القاسم) - الروض الانف - ج 1 ص 203

4) البلاذري - انساب ج 1 ص 489 -

كتابجي (زكريا) - الشرك في مؤلفات الجاحظ - ص 97-98

اثر الغزو ، فكثيرا ما يلقى الجاهليون اسراهم بعد الغارة بعيدا عن مواطنهم ثم يؤمون بهم الاسواق فيبيعونهم كما تباع سائر البضائع ، وتذكر كتب السيرة بيتا من الشعر يصف بيع الاسرى بعد الحرب وهو بيت قيل على لسان احد المسلمين اثر غزوة احد يقول :

فلولا الحارثيـة اصبحوا يباعون في الاسواق بيع الجلابب (1)

ومن الادلة الساطعة على وجود هذا الجنس من الرقيق عندهم قصـة زيـد بن حارثـة الكلبي اذ تتفق كتب السيرة على ان ام زيد وهي سعدى بنت ثعلبـة احدى نساء قبيلـة طيء قد خرجت بـه لزيارة اهلهـا فاصابتـه خيل من بني القين بن جسر فباعوه بسوق حباشة وهي من اسواق العرب وكان عمر زيد يومئذ ثمانيـة اعوام (2) وتذكر كتب السيـرة ايضا ان حكيم بن حزام بن خويلـد اشتراه ثم وهبـه لخديجـة بنت خويلـد فاستوهبـه الرسول منها وهي اذاك زوجـه ولم يكن الوحـي قـد نزل عليـه بعد ، ويروى ايضـا ان حارثـة اتى زيـد جزع عليه

---

1) لامنس - H. Lammens - غرب الجزيرة - ص 259

2) السّهيلي - الروض الانف ج 1 ص 164 - ابن هشام - السيرة - ط مصر ١٣٣٦هـ/١٩١٨م ج 1 ص 164 ((يذكر ابن سعد ان زيدا بيع بسوق عكاظ = الطبقات الكبرى ج - ١ - ص ٢٠٤))

وقدم على الرسول يريد استرجاعه منه فاختار زيد البقاء ورفض الرجوع مع ابيه (1) ولسنا في مقام احصاء هذا الرقيق العربي لانها عملية متعذرة لكننا نعتبر وجودهم امرا مؤكدا وفي انتساب بعضهم ما يوحي بهذا الاصل مثال انتساب عامر بن فهيرة الذي اعتقه ابو بكر (2) .

ولا يخفي ايضا ان نهي عمر بن الخطاب عند استرقاق العربي بقوله "ليس على عربي ملك" يدل على وجود هذه العادة قبل الاسلام (3) .

ويورد كتاب الاغاني رواية تصف لنا ما يصيب العربي من سبي يؤدي به الى الرق ثم الى البيع ويشرح الظروف التي ادت بعمر الى النهي عن هذه العملية فمن ذلك " ان ابا وجزة لحق اباه عبيدا - وهي صبي - سباء في الجاهلية فبيع بسوق ذي المجاز فابتاعه رجل من سعد واستعبده فضرب عبيد هذا يوما ذرع ساقة لمولاه

---

1) المصدر نفسه

2) السهيلي - الروض الانف ج 1 ص 203 (شهد ابن فهيرة بدرا واحدا ومات في بئر معونة شهيدا = ابن هشام - السيرة - ط - مصر 1936/1355 م - ج 1 ص 144)

3) ونسنبك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد - ج 1 ص 25 - وهبة زحيلي - آثار الحرب - ص 441

فادماه فلطم المولى وجه العبد فخرج عبيد الى عمر مستعديا فلما قدم عليه قال : " يا امير المؤمنين انا رجل من بني سليم ثم بني ظفر اصابني سباء في الجاهلية كما يصيب العرب بعضها من بعض وانا معروف النسب وقد كان رجل من بني سعد ابتاعني فاساء الي وضرب وجهي وقد بلغني ان لاسباء في الاسلام"

فما فرغ من كلامه حتى كان مولاه قد اتى عمر على اثره فقال : "يا امير المؤمنين هذا غلام قد ابتعته بذي المجاز وقد كان يقوم في مالي فأساء فضربته ضربة والله ما اعلمني ضربته غيرها قط وان الرجل ليضرب ابنه اشد منها فكيف بعبده وانا اشهدك انه حر لوجه الله " فقال عمر لعبيد " انه لا سباء على عربي وان هذا الرجل قد استرنّ عليك وقطع عنك مؤونة البيئة فان احببت فاقم معه فله عليك منة وان احببت فالحق بقومك " فاقام عبيد مع السعدي وانتسب في بني سعد بن بكر بن هوازن"(1) فاذا اذفنا

---

1) الاصفهاني - الاغاني ج 11 ـ ص 75 راجع أيضا - سعيد الافغاني - اسواق العرب ص 351 ـ 352

الى هـذه الادلـة ان اغلب المهاجريـن عند اضطـهاد المسلمـين بمكـة قد كانوا حسب الروايات اما مولدين او ولدوا رقيقـا وانهـم كانـوا عربـا امكننـا ان نستنتج ان اغلبيـة الرقيـق الابيض فـي العصر الجاهلـي كانـوا من العرب وليسوا من الاجانب (1) ومـن المفيـد ان نضيف اننـا نرجـح ان يكون هذا الرقيـق العربي المبيع صغير السن اذ لم يكن من السهل عمليـا الاحتفاظ باسير ذكر بالغ والانتفـاع بـه لانـه كان بامكانـه الهروب.اما صغير السن والبعيد عن موطنـه او المولود في الرق فيعسر عليـه ذلك الا انـه ليس هناك ما يمنع بيع الرجل البالغ الراشـد والدليل عليـه هو بيع بني لحيـان بعض اسرى المسلمين لاهل مكـة وذلك سنـة (2 - 3 هـ/624-625م) (2).

لكن شـتى هذه الاجنـاس من العبيـد قد كانت قليلـة العدد اذ قورنت بالرقيـق الاسـود الذي كان يمثل اغلبيـة الرقيـق في الجزيرة .

---

1) يرى برنشفيك Brunschvig (ع . م . إ ح 1 ص 25) العكس اذ يرجح ان يكون الرقيق الاجنبي اكثر عددا من العربي ويخالفـه وات W M. Watt - في هذا الراي انظر (محمد بالمدينـة ص 357)

2) وات - W M Watt - محمد بالمدينـة Mahomet Medine ص 356 - 360

2) تجارة الرقيق الاسود

لقد وجد الرقيق الاسود عند العرب منذ عصور قديمة فمما يروي عن الملك سيف بن ذي يزن انه تمكن باعانة الفرس من اخراج الاحباش من بلاده واستطاع ان يجعل منهم رقيقا وان يتخذ منهم حرسا وان كان هؤلاء العبيد هم الذين تآمروا عليه وقتلوه (1) يقول حمزة الاصفهاني : " لم يقض سيف بن ذي يزن نهائيا على الاحباش وانما استبقى بقايا منهم بالغ في اضطهادهم واستذلالهم وذكروا انه اتخذ منهم عبيدا حرابة يمشون بين يديه بالحراب اذا ركب واتفق ان اختلوا به يوما في متصيد له فزرقوه بحرابهم فقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال " (2).

وقد كان اهل اليمن منذ عهد الحميريين يمارسون القرصنة بالبحر الاحمر والسواحل الافريقية الشرقية ويأسرون ما يقع با يديهم من الافارقة السود فيستعبدونهم وقد امكنهم ان يبسطوا نفوذهم حتى

---

1) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ـ ج 2 قسم 1 ص 957ـ958 المسعودي ـ مروج الذهب ج 2 ص 87 ـ حمزة الاصفهاني-تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ص 91ـ92 السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ص 89 ـ 95 طبعة بيروت 1975

2) حمزة الاصفهاني - تاريخ سني ملوك الارض والانبياء- ص 90

ساحل عزانيا في افريقيا (1) مما اثار نزاعا اقتصاديا بينهم وبين الحبشة وبينهم وبين الروم.

ولم تكن عمليات العنف هذه المصدر الوحيد لهذا الرقيق الحبشي المؤلف من الاحباش والزنوج الافارقة بل كان للعلاقات التجارية بين اليمن والساحل الافريقي دورا ايضا في توفير هذه البضاعة خصوصا بعد ان استطاع عرب الجنوب التمركز بجزيرة "لامو" (2) و "الزيلع" (3) المطلتين على المحيط الهندي وخليج عدن والانطلاق منهما الى داخل البلاد الافريقية للمتاجرة وشراء الاسرى السود الذين غالبا ما كانت الغارات بين القبائل الافريقية تسفر عنهم (4).

وبذلك اصبحت اليمن حسب قول المقدسي معدن "الرقيق والحبش والخدم" (5) اي سوقا رائجة لهذه التجارة وكانت عدن على وجه الخصوص

---

1) جواد علي ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ ج 3 ص 138 ـ السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ص 58ـ64
2) مجموعة جزائر لامو تقع شمال شرق كينيا على الساحل المطل على المحيط الهندي
3) كانت تسمى (سوق قوبش) تطل على خليج عدن وقد جاء اليها العرب ومنها انطلقوا نحو الداخل
4) الشاطر بصيلي عبد الجليل ـ تاريخ وحضارات السودان الشرقي والاوسط ص21 وص 34ـ35
5) المقدسي ـ احسن التقاسيم ص 97

تشهد تبادلا تجاريا لهذه البضاعة مع الحبشة والهند فقد وجدت في العهد الذي عاصر ظهور الرسول سفن عربية تنطلق من موانى اليمن الى الهند محملة بشتى انواع البضائع ومنها رقيق الحبشة لتستبدله بحرائر الهند وخزف الصين واقمشة كشمير ومختلف اصناف التوابل كما كان الهنود ياتون بانفسهم الى شواطئ الجزيرة العربية ليقوموا باستبدال بضائعهم بالعاج والتبر والعبيد وغيرهما مما يجلب من السواحل الافريقية وهكذا كانت عدن مركزا للتجارة الخارجية ومعبرا لبضاعة العبيد من الغرب الى الشرق (1).

وكان لبلاد الحجاز دور في جلب الرقيق الحبشي لا يقل اهمية عن دور اليمن وذلك لقدم العلاقات التجارية بين موانئ الحجاز وبلاد الحبشة ومن بين هذه الموانى ميناء الجار (2) الذي كان تجار العرب ينطلقون منه نحو سواحل افريقيا الشرقية وقد وصفه ياقوت بقوله : "فرضة ترفأ اليها السفن من ارض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند ... وبحذاء الجار جزيرة في البحر تكون ميلا في ميل لا يعبر اليها الا بالسفن وهي مرسى الحبشة خاصة يقال لها قراف وسكانها

---

1) جوستاف لوبون ـ Gustave Lebon ـ حضارة العرب ص 435 ـ 436

2) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ طبعة دي غوية ـ M.J. De Goeje المكتبة الجغرافية ج 7 ص 313 ليدن 1391

تجار كنحو اهل الجار " (1) وكانت بالحبشة جالية من التجار العرب استقروا بها قبل الاسلام لاغراض تجارية واذا ما التجأ المهاجرون في عصر الرسول الى الحبشة عندما ضاقت بهم السبل فلان علاقة العرب بتلك البلاد كانت وطيدة ومن مظاهر توطد تلك العلاقة اطلاقهم اسم (متجر قريش) او (سوق قريش) على جزيرة متاخمة لساحل الحبشة وواقعة بين جيبوتي والزيلع وهي المنطقة التي صارت تسمى في العصور الحديثة بر سعد الدين وتمتد من الساحل الى داخل اثيوبيا وقد كانت ملجأ للمسلمين من موجات الذعر التي صاحبت حروب الردة ومهربا لهم في ازمات اخرى حدثت فيما بعد (2) .

وهكذا كان العرب قبل الاسلام سواءا بجنوب الجزيرة او شرقيها متصلين وثيق الاتصال بسواحل بلاد السودان الممتدة من عيذاب شمالا الى سوفالة جنوبا وكانوا يتاجرون مع الحبشة والصومال وبلاد الزنج المطلة على المحيط الهندي وقد يغامر بعضهم داخل البلاد الافريقية من اجل

---

1) ياقوت ــ معجم البلدان ــ طبعة بيروت 1955ــ مجلد 2 ص 93 مادة الجار
2) الشاطر بصيلي عبد الجليل ــ تاريخ وحضارات السودان الشرقي والاوسط من القرن 7 م الى القرن 19 م طبعة مصر 1972 ص 34 ــ 35 وص 187

الربح واقتناء البضائع المطلوبة كالعاج والتبر والرقيق (1) فلا غرو اذن اذا ما كان اغلب الرقيق الموجود بمدن الحجاز مثل مكة قبيل الاسلام وفي عصر ظهور الرسول من العبيد السود والاحباش على وجه الخصوص وقد كان لشهرة مكة التجارية يد في نشاط هذه التجارة التي تسببت في ثراء التجار الكبار من قريش مثل عبد الله بن جدعان وابي احيحة والوليد بن المغيرة المخزومي وابي سفيان وغيره (2).

ومن الواضح اذن ان تجارة الرقيق الاسود قد كانت نشيطة باليمن والحجاز الى حين ظهور الاسلام ولعلها كانت اهم بكثير من تجارة انواع الرقيق الاخرى (3) فاغلب الرقيق الموجود بتلك الربوع يتمثل في عبيد من اصل حبشي (4) وقد يكون السر في الاقبال على هذا النوع من العبيد قوة بدنه على العمل ورخص اثمانه (5) وكان اكثرهم مستقرا بالمدن التجارية مثل مكة وفي الجملة لم يكن شريف من اشراف العرب يخلو منزله

---

1) المرجع نفسه ص 20ـ21
2) السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ص 249ـ255
3) برنشفيك Brunschvig ـ مقال عبد ـ دائرة المعارف الاسلامية ج 4 ص 25 ولامنس H Lammens غرب الجزيرة ـ L'Arabie occidentale ص 256
4) برنشفيك ـ Brunschvig مقال عبد ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ ج 4 ص 33
5) جواد علي ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ ج 3 ص 138ـ140.

من عبيد يستعملهم في حاجيات منزله ، فعبد الله بن ابي ربيعة كان له عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع المهن وكان عددهم كثيرا وفيهم من يخرج للحرب (1) ومن هذا الرقيق الاسود على سبيل المثال اسلم (2) ومهجع (3) وكل منهما مولى لعمر بن الخطاب ووحشي بن حرب مولى بني نوفل وجليبيب الذي زوجه الرسول انصارية (4) ومن المرجح ان بعض هؤلاء العبيد قد كانوا معتنقين للمسيحية بحكم جلبهم من الحبشة حيث انتشر هذا الدين (5).

كما اتخذ العرب اماءاحبشيات فانجبن لهم عبيدا مثل زبيبة ام عنترة ولعل احسن دليل على وفرة هذه البضاعة عند العرب قبل الاسلام ما يروى من ان ذا الكلاع ملك حمير اصطحب معه عندما وفد على ابي بكر الف عبد (6) وكانت هذه الوفرة سببا من الاسباب التي جعلت كلمة "عبد" العربية تعنى في الغالب الرقيق الاسود بعد ان كانت تدل على

---

1) جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 20 - راجع = الاصفهاني - الاغاني ج 1 ص 39 - (طبعة - بولاق - 1285 هـ)
2) سعيد الافغاني ـ اسواق العرب في الجاهلية والاسلام ص 352
3) الجاحظ ـ رسالة فخر السودان على البيضان - ص 180
4) المصدر نفسه ص 180 ـ 181
5) لامنس H. Lammens غرب الجزيرة L'Arabie occidentale - ص 291
6) الاصفهاني ـ الاغاني ـ ج 3 ص 20 طبعة بولاق 1285 هـ (في عشرين 20 جزءا) جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ص 20

كل من وقع تحت نير العبودية فقيل في البداية "عبد اسود" و "عبد حبشي" ثم وقع الاقتصار على كلمة "عبد" للدلالة على المملوك الاسود ونعت المملوك الابيض بنعوت اخرى مثل "آدمي" كما استعملت نعوت اخرى مثل رقيق ومولى (1).

وكانت ابرز مجموعة بمكة من هؤلاء العبيد طائفة من الصنائع والشذاذ عرفوا بعبدان اهل مكة او سودان مكة (2) ومنهم من كان يؤلف نواة الحرس المكي (3) والى هذه المجموعة كان ينتمي بلال الحبشي مؤذن الرسول وهو عبد اشتراه ابو بكر بخمسة اواق (4) او أعطى لسيده امية بن خلف غلاما اسود عوضه حسب رواية اخرى (5) وكان العرب قبل الاسلام يستعملون في حروبهم ما يشترونه من هذا الرقيق فضلا عن استعماله في شتى شؤونهم الاخرى وذلك لما عهدوه فيهم من خصال

---

1) برنشفيك Brunschvic مقال عبد — دائرة المعارف الاسلامية - جواد علي — تاريخ العرب قبل الاسلام ج 3 ص 137-138

2) لامنس H.Lammens.غرب الجزيرة قبيل الهجرة - L'Arabie occidentale - ص 269 طبعة بيروت 1928 - السيد عبد العزيز سالم - تاريخ الدولة العربية ص 249 — 253 طبعة بيروت 1971

3) برنشفيك Brunschvic مقال عبد — دائرة المعارف الاسلامية - ج 1 ص 25 - 26

4) المقدسي - التنبيه والاشراف - الاجتماعية والاقتصادية بالجزيرة — ص 179

5) ابن هشام — السيرة — طبعة على هامش الروض الانف ج 1 ص 202

حربيـة ولخبرتهم بهم منذ عهود قديمـة سواء باليمن او بالحجـاز فصار استعمالهم لهم عادة متبعة اذ نجد صداها في الشعر الجاهلي فقد نقل صاحب الاغاني شعرا هجيت بـه قريش قديما ومنه قـول الشاعر :

فضحـتم قريشـا بالفرار وانتم تمدّون سودا انا عظام المناكب (1)

فمن المعروف ان عرب الحجاز واليمن على الاقل قد استعملوا عبيدهم لهذه الغاية الحربية واتخذوا منهم كذلك خفراء وحماة لقوافلهم فكانـوا على حدّ قول لامنس Lammens. اشبه شيء بالمحاربين المرتزقـة والدليـل على ذلك في نظره تمييز العرب بين " الحدد " من جنسهم المدافعـين عن حماهم و " العسكر " الذين يستاجرون للمساهمة في القتال وقد استعملت هذه الكلمة بهذا المعنى في ديوان قيس بن الخطيم (2)

ونحن لا نعدم امثلـة على مشاركـة الرقيق الاسود في حـروب العرب فمن ذلك عنترة الشاعر المشهور الذي استعملتـه قبيلـة عبـس

---

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ ج 15 ـ ص 142 ـ راجع ـ لامنس H. Lammens غرب الجزيرة ـ ص 244 وص 292

2) قيس بن الخطيم الديوان ص 33 ـ راجع ـ لامنس H. Lammens غرب الجزيرة ـ ص 250 ـ 251 وص 256

في غزوها ووحشي وصعاب الذان استعانت بهما قريش في غزوة احد فكان صعاب حامل لوائها حتى قال فيه حسان بن ثابت :

جعلتم فخركم فيه لعبد من الأم من يطا عفر التراب (1)

وكان وحشي قاتل حمزة في هذه الموقعة ، وكان بلال الحبشي يقوم بدور حراسة الرسول مع اخيه ابي رويحة وكان يمشي شاهرا سيفه امام الرسول (2) وكان ملوك اليمن وامراؤها وكذلك رؤساء القبائل بالحجاز يتخذون من هؤلاء العبيد حرسهم الخاص فقد جاء في طبقات ابن سعد (3) ان رئيس هذيل يمشي وراءه العبيد وكان سيف بن ذي يزن يتخذ في جنده ما تركه ابرهة من الزنج والاحباش بالرغم من غزوة اكسوم الاليمة وهي غزوة الحبشة للكعبة (4)

الا ان هذا الرقيق الاسود لم يكن يمثل جندا قارا عند عرب الجاهلية وانما كان يستعمل عند حدوث حادث وسماع الصريخ وهو في سائر الاحوال رقيق يعمل في صالح الاسياد ويدفع ضريبة او خراجا يوميا وكانوا

1) حسان بن ثابت ـ الديوان : ص 19 ـ لامنس Lammens . غرب الجزيرة L'Arabe occidentale ص 259
2) ابن الأثير ـ اسد الغابة ج 3 ص 36
3) ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ج 2 ص 36 ـ 37
4) لامنس - H. Lammens غرب الجزيرة - L'Arabe occidentale ص 244

عند الحرب يطعمونهم الخزيرة وهي ثريد من دقيق ولحم مدقوق وكانت كل قبيلة تستعمل منه ما تمتلكه من رؤوس (1) ويتضح من خلال الشعر العربي القديم ان العرب كانوا يرون معرة في الاتكال على العبيد في الحرب فيعيرون به بعضهم بعضا كما رايا ذلك فيما سبق ويرونه قادحا في شجاعتهم بالرغم من اقتناعهم بخصال عبيد الحبشة في الحرب وبلائهم فيها واعترافهم بانهم اثبت من البدو بسبب طاعتهم لاسيادهم كما كانوا يعترفون بهذه البسالة حتى لذريتهم والمولدين منهم الذين اختلطت دماؤهم بدماء العرب ولذلك نجد عندهم تمجيدا لاغربة العرب وهم سود الالوان بسبب اصلهم الزنجي (2)

وقد احتفظ الشاعر ابن دعبة وهو شاعر من ثقيف بذكرى قديمة وهي ذكرى الهول الذي نشره الاحباش عند غزوهم للكعبة ونجد هذا الشعر في سيرة ابن هشام وعند الطبري (3)

وقد بقي هذا التخوف راسخا في النفوس وتمثله بعض الاحاديث القائلة بان الكعبة سيحطمها اهل الحبشة (4) وهذه التخوفات لها ما يدعمها ايضا اذ هجم اهل الحبشة على اطراف مكة في عهد الرسول محمد (5)

---

1) المرجع نفسه - راجع : ص 285

2) لامنس H. Lammens - غرب الجزيرة l'Arabie occidentale - 245

3) ابن هشام - السيرة ج 1 ص 48 - ط. مصر 1936 - الطبري - تاريخ الامم والملوك ج 1 ص 927

4) ابو داود - السنن ح 2 ص 133 - انظر ايضا : الازرقي - اخبار مكة - طبعة ليبزج - 1858 - ص 193

5) ابن سعد - الطبقات الكبرى - ج 1 - ص 118

فلا مراء اذن في ان العرب قبل الاسلام قد كانوا يستعملون عبيدهم في ميدان القتال كما كانوا يستعملونهم في ميادين اخرى اقتصادية ولعله من المرجع ايضا ان اغلب الرقيق المستعمل في الحرب عندهم هو الرقيق الاسود بسبب وفرة عدده من ناحية وبسالته في الوغى من ناحية اخرى الا انه ليس ثمة ما يدل على انهم قد اتخذوا منه جندا قارا متميزا عن بقية الغزاة من ابناء القبائل والعشائر وانما هو رقيق يتخذ لصالح الاسياد في شتى ميادين العمل .

مصطلح "الاحابيش"

لكن الاب لامنس قد ذهب مذهبا بعيدا في اعتبار مصطلح " الاحابيش " الوارد في اخبار العرب قبل الاسلام دالا على وجود جند قار من الرقيق ومجموعات متميزة من العبيد تعتمد عليها قريش في الدفاع عن نفسها ويبدو ان اطروحته هذه لم تعد حدود الافتراض وذلك لان المصادر التي ورد فيها ذكر الاحابيش لا تبرز بوضوح هوية هؤلاء ولا تسمح بالتسليم بانهم عبيد سود من اصل حبشي وقع استيرادهم من سواحل البحر الاحمر بل اننا لنجد في هذه المصادر من القرائن ما ينفي هذا الزعم

ومايجعلنا نعتبر ان هذا المستشرق قد بالغ في تاويل بعض الاشارات واعتسف بعض الاستنتاجات وهو ما دعا غيره من الباحثين مثل المستشرق وات Watt الى وصفه بالبعد عن الموضوعية والنظر العلمي (1).

فنحن نجد في سيرة ابن هشام ان ابن الدغنة هو سيد الاحابيش وان الاحابيش هم من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ابن الهون بن خزيمة بن مدركة ومن بني المصطلق من خزاعة (2) وان تسميتهم بالاحابيش متأتية من تكوينهم لحلف في واد يسمى الاحبش (3) ويذكر ابن هشام في حديثه عن غزوة احد ان سيد الاحابيش وهو الحليس بن زبان قد عاتب ابا سفيان على تمثيله بجثة حمزة (4) ويرجع ابن هشام الى الحديث عن الحليس بن علقمة او (ابن الزبان) في غزوة الحديبية ليشير من جديد الى انه سيد الاحابيش وانه من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وقد ارسل الى الرسول محمد واقتنع بنوايا المسلمين السلمية فهدد قريشا بالانضمام الى الرسول مع الاحابيش

---

1) و م وات W M. Watt - محمد في مكة - طبعة باريس 1958 ذيل "أ" ص 197
2) ابن هشام - السيرة ج 1 ص 231 - (طبعة مصر ١٣٣٢هـ-١٩١٤م)
3) المصدر نفسه - ج 1 ص 231
4) المصدر نفسه - ج 2 ص 140 ..

اذا هم لم يسمحوا لـه باداء فريضـة الحج (1) ويقول ابن سعـــد كـذلك في حديثـه عن حرب الفجار ان الذين انضموا الى قريـش من الاحابيش هم قبيـلة الحرث بن عبد مناة بن كنانـة وعدل والقارة والمصطلق من خزاعـة (2) ويذكر الازرقـي ان الاحابيش قد انضموا الى بني بكر بن عبد مناة بن كنانـة في الحرب التي دارت بينهم وبين قريش وانهم عقدوا بهذه المناسبة حلفا عند جبل يسمى حبشي وكان تحالفهم ضد قريش ولذلك سموا بالاحابيش (3) ويذكر الطبري ان الاحابيش بمكة عند فتحها قد كانوا من بين الافراد القلائل الذين قاوموا المسلمين(4) فهذه الاخبار تشير جميعا الى ان الاحابيش هم مجموعات من العـرب لهم " اسياد " اي رؤساء يتحالفون تارة مع قريش وطورا ضدها وهـو ما لا يؤيد نظرية لامنس Lammens.H.

فاذا رجعنا الى الاشتقاق اللغوي لكلمة " احابيش " وجدنا لامنس يدعم رايـه بكونها مشتقـة من " حبش " الذي يجمع على " احموش "

---

1) المصدر نفسـه ج : 4 - ص 1538 الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ج - 4 - ص 1538 وما بعدها
2) ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ج 1 ص 81 (بعد حديثه عن حرب الفجار)
3) الازرقي ـ اخبار المكـة - طبعة ليبزج 1958 مجلد 1 ص 68
4) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ج - 4 - ص 1635

الذي يجمع على احابيش وحبشان اي سكان الحبشة (1) غير معتبر ما اوردنا آنفا عن المصادر من نسبة هذه التسمية الى جبل يسمى " حبشي " او واد يدعى " الاحبش " تحالفت عنده مجموعات من العرب (2) وغير منتبه ايضا الى ان لاشتقاق هذه الكلمة دلالات لغوية اخرى اذ هي كما يقول ابن منظور جمع احبوش او احبوشة بمعنى الفريق من الناس (3) واذا ما رجحنا الاشتقاق الذي اختاره فليس من المستبعد ان تكون كلمة " حبش " اشارة الى اللون الاسود الذي عرف به بعض العرب المتصاهرين مع السود خصوصا ان المصادر تفصل احيانا بين " الاحابيش وعبد ان اهل مكة " (4) وتجمع بين احابيش قريش ومن " اطاعها من قبائل كنانة واهل تهامة " (5) وتشير الى ان الاحابيش يقطنون خارج مكة بينما عبيد قريش كانوا بين ظهرانيها هذا فضلا عن ذكر سادة لهؤلاء الاحابيش كسادة القبائل يتحالفون مع قريش ولهم انساب وعشائر (6) وهذه صعوبات يصطدم بها صاحب النظرية.

---

1) لامنس Lammens - غرب الجزيرة L'Arabie occ. ص 253 ـ الزبيدي ـ تاج العروس - ابن دريد ـ الاشتقاق - انظر ايضا دوزي Dozy - ذيل المعاجم العربية Supp. aux Dict. Arabes

2) الازرقي ـ اخبار مكة ج 1 ص 44 ابن هشام ـ السيرة ج 1 ص 231 - (طبعة مصر 1336هـ 1914م)

3) ابن منظور ـ لسان العرب -

4) ابن هشام ـ السيرة = ج 2 ص 126 (انظر حديثه عن غزوة احد)

5) المصدر نفسه ج 2 ص 127 ـ الطبري تاريخ الامم والملوك ج 2 ص 1384 (وقد ورد ذكر ذلك في معرض الحديث عن غزوة احد)

6) و ـ م ـ وات W.M. Watt - محمد في مكة ـ طبعة باريس 1958 ذيل " أ " ص 197 وما بعدها

لكن لامنس تجاوز كل ذلك في سبيل الوصول الى هدفه وهو اثبات جبن قريش واعتمادها في الدفاع عن نفسها على جند من العبيد[1] فمضى يحلل اسباب قوة قريش العسكرية وسيادتها على القبائل المجاورة لها فرأى ان هذا التفوق ليس راجعا حسب زعمه لخصال القرشيين الحربية لانهم قوم مشغولون بالتجارة وتكديس الثروات فلم يكن لهم ما للبدو من خبرة باستعمال السلاح ولذلك عيرهم الشعراء البدو بالجبن والضعف في القتال ونعتوا قريش البطاح بالضب لانها تحتمي بالحرم ولا تجرؤ على الخروج منه وهذا الهجاء هو في رايه رد فعل على معاملات الربا التي كان القرشيون يعاملون بها البدو.(2)

وبالرغم من ان السياق هو هجاء ورد فعل كما اقر ذلك بنفسه نجده يستخلص ان هذا الوضع قد احوج قريشا الى اتخاذ جند منظم من المرتزقة السود وهو جند الاحابيش ويتالف هذا الجند من زنوج افارقة في اغلبه ويشرف عليه عناصر من غفار واسلم المجاورين للحرم

---

1) لامنس Lammens - الاحابيش ونظام مكة العسكري في قرن الهجرة ــ المجلة الاسيوية سنة 1916 ص 425 ــ 482

2) لامنس Lammens - غرب الجزيرة - L'Arabie Occ - ص 250 ــ 251

وبعض شذاذ العرب وذؤبانهم الذين كانت قريش تستأجرهم من خليع وصعلوك ومتشيطن وفاتك ومن امثلة هؤلاء البراض وابو الطمحان وغيرهما (1) وكان العنصر القريشي في هذا الجند قليلا للاسباب التي ذكرناها آنفا ولسبب آخر ديموغرافي وهوان قريشا كانت قليلة العدد تزدحم كلها في الوادي المحيط بالكعبة ولذلك فسر ابن هشام كلمة بكة بانهم يزدحمون فيها (2) كما ان الظروف المحيطة بهم والتي وصفها القرآن بواد غير ذي زرع لم تكن تسمح لهم بالنمو الديموغرافي فازدادت حاجتهم من اجل ذلك الى هذا الجند من المرتزقة (3).

وهكذا يستنتج في النهاية ان الاحابيش هم رقيق اسود من اصل حبشي يقومون بمهمة عسكرية شبيهة بالمهمة التي قام بها السويسريون في بلاطات اوروبا (4) وقد نجحوا في هذه المهمة واعترف لهم العرب بالبسالة حتى ان الرسول عندما اراد غزو هوازن بعد فتح مكة قبل ما اقترحه بعضهم عليه من استعانة بالاحابيش التابعين لبني مخزوم (5) لانهم تسببوا في انتصار قريش في احد وكانت هزيمتهم في بدر بسبب التخلي عن الاستعانة بهم (6)

---

1) نفس المرجع ص 238 وص 240 وص 241 وص 247
2) ابن هشام ـ السيرة ج 1 ص 81 ـ (طبعة مصر ـ 1332 هـ 1914 م)
3) لامنس ـ Lammens ـ غرب الجزيرة L'Arabie occidentale ص 247
4) المرجع نفسه ص 245
5) المرجع نفسه ص 263 ـ 264
6) المرجع نفسه ص 256

ويبدو ان اقرب الآراء الى الاعتدال والتحري في ممارسة النصوص واستنطاقها وتجنب التاويل للاخبار ان لا نذهب مذهب فلهاوزن Wellhausen في اعتبار هؤلاء الاحابيش مجرد قبائل عربية متحالفة مع قريش (1) وان لا نذهب ايضا مذهب لامنس Lammens - في اعتبارهم كتائب من العبيد المستوردين من الحبشة تستخدمهم قريش في الدفاع عن نفسها لعجزها الحربي فحتى وصفهم في شعر حسان بن ثابت بكونهم " بلانسب" لا معول عليه اذ بالامكان ان يكون وصفا يقصد منه التعيير بخمول النسب لانه وارد في سياق الهجاء (2).

واقصى ما يمكن الاحتفاظ به من تصفحنا لروايات الطبري وابن هشام وابن سعد والواقدي ان امر هؤلاء الاحابيش لا يخلو من غموض والارجح انهم فئات مختلطة من العرب الذين لم يكونوا يؤلفون قبائل باتم معنى الكلمة وعصبية واضحة مما احوجهم الى التحالف وليس من المستبعد ان يكونوا قد امتزجوا بالعبيد ايضا مما تسبب في خمول

---

1) و م وات W.M. Watt محمد في مكة ص 197

2) حسان بن ثابت - الديوان - ص 103 - (يقول حسان في هجاء قريش :
" انتم احابيش جمعتم بلا نسب
ائمة الكفر غرتكم طواغيها ؟ ")
لامنس Lammens غرب الجزيرة L'Arabie Occid ص 261

انسابهم واسوداد الوانهم حتى عرف بعضهم باغربة العرب وهذا لا ينفي ان يكون عددهم من الرقيق مثل ما عدد قريش وغيرها من القبائل (1) وبذلك يكون في راي لامنس Lammens - جزء من الحقيقة الا انه بالغ فيه لكي يبين ان المسلمين لم يجدوا عسرا في التغلب على قريش لجبنها ولتخلي الاحابيش عنها في غزوة بدر الكبرى.

ومهما يكن من امر وايا كانت هوية هؤلاء الاحابيش فان الحقيقة التي لا مراء فيها هي وجود رقيق اسود عند اهل مكة والقبائل المجاورة لها وان هذا الرقيق قد ذكرته المصادر متميزا عن مجموعة "الاحابيش" وان مصدره هو التجارة التي كانت رائجة بين غرب الجزيرة العربية وجنوبها من ناحية وبلاد الساحل الافريقي الشرقي وخاصة الحبشة من ناحية اخرى.

---

1) و ـ م ـ وات W M. Watt - محمد في مكة ص 197 ـ 200

3) الاسواق والمعاملات التجارية :

وقد كان للعرب قبل الاسلام عادات تجارية تتعلق بصفقات الرقيق وعمليات بيعه وشرائه .منها انهم كانوا يبيعونه في المواسم بالاسواق وينتظرون بما يجلبونه منه تلك المواسم بحثا عن الربح الوافر (1) وقد اصبحت مكة اكبر سوق للرقيق (2) يعرض بها ما يقع جلبه عن طريق التجارة او ما يتم اسره في الحروب كما كان يعرض بسوق عكاظ رقيق كثير يباع فيها بيع سائر الامتعة التجارية (3) وقد روى ابن عبد ربه ان ام عمرو بن العاص اصابها سباء في الجاهلية فبيعت بعكاظ وهذا نص الرواية" خاطر رجل الى ان يقوم الى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول : ايها الامير من امك ؟ ففعل .فقال له : النابغة بنت عبد الله اصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل فولدت فانجبت فان كانوا جعلوا لك شيئا فخذه " (4).

---

1) جرجي زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 19
2) سعيد الافغاني ــ اسواق العرب في الجاهلية والاسلام ص 27
3) المرجع نفسه ص 278
4) ابن عبد ربه ــ العقد الفريد ج 1 ص 63 طبعة القاهرة . 1359 هـ/1940

وقد كانت اغلب هذه الاسواق موسمية ومنها سوق ذي المجاز الذي اشترى منه عمر بن الخطاب خادمه " اسلم " (1) وقد روي عن ابي سعيد المقبرى انه قال : " اشترتني امرأة من بني ليث بسوق ذي المجاز بسبعمائة درهم " (2) ووجدت ايضا سوق اخرى تروج فيها بضاعة الرقيق رواجا كبيرا وهي سوق دومة الجندل الواقعة بجوار ديار بني كلب وجديلة وطيء وكانت كلب من اكثر العرب رقيقا فكانوا يفتحون في هذه السوق حوانيت من شعر يعرضون فيها عبيدهم واماءهم (3) وتذكر لنا المصادر كذلك سوق حباشة التي يروى ان زيد ابن حارثة قد بيع بها وهي صبي لم يتجاوز عمره ثمانية اعوام (4) وبالرغم من هذه الامثلة العديدة على اسواق عربية كان الرقيق يباع بها قبل الاسلام فانه ليس لدينا دليل على وجود سوق قارة خاصة بالرقيق دون سائر البضائع .

---

1) سعيد الافغاني ـ اسواق العرب ـ ص 350 ـ 352

2) احمد شفيق باشا ـ الرق في الاسلام ـ ص 90ـ98

3) سعيد الافغاني ـ اسواق العرب ص 236 ـ 237

4) ابن هشام ـ السيرة ج 1 ص 164 ـ طبعة مصر 1332هـ 1914م السهيلي ـ الروض الانف ج 1 ص 164 ـ (طبعة مصر ـ 1332هـ ـ 1914 م)

(يذكر ابن سعد انه بيع بسوق عكاظ ـ الطبقات الكبرى ـ ج 1 ص 203)

ومن عادات العرب ومعاملاتهم التجارية قبل الاسلام انهم كانوا اذا اشتروا عبدا وضعوا في عنقه حبلا وقادوه الى منازلهم كما تقاد الدابة (1) وكانوا يميزون بين العبد القن الذي لا يباع ولا يوهب وعبد المملوكة الخاضع لهذه المعاملات (2) وقد كان العبد القن عندهم مرتبطا بالارض لا يباع الا معها وهو في ذلك شبيه بعبيد الارض Les serfs في الامبراطورية الرومانية (3) ثم تغير معنى العبد القن بعد ظهور الاسلام فصار يدل على العبد الذي لسيده عليه سلطة مطلقة (4) .

ويبدو ان عملية بيع الاطفال من قبل عائلاتهم كانت ظاهرة شاذة في المجتمع العربي قبل الاسلام وكذلك الامر بالنسبة الى بيع المدين في شكل رقيق (5) ومن طريف ما يروى في هذا الباب ان مقامرة جرت بين ابي لهب والعاصي بن هشام فقمر الاول الثاني واسترقه واسترعاه ابله (6) الا ان هذه الضروب من التصرف لم يكتب لها الشيوع وكان ينظر

---

1) ابن قتيبة ـ المعارف ـ طبعة مصر 1300 هـ ص 112 جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ص 4 ص 20

2) برنشفيك Brunschvig ـ مقال عبد ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ ج 1 ص 86 .

3) جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ ح 4 ص 20 ـ الجرجاني ـ التعريفات ـ

4) برنشفيك Brunschvig ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ مقال عبد ـ ج 1 ص 86

5) المرجع نفسه

6) جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 20 ـ الاصفهاني ـ الاغاني ج 3 ص 100 طبعة ـ بولاق ـ 1285 هـ (في 20 جزءا)

اليها نظرة الدون والاسترذال . وما اورده ابو الفرج الاصفهاني من روايات حول هذا النوع من بيع الرقيق انما يقصد منه التشهير والتنديد به (1) الا انه قد كان بامكان العبد اذا كره البقاء عند مولاه ان يستبيع نفسه منه فيبيعه ويصبح ملكا لسيد آخر (2).

وكان للعرب فضلا عن وجوه المتاجرة العادية كالبيع والشراء والرهن والمؤاجرة وجه آخر من وجوه المتاجرة وهو بيع اعراض الاماء واتخاذهن للبغاء جريا وراء الكسب والتمعش بالزنا (3) وكانوا يسمون هذه العملية المساعاة اي توظيف ضريبة على الامة تؤديها بالبغاء (4) فكانوا يقيمون للاماء دورا عليها رايات حمر فعرفن باصحاب الرايات (5) واستمرت هذه العادة حتى جاء الاسلام وكانت الهجرة ونزلت الاية عدد 33 من سورة النور تنهى عن هذا الصنيع (6).

---

1) المصدر نفسه
2) جرجي زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 21
3) مندلسن - Mendelsohn الاسترقاق في الشرق الادنى القديم - Slavery in ancient near east طبعة نيويورك ــ 1949 ص57ــ58 ــ برنشفيك Brunschvic دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد
4) ابن منظور ــ لسان العرب -
5) الالوسي ــ بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ــ طبعة القاهرة 1924 ج 2 ص 4
6) القرآن ــ سورة النور ــ الاية 33

وقد ذكر المفسرون ان لعبد الله بن ابي سلول جاريتين يقال لهما مسيكة ومعاذة كان يكرههما على الزنا لضريبة ياخذها منهما ، فلما جاء الاسلام قالت معاذة لمسيكة " ان هذا الامر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين فان يك خيرا فقد استكثرنا منه وان يك شرا فقد آن لنا ان ندعه " لكن عبد الله قال لهما " ارجعا فا زنيا " فقالتا " والله لا نفعل قد جاء الاسلام وحرم الزنا " فا تتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكتا اليه امرهما فانزل الله هذه الاية " ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصنا لتبتغوا من الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله بعد اكراههن غفور رحيم " (1) وكان بنو كلب معروفين بممارسة هذا النوع من المتاجرة سعيا وراء الكسب المرذول (2).

---

1) المصدر نفسه ـ سعيد الافغاني ـ اسواق العرب ص 58ـ59
2) المرجع نفسه ص 236 ـ 237

الباب الثاني

المسلمون وتجارة الرقيق قبل القرن الثالث للهجرة

الفصـــــــــــــل الاول

خـــــــلال القـــــرن الاول للهجـــرة

1) الاسلام وتجارة الرقيق

ان تجارة الرقيق التي مارسها العرب لم تتوقف بظهور الاسلام، فمن المعلوم ان هذا الدين لم يقض على ظاهرة الرق، شأنه في ذلك شأن الديانات للاخرى كاليهودية والمسيحية (1)، الا انه قد اشتمل على مبادئ من شأنها ان تلطف من حدة هذه الظاهرة، فاوصى بحسن معاملة الرقيق، وشجع على تحريره، وحدد مصادر الاسترقاق بالولادة في الرق او الحرب المشروعة (2)، بعد ان كانت مصادره اكثر تنوعا عند الامم السابقة لظهوره (3)، فقد منع الاسلام استعباد الاحرار الا في حالتين: حالة الوراثة، او محاربة الكفار، اما استرقاق الحر المسلم فمحرم اصلا، لكن هذا لا يعني ان اسلام العبيد يرفع عنهم عبوديتهم (4)، وذلك لان رقهم هو جزاء لهم لقتالهم للمسلمين قبل اعتناقهم للاسلام، ولو اسلموا بدون قتال لعصموا انفسهم من العبودية (5).

---

1) برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد - (د.م.إ) ج 1 ص 46 - لاروس - G. Larousse - الموسوعة - ج 4 ص 671

2) قرآن - سورة محمد - الاية 4 - ابن العربي المالكي - عارضة الاحوذي - ج 7 ص 61 . 63 ابن سلام - الاموال ج 1 ص 106 . 120 الماوردي - الاحكام السلطانية - الطبعة الثالثة ص 126 . 141 ابن قدامة المغني - ج 10 ص 400

3) قرآن - سورة البقرة - اية 280 - العيني - شرح الكنز ج 1 ص 201 احمد شفيق باشا - الرق في الاسلام ص 61 . 62

4) الشافعي - الام ج 4 ص 252 . 253 برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية - مقال عبد - ج 1 - ص 27

5) السرخسي - شرح السير الكبير ج 3 ص 1024 . 1041

ومهما يكن من امر فان بضاعة الرقيق قد بقيت متداولة في ظل الدين الجديد وان كانت روح النصوص الدينية ومصادر التشريع لا تنظر في المقام الاول الى القيمة التجارية لهذه البضاعة بقدر ما تعتبر الجانب الانساني والعقائدي في علاقة السيد بعبده . فهي لا تهتم بظاهرة البيع والشراء للرقيق ولا تشجع عليها بل تعلقها بحالات اضطرارية وتعتبرها اخف الاضرار اذا تعذر العدول عنها . فمن ذلك تفضيل بيع العبد على تعذيبه (1) وبيع الامة الزانية ولو يظفير طبقا لما ورد في الحديث الشريف (2) وكذلك بيع العبد الذي استباع نفسه (3) وهي كلها اوضاع شاذة يقع الالتجاء اليها اما رفقا بالعبيد او محافظة على الاخلاق العامة وليست هادفة الى مقاصد تجارية . ولذلك نحن لا نجد في القرآن والسنة ما يمكن ان يعتبر باعثا على ظاهر في التاريخ الاسلامي من رواج لتجارة الرقيق (4) بل اننا لنجد في الحديث النبوي ان ((شر الناس من باع الناس)) (5) .

---

1) الغزالي - احياء علوم الدين ج 6 ص 1033 - البغوي - مصابيح السنة ج 2 ص 32.33

2) البخاري - صحيح ج 3 ص 298.299

3) الحبيشي - البركة ص 99

4) زحيلي - آثار الحرب - ص 441

5) آدم متز A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 295

لكن الفقهاء بحكم نظرهم في المعاملات واجتهادهم في الملاءمة بين الواقع الحضاري ومقتضيات الشرع قد اهتموا بالصالح التجارية في هذا المجال وتناولوا ظاهرة الرق من جانبها الاقتصادي فاضحى من المقدمات المسلم بها عندهم ان كل مملوك ابيح الانتفاع به جاز بيعه الا ما استثناه الشرع من المحرمات (1) وبما ان العبد مملوك منتفع به جاز بيعه ولهذا نراهم لا يجوزون بيع الحر وما ليس بمملوك اعتمادا على قول الرسول (قال الله عزوجل : ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة : رجل اعطى بي ثم غدر ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر اجيرا فاستوفى منه ولم يوفه اجره)) (2) اما ما توفرت فيه الملكية كالرقيق فانهم قد جوزوا التصرف فيه بالبيع والشراء والرهن والمؤاجرة والاعارة والهبة والارث والوصية كسائر الامتعة التي تمتلك (3) وبذلك وجدت تجارة الرقيق مستندا شرعيا في الاحكام الفقهية اتاح لها ان تروج وان تصبح مصدرا ثالثا يزود العالم الاسلامي بهذه البضاعة الى جانب الصدر الوثني والحربي .

---

1) ابن قدامة-المغني ج 4 ص 256

2) البغوي-مصابيح السنة - ج -2- ص 33-34

3) مالك بن أنس-المدونة الكبرى - ج 14 ص 35

ج) تجارة الرقيق الاسود

لم تتوقف اذن تجارة الرقيق التي مارسها العرب بظهور الاسلام . فقد تواصلت العلاقات بين الحبشة وجزيرة العرب وتمثلت بهجرة المسلمين الى ارض النجاشي في حياة الرسول (1) وصارت جزيرة ((متجر قريش)) الواقعة بين جيبوتي والزيلع مأوى للتجار والمسلمين الهاربين من الذعر الذي صحب حروب الردة في عهد الخليفة ابي بكر (11-13هـ/632-634م) (2) ويمكن القول بان الجالية العربية الاسلامية قد تزايد عددها ببلاد اثيوبيا وامكنها ان تستقر بها وان تمارس نشاطا تجاريا . فكل هذه الدلائل تشير الى ان كل ما كان من معاملات بين العرب وجيرانهم الافارقة قبل الاسلام قد استمر ومن بين تلك المعاملات تجارة الرقيق الاسود طبعا .

وما فتئ العرب المسلمون يتخذون ساحل افريقيا الشرقي ملجأ لهم عند الشدة حتى في العصور الموالية ولا يخفى ان لجوءهم ذاك يدل على وجود جالية من بني جنسهم

---

1) ابن هشام ـ السيرة ـ طبعة مصر ـ 1332هـ/1914م ـ ج 1 ص 204

2) الشاطر بصيلي ـ تاريخ وحضارات السودان ـ ص 187

ودينهم بذلك المكان وهي جالية تكونت نواتها منذ عهد قديم وكانت الغاية منها تجارية اساسا . ففي ظل الحكم الاموي هربت جماعات من جنوب الجزيرة العربية ومن العراق من سطوة ذلك الحكم وقهره والتجأت الى شرق افريقيا واستقرت بجزيرة((الامو)) الواقعة على الشاطيء جنوب الحدود الرابطة بين صوماليا الحالية وكينيا وكان استقرارها في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (65 هـ - 86 هـ) (685م - 705 م) . وقد طاردت قوات عبد الملك الهاربين الى برالزنج واحتلت جزيرة الامو واقامت بها وذلك حوالى سنة (75 هـ/ 695 م) .(1)

وهكذا توطدت العلاقة بين شرقي افريقيا وبلاد الاسلام ولم يعد الامر مقصرا على ((سوق قريش)) فقط بل ظهر مركز ((الامو)) كما ستظهر امارة اسلامية اخرى هي امارة((الدجن)) التي كانت تخدم الموانيء العربية على الساحل الغربي للبحر الاحمر ويحكمها حاكم عربي مسلم يعينه ملك ((علوة)) المسيحي وقد امكن للمسلمين ان يؤسسوا انطلاقا من هذه المراكز ولايات على الطراز الاسلامي في شكل نظام الجمهورية التجارية التي كانت قائمة في الحجاز بالجزيرة العربية (2)

---

1) المرجع نفسه ص 19.و 25 و 133

2) المرجع نفسه ص 35

لقد كان نشاط هذه الجهوريات تجاريا كما قلنا وكان وجودها على الساحل عاملا من عوامل حماية العلميات التجارية ومراقبة طرق القوافل . وكانت تجارة الرقيق الاسود من بين التجارات الهامة التي اشرف عليها التجار العرب القاطنون بتلك الربوع . وذلك ان حروبا كانت تنشأ بين الزعماء المحليين للقبائل الافريقية المتساكنة هناك وكان الاسرى الواقعون في يد الغالب يباعون عن طريق المقايضة مقابل بضاعة او سلاح فكان التجار العرب يوفرون تلك البضاعة المطلوبة ويتسلمون رؤوسا من الرقيق . وقد استفادوا من هذه المعاملات وتسنى لهم ان يتخذوا مزارع وان يستخدموا فيها بعض الرقيق وان يصدروا جزءا من تلك البضاعة الى موانيء الجزيرة العربية

وكان الزنج يجلبون من افريقيا الى جنوب العراق منذ القرن الاول للهجرة وكان الهدف من جلبهم الى هذه المنطقة استصلاح الأراضي الزاعية المعروفة بالسباخ وهي اراض يعلوها الطح وتسوخ فيها الاقدام (1) فكان العبيد اي الزنوج يكسحون تلك

1) ابن منظور ـ لسان العرب ـ مادة : سبخ

السباخ ويصلحون التربة لتقبل املاحها وتصير صالحة للاستغلال وكان عطيهم هذا شاقا اذ كانوا يخدمون الارض بالسخرة دون ان يتقاضوا اجرا وكان طعامهم يتمثل في قليل من الخبز والتمر والسويق وقد كانت (كسوج الزنوج معروفة بالبصرة كالجمال وكان في انهار البصرة منهم عشرات الالوف يعذبون بهذه الخدمة (1)) .

ومما يدل على وجود تجارة الزنوج هذه منذ القرن الاول للهجرة ما احدثوه في تاريخ الدولة الاموية من اضطراب احاجا على وضعهم السيء اذ نجدهم يثورون في آخر ايام صعب بن الزبير فتصدى لهم والي البصرة خالد بن عبد الله القسري . وفرق جموعهم . واعادوا الكرة ابان ثورة عبد الله بن الجارود على الحجاج فثاروا بقيادة (شهر الزنجي) وهو رجل يدعى ((رياح)) ويلقب (باسد الزنج) فامر الحجاج واليه على شرطة البصرة زياد بن عمرو بقتالهم فجهز لهم جيشا بقيادة ابنه حفص بن زياد لكنه انهزم امامهم فكان أن جهز زياد جيشا آخر وقضى على ثورتهم سنة (75هـ/ 695 م) (2).

---

1) عشر ثورات في الاسلام ص 183 - علي حسني الخربوطلي

2) ابن الاثير - الكامل- ج 4 - ص 388

هؤلاء الزنج العاملون في السباخ هم الذين سيثورون ثورتهم الكبرى في القرن الثالث للهجرة سنة (255 هـ/ 869م) وهي الثورة المشهورة بثورة الزنج . ثم ان اندلاع هذه الثورة بعد مرور قرن ونصف على ثورتهم على الحجاج يشير الى ان جنوب العراق كان في حاجة مستمرة الى هؤلاء الزنوج لازالة طبقة الاملاح عن الارض وان جلبهم عن طريق التجارة قد تواصل الى القرن الثالث للهجرة

3) تجارة الرقيق الابيض

اما بخصوص الرقيق الابيض فاننا نلاحظ ان تجارة الرقيق العربي قد اخذت طريقها نحو الاضمحلال منذ صدر الاسلام ولم تستمر الا فترة وجيزة بعد ظهور الاسلام اي في عهد الرسول وأبي بكر وجزء من خلافة عمر . فقد اضطر عمر الى اعادة النظر في التشريع الخاص بالاسر والسبي منذ ان وجد العرب انفسهم وجها لوجه مع خصومهم الاعاجم وذلك ان تغير الظرف ونوع الخصم قد أحوج الى اجتهاد في الاحكام فوقع التمييز بين العرب وغيرهم في حكم الاسترقاق (1) لان الدولة كانت في حاجة الى التعويل

1) البخاري - صحيح - ج 3 ص 294 - 296
الشافعي - الام - ج 4 - ص 271 - 272
بلتاجي (محمود) - منهج عمر - ص 496
رحيلي (وهبة) - آثار الحرب - ص : 441

على اصحاب الدين الجديد لمقاومة الامم الاعجمية . وقد قدم لنا ابن سلام صورة عن هذا التشريع الجديد الذي يفصل فيه العربي عن الاعجمي . (1)

وقد امكن للمسلمين منذ القرن الاول للهجرة وخاصة منذ فتحهم للأقاليم التابعة للامبراطورية البيزنطية ان يتصلوا بتيار تجاري آخر كان يزود تلك البلاد بالرقيق الاوربي منذ عهد قديم . ذلك ان تجارة الرقيق كانت شائعة باوربا قبل الاسلام ومن اسباب رواجها ان قبائل ((السلاف)) الروسيين نزلوا في اوائل ادوارهم شمالي البحر الاسود ونهر ((الطونة)) « Don » ثم اخذوا من النزوح الى الجنوب الغربي نحو اواسط اوربا وهم قبائل عديدة عرفت بعد ئذ بقبائل ((السلاف)) او ((السكلاف)) - Sklaves - ((والسرب)) - Serbes - و ((البوهيم)) - Bohême - و ((الدلمات)) « Dalmates » وغيرهم . وكان من عادات تلك العصور ان يبيع المتغلبون اسراهم بيع الرقيق وقد اضطرت تلك القبائل وهي نازحة ان تحارب الشعوب التي في طريقها مثل ((السكسون)) - saxons - و ((الهون)) « Huns » وغيرهم فباعت اسراها بيع الرقيق

---

1) ابن سلام - الأموال - ح 1 ص 106 - 121 - وج 2 - ص 124 - 134

فتألفت لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق ايطاليا وفرنسا واسبانيا الى افريقية ومنها الى الشام ومصر . فلما وقعت هذه البلاد في ايدي المسلمين صاروا على اتصال بهذا التيار التجاري (1) وقد لعبت((البندقية)) دورا هاما في تصدير هذا الرقيق الى البلاد الواقعة على الضفة الجنوبية من البحر الابيض المتوسط خلال النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (2) . ولذلك نجد في بعض المصادر العربية(3) ذكرا لرقيق صقلبي منذ هذا العهد الا ان هذا الجنس من الرقيق لم ينتشر في بلاد الاسلام اذاك انتشاره في العصور الموالية عندما ستزدهر تجارة الرقيق الصقلبي على ايدي اليهود الرهادنة .

هذا كل من نجده من عطيات تويد للرقيق عن طريق التجارة الخارجية في عهد الراشدين والامويين اي طيلة القرن الاول وبداية القرن الثاني للهجرة . لكن هذه الروافد التجارية التي كان

---

1) جرجي زيدان – تاريخ التمدن ج - 4 - ص 194 - 195

2) ارشيبالد لويس - A. Lewis - السيادة الاسلامية - ص 79 - 81

3) الاصفهاني – الاغاني – ج 6 ص 228 (طبعة بيروت - 1955 - 1964)

بامكانها ان تكفي حاجة العرب الى الرقيق قبل الاسلام لم تكن لتكفي حاجتهم عندما نشأت الامبراطورية الاسلامية وتوسعت رقعتها وتضخمت هياكلها الاقتصادية والاجتماعية . فتغير الاوضاع الجغرافية والسياسية قد حتم تغيرا في المعاش وولد حاجات جديدة لم تكن موجودة من قبل . فكان لا بد من مصدر جديد للطاقة المنتجة والمحركة لدواليب المجتمع المختلفة ولامتاص من معين جديد يزود العالم الاسلامي بهذه المادة الضرورية لحياته وهي الرقيق .

لن يكون هذا المعين جلبا من الاسواق الخارجية اذ اقتصرت عملية الجلب على ما ذكرناه من استمرار تيار قديم اتصل به العرب مباشرة من سواحل افريقيا الشرقية او بطريقة غير مباشرة عن طريق الاقاليم الواقعة شمالي الجزيرة العربية والتي كانت خاضعة للدولة البيزنطية . ولكنه سيكون معينا من نوع آخر يتصل وشيج الاتصال بنشأة الامبراطورية الاسلامية وبظروف تكونها وامتدادها السياسي والعسكري ونعني به معين الفتوحات . فسيكون الغزو هو المزود الاساسي في هذا العصر بانواع الرقيق الناتجة عن عمليات الاسر والسبي لشعوب البلاد المفتوحة وسوف لن يحتل المصدر التجاري سوى مرتبة ثانوية بالقياس الى مصدر الجهاد الذي يحتل الصدارة .

4) الفتح الاسلامي وتجارة الرقيق

لقد كانت تجارة الرقيق منذ فجر الاسلام الى اواسط القرن الثاني للهجرة تقوم اساسا على رقيق الفتوحات . فالفتوح الاسلامية كانت على اشدها في هذا العصر وكانت تمثل المصدر الرئيسي الذي يزود الاسواق الداخلية بهذه المادة التجارية . فقد كان الغزاة الفاتحون يعتبرون البلاد المفتوحة عنوة غنيمة من الغنائم فيأسرون الرجال ويسبون النساء والاطفال ويوزعونهم على الغانمين اقساطا بعد تخصيص الخمس من الغنيمة لبيت المال (1) وقد يباع ذلك السبي بعد انتهاء الفتح وتوزع اثمانه بنفس النسب المذكورة ثم يتناقل التجار هذه البضاعة عبر المدن والاقاليم الاسلامية . واذا علمنا ان هذه الفترة من الزمن قد شهدت اتساعا في رقعة الفتح الاسلامي واشتدادا في قوة المسلمين الحربية وغزواتهم البقاع التي استقر بها الاسلام في العصور الموالية اضحى من اليسير علينا ان نفهم ان هذه الاوضاع قد كانت كفيلة بسد حاجة المجتمع الاسلامي اذاك الى بضاعة الرقيق .

---

1) الماوردي ـ الاحكام السلطانية ـ ص 126 . 141

أ- انتشـــــــار الفتـــوحـــات

لقـــد اسفـــرت الفتـوحـات الاسلاميـة عـن مجمـوعـات غفيـرة من الرقيـق متنـوعـة الاجنـاس والجنسيـات لان هـذا العصـر قـد كـــان عهـد ازدهـار الفتـح الاسلامـي وقـوة المسلمين الحربيـة فى حين كانـــت الامم المجـاورة والابـراطوريـات الضخمـة مهـددة باسبـاب الضعـــف والانحـــلال . فـــوجـد الغـزو الاسلامـي فـرصـا سانحـة وعـــــدة كـافيـة وحـافـزا ايديولوجيا قويـا لاحتـلال ممتلكـات البيزنطيين في الشرق والغـرب وتحطيم الابراطوريـة الفارسيـة تحطيمـا كـــاملا . فنقـد بـــدات عمليـات الفتـح في حياة الرسـول (570م / 11 هـ / -632 - م) مـع غـــــزوة تبـــوك (-9- هـ/ 629 م) ودومـــة الجنـدل (-5- هـ/ 626 م) وظهـــر التوســع فـي عهـد الخليفـة أبي بكـــر (11-13 هـ/ 632 - 634 م) فـوجهـت الضربـة القاضيـة في وقعـة القـادسيـة الى الفـــرس ثـم قبـل موتـه بشهـر فتحـت فلسطين . وبعـد تـولي عمـر بن الخطاب (-13- هـ/ 634 م) بسنـة فتحت سوريـا بوقعـة اليرمـوك (-14- هـ/ 635 - م) وفتحـت القـدس بعـد ذلـك بعـامين . وبمجـرد ضـــم سـوريـا استطـاعـت الجيـوش الاسلاميـة بقيـادة عمـرو بن العـاص ان تفتـح مصـــر (-18- هـ/ 639 م) ثم الاسكندريـة (-21- هـ/ 642 م)

وأصبحت الطريق مفتوحة أمام غزو المغرب وأثمر صراع طويل خضعت قرطاج لحسان سنة (79هـ/ 698م) وتم ضم اسبانيا الى هذه الرقعة الممتدة من اواسط آسيا الى المحيط الاطلسي . وقد بلغت قوة المسلمين الحربية درجة امكنهم معها تهديد عاصمة الامبراطورية البيزنطية نفسها فارتدوا آسيا الصغرى الى البوسفور عن طريق البر وتقرأ اسطولهم هناك عن طريق البحر وشددوا الحصار على بيزنطة في ايام قسطنطين الرابع (47 - 65هـ/ 668-685م) . (1)

فهذا العصر اذن هو عصر ازدهار الفتح الاسلامي بدون منازع وفيه حددت بصورة تكاد تكون نهائية رقعة العالم الاسلامي ولن تحدث في العصور المالية سوى بعض الامتدادات الطفيفة والفتوحات القليلة الاهمية . فسوف تتكسر انطلاقة الفتح بعد هذا العهد وعلى

---

1) فاسيليف Vasiliev - العرب والروم - ص 9

وجه التحديد في اواسط القرن الثاني للهجرة .(1) من البديهي اذن أن تتدفق على العالم الاسلامي افواج من الاسارى والسبايا من شتى انحاء البلاد المفتوحة ذات اجناس متنوعة بتنوع الاقاليم والبلدان والشعوب المنتمية اليها وطبيعي ان تجد الاسواق الاسلامية المادة الكافية والصالحة لنشاطها والقدرة على ترويج هذه البضاعة وتزويد المجتمع الاسلامي بما يحتاجه منها .

---

1) محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية ـ ص 382

ب - الجهاد والاسترقاق.

واذا ما تأملنا في الاحكام المتعلقة بالجهاد والتي كانت نشاتها مواكبة اذاك لعمليات الفتح وخاصة منها ما يتصل بمعاملة الفاتحين للاسرى والسبي لاحظنا انها تقر بشرعية استرقاق العدو وتجعل من الحرب مصدرا شرعيا للرق وفرصة سانحة امام الغانمين للحصول على ملك اليمين. فالامام مخير في الاسرى بين قتلهم او فدائهم او المنّ عليهم او استرقاقهم لان كل هذه التصرفات قد صدرت عن الرسول ونص عليها القرآن وليس له ان يخضع في اختياره لاحد هذه المواقف الا لمصلحة المسلمين الراهنة (1).

فما هي مصلحة المسلمين اذاك ؟ انه من الطبيعي ان تتغير المصالح فما كان من باب المصلحة في حياة الرسول ليس من الضروري ان يكون من بابها بعد حياته . وبالرغم من المحافظة على احكام الاسر المذكورة حدث اجتهاد على صعيد التطبيق فرضه الواقع الاسلامي الجديد . فالرسول كان يحارب العرب واليهود خاصة وكان يريد توحيد امة والقضاء على الخلاف ولذلك

---

2) ابن سلام الاموال ج 1ص 106. وما بعدها

نراه يغلب سياسة القتل والفداء والمنّ على سياسة الاسترقاق فقتل بعض زعماء العرب وكثيرا من اليهود وفدى اسرى بدر بالمال والرجال ومنّ على سبي هوازن وسبي بني المصطلق وسبي حنين وقلما استرق (1) لان المصلحة كانت تقتضي تاليف القلوب والتمكين للدعوة في النفوس وقد تغير الامر في عهد الخلفاء بتغير المصلحة وتغير الواقع وظهر اتجاه نحو تغليب سياسة الاسترقاق على غيرها من اساليب القتل والمن والفداء.

فبالنسبة الى القتل مثلا لم يكن الامام يلجأ اليه الا غرارا ولم يكن ينفذه الا في بعض الافراد الذين اشتهروا بخطرهم وعدائهم للاسلام واقتضت المصلحة ان يقتلوا تكاية في العدو وارها باله (2) وكان الغزاة يفضلون الاحتفاظ باسراهم في الغالب على قتلهم والمتتبع لسيرة الخلفاء يلاحظ انهم لم يشتغلوا بابادة المجموعات ولم يأمروا الا بقتل بعض الاسرى الذين اشتدت مناوءتهم للعرب (3) وقد كان بامكان الاسير ايضا

---

1) بلاذري — فتوح البلدان ص 34. 70
ابن سعد - الطبقات الكبرى — ج 2 ص 11. 27
الطبري — جامع البيان - ج 14 ص 58. 77
وات - Watt - محمد في المدينة Mahomet à Medine - ص 356 - 360
باشميل - غزوة بدر الكبرى - ص 223. 247

2) وهبة زحيلي - آثار الحرب - ص 430 - 445

3) ابن سلام - الاموال - ج 2 ص 124. 134

ان يعصم دمه باسلامه (1) واذا ما كان للمن على الاسير معنى في عصر الرسول بسبب محاربته لبني جنسه من العرب ورغبته في توحيد القلوب وصلة الارحام فان المسلمين في حربهم للعجم لم يروا فيه دائما وجها من وجوه المصلحة اذ فيه تقوية لصف العدو وقلما نراهم يمنون على قائد او امير لمنعته في قومه وليس من باب الصدف ان ظهرت احكام في هذا العصر تميّز بين العرب والعجم وتعفي العرب من الرق وذلك منذ عهد الخليفة عمر (2) فقد ظهر اذن واقع جديد حتم سياسة جديدة. فلم يعد هنالك منّ على مجموعات من الاسرى كما كان يفعل في عصر الدعوة بل انه ليروى عن عمر انه كان لا يعد والقتل او البيع في معاملته لاسرى العجم كما يروى عن ابن العاص انه قال في قبط مصر ((ان شئت قتلت وان شئت بعت وان شئت خمست)) فكانه طرح من اعتباره سياسة المن او الفداء وحصر الامر في القتل او الاسترقاق (3).

---

1) المصدر نفسه ج 2 ص 140. 142

2) ابن سلام ـ الاموال ج 2ص124 ومابعدها-وهبة زحيلي ـ ص 441 - آثار الحرب - ص 404-406

3) ابن سلام ـ الاموال ح 2 ص 124. 142

اما سياسة الفداء فقد كانت على ضربين : فداء بالمال وآخر بالرجال (1) ووجه المصلحة فيه ان يكون المسلمون في حاجة الى المال اوالى مبادل الاسرى لانقاذ المسلمين من قبضة العدو ولم يكن المسلمون في هذا العهد في حاجة ماسة الى هذه السياسة لان موقفهم كان اذاك موقف قوة وكانت انتصاراتهم متتالية فلم تقع بين ايدي اعدائهم جماعات كثيرة من رجالهم بينما حصلوا على مجموعات غفيرة من اسارى العدو ولهذا السبب لانلاحظ لديهم اهتماما بالافدية كالذى حدث في العصور الموالية (2).

لم يبق اذن امام الامام الا تغليب سياسة الاسترقاق لا سيما ان اسلام الاسير لم يكن ليعصمه من الرق كما كان يعصمه من القتل (3) وقد كانت مصلحة الامة فضلا عن ذلك تقتضي الاحتفاظ بالاسرى في شكل رقيق يوزع على الغانمين ويستعين به المسلمون في مجابهة شؤونهم الحربية والاقتصادية والاجتماعية وليقووا به على عدوهم .

---

1) الماوردي - الاحكام السلطانية - ص 126 - 141

2) المسعودي - التنبيه والاشراف - تقديم دي ساسي De Sacy - ذيل مروج الذهب ج 9 ص 356 - 362

3) ابن سلام - الاموال ج 2 ص 124 . 142
الماوردي - الاحكام السلطانية ص 126 . 141

وقد كان السبي المتكون من النساء والاطفال اكثر تعرضا للاسترقاق من الاسرى اذ يتفق الفقهاء على عدم جواز القتل فيه لان الرسول نهى عن قتل النسوة والصبيان (1) ويرى الشافعية ان من قتلهم ضمن قيمتهم لانهم بشابة المتاع الذي صار للغانمين حق فيه بمشاركتهم في القتال . ولم يوافق الحنفية على قتله حتى عند اشتراكه في الحرب (2) وقد ضيق الفقهاء من نطاق المن على السبي فبينما يجيزه المالكية في بعض الحالات نرى الحنابلة والشافعية يشترطون فيه استطابة نفوس الغانمين بالمال وتمنعه الحنفية منعا باتا حتى لا ينقلب ذلك السبي حربا على المسلمين بعد ذلك . واذا ما جوز المالكية والشافعية فداء السبي فان الحنابلة والحنفية قد منعوه بصورة قطعية (3) هذا بالاضافة الى ما سبق ان قلناه بخصوص الاسرى من ان المسلمين كانوا في موقف قوة ولم ينظموا في هذا العصر عمليات فداء واسعة

---

1) الماوردي - الاحكام السلطانية - ص 126 . 141

2) وهبه زحيلي - آثار الحرب - ص 440- وما بعدها

3) المرجع نفسه

النطـــاق فالاقبـــال كـــل الاقبـــال كـــان على استرقـــاق السبي لان صلحـــة المسلميـــن كـــانت تحتمـــه (1) فالنســـاء بتـــرالـــدهـــــن والصبيـــــان ببلـــوغهـــم يشكـــلـــون خطـــرا علـــــــى الاســـــــلام اذا ارجعـــوا الى دار الحـــرب كمـــــــــا ان استرقـــاقهـــــم يعتبـــــر تعـــــزيـــزا لصـــــف المسلميـــــن وتلبيـــة لـــرغبـــة الغـــانميـــــن فـــــــى التمتـــــع بمـــا افـــاء اللـــــه عليهـــم وسـد لحاجـــــــة المجتمـــــع الى مـــادة الرقيـــق الضروريـــة لتوازنـــه .

ح- سلـــــوك الغـــــزاة

واذا مـا تتبعنـا سلـوك الفـاتحيـن مـع الامم المغلوبة طـوال الخـلافـة الراشديـــة ودولـــة بنـي امية لا حظنـا ان الامويين قـد كـانـــوا اكثـــر استرقـاقـا فى فتوحـاتهـم من الغـزاة فى صدر الاســلام اذ كـانت العـادة الغالبة ان لا يسترق الفاتحون الا من حاربهـم واسروه وهـم في الاغلب من الجنـد والحـامية من الروم والفـــرس وغيـــرهـم وكـان اهـل البـلاد من العـلوج يعتبرون مظلـومين وكـان من بينهـم رقيـق يعمـل فى الارض وينتقـل

---

1) المـاوردي ـ الاحكـام السلطانية ـ ص 126 . 141

معهـا من ملـك الى ملـك الى ان جاء الفتح فمن اسلـم منهـم وقـع تحـريـره ومـن احتفـظ بـديـنـه صـار ذمـة . فكـان الفـاتحـون اذن يستـرقـون الاحـرار من الجنـد في الغـالب لكن بني امية ولا سيمـا بعض امرائهـم كـانـوا يـرون استعبـاد اهـل البـلاد المفتـوحـة عنـوة (1)

والملاحـظ ان الفـداء كـان قليـلا في عهـد الامويـيـن فقـد كـانوا يفتـدون النفـر بعـد النفـر في سـواحـل الشـام والاسكنـدريـة ومطيـة وسـائـر الثغـور ولم يكـن بينهـم وبين الروم فـداء منظـم (2) ولعـل السـر في ذلـك ان الاسـرى المسلمين كـانوا افرادا قـلائـل بالقيـاس الى مـا كـان الفـاتحـون يسبـون من عـدوهـم كمـا ان المسلميـن كـانـوا هـم المهـاجمون في الغـالب وكـانت لهـم اليـد العليـا في هـذه الحليـة وكـان من واجـب الامام فـداء اسـرى المسلمين بالمـال والرجـال فلـو كـان هـؤلاء الاسـرى كثيـرين لـوقـع تنظيـم لفـداء في هـذا العهـد (3) امـا اسـرى الـروم فقـد كـانـوا كثيـريـن وهـم الـذيـن

---

1) جرجي زيدان-تاريخ التمدن الاسلامي ج 3 ص 22 . 23

2) للمسعودي - التنبيه والاشراف - تقديم دي ساسي De Sacy - ذيل مروج الذهب - ج 9 ص 356-362

3) ابن سلام-الاموال ح 2 ص 142 وما بعدها

كانوا يمثلون جزءا من مادة الرقيق المنتشرة في العالم الاسلامي . وهي مادة بقيت متوفرة اذ لم يقع استنزافها بعملية الفداء فلم يكن المسلمون في عهد قوتهم العسكرية في حاجة الى هذه العملية الا في اوقات قليلة . اما الطرف المقابل اي الروم فلم يكن امامهم الا ان يفدوا اسراهم بالمال اذ ليس لهم اسرى كثيرون يمكنهم استعمالهم في التبادل فهل اقدموا على هذا الفداء بالمال وهل قبله المسلمون أم رفضوه ؟ ان المسلمين كانوا يفضلون الاحتفاظ بهذا الرقيق على استبداله بالاموال فكثيرا ما كانوا يأبون المال بدل الاسرى ولنا مثال على ذلك في الدولة الفاطمية اذ لم يعرف عنها انها فادت اسيرا من الافرنج بمال (1) كما ان الروم لم يكونوا متحمسين لهذا النوع من الفداء خصوصا ان الاسرى والسبي كانوا لفيفا في الغالب مؤلفا من الرعايا او الغرباء المأجورين وليسوا من الروم انفسهم فاذا تعلق الامر بتبادل الاسرى فعلوا اما الاموال فلم يستعطوها الا لفداء بعض الافراد من وجوه اسراهم هذه العوامل كلها تعتبر من جملة البواعث على ازدياد كميات الرقيق بالبلاد الاسلامية في هذه الفترة من الزمن (2)

---

1) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 25 . 28
2) المرجع نفسه ـ

ولم يقتصر الامر في تسريب الاسواق الاسلامية بالرقيق على ما يؤسر ويسبى خلال الحروب وعلى ما ينتزع بقوة السلاح وعنف العدام وانما ظهرت صيغة جديدة صاحبة لعقود الصلح التي ابرمها الفاتحون مع حكام البلاد المعادية .

وهي صيغة سلمية تتمثل في دفع ضريبة من الرقيق في شكل جزية او خراج (1) و تدل على ان المسلمين قد جنحوا الى هذه الصيغة لحاجاتهم المتزايدة الى الرقيق ولانها توفر لهم ما يريدون دون ان يتكبدوا خسارة في الانفس والاموال . وبذلك تصبح هذه العطية قريبة من العطيات التجارية وارهاصا لما سيظهر في العهود الموالية من نشاط في حركة توريد الرقيق وجلبه من الاصقاع الاجنبية (2).

وقد توخى المسلمون هذا الاسلوب في مناطق من دار الحرب مثل تركستان وشمال افريقيا والنوبة وارمينية (3) ولم يبالوا بتناقضها مع تعاليم الشريعة المتعلقة بمفهومي الجزية والخراج ولعل في تجاوزهم لهذه الحدود الشرعية ما يدل على وجود ضغوط

---

1) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 44 - 46

2) برنشفيك Brunschvig مقال عبد ـ دائرة المعارف الاسلامية ج 1 ص 33

3) بلاذري ـ فتوح البلدان ص 209-210 وص 225-227 وص 237-239

اجتماعية واقتصادية جعلت حاجاتهم الى هذه البضاعة الآدمية في تزايد مستمر وعلى ان الفتوحات لم يكن بامكانها ان تشكل مصدارا قارا لهذه البضاعة خصوصا اذا علمنا ان انطلاقة الفتح قد بدأ يدركها الفتور والتقلص منذ اواسط القرن الاول للهجرة .

د- توفر مادة الرقيق

ليس غريبا اذن ان يصبح الاسر خلال الفتوحات اكبر مصدر للرقيق في هذا العصر فقد خول الفتح للمسلمين الحصول على مجموعات وفيرة من هذه المادة التجارية لانهم كانوا اذا غلبوا جندا او فتحوا بلدا اسروا الرجال وسبوا النساء والاطفال واقتسموا الاسرى والسبي فربما زاد عددهم في المعركة الواحدة على عشرات الالوف (1) فتختم اعناقهم ويقسمون على الاسهم فيكون في سهم الفارس من المقاتلة مائة اسير او جارية في المعركة الواحدة فيحصل عند بعضهم بتوالي الوقائع الف عبد او اكثر (2) وقد يقضي الفاتحون عدة اشهر في بيع ما بايديهم من الرقيق اثر فراغهم من المعارك (3) وقد اثرت هذه الوفرة احيانا في اثمان

1) جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ث 44
2) ابن الاثير - الكامل ج 4 ص 147
3) المقري - نفح الطيب ج 1 ص 213

تلك البضاعة فروي ان الاسير قد بيع بدرهم وبيع السيف بنصف درهم في احدى الوقائع (4).

وقد تكاثر الرقيق منذ عهد الخلافة الراشدية اي منذ بداية عصر الفتوحات الاسلامية وقد امتلك الخلفاء الراشدون انفسهم اعدادا وفيرة منه حتى روي ان الخليفة عثمان قد كان عنده الف عبد (2). وما ان عملية الاحصاء تعتبر في هذا الباب ضربا من المحال فلنقدم صورة عن كثرة الرقيق ببعض الاقاليم الاسلامية في هذا العصر. فقد ذكر الطبري ان بالكوفة قبيل موقعة صفين (-37- هـ/-658 م) خمسة وسبعون الف 57,000 من المماليك وثمانية آلاف من الموالي وقد اشتركوا جميعا في تلك الموقعة (3) فهم يبلغون حوالى ثمن 8/1 سكان تلك المدينة اذاك. وقد كانت هذه النسبة موجودة بمدينة البصرة ايضا (4) ومن الأدلة على كثرة الموالي والعبيد من عهد بني امية ان عددهم في جند المختار بن ابي عبيد

1) الصدر نفسه ح 1 ص 209
2) الدميري - حياة الحيوان الكبرى ج 1 ص 49
3) الطبري - تاريخ الامم والملوك ج 6 ص 83 (ط-مصر-1326هـ)
4) ابن الاثير - الكامل ح 4 ص 121 زيدان -
تاريخ التمدن الاسلامي ح 4 ص 87

الذي قام بالعراق للمطالبة بدم الحسين وبالخلافة لمحمد بن الحنفية سنة (66هـ/-685م) قد كان اكثر من عدد الاحرار فقد بلغ عدد قتلاهم سنة (67هـ/-686م) ستة الاف ليس فيهم من الاحرار سوى سبعمائة 700 (1) وهنالك دلائل اخرى على وفرة هذا الرقيق نستنتجها من بعض احكام الفقهاء في تلك الفترة فهم يؤكدون على ان يكون لكل عائلة خادم فيخولون للمطلقة ان تطلب من زوجها خادما ايام العدة (2) ونحن لا نشك في ان بعض العائلات الفقيرة لم يكن بوسعها اتخاذ خادم للقيام بشؤونها لكننا واثقون من ان العائلات الغنية كانت تستخدم اكثر من خادم واحد . فالمهم هو توفر هذه البضاعة الآدمية بقطع النظر عن كيفية توزيعها . فمما يروى عن عبد الله الاصفهاني مثلا انه كان يملك اربعمائة 400 عبد حاربوا معه الحجاج (3) . فهذه الارقام تدل كلها على وفرة الرقيق بالرغم من انها لم تشمل العبيد المستخدمين خارج المدن اي في اراضي الفلح والزراعة .

---

1) ابن الاثير - الكامل - ج 4 ص 121 - زيدان-تاريخ التمدن الاسلامي ح 4 ص 87

2) فنسنك - Wensinck - مفتاح كنوز السنة ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي - مادة ((خادم))

3) البلاذري - فتوح البلدان ص 367 - انساب الاشراف - ح 5 ص 136 ابن الاثير - الكامل ج 3 ص 173 - زيدان تاريخ التمدن الاسلامي - ح 4 ص 87

وقد استخدم المسلمون فى هذا العصر رقيقهم في توسيع نطاق الجيوش واعداد الحملات الضرورية لمواصلة الفتح ووجدوا فيه خير اداة لمواجهة حاجاتهم العسكرية فلم يكونوا يسهمون لهم بعد الحرب وانما كانوا يوضخون لهم اي يعطونهم اجرا (1) فمنذ ايام الخليفة علي بن أبي طالب (34 - 39هـ / 655-660م) كانت نسبة الموالي والعبيد الى الاحرار في الجند كنسبة واحد الى خمسة كما استخدموا فريقا منهم فى اشغال التعمير كحفر الترع والقنوات وتشييد الأبنية العامة او فى شؤون اجتماعية كالخدمة فى البيوت والاشتغال بالمهن والحرف خصوصا ان العرب فى هذا العصر كانوا يترفعون عن هذه الاهتمامات واشباهها من الاعمال اليدوية ويميلون الى التفرغ لاعمال الفكر والسياسة والحرب وكانوا يكلون شؤونهم الصناعية والتجارية لهؤلاء الرقيق لانها فى نظرهم خليقة بمنزلتهم (2).

---

1) العلي - التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة - ص 72

2) المرجع نفسه

5) اجناس رقيق الفتح

هكذا تجمعت اصناف شتى من الرقيق من فارسي ورومي وبربري وقبطي وديلمي وهندي وافرنجي ونوبي وتركي وقوطي الى غير ذلك من الاجناس التى اسرها الفاتحون والقوابها الى الاسواق الاسلامية الداخلية (1) وبامكاننا ان نقدم صورة عن اهم هذه الاجناس التى وقعت بين ايدي الفاتحين الغزاة وكونت المادة التجارية الاساسية فى هذه الفترة من الزمن .

أ- الرقيق الفارسي

ان من اهم انواع الرقيق التى تداولتها الاسواق الاسلامية واغزرها عددا اذاك الرقيق الفارسي فنحن نعتقد ان هذا النوع قد كان اكثر الاصناف رواجا خصوصا فى القرن الأول للهجرة وانه كان يكون طبقة اجتماعية ذات وزن كبير فى نطاق المجتمع الاسلامي . وبالرغم من ان عطيات الاحصاء تتعذر فى هذا المجال يجوز لنا ان نقول ان ما حصل بين ايدي الغزاة من رقيق فارسي قد كان اضعاف

1) جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 87

ما حصلوا عليه من الرقيق الرومي او المنتمي الى الولايات البيزنطية المفتوحة . ومما يبرر قولنا هذا ما نعرفه من ان الحرب بالعراق وفارس قد كانت اشد ضراوة ودواما منها بسوريا و مصر ثم ان احتلال العرب الكامل للامبراطورية الفارسية وزوال تلك الامبراطورية قد الغى امكانية فداء اسراها بينما تمكن الروم بفضل بقاء الامبراطورية البيزنطية من فداء اسراهم كلما اتيحت لهم فرصة الفداء (1).

فالموالي الذين اشتهر امرهم بالعراق قد كانوا يمثلون طبقة اجتماعية باسرها وكان الكثير منهم رقيقا في بداية الامر اعتقوا فصاروا موالي وان كان بعضهم الاخر خاضعا لولاء الموالاة الخاص بالاحرار . وعلى كل فان هذه الفئات الكبيرة التي اشتهرت خاصة في اواخر القرن الاول وكامل القرن الثاني للهجرة واحدثت رجات وانقلابات في صلب الحياة الاجتماعية ورفعت لواء الشعوبية وناوأت الحكم الاموي ورفعت شعار آل البيت قد كانت قبل ذلك في شكل رقيق وكانت تمثل عبيد العراق في ظل بني امية طلبة القرن الاول للهجرة (2)

---

1) كلود كاهان Cl. Cahen - الشعوب الاسلامية ص176

2) المرجع نفسه : ص 176

ويلاحظ المتتبع لاخبار الفتح ان المسلمين قد تمكنوا من استنزاف حاميات المدن الفارسية كحاميات ((ميسان)) و ((تستر)) و ((مناذر)) و ((السوس)) و ((سجستان)) واستطاعوا ان يغنموا من ((سجستان)) وحدها اربعين الف راس . 40.000 من الرقيق وذلك في حملات الربيع بن زياد الحارثي التي استغرقت ثلاثين شهرا . وفرض المسلمون فضلا عن هذا الغنم الف عبد تدفعها ((سجستان)) سنويا مع الجزية (1) وقد فتحت مدن اخرى غنوة مثل ((سوق الاهواز)) و ((رامهرمز)) و ((الشيبان)) و ((سابور)) و ((اصطخر)) و ((اردشير خره)) و ((جيرفت)) وهي مدن لا نملك اخبارا عن حامياتها المقهورة ولكننا نعلم مايستتبعه الفتح عنوة من اسروسبي (2) هذا بالاضافة الى ماأحرزه الفاتحون من رقيق كان ملكا للاسياد الساسانيين انفسهم فلماتقهقروا امام هجمة الغزاة تركوا عبيدهم غنيمة للغالب (3).

---

1) البلاذري - فتوح البلدان - ص 370 وما بعدها
2) المصدر نفسه .
3) العلي - التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بالبصرة - ص 64

ب - الرقيـــــق الـــــرومـــي

امـــا الرقيـــق الـــرومي فقـــد انتجتـــه فتـــوح الشـــام وفلسطيـــن ومصـــر و ســـائـــر البـــلاد التـــي كـــانـــت خـــاضعـــة للسلطـــة البيـــزنطيـــة . فمنـــذ وقعـــة تبـــوك (9 هـ/ - 629 - م) في عهـــد الرســـول ووقعـــة اليرمـــوك (15 هـ/ - 636 - م) في عهـــد عمـــر بن الخطـــاب (13 - 23 هـ/ 634 - 644 م) كـــان المسلمـــون يأســـرون الحاميـــات الروميـــة ويســـترقـــون افـــرادهـــا فيقعـــون في المقـــاسم ويبـــاعـــون بالاســـواق . وبالـــرغـــم من ان هـــذا النـــوع من الرقيـــق كـــان فيمـــا يبـــدو اذاك دون الرقيـــق الفـــارسي كثـــرة لان عطيـــة الفـــداء كـــانت ممكنـــة ولان العـــديد من المـــدن الخـــاضعـــة للـــروم قـــد فتحهـــا المسلمـــون صلحـــا مثـــل مـــدن الشـــام ومصـــر (1) فـــان هـــذا الـــرقيـــق قـــد تـــوفـــر وتـــزودت بـــه الاســـواق الاســـلاميـــة .

---

1) البـــلاذري - فتـــوح البلـــدان - ص 115 - 143 وص 215 - 223 ابن الاثيـــر - الكـــامـــل ج 2 ص 279

ومن اشهر الامثلة على ما انتجه الفتح من رقيق رومي ما يروى من ان معاوية (35 - 54 هـ/ 661 - 680 م) قد ارسل اربعة آلاف راس من سبي قيسارية بارض فلسطين الى عمر بن الخطاب وكانت قيسارية قد فتحت عنوة بعد حصار دام سبع سنوات وذلك سنة (19 هـ/ - 640 م) (1). وكما اسفرت فتوح المشرق عن رقيق رومي اسفرت فتوح المغرب عن هذا النوع من الرقيق لان الهيمنة البيزنطية كانت ممتدة الاطراف على سواحل البحر الابيض المتوسط شرقيه وغربيه . فقد واجه المسلمون الروم في شتى مستعمراتهم بشمال افريقيا والاندلس وجنوب ايطاليا كما واجهوهم في مستعمراتهم بآسيا فحصل بين ايديهم نتيجة لتلك المواجهة المستمرة رقيق رومي زود الاسواق الاسلامية في هذا العصر .

---

1) البلاذري - فتوح البلدان - ص 147 - 145

ج - الرقيق التركي

وقد وفرت فتوح بلاد ما وراء النهر اعدادا من الرقيق التركي للاسواق الاسلامية .

ولم يكن للعرب معرفة مباشرة بالترك قبل زمن الفتح لبلادهم في خلافة عمر بن الخطاب (13 - 23 هـ / 634 - 644م) فقد عرفوا - كما راينا - انواعا من الرقيق قبل الاسلام من فرس وروم وحبش الا انهم لم يتصلوا بهذا الجنس الا بعد الاسلام وبان تجاوز الغزو حدود خرسان في زمن الخليفة عمر على انه من المفروض ان يكون المسلمون قد اتصلوا ببعض الاتراك عن طريق فتحهم للامبراطورية الفارسية نعرفوا الترك عن طريق الفرس وصادفوا عند بنيي ساسان شيئا من رقيق ما وراء النهر بسبب ما كان بين الاتراك والفرس من صدام في بعض الاحيان . وهذا الجاحظ يحدثنا عن غلمان الاتراك ومنزلتهم عند ملوك الفرس فيقول .

« ان ابرويز انفذ رسولا بهدية لم يسمع السامعون بمثلها الى ملك الروم بعقب محاربة ((بهرام جوبين)) يستنجده . وبعث اليه مائة غلام من ابناء الاتراك مختارين في صورهم في آذانهم اقراط الذهب معلق فيها حب الدر على مراكب بسروج الذهب منظمة باليواقيت والزمرد . ووصل رسل ابرويز الى ملك الروم بهذه الهدية فانجده وارسل اليه عشرين الف فارس بالسلاح وبعث اليه بالفي الف دينار لارزاق جنده والف ثوب منسوج وعشرين جارية من بنات ملوك الصقالبة باقبية الديباج المطير في آذانهم اقراط الذهب المزينة بالدر والياقوت وعلى رؤوسهن اكلة الجوهر)) (1) .

وتذكر الروايات العربية ان سمية ام عمار بن ياسر تركية الاصل وقعت في الاسر خلال الحروب التي دارت بين الترك والفرس ثم ادت بها التنقلات الى الطائف (2) كما يروي صاحب

---

1) الجاحظ - المحاسن والاضداد - ص 369

2) بلاذري - انساب الاشراف - ج 1 ص 489

الذخائر والتحف ان الفاتحين قد ظفروا عند فتحهم لبعض مدائن فارس بسيف ((خاقان)) يدعى فارسلوهما الى الخليفة عمر (1). فلا شك اذن في ان فتح المسلمين لفارس قد جلب لهم في الغنائم رقيقا تركيا . وان المسلمون قد احرزوا منذ اوائل الخلافة الراشدة شيئا من رقيق الترك وان قليلا وكانوا اذا ظفروا به اهدوه الى اكابر رجال الدولة لندرته ونفاسته .

كان للعرب اذن اتصال اولي وغير مباشر بهذا الجنس وسمعوا عنه الكثير عن طريق العنصر الفارسي المجاور لاقاليم التركستان ولعل الفكرة الاساسية التي رسخت في عقول القادة العرب منذ ذلك الوقت المبكر هي قوة بأس الاتراك وشدتهم، وعلى ضوء هذه الفكرة يمكننا ان نفهم احتراز الخليفة عمر من عبور نهر جيحون وتقدم الفتوح في بلاد الاتراك (2) . الا انه لا يمكننا

---

1) ابن الزبير - الذخائر والتحف - ص 159

2) الطبري - تاريخ الامم والملوك ج - 4 - ص 264 (ط. المطبعة الحسينية - مصر)
الجاحظ - فضائل الاتراك - الرسائل ج 1 ص 58

الحديث عن مصدر قار للرقيق التركي كفيل بتزويد الاسواق الاسلامية الا ابتداءا من عهد الغزاة لنهر جيحون انطلاقا من اقليم خراسان في ظل خلافة عثمان بن عفان (23 - 34هـ 644-655م) سنة (22هـ/ 642م) ومنذ ذلك التاريخ بدأ فتح بلاد الاتراك وطالت مدته بسبب ما عرف به اهل تلك الاقاليم من شدة بأس وقوة مراس في الحرب فلم يتمكن المسلمون من التغلغل في بلادهم الا بعد فترة طويلة من الزمن كانت الحروب فيها بين مد وجزر وكان الفتح خلالها على مراحل متعاقبة . وقد اسفرت تلك المصادمات المتوالية عبر القرن الاول وبداية القرن الثاني للهجرة عن مقادير وفيرة من الرقيق التركي مثلت رصيدا هاما قامت على اساسه المعاملات التجارية بعد ذلك وسدت حاجة المجتمع الاسلامي في ذلك العصر الى هذه المادة الاساسية .

واذا ما تأملنا في مراحل هذه الفتوحات تبينا وفرة ما كانت تدره على الفاتحين من غنائم واسرى

وسبي وشراء هذا المعين ببضاعه الرقيق .

وفي المرحلة الاولى تمكن الاحنف بن قيس من عبور نهر جيحون في عهد عثمان (23 - 34 هـ/644-655م) ومن فتح عدة مناطق صلحا مرة وعنوة اخرى وامر عليها قيس بن الهيثم (1) واثر ركود الفتح بسبب الفتنة المندلعة بعد مقتل عثمان بدات المرحلة الثانية على يد معاوية (41 - 61 هـ/661-680م) وابنه يزيد (61-64/680-683م) وكان ولاة خراسان هم المضطلعون بعطيات الغزو لصاقبة ولايتهم لدار الحرب . فقام لولك الولاة مثل عبد الله بن زياد وسعيد بن عثمان ابن عفان بدور هام في هذا الفتح وتمكنوا من فتح سمرقند . اما المرحلة الثالثة فقد انجزت على يد الحجاج الذي ولى قتيبة ابن مسلم الباهلي خراسان سنة (86هـ/ 705 م) وكلفه بمهمة الفتح وكان ذلك زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك (86 هـ/ 705 م - 97 هـ/ 715 م) اكبر الفاتحين (2)

---

1) بلاذري - فتوح البلدان ص 575

2) زكريا كاتبجي - الترك في مؤلفات الجاحظ ص 54 . 74

بعد الخلفاء الراشدين ثم تواصل الفتح في زمن سليمان بن عبد الملك (97 - 99 هـ/715-717م) وهشام بن عبد الملك (105 - 125 هـ/ 724-743 م) الى ان توقف سنة 125 هـ بظهور الثورة العباسية هكذا كان فتح ماوراء النهر على مراحل شأنه في ذلك شأن فتوح افريقية والمغرب لتشابه في الاسباب .فبالاضافة الى ما احدثته الفتنة من تأخير لموعد الغزو كان هناك تشابه بين البربر والترك في مقاومة الغزاة وفي ضراوة النزال كما كانت تلك الضراوة والقسوة سببا في تكاثر الأسرى والسبي من الاتراك والبربر .

وما كانا ان نقدم صورة مختصرة عن مقادير الرقيق التي دخلت بلاد الاسلام من جراء غزو ما وراء النهر وليس غرضنا منها الاحصاء لانه متعذر ولكننا نكتفي بالامثلة المشهورة للدلالة على غزارة الرقيق التركي في هذه الفترة من الزمن فمما يروى مثلا عن سعيد بن عثمان والي خراسان في عهد معاوية انه عبر نهر جيحون سنة (54 - 55 هـ / 674 - 675 م) وصالح

ملكة بخارى على ان تخلي له طريق سمرقند واخذ منها ثلاثين غلاما من ابناء الملوك رهائن على الوفاء فسهلت له الطريق ومضى الى سمرقند وسبي ثلاثين الف راس 30.000 ثم رجع الى بخارى فطلبت منه الملكة ارجاع الرهائن فما طلها الى ان عبر النهر ولم يردهم عليها ومضى الى المدينة فجعل من اولئك الرهائن فلاحين في نخل وحرث بها (1).

ومما يروى عن قتيبة بن مسلم انه حاصر مدينة بخارى اربعة اشهر ثم فتحها وسبى منها خمسين الف راس 50.000 (2) وكان ذلك سنة (90هـ/ 708 - م) كما سبق الكثير في فتحه لبيكند ومدن اقليم خوارزم الاخرى . ثم انتقل الى اقليم الصغد فحاصر سمرقند ثم صالحها على ان يعطي اهلها في تلك السنة ثلاثين الف راس 30.000 ثم ذهب الى الشاش (طشقند اليوم) وفتحها سنة (95 هـ/ 713 م) ولما مات الحجاج في تلك

1) البلاذري - فتوح البلدان ص 579 - ابن حبيب - اسماء المغتالين - نوادر المخطوطات ج 2 ص 166

2) ياقوت - معجم البلدان ج 3 ص 356

السنة لم يبال بموته وهجم على اقليم فرغانة بجوار الصين (1) وقد بلغ ظلم ولاة بني امية حدا صاروا معه يغزون البلاد التي فتحت صلحا فيلغون صلحها ويعيدون فتحها عنوة طمعا في الغنيمة مثلما حدث لسمرقند التي صالح أهلها سعيد بن عثمان على مال يؤدونه الى الخليفة ثم جاء قتيبة ففتح بلادهم قهرا ولذلك نراهم يشكون لعمر بن عبد العزيز (99 - 101 هـ / 717 - 720 م) هذا التصرف عندما لاحظوا عدله فارجع بلادهم الى الصلح (2).

وقد كثر سبي الغزاة في بلاد الاتراك على يد يزيد بن المهلب فبلغت مقاديره ارقاما ضخمة تعد بالالاف وقد كان فتحه لجرجان سببا في تدفق افواج الرقيق على بلاد الاسلام وقد كان يزيد هذا ينافس قتيبة في فتوحاته ويغار منه إذا امتدحه الخليفة

1) شكري فيصل - حركة الفتح الاسلامي - ص 169

2) الطبري - تاريخ الامم والملوك ج 8 - ص 134 - 138 (ط. للطبعة الحسينية - مصر)

سليمان بن عبد الملك (97 - 99 هـ / 715 - 717 م) بحضرته فكان يجيب الخليفة دائما بان الفتح الكبير هو فتح جرجان (1) فلما اضطلع يزيد بغزو هذه المنطقة أظهر من الاستبسال جانبا كبيرا واوسع في الترك قتلا وسبيا وكان عدد اسراه اثني عشر الفا 12.000 حسب قول ابن الاثير - يقول صاحب كتاب الكامل واصفا هذا الفتح ((لما صالح يزيد اصبهبد طبرستان سار الى جرجان وعاهد الله تعالى لئن ظفر بهم لا يرفع السيف حتى يطحن بدمائهم ويأكل من ذلك الطحين فاتاها وحصر اهلها ... فانقطعوا جميعا الى حصنهم وركبهم المسلمون فاعطوا بايديهم ونزلوا على حكم يزيد فسبى ذراريهم وقتل مقاتلتهم وصلبهم فرسخين الى يمين الطريق ويساره وقاد منهم اثني عشر الفا الى وادي جرجان وقال من طلبهم بثأر فليقتل ...))(2).. وقد تمكن يزيد هذا عند توليه لخراسان من ان يفتح حصن قهستان

---

1) ابن الاثير - الكامل - ج 5 ص 11

2) المصدر نفسه - ج 5 ص 14

سنة (98هـ / -716- م) وهي نفس السنة التي غزا فيها جرجان واحرز من السبي كميات كبيرة ايضا (1).

تلك صورة موجزة عما وفرته الفتوحات من الرقيق التركي وما من شك في ان المسلمين قد وجدوا فيه تلبية لحاجاتهم الاجتماعية والاقتصادية والحربية فنحن نجد الرقيق التركي في الجيش الاسلامي منذ عهد معاوية . فقد اتخذهم سعيد بن عثمان في جيشه بعد فتحه لسمرقند (2) كما لا يستبعد ان يكون قتيبة بن مسلم قد جند بعضهم اذ لم يكن بجيشه من الاعاجم بعد فتح بخارى سوى 7.000 من الديلم على 47.000 من العرب (3) واذا ما سلمنا بما وراء الطبري من ان قتيبة قد طلب من اهالي بخارى ان يمدوه بجنود من الجيوش المحلية ادركنا حاجته الى تدعيم جيشه ورجحنا اعتماده على ما حصل بين يديه من رقيق تركي (4) وقد ذكر ياقوت في معجمه ان ولاة الامويين كانوا ينقلون العبيد الاتراك الى سكة بالبصرة

---

1) المصدر نفسه ج 5 ص 12
2) حسن ابراهيم حسن - تاريخ الاسلام ج 1 ص 301
3) المرجع نفسه
4) الطبري - تاريخ الامم والملوك ج - 8 - ص 67 وما بعدها (ط المطبعة الحسينية - مصر)

تدعى البخارية نسبة الى مدينة بخارى التي نقلوا منها . وكانوا يتدربون هناك على حمل السلاح وفن القتال وكانوا يجيدون الرمي بالنشاب (1) كما اتخذ الخلفاء الامويون حرسا خاصا من هذا الرقيق في قصورهم منذ عهد عبد الملك بن مروان (65هـ/ - 685 م) (86هـ/ -705- م) الذي كان يستعطهم في قمع بعض الثورات كالتي قام بها الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي ويروي ابن كثير انه كان من بين هذا الحرس التركي فرقة من اهل فرغانة (2) كما سبق هذا النوع من الرقيق حاجات اخرى في المجتمع الاسلامي آنذلك وقد سبق ان اشرنا الى ان سعيد بن عثمان قد استعمل غلمانا اتراكا في فلاحة نخل وحرث بالمدينة (3).

---

1) ياقوت معجم البلدان ج 3 ص 356 ـ ابن عبد ربه العقد الفريد ج 1 ص 191 الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ج 6 ص 167

2) ابن كثير ـ البداية والنهاية ج 9 ص 27

3) البلاذري ـ فتوح ـ ص 579

د- الرقيـــــــق السنـــــدي

ومـــن الرقيـــق الـذي راج في الاســـواق الاسلاميـــة في عصـــر الفتـــوحات الرقيـــق السنـــدي الذي وفـــره غـــزو المسلميـــن لا قليـــم السنـــد منـــذ سنـــة (38هـ/ 658م) من خـــلافـــة علي بن ابي طـــالب (35 - 40 هـ/ 655 - 660م) وكـــان الفـــاتح في عهـــد الحـــارث بن مـــرة العبـــدي الـــذي روي عنـــه انـــه سبـــى وقســـم من يـــوم واحـــد الف راس(1). فقـــد اسفـــر فتـــح مـــدن هـــذا الاقليـــم مثـــل ((مكـــاران)) و ((الديبـــل)) و ((البيـــرون)) و ((مهـــران)) عـــن عـــدد كبيـــر من الرقيـــق ومما يـــروى في هـــذا الصـــدد ان مـــدينـــة ((راور)) لما فتحهـــا محمـــد بن القاســـم عنـــوة كـــان بهـــا امـــرأة لداهـــر ملـــك السنـــد فخـــافت ان تـــؤخـــذ فاحرقت نفسهـــا وجواريهـــا وجميـــع مـــا لهـــا (2) فتصـــرفهـــا هـــذا يـــدل على ان عطيـــات السبي كـــانـــت مرافقـــة لهجـــومـــات الفـــاتحيـــن اذاك . ومـــن احســـن الامثلـــة على كثـــرة مـــا وقـــع في يـــد فـــاتح السنـــد محمـــد بن القاســـم من الرقيـــق مـــا يـــذكـــره ابن الاثيـــر في تاريخـــه لغـــزو مـــدينـــة الملتان

1) البلاذري ـ فتوح البلدان . ص 421
2) ابن الاثير ـ الكامل ـ ج 4 ص 220، 221

سنة (89 هـ / 708 م) يقول ((ثم قطع نهر بياس الى الملتان فقاتله اهلها وانهزموا فحصرهم محمد فجاءه انسان ودله على قطع الماء الذي يدخل المدينة فقطعه فعطشوا فالقوا بايديهم ونزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية وسدنة البدّ وهم ستة الاف)) (1). وفعل محمد ابن القاسم بمدينة كيرج مثل فعله بمدينة الملتان فقتل اميرها ((دوهر)) وسبى اهلها وكان ذلك سنة (95 هـ / 713 م) (2) ومن اشهر سبايا محمد بن القاسم سبيه للاميرة سيتا بنت الملك داهر (3) وقد واصل يزيد بن ابي كبشة في عهد سليمان بن عبد الملك (97-99هـ / 715 - 717 م) وعمرو بن مسلم الباهلي في عهد عمر بن عبد العزيز (99 - 102 هـ / 717 - 720م) والجنيد بن عبد الرحمن في عهد هشام بن عبد الملك (105 - 125 هـ / 724 - 743م) ما بداه محمد بن القاسم في عهد الوليد بن عبد الملك (86 - 97 هـ / 705 - 715 م) (4).

---

1) الصدر نفسه ـ ج 4 ص 221 محمد عبد الغني حسن بطل السند ص 49

2) الصدر نفسه ج 4 ص 240 ياقوت معجم البلدان ج 5 ص 227 228 دار صادر بيروت (1376هـ / 1957 م)

3) محمد عبد الغني حسن ـ بطل السند ـ دار المعارف بمصر الطبعة الثانية عشرة ـ 1972 ـ ص 45

4) الصدر نفسه ج 4 ص 241

وهكذا دخل رقيق الهند بلاد العرب في شكل اسرى وسبايا فكان علي ابن ابي طالب (34 - 39 هـ/655-660م) اول من تزوج هندية من سبي الهند تدعى ((خولة)) وانجب منها ابنه الشهير محمد بن الحنفية وكذلك كانت سلافة ام زين العابدين سندية قال ابن قتيبة في المعارف . ((واما علي بن حسين الاصغر فليس للحسين عقب الا منها ويقال ان امه سندية يقال لها سلافة ويقال غزالة خلف عليها بعد الحسين زين العابدين مولى الحسين فولدت له عبد الله ابن زيد فهو اخو علي بن الحسين لامه)) وكانت حبابة جارية يزيد ابن عبد الملك (102-106هـ / 720 - 724م) سندية وكان يحبها كابنته حتى كانت تناديه بالاب فزوجها يزيد من عمر بن هبيرة الفزاري فانجبت له يزيد بن عمر بن هبيرة الذي ولاه يزيد بن عبد الملك امارة العراق(1) وقد كثر الرقيق السندي والهندي في هذه الفترة من الزمن وبلغ الامر بفاتح السند ان ارسل الى الحجاج بجملة من الرط فبعثهم الحجاج الى الخليفة الوليد بن عبد الملك فنقلهم الى انطاكية (2).

---

1) ابن قتيبة - المعارف - ط 1960 - ص 369 - محمد اسماعيل الندوي - تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ص 45 . 47

2) محمد عبد الغني حسن - بطل السند ص 54

الرقيـــــق البربـــــري

وقد تزودت الاسواق الاسلامية برقيق كثير خلال فتح بلاد المغرب والاندلس وقد اشتهر من هذا الرقيق البربري خاصة. ويمكننا ان نقدم صورة موجزة عن الاعداد الوفيرة من الرؤوس التي كان يرسلها الغزاة في هذه الفترة الى مركز الخلافة بدمشق . فقد ذكر المؤرخون لفتوح البلدان ارقاما ضخمة لانشك في انها لم تسلم احيانا من المبالغة والتضارب ولكننا نعتقد انها ذات دلالات رمزية على المقادير العظيمة التي تزودت بها الاسواق بالمغرب والمشرق من هذا النوع من الرقيق . فما يروى في هذا الصدد ان عقبة بن نافع قد احرز على حوالي ثمانين الف راس 80.000 (1) وروى المالكي في ((رياض النفوس)) ان حسان ابن النعمان قد ارسل الى المشرق خمسا وثلاثين الف 35.000 راس من الرقيق (2) ويذكر ابن عذاري في حديثه عن فتوحات موسى بن نصير انه قد وقع بين يديه ثلاثمائة الف عبد 300.000

---

1) جورج مارسي G. Marçais - بلاد البربر - طبعة باريس 1946 - ص 24

2) المالكي - رياض النفوس - القاهرة - 1951 ج 1 ص 38

ارسل منهم الى الخليفة الخمس 1/5 اي ستين الفا 60.000 حسب ما تقتضيه احكام الغنيمة ثم اصاف اليهم الفا 1.000 مجاملة وتقربا الامير المؤمنين .

يقول صاحب ((البيان المغرب)) في هذا الصدد ((وكان الخمس يومئذ ستين الفا فكتب موسى الى عبد العزيز يعلمه بالفتح ويعلمه ان الخمس يبلغ ثلاثين الفا وكان ذلك وهما من الكاتب : كتب ثلاثين الفا بد لا من ستين الفا فلما قرا عبد العزيز بن مروان الكتاب وان الخمس من السبي ثلاثون الفا استكثر ذلك وراى انه وهم من الكتاب لكثرته فكتب الى موسى يقول له ((انه بلغني كتابك تذكر ان خمس ما افاء الله عليك ثلاثون الف راس فاستكثرت ذلك وظننته وهما من الكاتب واكتب بالحقيقة !)) فكتب اليه موسى ((قد كان ذلك وهما من الكاتب على ما ظنه الامير والخمس ايها الامير ستون الف راس ثابتا بلاوهم)) فلما بلغه الكتاب عجب كل العجب وامتلا سرورا . وقد كان عبد الملك كتب الى اخيه عبد العزيز ((قد بلغ امير المؤمنين ما كان من رايك في عزل حسان وتولية موسى وقد امضى لك امير المؤمنين ما كان من رايك وولايتك من وليت)) فكتب عبد العزيز

الى اخيه يعلمه بالفتح وبكتاب موسى ثم وجه عبد الملك رجلا الى موسى ليقبض ذلك منه على ما ذكر . فدفع اليه موسى مثل ذلك وزاد الفا)) (1) وفي رواية اخرى نقلها البكري عن ابن ابي حسان ((ان موسى لما فتح ((سقوما)) كتب الى الوليد بن عبد الملك ان صار اليك يا امير المؤمنين من سبي ((سقوما))مائة الف راس فكتب اليه الوليد : ويحك اظنها من بعض كذباتك فان كنت صادقا فهذا محشر الامم !)) (2).

ويصف المصادر ((ابن نصير)) في غمرة الانتصار يوزع السبايا بين رجاله ويامر لكل من خرج معه للغزو بوصيف اووصيفة (3) ويقول لاصحابه ((اصبحت اليوم في ثلاث نعم : منها كتاب امير المؤمنين بالشكر والثناء (ثم وصف ما اجرى الله على يديه من فتوحات) ثم كتاب

---

1) ابن عذاري - البيان المغرب - 40 . 41 ابن عبد الحكم فتوح افريقية والاندلس ص 87 والاحالة رقم 120 ((يذكر ابن عبد الحكم ارقاما اخرى مخالفة لما يذكره ابن عذاري))

2) البكري - المغرب - ص 117 . 118

3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 1 ص 44

ابنى عبد العزيز بصف ما فتح الله عليه في الاندلس بحمد الله تعالى (فقاموا اليه فهنؤوه) وأما الثالثة فانا اريكموها ؟ وقام فامر برفع ستر فاذا فيه جوار مختلفات كانهن البدر الطوالع من بنات ملوك الروم والبربر عليهن الحلي والحلل فهنئ ايضا بدلك . فقال على بن رباح السلمي : ((ايها الامير انا انصح الناس اليك ما من شيء انتهى الا ورجع فارجع قبل ان يرجع اليك)) قال : فانكسر موسى وفرق جواريه من حينه الى الناس))(1)

وكان شأن موسى في هذا المجال شأن غيره من غزاة بلاد المغرب في الظفر بافواج الرقيق وارسالها الى المشرق حتى عرفت بلاد المغرب في هذا العصر بكونها ولاية مصدرة للرقيق (2) وارض غنيمة واسترقاق ومستودعا يزود الاسواق الاسلامية بهذه البضاعة الثمينة وامسى الرقيق البربرى يعتبر من اوضع انواع الرقيق واجودها وقد اشتهرت منه خاصة الجواري البربريات اللائي كن

---

1) المصدر نفسه

2) محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية ص 25 ـ 33

ضرب المثل في الجمال وقيل فيهن ((كانهن البدر الطوالع)) (1) وقد بلغت اصداء هذا الجمال المسلمين بالمشرق فاشتدت رغبتهم في هذا الرقيق الجميل وكانوا يقولون عن البربر ((تزوجوا نساءهم ولا تؤاخوا رجالهم)) (2) وقد شاهد الشاعر ((ابو محجن نصيب)) بعض ما كان يرسله حسان ابن النعمان الى عبد العزيز بن مروان والي مصر من السبايا البربريات فقال ((ما رايت قط وجوها احسن من وجوههم)) (3) ولم يكن ((نصيب)) معبرا بقوله عن راي فردي فقد راجت حسب قول ياقوت اشعال سائرة تشهد باعجاب اهل المشرق بالجواري البربريات (4) .

وكان من نتائج هذا الاعجاب ان احتلت البربريات مكانة مرموقة في حريم الخلفاء والامراء نذكر منهن على سبيل

---

1) ابن عذاري - البيان المغرب ج 1 ص 44
2) ياقوت الحموي - معجم البلدان - طبعة بيروت 1955
ج 5 - راجع - مادة : بربر
3) بلاذري - فتوح البلدان - ص 231
4) ياقوت الحموي - معجم البلدان ج 5
مادة : بربر

الشمال ((راح)) اصيلة ((نفزة)) ام عبد الرحمان الداخل (138 - 172هـ/756-788م) الذي استعان باخواله البربر على انشاء حكم الامويين بالاندلس كما نذكر الجارية ((سلامة)) ام ابن جعفر المنصور (136 - 158هـ/754-775م) و ((قراطيس)) ام الخليفة الواثق (227-232هـ/842-847م) و ((قتول)) التي انجبت الخليفة القاهر ((320-322هـ/932-934)) وغيرهن كثيرات (1) ولا غرابة بعد هذا اذا كان السبي البربري من الرقيق الثمين فقد ذكر النويري ان الجارية البربرية الواحدة كانت تباع بالمشرق اذا بالف قطعة من الذهب (2) ولعل هذا الخبر هو الذي نجده عند البكري باكثر دقة عندما تعرض الى فتح عقبة بن نافع لمدينة ((ايجلي)) بين ((اغمات)) والسوس وقال ((اخرج منها سبيا لم ير مثله حسنا وتماما كانت تباع الجارية الواحدة منهن بالف دينار واكثر))(3).

---

1) ابو العرب - الطبقات - ص - 25 - محمد الطالبي - الامارة الاغلبية ص43 - 44

2) جورج مارسي Georbe .Marçais - بلاد البربر ص 24

3) البكري - المغرب - ص 162

وكان للرقيق المذكر سوق رائجة ايضا اذ اقتناه المسلمون للقيام بعديد المهام كستكوين الحرس الخاص بالخلفاء او للاستخدام في المهام العسكرية او لاستعماله في شؤون الفلاحة (1) ونبغ منه كثيرون في ميدان العلوم والمعارف فهذا ((الشعبي)) احد التابعين ومحدث الكوفة وراوية مغازي الرسول كان ابن بربرية قد اسرت في ((جلولاء)) (2) وكان ((عكرمة)) مولى ابن عباس واحد علماء التفسير ببربريا ويروى انه قدم الى افريقية ونشر العلم بها وكانت له حلقة وراء مسجد القيروان غربي الصومعة على حد قول المالكي (3) كل هذه امثلة وشواهد على اهمية الرقيق البربري في هذا العهد وانتشاره خارج حدود بلاد المغرب . وقد تواصل دور تزويد المغرب للمشرق بالرقيق مدة طويلة من الزمن لان فتوح المغرب قد تكررت طوال ثلاث وخمسين سنة وقد واجه العرب فيها من الصعوبات مالم يواجهوه في فتوحاتهم الاخرى فكان الصدام عنيفا وحملات الاسر والسبي متواصلة

---

1) جورج مارسي Marçais G. - بلاد البربر ص 24
2) ابن خلكان - وفيات الاعيان - طبعة القاهرة 1948 ج 2 ص 227 . 229
3) المالكي - رياض النفوس - ج 1 ص 92 . 93 ابو نعيم الاصبهاني - حلية الاولياء - طبعه القاهرة - 1933 ج 3 ص 245 - 326

وكان يكفي الخلفاء بالمشرق ان يكلفوا ولاتهم بمصر وافريقية لكي يحصلوا على ما شاؤوا من الرقيق الى ان انتشر الاسلام بربوع المغرب خلال القرن الثاني للهجرة واذا بدأ هذا المعين يخضب شيئا فشيئا (1).

و - رقيق فتوح بلاد السودان

وقد انتجت الفتوحات جزءا هاما من الرقيق الاسود الافريقي ودلت منذ ان قرر الغزاة الفاتحون تجاوز حدود مصر نحو الجنوب. ففي سنة 20 و 21 للهجرة وجه عمرو بن العاص والي مصر اول هجوم على بلاد النوبة بقيادة عبد الله بن سعد امير الصعيد الا على حسب ابن عبد الحكم (2) والمقريزي (3) او بقيادة عقبة بن نافع حسب قول البلاذري (4) وابن الاثير (5) وابن خلدون (6) وقد هزم المسلمون في هذه الغزوة لكنهم واصلوا بعد ذلك المناوشات طالما كانوا يفعلون مع البزنطيين (7) ولما تولى عبد الله بن سعد مكان عمرو بن العاص قاد حملة اخرى بنفسه سنة (31 هـ/ 654 م) واستطاع الوصول الى ((دنقلة)) ووقع ابرام معاهدة بين الطرفين .....

1) محمد الدالي - الامارة الاغلبية ص 25 - 33
2) ابن عبد الحكم - فتوح مصر - ص 173
3) المقريزي - الخطط - طبعات - Wiet - G - ج 3 ص 290
4) البلاذري - فتوح البلدان ص 237
5) ابن الاثير - الكامل - ج 2 ص 443
6) ابن خلدون - العبر - ج 2 ص 115
7) ابن عبد الحكم - فتوح مصر ص 169 . 170

ضبطت العلاقة بينهما مدة طويلة (1) وفي سنة (46هـ/666م) وقعت محاولة غزو اخرى بقيادة عقبة بن نافع في منطقة ((كاوار)) جنوب ((فزان)) واستطاع المسلمون خلالها ان يصلوا الى ((زويلة)) (2) وان يفتحوا كورا من كور السودان (3) وكما دخل الفاتحون الى شرقي افريقيا دخلوا الى غربيها وذلك عند فتحهم للسوس سنة (116هـ/ 734م) فقد ذكر ابن عبد الحكم ان عبيد الله بن الحبحاب ارسل سرية لفتح ((السوس)) وارض السودان تحت قيادة حبيب بن ابي عبيدة الفهري حفيد عقبة بن نافع فانتصر ورجع بغنائم وفيرة وكان من بين الاسرى جارية او جاريتان من جنس يسمى عند البربر ((اجان)) وهو جنس من النساء ليس لهن الاثدي واحد (4) وقد ذكر البلاذري هذه القصة ايضا وكذلك ابن الاثير (5). ويروي ابن الفقيه في كتاب البلدان عن ابي الخطاب المشتوي بن الاسود انه غزا عشرين مرة بلاد ((انبية)) انطلاقا من السوس الاقصى (6)

---

1) يوسف فضل حسن ـ العرب والسودان -
the Arabs and the Sudan ص 24 ـ 28
2) ابن عبد الحكم - فتوح افريقية - ص 63 . 65
مؤلف كتاب الاستبصار ـ ص 61 . 62 - (ترجمة أ. فانيان E. Fagnan)
3) ابن الاثير ـ الكامل ـ ج - 3 - ص 351 (ط. طورسبرج Tornberg 1851 - 1876)
4) ابن عبد الحكم ـ فتوح افريقية والاندلس - ص 122
5) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص 230 ومابعدها ـ ابن الاثير
ـ الكامل ـ ج - 5 ـ ص 141 - (ط - طورسبرج - Tornberg - 1851 - 1876)
6) ابن الفقيه ـ كتاب البلدان ـ ص 64

ومهما كان اتساع رقعة الفتح لبلاد السودان في هذا العصر فانه من الثابت ان المسلمين لم ينجزوا فتوحا ضخمة بها ولم يوجهوا انظارهم الى غزو تلك البلاد بصورة مطردة وجدية وانما كانت انظارهم موجهة في الغالب الى الشمال والى العدو البيزنطي . ولهذه الاسباب لم يسفر الغزو عن اعداد كبيرة من الاسرى والسبي مثلما كان الشان بالنسبة لفتح الاقاليم الاخرى بالمشرق والمغرب فهل معنى ذلك ان الاسواق الاسلامية في هذه الفترة قد كانت مفتقرة الى هذا النوع من الرقيق ؟

ان الجواب عن هذا السؤال يكون بالنفي طبعا لان صيغة اخرى من صيغ التزود بالرقيق الاسود الافريقي قد وجدت لذلك بالاضافة الى توفره بالمناوشات من حين لاخر .

وتتمثل تلك الصيغة في معاهدة سلمية ابرمت بين المسلمين والنوبة سنة (31 هـ/652 - م) اثر الحملة التي قادها عبد الله بن سعد على بلاد النوبة انطلاقا من مصر وتنص المعاهدة على الهدنة والسماح بالعبور من احد البلدين الى الاخر وضمان سلامة المسافرين . وتعرض تلك المعاهدة على اهل النوبة ان يرجعوا الى المسلمين الرقيق

الذي يأبق اليهم وان يدفعوا سنويا 360 راسا من الرقيق لبيت المال واربعين راسا للوالي بالفسطاط لخدمته الخاصة في منزله وان يتلقوا مقابل ذلك انواعا من الاغذية (1) ويرى المقريزي الذي حلل لنا محتوى هذه المعاهدة ان المسلمين كانوا يقدمون الاغذية للنوبة في شكل هبة وان الاربعين عدا المقدمين للوالي الفسطاط يمثلون استمرارا لدفع ضريبة كانت تدفع قبل ذلك اي قبل الحملة سنة (31هـ/ - 654 - م) وقد كان عمرو رفض ان يقبل هذا ((البقط)) الذي ارسل اليه كما كانت العادة اعترافا بسيادة المسلمين على مصر وذلك لان عمرا كان ينوي غزو النوبة (2) لكنه عدل عن نيته وقبل هذا ((البقط)). ولم يكن هذا الاتفاق في شكل جزية كما يقول البلاذري لان النوبة لم تفتح حسب قوله(3) .

وهكذا نفهم ان ما كان يدفع من ((بقط)) في شكل رقيق هو ((Pactum)) الاغريقي الروماني (4) وان

---

1) المقريزي - خطط - ج 3 ص 230 - ط. عباد Gwiet - القاهرة - 27-1911

2) المقريزي - خطط - ج 3 ص 292 - ط . وياد Gwiet - القاهرة - 27-1911

3) بلاذري - فتوح البلدان - ص 237

4) الطالبي - الامارة الاغلبية ص 25 - 33

النوبة كانوا قد اعتادوا دفعه وانهم كان يشترطون مقابله الاغذية الثمينة والعزيزة المنال فى بلادهم اما الرقيق المدفوع فكانوا يحصلون عليه من غارات كانوا يشنونها على بعضهم بعضا او على جيرانهم فلا غرابة ان يكون الجيش العربي قد لاحظ فقر البلاد فرأى من الاصلح قبول ((البقط)) والجنوح الى السلم واخذ البضاعة الوحيدة الموجودة بالبلاد وهي العبيد . وسوف يمتد عمر هذه المعاهدة ويتجدد عبر العصور وسيكون مصدرا خصبا من مصادر الرقيق الاسود الافريقي (1).

بامكاننا ان نلاحظ اذن ان صيغة شبه تجارية كان موجودة الى جانب عمليات الغزو التى اشرنا اليها وان هذه الصيغة السلمية قد قامت مقام الصيغة الحربية فى تزويد المسلمين بالرقيق الاسود ولعلنا لا نعدو الصواب

---

1) جان كلود جارسين Jean Claude-Garcin.
مركز اسلامي بصر العليا الوسيطة : قوص-
ص 41 - 42

اذا قلنا ان هذه العطية قد كانت شكلا واحدا من الاشكال التي سيتخذها تورید الرقيق فيما بعد وارهاصا لما سيظهر في القرنين الثالث والرابع من ازدهار تجارة الرقيق الاسود بين بلاد السودان والعالم الاسلامي - بل انها نواة لهذه التجارة منذ هذا العهد اذ تنص المعاهدة المذكورة على السماح للعرب بدخول النوبة لاشتراء الرقيق ولم تمنع الانتزاع هؤلاء التجار للعبيد بانفسهم وهو بند لم يقع احترامه دائما حسب ما نعطيه من الاخبار الواردة في تاريخ البطاركة (1).

---

1) المقريزي - خطط - ج 3 ص 293

6) تعـــــدد الاجنـــــاس

وقـــد تنـــوعت اجنـــاس هـــذا الرقيـــــق بتنـــوع البـــلاد المفتـــوحـــة فنحـــن نجـد مـــن بيـــن اجنـــاس رقيـــق الفتـــح ايضـــا العنصـــر الصينـــي اذ وصـــل المسلمـــون في عهـــد الوليـــد بن عبـــد الملـــك (85-96 هـ/705-715م) الى حـــدود الصيـــن وتمكـــن القـــائـــد قتيبـــة بن مسلـــم من ان ينطلـــق مـــن سمـــرقنـــد سنـــة (96 هـ / 714 - م) الى ادنـــي مـــدائـــن الصيـــن وهـــي ((كـــاشغـــر)) ((فغنم وسبـــى سبيـــا فختـــم اعنـــاقهـــم)) (1) لكـــن قتيبـــة عـــدل عـــن التـــوغـــل في التـــراب الصينـــي بعـــد مفـــاوضـــة مـــع ملـــك الصيـــن واختيـــار مسالمتـــه فـــلايمكـــن لنـــا ان نتصـــور في هـــذا الرقيـــق الصينـــي كثـــرة نظـــرا لعـــدم تـــوغـــل الغـــزاة في تلـــك المنطقـــة .

---

1) ابن الاثيـــر ـ الكـــامـــل ـ ح 5 ص 2

وربما كانت اجناس رقيق الفتح اكثر تنوعا من البلاد المفتوحة لان تلك البلاد كثيرا ما كانت تضم رقيقا من غير جنس اهلها مثلما كان الشأن بالنسبة الى ما وجده المسلمون من رقيق بايدي الفرس فقد روي انهم قد استولوا يوم فتحهم للمدائن على جوار ((من جواري كسرى جيء بهن من الافاق فكن تصنعن له)) (1) وقد تكون البلاد المفتوحة ايضا خاضعة لتغلب من جنس مغاير لجنس ابنائها كما كان الشان بالنسبة الى اقباط مصر الخاضعين للروم فمن الطبيعي ان يسفر فتحها عن رقيق رومي وقبطي في آن واحد (2) وقس على ذلك أيضا القوط والاسبان الذين كانوا خاضعين للهيمنة البيزنطية .

---

1) بلاذري - فتوح البلدان - ص 263
2) المصدر نفسه - ص 217 - 220 ابن الاثير - الكامل - ج 2 ص 279

الفصل الثاني

تغير الاوضاع
مع القرن الثاني
للهجرة

تغيـــــر الاوضـــــاع

مـــــع القـــــرن الثـاني للهجـــرة

لئن كـان رقيـق الفتحـات اهـم مـزود للسوق الاسلاميـة خـلال القرن الاول للهجرة ممّـا صارت معـه روافـد التوريـد التجارية في منزلـة ثانيـة بسبب توفـر البضاعـة عن طريـق الفتـح فان الاوضـاع بـدات تتغير شيئـا فشيئـا ابتـداءا من النصف الاول من القرن الثـاني للهجـرة بسبب تـزايـد الطلب وتفاقم الحاجـة من ناحية وانتشار الاسلام بين الشعوب المغلوبة من ناحيـة اخـرى وهكـذا بدات بوادر الخلل بين العرض والطلب تظهر وتنبئ بوجـود ازمـة في عملية التزود بالرقيـق لم يكـن بالامكـان الخـروج منهـا الا بتقويـة روافـد التوريـد التـي كـانت ذات دور ثانوي في الفـترة السابقـة وقـد انتجت هـذه الاوضاع المتأزمـة منـــذ نهايـة القرن الاول بعـض التوترات في صلب المجتمع الاسلامي كما سنـرى .

1) تفـاقم الحاجـة وازديـاد الطلـــب

ذلك لان المعين الاكبـر وهـو رقيـق الاسر والغنيمـة بـدأ يضعف فقـد انتشـر الاسلام في انحاء البلاد المفتوحة انتشارا لم يعد يسمح للفاتحين باسر اهلها واسترقاقهم لان الاسلام كما نعلم يعصم الحر في دمه ومالـه ورقبتـه . وهكـذا انخرم التوازن بين العرض والطلب بشان بضاعـة الرقيق وصارت البلاد الاسلامية في حاجة ملحة الى ضرورة التزود من هذه البضاعة التي امست عنصرا اساسيا في دورتها الاقتصادية ووسيلة هامة من وسائل الانتاج كما كانت هياكل الدولة وشؤون البلاط تتطلب المزيد من هذه المـادة الضروريـة لا بهتهـا وبذحهـا لان لمادة احتياجية قد تغلغلت واسلوبـا في الحياة فـد استقر وكلاهما يحتم وجود هذه المادة حتى ينتظم سير المجتمع في شتـــى مجالاته الحيوية وقد الجأت هذه الحال بعض الخلفاء والولاة والعمال الى نوع من التصرف الشاذ والمتعارض مع مبادئ الشرع في نصبة الاسرى و ... حرصا منهم على التـــــــــزود

بكميات اوفر من رؤوس الرقيق الا ان هذا التصرف لم يكن شاملا لبلاد الاسلام بل وجد في بعض الولايات فحسب وخاصة منها تلك التي عرفت منذ بداية الفتوحات مصدرا ثرا ومعينا خصبا يدر على مركز الخلافة كميات ضخمة من الرقيق وتمثل هذا التصرف في استخلاص الجزية الموظفة على المعاهدين في شكل رقيق بدل المال وقد حدث ذلك بالنسبة الى افريقية على يد عمرو بن العاص والي مصر ، ولدينا روايات اوردها البلاذري في هذا الصدد يدل جميعها على هذه الظاهرة وان اختلفت في صيغها ونحن نستعرضها هنا قبل التعليق عليها :

" حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن شرحبيل بن أبي عون عن عبد الله بن هبيرة قال : لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية سار في جنده يريد المغرب حتى قدم برقة وهي مدينة انطابلس فصالح اهلها على الجزية وهي ثلاثة عشر الف دينار يبيعون فيها من ابنائهم من احبوا بيعه "

" حدثني بكر بن الهيثم قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن سهيل بن عقيل عن عبد الله بن بهيرة قال : صالح عمرو بن العاصي اهل انطابلس ومدينتها برقة وهي بين مصر وافريقية بعد ان حاصرهم وقاتلهم على الجزية على ان يبيعوا من ابنائهم من ارادوا في جزيتهم وكتب لهم بذلك كتبا " .

" حدثنا ابو عبيد القاسم بن سلام قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن يزيد بن ابي حبيب ان عمرو بن العاصي كتب في شرطه على اهل لواتة من البربر من اهل برقة ان عليكم ان تبيعوا ابناءكم ونساءكم في فيما عليكم من الجزية ، قال الليث : فلوكانوا عبيدا ما حل ذلك منهم "

" وحدثني بكر بن الهيثم قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن ابي لهيعة عن يزيد بن ابي حبيب ان عمر بن عبد العزيز كتب في اللواتيات : ان من كانت عنده لواتية فليخطبها الى ابيها او فليردها الى اهلها : قال : ولواتة قرية من البربر كان لهم عهد "(1)

---

1) البلاذري ـ فتوح البلدان ص 225ـ227

تلك هي الروايات التي اوردها البلاذري ونحن نجدها ايضا عند ابن عبد الحكم (1) وابن الاثير (2) والبكري (3) مع بعض الاختلافات الجزئية وهي كلها تتعلق بقبيلة لواتة من البربر ببرقة ، وتنص على أنّ الجزية استخلصت منهم في شكل رقيق وهي طريقة في الاستخلاص تتنافى مع ما قرره جمهور الفقهاء بخصوص هذه الضريبة ، اذ اجمعوا على انها ضريبة شخصية ونقدية تقدر بدينار يطلب من القادر على دفعه . واذا ما كنا نجد من بينهم من يقبل مثل الامام الشافعي ان تدفع الجزية عينا اي متاعا او قواتا اعتمادا على ان الرسول صالح اهل نجران على عدد من الحلل (4) فاننا لم نرهم صرحوا بان هذا المتاع يمكن ان يكون رقيقا ولهذا الغرض اعتبر هذا التصرف انحرافا في عهد عمر بن عبد العزيز فامر بارجاع اللواتيات الى اهلهن او حمل مالكيهن على خطبتهن ونكاحهن ولو كان وجه ذلك التصرف طبيعيا لما نهى عنه هذا الخليفة المعروف

---

1) ابن عبد الحكم ــ فتوح افريقية والاندلس ـ ص 35ــ36
2) ابن الاثير ــ الكامل ـ ترجمة ـ أ. فاغنان ـ E Fagnan ـ ص 7
3) البكري ــ المسالك والممالك ص 14 ــ المغرب ص 4ــ5
4) الشافعي ــ الام ــ ج 4 ص 190 ابو يوسف ــ كتاب الخراج ص 69ــ72

بعدلـه وتقـواه (1) فهذه الاحداث كما يتضح لنـا اذن قـد أدّى اليها تصرف بعض القـادة استكثارا من الرقيـق دون مبالاة بما حدده المشرع في شان الجزيـة ولا يمكن لنا ان نستنتج منها ان هذا التصرف قد شاع في شتى الانحاء وشمل كل البلاد المفتوحـة او جلها وليـس لدينـا ايضا دليل على انها امست القاعـدة بالنسبـة الى البربر كلهـم كما يبدو من خلال كلام فلهوزن (2) عن هـذه الاحداث اذ راى فيها قـاعـدة بالنسبـة الى الجزيـة الموظفـة على البربـر ، وقد بـين الاستـاذ الطالبي ضعف هذا الراي بنقـده لتلك الروايات وابرز ان جزيـة فـي شـكـل رقيـق قد وجدت فعلا دون ان نستطيع التأكيـد بان جميـع البربر قد خضعوا لها بصفـة منتظمـة او في منطقـة كاملـة (3) فهـو اذن تصرف شاذ احوجت اليـه ظروف معينـة هي الرغبـة في الاستكثار من الرقيـق وقد اعتبرت هذه الحوادث رغم شذوذهـا سـابقـة

---

1) البلاذري ــ فتوح البلدان ــ ص 227

2) فلهوزن - . wellhausen تاريخ الدولة العربية-تعريب أبي ريدة وجموس ص 235ــ296

3) الطالبي ــ الامارة الاغلبيـة ص 25 وما بعدهـا .

استند اليها بعض الفقهاء فيما بعد في جدالهم الفقهي واجتهاداتهم المختلفة لكي يجوز احدهم وهو الليث بن سعد استخلاص الجزية في هذا الشكل لان التعاقد قد حدث مع الاحرار فيجوز قبول ما صالحوا عليه وهذا معنى قوله " فلو كانوا عبيدا ما حل ذلك منهم " لكن هذه المجادلات نظرية يفصلها عن الواقع التاريخي الذي نصفه فاصل زمن طويل اذ دارت في النصف الثاني في القرن الثاني للهجرة كما يعتبر راي الليث شاذا ايضا بالقياس الى موقف جمهور الفقهاء (1)

لكن الحقيقة التي تبرز من خلال هذه الاوضاع هي ان تلك الظواهر الشاذة قد اعتبرت من قبل بعض المنظرين من الفقهاء خاصة في العصور الموالية حين تزايدت الحاجة الى الرقيق سابقة ومستندا لتبرير ضرب من الاجتهاد في الاحكام

---

1) برنشويك Brunschvig - مقال حول نزاع الليث ومالك - مجلة الاندلس 1950 - المجلد الخامس عشر - 15 - سفر 2 ص 337 - 377

يلائم تلك الحاجة المتزايدة ويقرر اساليب جديدة لسدها ويمكن ان نقول ان ما حدث بشان الجزية وتوسيع مفهومها قد حدث ايضا بالنسبة الى الخراج فليس اذن من باب الصدفة ان يستخلص الخراج في بعض الاقاليم في شكل بعض الرؤوس من الرقيق فقد روى لنا المقريزي ان العمال في تركستان ومصر كانوا يؤدون بعض خراج اعمالهم من الرقيق (1) وما ذلك الاجراء في الواقع الا نتيجة الطلب المتزايد على هذه البضاعة والشعور بالحاجة اليها .

ولدينا امثلة اخرى تدل على ان المسلمين قد استعملوا طرقا مماثلة للاستكثار من الرقيق منها هذه الطريقة في المصالحة على عدد من الرؤوس في معاهداتهم لبلاد الاتراك ومن ذلك ما صالح عليه يزيد بن المهلب الاصبهبد صاحب طبرستان سنة(98هـ/ 716 م) اذ صالحه على " اربعمائة رجل على كل رجل منهم ترس وطيلسان

---

1) المقريزي ـ الخطط ـ ج 1 ص 313

ومع كل رجل جام من فضة وخرقة حرير وكسوة " (1) وقد تم هذا الصلح على يد رجل يقال له حيان النبطي ثم ارسل يزيد من قبض ما صالحهم عليه .

وشبيه ايضا بهذا الصلح ما قام به والي خراسان في عهد يزيد بن عبد الملك وهو سعيد بن عمرو الحرشي (2) في حروبه مع اهل الصغد اذ روى ابن الاثير ان هذا الوالي قد سار سنة اربع ومائة (104هـ/- 723- م) الى "كش" فصالح اهلها على " عشرة الاف راس " (3).

وقد تواصلت سنة اخذ الضرائب في شكل رقيق الى زمن الرشيد(170-193هـ/786-809م) فكان وارد خراسان يبلغ 23 مليون درهم والف بقرة فضة واربعة الاف برذون والف راس من الرقيق وسبعة وعشرين الف ثوب وثلاثمائة رطل اهليلج (4) ولعل هذا الخراج هو الذي وجده المقدسي مسجلا ببعض الكتب (5)

---

1) ابن الاثير-الكامل ج 5 ص 13 (ط - مصر 1357هـ)
2) هو من بني الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة (ابن الاثير الكامل ج 5ص42)
3) الكامل لابن الاثير ج 5 ص 44 (ط - مصر 1357هـ)
4) الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص283ــ284 الدوري ــ نظام الضرائب ــ مجلة المجمع العلمي العراقي ص 79
5) المقدسي ــ احسن التقاسيم ص 340

ويحدثنا المؤرخون عن منطقة اخرى استعمل فيها الفاتحون هذا الاسلوب في استخلاص الجزية وهي بلاد ارمينية اذ فرض جند المسلمين في عهد هشام بن عبد الملك ويزيد بن الوليد(١٠٧ هـ/٧٢٤م) جزية رقيق وا متعة وا قوات على اهل البلاد وتوخوا هذه الطريقة اكثر من مرة في احتلالهم لمعاقل هذه الناحية وقد اورد لنا البلاذري نصا يروي لنا هذه الوقائع كما يلي :(ثم ان مروان (1) دخل ارض السرير فاوقع باهلها وفتح قلاعا فيها ودان له ملك السرير واطاعه فصالحه على الف راس خمسمائة غلام وخمسمائة جارية سود الشعور والحواجب وهدب الاشفار في كل سنة وعلى مائة الف مدى تصب في اهراء الباب واخذ منه الرهن وصالح مروان اهل تومان على مائة راس خمسين جارية وخمسين غلاما خماسيين سود الشعور والحواجب وهدب الاشفار وعشرين الف مدى للاهراء في كل سنة ثم دخل ارض زريكران فصالحه ملكها على خمسين راسا وعشرة الاف مدى للاهراء في كل سنة ثم اتى ارر حمزين فابى حمزين ان يصالحه فافتتح حصنهم بعد ان حاصرهم فيه شهرا فاحرق واخرب وكان صلحه

---

1) هو مروان بن محمد قائد الجند اذاك وقد ولاه هشام بن عبد الملك بعد سعيد الحرشي ومسلمة بن عبد الملك (بلاذري ـ فتوح البلدان ص 209)

ايـاه على خمسمائـة راس يؤدونها دفعـة واحـدة ثم لا يكون عليـه سبيل فيمـا يستقبل وعلى ان يحمل فيكل سنة الى امراء البـاب خمسـة الاف مدى) (1).

ومن الواضح ان هـذه الاساليب قد كانت اول مظهر من مظاهر توفير الرقيـق بطرق سلميـة واقرب المعاملات الى الصبغـة التجاريـة بعد انتهـاء عهد الصـدام والعنف . فكان الولاة يبعثون بالمـآت والالوف من الرقيـق الى البلاط بـدلا من الخراج (2) وكان الخليفـة يفرق ذلك في اهل بطانتـه او قواده وهؤلاء يفرقونـه فيمـن حولهـم ويبيعونـه فينتقـل الى الناس على اختلاف طبقاتهـم (3).

وكما احوجت هـذه الظروف الى التصرف والتوسع فـي مفهـوم الجزيـة احيانـا ادى كذلك في اقلـيم آخر هو اقلـيم النوبـة الـى تبنـي شكل قديـم من اشكال الضرائب يطلق عليـه اسم البقط مـن اللاتينيـة Pactum ويدفعـه اهل النوبـة في شكل رقيق وقـد ذكر البلاذري ان هـذه الضريبـة تختلف صبغتهـا عن الجزيـة وهي اقرب

---

1) البلاذري - فتوح البلدان - ص 210
2) زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ح 4 ص 86 - المسعودي - مروج الذهب - ج 2 ص 354 (ط - مصر - 1304 هـ)
3) زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ح 4 ص 86

الى صيغة " الهدية " منها الى صيغة الضريبة فقد تعاقد اهل النوبة على ان يقدموا الى المسلمين سنويا عددا معينا من رؤوس الرقيق مقابل اطعمة واقوات يزودهم بها المسلمون واليك ما يروي البلاذري في هذا الصدد (.... فلم يزالوا على ذلك (اهل النوبة : رماة الحدق) حتى ولي مصر عبد الله بن سعد ابن ابي سرح فسالوه الصلح والموادعة فاجابهم الى ذلك على غير جزية لكن على هدية ثلاثمائة 300 راس في كل سنة وعلى ان يهدي المسلمون اليهم طعاما بقدر ذلك) (1).

ويورد البلاذري رواية اخرى في هذا المقام يفهم منها ان هذا العقد كان يعتبر نوعا من الشراء وليس جزية ولا هدية يقول :

(حدثنا ابو عبيد القاسم بن سلام قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن ابي حبيب قال : ليس بيننا وبين الاساود عهد ولا ميثاق انما هي هدنة بيننا وبينهم على ان نعطيهم شيئا من قمح وعدس ويعطونا رقيقا فلا باس بشراء رقيقهم منهم اومن غيرهم) (2).

---

1) البلاذري - فتوح البلدان 238

2) البلاذري - فتوح البلدان ص 239

ويروي لنا روايه اخرى عن الليث بن سعد لها نفس المدلول

عندما نصها :

(حدثنا ابو عبيد عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد قال : امما الصلح بيننا وبين النوبة على ان لا نقاتلهم ولا يقاتلونا وان يعطونا رفيقا ونعطيهم بقدر ذلك طعاما فان باعوا سماءهم وابناءهم لم اربذلك باسا ان يشتروا) (1) .

ومن الواضح ان هذه الروايات تهدف الى تبرير موقف الحنفي الاسلامي وتبحث له عن المبرر الفقهي لتصرفاته وما من شك في ان قواد الحنفي لم يكونوا يفكرون في هذه الشرعية الفقهية (2) لان طروفهم لا تسمح لهم بذلك (3) فليس من المعقول ان نعتبر هذا العقد من باب الهدية او الشراء وانما الدلائل تشير الى ضرب قديم من التعاقد كان معمولا به قبل الاسلام وحافظ عليه العراة لانه صادف رغبة في نفوسهم وملاءمة لمصالحهم وكان يدعى البقط من الاتينية Pactum(4)

---

1) المصدر نفسه ص 239
2) برنشفيك Brunschvig - مقال: ابن عبد الحكم وفتح العرب لشمال افريقيا - حوليات معهد الدراسات الشرقية - AIEO - مجلد 6-1942-1947 ص 108 . 155
3) الخمر مثلا يغير مباحة باقريقيه الى سنة 100 هـ حتى ارسل عمر عبد العزيز رسلا لاعلامهم بتحريمها (ابن عذاري البيان المغرب 1 ص 40)
4) برنشفيك Brunschvig - مقال عقد - دائرة المعارف 1 ص 33

كما ذكرنا وتواصل العمل به في العهود الموالية اذ نجد له ذكرا في عهد المهدي(158-169هـ/775-785م)وكذلك في عهد الخليفة المتوكل(232-247هـ/847-861م)سنرى في الفصول القادمة.

لقد دعت الحاجة اذن الى توفير مقاديرمنالرقيق والى استعمال مثل هذه الاساليب رغم غرابتها عما اقره الشرع وتوخاه السلف في فتوحاتهم وقد وجد المسلمون في واقع المعاملات مع الشعوب المحيطة بهم ما يدفعهم الى النسج على المنوال والمعاملة بالمثل اذ صادف ذلك موافقة لمصالحهم وتلبية لرغباتهم.ومما شجع رجال السلطة وقادة الجند على الخروج عن سنن الاحكام الفقهية المتعلقة بالفتح في بعض الحالات احتكاكهم بالدول المتاخمة لهم والتي كانوا في حرب معها ، فكان لا بد لهم من ان يعاملوها بمثل ما تعاملهم به وان يقاوموها بسلاحها ، فقد ذكر المؤرخون ان الروم كانوا قد فرضوا على بعض الخلفاء الامويين دفع مقادير من الرقيق في صلحهم معهم فلا غرابة اذا ما كان هؤلاء الخلفاء لا يستنكفون من رد الفعل اذا ما اتيحت لهم الفرصة حتى يحدث التوازن بين الخصمين. فمما تذكره المصادر في هذا المجال ان معاوية(35-54هـ/655-680م)لما اخفق في محاولته فتح القسطنطينية بالرغم

من حصاره لها طيلة اربع سنوات من سنة (- 54 - هـ/ 673م) الى سنة(- 58- هـ/ 677م) بسبب استعمال الروم لسلاح النار الاغريقية التي ادخلت الذعر في نفوس العرب اذاك اضطر الى طلب الصلح من العدو فاقره الروم عليه لثلاثين سنة شرط ان يدفع لهم ثلاثة الاف قطعة من الذهب وخمسين عبدا وخمسين جوادا عربيا عن كل سنة فقبل (1) ولسنا نرى غرابة في هذا الخبر خصوصا اذا ادركنا ان هذه المطالب يهدف جميعها الى اضعاف الخصم والاستحواذ على معداته بغية استنزافه وكان الرقيق يعد من اسباب القوة اذاك ــ ولم تكن هذه المناسبة هي الوحيدة التي اجبر فيها العرب المسلمون على دفع الرقيق اذ تذكر الروايات ان قسطنطين الرابع (48 - 65 هـ/668-685م) استغل الوضع الذي تلا موت يزيد ابن معاوية (61-64 هـ/680-683م) وخلع معاوية الثاني (64 هـ/ 683 م) نفسه من الخلافة وتولي مروان بن الحكم (64-65 هـ/683-685م) فزحف بجيشه عبر الحدود الجنوبية من الشام فدك حصون ملطية واجلى العرب عن

---

1) اسد رستم ــ الروم في سياستهم ــ ط 1 بيروت 1956 ج 1 ص 262 ــ 263

مرعش وذلك سنة (-63 هـ/ 683م) فاضطر عبد الملك بن مروان(65-85هـ/685-705م) بعد وفاة ابيه الى مفاوضة الروم على الصلح واجبر على ان يدفع لهم اكثر مما كان يدفعه معاوية(41-54هـ/661-680م)من الرقيق وكان تاريخ هذا الصلح في السابع من تموز سنة (-65 هـ/ 685م) (1) وعندما مات قسطنطين الرابع(Constantin)بداء الزحار في سنة (-65 هـ/ 685 م) تولى بعده يوستيانوس الثاني Justinian II Rhinotmetus (65 - 75 هـ/ 685ـ695م) وهو ابنه ويدعى الاشرم وعمره 16 ستعشرة سنة وكان مشبعا بحب العظمة والمجد فأراد ان يقتدي بسميه يوستيانوس الكبير فنقض معاهدة سنة (-65 - هـ/ 685) وكان عبد الملك لا يزال مشغولا بتدعيم دعائم خلافته ضد منافسين اقوياء فاعاد الصلح مع الروم سنة (-79 - هـ/ 695م) وقبل ان يدفع ليوستيانوس ثلاثمائة وستين 360 عبدا(2).

وقد واصل الروم البيزنطيون هذا التصرف مع العرب المسلمين في العصور الموالية اذ يذكر ابن مسكويه ان نقفور فوقاس Nicephorus II Phocas

---

1) اسد رستم ـ الروم في سياستهم ج 1 ص 263ـ 264

2) المرجع نفسه -

عندما حاصر حلب سنة (351هـ/962م) اقترح الامان على اهلهـــا على ان يسلموا اليـــه ثلاثـــة الاف صبي وصبيـــة (1) .

ان كل هذه الاحداث تشير الى نوع خاص من العلاقات الحربيـــة او السلميـــة كانت تربط المسلمين باعدائهم ويبدو انهم اضطروا في بعض الظروف الى اتباع سنـــة دوليـــة والخضوع لها بالرغـــم من ان التشريـــع الداخلي لا يحبذهـــا اذ حدد الفقهـــاء شروط المهادنـــة ولم يجوزوا تسليم رقيق المسلمين الى عدوهم لكن الواقع قد تجاوز في بعض الاحيـــان هذه النظريات لان حالـــة الضعف تجعل الضعيف خاضعا لشروط القوي وبما ان الصلات الحربيـــة تحتـــم ان يعامل الفريقـــان بعضهما نفـــس المعاملـــة لا نستبعـــد ان يكون المسلمون في فـــترات قوتهم قد سمحـــوا لانفسهم باستخلاص رؤوس من الرقيق فـــي كل ضربيـــة كما فعل بهـــم عدوهم لكنهم لم يجعلوا من ذلك قاعـــدة ثابتـــة لان التشريع الفقهـــي كان يكبح جماحهم ويجبرهم على احترام تعاليم الدين (؟) فكانوا يبحثـــون

---

1) ابن مسكويه - تجارب الأمم (نخب تاريخية ص 151)

2) برنشفيك Brunschvig - مقال عبد ـــ طالحديدة لدائرة المعارف ص 27 (مصدران لرعيان الرق هما الاسر والولادة في الرق فقط)

عن صيغ جديدة ليسيغوا عليها لون الشرعية حتى يمكنهم مواجهة بعض مشاكلهم الاقتصادية والحربية .

ويجدر بنا ان نلاحظ ان هذه المحاولات التي قام بها القادة و الساسة المسلمون لحل مشاكلهم الحربية والاقتصادية ولمواجهة حاجتهم الى بضاعة الرقيق كانت تستهدف في مرحلتها الاولى الشعوب التي قاومت الاسلام ورفضت الانضواء تحت لوائه وقبلت دفع ضريبة مقابل المحافظة على كيانها واستقلالها ، ومن ذلك ما رواه ياقوت عن غزو منطقة كوار جنوب فارس اذ روى ان عقبة بن عامر قد غزا هذه المنطقة وفرض على ملكها جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة وستون 360 عبدا (1).

2) بوادر الخلل بين العرض والطلب

الا ان المسلمين لم يقفوا عند هذه المرحلة من المحاولات واخذوا يلتمسون سد حاجتهم من الرقيق من رعايا المسلمين انفسهم فادى بهم الامر الى سوء معاملة رعاياهم واثارة سخطهم خصوصا ان هذا التصرف ينافي المبادئ الاسلامية ، ولنا مثال على

1) ياقوت الحموي- معجم البلدان - مادة كوار

هذا التصرف حدث بالمغرب، ونجد صداه عن ابن عذاري صاحب كتاب البيان المغرب اذ يصف لنا ما لجأ اليه بعض العمال من ظلم وقهر وتجاوز لحدود الشرع المتعلقة باحكام السبي والغنائم فيذكر لنا ان عمر بن عبد الله المرادي الذي كان اذاك والي طنجة ومنطقتها قد اساء التصرف وتجاوز حكم الشريعة فيما يخص الصدقات والعشور واراد ان يخمس البربر زاعما انهم فيء للمسلمين وهو عمل لم يجرو عليه اي وال قبله اذ كان الولاة فيما قبل يخمسون من امتنع عن اعتناق الاسلام فقط وقد حرت هذه الاحداث التي يذكرها صاحب البيان سنة (123هـ/ 740 - م) وهذا نص الرواية كما اوردها: ((ثم ان عمر بن عبد الله المرادي عامل طنجة وماوالاها اساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر واراد تخميس البربر وزعم انهم فيء للمسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله وانما كانت الولاة يخمسون من لم يجب للاسلام فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية الى كثير القتل في العباد نعوذ بالله من الظالم الذي هو وبال على اهله، فلما علم البربر خروج حبيب بن ابي عبده الى بلاد الروم بقصد الاستعانة بعبد الله ابن الحبحاب على طنجة واعمالها وتداعت عراها الى الهدم باسره فثارت البربر

بالمغرب الاقصى فكانت اول ثورة فيه وفي افريقية في الاسلام))(1).

من الواضح ان معنى التخميس في هذا الخبر لا يتعلق بالغنائم وانما يتعلق بالبشر واذا سلمنا بجواز اخذ الخمس من السكان الرافضين للدين الجديد في نظر بعض الفقهاء وكما يفهم من سياق هذه الرواية ويدعمه راي الليث فان تعميم هذا التخميس على المسلمين يعتبر تجاوزا لحدود الاحكام الشرعية وارهاقا للرعية وظلما ، والظاهر ان التعميم قد احوجت اليه سياسة العمال الراغبين في الاستجابة لرغبات السلطة بدمشق والحرص على الاحتفاظ بكميات الرقيق المطلوبة رغم تبدل الاحوال والظروف وانتشار الاسلام فوقع تجريد عملية التخميس من مفهومها الديني وتطوير مدلولها استجابة للظرف الراهن ، ونحن لا نشك في ان هذا التصرف فردي صادر عن بعض العمال وليس قاعدة متبعة من قبل سائرهم ولذلك يعتبر شاذا ودالا على الاحوال الاستثنائية التي فرضها نقصان مقادير الرقيق في المجتمع الاسلامي .

---

1) ابن عذاري - البيان - ج 1 ص 52 — ابن خلدون - العبر - ط بيروت 1958 ج 4 ص 403

ويوجد شبه كبير في ما حدث من انحراف في معنى الخمس بالمغرب في هذه الفترة من الزمن وماحدث بالمشرق من انحراف في معنى الجزية والخراج (1) اذ جردهما بعض الولاة من الاعتبار الديني ووظفوهما في بعض الاقاليم وفي فترة من الزمن محدودة على المسلمين خوفا من تناقص الواردات وقد وقع هذا التوظيف في خراسان وما وراء النهر (2) وتسبب كذلك في ثورات وانتفاضات متوالية الى ان قام عمر ابن عبد العزيز (98-102هـ/717-720م) بارجاع الامر الى نصابه ووضع هذه الضريبة عن المسلمين انتصارا للمبادئ الدينية بالرغم مما احدثه انتشار الاسلام بين الرعايا الجدد في البلاد المفتوحة من تناقص في الجبايات من ازمة اقتصادية. فالتشابه واضح بين هذين العمليتين اذن اذ لهما علاقة بانتشار الاسلام من ناحية وبظهور ازمة في الوارد سواء اكان هذا الوارد مالا او رقيقا او اقواتا وامتعة..

لقد خلعت اذن هذه الازمة من استبداد الولاة فامس بعضهم جباة ومسترقين اكثر مما كانوا رعاة لمصالح مرؤوسيهم واطنب ابن عذاري في الحديث عن هذا التصرف وما نتج عنه من قلاقل (3)

---

1) الثعالبي - الامارة الاغلبية - ص 25-33

2) الدوري (عبد العزيز) - نظام الضرائب في خراسان في صدر الاسلام - مجلة المجمع العلمي العراقي - المجلد 11 - 1384هـ/ 1964م - ص 83-85

3) ابن عذاري - البيان المغرب.. ج 1 ص 52

لامراء اذن فيان تزايد الحاجة الى الرقيق (1) وايذان مصادره بالنضوب او بعبارة اخرى انخرام التوازن بين العرض والطلب في مادة الرقيق بازدياد الطلب ونقصان العرض قد افضى بالمسلمين في حالات معينة واماكن معلومة الى تجاوز الشرعية الفقهية واتخاذ الذرائع الكفيلة بسد حاجتهم الى تلك البضاعة البشرية ، وان ادى بهم الامر الى سوء معاملة اولئك الرعايا الجدد الذين دخلوا في الدين الجديد ، وما من شك ايضا في ان هذه الظروف قد دعت بعض العمال في الولايات الاسلامية الى التنافس في توفير اكبر كميات من الرقيق لرؤسائهم من الامراء والخلفاء طمعا في رضاهم وعربونا لوفائهم لهم مرهقين بذلك كواهل رعاياهم ومساقين وراء ضروب من التطرف تؤول احيانا الى القهر والظلم وتتسبب في سخط الرعية على عمالها وتمردها عليهم، ومما زاد الطين بلة ان المسألة لم تعد بمرور الايام واستفحال ازمة الرقيق مجرد تنافس بين الولاة في هذا الشان بل اتخذ الامر صورة الضغط على هؤلاء الولاة احيانا من قبل مركز الخلافة ، فقد كان الخلفاء يحلمون بعهد الفتوحات الكبرى الذي كان يدر عليهم سيلا من السبايا الجميلات

---

1) برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد - دائرة المعارف الاسلامية - ح 1 - ص 34

وغاب عنهم ان الظروف قد تغيرت بانتشار الاسلام وتوقف الفتوح فتمادوا في طلب الهدايا من الرقيق وشددوا في الطلب غير مدركين ان موقفهم هذا لم يكن سليم العواقب ولا خاليا من الاخطار ، وقد احتفظ لنا الاصفهاني برسالة بعثها الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك الى عامله بافريقية طالبا منه ان يرسل اليه طرائف المغرب ومن بينها الجواري وهي تدل على مبلغ الحاح الخلفاء في طلبهم ذلك ومدى ولعهم بهذه البضاعة التي امست نادرة في ذلك الوقت (1).

بقي علينا ان نعرف الان موقف المرؤوسين الذين يتلقون مثل هذه الرسائل وتبلغهم مثل هذه الطلبات في وقت لم يكن بامكانهم فيه ان يشنوا الغارات وان يسبوا فتيات البربر بدون حق ، ان ابن عذاري يعيننا على فهم بعض هذه المواقف اذ وصف لنا تصرف احد الولاة وهو ابن الحبحاب فذكر انه استجاب لتلك المطالب ووعد اصحابها بوعود تتجاوز طاقة البلاد وموارد ها والجأه هذا الموقف الحرج الى

---

1) النص لابي الفرج الاصفهاني من كتاب النساء ذكره التيجاني (ابو عبد الله محمد) صاحب الرحلة في كتابه - تحفة العروس (الطالبي - الامارة - ص 68-69) واشار اليه كذلك اشارة عابرة ابن عذاري في البيان ج 1 ص 52 - نشرة - كولين - Colin و بروفنسال - Provençal - 1948

استعمال وسائل العنف لاحراز ما ترغب السلطة المركزية فيه من سبايا فما كان من الرعايا البربر الا ان ثاروا على هذه السياسة و تمرروا لها فقتلوا عاملهم وتمردوا على ابن الحبحاب ، يقول صاحب البيان المغرب في هذا الشان (وكان السبب في ثورة البربر وقيام ميسرة انها انكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته كما ذكرنا وكان الخلفاء بالمشرق يستحمون طرائف المغرب ويبعثون فيها الى عامل افريقية فيبعثون لهم البربريات السبيات فلما افضى الامر الى ابن الحبحاب مناهم بالكثير وتكلف لهم او كلفوه اكثر مما كان فاضطر الى التعسف وسوء السيرة : فحينئذ عدت البرابر على عاملهم فقتلوه وثاروا باجمعهم على ابن الحبحاب) (1) ثم يقول متحدثا عن هذه الثورة (وفي سنة 122 كانت ثورة البربر بالمغرب فخرج ميسرة المدغري وقام على عمر بن عبد الله المرادي بطنجة فقتله وثارت البرابر كلها مع اميرهم ميسرة الحقير ، ثم خلف ميسرة على طنجة عبد الاعلى بن حديج وزحف الى اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب الى السوس فقتله ثم كانت وقائع كثيرة بين اهل المغرب الاقصى واهل افريقية

---

1) ابن عذاري - البيان ج 1 ص 52

يطول ذكرها ، وكان بالمغرب حينئذ قوم ظهرت فيهم الخوارج ولهم عدد كثير وشوكة كبيرة وهم برغواطة)(1).

لقد كانت قضية الحاجة الى الرقيق اذن من اهم قضايا المجتمع الاسلامي اذاك اذ امست كما رايدا عاملا اساسيا من عوامل الاضطراب والامن ومشكلة هامة من مشاكل السياسة الداخلية في البلاد وسببا رئيسيا من اسباب ظهور حزب معارضة للسلطة القائمة فقد استغل الخوارج ظروف السخط هذه لابراز الفرق بين مبادئهم الدينية العادلة وغطرسة عمال بني امية فدجحوا في ضم الغاضبين الى صفوفهم واستطاعوا ان يعلنوا الثورة التي اشار اليها ابن عذاري في نصه السابق الذكر وهي غزوة الاشراف سنة 122 هـ وقد هزم فيها البربر العرب هزيمة نكراء.

وقد كان لهذه الثورة صداها البعيد في نفوس ولاة افريقية فيما بعد فغيروا اسلوب سياستهم ازاء مركز الخلافة ووقف بعضهم في وجه هذا الاستغلال حرصا على استتباب الامور واستقرارها داخل

---

1) المصدر نفسه

ولايتهم (1) وعلى ضوء هذه الاوضاع الجديدة يمكن لنا ان نفهم موقف الوالي عبد الرحمن بن حبيب (127ـ 137هـ/ 744 - 754 - م) من الخليفة ابي جعفر المنصور(136-158هـ/754-775م) حين طالبه بالهدايا فقد اجابه بان اهل افريقية قد اسلموا جميعا وانه لا يمكن الحصول فيها على سبي واكتفى بان ارسل له انواعا من البوازي والكلاب(2) وهذا يدل على ان هذا الوالي قد ادرك الخطر المنجر عن استغلال المشرق للمغرب واعتباره مجرد مستودع للرقيق فاراد ان يتعامل مع الاهالي محاولا قدر الطاقة الاستقلال عن السلطة المركزية (3).

ويرى الاستاذ الطالبي(4)ان موقف هذا الوالي يبشر بعهد جديد في افريقية، قد وضع حدا للاستغلال وظهرت فيه بوادر الاستقلال عن مركز الخلافة ، فلم يعد بالامكان التعويل على جلب رقيق من افريقية وامسى الخلفاء منذ اواخر حكم هشام بن عبد الملك (- 126 هـ/ 743م) يعتبرون هذه الولاية ثقلا على الخلافة ومصدر قلق بعد ان كانت

---

1) الطالبي - الامارة الاغلبية ص 33ـ37
2) جورج مارسي GeorGe Marçais - بلاد البربر = La Barbarie ص 26
3) ابن عذاري - البيان ج 1 ص 55و 67
4) الطالبي - الامارة الاغلبية ص 33ـ37

مصدر منفعـة وربح (1) وسوف تقوم هذه الخلافـة بعد نصف قـرن من التمرد والثورات التى لا طائل وراءها بمـد يد المساعـــدة لمن يستطيع ان يضمن السلم في هذه المنطقـة وان يحافظ على خراج معقول لا علاقـة له بالاستغلال ، وبذلك انتهى سبي البربريات بغير حق واذا ما وجدنا خلال اواسط القرن الثالث الهجري بعض الافريقيات يرسلن الى حريم بغداد فان ذلك راجع الى احداث نادرة وشـــاذة متصلـة ببعض الثورات وراجع ايضا الى ولاة عرفوا بالقسوة والى تلـك الحاجة المتجددة الى هذه البضاعـة والتي تشتد احيانا فتلجـــيء اصحابها الى تجاوز تعاليم الشرع وفرض الرق على ابناء الدين الواحـد والجنس الواحد بمناسبـة ثورة من الثورات او غارة من الغارات مثلمـــا حدث ذلك فـي عصور مواليـة ابان ثورة القـويبع (236هـ/ - 850 - م) في عهد الامير محمد بن الاغلب (236ـ242هـ/ 841 - 856 - م) عندما سبى جند الاميرالحرائر العربيات وباعوهن الى تجار الرقيق مما اثار غضب القاضي سحنون ودفعـه الى الوقوف في وجـه السلطـــة والانتصار لاوامر الشرع (2)

1) انجح عذا جورج مارسي - George Marçais - بلاد البربر - La Berberie - ص 58

2) ابن عذاري ـ البيان المغرب ـ ج 1 ص 110 ـ ابن ناجي ـ معالم الايمـان ـ طبعة تونس (1320هـ/ 1902م) ص 58 ـ الطالبي - الامارة الاغلبيـة - ص 243ـ248

وهكذا يتضح لنا ان عملية العرض والطلب المتصلة بالرقيق قد لعبت دورا كبيرا في تقرير مصير بعض الولايات الاسلامية والتبست بملابسات سياسية واجتماعية معقدة وفي كل ذلك اكبر دليل على ازمة عاشها المجتمع الاسلامي بسبب نضوب الموارد التي كانت تدر عليه بضاعة لم يعد بامكانه الاستغناء عنها فكان لا بد له اذن لحل الازمة من البحث عن موارد اخرى تسد حاجته الملحة الى الرقيق .

3) تنشيط روافد التزويد

لم يكن بدّ اذن ابتداءا من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة من تنشيط لروافد تويد بضاعة الرقيق واعتماد الوسيلة التجارية التي ستحتل شيئا فشيئا وخاصة مع القرنين الثالث والرابع الموتة الاولى في تزويد الاسواق الاسلامية بهذه البضاعة الضرورية لمجتمع ذلك العصر . فمنذ منتصف القرن الثامن الميلادي بدات اوروبا الكارولنجية تتزوّد بموارد الشرق وبضائعه مستوردة اياها من ايطاليا وهي موارد كانت تصل الى اوروبا عن طريق صقلية ونابولي - Napoli المالفي Amalfi والبندقية venise وكانت افريقية تقوم بدور الوسيط الاساسي في نقل بضائع الشرق الى ايطاليا (1) وكان دور البندقية في هذه المعاملات التجارية هاما جدا اذ نعلم من احداث سنة (- 132 - هـ / 750 م) ان تجارها كانوا يذهبون الى روما لشراء الرقيق حتى يبيعوه بعد ذلك في افريقية .(2) فقد وجد اذن تيار

---

1) د وهارد - R-Dæhaerd - البحر المتوسط والاقتصاد الغربي - كراسات التاريخ العالمي - سنة 1954 عـ1ـدد ص 583 .
Méditerrannée et Economie occidentale pendant le Haut Moyen Age
Cahiers d'Histoire Mondiale - I. 1954 - p 583

2) هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق في العصر الوسيط ج 1 ص 95 . 96

تجاري يستعمل فيه الرقيق في صورة عطية صالحة للمبادلات. ومما يؤكد وجود هذا التيار التجاري ان الوفد الذي ارسله الادارسة لعقد هدنة مع البطريق جرجير - Grégoire - في صقلية سنة (198- هـ/ 813 م) قد سافر في بواخر البندقية . وقد جاءت الاشارة الى ذلك في الرسالة التي ارسلها البابا ليون الثالث Léon III (795-816/ 179-200 م) الى شرلمان (165 - 199 هـ/ 768 - 814 م) في نفس السنة (1) وهذه العطية من الرقيق كانت مستعملة بين ايطاليا والمغرب الاسلامي وكان هنالك تجار مسيحيون ومسلمون على الضفتين المتقابلتين (2) يسهرون على تبادل البضائع لتنتشر اثر ذلك داخل اوربا والعالم الاسلامي .

وكما نشط تزويد الرقيق الاوربي ازدادت صلات المسلمين التجارية ببلاد السودان مثلما يلوح منذ اواسط القرن الثاني اقبال على جلب الرقيق الاسود عن طريق مصر وبلاد المغرب وجنوب الجزيرة العربية وموانئ الخليج الفارسي . الا ان هذا النشاط التجاري لن يتسع مداه ويكون له رواج كبير الا مع القرنين الثالث والرابع للهجرة عندما سينضب رقيق الفتح بصورة تكاد تكون نهائية وسيصبح جلب الرقيق عن طريق التجارة الحل الامثل لتزويد العالم الاسلامي بهذه البضاعة .

---

1) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية ص 396 وما بعدها

2) المرجع نفسه -

القسم الثاني

تجارة الرقيق
خلال القرنين الثالث والرابع
للهجرة

الباب الأول

الطلب وتجدد الحاجة إلى الرقيق

الفصل الأوّل

نفاد الرصيد
منذ القرن الثاني للهجرة

لقد راينا كيف واجه مسلمو القرنين الاول والثاني للهجرة مشكلة التزود بالرقيق الضروري لاوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية وكيف وجدوا في رقيق الفتوحات الحل الامثل لتلك المشكلة . وقد اتضح لنا من تحليلنا السابق ان حركة الفتح قد كانت اكثر نشاطا ونجاعة من حركة التوريد في مواجهة مسألة التزويد للاسواق الداخلية . لكن هذه الحلول لم تكن صالحة طبعا الا لعصرها الذي ظهرت فيه ولا ينبغي ان ننتظر منها ان تكون ناجعة بالنسبة الى العصور المالية . فلكل عصر مشاكله الاقتصادية والاجتماعية والحلول المناسبة لها. وقد راينا كيف اختلفت اوضاع العرب قبل الاسلام في هذا المجال عن اوضاعهم بعده . وكيف كانت معالجتهم لهذه القضية مختلفة عن معالجة المسلمين لها خلال القرنين الاول والثاني للهجرة .

فلا غرابة اذن اذا ما عرفت تجارة الرقيق منعرجا جديدا مع اوضاع القرنين الثالث والرابع للهجرة . بل ان هذا المنعرج قد ظهرت علاماته منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة . وذلك عندما بدات ازمة التزود بالرقيق تظهر من جديد بسبب توقف الفتح

الاسلامي . اذ صار المعين الذي كان يزود الاسواق الاسلامية بالرقيق مهددا بالنضوب . وفعلا لقد شهدت هذه الفترة هدوءا يكاد يكون شاملا وسلسلة من المهادنات بين دار الاسلام ودار الحرب كان لها اثر حتمي في تعطيل عملية التزود بأرصدة جديدة من الرقيق .

1) توقف الفتح

لقد ولى عهد الفتوحات الكبرى مع دولة الراشدين والدولة الاموية العربية ولم يعد هنالك ما يدل على ان العباسيين كانوا كالامويين يهدفون الى القضاء على دولة الروم (1) بل انهم لم يستطيعوا ان يشكلوا خطرا كسابقيهم على عاصمة الامبراطورية الرومية . ولم يتمكنوا من تحقيق سوى بعض الفتوح القليلة الاهمية . وما من شك من ان لظاهرة تراجع الفتح اسبابا عديدة تعسر الاحاطة بها واسرارا بقيت الى الان في حاجة الى تفسير. الا اننا نشير الى بعض الاسباب الهامة التي كسرت انطلاقة الفتح في هذه الفترة من الزمن (2).

1) فازيلياف - Vasiliev - العرب والروم - ص 10 - 12
2) الطالبي - الامارة الاغلبية - ص 384 - وص 389 - 396

لقد ذهب بعض الباحثين مثل لوباز - R-S.Lopez(1) وفازيلياف - Vasiliev - (2) الى ان توقف الفتوحات قد كان نتيجة هزيمة المسلمين في بعض المعارك الحاسمة مثل معركة بواتيه Poitiers (113 هـ 732 م) ومعركة قبرص (130 هـ 747 م) لكن هذه الهزائم مهما كانت حاسمة لا يعقل ان تكون قاضية على قوى المسلمين الحربية . وعلينا ان نبحث عن اسباب اعمق واكثر مساسا باوضاع كل من المسلمين والروم اذاك . فمن الحقائق الثابتة ان الخلافة الاسلامية قد بدات اذاك تتدرج نحو الضعف والانحلال وصارت فريسة تطاحن العناصر الفارسية والتركية والعربية وانتج هذا الضعف انقسام الامبراطورية الاسلامية الى دويلات وطوائف مستقلة استقلالا يكاد يكون تاما عن السلطة المركزية . بينما اخذت الامبراطورية الرومية تسترجع قوتها وتوحد صفوفها امام صولات العدو بعد ان كان كيانها في الميزان في العهود السابقة (3)

---

1) لوباز - R.S Lopez - ميلاد أوروبا - ج 1 . ص 84
2) فازيلياف - Vasiliev - العرب والروم - ص - 9 - 12
3) الطالبي - الامارة الأغلبية - ص 389 - 396

فقد كانت القلاقل الداخلية تشغل اهتمام السلطة الاسلامية عن الالتفات الى التوسع عن طريق الفتح فامسى موقفها دفاعيا بعد ان كان في ما مضى موقفا هجوميا وصارت المبادرة في الحرب للروم بعد ان كانت للعرب . واكتفى الخلفاء بتفويض مهمة الدفاع لحكام الحدود اما الصوائف والشواتي التي كانوا ينظمونها فلم تكن حروب فتح كالتي قام بها الامويون والعباسيون الاولون وانما كان الدافع الى القيام بها هو القيام بواجب الجهاد ورد هجومات البزنطيين التي صارت متعاقبة (1).

وقد كان وراء هذا التقهقر اسباب اقتصادية ايضا اذ كان المسلمون يتكبدون في هذه الفترة تكاليف باهضة لحماية الثغور الواقعة على حدود بلاد الروم وصارت الصوائف والشواتي تكلفهم اعدادات كبيرة تفوق خراج تلك المناطق الواقعة على تخوم بلاد الاسلام فقد ذكر قدامة ان هذه التكاليف تصل الى ضعف الخراج او اكثر من ذلك بالنسبة الى الثغور الواقعة

---

1) فاسيليف - Vasiliev - العرب والروم - ص 10 - 14

شمالي الشام مثل طرسوس واذنة والمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وغيرها اذ يقول عن هذه الثغور ((وارتفاعها نحو المائة الف دينار ينفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها وهي المراقب والحرس والفراشير (1) والركاضة (2) و الموكلين بالدروب والمخائض والحصون وغير ذلك مما جانسه من الامور والاحوال ويحتاج الى شحنتها من الجند والصعاليك . وواتب مغازيها الصوائف والشواتي في البر والبحر في السنة على التقريب مائتي ((كذا))الف دينار وعلى المبالغة وهي ان يتسع ثلاثمائة الف دينار)) (3).

هكذا كان الشان بالنسبة للثغور الشامية وقس على ذلك الجزيرة ايضا وكذلك ثغور دياربكر فخراج الثغور البكرية في السنة ((الف الف وثلاثمائة الف درهم تحتاج نفقاتها في مصالحها وحصونها وارزاق شحنها الى هذا المقدار وزيادة الف الف وسبع مائة الف درهم)) (4) اما الثغور الجزرية

1) جمع فاشر وهو الجاسوس والمكلف بالاطلاع على ارض العدو واكتشافها .
2) جمع ركاض وهو عون البريد
3) قدامة . كتاب الخراج . طبعة دي غوية De Goeje . المكتبة الجغرافية العربية . BGA . 1889 ص 252 - 255
4) المصدر نفسه

فمبلغ ارتفاعها ((سبعون الف دينار يصرف منها في مصالحها اربعون الف دينار ويبقى ثلاثون الف دينار ويحتاج لنفقة الاولياء والصعاليك على التجزئة (1) مائة الف وعشرون الف دينار تضاف الى البقية وهي المبالغة مائة وسبعون الف دينار تضاف اليها تتمة مائتي الف دينار سوى نفقات المغازي في اوقاتها))(2).

لقد كان تحصين الثغور من طرسوس الى ملطية يكلف الدولة باهضا كما راينا وكان خراج الجند اقل بكثير من النفقات التي تنفق عليه (3) فلم يكن بقدرة المسلمين اذن الا محاولة حماية الامبراطورية ورد الهجومات ولم تعد الفرص متاحة لمزيد التوسع على حساب الغير . وهكذا آلت العمليات الحربية في الغالب الى صراع على الحدود وتنازع الثغور مع العدو دفاعا عن دار الاسلام .

---

1) بمعنى على اقل تقدير ويقال ايضا على التقريب وعكسه على المبالغة اي على اقصى تقدير. المصدر نفسه ص 210

2) المصدر نفسه ص 252.255

3) فاسيليف vasiliev - العرب والروم ص 86 وما بعدها

أ- سلسلة الافدية

وكانت سلسلة الافدية التي نظمها المسلمون والبيزنطيون في هذه الفترة من الزمن دالة على كثرة اسرى المسلمين الواقعين في ايدي الروم وعلى ظهور نظام في صفوف الجيوش البيزنطية مما مكنها من الصمود في وجه الغزو الاسلامي ووضع حد له . كما تدل هذه الافدية على ان اسرى الروم الواقعين في ايدي المسلمين كانوا يستعطون غالبا في الفداء ولم يتح لهم ان يكونوا دائما مادة تجارية للاسواق كما كان الشأن من ذي قبل . فقد كان اول فداء نظمه المسلمون في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (170-193 هـ/ 786-790 م) وذلك سنة (189هـ/805م) وهو الفداء المسمى باسم مولى الخليفة ابي سليم فرج الذي كلف باعادة بناء طرسوس سنة (171 هـ/ 787 م) وقد تم بثغر (لميس) على شفاف البحر الابيض المتوسط وهي النقطة التي وقعت بها افدية كثيرة بعد ذلك . ولعل في تاريخ هذا الفداء الاول ما يدعم ما ذهبنا اليه من ان نهاية القرن الثاني للهجرة هي اعلان عن تراجع الفتوحات (1)

1) كليمان هوار - Cl. Huart - تاريخ العرب ج 2 ص 118 . 122

ويؤكد المؤرخون على ان المسلمين لم يعرفوا قبل هذا التاريخ فداء منظما بل كانوا يفدون افرادا قلائل بين الفينة والاخرى كما كان يحدث في عهد عمر بن عبد العزيز (98 - 102 هـ / 717 - 720 م) اذ يروى عنه اهتمام بهذا الجانب لتقواه وحرصه على ان لايبقى بايدي الكفار مسلمون مهما قل عددهم وشل فداء ((نقاش الانطاكي)) في عهد الخليفة المهدي (158 - 169 هـ / 775 - 785 م) فحدوث هذا الفداء المنظم اذن في عهد الرشيد يفيد ان المسلمين كانوا يشعرون بالاضطرار اليه لكثرة ما بأيدي العدو من رجالهم فقد فدوا خلال اثني عشر يوما ثلاثة الاف وسبعمائة 3700 من اسراهم

ومنذ ذلك التاريخ توالت حلقات الافدية في فترات الهدنة . فعد منها المسعودي اثني عشر بينما اعتمزها القريزي ثلاث عشرة وجميعها يتراوح بين سنتي (189 هـ / 805 م) و (335 هـ / 946 م) . فكان منها فداء اكثر من خمسمائة والفي 2500 اسير في عهد الرشيد

سنة (192 هـ/ 808 م) وفداء اكثر من اربعة الاف 4000 مسلم في عهد الواثق (227 -232 هـ/842-847 م) سنة (231 هـ/ 845 م) وفداء نحو ذلك في عهد المتوكل (232 -247هـ/ 847-861م) سنة (241 هـ/ 856 م) وسنة (246هـ/860 م) وفداء حوالى ثلاثة الاف 3000 اسير في عهد المعتضد (279-289هـ/892 -902م) سنة (283 هـ/ 896 م) وفداء الف ومائة 1100 مسلم في عهد المكتفي (289 - 295 هـ/902 - 908م) سنة (292 هـ/ 905 م) وهو المسمى بفداء ((الغدر)) وفداء حوالي ثلاثة الاف 3000 اسير سنة (295هـ/ 908 م) وهو المسمى بفداء ((التمام)) (1).

ولسنا في مقام احصاء ولكن المهم ان نلاحظ ان المسلمين كانوا يفدون اسراهم بما سقط في ايديهم من اسرى العدو اي بعملية تبادل الاسرى واذا كانوا

1) المسعودي- التنبيه والاشراف - الطبعة الفرنسية - ترجمه كارادي فو - B. Carra. de. vaux - 1897 - ص 255. 262 مروج الذهب - ج 9 ص 356 - 362 (وقد ترجم دي ساسي - s. de. Sacy - الفصل الوارد في التنبيه والاشراف وادرجه في ترجمته لمروج الذهب بالجزء المشار اليه) العقيقي - خطط ج 2 ص 191 وما بعدها .

قد تمكنوا في الافدية التي اشرنا اليها من القيام بعملية التبادل فاننا نراهم قد اضطروا بعد ذلك وفي الافدية المالية الى مفاداة اسراهم بالاموال لنفاد ما بين ايديهم من اسرى العدو كما حدث ذلك في الفداء التاسع في عهد المقتدر (295-320هـ/ 908-932م) سنة (305هـ/ 917م) وفي الفداء العاشر سنة (313هـ/ 925م) وفي الفداء الحادي عشر الذي حدث في عهد الخليفة الراضي (322-329هـ/934-940م) سنة (326هـ/ 938م). ذلك الفداء الذي دل على تكاثر اسرى المسلمين بيد الروم اذ بلغوا زهاء ثلاثمائة وستة الاف 6300 اسير كان فداؤهم بالمال وبقي منهم ثمانمائة 800 بيد الروم لان فداءهم لم يتم في الابان مما احوج الى تمديد فترة الهدنة بستة اشهر اما الفداء الثاني عشر الذي حدث سنة (335هـ/ 946م) في عهد الخليفة المطيع (334-363هـ/ 946-974م) فقد بذل المسلمون فيه ثلاثين الف دينار لفداء اكثر من الفي 2000 اسير مسلم - ويشهد تاريخ هذا العصر بوجود

افدية اخرى لم يعتبرها المؤرخون من الافدية الرسمية الاثني عشرا والثلاثة عشر الواردة في قائمتي المسعودي والمقريزي مثل فداء سنة (247هـ/ 861 م) وفداء سنة (253هـ/872م) وغيرهما وهي كلها دليل على تناقص رقيق الفتح في هذا العهد (1) .

ب- معاهدات الهدنة

وقد تكررت معاهدات الهدنة بين المسلمين واعدائهم في هذه الظروف مما استتبعت معه فترات الهدوء منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ويكفي ان نستعرض بعض الامثلة على هذه المعاهدات فمن ذلك مثلا ان افريقية قد اعلنت المهادنة مع الروم منذ ولاية محمد بن مقاتل العكي (181 ـ 184هـ / 796 ـ 799 ـ م) والواقع ان الهدوء قد شمل اذاك كامل حوض البحر الابيض المتوسط (2) والدليل على ذلك ما ذكره ابن الاثير في الكامل من ان حملة بحرية واحدة نظمها الخليفة وفادها الغمر بن العباس سنة (161 هـ/ - 778 - م) (3) ثم تواصلت بعد ذلك المهادنات وطالت فتراتها خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة مثلما حدث بين الطريق جرجير Gré Goire (ق-3 - هـ/ ق -9 - م) والادارسة سنة (198 هـ / 813م))(4) وبين احمد بن طولون (254 -270هـ/ 868 - 884 م)

1) المصدر نفسه

2) محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية ص 389. 396

3) ابن الاثير ـ الكامل ـ ح 5 ص 60

4) محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية - ص 389. 396

وملك الروم سنة (265هـ/ - 279 م) وقد سعى في الهدنة بينهما عبد الله بن رشيد بن كاوس(1) وبين الراضي بالله (322-329هـ/ 934-940م) ورومانوس Romanus Lecapenus(308-333هـ/ 920. 944م) سنة (326هـ/ - 938م) (2) وبين المقتدر (295 - 320 هـ/ 908 -932م) وقسطنطين السابع (301 - 307هـ/913 - 919م) سنة (305هـ/ - 917 - م) (3) الى غير ذلك من معاهدات الهدنة التي صحبت عطيات الفداء المذكورة سابقا مما يدل على تعاقب فترات الهدوء تعاقبا لم تقطعه الا بعض الفتوحات النادرة من حين لاخر ولا يشجع الا على العلاقات السلمية كالمبادلات التجارية كما سوف نرى (4).

لكن توقف الفتوحات ليس السبب الوحيد لنقصان مادة الرقيق في العالم الاسلامي خلال هذه الفترة وذلك لان الرصيد نفسه قد كان عرضة للتنزيف والاستهلاك بسبب عوامل متنوعة منها ما يختص باوضاع هذا العصر ومنها ما يتصل باوضاع بضاعة الرقيق عند المسلمين عموما . ومن هذه العوامل ظاهرة العتق والاباق والفتن والثورات وهي كلها كما سنرى قد تسببت في استنزاف هذه البضاعة واحوجت الى البحث عن بديل اووسيلة تعويض

---

1) البلوي - سيرة احمد بن طولون ص 109
2) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص 65.60
3) المصدر نفسه ص 139.130
4) كلود كاهان - Cahen cl - الشعوب الاسلامية - ص 357.349

2) ـ العتق وظاهرة استنزاف الرصيد

أ ـ العتق واحكامه

ان مادة الرقيق في المجتمع الاسلامي لم تكن ذات مقادير قارة بل انها كانت دوما معرضة للنفاد فكانت الحاجة اليها تبعا لذلك دائمة التجدد ، ومن اهم عوامل نفاد هذه المادة اقبال المسلمين في شتى عصورهم ولاسباب مختلفة على عتق رقيقهم وتحريره ويكتسي هذا العامل اهمية كبرى لصلته بعقيدة المسلمين وشريعتهم التي شرعت للعتق احكاما صار معها تحرير الرقيق بابا مفتوحا على مصراعيه فلهذه الظاهرة علاقة متينة بنظرية الاسترقاق في الاسلام وهي نظرية لا تعتبر الرق نظاما طبيعيا كما ذهب اليه فلاسفة اليونان ولا نظاما الهيا كما ذهب اليه رجال الكنيسة (1) وانما تعتبره وضعا استثنائيا وحالة طارئة ومؤقتة استدعتها ظروف اجتماعية هي ظروف الحرب ولا يمكن ان تكون ابدية كما تعتبر ان الاصل في الانسان هو الحرية ولذلك حثت المسلمين على العتق وحددت لهم مصادر الرق فضيقت بذلك اسباب العبودية ووسعت في منافذ الحرية ....

---

1) عبد السلام ترمانيني ـ الرق ماضيه وحاضره ص 75

لقد وجدت اذن في المجتمع الاسلامي عوامل عقائدية جعلت الارصدة من الرقيق مهددة بالنقصان ولا يتسنى لنا ان ندرك مدى اهمية هذه العوامل وآثارها في استنزاف الرصيد العبودي الا اذا ما اوضحنا موقف العقيدة الاسلامية من قضية تحرير العبيد ولهذا الغرض رايناً من الصالح ان نحدد ابعاد هذا العتق وحدوده وان نرسم الصورة التي كانت له في هذا الفترة من تاريخ المسلمين

اننا نجد في الاسلام تشريعاً واسع الافاق لتحرير العبيد فقد شجعت هذه الشريعة على عتق الرقاب وجعلت ثواب العتق اقتحام العقبة بين الجنة والنار قال تعالى (فلا اقتحم العقبة وما ادراك ما العقبة فك رقبة أواطعام في يوم ذي مسغبة) (1) وجاء في الحديث (ايما رجل اعتق امرءا مسلما استنقذ الله بكل عضو منه عضوا من النار)(2) واعتبر الرسول ان افضل العتق هو تحرير احسن انواع الرقيق واغلاه ثمنا (3) وحث الناس على المساهمة بالمال في عتق العبيد كما فعلت

---

1) القرآن ــ سورة البلد ــ آية 11 12 13 14
2) البخاري ــ صحيح ــ ج 3 ص 237
3) المصدر نفسه

عائشة مع بريرة (1) وكما تصرف النبي نفسه في عتق سلمان الفارسي (2) وفي هذا دليل على ان الشرع يعتبر ان الاصل في الانسان هو الحرية (3) وهو ما ادى بالفقهاء الى الحكم في شان اللقيط المجهول الاصل بانه حر (4) والى اعتبار اقرار الانسان على نفسه بالرق غير مقبول وغير كاف لسلبه حريته (5)

وقد وفر المشرع العديد من الفرص المتيحة لتحرير العبيد فاعلن ان هذا التحرير عبادة وتقوى وتكفير عن ذنوب كثيرة فهو كفارة الحنث في اليمين قال تعالى (لايؤا خذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون اهليكم او كسوتهم او تحرير رقبة) (6) وكفارة القتل الخطأ قال تعالى (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهله) (7).

---

1) العسقلاني ـ فتح الباري ـ ج 5 ص 185 ـ بهلوي ـ الجامع ج 2 ص 240 وما بعدها
2) ابن هشام ـ السيرة ـ ج 2 ص 142
3) وهبة زحيلي ـ اثار الحرب في الفقه الاسلامي ـ ص 441
4) راجع احكام اللقيط في شتى المصادر الفقهية
5) عبد الرحمان الكواكبي ـ مجلة المنار ـ المجلد 8 ج 22 يناير 1905 وذي القعدة 1323 هـ نشر في مجموعة الاعمال الكاملة للكواكبي بيروت 1975 ص 379
6) القرآن ـ سورة المائدة ـ آية 91 ـ مالك بن انس ـ الموطأ ـ ج 2 ص 479ـ480
7) القرآن ـ سورة النساء ـ آية 91

وهو كذلك كفارة عن الظهار كما جاء في الاية الكريمة (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة) (1) وكفارة عن الافطار العمد اذ روي ان الرسول قال لمن سأله عن الافطار عمدا : " اعتق رقبة " (2) كما امر الرسول بالعتاقة عند الخسوف والكسوف (3).

هذه بعض الصور التي اتاح فيها المشرع العتق للرقاب وهي صور لا تقيد بحدود دينية او عرقية كما كان ذلك شائعا عند اليونان او الرومان وعند اليهود والمسيحيين (4) ولا نرى في الشرع الاسلامي اشتراط الايمان في العبد المعتق الا في بعض الحالات بل اننا نجد الامام مالك يعتبر عتق الرقبة الكافرة افضل اذا كانت اغلى ثمنا (5) كما يعتبر ابو حنيفة ان الايمان ليس شرطا في العبد لان يعتق كفارة عن الظهار (6) وقد روي عن الرسول انه قال لحكيم بن حزام

---

1) القرآن ــ سورة المجادلة ــ آية 3
2) الكاشاني ــ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع - القاهرة - 1910 ج 4 ص 51 - الزرقاني - شرح الموطأ ج 3 ص 226
3) البخاري ــ صحيح ــ ج 3 ص 288
4) عبد السلام ترمانيني ــ الرق ماضيه وحاضره ــ ص 71 ــ 74
ر ــ سالومون - R. Salomon - الرق من خلال المقارنة بين القانون اليهودي واليوناني
Les esclavage en droit comparé juif et Romain طبعة باريس 1931 ص 107 ــ 108
5) الشوكاني ــ نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار - طبعة القاهرة 1961 ج 6 ص 86
6) الزرقاني ــ شرح الموطأ ج 3 ص 226

الذي اعتق عبيده المشركين (اسلمت على ما اسلفت من خير) (1) واذا ما وكل المشرع امر العتق في هاته الحالات المذكورة الى الافراد والى صدق ايمانهم وتقواهم ولم يعتبر عتق العبيد ولو مسلمين امرا اجباريا وانما صيغة من صيغ التقرب الى الله (2) فانه ربط حالات اخرى من العتق بمشيئة الحاكم وجعلها امرا مفروضا كوجوب عتق العبد الذي قطع سيده احد اعضائه او ضربه ضربا مبرحا (3) وقد نفذ الرسول وكذلك الخليفة عمر من بعده هذا النوع من العتق (4) وتعهد الشرع بكفالة المعتوق العاجز اذا اعتق بالرغم من مولاه بسبب مثلة او غيرها كما حدث بالنسبةالىغلام زنباع الذي اطلق عليه الرسول لقب مولى الله ورسوله واجرى عليه النبي وابوبكر وعمر عطاءا من بيت المال .(5) ومن صور التحرير ايضا عتق العبد الذي له بمولاه صلة قربى وذلك تنفيذا لقول الرسول (من ملك ذا رحم محرم عتق عليه) وقوله (لايجزي ولد والده الا ان يجده مملوكا فيشتريه ثم يعتقه (6) وكذلك عتق

---

1) البخاري ــ صحيح ــ ج 3 ص 293 ــ 294
2) م وات - W.M. Watt - محمد في المدينة ص 356-360
3) البغوي ــ مصابيح السنة ج 2 ص 32ــ33
4) ابن قدامة - المغني ــ ج 7 ص 601 ــ 5) احمد شفيق باشا - الرق في الاسلام ص 71ــ87
6) البيهقي ــ الجامع ــ ج 2 ص 249

العبد الذي هرب من دار الحرب الى دار الاسلام ثم اسلم (1) واذا ما حدث ان رفض العبد الحرية كان على الحاكم ان يحرره غصبا عنه .

ويذهب الفقهاء الى ان مجرد تلفظ السيد بالعتق ولو على سبيل الهزل يسقط الرق عن العبد ويلزم سيده بتحريره لانه في نظرهم عقد لا تشترط فيه النية (2) وحتى اذا قضى الحاكم بعتق رقبة ظلما لصاحبها جاز عتقه في نظرهم (3) ومن قبيل تكليف المشرع لأولي الامر بمسالة العتق تخصيص سهم من الزكاة الواجبة لفك الرقاب بصريح القرآن وتكوين رصيد في بيت مال المسلمين لتحرير العبيد قال تعالى (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) (4) وقد اجاز الاسلام ان يدفع المسلم زكاته في شكل عتق رقبة ان كان عنده رقيق فمن كان عنده رقبة اعتق منها بقدر نصابه من الزكاة ومن لم يكن عنده رقبة اشترى بنصيبه من الزكاة رقيقا واعتقه (5)

---

1) الشيباني ــ شرح السير الكبير ج 5 ص 2289

2) الاوزجندي ــ الفتاوى الهندية ج 5 ص 55ــ61 برنشفيك Brunschvig دائرة المعارف الاسلامية ج 1 مقال عبد ص 30

3) عبد الرحمن الكواكبي ــ مجلة المنار ــ مجد 8 ج 22 في 11 يناير 1905 وذي القعدة 1323 هـ ونشر في المجموعة الكاملة لاعمال عبد الرحمن الكواكبي بيروت 1975 ص 379

4) القرآن ــ سورة التوبة ــ آية 60

5) ابن سلام ــ الاموال ــ القاهرة 1358 هـ ص 607

وقد اقر الفقهاء مراعاة لمقصد الشريعة في هذا الباب مبدا السراية في العتق بالنسبة الى العبد المبعض اي الذي اعتق سيده جزءا منه فقالوا بوجوب انجاز العتق ـ واذا كان ابو حنيفة قد شذ عن بقية الفقهاء فلم يقل بانجازه فان تلاميذه قد خالفوه (1) وقد اقر هذا المبدأ ايضا بالنسبة الى العبد المشترك الذي اعتقه احد الشركاء فالمعتق مجبر في هاته الحالة على انجاز العتق كاملا (2) ان كان له مال والا استسعى العبد "غير مشقوق عليه" كما جاء في الحديث (من اعتق نصيبا او شقيصا في مملوك فخلاصه عليه في ماله ان كان له مال والا قوم عليه فاستسعى به غير مشقوق عليه) (3) وتكون السراية ايضا في ابناء الامة العتيقة ومن عتقت حبلى كان جنينها بمنزلتها (4).

وقد اكد المشرع على احترام قرار العتق وقرر عدم التراجع فيه فمن حرر لا يسترق ثانية وان كان عتقه ممنوعا بسبب دين مثلا ففي مثل هاته الحال يجيز القاضي قرار العتق ويلتفت بعد ذلك

---

1) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية - مقال عبد ص 30
2) الشافعي - الام ج 4 ص 117 - بهلوي ـ الجامع ـ ج 2 ص 240 ـ 242
3) البخاري ـ صحيح ـ المطبعة المنيرية بمصر - بدون تاريخ - ج 3 ص 290
4) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 30

الى جبر الضرر بالنسبة الى المتضرر (1) وذلك لان العتق على حد قول الرسول احد ثلاث "ليس فيهن لعب النكاح والطلاق والعتق " (2) وقد ظل احترام قرار العتق راسخا حتى انعكس في امثال المسلمين السائرة كقولهم " هيهات غل يدا مطلقها واسترق نفسا معتقهـــا "(3) فالعتق عقد من العقود استحب الفقهاء ان يكون مكتوبا وان يشهـــد عليه شهود توثقـا وصيانـة عند التجاحد والتنازع فيـه (4) ويختلف الشرع الاسلامي في موقفـه هذا من العتق عما كان معمولا به فـي حضارات اخرى كحضارة الرومان فمن العادات الرومانيـة القديمـة ان العبد المعتق اذا قصر في احترام سيده كان لمولاه ان يتراجع فـي عتقـه ويعيـده الى الرق (5).

ولم يكد الفقهاء يعترفون باي مانع من موانع العتق باستثناء الدين الذي يخول للغرماء تسلم العبد في مقابل دينهم او بيعه واستخلاص

---

1) البهلوي ـ الجامع ـ ج 2 ص240ـ242 ـ الاوزجندي ـ الفتاوى الهندية ج 5ص55ـ61 برنشفيك Brunschvig. دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 30
2) الزرقاني ـ شرح الموطا ـ ج 3 ص 146
3) البلوي ـ سيرة احمد بن طولون ـ ص 307
4) الاوزجندي ـ الفتاوى الهندية ـ باب العتق ج 5 ص 55 ومابعدها
5) ر ـ موليي ـ مبادئ القانون الروماني R. Monier . Manuel elementaire de droit Romain باريس 1947 (في جزأين) ج 1 ص240 ـ 242

حقهم (1) وفي ما عدا هاتـه الحال نراهم يعملون على تبسيط وسائلـه حتى ذهبوا في ذلك الى تجويز العتق بالوكالة (2)

ومن الامور المشجعة على العتق ان احكامـه لم تكن تفصم العلاقـة نهائيا بين العبيد والسادة بل يبقى العبد في منزلة وسطـى بين الحريـة والعبوديـة ويصبح مولى لسيده وهذا شبيـه بما وجـد في الدولـة الرومانيـة من عبيد محررين يسمون "لبرتينى" Libertines (3) ويتمثل الولاء في عقد يخول للعبد حمايـة سيده بعد العتق اذ يضطلع بدفع العقل عنـه في الجنايات والجراحات ويكون للسيد مقابل ذلك ان يرثـه اذا مات وبذلك يكون للسيد دائما نصيب في مال عبده المعتق ولهذا السبب استكـره الفقهاء عتق السائبـة وهو الذي نفصم فيه العلاقة نهائيا ولا يكون فيـه ولاء للسيد المعتق وقد حدث ذلك كثيرا فـي الجاهلية وكان الاسلام مستكرها له ومن امثلتـه عتق سالم مولى ابـي حذيفة بن عتبـة وقد كان مملوكا لبثينة امراة ابي حذيفة فاعتقته سائبة(4).

---

1) الاوزجندي ـ الفتاوى الهندية ـ باب العتق ج5 ص 55 ومابعدها
2) البهلوي ـ الجامع ـ ج 2 ص 243
3) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي - ح 4 ص 21ـ 23
4) ابن قتيبـة ـ المعارف ص 92 مصر 1300 هـ

لكن هذا النوع من العتق الذي يتنازل فيه السيد عن الولاء وجد في الاسلام رغم ذلك ولم يمنع على وجه التحريم ولم يكن وجوده معطلا للعتق لانه معلق باختيار السيد فاذا اعتق السيد عبده وتنازل عن ولائه لم يكن له الحق في ارثه اذا لم يكن له وارث وفي هاته الحال يصير ميراث العبد المعتق الى بيت المال وكانت السنة التي سنها عمر بن الخطاب في هاته الحالة ان يشترى بذلك المال عبيد ثم يعتقون (1) وهكذا نرى ان وجود الولاء وعدم وجوده كلاهما مشجع على العتق .

بامكاننا اذن ان نستنتج من كل ما سبق ان الاسلام لا يعتبر عبودية الرقيق مؤبدة بل اننا لنجد في الحديث ما يشير الى كونها ظرفية زائلة (2) فضلا عن الاسباب العديدة التي وفرها الشرع للقضاء على الرق بصورة تدريجية . ولا مجال هنا للتمادي في تفصيل القول في قضية العتق في الاسلام ويمكن ان نوجه القارئ الى كل الابواب التي ادرجها الفقهاء في كتبهم حول هذه المسالة لكي يجد فيها اضعاف ما ذكرنا من صور العتق الموصى بها شرعا .

---

1) ابن قدامة ـ المغني ـ ج 6 ص 410 ـ 413

2) احمد شفيق باشا ـ الرق في الاسلام ـ ص 72 وهبة زحيلي ـ آثار الحرب ـ ص 441 .

ولا غرو بعد هذا اذا ما راينا المسلمين يقبلون على عتق الرؤوس العديدة من الرقيق الذي درت عليهم العتوحات والذي كانوا يقتنون عن طريق الشراء . فقد كان هذا العتق الذي كنا بصدد تحليله يشل اهم الاسباب في نقصان مقادير الرقيق بالمجتمع الاسلامي نقصانا مستمرا بالرغم من وجود مصادر لتزويده بكميات جديدة ويمكننا ان نعتقد في يقين انه بقدر اتساع عقلية التحرير هذه بقدر نفاد بضاعة الرقيق .

ب. المسلمون والعتق :

* الدوافع العقائدية

لقد كان لهذه التعاليم ادن اثرها في نقصان رصيد المجتمع الاسلامي من الرقيق ولا يجب ان نظن انها قد بقيت مجرد احكام نظرية لا صلة لها بالممارسة التاريخية بل انها صادفت مجالا واسعا للتطبيق في واقع الحياة الاسلامية ووضعت موضع التنفيذ في شتى عهود الاسلام فمنذ حياة الرسول كانت جدوة الايمان المتقدة في نفوس المسلمين تحثهم على المسارعة الى عتق رقيقهم اقتداء بسلوك النبي الذي اعتق قبل موته جميع ما كان يحوزته من رقيق (1) وصحابته الذين نحوا

1) الكتاني - التراتيب الادارية ج 1 . ص 27 - 29

على منوالـه اذ كان ابو بكر يشتري العبيد من ساداتهم القرشيين ثم يعتقهم (1) وفعل فعله غيره من الصحابة والتابعين تقربا الى اللـه وعملا بما اوصاهم به ديلهم وندبتهم اليـه شريعتهم.

ولعل من اشهر اخبار العتق في عهود الاسلام الاولـى تصرف المسلمين مع اسرى "عين التمر" الذين اسرهم خالد بن الوليـد عند فتحها فقد كانوا اربعين اسيرا اعتقهم بعد ذلك مواليهم ونبـغ من اولادهم جماعـة كانوا عونـا كبيرا للمسلمين في السياسـة والحرب والعلم والدين "منهم موسى بن نصير فاتح المغرب والاندلس فان اباه من اولئك الاربعين وكذلك محمد بن سيرين صاحب تعبير الرؤيا فان اباه منهم وحمران مولى عثمـان بن عفـان وايضا محمد بن اسحق صاحب المغاني والسير فان جده يسار منهم ونص على ذلك سائر مشاهير الموالـي الذين اصلهم من السبي في اثناء الفتح او بعده ،فابو صفر من سبـي دبا في ايام ابي بكر وحماد الراويـة اصل ابيـه ديلمي من سبـي مكنف بن زيـد الخيل وسائب خاثر اصلـه من في كسرى ومروان بن ابي حفصـة الشاعر الشهير اصلـه يهودي من سبي اصطخر والهروي اللغوي

---

1) ابن هشام ـ السيرة ـ ج - 1 - ص 202 - 203

المشهور اسير وقع في سهم عرب نشؤوا في البادية وابن الاعرابي سندي الاصل وابو دلامة كوفي اسود كان عبدا لرجل من بني اسد فاعتقه وقص على ذلك سائر مشاهير الموالي الذين اصلهم من السبي " (1)

كذلك كان شان المسلمين مع رقيقهم منذ صدر الاسلام فهذا عبد الله بن عمر اذا اشتد عجبه بشيء من ماله قربه الى الله وكان اذا لاحظ احدا من رقيقه مواضبا على الصلاة في المسجد اعتقه فيقول له اصحابه : " يا ابا عبد الرحمن ما بهم الا ان يخدعوك " فيقول " ما خدعنا احد بالله الا انخدعنا له " وقيل انه اعتق على هذه الصورة الفا من عبيده (2) وقد سار المسلمون على هذا السنن في تحرير عبيدهم فمما وصلنا من اخبار الشاعر عمر بن ابي ربيعة انه لما تقدمت به السن اقسم الا يقول شعرا الا اعتق رقبة وقد نظم مرات بعد ذلك وبر بقسمه غير مرة (3) كما يروى ان عبيد الله بن ابي بكرة الثقفي الذي تولى ولاية سجستان اواخر القرن الاول للهجرة (4) كان يعتق في كل عيد مائة عبد (5) ومما يذكر ايضا

---

1) زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 3 ص 49 وج 4 ص 47ــ48
2) ابن خلكان ــ وفيات الاعيان ــ القاهرة 1948 ج 3ص30 ــ زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج 4ص45
3) الاصفهاني ــ الاغاني ــ ج 1 ص 149
4) تولى ولاية سجستان سنة 75 هـ
5) ابن تغري بردي ــ النجوم الزاهرة ــ ج 1 ص 202 ـ القاهره 1932 م

عن محمد بن سليمان بن علي العباسي زوج العباسة بنت المهدي انه قد كان له خمسون الف عبد اعتق منهم عشرين الفا (1).

وكثيرة هي الاخبار التي تصف لنا عتق السادة لعبيدهم في مناسبات معروفة مثل الموت وهو من المناسبات التي يوصي فيها المسلم عادة بعتق ما ملكت يمينه وكذلك مناسبات المسرة كالاعياد وحفلات الختان والزفاف وغيرها ، ومن احسن الامثلة على ذلك تصدق الخليفة المهدي عن ولده ابراهيم المعروف بابن شكلة بعتق خمسمائة عبد حين بلغ في قراءته للقرآن سورة البلد (2) وقد رسخت هذه العادات والتقاليد في المجتمع الاسلامي وتسببت في تحرير عدد كبير من الرقيق .

وقد كان انتشار الاسلام بين الرقيق باختلاف اجناسهم وملليهم عاملا هاما من عوامل عتقهم ايضا لان الشرع الذي اوصى المسلمين بتحرير الرقاب عموما قد اكد خاصة على فك الرقاب المؤمنة هذا بالاضافة الى ان العتق تعقبه علاقة اجتماعية معينة بين العتيق وسيده وهي علاقة الموالاة التي يشترط فيها الاسلام طبقا لما ينص عليه الآي القرآني كقوله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين اولياء من دون المؤمنين"(3).

---

1) المصدر نفسه ج 2ص75 وتذكر روايات اخرى ان جملة ما اعتقه سبعون الف راس انظر – زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 45

2) ابن الزبير – الذخائر والتحف – ص 112

3) القرآن – سورة النساء – آية 143

وقوله : " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض " (1).

وما من شك ايضا في ان الاغلبية الساحقة من رقيق الفتوحات قد دخلت في الاسلام بحكم توقها الى التحرر وملابستها لحياة المسلمين مما ساعد على نقصان مقادير هذا الرقيق . ويكفي ان نرجع الى المصادر التاريخية والادبية التي تحدثنا عن اوضاع العالم الاسلامي في القرنين الاول و الثاني للهجرة لكي نرى وفرة الطبقة الموالي من العرب والصقالبة والبربر وغيرهم ممن استرقوا زمن الفتوحات او طمح بهم صروف التجارة الى الاسواق الاسلامية ثم اعتقهم ساداتهم فصاروا يكونون جزءا هاما من طبقة الموالي في المجتمع الاسلامي الى جانب نوع آخر من الاعاجم الذين ارتبطوا بعناصر العرب عن طريق ولاء حلف بالاحرار كان يدعى ولاء الموالاة (2).

تلك صورة موجزة عن الحوامل العقائدية التي شجعت على تحرير الرقيق وتسبب في نقصان هذه البضاعة بصورة دورية ومنتظمة جعلت المجتمع الاسلامي في حاجة متجددة الى التزود بارصدة جديدة . ولم تكن العقيدة هي وحدها المتسببة في وجود هذا الرقيق بل انها لتتحد مع عوامر اقتصادية اخرى كان لها تأثير لا يقل عن تأثيرها .

---

1) القرآن الكريم سورة التوبة = آية 72

2) كلود كاهن Cl. Cahen - الشعوب الاسلامية ص 176

★ الدوافع الاجتماعية

لقد كانت الدوافع المشجعة على العتق عديدة بالاضافة الى الدافع الشرعي والدافع الانساني وقد سبق ان راينا ان بعض التقاليد التي رسخت في المجتمع الاسلامي كانت حافزا عليه ومن تلك التقاليد ان ابناء هذا المجتمع كانوا يحررون العبد اذا بلغ مستوى معين من التفوق في اي ميدان من ميادين الحياة اونبغ في فن من الفنون او صناعة من الصنائع خصوصا اذا كان ذلك الفن او تلك الصناعة على جانب كبير من الرواج في ذلك المجتمع ولذلك نجد نبوغ بعض العبيد في قرض الشعر مثلا او في رواية الحديث والتفقه في الدين او في ميدان الغناء والطرب عاملا من العوامل المشجعة على عتقه .

فمن ذلك ما يروى في كتاب الاغاني عن اعجاب عبد العزيز بن مروان بشاعرية نصيب اعجابا دعاه الى ابتياعه من مواليه ثم عتقه (1). وقد صار نصيب بعد ذلك يتقرب بالشعر لعبد العزيز بن مروان ويمدحه لكي يعتق اخته امامة وامه سلامه وهم جميعا من عبيد النوبة (2)

1) الاصفهاني - الاغاني - ج 1 ص 311
2) المصدر نفسه ج 1 ص 305. 306

وشبيه بذلك ما يروى عن مخارق حين غنى بحضرة الرشيد (170-193هـ/786-809م) فقد اعجب هذا الخليفة بغنائه واعتقه (1) كما ادى به اعجابه بعزف جارية " زلزل " الضارب الى تحريرها (2).

واذا ما كان هذا العامل من نوع ثقافي فان العامل المذهبي السياسي قد لعب دوره ايضا في دفع الرقيق نحو الحرية فقد اعلن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (341-365هـ/952-975م) انه مقر العزم على منح الحرية لكل العبيد الذين اعتنقوا المذهب الشيعي (3) ولكننا لا نعلم هل طبقت هذه الفتوى في عهده ام لم تطبق وان كان روجي ادريس Roger Idris قد اكد ان العمل بها لم يتم في عهد الصنهاجيين (4).

وغالبا ما كانت مصالح السادة تبعثهم على تحرير رقيقهم اذا ما بدت علامات النجابة عليهم والسر في ذلك ان تحريرهم يخول لهم ان يخدموا شؤون مالكيهم بصورة انجع اذ يطلق ايديهم في التصرف ويتيح لهم الاشراف

---

1) المصدر نفسه ج 3 ص 67

2) المصدر نفسه ج 5 ص 206-207

3) حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف - المعز لدين الله - دراسة تعتمد المجالس والمسايرات للقاضي ابي حنيفة النعمان - طبعة القاهرة 1367هـ 1948م ص 103

4) روجي ادريس - Roger - Idris - بلاد البربر La Berbérie ج 2 ص 575

على اعمال يتعذر عليهم مباشرتها في حالة الرق التي تحجر عليهم العديد من التصرفات في نظر القانون ، فالعبد محجور عليه في نظر الفقه الاسلامي ومحروم من الاضطلاع بالمسؤوليات المدنية كالولايات لشتى المهام والشهادات امام القضاء وغير ذلك مما يقدر عليه الاحرار(1) فاذا ما اعتق وصار مولى تمكن من ممارسة اعمال الاحرار وصار بذلك اكثر نفعا واجدى سعيا بالنسبة الى مولاه .

وتروي لنا كتب التاريخ والسير روايات كثيرة عن هؤلاء الموالي الذين قدموا جليل الاعمال وحملوا السلاح وانخرطوا في سلك الجيش ووصلوا الى مكانة عالية فيه او تقلدوا الوظائف الهامة في الادارة او اشرفوا على شؤون التجارة في الاسواق نيابة عن مواليهم وكانت الدولة تصنع صنيع الافراد برقيقها فكثيرا ما كانت تعتقه لتكلفه بشتى المهام الادارية والعسكرية ولتفوض له السلطة وتمكنه من الحرية الضرورية للاشراف على هذه المهمات وهكذا ينقلب اولاك الرقيق الى فئة من الموالي يخدمون ركاب الدولة .

---

1) الشربيني الخطيب ـ مغني المحتاج ـ ج 2 ص 93 . مالك بن انس ـ المدونة ج 13 ص 4 برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 2 2

وقد كان من عادات المسلمين العسكرية ان يحرروا عبيدهم اذا حاربوا معهم وابلوا في الحرب بلاءا حسنا وانتصروا على عدوهم وكانهم في ذلك يقتدون بما فعله الرسول عندما حرر عبيد الطائف الذين نزلوا اليه من الحصن وحاربوا معه (1) وقد تواصل العمل بهذه العادة عند مسلمي العصور الموالية ويبدو انها عادة قديمة ورثها العرب عن العهد الجاهلي اذ كان الجاهليون يحررون عبيدهم اذا ظهر تفوقهم في الحرب ومن اشهر الامثلة ما ترجم عنه القصص الشعبي الذي حياك حول شخصية عنترة العبسي فقد روي فيه ان سيده وعده بان يحرره اذا احسن الكر في احدى الغارات (2).

وقد حافظ العرب بعد الاسلام على هذه العادة في فتوحاتهم وقد روى الطبري ان الجنيد بن عبد الرحمن المري لما التقى مع خاقان الترك عام (112هـ/ - 730 م) في معركة الشعب غرب سمرقند في زمن هشام بن عبد الملك (105 - 125هـ/ 724 -743م) قال للعبيد المقاتلين معه

---

1) ابن هشام ـ السيرة ـ القاهرة 1955 ج 2 ص 290 ابن قتيبة ـ المعارف ـ ص 97 زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 45

2) لامنس Lammens ـ مهد الاسلام ـ ط. روما 1914 ـ ص 299
برنشفيك Brunschvig ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ مقال عبد ـ ج 1 ص 96

" اي عبد قاتل فهو حر " فاستبسلوا في النزال وانهزم العدو فحررهم الجديد (1) وقد روى القزويني ايضا ان الروم غزوا مالطة وطلبوا من المسلمين النساء والاموال فجمع المسلمون شملهم ووحدوا صفوفهم وجندوا العبيد وقالوا لهم ان انتصرنا فانهم احرار فظفر المسلمون واجلوا الروم وتحرر العبيد (2).

فواضح اذن ان الغاية من هذه السياسة الحربية اغراء العبيد بحسن القتال رغبة في النصر وقد كان المسلمون يفون بوعودهم ويحررون عبيدهم بعد الحرب لان احكام العتق في الاسلام تفرض على السادة الوفاء به كما رايتا وان كانوا هازلين وما من شك في ان اعدادا وفيرة من الرقيق قد حررت في هذه المناسبات الحربية ولم يكن الامر مجرد وعد لا يتم انجازه مثلما فعل بعض الاباطرة الرومان وهو ميشيل الثاني(204-213هـ/ 820-829م)الذي جند الاسرى العرب في حربه مع توماس الثاني (206-208هـ/ 822م ــ 824م) ووعدهم بالحرية اذا انتصر عليه لكنه لم يف بوعده ولم يطلق سراحهم (3).

---

1) الطبري ــ تاريخ الامم والملوك ــ ج 7 ص 79 ابن الاثير ــ الكامل ــ ج 5 ص 73
زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 45

2) القزويني ــ آثار البلاد واخبار العباد ــ بيروت 1960 ص 557

3) فازيلياف ــ vasiLiev ــ العرب والروم ــ ترجمة عبد الهادي عبيرة ص 50

وكثيرة هي الاخبار التي تروي لنا استماتة عبيد المسلمين في القتال واستقتالهم بين ايدي مواليهم طموحا الى الحرية واعترافا بالجميل لساداتهم ومن هذه الاخبار على سبيل المثال لا الحصر ما يروى من احداث الفتنة بين الامين (193 - 198 هـ / 790 - 813 م) والمأمون (198 - 218 هـ / 813 - 833 م) فمن ذلك ان محمد بن يزيد المهلبي كان من حزب الامين واراد ان يرد هجوم طاهر بن الحسين قائد جند المامون عن الاهواز فباغته طاهر بجنده قبل ان يستعد ويتحصن وضيق عليه الخناق فالتفت المهلبي الى مواليه وقال لهم : " مارايكم ... اني ارى من معي قد انهزم ولست آمن خذلانهم ولا ارجو رجعتهم وقد عزمت على النزول والقتال بنفسي حتى يقضي الله بما احب فمن اراد الانصراف فلينصرف فوالله لان تقتلوا احب الى من ان تموتوا " فقالوا : " والله ما انصفناك اذا تكون قد اعتقتنا من الرق ورفعتنا من الضعة واغنيتنا بعد القلة ثم نخذلك على هذا الحال فلعن الله الدنيا والعيش بعدك " ثم نزلوا فعرقبوا دوابهم واستقتلوا بين يديه (1).

---

1) ابن الاثير - الكامل - ج 6 ص 106

زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ص 49

ج - عقـــود التحريـــر

ولم يكن العتق هو الباب الوحيد الذي كان مفتوحا في وجـه الرقيق للخروج من حيز العبوديـة الى مجال الحريـة بل وجـــدت صيغ وعقـود اخرى طبقت فـي المجتمع الاسلامـي ويص عليها تشريعه الفقهي وكان مآلها التحرير ايضا وانقاص رصيـد المجتمع من مـــادة الرقيق .

* امـومـة الـولـد :

ومن اشهر هذه العقود عقـد التسري الذي يسمح للسيـد بوطء مملوكتـه واستيلادها ، فمن الاحكام المعمول بها في هـــذا العقد ان السريـة بمجرد انجابهـا من سيدهـا تصبح " ام ولد " وترتفـع منزلتهـا عن منزلـة الامـاء فيمنـع بيعها (1) وبذلك تفقـد قيمتها الماليـة او التجاريـة وتسترجـع مكانتهـا الآدميـة والاجتماعية وهكذا يصبح السراري بانتقالهن من وضع الامـاء الـى وضع امهـات الاولاد خاضعـات لاطار قانونـي جديـد يصبحن بموجبـه في صيغـة

---

1) يوسف شاخت - J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ مقال ام ولد ج 2 ص 640ـ641
ابن قدامـة ـ المغني ـ ج 9 ص 530
مالك بن انس ـ المدونـة ـ ج - 8 - ص 23 - 54

البضاعة المجمدة بخروجها من دائرة المعاملات التجارية من بيع وشراء ـ يقول ابن قدامة في ام الولد : " لا يجوز بيعها ولا التصرف فيها بما ينقل الملك من الهبة والوقف ولا ما يراد للبيع وهو الرهن ولا تورث لانها تعتق بموت السيد ويزول الملك عنها . روي هذا عن عمر وعثمان وعائشة وعامة الفقهاء . . . " (1)

وليس هذا موقف الحنابلة فقط فالراي السائد عند الفقهاء هو منع بيعها وهبتها بالرغم من وجود بعض المواقف التي يرى اصحابها ان النهي عن بيعها هو نهي تاديب وليس نهي تحريم مستشهدين في ذلك ببيع بعض الصحابة مثل علي بن ابي طالب لامهات اولادهم (2) وهو راي خالف به الظاهرية والامامية والمعتزلة (3) جمهور الفقهاء الذين يرون ان فرار عمر بن الخطاب

---

1) ابن قدامة ـ المغني ـ ج 9 ص 531

2) بهلوي ـ الجامع ـ ج 2 ص 240 ـ 258 يوسف شاخت - J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية مقال - ام ولد ـ ص 639 ـ
ابن قدامة ـ المغني ـ ج 9 ص 530 ـ 531

3) يوسف شاخت - J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية مقال ام ولد ـ ص 639
بهلوي ـ الجامع ـ ج 2 ص 240 ـ 258

بمنع البيع قد حسم الخلاف (1) وقد استقر هذا التشريع فعلا منذ عهد عمر ووضع موضع التنفيذ في المجتمع الاسلامي فصارت كل امة انجبت ولدا من سيدها ولو بعد وفاته تعتبر ام ولد وان كانت غير مسلمة ولمولاها وطؤها واستخدامها وتزويجها وليس له بيعها(2) وذلك استنادا الى ما روي عن النبي (ص) من نهي عن بيع امهات الاولاد في قوله : " لا يبعن ولا يوهبن يستمتع بها السيد ما دام حيا واذا مات فهي حرة " (3) ولم يكف هذا التشريع باخراج ام الولد من دائرة المعاملات التجارية بل قرر عتقها بعد موت سيدها فتصير حرة لا تصل اليها ايدي الورثة .وان كان على سيدها دين يستخلص من ميراثه ولا تعتبر جزءا من ثلث التركة الذي تجوز الوصية فيه فهي اذن تعتق حتما بمجرد موته (4) وفقا لما

---

1) المرجع نفسه -

2) العيني ـ شرح الكنز ـ ج 1ص201ـ202 ـ النفراوي ـ الفواكه الدواني ج 2 ص154 ابن قدامة - المغني ج 9 ص 530ـ531

3) الشوكاني ـ نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار ـ القاهرة 1961 ج 6 ص 89

4) يوسف شاخت .. J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية مقال ام لود ص 640

قالـه الرسول في ماريـة عندما ولدت ابراهيم " اعتقها ولدهـا "
وكذلك طبقا للحديث : " من وطئ امـة فولدت له فهي معتقـة
عن دبر منـه " (1).

ولم يكن النسل الذي يسفرعنـه عقد التسري بين الاحرار
والاماء ليزود الاسواق الاسلاميـة بشيء من الرقيق اذ يتفق الفقهـاء
على ان ابناء السريـة من سيدها يولدون احرارا ، خلافـا لما كـان
عليـه الامر قبل الاسلام (2) ويرثون آباهم ويكفي لثبوت نسبهـم فـي
نظر المالكيـة والشافعيـة والحنابلـة مجرد الوطء. وليس للسيـد
جحدهم وان ادعى العزل عن سريتـه لانهم يرون الاقرار بالوطء
كافيـا للاسترقاق (3) ولو كان حسب قولهم في الدبر وان كان الشافعي
يراه في الدبر ضعيفـا (4) بينمـا يولـي الحنفيـة اهتماما باعـتراف
السيـد بابنـه ويخولون لـه حق انكاره لكنهم يقيدون هذا الحق
بشروط كأن تكون مـدة التسري دون المدة الضروريـة للحمل او ان

---

1) العيني ـ شرح الكنز ـ ج 1 ص 201ـ202 الشوكاني ـ نيل الاوطار ج 6 ص103
ابن قدامـة ـ المغني ـ ج 9 ص 527
2) برنشفيك ـ Brunschvig ـ دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ـ ج 4 ـ ص 96
3) الزرقاني ـ شرح الموطأ ـ ج 3 ص 146ـ229 العيني ـ شرح الكنز ج 1 ص201ـ202
بسوف شاخت ـ Schacht ـ ج ـ دائرة المعارف الاسلامية ام ولد ص 640
4) العيني ـ شرح الكنز ـ ج 1 ص 201ـ202
ابن قدامـة ـ المغني ـ ج 9 ص 530

يقسم انه استبرأ جاريته ستة اشهر على الاقل قبل وضع الحمل وفيماعدا هذه الحالات وما دام الجنين قد وضع في ملك السيد وعلى فراشه فليس له جحده (1).

وخلاصة القول ان لا خلاف بين المسلمين على ان الولد الذي يولد للرجل من امته حر متى ثبتت ابوته له .وجميع الابناء الذين تلدهم ام الولد من غير سيدها بعد حملها منه يعتبرون احرارا شرعيين كانواأوغير شرعيين (2) وذلك وفقا للحديث الشريف " الولد للفراش وللعاهر الحجر " (3) واذا ما كانت الامة ملكا لرجلين وحدث ان وطئاها في طهر واحد او انتقلت من ملك الى آخر دون استبراء مما يعسر معه التثبت في نسبة الجنين يترك الفقهاء الامر للقائف لكن الحنفية ترفض هذا الحل وتجعل للولد ابوين في نفس الوقت وتمكن الابن من اختيار احدهما عند بلوغه الحلم (4)

---

1) آدم متز A. Metz - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 296
برنشفيك Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد - ح 1 - ص 29
2) يوسف شاخت - J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية مقال ام ولد ص 641
3) ابن قدامة — المغني — ج 9 ص 529
4) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد - ح 1 - ص 29
يوسف شاخت - J. Schacht - دائرة المعارف الاسلامية مقال ام ولد ص 641
العيني — شرح الكنز — ج 1 ص 201—202

من الجلي اذن ان هذا التناسل عن طريق التسري لم يكن ليزود الاسواق الاسلامية بزاد من الرقيق لانه كان ينتج نسلا حرا ويتسبب في حريـة امهات الاولاد ، واذا ما كان زواج الاحرار بالاماء سببـا من اسباب رق الولد فمن المرجح ان عقود التسري بالامـاء قد كانت اكثر رواجـا في المجتمع الاسلامـي من عقود الزواج بـين الاحرار والرقيق لماسنبينـه فيمـا بعد من تشـدد المشرع في هذا الزواج ولما يستكرهـه الازواج من عبوديـة نسلهم " ففي الفقـه الاسلامي تفرقـة دقيقـة بين الزواج والتسري تبلغ من الدقـة درجـة يستحيل معها ان يتزوج السيد من امـة " (1) فكان المسلم يفضـل شراء السريـة على الزواج بالامـة لهذه الاعتبارات التي ذكرناهـا وهكذا كان المعول اذن في ايجاب الرقيق على الزواج بين العبيد والاماء اكثر منه على ما يحدث من علاقات تناسليـة بين الاحرار والعبيد .

واذا ما علمنـا ان قسمـا كبيرا من الرقيق المؤنث كان يقتنى للتسري وايجاب الولد وان الاحكام الفقهيـة لا تفرض على السادة عددا

---

1) ويسف شاخت - J. schacht - دائرة المعارف الاسلامية مقال ام ولد ص 641

معينا من السراري لا يمكنهم تجاوزه ادركنا الثغرة الكبيرة التي تحدثها امومة الولد وما يدجر عنها من الحاق الابناء بنسب ابيهم في طبقة الرقيق بالمجتمع الاسلامي فقد اختلطت دماء الاحرار بالاماء في هذا العصر وكثر نسل السراري حتى الخلفاء انفسهم كانوا اذاك من نسل الجواري .

* **التدبير :**

ومن العقود التي ساهم تطبيقها في انخفاض عدد الرقيق واستمرار الحاجة اليه عقد التدبير وهو اسلوب من اساليب تحرير السادة لعبيدهم ومعناه لغة النظر في عاقبة الامور واصطلاحا تعليق العتق بالموت (2) وان يقول السيد لعبده : انت حر عن دبر مني (3) اي ان يعلق عتقه بموته فيصبح حرا بعد موت سيده (4) وقد يضاف الى شرط الموت شرط آخر فيسمى تدبيرا مقيدا (5) ومن

---

1) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 29
2) الميداني - اللباب - شرح مختصر القدوري - ج2 ص105-107 الرصاع - شرح حدود ابن عرفة ص 522 -
3) أبو بكر بن علي العبادي - الجوهرة النيرة ج 2 ص 105-107
4) الرصاع - شرح حدود ابن عرفة ص 522
برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 31
5) الميداني - اللباب - ج 2 ص 105-107

ادق التعريفات للتدبير ما جاء في حدود ابن عرفة وهو قوله :

"عقد يوجب عتق مملوك في ثلث مالكه بعد موته بعتق لازم " (1)

ويفهم من هذا التحديد ان المدبر يعتق من ثلث مال سيده بعد موته لان حكمه حكم الوصية التي تنفذ بعد الموت وتكون في الثلث فان لم يسعه الثلث او لم يكن للسيد مال غيره عتق ثلثه وسعى للورثة في ثلثيه (2).

وقد اتخذ هذا النوع من العقود شكلا من اشكال اعمال البر اذ كان الحافز عليه انسانيا بتمثل في اعتراف السيد بجميل عبده الذي خدمه طوال حياته واستحق الحرية بما قدمه من حسن خدمة وامتثال وطاعة ، وقد فسح المشرع مجال التدبير ولم يقيده الا بشرط واحد وهو الا يكون على السيد دين يستغرق ثمن العبد لان الدين يتنافى مع الوصية (3) ولان حق الغرماء اولى بالاعتبار من التبرع بعتق المدبر ، وبالرغم من وجود هذا الشرط نرى الفقهاء

---

1) الرصاع ــ شرح حدود ابن عرفة ــ ص 522
2) الشافعي ــ الام ــ ج 4 ص 116
3) ابن قدامة ــ المغني ــ ج 4 ص 340

يوجدون مخرجا لهذا المدبر الذي يستغرقه الدين فافتوا بتكليفه بالسعي للغرماء في قيمته كاملة او في ثلثيه حتى يحرز على حريته .

ويفقد المدبر شان ام الولد قيمته التجارية في حالة تدبيره ، وقبل عتقه بموت سيده اذ لم يعد بامكان سيده ان يبيعه لارتباطه بعقد التدبير ، فيذهب الامام مالك مثلا الى ان العبد المدبر اذا سبق فيه بيع على وجه الخطأ لم يكن لبائعه مطلق التصرف في ثمنه لانه ليس عبدا كسائر العبيد . واذا حدث ان مات عند المشتري كان على بائعه ان يحتفظ بقدر قيمته في حالة التدبير ثم يشتري بما بقي رقبة يدبرها او يعين به على تدبير رقبة اخرى او تحريرها اذا كان المبلغ لا يفي بالحاجة . اما اذا اعتقه المشتري او قتل عنده او كان مدبرة وطئها وحملت منه وامست ام ولد ، فان الثمن يخلص له كاملا لان ذمته قد برئت بتحقيق مبدأ التحرير او لان ماله قد تلف بقتل العبد فصار الثمن بمثابة الغرم ، وقد بنى مالك كل هذه الاحكام على اساس عدم جواز بيع المدبر (1)

---

1) مالك بن انس ــ المدونة الكبرى ــ ج 8 ص 11 ــ 13

واذا ما كان المالكية وكذلك الشافعية والحنابلة يجوزون بيع المدبر في حالة استثنائية واحدة هي تعلق الدين بذمة السيد اعتمادا على ان الرسول (ص) باع مدبرا لنعيم بن عبد الله عندما احتاج نعيم الى المال (1) وعلى ان الدين يمنع الوصية وبالتالي التدبير (2) فان الحنفية تمنع بيع المدبر مطلقا وكذلك رهنه وهبته وافتت بان كل ما لا يجوز في الحر لا يجوز في المدبر (3) وقد استندت في حكمها هذا الى خبر رد عمر لبيع مدبر بمحضر الصحابة والى قول الرسول " ان المدبر لا يباع ولا يوهب ولا يورث وهو حر من الثلث" (4) وفندت مستندات المذاهب الاخرى بقولها ان المدبر الذي باعه الرسول لا يعتبر حجة لانه ربما كان مدبرا مقيدا بشرط آخر فضلا عن موت السيد ولان المؤاجرة تسمى بيعا بلغة اهل اليمن ، ولانه من المحتمل ان يكون قد باعه في وقت كان الحر فيه يباع بالديون حتى نسخ القرآن ذلك بقوله تعالى " واذ كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة " (5)

---

1) العيني ـ رمز الحقائق ـ شرح الكنز ـ ج 1 ص200ـ201 مالك بن انس ـ المدونة الكبرى ج 8ص6
2) ابن قدامة ـ المغني ـ ج 4ص340 ـ البهلوي ـ الجامع ـ ج 2 ص 246
3) أبوبكر العبادي ـ الجوهرة النيرة ـ ج 2ص105 ـ107 الميداني ـ اللباب ـ ج 2 ص 105 ـ 107
4) المصدر نفسه
5) القرآن سورة البقرة ـ آية 280

ومهما يكن من امر هذا الخلاف فاننا نرى فيه دليلا على ان المدبر لم يكن ليعرض في اسواق الرقيق الا عند الضرورة القصوى التي لا مناص منها كتلف حقوق الغرماء. وفيما عدا ذلك فهو اوفر حظا من سائر العبيد واقدر منهم على احراز نفسه وماله بل ان ذريته لتنتفع من عقد تدبيره فيصبح اولاد الامة المدبرة مدبرين مثلها. وفي هاته الفقرة التي نقتبسها من المدونة الكبرى لمالك بن انس ما يدل على ذلك : " قلت : ارايت المدبرة اذا دبرت وفي بطنها ولد وولدت بعد التدبير اهم بمنزلتها يعتقون بعتقها في قول مالك ؟ قال نعم ، قال : وقال مالك كل امة مدبرة او ام ولد او معتقة الى اجل او مخدمة الى سنين وليس فيها عتق فولدها بمنزلتها. قلت : والعبد المدبر او المعتق الى سنين اذا اشترى جارية فوطئها فولدت منه ايكون ولده بمنزلته في قول مالك ؟ قال : قال مالك لي: نعم ولده بمنزلته في هذا الموضع قال : وقال مالك : كل ولد ولدته بعد التدبير قبل موت السيد او بعد موت السيد فانه يقوم معها فيعتق منها ومن جميع ولدها ما حمل الثلث ولا يقرع بينهم "(1)

---

1) مالك بن انس ــ المدونة الكبرى ــ ج 8 ص 6

لقد كان لهذا النوع من العقود اثره اذن في نسل الرقيق وبذلك يتجاوز الامر الافراد الى الجماعات ويعجل بذوب هذه البضاعة واستهلاكها ونزداد يقينا بان تشريع الاحكام الفقهية في هذا الخصوص لم يكن ليخدم مصالح التجارة وانما كان خاضعا لمبادئ شرعية اخرى تتنافى مع تجارة الرقيق وتحدث فيها نزيفا قويا وقد لا نشعر بقوة هذا النزيف الا بعد ان ننظر في عقد آخر من عقود تحرير الرقيق المعمول بها في المجتمع الاسلامي ونعنى به عقد المكاتبة.

***المكاتبة :**

ولم يكن عقد المكاتبة بين الاحرار والعبيد اقل تاثيرا في استنزاف مادة الرقيق واتلافها من بين ايدي مالكيها من عقود التدبير و امومة الولد ، بل انه ليلوح لنا اذا ما تاملنا في اركان هذا العقد انه كان يشكل عاملا اقوى من غيره على اخراج الرقيق من طور العبودية الى طور الموالاة وخطرا اكبر على رواج هذه البضاعة في اسواق النخاسة.

فالمكاتبة عقد يبرم بين السيد وعبده ويلتزم السيد بموجبه عتقه مقابل مبلغ مالي يجتهد العبد في توفيره ويسمى بدل المكاتبة(1) فهي اذن بعبارة اخرى صيغة قانونية تخول للعبد ان يشتري حريته بالمال ، واذا كان من المرجح ان هذا الاجراء قد وقع العمل به قبل الاسلام (2) فان القرآن قد زاده تنظيما وتدعيما وشجع عليه ، كما ورد في الآية الكريمة ، باشكال مختلفة . (والذين يبغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) (3) ومما يروى عن الرسول انه اعان سلمان الفارسي على اداء بدل كتابته (4) وكما فعلت عائشة مع بريرة (5)

---

1) الا وزجندي — الفتاوى الهندية ج 5 ص 2 — 3

2) شاخت - Schacht - اصول الفقه الاسلامي. (The origins of Muhammadan jurisprudence) اوكسفورد 1950 ص 279-280
وات - W. M. Watt - محمد في المدينة - ص 356-360
برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 31

3) القرآن — سورة - النور - عدد 24 — آية 33

4) ابن هشام — السيرة - ط - مصر - 1914/1332 - ج 1 ص 142

5) البخاري — صحيح = ج 3 ص 293

ويفهم من هذه المستندات الشرعية ان العتق بالسبة الى عقد المكاتبة لم يعد مجرد تبرع من السيد واريحية من جانبه كما هو الحال في عقد التدبير ولا مرتبطا بظروف قاهرة كظروف الاستيلاد مثلما هو الشان في عقد التسري بالاماء وانما صار العبد بمحض اختياره قادرا على استرجاع حريته والتفاوض مع مالكه فيها واصبح طرفا من الاطراف في هذا التعاقد وله فيه دور محدد ، ولم يقيد المشرع عملية المكاتبة الا بشرط واحد وهو ان يكون العبد عاقلا راشدا قادرا على توفير المال امينا ولا ضرر على المسلمين من عتقه (1) ولا عبرة بعد ذلك بديه (2) بينما فرض المشرع على السيد الوفاء بالعقد ومنعه من التراجع في مكاتبته لعبده اعتمادا على قوله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود ") (3) فالمكاتبة عقد لازم لا يملك المولى فسخه دون رضى العبد المكاتب وهو يتخذ شكل الجبر احيانا اذ يرى بعض الفقهاء مثل عطاء ان السيد مجبر على مكاتبة عبده اذا طلبها منه (4) وان للامام ان يجبر السيد على قبول مكاتبة عبده اذا عرف بالصلاح .

---

1) الاوزجندي ــ الفتاوى الهندية ــ ج 5 ص 2 و ص4
2) المصدر نفسه ج 4 ص 2
3) القرآن ــ سورة المائدة ــ عدد 4 آية 1
4) احمد شفيق باشا ــ الرق في الاسلام ص 90ــ98

فبامكاننا الجزم اذن بان عقد المكاتبة قد توفرت فيه ضمانات كثيرة لتحرير الرقاب تضاف اليها تسهيلات اخرى لانجاز العتق من بينها تنجيم بدل المكاتبة تيسيرا على العبد وتمكينه من ان يدفع المال اقساطا ومنها حث المشرع السادة على اعانتهم مكاتبيهم بالمال اذا عجزوا عن الدفع وفقا لقوله تعالى (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب) (1) وقوله في سورة النور (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) (2) وقد خصص الفقهاء بناءا على هذه الايات نسبة من بدل المكاتبة سموها الايتاء وجعلوا دفعها مناطا بالسيد (3)

من الجلي اذن ان هذه الاحكام كفيلة بان تخرج الكثير من الرقيق الى عالم الحرية وهي تخول للمكاتب فضلا عن ذلك حظا كبيرا من حرية التصرف في نفسه قبل حلول موعد عتقه اي منذ تحرير

---

1) القرآن ـ سورة البقرة ـ عدد 2 اية 176
2) القرآن ـ سورة ـ النور ـ عدد 24 ـ اية 33
3) ابن قدامة ـ المغني ـ ج 9 ص 424ـ 425 - ابن حزم - المحلى ج 9 ص 246 ـ 247

عقد المكاتبة الى ان يتم دفع البدل ، فتزول عنه تلك الصفة التجارية التي كان يعتبر بسببها نوعا من البضاعة ويمنع سيده من بيعه واستخدامه ويترك له حرية العمل لكسبه الخاص حتى يمكن له جمع المال الضروري لتحرير رقبته ولذلك يعرف بعضهم المكاتبة بانها " تحرير يد في الحال ورقبة في المآل " (1)

واذا تعلق الامر بامة مكاتبة لم يكن لمولاها حق وطئها لان استلادها يؤخر موعد عتقها (2) في حين يجوز لها ان ترتبط معه بعقد التدبير بالاضافة الى عقد الكتابة لان في ذلك اضافة لضمان آخر لتحريرها (3).

وفي الجملة يعتبر المكاتب اقرب الى الحرية منه الى العبودية حتى اذا حان موعد دفع بدله احرز على حريته كاملة. وقد كان لهذا النوع من التعاقد انتشار واسع على صعيد التطبيق والسرّ في اقبال الاحرار والعبيد عليه هو ما يوفره من ضمانات لمصالح الطرفين اذ فيه تعويض خسارة بالنسبة الى السيد وتمكين العبد من استخلاص

---

1) الاوزجندي ــ الفتاوى الهندية ج 5 ص 2
2) المصدر نفسه ج 5 ص 2 ــ 4
3) العيني ــ شرح الكنز ــ ج 2 ص 163ــ165
السرخسي ـ المبسوط ــ ج 7 ص 166

حريتـه وهكذا يتم العتق بعد تسويـة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية كما ان مسالة عقيـدة العبد لا تثار في هذا العقد مما زاد في الاقبال عليه (1) واذا ما اعتبر الفقهاء المكاتبـة عقدا شخصيا لا يشمـل نسلـه (2) فان الحنفيـة جوزوا للعبد المكاتب ان يكاتب غيره من العبيد او ان يعين على دفع مكاتباتهم (3) وبذلك تتسع رقعـة التطبيق فضلا عن ان المكاتب بامكانـه بعد تحريره عتـق ذوي قربـاه .

وفي واقع الحياة الاسلامية ما يدل على ان المسلمين قد اتبعوا هذا المنهج في العتق منذ عهود الاسلام الاولى (4) وكان بعض اولي الامر يتدخلون في هذا الموضوع فيرغمون السادة على مكاتبة عبيدهـم اذا رفضوها مثلما فعل الخليفـة عمر بن الخطاب مع انس بن مالـك عندما رفض ان يكاتب عبده سيرين فقد روي انـه لما ابى ضربـه بالدرة وقال له : " كاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا " وحلف عليه ليكاتبنـه(5)

---

1) الاوزجندي ـ الفتاوى الهندية ـ ج 5 ص 2
2) ابوبكر العبادي-الجوهرة النيرة ج 2 ص 105ـ107
3) السرخسي ـ المبسوط ـ ج 7 ص 213
4) البخاري ـ صحيح ـ ج 3 ص 293 ابن هشام ـ السيرة ـ = ج 1 ص 142
5) ابن كثير - تفسير القرآن - الآية 33 من سورة النور - الجصاص -أحكام القرآن - ج3 ص341

وعندما كان ابو موسى الاشعري واليا على الكوفة اتاه مكاتب وهو يخطب في الناس يوم الجمعة طالبا منه ان يحث الناس على ان يعينوه في مال مكاتبته ففعل فالقى الناس عليه عمامات وملاءات وخواتيم حتى القوا عليه متاعا كبيرا فجمعه ابو موسى وباعه ودفع منه مكاتبة العبد ثم جعل البقية لرقاب اخرى (1).

*عقد الزواج :

ومن العقود المشجعة على العتق زواج الاحرار بالعبيد وذلك لان المشرع الذي سمح للحر بان يتزوج امة غيره قد قيد هذا الزواج بعدة شروط ثقيلة وفرض على الحر ان لا يتزوج بها الا عند الضرورة القصوى وهي عجزه عن الزواج بحرة وخوفه على نفسه العنت كما حرم عليه ايضا ان ينكح الامة بعد زواجه بالحرة اي ان يجمع بينهما واشترط كذلك ان تكون الامة مسلمة ، قال النووي في المنهاج

1) ابن كثير - تفسير القرآن - ج 4 - ص 317 (ط.بيروت 1966)

" لا ينكح ... الحر امة غيره الا بشروط ان لا يكون تحته حرة تصلح لاستمتاع . قيل : ولا غير صالحة . وان يعجز عن حرة تصلح . قيل : اولا تصلح فلو قدر على غائبة حلت له امة ان لحقه مشقة ظاهرة في قصدها او خاف زنى مدته ولو وجد حرة بمؤجل او بدون مهر مثل فالاصح حل امة في الاولى دون الثانية وان يخاف زنى فان امكنه تسر فلا خوف في الاصح ، واسلامها " (1) وقد استنبط الفقهاء هذه الاحكام من قوله تعالى " ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات " (2) وقوله : " ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم " (3).

ومن الطبيعي ان تبعث هذه القيود معظم الراغبين في نكاح الاماء على السعيَ الى تحريرهن قبل الزواج منهن وبذلك يصبحون في حل من تلك الشروط فاذا كانت الامة كتابية مثلا تعذر زواج الحر

---

1) ابو زكريا يحيى النووي ـ المنهاج ج 3 ص 183 ـ 196
2) القرآن سورة النساء ـ اية 25
3) القرآن سورة البقرة ـ اية 220

المسلم منها الا بعد تحريرها لان الزواج من الحرة الكتابية جائز شرعا اضف الى ذلك ان النسل الذي ينتج عن زواج الحر بالامة محكوم عليه بالرق ولم يكن الاحرار يرغبون طبعا في رق ابنائهم ، فكانت كل هذه العوامل تدفع الناس الى تحرير الاماء قبل زواجهن وبذلك تتحقق الغاية التي من اجلها وضع المشرع ما وضع من احكام في هذا المجال. وقد جاء في الحديث النبوي ما يشرح تلك الغاية ويحددها ، فقد روى البخاري في صحيحه ان الرسول قال : " ايما رجل اعتق امة ثم تزوجها بمهر جديد فله اجران " (1)

هذه صورة موجزة من العقود التي كانت تحدث في المجتمع الاسلامي بين الارقاء والاحرار وهي كما لاحظنا تفتح امام الرقيق مجالات واسعة للتحرر وتنقص من البضاعة التي تحتاج اليها الاسواق اذاك لمجابهة الطلب المتزايد وتضطر المجتمع الى تجديد رصيده من الرقيق لمواجهة شؤونه الاجتماعية والاقتصادية وقد كان تظافر هذه العقود او اضافتها الى بعضها بعضا امرا مشروعا فيمكن للسيد ان يعقد مع عبده أو امته اكثر من عقد واحد اذا ساعد ذلك على التعجيل بتحريره (2)

---

1) البخاري — صحيح — ج 3 ص 296

2) العيني — شرح الكنز — ج 3 ص 167 — 165 السرخسي — المبسوط — ج 7 ص 166

فيمكن للسيد ان يتسرى بمدبرته وان يستولدها لانها تضمن بصيرورتها ام ولد عتقها من راس مال سيدها بعد ان كانت لا تعتق الا من ثلث التركة وهي مدبرة ،كما يمكن لسيدها ان يكاتبها اذ بدفعها لبدل المكاتبة تتمكن من تعجيل عتقها. وكذلك الامر بالنسبة الى ام الولد التي يسمح المشرع بمكاتبتها. ولا يخفى ان الجمع بين هذه العقود قد روعي فيه هدف التحرير اذ لا يجوز الفقهاء اضافة التدبير الى المكاتبة واومية الولد ولا اضافة اومية الولد الى المكاتبة لان فيها تاخيرا لساعة الخلاص من الرق.(1) ويطبق مبدا السراية في العتق على كل هذه الاساليب عند اغلب الفقهاء فالولد تابع لامه في التدبير والمكاتبة والعتق كما يتبعها في الرق (2) وقد يتبع الولد اباه في كل هذه الاساليب اذا كانت امه مملوكة لابيه فولد المدبر من امته التي يملكها بمنزلته في التدبير (3).

وقد يطول الحديث عن المنافذ المفتوحة امام هذه البضاعة البشرية لكي تلتحق بصف الادميين وتنزع عنها صبغتها المادية

---

1) المصدر نفسه
2) أبو بكر العبادي - الجوهرة النيرة - ج 2 ص 105-107
3) مالك بن انس - المدونة الكبرى ج 8 ص 8

وقيمتها التجارية فقد صنف الفقهاء انماطا اخرى من عقود التحرير نقتصر هنا على ذكرها دون تحليلها منها العتق الى الاجل والوصية والعتق في المرض وغيرها وحسبنا ان نتاكد ان هذا الضرب من التشريع قد كان يشل الطاقة المستهلكة لما امكن للفتوحات او التجارة ان توفره من رقيق للمجتمع الاسلامي .

لعله قد اتضح اذن مما سبق ان ظاهرة تحرير الرقيق قد كانت عاملا من العوامل الاساسية التي تسببت في نقصان هذه المادة التجارية وتجدد الحاجة اليها وقد راينا كيف تنوعت البواعث من انسانية وعقائدية واخرى اجتماعية واقتصادية اساسها المصالح المشتركة بين السادة والعبيد على توسيع تلك الظاهرة وجعلها من الاسباب الدائمة لحدوث النزيف في رصيد الرقيق سواء بالنسبة الى هذا العصر او غيره من العصور . الا ان هذا السبب الدائم الذي كان له اثره في هاته الفترة من الزمن قد تظافرت معه اسباب اخرى ظرفية وخاصة بهذا العصر على توسيع رقعة النزيف والتعجيل بنقصان الرصيد ومن هذه الاسباب استفحال ظاهرة الاباق واستشراء الفتن والاضطرابات .

3)- ظـــاهـــرة الابـــاق

ومـــن اسبـــاب تـــزايـــد الطلب وتجـــدد الحاجة الى الرقيق خـلال هـذا العصـر وجـود نـزيف فـي هـذه البضـاعة احـــوج اصحابهـا الى التـزود منهـا باستمرار ونعني بهـذا النزيف ظـاهـــرة الابـــاق وهـي ظـاهـرة فـرار العبيـد من اسيادهـم وهروبهـــم من مواطنهم الى اقاليـم اخـرى مما يتعـذر معـه على المالكيـن لرقـابهم استرجاعهم ويضطـرهم الى اقتناء رقيق جديد . وقـد كـان اغلب الفقهـاء لا يجيـزون بيـع الابـق لانـه بيـع بضاعـة ضائعة لم تثق على ملك بائعهـا فيعتبـر بيعهـا نوعـا من بيـع الغـرر وهـم يقيسـون حكـم الابق من الرقيـق على حكـم ((البعيـر الشارد والفرس العـائـر)) (1) وبذلـك تخـرج بضاعة العبيـد الابـاق من الـدورة الاقتصـاديـة وتشكـل نزيفـا فـي مـادة تجـارة الـرقيـق .

وقـد كثـر العبيـد الابـاق فـي هـذا العصـر تحـدوهـم الرغبـة في التخلـص من ربقـة الرق وابتغـاء العمـل والربح لحسابهـم الخـاص

---

1) ابن قدامة ـ المغني ـ ج 4 ص 200 ـ عبد الوهاب البغدادي ـ الانصاف ـ ص 277 ـ 278 ـ نجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ـ ص 161 ـ 164

وامس الاسياد يتذمرون الى السلطة من هذه الظاهرة وصار الخلفاء والملوك والولاة عند تعليمهم يعدون رعاياهم بارجاع عبيدهم اليهم ويكتبون الى عمالهم في هذا الشأن فيوصونهم يتعقب الاباق وايقافهم الى ان يقع النظر من امرهم واعادتهم الى مالكيهم (1) وقد وجدت هذه الظاهرة صداها في الفقه الاسلامي منذ القرن الثاني للهجرة واهتم بها فقهاء العصر فخصصوا في فتاويهم ومصنفاتهم بابا للعبد الابق فصلوا فيه احكامه من الوجهة الشرعية (2) وقد اورد القاضي ابو يوسف يعقوب صاحب الامام ابن حنيفة وصية الى رجال السلطة برفع امر العبيد الاباق الى الولاة يتدوين اسمائهم واسماء مواليهم واوطانهم وتاريخ اباقهم في دفتر ثم بوضعهم في الحبس الى ان يطلبهم طالب والا آلت قيمتهم الى بيت مال المسلمين (3) .

---

1) آدم متز A.Mez الحضارة الاسلامية ج 1 ص 314

2) خليل بن اسحق - المختصر ج 4 ص 431 - 432

3) ابو يوسف - كتاب الخراج - ص 184 - 185

وفي القرنين الثالث والرابع للهجرة كانت الاقاليم الاسلامية تعج بهؤلاء العبيد الابـاق (1) وخاصة منهم من كانوا يشتغلون في الاعمال الفلاحية (2) ففي العهد الاخشيدي كانت صرغاصة بهم شأنها في ذلك شأن اغلب ديار الاسلام وكان معظمهم يشتغل في الزراعة (3) ومن الادلة على كثرتهم بالشام في القرن الرابع للهجرة ذكرهم في نص الهدنة المبرمة بين الحمدانيين والبيزنطيين عند احتلال الروم لاجزاء من الامارة الحمدانية (سنة (359هـ/ 969م) بعد موت الامير سيف الدولة الحمداني (333-356هـ/ 944-967م) وقد نقل لنا نص هذه الهدنة كمال الدين بن العديم الحلبي في كتابه ((زبدة الحلب)) وقد جاء فيه ((ومتى هرب عبد مسلم او نصراني ذكرا كان او انثى من غير الاعمال المذكورة (4) اليها لا يستره المسلمون ويظهرونه ويعطي صاحبه ثمنه عن الرجل ستة وثلاثون دينارا وعن المراة عشرون دينارا رومية

---

1) برنشفيك Brunschvic دائرة المعارف الاسلامية ـ مقال : عبد ـ ج 1 ص 34

2) آدم متز A.Mez الحضارة الاسلامية ـ ج 1 ص 34

3) سيدة اسماعيل كاشف ـ مصر في عهد الاخشيديين ص 256

4) اي التي احتلها الروم

وعن الصبي والصبية خمسة عشر دينارا فان لم يكن له ما يشتريه به اخذ الامير من مولاه (1) ثلاثة دنانير وسلمه اليه فان كان الهارب معدما فليس للمسكين ان يمسكه بل يأخذ الامير حقه من مولاه ويسلمه اليه)) (2) .

تلك بعض الامثلة على انتشار ظاهرة الاباق في عدة نواح من العالم الاسلامي واذا ما كانت هذه هي اوضاع الرقيق في هذا العصر فان كثرة اباقهم قد كانت تحوج ساداتهم الى طلبهم والسعي وراءهم ولكن هذا السعي لم يكن مجديا دائما وكان الاسياد يعرضون رقيقهم الابق برقيق آخر يقتنونه من الاسواق فصارت عملية الاباق داعيا طبيعيا الى تنشيط اتجار الرقيق وازدياد الطلب على الاسواق خصوصا اذا ما كانت تكاليف البحث عن العبد الابق تعادل او تفوق تكاليف الاقتناء لغيره وتوفر على سيده مؤونة البحث والتعقب له في المدن والامصار ثم ان اهتمام السلطة

---

1) نلاحظ هنا التمييز بين صاحب العبد الابق وهو مسكه ومولاه وهو سيده ومالكه

2) ابن العديم الحلبي ـ زبدة الحلب في تاريخ حلب مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 1666 ص 43 ـ عن نخب تاريخية ـ ص 422

بهده الظاهرة وتصديها لها لم يكن ناجعا دائما لانه في حاجة الى تنسيق بين الولايات والاقاليم ويتطلب وقتا طويلا تضيع معه مصالح السيد فيضطر الى البحث عن بديل من سوق الرقيق .

4)- الثورات والفتن

ومن العوامل التي كان لها تاثير في انخفاض عدد العبيد ونفاد مادته الثورات والفتن الداخلية وذلك لان من عادة اصحاب الفتن والثورات ان يحرروا العبيد الهاربين اليهم والمؤازرين لدعوتهم قياسا على ما كان يفعله الرسول مع الرقيق الهارب من دار الكفر الى دار الاسلام وقد تسبب ظلم الامويين وتعصبهم على الاجناس غير العربية في قيام العديد من الثورات التي التف حولها الرقيق رغبة في الانعتاق وفرارا من سلطة اسيادهم مما تناقص معه عددهم تناقصا مستمرا في المجتمع الاسلامي واحوج هذا المجتمع الى تجديد الايدي العاملة المستعبدة واقتناء مقاديرا اخرى من العبيد تقتضيها الضرورة الاجتماعية والاقتصادية .

ومن اشهر الثورات التي اتاحت للرقيق التخلص من ربقة الرق ثورة المختار بن ابي عبيد الثقفي (ت- 67هـ/ - 686 - م) الذي قاوم ما استشرى في طل بني امية من نزعة نحو التفرقة العنصرية ودعا الى المساواة بين الاجناس مذكرا بتعاليم الدين المؤاخية بين البشر .....

والتي تقوم على مبدأ ان لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى (1) وقد انضم الى هذه الثورة التي اندلعت بالعراق العديد من الموالي والعبيد الناقمين على سياسة الامويين المتعصبين للجنس العربي والمزدرين لغيره من الاجناس الاخرى وقد وجدوا في هذه الثورة ما يحقق آمالهم في الحرية والمساواة كما وجدوا في زعيمها الضامن لما يطمحون اليه من انعتاق .

وفعلا فقد وصف بعض الباحثين المختار الثقفي بكونه محرر العبيد فقال : " ولا نعتبر (ابراهام لنكولن) (Abraham Lincoln) محرر العبيد في امريكا الا صورة مكررة من المختار الذي عمل دائما على تحرير الموالي والرقيق في الدولة العربية الاسلامية " (2) حقا كان المختار من دعاة المساواة والحرية والاخاء ومن اعداء العبودية والعنصرية فقد روي عنه انه كان في نورته يطلق سراح الاسرى الذين يفعون في قبضته بعد انتصاره عليهم مكتفيا بان يتعهدوا له بان لا يناصبوه العداء كما شجع المسلمين على تحرير عبيدهم وجعل نفسه قدوة لهم

---

1) البخاري-صحيح - ج 3 ص٤٩٦-٤٩٩

2) علي حسني الخربوطلي ــ عشر ثورات في الاسلام ــ ص 126

فاعتق كثيرا من مواليه الذين كانوا يعملون في ضيعته قرب الكوفة وكان المختار يعاقب اعداءه ايضا بان يحرر رقيقهم ويلحقهم بجيشه بعد تحريرهم ويساويهم بالاحرار في الرزق والعطاء ويمنحهم حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية واشتهر بتصرفه هذا فهرع الرقيف اليه من كل صوب وقصدوا الكوفة ليلتحقوا بثورته (1).

وقد واصلت ثورة عبد الرحمن بن الاشعث المندلعة سنة (80 هـ/ 699 م) ما بدأته ثورة المختار من محاربة للتفرقة العنصرية ونشر لمبادئ المساواة بين الاجناس وتحرير العديد من الارقاء وكان من اسباب قيام هذه الثورة ايضا استفحال النظام الاقطاعي ببلاد العراق وذلك لان ارض السواد التي رفض الخليفة عمر بن الخطاب(13-23هـ/634-644م) قسمتها على الفاتحين واقر اهلها عليها مقابل دفع ضريبة الخارج قد ملكها الامويون منذ زمن عثمان (23 - 34هـ/644 - 655م) وصارت في عهد الخلافة الاموية " بستان قريش " تستخدم فيه آلاف الايدي العاملة من الرقيق والموالي بالقوة وتحرم من شتى الحقوق (2).

---

1) المرجع نفسه ص 127 ــ وص 139 ــ 139

2) المرجع نفسه ص 143

لقد كانت هذه الثورات اذن طاقة مستهلكة لارصدة الرقيق منذ القرن الاول للهجرة وقد ظل شانها كذلك في القرن الثاني ايضا ولدينا مثال على ما فعله ابو مسلم الخراساني زعيم الثورة العباسية ابان ثورته على السلطة الاموية مع الرقيق المناصر لدعوته فقد جاء في كتاب اخبار الدولة العباسية انه قال لرؤساء الشيعة ووجوههم بمناسبة انضمام غلام عاصم بن عمرو السمرقندي لصفه ما يلي : " ان الله جعل دعوتكم امنا وعزا لمن لجأ اليها فمن دخلها من حر او عبد فقد وجب حقه عليكم اذ صارت يده مع ايديكم وصحت حرمته ، وان هذا الرجل ذكر انه عبد لعاصم اقبل اليكم ناصرا لكم راغبا في دعوتكم فقد وجب حقه بذلك عليكم وقد اعتقه الله الذي هو اولى به من عاصم وايما عبد اتانا راغبا في امرنا قبلناه وكان له مالنا وعليه ما علينا " (1)

وقد كثر نزوح العبيد الى ابي مسلم فصير لهم موضعا في خندقه بالماخون وهي قرية من قرى مرو (2) وولى عليهم داود بن كراز (3) وكانوا

---

1) مؤلف مجهول من القرن الثالث للهجرة ـ اخبار الدولة العباسية ـ ص 290ـ291 وص 294

2) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ج 5 ص 33

3) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ج 2 ص 1963 ـ 1969

اول جند بعث بـه الى ابيورد ونسا وكثرت في تلك الاثناء شكاوى من هروب العبيد الى ابي مسلم فامر المنادي بان ينادي بان يرجع العبيد الى مواليهم فاحتج قائدهم قائلا : " ان المنادي نادى بان ترجع العبيد الى مواليهم وكيف يرجعون اليهم وقد خالفوهم واسخطوهم في حب آل محمد قال الله عز وجل : " النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم " (1) وانتهى الامر بان رجع العبيد الى خندقهم (2) وكان امر هؤلاء العبيد موضوع مراسلة بين ابي مسلم ونصر بن سيار لاهميتـه فقـد كان نصر يؤاخذ ابا مسلـم بما فعله من فصل العبيد عن مواليهم فاجابـه ابومسلم: " اما العبيـد فلسنا نكره احدا منهم فمن اراد مولاه فشانـه وان انفذتم احكامنا حكمنـا بينهم وبين مواليهم بالحق " (3) .

اما اكثر الثورات استنزافا لمادة الرقيق في المجتمع الاسلامي فهي ثورة الزنج التي قامت سنة(249هـ/863م)على النظام الاقطاعية بالعراق ومـا تسببت فيه من استغلال وعبوديـة ، فقد كان الانراك الذين سيطروا على

---

1) القرآن - سورة : الاحـزاب - آيـة : 6
2) مؤلف مجهول من القرن الثالث للهجرة ص××××× ـ اخبار الدولة العباسية ـ ص239ـ231
3) المصدر نفسـه ص 234

الدولة العباسية قد امتلكوا الضيعات الواسعة وتوخوا في فلاحتها نظما اقطاعية جائرة وسخروا الرقيق من مختلف الاجناس لخدمتها وكان الزنوج المجلوبون من سواحل افريقيا الشمالية يمثلون جانبا كبيرا من هذا الرقيق لما اشتهروا به من قوة ابدانهم بالاضافة الى قلة اثمانهم وكان هؤلاء الزنوج يعملون بالسخرة في ظروف اجتماعية وصحية قاسية ويتمثل عملهم في استصلاح بطائع البصرة وكسح الاملاح التي تغشيها دون ان يتقاضوا اجورا ملائمة لمجهودهم فاعلنوا التمرد والثورة وانضمت اليهم جماعات من العبيد الهاربين من القرى والمدن المجاورة فرارا من المظالم كما انضمت اليهم الفرقة السودانية التابعة للجيش العباسي وقد ساعد على اندلاع هذه الثورة انتشار مبادئ الخوارج الديمقراطية بالعراق اذاك ، وهي مبادئ تدعو الى المساواة والعدالة الاجتماعية وتقد تبني علي بن محمد الملقب بصاحب الزنج هذه المبادئ وسعى الى تحقيق آمال الرقيق .

وقد دعا هذا الزعيم الى تحرير العبيد في بلاد العراق فهرع معظمهم اليه وفروا من اسيادهم الى البصرة منتظرين ساعة خلاصهم من مهانة الرق خصوصا ان هذا الزعيم كان قد اعلن ان عهد العبودية قد انتهى

واستشهد بالآيات الكريمة التالية : " ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم " (1) و فسر الزعيم هذه الايات تفسيرا سياسيا فقال : ان المؤمنين قد اشتروا انفسهم اي لم يعودوا بعد عرضة للرق والعبودية (2).

واذا ما علمنا ان ثورة الزنج قد دامت حوالي عشرين سنة اي من سنة (249هـ/ -863-م) الى سنة (270هـ/ -884 -م)[3] وانها قد شملت رقعة جغرافية واسعة بالشرق الاسلامي اذ استولت على العديد من مدن العراق وخوزستان و البحرين وتاهبت للهجوم على بغداد ادركنا ان مقادير من الرقيق قد افلتت من ايدي المسلمين وان الاسياد قد خسروا الكثير من الايدي العاملة المشرفة على شؤونهم الاقتصادية بسبب اباق الرقيق اوعتقه او هلاكه فقد قدر المؤرخ السيوطي عدد القتلى في هاته الثورة بمليون ونصف (4) بينما قدره المؤرخ ابن طباطبا بمليونين من النفوس (5)

---

1) القرآن سورة التوبة - عدد 9 - آية 112
2) علي حسني الخربوطلي — عشر ثورات في الاسلام ص 185
3) ابن الاثير — الكامل — ج 7 ص 111 — 140
4) السيوطي — تاريخ الخلفاء — ص 242
5) ابن طباطبا — الفخري — ص 227

ولسنا نعتزم في هذا السياق ان نحيط بشتى الثورات التي اندلعت في المجتمع الاسلامي وانما هدفنا التدليل على حقيقتين نراهما اساسيتين اولهما ان هذه الثورات قد كانت تمثل نزيفا في بضاعة الرقيق المتداولة اذاك وان هذا النزيف قد كان باعثا من جملة البواعث على تجدد الحاجة الى هذه البضاعة وجلبها لتعويض ما حدث من نقص. وثانيهما ان هذا النزيف الذي حدث في القرنين الاول والثاني للهجرة ومهد لازدهار تجارة الرقيق في القرون الموالية لم يكن مقصورا على هذه الفترة من تاريخ المسلمين بل تواصل خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين وليس ادل على ذلك من كثرة الانتفاضات والشغب الذي حدث في ذلك العصر وبذلك صار المجتمع الاسلامي حتى في عهد ازدهار تجارة الرقيق مهددا دوما بتلف هذه المادة التجارية مما دعاه الى البحث المستمر عن بديل لها بصورة متواصلة وفي ذلك تفسير لاستمرار الطلب لهذه البضاعة.

وهكذا يتضح لنا الان ان دائرة التحرير قد اتسعت اتساعا صار معه الحفاظ على رصيد المجتمع من الايدي العاملة المسترقة امرا متعذرا ومما زاد في اتساعها تظافر العوامل الشرعية العقائدية والتقاليد والمصالح الاجتماعية على نقل الرقيق من حيز العبودية الى حيز الحرية. ويتسنى لنا ان نتصور تفاقم هذه الحال اذا ادركنا ان العبيد الذين احرزوا على اعتاقهم كانوا يهرعون غالبا الى عتق ذوي قرباهم وشراء رقابهم بالاموال وكان لهم في تعاليم الدين ما يشجعهم على ذلك ، فمما رواه صاحب الاغاني في ترجمة نصيب الشاعر انه لما اعتق ظل يمدح عبد العزيز بن مروان حتى حصل منه على مال اعتق به بعد ذلك امه وجدته لامه اذ اشتراهما به وفعل مثل ذلك بابن خالته سحيم وهذا نص الخبر كما اورده ابو الفرج الاصفهاني :

" اخبرني الحسين بن يحيى قال : اخبرنا حماد بن اسحق عن ابيه عن ايوب بن عباية قال : اصاب نصيب من عبد العزيز بن مروان معروفا فكتمه ورجع المدينة في هيئة بذة فقالوا : لم يصب بمدحه شيئا فمكث مدة ثم ساوم بامه فابتاعها واعتقها ثم ابتاع ام امه فعف

ما ابتاع بـه امـه فاعتقها وجاءه ابن خالة له اسمـه سحيم فسالـه ان يعتقـه فقال لـه : ما معي واالله شيء ولكني اذا خرجت اخرجتـك معي لعل اللـه ان يعتقك فلما اراد الخروج دفع غلاما لـه الى مولى سحيم يرعى ابلـه واخرجـه معـه فسال في ثمنـه فاعطاه واعتقـه فمر بـه يوما وهو يزفن (يرقص) ويزمر مع السودان فانكر ذلك عليـه وزجره . فقال له : ان كنت اعتقتني لاكون كما تريد فهذا و الله مالا يكون ابدا وان كنت اعتقتني لتصل رحمي وتقضي حقي فهذا والله الذي افلعـه هو الذي اريـده " (1).

لسنا اذن في حاجة الى مزيد التاكيد على ان عمليـة العتق قـد كانت من التقاليد التي استقرت في المجتمع الاسلامي ومارسها المسلمون علـى نطاق واسع بسبب صلتها المتينـة بالاحكام الشرعيـة وبوجوه من المصلحـة قد بيناها آنفا . ولم يكن تصرفهم هذا مقصورا على القرنين الاول والثانـي للهجرة ، بل نواصل هذا التصرف خلال القرون الموالية اي في القرنـين الثالث والرابع للهجرة اذ ما برحت عادة العتق تعتبر من اعمال البـر والصنيع المحمود ولان التقوى لم تكن وقفـا على عصر دون آخر فغالبـا

---

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ ج 1 ص 318 ـ 319

ما كان السيد الفاضل يعتق العديد من عبيده مرضاة لربه او تكفيرا عن بعض ذنوبه .

فمن ذلك مثلا ما يقال عن عتق محمد بن علي الماذرائي احد وزراء مصر لمائة الف مملوك في حياته (1) ولا يخفى ما في هذه الرواية من مبالغة واضحة ولكنها تشهد باقبال هذا الوزير على مرضاة ربه بمثل هذا العمل الخير وتدل على ان التقوى قد كانت في كل العصور حافزا من اهم الحوافز على عتق الرقيق ومن امثلة العتق المشهورة ايضا في القرن الثالث للهجرة وصية الخليفة المعتصم (218-227هـ/833-842م) عند موته بعتق ثمانية الاف من مماليكه (2) كما اعتق المتوكل على الله (232-247هـ/847-861م) بمناسبة اعذار ابنه المعتز بالله (255-256هـ/866-869م) الفا من عبيده (3) ويروي ايضا ان ام الخليفة الراضي (322-329هـ/934-940م) قد اعتقت عند موته سنة (329هـ/940م) جواريه ومنهن رباب وفرحة وغيرهما (4) ولا نعتزم ان نسترسل هنا في ضرب الامثلة على هذا

---

1) ابن سعيد ـ المغرب ـ ص 162 سيدة اسماعيل كاشف ـ مصر في عهد الاخشيديين ص 255ـ256
الماذرائيون تولوا مصر بعد الطولونيين وقبل الاخشيدين وهم من اصل فارسي
2) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج - 1 - ص 308
3) ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ـ ص 115
4) المصدر نفسه ص 190

السلوك ولكن حسبنا ان نقول ان كثرة عتق الخلفاء وولي الامر والجاه لرقيقهم قد كانت ضرب المثل في تلك العصور وان ظاهرة تحرير الرقيق لاسباب شتى قد تواصلت خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة مما جعل هذه البضاعة مهددة دوما بالنقصان ومما تسبب في تجدد الحاجة اليها باستمرار.

لعله قد اتضح اذن مما اسلفنا ان ثمة حرجا قد حدث في مسألة التزوّد بالرقيق منذ القرن الثاني للهجرة وتواصل امره خلال القرنين الثالث والرابع ويتمثل هذا المنعرج فيما طرأ من تغير على مصادر التزويد من ناحية وما اعترى الرصيد من ناحية اخرى من نقصان مستمر بسبب عدة عوامل كنا بصدد شرحها. وكانت نتيجة كل ذلك ان حدث الخلل بين العرض والطلب وازداد حدة بسبب تضاعف الطلب لهذه البضاعة كما سنبينه فيما يلي.

الفصل الثاني

تجدد الحاجة الى الرقيق
مع القرنين الثالث والرابع للهجرة

لقد راينا فيما سبق كيف كان رصيد الرقيق في المجتمع الاسلامي مهددا بالنفاد منذ القرن الثاني للهجرة بسبب توقف الفتوحات وكيف تظافرت مجموعة من العوامل لاحداث النزيف في ذلك الرصيد بصورة مستمرة ودائمة من اجل بروز ظواهر اجتماعية مساعدة على استنزاف بضاعة الرقيق فضلا عن بعض الدوافع الشرعية التي كان لها نفس الاثر ممّا سيضطر معه مسلمو القرنين الثالث والرابع للهجرة الى البحث عن حلول جديدة لهذه الازمة والتزود من جديد بهذه البضاعة .

لكنّ ما كان يهدد الرصيد من نزيف او نفاد لم يكن وحده الدافع الى معالجة الوضع بل لابد من الاشارة الى الضغط الحضاري الذي كان مسلطا على مجتمع ذلك العصر والذي تسبب في مضاعفة الطلب لهذه المادة . فقد اقتضت الاوضاع الحضارية ابتداء من القرن الثالث للهجرة ارصدة اوفر من الرقيق لمواجهة ضرورات الحياة في شتى الميادين خصوصا عندما استحرت العواصم والاقاليم الاسلامية في الحضارة وازدادت حاجياتها بازدياد عمرانها . فنشأت لذلك دواع سياسية واقتصادية واجتماعية خاصة بهذا العصر وباعثة على ترويج تجارة الرقيق كما سوف نرى .

1) الحاجة السياسية والعسكرية

من مظاهر الطلب الكبير الذي استدعى البحث عن اسواق خارجية لجلب الرقيق وعمل على تنشيط تجارته في هذا العصر اهمال الخلفاء والطولون على تجنيد الارقاء وتأليف جيوش نظامية منهم واتخاذ ستين اجنادا من الرقيق حرسا للسلاطين الخلافي او القصر الملكي. وكان السبب الرئيس الذي دفع رجال السلطة الى سلوك هذه السياسة العسكرية هو ضعف ثقتهم بالجند المؤلف من القبائل العربية لان فرقه كانت في صراع مستمر بسبب تطاحن العصبيات وتنافسها. وقد كان هذا التناحر العصبي قديما بينها يرجع عهده الى ما قبل الاسلام وقد انتقل معها حيثما انتقلت. ومن ابرز انواع النزاع القبلي ما استقر بين القيسية واليمنية في كل مكان حلوا به اذ نجد هم نقلوا نزاعهم هذا من الجزيرة الى ربوع الشام في عهد الامويين وعندما دعوا الى الاندلس والمغرب احدثوا بهما فلاقل عديدة وكانوا دائما يعيشون على دكس حزازات وضغائن قديمة (1).

وهكذا عرف الجند العربي بعصبيته القبائل لاسيما انه لم يكن يمثل جندا موحدا الا في العاشر وكان في بقية اقاليمه منقسما الى اقسام تضم بعضها الى بعض فقبل الجند يقابل

1) ابن خلدون المقدمة ص 116 - 117
المقري نفح الطيب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الكتاب العربي بيروت 1949
ج 1 ص 274

محصلة بالنسبة الى الدولة الاسلامية طيلة حكم بني امية وكان
الامراء محبورين في كثير من الاحيان على الخضوع لارادة
الجند وكان الولاة يفرقهم في القرن الاول للهجرة مثار رعب من هذه الارادة
مادام رأس الاستقلال بقرارتهم عنها كان يهدد العرش والتاج باخطار
تغير الحكام الامويين الى مختارة هذا النزاع العصبي وغرس الكامنة
فيه للمتعلب وتمكنا وقد ادكاء النزاع لحرب العصبيات بعضها
بعض واحسن مثال على ذلك سياسة هشام بن عبد الملك في افريقية والمغرب(1)

لكن السبب الكبير الذي كان يهدد السلطة كان يتحاول هذا الجند
على كرسي الحكم انه اكثر من تقدم قوته كم من مرة قد ثار على الطاعة
وتمرد على حكم قائم مناديا بزعيم جديد للعرش و مشعلا الحروب
اهلية دامية . وكان الحافز على هذه الانتفاضات هو العصبيات
العربية الى المساهمة في الحكم لانها تعتبره حقا من حقوقها
رتبة من نفسها المسؤولة عن مصير الامة لان العرب هم اصحاب
الدين الجديد وهم الذين فتحوا الامصار بالاضافة الى اعتقادهم الفضل
على الاجناس الاخرى الداخلة في الاسلام .

لقد عطل هذا الاعتماد على عنصر واحد للقوة
والطغيان ابتداء من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة
عن الاعتماد على الجند العربي والبربري وضعف شوكتهم

---

1) ابن خلدون - المقدمة ص 117 ابراهيم احمد العدوي
المساهمون والحرمان - الطبعة الاولى - دار المعرفة
1960 ص 154-165 - بروفنسال Provençal تاريخ اسبانيا
الاسلامية ، 1 ص 34-53 حورية الزكابي في الادب الاندلسي
- دار المعارف بمصر 1964 الطبعة الثانية ص 62

في اهل عصبيتهم واستشعروا الخوف على مناصبهم من تواثب انصار تلك العصبية كما تخلوا عن مواليهم من الفرس فراموا البحث عن عناصر جديدة للاعتماد عليها في جيوشهم هي اذاك اكثر انصياعا بحكم وضعها الاجتماعي واصدق طاعة واخلاصا من العرب والفرس والبربر فوجدوا ضالتهم في اصناف الارقاء

وهكذا جرت عادة الخلفاء والملوك والامراء في هذا العصر بجلب الرقيق التركي والصقلبي ورقيق السودان لاتخاذه حرسا وجندا يحميهم من ويلات العصبيات المحيطة بهم (1) وقد وصف لنا الطبري كيف دحر الخليفة المعتصم (218-227هـ/833-842م) العصبية الفارسية بالرقيق التركي . فذكر انه لما تولى الخلافة كان الخراسانيون اهم عنصر في الجند وهم الذين قامت الدولة على كواهلهم منذ النصف الاول من القرن الثاني للهجرة اي منذ قيام الدولة العباسية فكانوا يكونون حرس الخليفة وجنده ويمثلون عصبية اقوى من العصبية العربية التي قل شأنها اذاك فلما توفي المأمون (218هـ/833م) نادوا بأبنه العباس خليفة بدل اخيه المعتصم لأن ام المأمون فارسية فلما تولى المعتصم احدثوا هرجا بعاصمة الخلافة ولم يبدأ امرهم الا بعد ان اعلن العباس مرغما مبايعة عمه ومنذ ذلك التاريخ توجس الخليفة خوفا منهم فدبر مؤامرة لقتل العباس وعزز صفوف حرسه وجنده بالاتراك (2)

---

1) فازيلياف Vasiliev العرب والروم — 10 — 12

برنشفيك Brunschvig دائرة المعارف الاسلامية

مقال عبد — ص 33

2) الطبري — تاريخ الامم والملوك ج 10 ص 304

وكان شأن اولي الامر مع العرب والبربر بمصر والمغرب والاندلس شبيها بذلك مما احوج الاغالبة بافريقية والامويين بالاندلس وغيرهم من الاسر الحاكمة بالمغرب الاسلامي الى عقد صفقات عظيمة من الرقيق الابيض والاسود ليعتمدوا عليه في ادارة شؤون الدولة. وقد يحدث ان يستبد هذا الرقيق ويعلن العصيان فيسارع رجال السلطة بدحره واخضاعه وذلك بتجديد صفقات اخرى من العبيد الموالين لهم وقد حدث ذلك مرارا عند استبداد الصقالبة بالمغرب والاتراك بالمشرق. ومن الملاحظ ايضا ان هذا الرقيق المستورد الذى صارت شؤون القصر بيده قد اعتمد هو الاخر على امثاله من العناصر المسرقة فاتسعت بذلك رقعة شراء هذه البضاعة وراجت سوقها.

ويعتبر ابن خلدون من احسن من حلل هذه الظاهرة السياسية العسكرية التى احوجت الدول الاسلامية الى اتخاذ الرقيق " موالي ومصطنعين " فقد انطلق هذا العلامة من كون الدولة تمر فى حياتها بأطوار اولها طور التغلب بالعصبية ويكون المتغلب فى هذا الطور متدرعا بأبناء عشيرته ومعتصما بعصبية قومه لكنه فى الطور الثاني ينزع الى الانفراد بالسلطان دونهم والاستئثار بالمجد فيقلب لقومه ظهر المجن ويكافحهم بالموالي والصنائع من غير عصبيته وهذا الطور هو فعلا المرحلة التى احتاج فيها ملوك المسلمين وخلفاؤهم الى مجموعات عظيمة من الرقيق ليصطنعوهم في شؤون

السيف وغيرها من الشؤون وليتخذوا منهم درعا صد المنشقين عنهم ومنافسيهم يقول ابن خلدون في ذلك :

((..... الطور الاول طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والمانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من ايدي الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور اسوة قومه في اكتساب المجد وحماية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشيء لان ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها . والطور الثاني طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة . ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع والاستكثار من ذلك لجدع انوف اهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه الضاربين في الملك بسهمه فهو يدافعهم عن الامر ويصدهم عن موارده ويردهم على اعقابهم ان يخلصوا اليه حتى يقر الامر في نصابه وينفرد اهل بيته بما يبني من مجده فيعاني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الاولون في طلب الامر واشد لان الاولين دافعوا الاجانب فكان طهراؤهم على مدافعتهم اهل العصبية باجمعهم وهذا يدافع الاقارب لا يظاهره على مدافعتهم الا الاقل من الاباعد فيركب صعبا من الامر)) (1)

---

1) ابن خلدون ـ المقدمة ص 125

وقد تعرض ابن خلدون الى هذه الظاهرة بالتحليل في مواطن عديدة من المقدمة لانه يعتبرها من اسس نظريته حول نشأة الدول وتطورها. وهو يستمد هذه النظرية من ملاحظاته وتأملاته في التاريخ الاسلامي السابق والمعاصر له. ومن الواضح ان "الطور الثاني" الذي تحدث عنه في عمر الدول له صلة متينة بهذه الفترة التي تدرسها كما ان استعماله لكلمة "موالي" وصنائع" شامل في مدلوله لعناصر الرقيق المصطنعة في الدولة الاسلامية سواء منها التي نالها العتق او التي بقيت على حال العبودية.

ويوجد اعتبار آخر عمل على هذا التحول ايضا وهو عامل عسكري متصل بالعامل السياسي الذي كنا بصدد ذكره وذلك ان رجال السلطة قد شعروا نظرا للاعتبارات السابقة بحاجة الى جند نظامي دائم له ارزاق ثابتة ولا يخضع لنظام التطوع الذي كان الجند العربي خاضعا له ولا يرتبط نشاطه الحربي بمناسبات كما لا يعيش فقط على ما يحصل عليه من غنائم. فقد كان الجند العربي خاضعا لنظام التطوع من الغالب وكانت فرقه تتكون في مناسبات معينة هي حالات الحرب فاذا مرت هذه المناسبات تفرق الجند ورجعت القبائل الى مواطنها ومعها حظوظها من الغنيمة وكان لها ايضا نصيبها من العطاء. لكن هذا النوع من الجند لم يعد يستجيب لحاجات الدولة

العسكرية لانه اذا ما كان قادرا على اداء دوره في الفتوحات من صوائف وشواتي فانه لم يكن يؤدي دورا ما في حالة السلم سوى الاستسلام للشغب الذى كنا بصدد ذكره . وهكذا شعر اصحاب السلطان بحاجة الى جند يكون درعا للنظام القائم فى حالة السلم ايضا ويستمر مرابطا فى غير حالات الحرب ومتقاضيا لرواتب قارة بقطع النظر عن استمرار الفتح او توقفه ودون اعتبار لوجود غنائم او انعدامها - وكانت احدى غايات هذا التحول بلاشك حماية العائلة المالكة في الداخل والخارج معا وقهر العصبية العربية بعصبيات اخرى اجنبية.فظهر جند نظامي تتكون نواته من الارقاء الطيعين الذين لا تخشى منا وأتهم لانعدام عصبيتهم وعدم طمعهم فى الحكم والذين يمكثون فى خدمة الدولة وفي استعداد عسكري دائم.وهو دوام لم تكن القبائل العربية تقبله فى حالة السلم لانها كانت تتحفز للحرب دوما بحكم طبيعة تكوينها القبلي - ولم تقض الدولة مع ذلك على المطوعة من العرب او المرتزقة من الموالي ولكن اعتمادها عليهم كان ظرفيا كما اسلفنا .

ومما شجع على هذا التحول ايضا ان الخلفاء والملوك قد اكتشفوا فى بعض اجناس الرقيق خصالا حربية ممتازة ودراية بفنون القتال لم لم يكن للعرب خبرة بها خصوصا ان العرب كانوا يعرفون من الحرب الكر والفر وهو فن لم يعد يتلاءم مع متطلبات الظروف الحربية الجديدة .

وكانت الحياة الاقتصادية من عمل في المزارع والمناجم والمصانع والمتاجر تغرم تشغيلا متزايدا للطاقة المستمدة من عمل بني الانسان وبما انّ الحلّ الذي كان متداولا في حضارة تلك العصور لازمة الشغل يتمثل في استعمال الرقيق وحب توفير ما يكفي من الايدي العاملة المسترفة وتوريد العبيد لمواجهة الحاجيات المتزايدة في ميدان الاقتصاد (1) وقد كثر الطلب لهذه البضاعة بموجب تطور المجتمع الاسلامي اقتصاديا. ففي هذا العصر عرف الميدان الاقتصادي ازدهارا كبيرا في شتى القطاعات ففي قطاع الصنائع والحرف رسخت التقاليد والتنظيمات المهنية في الاسواق الاسلامية وصارت تستدعي سواعد للقيام بها وفي القطاع الفلاحي شهد العمل في الحقول والمزارع ابعادا جديدة أيضا تستلزم المزيد من الايدي العاملة وفي القطاع التجاري كان هذا العصر العهد الذهبي للتجارة الاسلامية بفضل سيطرة المسلمين على الاسواق العالمية وطرقها وتوفر الثروات العظيمة بايدي التجار وتصرفهم في شتى البضائع الرائجة بالشرق والغرب .

---

(1) نجاة باسا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ـ ص 114 ـ 116 وص 118 ـ 19

واذا تاملنا في الاوضاع الفلاحية خلال هذا العصر لاحظنا ازدياد الطلب لليد العاملة الفلاحية من أجل الاضطلاع باحياء الاراضي وزراعتها خصوصا عند بروز ظاهرة الاقطاع فقد تسبب هذا النظام الفلاحي في حلب اعداد وفيرة من اليد العاملة المسترقة . فاذا ماكان المسلمون الاولون يستخدمون العبيد في فلح الارض فان ذلك الاستعمال قد كان على المستوى الفردي وفي نطاق محدود لايكاد يخرج عن حدود العمل الذي يقوم به العبد في ملك سيده وعلى الارض التابعة لاسرته . كما نعرف أن الاسلام قد عمل على محاربة نظام الاقطاع وما ينجر عنه من وضع طبقي استغلالي وكان له دور في تحرير العبيد العاملين بالاراضي المفتوحة . الا ان الحضارة الاسلامية قد احتفظت بالرغم من هذا الموقف بالرقيق الذين كانوا يسمون بالاقنان وهم الذين يعيشون في القرى والارياف ويعتبرون جزءا من الارض وعندما تنتقل ملكية الأراضي التي يشتغلون عليها بالفتح أو البيع والشراء يبقون على الأرض ويعتبرهم السادة الجدد جزءا من ملكيتهم الجديدة ويعاملون معاملة العبيد (1) .

---

(1) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي
ص 77 - 79 - زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي
ج 4 ص 44 - 46

وقد ادى تطور الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية الاسلامية الى بروز نوع من الاقطاع الفلاحي المختلف في نمطه عن الاقطاع الشائع في حضارة الفرس والروم وقد استعملت فيه الايدي العاملة من الرقيق وان لم تكن مرتبطة به في العالب.وقد كان في بداية نشأته محدودا ومقتصرا على الاراضي التي لم تكن ملكا لأحد أي التي تستولي عليها الدولة لأن أهلها ماتوا عنها أو التي ليس لها مالكون أو التي تخلّى أصحابها عنها وهاجروا الى بلد أجنبي وهي أراضي مهما كثرت قليلة وكانت الدولة تعمّرها وتحييها وتجعل ريعها الى بيت المال أو تؤجرها للفلاحين أو تقطعها لبعض المسلمين (1) وقد ذكر الماوردي ان الاقطاع نوعان : اقطاع تمليك واقطاع استغلال ويشتمل النوع الأول على الارض الموات التي يملكها من يحييها وعلى الارض العامرة والارض التي يوجد بها بعض المعادن وأما النوع الثاني فيقع استغلاله مقابل دفع العشر أو الخراج وهو استغلال لا يورث ويمنح حباة الخراج هذا النوع من الاقطاع بدلا من منحهم المرتبات الثابتة . وتعود هذه الاقطاعات الى الدولة اذا أهملها القائمون بفلاحتها (2) .

---

(1) ابن آدم - كتاب الخراج - ص 1 ص 8

(2) الماوردي - الاحكام السلطانية - ص 181

وقد كان الرقيق مستعملا لخدمة هذا الاقطاع منذ العصر الأموي وتدل على ذلك ثورة المختار الثقفي التي التف حولها الرقيق بسبب اوضاعه العسيرة في عمله الفلاحي وقد ضرب المختار المثل بجعله العرب من انصاره يعملون جنبا الى جنب مع العبيد في فلاحة الارض في عصر كانت العصبية العربية فيه تأبى النزول من عليائها الى خدمة الارض وترى نفسها احدر بأمور السياسة والجهاد وتدل كذلك ثورة عبد الرحمان بن الأشعث في وجه الحجاج بن يوسف سنة (80 هـ/ -699 م) على الاعداد الوفيرة من الرقيق المصطهد في اقطاعات الأمويين بالعراق (1) .

وقد تطورت الاوضاع الفلاحية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ممّا أحوج الى المزيد من اليد العاملة لاحياء الاراضي الشاسعة ومن ذلك مشاريع استصلاح السباخ المحيطة بالبصرة من بلاد العراق ممّا دعا الى جلب اعداد وفيرة من زنوج من شرق افريقيا (2) .

---

(1) علي حسن الخربوطلي ـ 10 ثورات في الاسلام ـ دار الآداب ببيروت الطبعة الأولى ـ 1968 ـ ص74

(2) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ـ نشرة دي غوية Degoeje ـ ليدن 1901 (في 15 مجلدا) ج 3 ص1742 .

وقد وجد في هذا العصر رقيق مرتبط بالارض اذ أشار أبو القاسم البغدادي الى ما أسماه "انباط القرى وعبيدها" (1) كما نقل الطبري مواقف بعض الفقهاء من "أهل السواد" بالعراق وهي مواقف تعتبرهم ارقاء (2) وقد تحدث ربيعة الرأي عن العبيد الذين كانوا يشتغلون في فلاحة الأرض ويعاملون كالماشية (3) كما استخدم الرقيق في اعمال الرعي الى جانب استخدامه في الفلاحة (4) ويصف اليعقوبي في أواخر القرن الثالث هجري أرض المعدن ويتحدث عن منحم وادي "علاقي" فيقول ان وادي "علاقي" شبيه بمدينة عظمى كثيرة السكان من كل جنس عرب وغير عرب وكلهم يبحث عن الذهب وهي مدينة تجارية وبها أسواق وكان أهلها سواء أكانوا من التجار أو لم يكونوا يتخذون عبيدا سودا يعملون لفائدتهم في استخراج المعدن (5) وهذا يدل على حاجة العمل المنجمي الى يد عاملة من الرقيق .

---

(1) ابو الفاسم البغدادي ـ الحكاية ـ طبعة متز METZ . ص101
(2) الطبري ـ اختلاف الفقهاء ـ طبعة شاخت . Schacht ـ ليدن 1935 ص 222
(3) ربيعة الرأي هلال ـ احكام الوقف ـ حيدر آباد الدكن 1355 ـ هـ ص 17
(4) البيهقي ـ المحاسن والمساوي ـ ص613 ـ الدوري ـ تاريخ العرق الاقتصادي ـ ص77 ـ 79 .
(5) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ ترجمة فيات Wiet ـ القاهرة ـ 1937 ـ ص188 و ص190 ـ غرسين Garcin ـ مدينة قوص أحد المراكز الاسلامية ـ ص 48 .

وقد تعددت اوضاع الاقطاع في هذا العصر خصوصا عندما استولى العنصر التركي على دواليب السلطة اذ امتلك الاتراك الضيعات الواسعة المشتملة على عدّة أفدنة والتجأوا الى شراء آلاف الرؤوس من الرقيق ليسخروهم في خدمتها وفلحها وكان هؤلاء الاتراك في بداية الامر ارقاء اشتراهم العباسيون من أسواق النخاسة ثم اعتقوهم وولوهم مناصب سياسية وادارية وعسكرية فسعوا الى ترسيخ نظام الاقطاع وامتلكوا بدورهم اجناسا مختلفة من الرقيق يستعملونها في أملاكهم الفلاحية (1) وقد عمدوا الى الزيادة في الخراج المفروض على صغار الملاكين فلجأ هؤلاء الى حماية كبار الملاكين وسميت هذه العملية بالالحاء أو التلحئة ممّا وسّع في رقعة الاقطاع وأحوج الى يد عاملة مستقرة ودائمة (2) .

---

(1) حسن ابراهيم - النظم الاسلامية - ص 273

(2) المرجع نفسه

وقد كان لظاهرة الاقطاع شأن ايضا في عهد البويهيين وحدث شبيه بذلك في نواح اخرى من العالم الاسلامي (1) الآانه من الضروري أن نقول ان المسلمين قلما عرفوا في تاريخهم استخدام المجموعات الضخمة من الرقيق في فلاحة الاراضي الشاسعة ولذلك افضت المحاولة التي حدثت بالعراق في استصلاح البطائح المحاورة للبصرة الى ثورة الزنج المسخرين لتطهير المستنقعات.فأغلب الرقيق قد أعفي من اعمال السخرة الجماعية الفاسية ولكن هذا لا يعني انهم كانوا قليلي العدد في الحقول والمزارع أو انهم كانوا جميعا في حالة حسنة والدليل عليه كثرة العبيد الاباق في هذا العصر واغلبهم من العبيد العاملين في الميدان الفلاحي (2).

---

(1) كلود كاهان - C. Cahen = المذهب الاسلامية - ص 218

(2) برنشفيك Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد - ص 34 - سيدة اسماعيل كاشف - مصر في عهد الاخشيديين ص 256.

وكان من اوضاع التجارة خلال هذا العصر ما شجع ايضا على تنشيط تجارة الرقيق ـ فقد عرفت التجارة الاسلامية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ازدهارا كبيرا صارت معه الركن الاساسي للاقتصاد الاسلامي وذلك بفضل سيطرة المسلمين على الطرق التجارية البحرية والبرية . فقد آلت اليهم في هذه الفترة السيادة على البحر وكانت لهم الاساطيل القوية في عهد الطولونيين والاخشيديين وفي عهد الاغالبة والفاطميين وكان للامويين بالاندلس اساطيلهم ايضا هذا فضلا عن الوحدات البحرية واعتماد القرصنة المستقلة مما سمح بالسيطرة على الجزر والموانئ والتغلب على اساطيل البيزنطيين (1) وقد وصف ابن خلدون هذه الاوضاع البحرية التي مكنت المسلمين من مراقبة المسالك التجارية البحرية بقوله " فقد تغلب المسلمون على كثير من لجة هذا البحر وصارت اساطيلهم فيه طائفة دائمة والمعاقل الاسلامية تحيز البحر في الاساطيل من ضفتيه الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الافرنجية فتوقع سطوات الاوغاد وتخشن فن معاقلهم ... واساطيل المسلمين قد غلبت عليهم ضراء الاندلس على موجته وحد بلاد الافرنجة من سيطرة هذا البحر عدة وعددا واحتلب مع موجته ضرعا وحرثا فلم يبق للنصرانية فيه السبيل " (2).

---

1) ارشيبالد لويس A. Lewis ـ ص 61 / 62 ـ
نشاة وتطور التجارة في الغرب الاسلامي
ـ ص 103 / محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية ـ
ـ 314 / 3 / عبد العزيز سالم واحمد مختار العبادي
تاريخ البحرية الاسلامية ص 120 / 121 و 130 / 131
2) ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص 294 ـ (ط. بيروت)

وقد مكنت هذه الاوضاع التجار المسلمين من الاتصال بموانئ البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي والبحر الاحمر وبحر فزوين والخليج الفارسي وان ينشئوا بها محطات تجارية وجاليات من وكلاء التجارة باروبا وآسيا وافريقيا (1) وكان المسلمون قد سيطروا ايضا من هذا العصر على الطرق التجارية البرية فتمكنوا من التوغل ببلاد السودان وبلاد التركستان وصعدوا" الفلجا"VOLGA" الى بلاد البلغار والصقالبة والروس كما جابوا طرقا برية نحو الهند والصين وقد دلت القطع النقدية التي عثر عليها ببعض انحاء المعمورة على الطرق التجارية التي سلكوها وعلى الشعوب التي اتصلوا بها وتعاملوا معها تعاملا تجاريا (2).

وهكذا امكن للمسلمين ان يكونوا وسيطا تجاريا بين الشرق والغرب وان يعوضوا الازدهار التجاري الذي اضطلعت به الامبراطورية البيزنطية قبل ظهور الاسلام على عكس ما يزعمه بيران H. Pirenne (3) فكان لمسلمي الشرق تجارة مباشرة مع اوربا الشرقية وكان لمسلمي المغرب تجارة مع اوربا الغربية كما كان للمسلمين مشرقا ومغربا اتصال بتجارة الصين والهند وافريقيا - وكان العالم الاسلامي ملتقى كل هذه التجارات وحلقة تجمع بين شتى الاطراف وتضطلع بمهمة التجارة العالمية في ذلك العصر (4)

---

1) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 145-150

2) المرجع نفسه ص 150-154

3) بيران Pirenne. محمد وشرلمان ص 114 نجاه بالنا - التجارة في المغرب الاسلامي ص 114-115

4) كلود كاهان-c. cahen. التجارة في العالم الاسلامي ص 36

نجاه بالنا - التجارة في المغرب الاسلامي ص 114-115

وبذلك كان من الطبيعي أن تزدهر تجارة الرقيق بازدهار التجارة الاسلامية عموما لأنها شعبة منها تتناول ترويج احدى البضائع التى كانت رائجة فى الاسواق الاسلامية اذاك . هذا فضلا عن الدور الاساسي الذي لعبه الرقيق فى الدورة الدموية للحياة التجارية الاسلامية اذ ساهم في الاضطلاع بمهام التجارة لصالح اسياده ولصالحه الخاص ايضا. كما استعمل احيانا فى صورة شكل من اشكال العملة على صعيد التجارة الخارجية خاصة اذجرى به تبادل البضائع مع البلاد غير الاسلامية كما سوف نرى . وقد وصف الجاحظ جوانب من نشاط بعض الاجناس من الرقيق في الميدان التجاري والمصرفي على وجه التحديد وذلك من خلال حديثه عن رقيق السند المشهورين بمهارتهم في شؤون الصرف (1) وهو ما يدل على ان من بين الرقيق المجلوب الى العالم الاسلامي من كان له اختصاصات اقتصادية وطاقات فنية احتاج المسلمون الى استخدامها وساهمت فى النهوض بحضارتهم على المستوى الاقتصادي . وكان لظهور طبقة راسمالية تمتلك رؤوس اموال كبيرة وتشجع الصيرفة ووسائل الائتمان وانشاء المصارف (2) دور فى ايجاد الحاجة الى يد عاملة مسترقة لتسيير مشاريعها التجارية ويتكون افراد هذه الطبقة من الموظفين الكبار كالوزراء والقواد ورؤساء الكتاب وقد ارتفعت رواتبهم عما كانت عليه فى العهود السابقة كما تتكون من التجار الاثرياء مثل ابن الجصاص الذي ذاعت شهرته بالمشرق الاسلامي (3).

---

1) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان
الرسائل ـ ج 1 ص 224 ـ 225

2) الدوري ـ تاريخ العراق الاقتصادي ص 77 ـ 79

3) المرجع نفسه ـ

وقد دعت الحاجة الى يد عاملة في قطاع التجارة الى تركيز تشريع فقهي خاص بعبيد التجارة فاهتم الفقهاء بسن الاحكام المتصلة بالعبد " المأذون " والمحددة لشروط "الاذن" وقواعده . ومفهوم الاذن عموما هو فك " الحجر" المضروب على الرقيق والمانع له من ممارسة تصرفات الاحرار لانه معتبر في حكم القاصر عن تحمل المسؤولية بحكم فقدانه للحرية .

لكن هذا المفهوم العام للاذن اتخذ مدلولا اصطلاحيا اكثر تركزا ورسوخا لاسباب اقتصادية وتجارية على وجه الخصوص (1) فاضحى مفهوم الاذن تجاريا في جوهره وصار العبد المأذون هو المسموح له لكفاءته بممارسة التجارة لحساب سيده. و لا يخفى ان من الاسباب الجوهرية لهذا التخصيص دور التجارة في الاقتصاد الاسلامي في هذا العصر وتفاقم الحاجة الى يد عاملة من الرقيق لتتولى الشؤون التجارية لفائدة الاسياد . ويمكن ان نقدم مثالا على ما يشرعه الفقهاء في هذا الباب من احكام تتصل بتصرف العبد الماذون وحريته في المعاملات من بيع وشراء وما ينشأ عنهما من اجراءات مع الملاحظة ان المذاهب الفقهية تختلف في حدود هذا التصرف التجاري وابعاده (2) وان كانوا

---

1) الاوزجندي ـ الفتاوي الهندية ج 5 ص 54 ـ 64

2) مالك بن انس ـ المدونة الكبرى ج 3 ص 92 ح 14

ص 33 ـ برنشفيك Brunschvic ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ

مقال عبد ـ ص 29

جميعا ينطلقون من مبدأ واحد اساسه ما جاء في حديث الرسول من ان العبد راع في مال سيده (1) .

يقول الاوزجندي (2)« للمأذون ان يبيع ويشتري بمثل القيمة وبنقصان لا يتعابن الناس فيه عند ابي حنيفة رحمه الله تعالى وبنقصان يسير اجماعا ولا يجوز عندهما بالغبن الفاحش . . . وله ان يسلم ويقبل السلم كذا في الكافي وللعبد ان يوكل غيره للبيع والشراء بنقد او نسيئة كذا في المغني . . .» وورد في المدونة الكبرى حول العبد المأذون ما يلي :

((قلت لعبد الرحمان بن القاسم : أرأيت ان اذنت لعبدي في نوع من انواع التجارة أيكون له ان يتجر في غير ذلك النوع؟ قال : ما سمعت من مالك فيه شيئا الا انه اذا خلى بينه وبين الشراء والبيع فهذا يلزمه ما داين الناس به من جميع انواع التجارات في ذمته . . . قلت : أرأيت ان اقعده قصارا او امره ان يعمل القصارة ايكون مأذونا له في التجارة في جميع التجارات ؟ قال : ليس بمأذون له . . .))

---

1) البخاري - صحيح - ج 3 ص 300
2) الاوزجندي - العتاوي الهندية ج 5 ص 85
3) مالك بن انس - المدونة الكبرى ج 13 ص 92

3) الحاجة الاجتماعية"

وقد أدى استبحار المجتمع الاسلامي في الحضارة ابتداءا من اواسط القرن الثاني للهجرة بحكم تطور أوضاعه المادية واحتكاكه بحضارات عريقة كالفارسية والروسية وتشبهه بتقاليد الشعوب المغلوبة عموما الى الاستزادة من الطاقة والقوة المحركة لهذه الحضارة في شتى الميادين الاجتماعية والاقتصادية . وكانت هذه الطاقة تقوم على عضلات العبيد شأنها في ذلك شأن الحضارات الاسترقاقية القديمة (1) .

أ ـ الخدم

كان لابدّ من توفر الرقيق لمواجهة العديد من الشؤون والخدمات الاجتماعية التي كانت تتطور وتتعقد بتطور وتعقد المدنية الاسلامية . ففي نطاق الأسرة كانت الحاجة ملحّة الى الرقيق للقيام بشؤونها وكان المعوّل على "الخدم" في الكثير من أمورها الخاصة والعامة اذا انتقلت الاسرة العربية الاسلامية من الطور الفطري الذي كانت عليه خلال القرن الاول للهجرة وعند سيطرة التقاليد العربية الى طور آخر من التّمدّن في ظلّ الحضارة الحديدة ممّا زاد في حاجياتها ولوازمها . وقد ساهم استخدام الرقيق في تفتح هذه الأسرة على تقاليد وعادات مستحدثة يقول ابن خلدون (2) :

(1) موريس لمبار M. Lombard الاسلام في عظمته الاولى . ص 194 . 204
(2) ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص 123

"ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة فقد حكي أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعا وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحا وأمثال ذلك فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في امثال ذلك والقومة عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بتطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والاسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثي وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم وليالي الأعراس فأتوا من ذلك وراء الغاية".

وهكذا فلبت الحضارة الكماليات الى ضروريات وأمسى اتخاذ الخدم أو "عبيد الخدمة" من الأمور الضرورية التي تحرص الأسر على اقتنائها وتتحرّى في اختيارها وقد نظر المنطورن في هذا العصر لهذه الوظيفة الاجتماعية ووضعوا

شروطا لها ومقاييس للتمييز بين الجودة والرداءة فيها ووضعوا نموذجا للخادم بيّنوا فيه صفاته الخلقية والخلقية ومن الأمثلة على ذلك قول الجاحظ في الزنج "ليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعمّ منهم فيها وان الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم وهم شجعاء أشداء الأبدان أسخياء" (١) .

وقد دعا الاهتمام بوظيفة الخدم الى بيان خصائص الرقيق المضطلع بها والاشارة الى نوع السلوك الذي ينبغي اتخاذه مع العبد الخادم فقالوا مثلا في العبيد من الأرمن انهم "عبيد كدّ وخدمة متى نهنهت العبد ساعة بغير شغل لم يدعه خاطره الى خير لا يصلحون الا على العصا والمخافة وليس فيهم فضيلة غير تحمل العناء والاعمال الثقيلة والواحد منهم اذا رأيته كسلانا فذلك لعله (خبث النفس) فيه ليس عن عجز قوة فدونك والعصا وكن مع ضربه وانقياده لما تريده منه على حذر فان هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلا عن الغضب" (٢) وقد نشأ أدب كثير وأقوال مأثورة حول هؤلاء العبيد منها قولهم : "العبد اذا جاع سرق واذا شبع زنى" ومنها قول المتنبّي :

(١) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج ١ ص 195 .
(٢) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ تحقيق - عبد السلام هارون سلسلة نفائس المخطوطات عدد - ٤ - طبعة . القاهرة . ١٩٥٤

لا تشتر العبد الا والعصا معه ان العبيد لانجاس مناكيد (1)

وكما بينا عيوب الخادم بينا محاسنه الجسدية والاخلاقية وما ذاك الا لاهمية الوظيفة التي يقوم بها داخل الاسرة وخارجها ولحاجة المجتمع الملحة الى هذه الوظيفة حتى راجت سوق الخدم في هذا العصر سواء بالبيع والشراء او حتى بالاستجار كما سنرى ذلك في الفصول القادمة . وقد كانت حاجة القصور والبلاطات في العالم الاسلامي الى هذه البضاعة اكثر الحاحا منها في سائر الاسر الخاصة وذلك بسبب حرص الاسر الحاكمة على التحلي بعظمة الملك والسلطان ومحاكاة ملوك الاعاجم من الفرس والروم وفيهم في الابهة والرياش والترف . فقد اتخذ البلاط الاسلامي من الرقيق خدما للاضطلاع بعديد الوظائف فكان منهم الفراشون والطباخون والخزانون والملاحون في القوارب وسواس الخيل وامناء المكتبات وحراس الحريم (2)

---

1) المتنبي - الديوان - ص 486 -

2) انظر: الأزدي - الحكاية - نشر متز MEZ - ص 101

وكان منهم الوصائف لخدمة حظايا الخليفة أو الأمير (1) بل كانوا يتخذونهم ايضا للقيام بأعمال الجوسسة ، مثلما نجد ذلك في اخبار المأمون (198 - 218 هـ / 813 - 833 م) والمعتضد (279 - 289 هـ / 892 - 902 م) (2) وذاك مادعا المشترين للرقيق الى الاحتراز من خادم من خدم رجال السلطان (3) .

فقد كانت ادن حاجة الدولة الى هؤلاء الخدم كبيرة بسبب كثرة الخدمات التي يستدعيها البلاط للقيام بشؤونه اليومية وقد ازدادت وظيفة الخادم أهمية لتصرفه في أمور صاحب السلطة واطلاعه على خفايا أسراره فكان الظفر بالخادم الأمين من باب الغنم الكبير واعتبر عاملا من عوامل فشل سيّده أو نجاحه لأنه أقدر الناس على معرفة عوراته وحفظها أو خيانة صاحبه فيها .

---

(1) سيدة اسماعيل كاشف - مصر في عهد الاخشيديين - ص255 - 256

(2) صلاح الدين المنجد - بين الخلفاء والخلعاء - ص 62 - 74 و ص86 - 100

(3) ابن بطلان - رسالة في شري الرقيق ص366 وما بعدها .

وقد استوجبت هذه الأهمية التي أولاها الخواص الى الخدم ضرويا من التحرّيات في اختيار الخادم وفي وجوه التعامل معه، ومن النصوص الأدبية ما يتضمن صورة نموذجية لما يجب أن يكون عليه الخادم ولطريقة تصرّف سيّده معه ومن أجودها نص ورد في رسائل لسان الدين ابن الخطيب (1) يدل دلالة واضحة على أهمية وظيفة الخادم وان كان من النصوص المتأخرة زمنيا عن هذا العصر وقد جاء فيه ما يلي :

((واما الخدم فانهم بمنزلة الجوارح التي تعرق بها وتحمع وتبصر وتسمع فرضهم بالصدق والاماسة وصمهم صون الجمانة .... واحذر منهم من قويت شهواته وضاقت عن هواه لهواته ... واستخلص منهم لسرّك من قلت من الافشاء ذنوبه وكان أصبر على ما ينوبه ولودائعك من كانت رغبته في وظيفة لسانك اكثر من رغبته في احسانك ... ولخدمتك في ليلك ونهارك من لانت طباعه وامتدّ في حس السجية باعه وامس كيده وعذره وسلم من الحقد صدره ...)))

---

(1) المقري - نفح الطيب - ج 4 ص 216

ب- ظـاهـــرة التمرّي بالاماء

وكانت ظاهرة الانتفاع بجمال الرقيق المؤنث مثل ظاهرة استغـــلال قوة الرقيق المذكر عادة قديمة مارستها المجتمعات الاسترقاقية منذ ظهور الرق ، فكان الاماء يشترين للمتعة واللذة الجنسية ويستعملن للبغاء ايضا (1) وقد انتشرت هذه العادة عند اليونانيين فاقبلوا على اللهو بالجواري واتخذوا منهن خليلات عرفن عندهم بالخليلات الملهمات "Les maitresses inspiratrices" وكانوا يسمونهن " الهيتار" - Hitaire - كما اشتهرت عندهم عاهرات ماهرات في العزف على القيثارة ، فتهافتوا عليهن (2) واعرضوا عن الحرائر فقبعن في بيوتهن وانعزلن عن الرجال مما شجع على تفشي مرض السحاق بينهن وقد تحدث الشاعر اليوناني ارسطو فان عن امرأة تدعى سافو - sapho - قـد اسست في جزيرة " لسبوس " - Lesbos - مدرسة لتعليم النساء الحرائر المساحقة (3) فصارت الى هذه الجزيرة تعني ممارسة السحاق ومن هـــذا المعنى اشتق اللفظ الفرنسي - Lesbiennes.

ومنذ القرن الاول للميلاد كان الرومان ابان مجدهم وقوتهم مولعين بالجواري والاماء متخلين عن الحرائر والزواج بهن مما احدث خللا في الاسرة والمجتمـع

---

1) موريس لنجلي - Maurice Lengellé - الرق - ص 46

2) ول ديورانت - W. Durant - قصة الحضارة - تعريب زكي نجيب محمود ومحمد بدران - القاهرة 1956 ج 2 ص 104 - 105

3) المرجع نفسه ج 1 ص 281

ودفع الحرائر الى عقد علاقات مع العبيد (1) وهو ما دعا الامبراطور اغسطس AUGUSTE (63ق م/-14م) الى اتخاذ جملة من التدابير لحفظ الاسرة الرومانية فمنع الحرائر من الخروج الى الاستعراضات الرياضية ومنع الاحداث من ارتياد دور اللهو وفرض عقوبات على الزنا وفرض الزواج على الرجال والنساء واعفى من الضريبة كل من انجب ثلاثة اولاد وغير ذلك من التدابير ، لكن هذا الامبراطور لم يكن في سيرته قدوة للناس بل كان صاحب مغامرات جنونية وفيه يقول الكاتب الروماني الشهير " بلين " - PLine - " ليس من المهم ان تامر لكن من المهم ان تكون قدوة حسنة لما تامر به " (2).

وكذلك كان الامر بالنسبة لوسائر الحضارات القديمة السابقة للاسلام اذ كانت شعوبها تقتني الرقيق المؤنث لهذه الغاية وتروّج تجارة الجواري تلبية لرغبة المولعين بهن وخاصة الاثرياء واهل البذخ منهم ، وقد كان العرب قبل الاسلام يتخذون رقيقهم المؤنث للمتعة ويتاجرون باعراض اماثهم ويكرهون جواريهم على البغاء ونحن نتاكد من وجود هذه العادة عندهم من خلال تشدد القرآن في النهي عن هذه التقاليد (3)

---

1) المرجع نفسه — ج 2 ص 29 و ص 317

2) ك — جرنبرج - K - Grimberg - التاريخ العالمي - Histoire universelle - الترجمة الفرنسية في 12 جزءا - طبعة باريس - 1963 ج 3 ص 134
عبد السلام ترمانيني — الرق ماضيه وحاضره — ص 81

3) القرآن سورة - النور - عدد 24 - آية 33
برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية — مقال عبد - ج 1 ص 26

ج- الاسلام والتسري

وقد اقر الاسلام ظاهرة تسري الاحرار بالاماء وان كان قد ادخل عليها جملة من التنظيمات قصد المحافظة على الاخلاق العامة من ناحية وعلى حقوق الطرفين الشخصية من ناحية اخرى ، فخول للحر ان يتخذ "سرية" اي جارية ليتمتع ويتسرى بها وجعل من المنافع التي يبيحها ملك الرقاب تسري الاحرار بالرقيق المؤنث.فملك الامة يخول لمالكها وطأها بعقد الملكية وهذا العقد هو الحد الفاصل بين الوطء المحرم وهو الزنا (1) وبين الوطء الحلال وهو التسري (2) ومجرد شبهة الملكية يمكن ان تدرأ الحد عن الواطىء (3) وقد ثبتت شرعية التسري بصريح القرآن في قوله تعالى "والذين هم لفورجهم حافظون الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين " (4) وكذلك ما ورد بالآية عدد 30 من سورة المعارج وبالآية عدد 24 من سورة النساء كما ثبتت بسيرة الرسول واقواله في سبي اوطاس (5) وكذلك في قوله "عليكم بالسراري فانهن طيبات الارحام " (6).

---

1) القرآن ــ سورة - النور - 24 آية 33 وفيها نهي عن اكراه الرقيق على الزنا
2) الشافعي ــ الام ج -2- ص 269 ــ 270
3) المصدر نفسه
4) القرآن ــ سورة " المؤمنون " عدد 23 - آية 5 ــ 6
5) الشافعي ــ الام ج -2- ص 270
6) العيني (أبومحمد بدرالدين) عمدة القاري - ج 20 ص 79

وتنبني اباحة التسري على مبدأ فك العصمة الذي فرضه الاسلام على السبي الواقع في الغنيمة والذي تصبح المسبيات بموجبه في حل من ازواجهن فيصرن مباحات لمالكهن (1).

وللتسري نظام يحدد شرعيته ويضبط مسؤولياته واول قواعده الملكية الكاملة فليس للمرء التسري بجارية غيره ولو كانت جارية زوجته (2) او ابيه او ابنه اذا ما وطئاها (3) وليس له وطء امة لا يملك الا خدمتها او سبق له ان اعتقها او اعتق جزءا منها او كاتبها (4) ولا يحل له الاشتراك مع غيره في وطء جارية (5) وثاني هذه القواعد تجنب المحرمات من النساء لان من حرم منهن في النكاح حرم في التسري فاذا اجتمع في ملكه اختان لا يطأ احداهما الا بعد تحريم الاخرى بعتق او بيع او نكاح او كتابة وما اشبه ذلك (6) وكذلك اذا اجتمعت الام وبنتها في ملكه اولم تجتمعا

---

1) الشافعي ـ الام ج 3 ص 193 ـ 194

2) برنشفيك Brunschvic. ـ دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ص 88 (يمنع السيد من وطء جارية زوجته وان سمحت له بذلك خلافا لما نجده في الانجيل)

3) المحقق الحلي ـ شرائع الاسلام ج 2 ص 314 ـ 315

4) العيني ـ شرح الكنز ج 2 ص 211

5) آدم متز ـ A. MEZ ـ الحضارة الاسلامية ج 1 ص 296

6) الزرقاني ـ شرح الموطأ ـ ج 3 ص 146 ـ 229 ـ العيني ـ شرح الكنز ج 2 ص 211 الشافعي ـ الام ـ ج -ـ ص 273 ـ 274

لان تحريم وطئهما معا مطلق في الجمع والتفريق (1) وليس له التسري بأمته المتزوجة ولو كانت في عصمة عبده (2) وقس على ذلك سائر المحرمات من النساء الا ان للسيد الجمع بين اكثر من اربع اماء بينما ليس له الجمع بين اكثر من اربع زوجات (3).

وثالث قواعد هذا النظام النظر في عقيدة المتسرى بها فلا يجوز وطء المجوسية (4) بينما يحل له التسري بالمسلمات او الكتابيات ويصوغ الفقهاء هذا المعنى في مقولة هي ان "كل من جاز وطء حرائرهم بالنكاح جاز وطء اماثهم بالملك وكل من حرم وطء حرائرهم بالنكاح حرم وطء اماثهم بالملك" (5) واستندوا في ذلك الى الآية التي تخصص التسري بـ " الفتيات المؤمنات " (6) وهذه نقطة اخرى مشتركة بين النكاح والتسري وتعتبر دواعي الوطء بمثابة الوطء في التحريم بالنسبة الى الوجوه المذكورة كلها (7).

---

1) العيني ــ شرح الكنز ــ ج 2 ص 211
2) المصدر نفسه
3) الشافعي ــ الام ــ ج ـ ـ ص 273 ــ 274
4) المصدر نفسه ج ـ ـ ص 272
5) الزرقاني ــ شرح الموطأ ج 3 ص 146 ــ 229
6) القرآن ــ سورة النساء ـ عدد 4 ـ آية 25
7) العيني ــ شرح الكنز ــ ج 2 ص 211

ولا يكون التسري الا بعد استبراء الجارية ــ وهو رابع قواعده ــ ومعناه طلب براءة الرحم من الحمل وهو بمثابة العدة في النكاح ويكون لازما عند انتقال الجارية من ملك الى ملك بشراء او هبة او وصية او ميراث او خلع او غيرها من وجوه الملكية (1) ويتم بوضع الحمل عند الحامل او بحيضة ان كانت من ذوات الحيض اوبمضي شهر ان كانت آيسة ، هذا عند الحنفية (2) والشافعية.(3) اما المالكية (4) وبعض الشافعية (5) فيجعلون استبراء الآيسة ثلاثة اشهر ، وقد اعتمد الفقهاء في سن حكم الاستبراء على قول الرسول في سبايا اوطاس " الا لا تو طأ الحبالى حتى يضعن حملهن ولا الحيالى حتى يستبرئن بحيضة " (5) ويدل قانون الاستبراء على ان الغاية منه هو تمييز نسب عن آخر والفصل بين ملك وملك وكذلك البت في حرية الجنين او عبوديته وربما ايضا في حرية امه او رقها.

واذا احترم السيد كل هذه الحدود صار وطؤه لسريته حقا من حقوقه وقد مارس المسلمون هذا الحق الشرعي واقتدوا اصناف الجواري لغرض المتعة والتسري كما سوف نرى .

---

1) المصدر نفسه (ويكون الاستبراء ايضا عند انتقال الجارية من العبودية الى الحرية وعند زواجها او طلاقها)
2) المصدر نفسه
3) الشافعي ــ الام ــ ج -٤- ص 273
4) النفراوي ــ الفواكه الدواني ج 2 ص 225 ــ 226
5) الشافعي ــ الام ــ ج -٤- ص 273
6) بهلوي ــ الجامع ــ ج 2 ص 240 ــ 241 ــ العيني ــ شرح الكنز ــ ج 2ص 211 الشافعي ــ الام ــ ج -٤- ص 269 ــ 270

د - المسلمون و اقتناء السراري

كان المسلمون الاولون اذن يتخذون الجواري للتسري ويمارسون هذه العادة في غير حرج لان دينهم يبيح لهم ذلك بنص القرآن وتعتبر هذه العادة استمرارا لنفس الظاهرة التي وجدت عند العرب قبل الاسلام كما كانت شائعة عند الرومانيين والفرس وغيرهم من الشعوب وقد سمحت وفرة الرقيق المؤنث التي تسبب فيها الفتح بتلبية هذه الرغبة وسد تلك الحاجة الاجتماعية فاشتهر كثير من الصحابة والتابعين بكثرة اقبالهم على السراري وقيل ان الامام عليّ توفي عن سبع عشرة 17 جارية سرية (1).

لكن المسلمين الاولين رغم اقبالهم على ممارسة هذه العادة كانوا يرون بعض الحرج في استيلاد الجواري ويعتبرون السرية احط منزلة من الزوجة بالرغم من ان علاقتها مع السيد كانت شرعية فهذا عبد الله بن رواحة مثلا يتحرج من ان يصيب جارية له وعندما يصيبها يتعرض لتهديد زوجته فقد امسكت زوجته بسكين وقالت :

---

1) يوسف البلوي ــ الف باء ــ طبعة مصر 1287 هـ
ج 2 ص 347

(افعلتها يابن رواحة؟فقال :ما فعلت شيئا. فقالت لتقرأن قرآنا والا بعجتك بها. قال: ففكرت في قراءة القرآن وانا جنب فهبت ذلك وهي امرأة غيراء فيبدها شغرة لا آمن ان تاتي بما قالت فقلت :

" وفينا رسول الله يتلو كتابه اذا انشق معروف من الصبح ساطع
ارانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات ان ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه اذا استثقلت بالكافرين المضاجع "

قال: فالقت السكين من يدها وقالت :آمنت بالله وكذبت البصر قال: فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فاخبرته بذلك فضحك واعجبه ما صنعت(1)

وكان المجتمع الاسلامي الاول يحتقر ابناء الجواري ولذلك وجد بعض الحرج في استيلاد الاماء وليس لهذا الحرج اية علاقة بالدين وانما هو صدى لما استقر في المجتمع من عادات قديمة استمر وجودها حتى بعد تغير التشريع وظهور المجتمع الاسلامي الجديد ،وكانت نظرة المجتمع الروماني شبيهة بهذه النظرة اذ كانت الامة فيه دون الزوجة منزلة كما كان العرب قبل الاسلام لا يعترفون بنسب ابناء الاماء الا في حالات شاذة كأن يظهروا النجابة مثلا ولنا في حياة عنترة العبسي ابن الجارية زبيبة دليل على ذلك (2)

---

1) ابن القيم(الجوزية)- اخبار النساء - ص 74 - 75
2) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بولاق 1285 ج 7 ص 148

لكن الدين الاسلامي قد عمل على محو هذه النفسيات وازالة هذه الاعتبارات بتشريع جديد يجعل ابناء الاماء احرارا ينتسبون الى ابيهم ويمنح امهات الاولاد حقوقا تقربهن من منزلة الزوجات الحرائر، الا ان هذا التشريع الجديد لم يتغلغل دفعة واحدة في نفوس المسلمين فمكثوا ردحا من الزمن يتحاشون استيلاد الاماء واتخاذهن زوجات وسوف لن يغيروا نظرتهم هذه الا بصورة تدريجية وبعد ان ازدادوا مخالطة للشعوب الاخرى. وقد ذكر ابن خلكان ان العرب كانوا يحتقرون ابناء الجواري حتى نبغ منهم ثلاثة من كرام الرجال امهاتهم من بنات يزدجرد (1) فرغب الناس اذاك في التسري.

وهكذا ازدادت الرغبة في التسري شيئا فشيئا بارتفاع هذا الحرج وزوال تلك النظرة العنصرية وانصهار العنصرين العربي والاعجمي فاصبح اكثر ابناء الخلفاء من اولاد الجواري (2) واكثر نساء اهل الدولة منهن واقتدى بهم سائر الوجهاء والاغنياء فعمد الناس الى اقتناء

---

1) ابن خلكان ــ وفيات الاعيان ــ ج 1 ص 320
2) زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 153 وج 5 ص 117

السراري وازدادت بذلك الحاجة الى هذا النوع من الرقيق ، وكثر طلبه بعد ان كان خاضعا في اتخاذه الى شيء من الاحتشام فبلغت السراري عند بعض الخلفاء عدة الاف واعتبروهن من انفس المتاع والهدايا فراح الامراء والوزراء يتقربون بهن الى الملوك والخلفاء.

الباب الثاني

العرض ومصادر التزود بالرقيق

الفصل الاول

رقيق الاسر والوراثة

ان تناقص رقيق الاسر للعوامل السياسية والعسكرية التي حللناها لا يعني اضمحلاله نهائيا . وذلك لان عملية الصراع والمد والجزر بين بلاد الاسلام وبلاد الكفر قد كانت تتمخض من حين لاخر عن امداد وان قليلة من الرقيق . ومن هذا القبيل ما اسفر عنه الصراع بين العرب والروم في عهد الخليفة المأمون (198-218هـ / 813-833م) والامبراطور تيوفيل = Theophilus ((213 - 227 هـ/829-842م) وذلك سنة (-215- هـ/ 830م) وسنة (- 216 - هـ/ 831 م) اذ تمكن جيش المأمون من احتلال جند الطاميز واخذ قرة واسترجاع هرقلة كما احتل في حملاته تلك حصونا عديدة من اقليم كباد وكيا واسر كثيرا من الروم (1) وفي عهد المتوكل (232-247هـ/847-861م) اغتنم المسلمون فرصة هجوم الروس على القسطنطينية سنة (246 هـ/ 860م) فهجموا على ارض الروم واسروا سبعة الاف اسير (2) . وهكذا كان الكر والفر بين الامبراطوريتين طيلة القرن الثالث للهجرة يتيح بعض الفرص السانحة للاسترقاق وان كانت فرصا باهضة

---

1) فازيلياف - vasiliev - العرب والروم - ص 101

2) المرجع نفسه ص190.225

الثمن اذ تتبح للروم ايضا ان يأسروا كثيرا من المسلمين مما يجعل ميزان القوى متعادلا بين الطرفين .

وما من شك ايضا في ان الحمدانيين قد تمكنوا في صراعهم الطويل مع الروم في القرن الرابع للهجرة من الحصول على مقادير معينة من الرقيق وقد اتفقت لهم بعض الانتصارات التي اسروا فيها كثيرا من جند الروم . فقد استطاع سيف الدولة الحمداني (333-356هـ/ 944-967م) ان يظهر على الروم في وقائع متتالية تتراوح بين سنة (337هـ/948م) وسنة (345هـ/ 956م) وقد سجل المتنبي احداث هذه الفترة فكان شعره وثيقة اهم من كتب المؤرخين (1) اذ نجد فيها انباء الحرب التي وقعت بين الامير الحمداني والدمستق برداس فوقاس (351-358هـ/963-969م) (2) والاستراتيج يوحنا شمشقيق (358-365هـ/969 -976م) ومن هذه الانباء ان الامير سيف الدولة قد رجع من غزواته بجموع من الاسرى . ففي غزوة تل البطريق (345هـ/ 956م) وصف لنا الشاعر السبي محمولا على السفن في عبورها لارسنة متجهة الى بلاد

---

1) ماريوس كانار - M. canard - المسلمون وبيزنطة فصل 6 . ص 99 ـ 113

2) المتنبي - الديوان - ص 428 - 431

الاسلام حيث يباع السبايا في الاسواق (1) وقد ذكر الاسرى ايضا في معركة اللوقان (سنة 339هـ/ 950م) (2) وفي وقعة سنة (343هـ/ -954- م) امام الحدث فوق جبل الاحيدب (3) ولعل اعظم غزوة غزاها سيف الدولة هي التي حدثت سنة (342هـ/953م) وهجم فيها على النواحي الواقعة بين ملطية وزبطرة وعرقة وهزم خلالها الدمستق بمرعش وجرحه واسر ابنه قسطنطين وقد ذكر المتنبي الاسرى في هذه الغزوة ايضا فصور السبيات يبكين ويمزقن ثيابهن ((بعرقة)) (4) وقد انبهر المتنبي امام هذه الاحداث والهبته شعره الحماسي . وهي اهم المواطن التي ورد فيها ذكر للاسرى والسبي في ديوان الشاعر .

---

1) المتنبي ـ الديوان ـ ص 594 ـ بيت 23 ـ وص 600 ـ بيت 33

2) المصدر نفسه ـ ص 451 بيت 27

3) المصدر نفسه ـ ص 600 بيت 21 ـ 24

4) المصدر نفسه ـ ص 514 ـ بيت 23

ولم تمنع ظاهرة تراجع الفتوحات ايضا من احتلال بعض الاقاليم التابعة للبيزنطيين مثل صقلية وجنوب ايطاليا وجزيرة اقريطش وهو احتلال قد انتج رقيقا زود الاسواق ردحا من الزمن . فقد تمكن المسلمون احيانا رغم هزائمهم المتكررة ومواقفهم الدفاعية من تحقيق بعض الانتصارات المؤقتة ومن احراز شيء من الرقيق الرومي كما تدل على ذلك الاخبار المتعلقة بفتح عمورية مثلا .

فقد كان فتح المعتصم (218 - 227 هـ / 833 - 842 م) لعمورية موطن الاسرة الرومية الحاكمة سنة (223 هـ / 837 م) مناسبة لاسر كثير من النساء والاطفال فكان السبي قد بلغ اكثر من الف عذراء قسمن على موالي التركي والمغاربة وكان الاسرى من الرجال عديدين ايضا فقسموا على القواد بعد تمييز الاشراف والاغنياء منهم عن سائرهم وبيع البعض وقتل البعض الاخر . ولما جاء اليوم المعين لبيع النساء والاطفال والعبيد رؤي تعجيل البيع فكان المنادي ينادي على الاسرى لمن زاد ثلاثة اصوات وينادي عليهم خمسة خمسة وعشرة عشرة لكثرتهم (1).

وكان الامر شبيها بذلك عندما فتح العرب جزيرة كريت في القرن الثالث للهجرة فمن اخبار هذا الفتح الذي تم سنة (211 - أو 212 هـ / 827 او 828 م) ان المسلمين لم يجدوا بالجزيرة اي مقاومة وانهم استطاعوا ان يأسروا سكان 29 مدينة وان يسترقوا اهاليها ولم يكتفوا بذلك حتى هاجموا الجزر الرومية الاخرى مثل جزيرة ايجير « EGINE » واستعبدوا كثيرا من اهلها . وقد بقيت جزر الارخبيل خرابا منذ ان وقعت في ايديهم الى اوائل القرن الرابع للهجرة (2)

---

1) فازيلياف - vasiliev - العرب والروم - ص 113 . 156

2) المرجع نفسه - ص 55 . 61

ولاول مرة في هذا العصر عزم المسلمون بصورة جدية على فتح صقلية بعد ان كانوا يقومون بمجرد هجومات هدفها الغنيمة ومناوشة العدو فمنذ ان غزا اسد بن الفرات تلك الجزيرة (211 هـ-827 م) بامر من زيادة الله الاغلبي الى ان تم فتحها واحتلال مدينة بلرم والمسلمون يأسرون ويسبون حتى انقلبت الجزيرة موردا هاما من موارد الرقيق وعاملا فعالا في تنشيط تجارته بالمغرب الاسلامي خاصة . ومما يروى عن غزوات امير بلرم ابي الاغلب في منطقة ((اثنا)) ((La Régione del'Etna)) خارج بلرم سنة (222 هـ/ 836 م) انه حقق انتصارات باهرة وحصل على كميات كبيرة من الاسرى حتى صار العبيد يباعون في عهده بثمن بخس(1).

الا ان هذا الرقيق الحاصل من الصراع القائم بين المسلمين واعدائهم او من فتح بعض المناطق الجديدة لم يكن كافيا لسد حاجات المجتمع الاسلامي اذاك ولم تكن مقاديره تقاس بما احرز عليه المسلمون خلال فتوحاتهم الكبرى في القرنين السابقين . ولا يجب ان نتصور ان بعض العطيات الحربية الطرفية والمؤقتة بوسعها ان تقوم بسد المزود لاسواق كانت في امس الحاجة الى تزويد مطرد . ولا ينبغي ان ننسى ايضا ان الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالقرنين الثالث والرابع للهجرة قد كانت اكثر طلبا لمادة الرقيق من اوضاع القرنين السابقين فقد اتسعت دائرة المعاملات التجارية ورسخت التقاليد

---

1) المرجع نفسه ـ ص 121 ـ محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية ص 213 ـ 214 وص 435 ـ 440

الصناعية في هذا العصر فكان لا بد من ان يتضاعف طلب الايدي العاملة المستوقة . فهذا العصر هو الذي اتجهت فيه الحضارة الاسلامية نحو التعمير والاعتماد على الموارد الداخلية من فلاحة و تجارة وصناعة واستخراج المناجم بعد ان اشتغلت في العصر السابق بتدعيم اركان الامبراطورية وتوسيع رقعتها وعولت طوعا تدره الحرب من غنيمة لتزويد خزينة الدولة او بيت المال . انه عصر الحضارة الاسلامية الذهبي بسيطرته على سبل التجارة العالمية وبعطته النقدية وبازدهار صنائعه وعلومه بعد ان كان العصر الماضي عصرا ذهبيا بقوة المسلمين العسكرية والايديولوجية .

لم يضمحل رقيق الاسراذن اضمحلالا كاملا في هذا العصر . وكل ما في الامر انه لم يعد يشكل المصدر الاساسي المزود للاسواق كما كان شأنه خلال القرن الاول ومعظم القرن الثاني للهجرة فقد عكست الاية . وصار لهذا النوع من الرقيق دور ثانوي بينما برزت الى الوجود مصادر تزويد اخرى احتلت الصدارة وميزت تجارة الرقيق في هذا العصر . ومن اهم هذه المصادر الجديدة نشاط الفرضنة الاسلامية التي عوضت بشكل من الاشكال القوى العسكرية الرسمية وكذلك نشاط حركة التوليد التجارية . كما سنحلل ذلك في الفصول القادمة .

الا انه لا بد من الاشارة قبل تحليل هذه المصادر الى ان رقيق الوراثة قد استمر وجوده في هذا العصر مثل رقيق الاسر ذلك بالرغم من نقصان الرصيد لكنهما لم يكونا ليغنيا بحاجة المسلمين المتزايدة الى الرقيق كما سبق ان اوضحنا . ولا يمكن ان يقاسا من حيث الكم بما ستوفره مصادر القرصنة والتجارة .

الفصـــــــل الثـــــانـــــي

رقيـــــق القـــــــــــــــرصنـــــــــة

القرصنـــة وتجـارة الرقيـــق

1) القرصنـة والاسترقـاق

ان من اهم المصادر المزودة بالرقيـق في هذا العصر القرصنـة البحريـة التي كان يمارسها المسلمون خصوصـا في البحر الابيض المتوســط وكانت تجلب الى الاسواق الاسلاميـة رؤوسـا وفـيرة من الاسرى او الرهائن المختطفـة على سواحل البلدان الاجنبيـة.

ولم يكن المسلمون اول من مارس هذا النشاط التجاري البحـري وانتفع بمـا ينجر عنـه من ثروات وخاصـة منها الرقيـق ، فالقرصنـة قديمـة قـدم الابحـار. ومنـذ عصـور الانسانيـة الاولـى كان سلوك البحـارة في البحر لا يختلف عن سلوك المسافريـن في البر من حيث تعرضهم للاخطار وقطع الطريـق ، فقد كان القوي يهجـم علـى الضعيف هنا وهناك ، ويبتز منـه النفس والنفيس (1).

وكان استعمال القرصنـة وسيلـة للحصول على الرقيـق ظاهـرة معروفـة في الحضارات القديمـة ، وكان اليونـان والفينيقيون من اسبـق

---

1) موريس لنجلي Lengellé M. الرق- ص : 34

الامم الى تعاطي القرصنة والهجوم على السواحل الامنة وسبي النساء والاطفال واختطاف الرهائن من الرجال وبيعهم في اسواق الرقيق فمنذ القرن الثاني قبل الميلاد كانت جزيرتا " لمنوس " Lemnos و " ديلوس " DéLos في بحر " ايجة " EGée مستودعات للرقيق المجلوب عن طريق القرصنة (1) وكان الاغريق بحكم طبيعة بلادهم الجغرافية وتوسطها في عرض البحر وكثرة سواحلها يقطعون طريق التجار الفنيقيين وقد اكد " مونتسكيو " Montesquieu ان اليونان الاولين كانوا كلهم قراصنة (2) كما روى لنا " فيليب جوس " Ph. Gosse في كتابه حول تاريخ القرصنة كيف كان الفينيقيون ينتقمون من قراصنة الاغريق فذكر انهم يحلون باحد موانئ الاغريق متنكرين في زي تجار ثم يعرضون بضاعتهم التي يقبل عليها النساء خاصة وعندما يكثر عدد النسوة الحريفات على متن بواخرهم التي يعرضون فيها البضاعة يهجمون عليهن ويصبحن هن بانفسهن بضاعة

---

1) موريس لنجلي M.Lengellé - الرق ص : 33 - لاروس الكبير - G.Larousse - الموسوعة - ج 3 ص 671

2) ج - ايلول - تاريخ المؤسسات . ص 40
ELLuL (J) - Histoire des Institutions de l'Antiquité
P.U.F. Paris 1961 - p40

للبيـــع (1) ويرجـــع " جانال " J-Jeannel - اسباب الحروب البونيقيـــــة بين قرطاج وروما الى العنف الذي كان يمارسه القراصنة بين هذين الدولتين (2).

ويمكن ان نقول بصورة عامة ان كل شعوب البحر الابيض المتوسط قد مارست القرصنة واتخذتها مصدرا للاسترقاق لان هذا البحر قد كان مهد الملاحة منذ القديم وهو يمثل مناخا ملائما وفرصا ثمينة للقراصنة بما يتميز به وضعه الجغرافي الغني بالجـــــزر والخلجان ومواطن الكمون والترصد التي تساعد على ممارسة نشاط القرصنة . وها هو ذا احد كبار المطاردين لقراصنة الشرق وهو " هنري كبل " Henry - Kepnel - يقول واصفا علاقة البحـــر بالقرصنة (لقد ظهر القراصنة في كل الامكنة التي تكثر فيهـــا الجزر حيث توجد خلجان صغيرة وشواطئ ومناطق نائية في البحـــر وصخور وجلاميد وهي باختصار مواطن تكمن بسهولة من الترصـــد والمباغتة والهجوم والفرار) (6)

---

1) كواندرو _ R-Goindreau - قراصنة - ص 13 - 22
2) فيليب جوس PH.Gosse - تاريخ القرصنة" ص 365
3) ن _ جانال - J Jeannel - القرصنة" ص 23
4) ف _ جوس PH. Gosse - تاريخ القرصنة ص 13

اما في خصوص الفترة التي تهمنا فقد عرفت القرصنة بهذا البحر نشاط كبيرا على سواحل اوروبا وذلك منذ تداعي الامبراطورية الرومانية الغربية فقد كان النرمان يمارسونها في الشمال ومارسها المجوس من " الفيكيدك "- Wikings - في بحر المانش La-Manche وفي البحر الشمالي - La mer du Nord - وكان العرب يتعاطونها على السواحل الاوروبية الجنوبية وازدهرت على ايديهم في هذه الحقبة ازدهارا كبيرا وذلك لان حالة الحرب بين البلاد الاسلامية والممالك الاوروبية المسيحية قد اسبغت على القرصنة حماسا خاصا يضاف الى جشع القراصنة ورغبتهم في الغنيمة ولان الحمية الدينية قد ضاعفت من حدة القرصنة وجعلتها احيانا كثيرة ذات طابع جهادي شبه رسمي .

2) القرصنة والتجارة

ولا جدال في ان تاريخ القرصنة يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ التجارة في البحر (1) فلا غرو اذا ما كان القراصنة المسلمون قد لعبوا دورا اساسيا في الحركة التجارية في هذا العهد بل ان اغلب القراصنة قد كانوا من التجار الذين فضلوا المغامرة على المعاملات التجارية السلمية (2) وكانت بضاعة الرقيق من اهم البضائع التي تتعرض لاختطافهم ويجنون منها الاموال اما عن طريق الفداء او البيع في الاسواق الاسلامية المختلفة. وقد كانت لهؤلاء القراصنة علاقات بتجار الموانيء الاسلامية مثل الاسكندرية وبلرم وسرقسطة وطرابلس او بعض الموانيء المسيحية مثل نابولي وكانوا يبيعون لهم ما تدره عليهم غزواتهم البحرية المثمرة من رقيق وامتعة ، وكانت السلط الرسمية تعاملهم معاملة التجار عند ارسائهم بتلك الموانيء فقد وظف عليهم الفاطميون بافريقية ضريبة حكومية تبلغ العشر على اعمال

---

1) ر- كوانذرو - R. Coindreau - قراصنة - ص 13
2) نجاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي ص 98 - 103

الحملات التي يقومون بها (1) وقد صور ارشبالد لويس معاملات هؤلاء القراصنة مع تجار الموانئ بقوله (اما علاقة اولائك القراصنة بالتجار المسلمين الطيبين التابعين لبلرم والاسكندرية وطرابلس وسرقسطة او حتى بتجار نابولي المسيحيين فتشبه علاقة دريك وهو كنز بتجار بلايموث وبرستول او علاقة بلاكبيرد بتجار موانئ كارولينا في امريكا الشمالية) . (2) .

وقد كان لنشاط القرصنة التجاري انعكاس على ازدهار الاوضاع الاقتصادية في البلاد الاسلامية لانه اضاف الى ثرواتها البرية ثروة بحرية فقد انتفعت افريقيا الشمالية واسبانيا ومصر وسوريا وسائر بلاد الشرق الاسلامي بما يودعه القراصنة في شواطئها من ثروات (3) كما قام هؤلاء القراصنة في كثير من الاحيان باعفاء التجار المسلمين من تكبد مشاق السفر الى

---

1) جون مارسيه G. Marçais - بلاد البربر ص 142 _ 143
2) ارشيبالد لويس A. Lewis - السيادة الاسلامية ص 53
3) المرجع نفسه - ص 65 - 66

المناطق الاوروبية لاغراض تجارية ، فقليلا ما تاجر مسلمو شمال افريقيا والاندلس مثلا مع الغرب اللاتيني وكانوا يستنفدون طاقاتهم في مسالك تجارية اخرى نحو الشرق او الصحراء الافريقية لانهم وجدوا من يكفيهم مؤونة المتاجرة مع اوروبا الغربية ومن يقوم بدور النيابة عنهم ومن بين هؤلاء القراصنة طبعا (1)

هكذا كانت القرصنة والتجارة اذن امرين متكاملين وليس من باب الصدفة ان جعل اليونان الها واحدا للسرقة والتجارة فقد استطاع القراصنة المسلمون ان يعوضوا التجار خاصة في فترات العداء مع الممالك المسيحية وان يقوموا بنفس الدور الذي يقوم به التجار في اوقات الهدنة والسلم وان ينظموا عمليات تقوم احيانا على اساس شركات الغرض منها التكتل لمجابهة الخطر ثم جمع رؤوس الاموال الضرورية لشن الغارات. كما انقلب التجار انفسهم الى قراصنة عند الحاجة اذا تعذر عليهم ممارسة عملهم بسبب

---

1) المرجع نفسه ـ ص 82 ـ 83

توتر العلاقات السياسية وبذلك يصبح الحد الفاصل غير واضح بين التجارة والقرصنة ويؤولان الى مجرد عمليتين تهدفان الى تروين انواع من البضاعة عن طريق البحر (1) ولعل من ادل الامثلة على تكامل هاتين العملتين في هذا العهد ما اخبرنا به المالكي وابو العرب عن رجل مشهور في عصر الاغالبة بافريقية يقال له يزيد بن محمد الجمحي ، فقد ذكر انه كان يمارس القرصنة وقد مات خلال هجوم وقع القيام به ضد المصيصة اذ قتله الاعداء الصقليون في البحر حسب قولهما وكان يلقب بتاجر الله فليس من الغريب ان يكون لهذا اللقب علاقة بممارسة لهذا النوع من التجارة (2) .

---

1) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية - ص 413 ـ 414

2) ابو العرب - طبقات علماء افريقية - ص 85 ـ 86 ـ المالكي - رياض النفوس ج 1 ص 162

3) القرصنة والسيادة البحرية

وقد كان لسيادة المسلمين البحرية في هذا العصر وعلى وجه التحديد بين عام (- 211 - هـ/ 827م) وعام (- 350 - هـ/ 960 م) علاقة بنشاط القرصنة وتتمثل هذه السيادة في ظهور قوات بحرية واساطيل منظمة اهمها تلك القوة التي ظهرت في عهد الاغالبة بشمال افريقيا وصقلية وتواصل اشرافهم عليها الى سنة (- 296 - هـ/ 909م) ثم انتقل الاشراف عليها الى خلفائهم الفاطميين (1) يقول ارشبالد لويس (كان لعالم البحر الابيض المتوسط الاسلامي نظام بحري افضل يتسم بطابع اثبت وانظم وينطبق ذلك بصورة خاصة على بني الاغلب والفاطميين في شمال افريقيا من القرن التاسع وصاعدا وعلى صقلية في القرن الذي يتلوه على الاقل . فهناك كانت تبنى الاساطيل باحواض سفن نظامية وتجهز بالسلاح والبحارة عن طريق الحكومة ويسيرها بحارة محترفون من امراء البحر حتى الربابنة كما كانت قادرة على مواجهة الاسطول البيزنطي الامبراطوري في المعارك البحرية الحامية الوطيس. فان الانتصارات

---

1) ارشبالد لويس A.Lewis - السيادة ..... ص 61

التي سجلتها العمارات البحرية التابعة لصقلية وشمال افريقيا بالقرب من صقلية خلال العامين (245هـ/ 859م) (274 هـ/ 888م) والتي قضت على آمال البيزنطيين في التمسك بهذه الجزيرة انما قامت بها قوات بحرية منظمة) (1).

وقد ظهرت في المغرب الاسلامي قوة بحرية اخرى عظيمة تتمثل في اساطيل الامويين باسبانيا وكانت في القرن الثالث للهجرة تتالف من اسطول للحدود بقيادة امير سرقسطة ثم اتسع نطاقها وصارت في القرن الرابع في عهد الخليفة عبد الرحمان الثالث(300-350هـ/912-961م) بديعة التنظيم حتى تمكنت من السيطرة على جزر الباليار وسواحل فرنسا الجنوبية واصبحت محل احترام واهتمام من قبل الفاطميين بافريقية وصقلية (2).

وقد وجدت في المشرق الاسلامي قوة بحرية تتالف من الاساطيل الطرسوسية والسورية والمصرية وقد اتحدت هذه الاساطيل

---

1) المرجع نفسه — = ص 53

2) المرجع نفسه — = ص 51 و ص 61

مريين تحت الحكم الدولتي والاخ يدي وهذا المركز هوا ...
هذه المراكز وابعدهما عن التبلور والتحديد (1) الا ان الفاطميين
قد دعموا مواقعهم الحربية بحيث رسد عهد المعز (341-365هـ/
952-975م) راشأوا اسطولا كبيرا لعب دوره في حروبهم مع القرامطة
بين سنة (358هـ/ 969م) وسنة (367هـ/ 978م) (2).

وبالرغم من تمكن هذه الدولة الاسلامية الجديدة
من وجود شتى حكومات متنازعة زعم طمس بعضها
في كثير شوكة سائرها كما فعل الفاطميون في بداية
القرن الرابع للهجرة عندما حاولوا اعداءهم المسلمين
سرعا وعربا فان المسلمين قد استطاعوا ان يسيطروا على
جواعد البحر المتوسط مثل بحاسه وطرطوسة وتوس وطرابلس
والاسكندرية ان يحتلوا جزره مثل صقليه ومالطه والباليار
رغم رصا ان يطلعوا رجله في وجه المسيحيه الغربيه (3) وليس
غريبا ان نجد في التعبير عن هذا الصراع ...

1) المرجع نفسه ص 61
2) حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريه
ويلاد العرب ص 302 - 305
3) حول جيرسيا وعن عباس عربي اسباني لقن الحرائم
الدوية ص 73 - 74 - ارنبالد لويس A. LEWIS
البحار الاسلامية ص 61 وما بعدها

ابن خلدون لـه في مقدمتـه (1) ولم يكتف العرب بفرض هيمنتهـم على مسالك البحر المتوسط بل ضمنوا لانفسهم كذلك حرية الملاحة في المحيط الهندي مرورا بالبحر الاحمر والخليج الفارسي فالبحران اللذان ورد اسمهما في القرآن (2) قد سيطر عليهما العرب تماما في هذا العصر وامكنهم ربط الصلة بينهما (3) .

---

1) ابن خلدون ـ المقدمة ص454 ـ (ط ـ بيروت)
2) قرآن ـ سورة 55 اية 19
3) خوان بيزليط ـ هل هناك ..... ص 73 ـ 76

4) **القراصنة المسلمون وتجارة الرقيق :**

ولقد كان من نتائج هذه السيادة البحرية ان نشطت حركة القرصنة وامكنها احتلال مراكز امامية والسيطرة على مواقع استراتيجية واتخاذها قواعد يمكن منها الهجوم على سواحل بلاد العدو ، ويمكن ان نقول اجمالا ان اعمال القرصنة قد كانت على اشدها خاصة في البحر الابيض المتوسط واتيح لها ان تمتد من سواحل سوريا الى فرنسا وكانت اغلب جزر هذا البحر حصونا ومعاقل بالنسبة الى القراصنة ، فقد اغلقت اقريطش بحرايجة وموت جاريجليانو بحر ترهانيا وجزر البليار و فركسيدتوم خليج ليونيز اما سرديبيا وقبرص فلم تشغلهما هذه الاحداث وكانتا في حياد عنها ولم تعلبا سوى دور صغير وفي فترات قصيرة (1) .

وسوف نحاول قبل تحليل دور هذه القرصنة في تنشيط تجارة الرقيق ان نعرف بهؤلاء القراصنة وان نحدد مراكزهم ، ففي البحر المتوسط كان لهم ثلاثة مراكز اساسية احدها في الحوض

---

1) ارشبالد لويس ص 40 ـ 50 وص 59 ـ 60

الغربي من هذا البحر وثانيهما في الحوض الشرقي منه وثالثهما بينهما اي في وسط هذا البحر ، كما كان بالخليج الفارسي نشاط لبعض القراصنة قرب ميناء سيراف وبجوار مصب نهر الفرات ولذلك كانت السفن التجارية الصينية التي تجوب هذا الخليج لا تصل الى تلك المنطقة خوفا منهم (1) كما يذكر الادريسي ان (صاحب جزيرة كيش في بحر عمان يغزو بمراكبه بلاد الزنج فيسبي منها خلقا كثيرا) (2) واذا ما كانت معلوماتنا قليلة حول نشاط القرصنة بهذه المنطقة فانه بامكاننا ان نعرف بهذا النشاط في البحر الابيض المتوسط

---

1) كليمان هوار Cl.Huart - تاريخ العرب - ج 2 ص 102

2) الادريسي - نزهة المشتاق — طبعة روما - 1970 - المجلد الاول - ص 61

أ- عش القرصنة المشرقي :

اما مركز القرصنة المشرقي فيتالف من قوتين احداهما بطرابلس والثانية بجزيرة اقريطش وقد كان يتزعم الاولى ليو مع حاكم طرابلس (273 -300 هـ/ 886 م ـ 912م) وكان يوجه حملاته ضد السواحل البيزنطية ويساهم باسطوله مع اسطول طرسوس في تضييقهما الخناق على الروم والانقضاض على تجاراتهم وجزرهم حتى هجر الروم الجزر وفر سكان سواحل بحر ايجة الى داخل بلدانهم (1) وقد تواصل نشاط هؤلاء القراصنة الى ان تمكنت القوات البيزنطية من تحطيم اسطول ليو عام (-311 - هـ/ 923 م) وكان العش القرصني الثاني يتكون من ~~اندلس~~ اندلسيين ثاروا بقرطبة على الحكم بن عبد الرحمن سنة (-199- هـ/ 814 م) فطردهم منها فذهب خمسة عشر الفا منهم الى ارض مصر واحتلوا الاسكندرية سنة (-200- هـ/ 816 م) ومكثوا بها يمارسون القرصنة في شواطئها

---

1) اسد رستم - الروم في سياستهم ... ج 2 ص 19
2) ارشبالد لويس ص 38 ـ 40

الى ان طردهم منها عبد الله بن طاهر بامر من المأمون العباسي (1) وكانوا منذ ذلك الوقت يهجمون على جزيرة اقريطس الى نزلوا بها سنة (212 هـ 213هـ/ 827 ـ 828 م) بقيادة زعيمهم ابي حفص عمر بن شعيب البلوطي المعروف بابن الغليظ او الغليظ من اهل قرية بطروج من عمل فحص البلوط المجاور لمدينة قرطبة (2) وعجز فوتيوس Photius استراتين اناطوليك عن حمايتها وامكنهم افتكاكها منه وكان ذلك في الفترة التي ضعفت فيها القوة البيزنطية بسبب ثورة توماس Tomas فاستولوا بها مدينة الخندق واستقروا فيها يمارسون القرصنة قرنا من الزمان على مراكب الروم وجزرهم وشواطئهم وتواصل نشاطهم الى ايام الامبراطور رومان الثاني (959-963م/348-352هـ) حتى فتحها القائد نقفور فوقاس في عهده سنة (350 هـ/ 961 م) (3) وقد كانت هذه الاعشاش القرصنية المشرقية مرتبطة ببعضها الى حد ما وقد حدث بينها تعاون عندما هاجم ليو حاكم طرابلس على تسالونيك اذ نجد في قوته البحرية بعض المراكب من اقريطس (4)

---

1) اسد رستم - الروم في سياستهم ... ج 1 ص 322 فازيلياف - العرب والروم ص 55 ـ 61 المقري - نفح الطيب - ج 4 ص 157 ـ

2) فازيلياف - العرب والروم - ص 55 ـ 61 و ص 85 و ص 58

3) فازيلياف - العرب والروم - ص 58

4) ارشبالد لويس - ص 37

كما كان القضاء على واحدة منها ايذانا بالقضاء على الاخرى فعندما انتصر اسطول رومانوس ليكابان سنة (311 - هـ/ 923 م) على اسطول ليو حاكم طرابلس قرب ليمنوس سهل على الروم القضاء على القرصنة بالخندق سنة (350 هـ/ 961م) (1).

يقول ارشبالد لويس (والواقع ان خطر كريت المهدد لامن بيزنطة البحري لم يكبى الا عام 923 م لما انتصر اسطول رومانوس ليكابينوس المجدد بالقرب من ليمنوس على اسطول القرصنة التابع لليو امير طرابلس) (2) .

---

1) ارشبالد لويس ص 38

2) ارشبالد لويس ص 38 ـ 40

وقد قام عش القرصنة المشرقي بدوره في تزويد الاسواق الاسلامية بالرقيق بفضل ما كان يشنه من هجومات على سواحل الامبراطورية البيزنطية. فقد كان القراصنة الاندلسيون منذ استقرارهم بالاسكندرية يقومون بهجومات على اقريطش كهجومهم عليها سنة (211 - 212 هـ/ 826م و 827م و 828م) . وكانوا يؤوبون من حملاتهم تلك بالاسرى والغنائم وقد استطاعوا ان ياسروا سكان 29 مدينة وان يسترقوهم ولم يجدوا اذاك اي مقاومة . وعندما استقروا بالجزيرة صاروا في موقع استراتيجي هام وانطلقوا لغزو جزر الروم الاخرى فهجموا على جريرة ايجين واسروا كثيرا من اهلها وقد بقيت تلك الجزر خرابا الى اوائل القرن الرابع للهجرة .

وقد عزا عرب اقريطش شوا طيء آسيا الصغرى بمجرد موت الامبراطور ميشيل (- 213 - هـ/ 829 م) وحربوا الجزء البحري من جند ((تراسيريان)) واثر ذلك اقتادوا اهل الناحية اسرى الى ان هاجمهم حاكم الجند في البر وهو ((قسطنطين كتوميت)) (C.Kendo mytes) وهزمهم بعد ان كانوا توغلوا الى جبل ((لاتراس)) (Lathrace) وهاجموا ادیرته وقتلوا رهبانها (1) .

1) فاريليف - Vasiliev. العرب والروم ص 55/ 61 و ر 85

وقد امكن لهؤلاء التجار ان يعقدوا علاقات تجارية مع مدن شرق بحر الكاريبي الذين رحبوا بهم وقد اشاد النويري السكندري بهذه العلاقات التجارية في "الالمام" (1) . وكان حاكم القرمسة مدينة برابلس يقوم بدور الوسيط وهو الرئيس على جاليات العاملين في هذه المدينة (291 - 304هـ/ 904 - 916م) شن ليو حاكم طرابلس هجوما واسع النطاق على سالونيك واسر حوالي اثنين وعشرين الفا من سكان المدينة بيعوا في شكل رقيق بالخندق وطرابلس (2) يقول ارشيبالد لويس (اما الحملة العاشرة فقد انزلت عام 904م بسالونيك حاكم طرابلس تؤيده بعض السفن الكريتية هاجم سالونيك على نطاق واسع وهي ثاني مدينة في الامبراطورية ، وكانت في طليعة هذا الهجوم سفن تستخدم العذافر اللاتينية وقد تكلل الهجوم بالنجاح التام واسر 22 الفا من سكان المدينة حملوا ارقاء الى البلاد الاسلامية) (3) .

---

1) عبد العزيز سالم - تاريخ الاسكندرية ص 135 - 136
2) الكندي والولاة ص 245 - الطبري ج 10 ص 2250 المسعودي مروج الذهب ج 1 ص 282 و ج 2 ص 319 ماريوس كانار بيرجامه ص 1 - 54، 55
3) ارشيبالد لويس ص 37

وفي هـذا المثـال دليل على ان هجمـات القراصنة قد كانت تبلـغ مُستوى الحمـلات القوية التي تسفـر عن عـدد كبيـر من الاسـرى وعلى جـراة هؤلاء القراصنة اذ تذكـر الروايـات الواردة في صلـة تيوفـان -Théophanes - ان ليو حـاكم طـرابلس قـد سعـى في هـذه المناسبـة الى الهجـوم على القسطنطينيـة نفسهـا فـدخـل الدردنيـل باشـرعتـه السـوداء واحابيشـه ثـم انثنـى من تلقـاء نفسـه وانقـض على تسالونيـك اكبـر مـدن الـروم بعـد القسطنطينيـة (1) وقـد كـان لهـذا الحـدث انعكاسـات على تبادل الاسـرى بين الروم والعرب سنـة (292هـ/ 905م) ووقـع ايقـاف هـذا التبـادل ورجـع الـروم باسـرى المسلميـن فسمي ذلـك الفـداء بفـداء الغـدر وقـد كتـب "نيكـولا" المتصـوف رسالـة الى اميـر اقريطـش في سبـاب اولائـك الاسرى ثـم وقـع استئنـاف التبـادل سنة (294 - 295هـ/ 906-907م) وسمي بفـداء التمـام (2) .

---

1) تيوفـان Théophanes continuatus ص366-371 - اسد رستم - الروم في سياستهم ج2 ص19

2) مـاريـوس كـانـار - بيـزنطـة - مصـدر ج12 ص54-55

وقد رد الروم الفعل على هذه الهجمة سنة (294 هـ/ 906 م) ثم حملوا على اقريطش سنة (297- هـ/ 910م) ولكنهم فشلوا وقد جرت هذه الاحداث كلها في عهد ليون السادس الحكيم (272- هـ/ 886م -330- هـ/ 912م) (1)

ب- **عش القرصنة الاوسط**

اما المركز الاوسط للقرصنة الاسلامية بالبحر المتوسط فيتكون من عش القراصنة ببار Bari وموت جاريجليانو Mont-Garigliano وقد تمكن هذا العش من غلق بحر ترهانيا ، واذا ما كانت باري تبدو معتمدة على اقريطش وافريقية فان موت جاريجليانو تستند الى جوار صقلية وقد استطاعت اساطيل هؤلاء القراصنة ان تكون من قوات الاغالبة والفاطميين البحرية بشمال افريقيا هيمنة على طرق التجارة بالحوض الاوسط من البحر المتوسط (2) .

وكان دور هؤلاء القراصنة هاما ايضا في ترويض بضاعة الرقيق و توفيرها ولقد استغلوا الحلف الذين عقده مسلمو صقلية

---

1) المرجع نفسه-
2) ارنبالد- لويس-السيادة ص 52 و ص 59 - 60

من مدن "كامبانيا" مثل "نابولي" و"امالفي" ليجدوا المجال فسيحا امام غاراتهم على اخواتها من المدن الايطالية الاخرى وسبي اهاليها ثم القيام بحمل النخاسين في الموانئ الاسلامية الكائنة بالجنوب (1) .

وقد تواصل تزويد افريقية في القرن الرابع للهجرة برقيق من الروم على يد هؤلاء القراصنة واستمرت عملياتهم تلك الى ما بعد هاته الفترة ، ففي عهد الدولة الصنهاجية اصدر الفقهاء فتاوى دالة على توارد الرقيق الرومي على البلاد بواسطة القرصنة وكان من بين هذه الفتاوى فتوى للفقيه اللخمي (ت 478 هـ / 1085 م) يعرض فيها الى شرعية استرقاق اولائك الاسرى ومناقشتها بسبب ما عرف به القراصنة من طرق خاصة بهم في اقتسام الغنائم (2) .

ج - **عن القرصنة المغربية :**

اما المركز الغربي فيتكون من القرصنة الاندلسية ، ونحن لا نجد اخبارا كثيرة عنها عند الاخباريين المسلمين لان اهتمامهم

---

1) خوان بيريط - هل هناك ... ص 73 ـ 76 ارشبالد لويس ـ ص 79 ـ 80
2) البرزلي - الحاوي ج 2 ص 263 ـ المختصر ص 82

بها لم يكن كافيا بالرغم من المعلومات التي وفرها ابن حيان وكذلك البكري الجغرافي الاندلسي (1) لكننا نعلم انه منذ عهد الحكم الاول (180 - 206 هـ/ 796 ـ 822م) اي منذ نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة قد وجد مغامرون اندلسيون يتعاطون القرصنة في البحر المتوسط كما ساهم بعد ذلك بقليل بحارة اندلسيون في فتن صقلية على يد الاغالبة (2) ، وكان هؤلاء القراصنة من اصل اسباني اما من المولدين او من المسيحيين كما هو الشان بالنسبة لاتحاد البحارة بمدينة بجاية في اواخر القرن الثالث الهجري وقلما كانوا من العرب او البربر وكانوا لا يتكلمون الا بلهجتهم الرومية (3) .

---

1) ل ـ بروفنسال ن 1 ص 244 و 249 و 355 ـ ن 2 ص 153 ـ (اما في القرن الرابع عشر للميلاد فنجد معلومات ضافية عن القرصنة بالمغرب في تاريخ ابن خلدون ن 3 ص 117 الطبعة الفرنسية كما تحدث "سيموني" في كتابه حول "وصف ملك غرناطة" عن نص الموضوع ص 136 ـ 137 137 ـ 136 ـ طبعة 1872)

2) محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية ـ ص 389 - 396

3) ل ـ بروفنسال ـ شبه الجزيرة الايبيرية ـ ص 45 رقم 7 ـ وتاريخ اسبانيا المسلمة ن 2 ص 153 . خوان بيرنيط ـ ص 73 ـ 76

وقد كان نشاط هؤلاء القراصنة كبيرا وقد مكنتهم طبيعة بلادهم واحتكاكهم بدول اوروبا من ان يكونوا ملاحين ماهرين عارفين بالشواطيء ومواطن الضعف في السواحل وكانوا يتخذون لهم مراكز ساحلية من شرق الاندلس تمتد ما بين طرطوشة وبلنسية وكان يتزعمهم امير سرقسطة ويستخدمهم ضد الكارولنجيين في وقت لم يكن فيه بالاندلس اسطول منظم الى سنة (230هـ/-845-م)

وكان شغل هؤلاء القراصنة يتمثل من الغارة والسطو على السفن والموانيء واحتجاز الرهائن واختطاف الاسرى ثم بيعهم في الاسواق الاسلامية ومن اهم المناطق التي كانت تستهدف لهجوماتهم جزر البحر وسواحله الشمالية مثل سواحل ايطاليا وافرنجة وغيرها من شطآن اوروبا الجنوبية (2)

ومن امثلة غارات هؤلاء القراصنة على الجزر واسرهم لاهلها ثم بيعهم رقيقا للمسلمين هجومهم سنة (191هـ/306م) على جزيرة قورشقة (كورسيكا) وقد تصدى لهم بيبين بن شارلمان (181-810م)

---

1) عبد العزيز سالم - تاريخ البحرية الاسلامية - ص 173 - 191 - بروفنسال - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 2 ص 153 - 164

2) عبد العزيز - سالم - تاريخ الاسكندرية ص 135 - 136

ملك ايطاليا فتقهقروا الى قواعدهم بالاندلس فتعقبهم اثناء تقهقرهم "آدمر" قومس جنوة باسطوله فاشتبكوا معه وهزموه واسروا ستين راهبا باعوهم بالاندلس (1).

ولم يكونوا يكتفون احيانا بما يغنمونه من هجماتهم السريعة فيتوغلون داخل البلاد اما عن طريق الانهار كما يفعل النرمان او يحتلون مكانا يختارونه مسبقا ثم يوجهون حملاتهم منه ويبدو ان الطريقة النرمانية لم تستعمل عندهم الا نادرا وتدل " حوليات القديس برتان " "Annales de saint Bertin" ان قراصنة من العرب قد صعدوا نهر الرون Rhône خلال الثلث الثاني من القرن الثالث للهجرة ووصلوا سنة (227هـ/ 842م) قرب مدينة آرلس - Arles - واستقروا باحدى ضفتي النهر ثم استسلموا للنهب والسلب، واعاد قراصنة آخرون الكرة سنة (236 هـ 850م) حول المدينة نفسها لكن الريح منعتهم من الرجوع فقتلوا على آخرهم وفي سنة (255 - هـ/ 869 م) استطاع فريق آخر من القراصنة

---

1) ارشبالد لويس ص 229 _ 230

الاندلسين التمركز بكامارك Camargue وتمكن من اسر الاسقف بمدينة آرلس Arles وهو المسمى رولان "Roland" (Rotlandus) وقد حاول هذا الاسقف مطاردتهم على راس فرقة من الحرس لكنه مات على سفينتهم رغم ذلك ولم يفرطوا في فدائه بل اوهموا انه حي والبسوه ثياب الاسقفية واجلسوه ليراه من سعى لفدائه من اهل آرلس Arles (1) .

وكان من عادة فريق من هؤلاء القراصنة ان يلجؤوا بعد احراز سبيهم واسراهم الى مياه الاسكندرية فيبيعون بها بضاعتهم ويشترون منها ما يحتاجون اليه من زاد ومتعة فكانت الاسكندرية سوقا للرقيق المجلوب عن طريق هذه القرصنة خلال هذا العهد وقد وصف الكندي متاجرتهم مع اهل الاسكندرية فقال (قد تغلوا من غزوهم فنزلوا الاسكندرية ليبتاعوا ما يصلحهم وكذلك كانوا على الزمان وكان الامراء لا تمكنهم من دخول الاسكندرية وانما كان الناس يخرجون اليهم فيبايعونهم)(2)

---

1) ل - بروفنسال - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 153 - 162 .

2) الكندي - الولاة - ص 158

وقد امكن لهم ان يستولوا على الاسكندريـة وان يحدثـوا بها الفوضى وان يذكوا نار النزاع السياسـي المندلع فيها الـى ان قـرر المامون اخراجهـم منها صلحـا وخرجوا منها سنـــة (212 هـ/827 - 828 م) (1). ويبدو انهم لم يكونوا يتورعـــون من ممارسـة الاختطاف حتى فـي السواحل الاسلاميـة ولذلك نـرى عبد اللـه بن طاهر عندمـا امره المامون باخراجهم يشترط عليهـم الا ياخذوا في مراكبهم احدا من الاهالـي ولا عبدا ولا ابقا (2) .

لكن هـذه النواة التي تكونت من القراصنـة الاندلسـين لم تقو شوكتهـا ولم تصبح عشا قوي الكيـان الا فـي العقـــد الاخير من القرن الثالث للهجرة وذلك عندمـا ظهر قراصنـة فركسينتوم Fraxinetum ونحن مدينون باهم المعلومات التي لدينـا عنهـم للتاريخ المسمى " انتبودوزيس" "Antapodosis" الذي الفه " ليوتبراند " Liutprand اسقف " كريمونة " Crémone

---

1) الطبري-الامم والملوك ج 3 ص 1092 ـ ابن الاثير- الكامل ج 4 ص 212
2) المصـدر نفسـه

ولعل اول من حاول التعريف بهذا الحي من احياء القرصنة الاسلامية هو الباحث " رينو " Reinaud سنة 1836 ثم ظهرت دراسات اخرى في السنوات الاولى من القرن العشرين (1).

ففي فترة ما بين سنة (-278- هـ/ 891م) وسنة (-281- هـ/ 894م) استقر قراصنة اندلسيون في ظروف بقيت غامضة في سواحل جنوب فرنسا اي شواطئ بروفانس Provence بخليج " سانت تروبيز " saint.tropez واحتلوا " فركسيتوم " Froxintum وهي المدينة المحصنة بجبل مجاور لها والتي يدعوها الفرنسيون " قاردفريني " Garde-Freinet ويرى " ف ـ لوط " ـ F. Lot في كتابه " غزوات البرابرة " انهم لم يقتصروا على احتلال هذه المدينة

---

1) من بين هذه الدراسات نذكر على سبيل المثال :
ر ـ بوبردان : مملكة بروفانس في ظل الكارولنجيين باريس 1901 - R. Poupardin
ـ مملكة بورجوني .. باريس 1907
ج . بيلي دي مانتير : بروفانس من القرن الاول الى القرن الثاني عشر ـ باريس 1908 G. Pinet de Manteyer
وكذلك دراسات (ـ ن ـ كالمات Calmette ـ ج . و أ ـ فليش A. Fliche ور . لوط F. Lot وغيرهما)
راجع ل ـ بروفنسال : تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ـ ص 153 ـ 162

ومرتفع " ميراماس " Miramas المشرف عليها وانما يسطو نفوذهم على كل المنطقة المجاورة ابتداءً من خلين " جريمو " Grimaud كما يشير الى ربض يدعو " راماتوال " Ramatuelle ويرى فيه التسمية العربية " رحمة الله " (1) وايا كانت سعة الرقعة التي احتلوها فقد استطاع هؤلاء القراصنة ان يتخذوا قواعد ثابتة على ساحل بروفانس وجزيرة "كامرغ" عند مصب "الرون" وفي "ماجلون" ومنها وجهوا غاراتهم الى داخل البلاد الاوروبية وانتشروا في جبال الالب وتحكموا في الممرات الموصلة بين فرنسا وايطاليا فيما بين "مونت سيني" والبحر المتوسط و اغلقوا خلين "ليوليز" (2) .

وقد كان نشاط عن فركسيدتوم حثيثا طوال القرن الرابع للهجرة ووصلت غاراته حتى سويسرا ولومبارديا وقد استطاع القراصنة ان يتوغلوا في بلاد مرسيليا وان يحطموا دير " القديس فيكتور " Saint. victor وان يصعدوا نهر الرون ويهجموا على مناطق

---

1) ل . بروفنسال ـ تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 153 ـ 162
2) ارشبالد لويس ـ ص 229 ـ 230 و ص 59 ـ 60

" الفلانتينوا " valentinois و " الفينوا " le viennois

ووطئت اقدامهم سلسلة جبال الالب واحرقوا اديرة عديدة وسبوا اهلها وتعرضت "ابوليا" و"قلبريا" لنهبهم وقطعوا الطريق المؤدية الى روما بل ان روما نفسها لم تسلم من النهب والسلب، مما اضطر "نابلي" و"امالفي" و"سلرنو" و"جايتا" وغيرها من المدن الايطالية الى عقد تحالف مع المسلمين عند القيام بمشروعات بحرية (1) وذلك لان تجارتها قد كانت تتعرض هي الاخرى لنهب هؤلاء القراصنة.

ولا ريب في ان العديد من الاسرى والرهائن قد وقعوا في ايديهم وبيعوا في قواعدهم او ببعض المدن الاسلامية فقد كان كل حاج يخترق جبال الالب ذهابا الى روما يتعرض الى الوقوع في اسرهم وكل مركب يقلع من موانئ جنوب شرقي فرنسا متجها نحو الشرق يقع في ايديهم قبل ان يتوغل في البحر لان هؤلاء القراصنة يكادون يملكون كل الجزر ويصيرونها اعشاشا للقرصنة وهكذا كان الحجيج الفرنسيون الراغبون في الذهاب الى القدس يفضلون السفر من احدى

---

1) خوان بيرنيط - هل هناك ..... ص78-76 ل - بروفانسال - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 2 ص 153 - 162
ارشبالد لويس - ص 47

موانـي ايطاليـا ليخلوا من سطوة العرب المسيطرين في الغرب (1)

وقد تواصل عمل هذه القرصنة الاندلسية طوال قرن من الزمان استطاعت خلاله ان تزود الاسواق الاسلامية بما كانت في حاجة اليه من اصناف الرقيق. وبالرغم من ظهور بعض المحاولات لايقاف اعمالهم فانهم تمكنوا من الصمود لها فقد هاجمهم الاسطول اليوناني سنة (931م /-319 - هـ) لكن دون جدوى اذ هجموا بعد ذلك اي سنة (-328 - هـ / 939 م) على كنيسة القديس غول saint.Gall طمعا في ثرواتها وجهزت ضدهم حملة اخرى اشترك في تنظيمها " هوى " " HuGue " ملك ايطاليا و " روسان ليكابان "R. Lécapène (919-944م/307-332هـ) امبراطور الروم سنة (331 هـ/942م) فحققت هذه الحملة بعض النجاح اذ اضعفت تاثيرهم لكنها لم تطردهم نهائيا من فركسيدتوم (2) وفي تلك الاثناء استحملهم " هوى " HuGue في محاربة " برنجار " - Berenger

---

1) هايد - Heyd - = تاريخ تجارة الشرق ج 1 ص 92 - 93

2) ل - بروفنسال - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 153 - 162

منافسه على عرش ايطاليا (1) وكان لا بد من الانتظار الى سنة 972 م او سنة 973 م وهي الظروف التي توفي فيها " اتون الاكبر" Otton.Le.Grand حتى يطرد اتباع الملك السكسوني القراصنة المسلمين من جنوب فرنسا ومناطق الالب ويحطموا قاعدتهم (1) وبالرغم من ذلك لم تسلم "بيزا" بعد ذلك بقرن رغم قوتها البحرية من التعرض للنهب مرتين في عامي (-395- هـ/ 1004 م) و (-401- هـ/ 1011 م) والواقع انه حتى احتلال النورمانديين لصقلية لم تستطع اية دولة ساحلية ان تعيش في امان دون ان تستهدف لغارة اسلامية. وللتخلص من اعتداءات هذه القرصنة اتحدت برشلونة وبيزا في احتلال مدينة " بالما الميروقية " Palma de Mallorca عام (-503- هـ/ 1114 م) وقد كان هذا الاحتلال بالرغم من صبغته الدينية الوقتية ايذانا ببداية السيادة المسيحية على الجزء الغربي من البحر المتوسط (2)

---

1) ل ـ بروفنسال ـ تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 2 ص 153 ـ 162

2) خوان بيرنيط ـ ما هناك ..... ص 73 ـ 76

ب) نشاط القرصنة التجاري

هكذا كانت القرصنة الاسلامية اذن تزود الاسواق بكميات وفيرة من الرقيق وتمثل احد مصادره الهامة بالاضافة الى مصدري الجلب والاسر واذا ما كان هذان المصدران الاخيران يتعرضان في بعض الاحيان بسبب ظروف الحرب والسلم الى صعوبات تهدد بتعطيلهما او نضوب معينهما فان هذا المصدر يتمتاز بدوامه في حالتي السلم والحرب وبقدرته على تزويد الاسواق في كل الظروف وذلك بالرغم من التشتت في قواعدها وتفرق اعشاشها ، فقد كانت كل مجموعة من هؤلاء القراصنة تعمل لحسابها الخاص ويستقل كل عش منها بذاته عن غيره ولم يكن نشاطها محكم التنظيم وانما كان يشبه نشاط " قراصنة البحر الكاريبي في القرن السابع عشر اكثر من نشاط القوات البحرية المنظمة تمام التنظيم ، فحاكم باري او حتى

.../...

امير كريت او ليو حاكم طرابلس قد عملوا في البحار بطريقة لا تختلف عن الطريقة التي جرى عليها هنري مورجان في بورت رويال بعد ثمانية قرون " (1) .

لكن هذا النشاط رغم ما اتسم به من قلة تنظيم قد امكنه الاستمرار في اوقات توقف فيه نشاط الفتح وتمكن من تزويد اسواق النخاسة في فترات الهدنة التي يتعطل فيها الصدام بين المسلمين واعدائهم اذ لم يكن بوسع الحكومات الاسلامية منع هؤلاء القراصنة من ممارسة نشاطهم وفرض احترام حالة السلام عليهم فقد كانوا يشوشون بل يقطعون فترات المهادنة التي كانت تحدث من حين لاخر بين المسلمين واعدائهم من الممالك النصرانية خاصة ويتدخلون بعملياتهم بين الطرفين ويؤثرون في علاقاتهما السياسية والحربية مثلما فعلوا ذلك مع الاغالبة والكارولنجيين (2) او مع العباسيين

---

1) ارشبالد لويس ـ ص 52

2) محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية ص 403 ـ 414

والبيزنطيين عندما شوشوا عمليات الفداء بين المعسكرين (1) فلم يكونوا يمتثلون لقرارات السلطة المركزية شانهم في ذلك شان كل القراصنة في كل زمان (2) لا تقدر السلطة الشرعية في بلادهم على اخضاعهم لضمان حرية الملاحة وصيانتها. ويجب ان ننتظر القرن الرابع عشر للميلاد لكي تظهر لاول مرة تدابير لحماية الملاحة كتعهد الدول التي ينتمي اليها القراصنة بجبر الخسارة وتعويض الضرر الذي يلحقون بدول اخرى وكفرض رخص مؤقتة للنوتية لا يمكن تجاوزها والا اعتبروا قراصنة وتعرضوا للعقاب (3) اما قبل هذا التاريخ فلم تكن الحكومات الرسمية قادرة على التحكم فيهم.

وقد تواصل تزويد القرصنة الاسلامية للاسواق بالرقيق في حالة الحرب ايضا وربما كانت بضائعها او على الاصح

---

1) ماريوس كاتار ــ بيزنطة ــ فصل - 12 - ص 54 ــ 55
2) ل ــ بروفنسال - Provençal - ج 2 ص 153 حيث يذكر امثلة من قراصنة اخرين مثل الكاتالانيين وغيرهم وهم لا يخضعون للسلطة المركزية التي يعيشون في ظلها
3) ر ــ كواندرو - القراصنة - ص 13 ــ 22

غنائمها ورهائنها اوفر في مثل هـذه الظروف العدائيـة وذلك لان السلطة الرسميـة اذا ما كانت لا تتدخل في شؤونهم ولا تقدر علـى اخضاعهم في حالـة السلم خوفـا منهم وعجزا عنهم فانهـا فـي حالات الحرب تصمت عن عملياتهم بل تراهـا مناسبـة لانهـا تستعملهـم اذاك لصالحها وتستعين بهم على الحروب البحريـة فكم من قرصـان قد صار قائـدا لقـوة بحريـة تحت اشراف امـير او دولـة ذات سيادة وقديمـا كان قـيوم الثاني Guillaume (1087 - 1100م) بانكلترا يستعمل " قراصنة الملك " لحمايـة المياه الاقليميـة (1).

وهكذا بالرغـم من ان اعشاش القرصنـة الاسلاميـة قد كانت شبـه مستقلـة عن الحكومـات الرسميـة فان هـذا الاستقلال يؤول الى اتحاد في مواجهـة عدو واحـد والى تكامـل في المجهودات ابان حالـة الحرب ويصبح القراصنـة اذاك متفقين

---

1) ج ـ جانال g. Jeannel ـ القرصنة ص 29 ـ ر ـ كواندرو ـ قراصنة ـ ص 13 ـ 22

للدعم من قبل حكوماتهم فباري مثلا تبدو معتمدة على اقريطش وربما على افريقية ايضا الى حد ما وموت جاريجليانو على صقلية وفركسينتوم على اسبانيا في دعمها وشد ازرها والظاهر انه كان دائما لجزيرة اقريطس علاقات متينة مع مصر رغم ما يحدث بينهما من عداء احيانا كما جرى سنة (291- هـ/ 904م) وسنة (323- هـ/ 935 م) (1) اضف الى ذلك ان القراصنة قد كانوا يبيعون اسراهم وسبيهم بموانئ البلاد الاسلامية ويسمح لهم بالاتجار فيها وهو دليل على المساندة والدعم الذي مكنهم من القيام بنشاط تجاري متواصل في الوقت الذي كانت فيه العمليات التجارية العادية تلاقي بعض الصعوبات بسبب اجواء التوتر في العلاقات الدولية.

ومن الامثلة الشاهدة على مساندة الحكومات الاسلامية لعمليات القرصنة ان حكومة قرطبة قد كانت راضية عن القراصنة

---

1) ارشبالد لويس ـ ص 52 وص 61

الاندلسيين ومشجعة لنشاطهم وان لم تكن هي التي اشرفت على بعثه وتنظيمه ولم يكن شانها في ذلك مختلفا عن موقف السلط الاسلامية الرسمية الاخرى من اعشاش القرصنة المجاورة لها كما كانت الامارات البحرية في العالم النصراني تتصرف مثل هذا التصرف مع قراصنتها.

ومما يدل على وجود صلة بين حكومة قرطبة في هذا العهد والقرصنة الاندلسية اشتراك العديد من اهل الذمة المقربين الى الخليفة في عملياتها (1) وعندما تتدخل الامبراطور " اتون الاكبر " Otton.Le.Grand(936 - 973 م)في منتصف القرن الرابع للهجرة لدى عبد الرحمان الناصر(300-350هـ/912-961م) لايقاف عمليات القراصنة الاندلسيين محملا اياه مسؤولية تصرفاتهم رد الناصر على طلبه بان ارسل اليه سنة (340- هـ/ 950م) مع اسقف من اهل الذمة رسالة حادة اللهجة اثارت استياء الامبراطور وحاشيته فسارع الامبراطور بارسال كتاب اخر الى الناصر بتحرير اخيه " برونو" Bruno رئيس أساقفة كولونيا وكلف راهبا

---

1) ل ـ بروفنسال - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 2 ص 153 وما بعدها ـ ج ـ مارسي - بلاد البربر ص 225 228

بدير "جورس" Gorze بمقاطعة "لورين" Lorraine يدعى "يوحنا" Jean بالذهاب الى قرطبة وابلاغ الرسالة وعند وصوله اعلم الناصر بمحتوى الرسالة وهو حسب ما ورد في ترجمة "يوحنا دي جورس" طلب معاهدة صلح وسلم تضع حدا لهجومات القراصنة العرب. فراى الخليفة ذلك تحديا له ورفض استقبال الرسول (1)

---

1) ل ـ بروفنسال L.Provençal ج 2 ص 153 ـ 162 ـ ر ـ بوبردان R.Poupardin ـ ص 95

ومما يروى في هذا الصدد ان الناصر قد اشترط قبول الهدايا التي اصطحبها الرسول معه فقط لكن الرسول رفض ذلك ، وفي هذه الظروف قرر الناصر ان يرسل بنفسه رسولا الى ملك المانيا وقد قبل "روسيموندو" Recemundo - ان يضطلع بهذه المهمة، و "روسيموندو" هذا هو ربيع بن زيد وهو من اهل الذمة وكان له دراية بالعربية واللاتينية وقد عمل في دواوين الخلافة قبل ان يصبح اسقفا بالبيرة كما شارك في اعداد الرزنامة العربية اللاتينية لسنة (350 - هـ/ 961م) وهي المسماة برزنامة قرطبة وقد شارك فيها عريب بن سعد واهديت الى الحكم الثاني (نشر ـ ر ـ دوزي R. Dozy - دراسة حول "روسيموندو" في Z.D.M.G عدد XX سنة 1866 ـ ص 595 ـ 609) وسافر ربيع بن زيد في ربيع سنة (344 - هـ/ 955 م) ووصل الى دير "جورس" Gorze حيث استقبله رئيس دير واسف متز MEZ ثم سافر الى فرانكفورت حيث بلاط الامبراطور وهناك تعرف على "لومبار ليوتبراند" Lombard. Liutprand - وحثه على كتابة تاريخه "الانتبودوزيس" Antapodosis فكتبه واهداه له واستقبل الامبراطور "اتون الاول" Otton I رسول الناصر استقبالا حسنا وطلب منه ان يرجع الى الخليفة مرفوقا برجل يدعى = "دودون دي فردون" Dudon. de verdun فوصلا الى قرطبة في اوائل شهر جوان سنة (345 - هـ/ 956 م) وعندما بلغت "يوحنا دي جورس" Jean de Gorze معلومات اخرى من الامبراطور تنازل عن موقفه المتصلب واستقبله الخليفة ولا نعرف نتائج هذه السفارة لان نص ترجمة "يوحنا دي جورس" غير كامل (انظر ل ـ بروفنسال ج 2 ص 153 ـ 162)

وليس هذا هو المثال الوحيد من نوعه في الدلالة على حماية الحكومات الرسمية لمجهودات القراصنة ودعم نشاطهم التجاري. ويجدر بنا ان نقول بصورة عامة ان نشاط القرصنة قد كان يعتبر شرعيا اذا كان موجها ضد العدو ويصبح اذاك القراصنة جنودا رسميين تستخدمهم الدولة التي ينتمون اليها(1) ولئن لم تكن هناك علاقة مباشرة بين القرصنة والجهاد وبين الكنسية والقرصنة النصرانية - لان غاية هؤلاء التجار هي الغنيمة قبل كل شيء - فان القراصنة قد كانوا يضيفون جهودهم بطريقة او باخرى الى جهود ابناء وطنهم في حالات الحرب (2) ، وهكذا اتيحت الفرصة بفضل هذه الملابسات لتنشط اعمال القرصنة الاسلامية ويتسع نطاقها وتقوم بدورها التجاري في ميدان جلب الرقيق وغيره من البضائع حتى اتخذ نشاطها شكل العمليات المنظمة الخاضعة لاحكام الفقه الاسلامي ، فقد اخبرنا

---

1) ر - كراندرو - قراصنة - ص 13 - 22

2) ل - بروفنسال - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 1 - ص 244 - و 249 - و 355 - و ج 2 - ص 163 - وما بعدها

المالكـي و ابوالعرب (1) ان فقيهـا مشهورا هو يزيد بن محمـد الجمحي (ت 212 هـ / 827 م) الملقب بتاجر اللـــه لا يعتبر هـذه العمليات مكروهـة وقد مـات خلال عملية قرصنـة وقع القيـام بها ضد المصيصـة وقد قتلـه الاعـداء الصقلـيون فـي البحر ، ويستنـد الملكي الى هذا الخبر ليؤكد عدم وجـود هدنـة فـي ذلك الوقت بين افريقيـة وصقليـة ، وقـد حفظ لنـا ابن ابي زيـد القيروانـي (ت- 386 هـ/ + 996 م) نصا يتعلـق باستفتـاء وجـه الى سحنون (ت 240 هـ/ -854- م) في تاريخ لا نعلمـه بالضبط في شان ثلاثـة شركاء اختصموا في قسمة الغنائم بعد القيـام بعمليـة قرصنـة ، وهذا النص يـدل على ان القرصنـة صارت عمليـة جاريـة وعاديـة ومنظمـة باحكام فقهيـة (2)

---

1) المالكي- رياض ج 1 ص 162 ــ ابو العرب - طبـقـات - ص 85ــ86

2) محمد الطالبي ــ الامارة الاغلبية ــ ص 413 ــ 414- الكراسات التونسية عدد 15. ص 290 .

الفصل الثالث

الجلب او التوريد

١) - التجـــــارة الخـــارجيـــــة

انّ عمليـــة تـــزود العـــالـــم الاســـلا مي بمـادة الرقيـــق عـــن طريـــق التجـــارة تتمثـــل فـــي القيـــام بحلبـــها وتـــوريـــد هامـــن منـاطـــق غـــير اســـلاميـــة اي مـــن "بـــلاد الكفـــر" اومـــن "دار الحـــرب" بلعـــة دلـــك العصـــر . فهـــي اذن عمليـــة تجـــريـــة مرتبطـــة ارتبـــاطـا اسـاسيـــا بالعـــلاقـــات الخـارجيـــة الـــتي كـــانـــت سائـــدة بيـــن المسلميـــن والشعـــوب المحيـــطة بهم ســـواء أكـان ذلـــك فـــي أسيـــا أوأوروبـــا اوافريقيـــا . ولايخفـي ايضـا انّ روح العـــداء قـــد كـانـــت فـــي الغـالـــب مسيطـــرة علـى هـــذه العـــلاقـــات لأسبـــاب دينيـــة وسيـاسيـــة ممّـادعـا فقهـــاء المسلمـــيـن الـــى تشـــريـــع احكـــام خاصـــة بالمعـامـــلات التجاريـــة بـــيـن هـــديـن العالميـن المتعـاديـــن فـوضعـوا حـــدودا وقـوانـــيـن تنظـــم نشـــاط التـاجـــر المسلـــم فـــي دار الحـــرب والتـا جـــر الحربـي فـــي دار الاســـلام كمـــا تعرضـــوا الـــى نـوع البضـــائـــع المتبـادلـــة بيـــن الجانبـــيـن ومنهـــا بـ ـاعـــة الرقيـــق .

من المفيد اذن أن نتعرف أولا الى الاطار القانوني الذي اراد المشرع الاسلامي ان تندرج في نطاقه المعاملات المتصلة بالتجارة الخارجية وبعملية تسوريد الرقيق على وجه الخصوص. كما يكون من المفيد أيضا أن نتعرف على موقف الطرف المقابل أي دار الحرب من هذه المعاملات التجارية .

أ- موقف دار الاسلام

ان أول ما نلاحظه في اهتمام الفقهاء بهذا النوع من التشريعات التجارية اقرارهم بجوازها وان حرصوا على بيان الشروط.كما نستنتج من حد الهم الفقهي شهادة غير مباشرة على وجود معاملات تجارية بين المسلمين واعدائهم على صعيد الممارسة وفي حالتي السلم والحرب على حد السواء وان كانت ظروف الهدنة وفترات السلم أكثر تشجيعا على ازدهار هذه التجارة .

وقد كان مسلمو هذا العصر واعين بذلك ويمكن أن نذكر على سبيل المثال بما جاء في الرسائل التي تبادلها الخليفة المأمون (198-218 هـ/813-833م) والامبراطور البيزنطي تيوفيل - Theophile (213-227 هـ/829-842م) من ذكر لمنافع السلم التي تسمح باتساع رقعة التجارة بين الطرفين (1) ولم توقف الحروب مع ذلك سير المبادلات ممّا جعل الفقهاء يقرون جوازها في هاته الحالة ويشترطون وجوب "الأمان" فالتجار المسلمون لايدخلون دار الحرب الا بأمان وليس لهم اذا كان يسرفوا ولو امة مسلمة أحرزها العدو لأنه غدر والغدر حرام. ويمكن لهم أن يتعاملوا معهم بمعاملاتهم كأن يشتروا الأمة بالخمر والخنزير ولهم أيضا أن يتعاطوا معهم الربا (2) ويمكن للتاجر المسلم أن يحمل معه علاما أو علامين الى دار الحرب لحدمته اذا لم يكن منهما بنية بيعهما (3).

---

(1) فازيليف - العرب والروم - ص109 م. كانار - M. Canard - المسلمون وبيزنطة : ج 12 ص 62-64

(2) الشيباني - السير الكبير - ج 4 ص 1492

(3) السرخسي - شرح السير الكبير ج 4 ص 1572

لانه من الممنوع على تجار المسلمين بيع شيء من رقيق دار الاسلام للعدو. لأن الرقيق عدّة حربية كالخيل والسلاح فيها منعة للمشركين وقوة لهم على المسلمين (1).

ويجور للتاجر الحربي أن يدخل دار الاسلام بأمان أيضا فتنطبق عليه اداكة أحكام "المستأمن". وله ممارسة التجارة في حدود احترام بعض الشروط كالتحلي عن التعامل بالربا والخمر والخنزير في دار الاسلام (2) ومنعه من اخراج الرقيق الى دار الحرب للمتاجرة فيه فاذا ما اشترى عبدا كان عليه أن يبيعه قبل أن ينصرف واذا ما أسلم أحد عبيده الذين قدموا معه لم يكن له الحق في الرجوع به. كما لايحل له أن يشتري شيئا من الغنائم ولا ان يستبدل عبدا بآخر وكان من حقه بينما يمكنه بيع ما جلبه معه من رقيق الى دار الاسلام بعد أن يعشره العاشر. والعناية التي يرمي اليها المشرع من وراء هذه الأحكام منع كل مايتسبب في تقوية صف العدو

(3) يقول أبو يوسف :

(1) المرجع نفسه - خ 4 ص 1568
(2) المرجع نفسه - خ 4 ص 1492
(3) ابو يوسف - كتاب الخراج - ص 292 - ماريوس كانار - Marius. Canard
المسلمون وبيزنطة - فصل ×1× ص 35 . 56 - السياسي - السير الكبير - خ 4 ص 1575 و ص 1583 - 1584 .

" فان أراد هذا الرسول رسول الملك أو الذي اعطي الأمان ان يرجع الى دار الحرب فانهم لايتركون ان يخرجوا معهم سلاح ولاكراع ولا رقيق ممّا اسر من اهل الحرب. فان استروا من ذلك شيئا يرد على الذي باعه منهم وردّ اولائك الثمن اليهم . فان كان مع هذا الرسول أو الذي اعطي الأمان سلاح جيد فأبدله بسلاح أشر منه اودابة فأبدلها بأشر منها فدلك جائز. ولا بأس بان يترك يخرج بدلك وان كان أبدله بخير منه ردّ عليه سلاحه ودابته وردّ دلك الى صاحبه الذي ابدله. ولاينبغي للامام ان يترك احدا من أهل الحرب يدخل بأمان أو رسولا من ملكهم يخرج بشيء من الرقيق أو السلاح أو بشيء ممّا يكون قوّة لهم على المسلمين. فأما الثياب والمتاع فهذا ومايشبهه لا يمنعون منه"(1) .

---

(1) ابو يوسف - كتاب الخراج - ص 184

ويذهب الفقهاء الى أن من واجبات الامام السهر على تنفيذ هاته الاحكام واتخاذ التحريّات اللازمة باقامة مراكز مراقبة على الحدود تدعى "مسالح" لتفتيش التجار وهي عبارة عن مصالح حمركية تراقب بضائع التجار. فان وجد معهم رقيق أو سلاح ومنع ردّه الى دار الاسلام. يقول المؤلف نفسه: "وينبغي للامام أن تكون له مسالح على المواضع التي تنفذ الى بلاد أهل الشرك من الطرق فيفتشون من مرّ بهم من التجار فمن كان معه سلاح أخذ منه وردّ ومن كان معه رقيق ردّ ..... ولا ينبغي للامام أن يدع احدا ممّن أسر من أهل الحرب وصار في أيدي المسلمين يخرج الى دار الحرب راجعا الا ان يفادى به فاما على غير فداء فلا" (1).

---

(1) المصدر نفسه ـ ص190

هكذا حدّد الفقهاء أطار التعامل التجاري بين دار الاسلام ودار الحرب ولئن كان هذا الاطار يمنع منعا باتا بيع بعض بضائع المسلمين الى العدوّ كالاسلحة والدواب والرقيق فانه يشجع اتجار المسلمين والأجانب على حدّ السواء على توريد الرقيق وغيره من البضائع الى البلاد الاسلامية (1) كما تعتبر صيغة "الأمان" التي احازتها احكام الفقه الاسلامي مجالا فسيحا لتجار التوريد والتصدير. وذلك لأن قانون العداء والمسالمة قانون شخصي يلزم الافراد قبل ان يلزم البلاد التي ينتمون اليها ممّا يسمح للاجنبي بان يمكث في دار الاسلام طيلة المدة التي يمنحه اياه الأمان وان كانت بلاده في حرب مع المسلمين. وله أن يرجع الى بلاده في أمن تام مالم يحل شروط الأمان وهي أن لا يتجسس أو يفشي اسرارا أو يجبر العدو بموافع المسلمين (2).

(1) السرخسي - شرح السير الكبير - ج 4 ص 1575

(2) ماريوس كانار - Marius Canard - المسلمون وبيزنطة - فصل 19 ص 35 . 56 .

أضف الى ذلك أن سكان البلاد المرتبطة بمعاهدة سلم مع المسلمين يمكنهم دخول دار الاسلام دون اذن خاص كما كان الشأن بالنسبة الى قبرص وارمينية مثلا. كما انه بامكان الاجنبي المنتمي لبلاد ثالثة والمستقر بالبلاد المعاهدة أن يدخل بلاد الاسلام اذا لم تكن بلاده في حرب مع المسلمين. وبذلك يمكن لليوناني القادم من قبرص أو من ارمينية مثلا أن يدخل بلاد الاسلام في ايام الهدنة مع البيزنطيين . وربما كان هذا التشريع مؤسسا على المعاهدة التي عقدها الرسول مع "ايلة" وهي تنص على انها تشمل من كان بها من الشاميين واليمنيين (1) .

---

(1) حميد الله ـ وثائق حول الدبلوماسية ـ القاهرة 1941 ـ ص . 36 ـ رقم 3

السياسة الاسلامية .. لاهور - 1945 - ص 138 - 140

ويتسم التشريع الفقهي بمرونة واضحة ازاء اقامة التجار الاجانب بدار الاسلام وتبرز هذه المرونة على صعيد التطبيق خاصة.اذ كان هؤلاء التجار يحصلون دائما على "الأمان" (1) وكان تصرّف السلط مع التاجر الداخل دون أمان يتميّز بالتفتح والتسامح اذ بامكانه الرجوع الى بلاده اذا وقع الشك في نواياه ويسمح له بالدخول اذا اتضح أنه تاجر ولم يكن معه سلاح (2) واذا ما زعم التاجر أنه دخل بأمان ولم يمكنه اثباته كفاه أن يشهد على ذلك شاهدان مسلمان بأن أحد المسلمين قد منحه الأمان (3)

---

(1) الطبري - اختلاف الفقهاء - ص33

(2) خليل بن اسحق - المختصر - ح 1 ص 397 . 398

(3) الطبري - اختلاف الفقهاء - ص33

ودلك لأن لكلّ مسلم من الناحية المبدئية ان يمنح الأمان.لكن لامير الثغور أن يمنع الخواص من هذا الحق وهذا يعني في الوافع وجود ممثل للخليفة يجب الاسترخاص منه للدخول الى أرض الاسلام والتجارة فيها (1) ومن باب المرونة أيضا تمكين التاجر الذي لم ينه بيع بضاعته أو بقي عليه دين يريد تسديده من تمديد اقامته (2) واذا ما أراد الرجوع وكانت بلاده في حالة حرب مع المسلمين حملته السلطة الى مكان آمن.واذا مارجع عن طريق البحر ولكن عاصفة ارجعته الى سواحل المسلمين قبل عذره (3).

---

(1) ماريوس كانار - Marius - Canard - المسلمون وبيزنطة فصل x1x ص 35 . 56

(2) الطبري - اختلاف الفقهاء - ص 36

(3) المصدر نفسه - ص 34

ب - موقف دار الحرب

وقد فرضت ظروف العداء أن يكون لدار الحرب موقف مقابل لموقف التشريع الفقهي بدار الاسلام. وتعتبر التشريعات البيزنطية واحكام الكنيسة في هذا المجال أوضح تجسيم لهذا الموقف المقابل بسبب الصراع المتواصل بين الاسلام والمسيحية. فمثلما كان هناك منع من جانب المسلمين لتصدير بعض البضائع والمواد كالاسلحة والرقيق وحد منع أيضا من جانب البيزنطيين لتصدير هذه المواد وغيرها مما يتسبب في تقوية صفوف المسلمين وجيوشهم وأساطيلهم(1) وكان الاباطرة المسيحيون يتخذون الاجراءات الصارمة لعرقلة التبادل التجاري مع العرب المسلمين فمنذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة الثامن للميلاد سعى "شرلمان" Charlemagne (768-814 م/ 199-165 هـ) الى اتخاذ اجراءات من هذا القبيل وواصل هذا المسعى بعده البابا "زكرياء" Zacharie ثم البابا "أدريان الاول" Adrien 1er (2)

(1) ماريوس كانار - Marius Canard المسلمون وبيزنطة - فصل XIX ص35.56

(2) هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق - ج 1 ص95

وكـــان مـــن أهـــم هـــذه الاجـــراءات معـارضـة الكنيسـة ومنعهـــا لبيـــع المسحيـــين فـــي صـــورة رقيـــق للعـــرب المسلمـــين (1) .

وكـــان هـــذا المـــوت يعلـــو مـــن حـــين لآخر منبهـــا الـــى وجـــوب تحـــير تصـدير الـرقيـــق وغـــيره مـــن المـــواد الاستراتيجيـــة كـالعتـاد والخيـــل والمراكـــب الـــى البـــلاد الاســـلاميـــة مذكـــرا بالعـــداء القـائـــم بـــين المسيحيـــة والاســـلام ومحـــذرا مـــن تنميـــة طـاقـــة العـــدو الحربيـــة والاقتصـاديـــة.

فقـــد اخـذ البـابـا "جريجـــوار السـابـع" Gregoire VII احـــراءات مـــن نفـــس العبيـــل وعمـــد دوق "حنـــوة" و "البندقيـــة" الـــى تحـــير تصـدير الرقيـــق والحشـــب والســـلاح الـــى العـالـــم الاســـلامي (2) وقـــد منعـــت سيرنطـــة مرتـــين التجـــارة مـــع ســـوريـــا ومصـــر ودلـــك

سنين عـام (199 هـ/ 814م) وعـام (204 هـ/ 820م)

(1) برنشفيـك . Brunshvig ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ معان عدد ـ ج 1 ص33

(2) انظـر .أ.شاوبي- تاريخ الشعب الروماني ....

2)- A.Schaube - Handelsgeschichte der Romanischen Völker des Mittelmeergebiets bis Zum Ende der Kreuzzüge - Munich - Berlin - 1906 - pp 22 - 23.

وكـدلـك . أ.أ.سايوز- تجارة الاوروبيين بتونس من القرن الثاني عشر الى القرن السادس عشر - باريس - 1929 - ص 36

- A.E. Sayous - Le commerce des Européens à Tunis depuis le XII è siècle jusqu'à la fin du XVI è - Paris 1929 - p 36.

وكذلك في عهد "باسيل الثاني" Basile II (366-416هـ/976-1025م) سنة (405-406هـ/ 1015 . 1016م). وكانت هناك مراقبة لما يخرجه تجار الشام من القسطنطينية وتحديد لاقامتهم بها بثلاثة أشهر (1).

لكن العلاقات التجارية بين العالمين المسيحي والاسلامي قد وجدت رغم تحريمها رسميا. ففقد "كان لطلب الربح ولروح المبادرة من القوة والحتمية ما جعل الاحترازات الدينية والتحفظات غير قادرة على منع المدن البيزنطية بايطاليا ومدينة البندقية من استعمال ملاحتها لتجديد الصلات التي كانت بينها وبين افريقيا والشام وان أصبحت هذه البلدان في يد الكفار ..." (2)

كما أن مختلف التحريمات التجارية التي اقرتها السلط الاسلامية من ناحيتها لم يقع احترامها ولم تنجح في ايقاف النشاط التجاري بين المعسكرين المسيحي والاسلامي (3)

(1) ماريوس كانار Marius Canard المسلمون وبيزنطة ـ فصل XIX ص35-56

(2) بيران H. Pirenne محمد وشرلمان ـ ص14

(3) نجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ـ ص118 ـ 119

بل لعل أجراءات المنع المتخذة من كلا الطرفين دليل في حد ذاته على وجود تيار من المبادلات التجارية على صعيد الواقع يصطدم من حين لآخر بعراقيل مبدئية مستوحاة من روح العداء العقائدي والسياسي . وهكذا فان الواقع التاريخي يدل على وجود علاقات تجارية بين دار الحرب من ناحية والعالم الاسلامي شرقه وغربه من ناحية أخرى كما يدل على ان الرقيق قد كان وسيلة هامة من وسائل هذا التبادل التجاري .

ج - واقع التجارة الخارجية

لعله قد اتضح اذن مما سبق أن ظروف التجارة الخارجية الاسلامية قد كان لها من النشاط في هذا العصر ما سمح لها بالتغلب على العراقيل التي حتمتها اوضاع الحرب وما خول لها تبادل المواد التجارية الضرورية للاقتصاد الاسلامي اذاك ومنها بضاعة الرقيق طبعا .

وقد أمكن ربط علاقات تجارية مع بيزنطة نفسها. وقد تحدث المقدسي عن تجارة المسلمين مع القسطنطينية ورأى أن هذا الواقع التجاري يدعو الى الحديث عن المسالك الموصلة الى هذه المدينة وعن الاماكن التي يقصدها التاجر المسلم بها فقال : "ويجب أن نذكر أسباب القسطنطينية لأن للمسلمين بها دارا يجتمعون فيها ويظهرون الاسلام بها وقد كثر الاختلاف والكذب فيها وأمر البلد ومساحته وبنيانه فرأيت ان اصور ذلك للعيون وأوضحه للقلوب واذكر الطرق اليها لحاجة المسلمين الى ذلك وقصدهم في شراء الاسارى والرسالات والغزو والتجارات" (1).

---

(1) المقدسي - احسن التقاسيم - ص147 - 148

فبالرغم من سيطرة المسلمين على البحر لم تكن لهم اية نية لفرض حصار اقتصادي على القسطنطينية فقد كانت "طبرزون " Trébizonde هي البوابة التجارية التي تمر بها البضائع الواردة من بلاد العراق وفارس الاسلامية الى بيزنطة (1) يقول ابن حوقل متحدثا عن تجارة المسلمين مع الروم البيزنطيين عن طريق "طرابزندة " وارمينية مايلي " ولهم مدخل الى بلد الروم يعرف بطرابزندة وهي مدينة يجتمع فيها التجار من بلد الاسلام فيدخلون الى بلد الروم منها للتجارة ويخرج اليها خليج من القسطنطينية الى البحر المحيط ولملك الروم على صاحبه المقيم بطرابزندة في وقتنا هذا مال جسيم كان في الأول دونه كثيرا ..... واكثر ما يخرج الى بلد الاسلام من الديباج والبزيون (2)

---

(1) الاصطخري - المسالك والممالك - ص 462 - المسعودي - مروج الذهب ج 2 ص 3 - ارشيبالد لويس ص 73 - 74.

(2) قماش حرير ذو وسم - انظر - اسكندر صايبل A.Seippel - اخبار أمم المجوس ص 57 - احالة رقم 3

وثيـــاب الكتـــان الـــرومـــي وثيـــاب الصـــوف والأكسيـــة الـروميـــة فمـــن آطـرابـزنـــدة " (1) هـــذا فصـــلا عـــن وجـــود منـافـــد اخـــرى . وكـانـــت هنـــاك تجـــارة عـــن طريـــق البـــرّ بـــين الشـــام وبـــلاد الـــروم تشهـــد بـــذلـــك المعـاهـــدة الـــتي ابـــرمـــت سنـــة (358 هـ/ 969م) بـــين بيزنطـــة وامـــارة حلـــب وتشتمـــل هـــذه المعـاهـــدة على بنـــود تجاريـــة تهـــمّ المكـــوس وفيهـــا ذكـــر للبضـائـــع ومنهـــا البهـــائم الآننـــا لا نجـــد فيهـــا ذكـــرا للرقيـــق (2) .

وقـــد حـــدد دور أرمينيـــة التجـاري في البيـــان الـــذي أرسلـــه الملـــك " ســـنبـــاط" Sembat (277 - 302 هـ/890-914م) الـــى الافشيـــن (ت 309 هـ/ + 921م) (3)

---

(1) ابن حوقـل ـ المسالك والممالك ـ المكتبة الجغرافية العربية ـ طبعة ـ دي غوية De Goeje ـ ليد Leyde 1873 ـ ص 245 ـ 248 اسكندر صايبـل Alexander Seipel - اخبار ائمة الخوارج ص 55 ـ 60

(2) ماريـوس كانـار ـ = Marius Canard المسلمـون وبيزنطـة ـ فصـل XIX ص 35 ـ 56

(3) هو محمد بن ابي الساج كانت امارته على ارمينيـة وادربيجان في عهد الخليفـة المعتضد (279 - 289 هـ/ 892 - 902م) اواخـر القرن الثالـث للهجـرة .

والـــــي اذربيجـــــان وأرمينيـــــة عنـــد مـا لامـه علـــى امضـــاء معـاهـــدة مـــع ليـــون السـادس Léon VI (273-300 هـ/886-912م) وقـد جـاء فـي هـذه الرسـالـة تبريـــر الملـــك لتصرفـــه بـأنـــه كـان يـرمـي الـى حلـــب الأشيـــاء الثمينـــة الـــى الحليفـــة وتوفيـر الربـــح للتجـــار المسلمـــين (1) وكـانـت هنـاك مـبـادلات تجـاريـــة نشيطـــة أيضـــا بـــين العـــرب وبيزنطـــة عـن طريـــق الخـــزر ولـدينـا شـــواهـد عـديـــدة علـــى وجـــود نشـــاط تجـــاري بـــين بيزنطـــة ومصـــر عـن طـريـــق البحـــر وموضـــوع هـاتـــه التجـــارات المنسوجـات الـــتي تصـدّرهـــا دميـــاط وتنيـــس وفـــرمـا. وقـد ذكـر نـاصـر خسـرو الـذي زار مصـر سنـة (439- هـ/ 1048م) أن الامبراطور البيزيطـــي قـد منـح مـائـة مدينـــة مقـابـل أخـذ مدينـــة تنيـــس بسبـــب جـــودة منسوجـاتهـا. والمعلـومـات الـتي لدينـا حـــول تجـارة المسلمـين مـع البيزنطيين ليس فيهـا تفصيل لنـوع البضـائـع المبادلـة. ولا نجـد فـي كتـاب الجـاحـظ (2)

(1) مـاريـوس كـانـار Marius Canard — المسلمون و بيزنطـة — فصل XIX ص 35 — 56

(2) الجـاحـظ — التبصـر بالتجـارة — ط. دار الكتاب الجديد 1966.

ذكرا للمواد المستوردة من بيزنطة. وكل ما نعلمه هو أن مادة هذه التجارة كانت تشتمل على استيراد الخشب رغم منعه ونعلم أيضا ان تجارة الرقيق كانت مزدهرة عند كلا الطرفين فهل حدث تجاوز المنع بالنسبة الى الرقيق أيضا ؟ (1)

ومهما يكن من أمر تعطل هاته العلاقات التجارية الرسمية فان تيارا تجاريا غير رسمي قد حل محله ونما تدريجيا حتى أمسى له نشاط كبير (2) ذلك ان التجار الاوروبيين قد كانوا متهافتين على تجارة الترف الشرقية وما تدره مواد ها من أرباح وكانوا يخرقون تعاليم الكنيسة ويبيعون الرقيق المسيحي للمشرق والمغرب الاسلاميين ويستوردون منهما بضاعة الشرق ومنتوجاته (3)

(1) ماريوس كانار - Marius Canard المسلمون وبيزنطة - فصل XIX ص 35 - 56

(2) نحاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي - ص 118 - 119

(3) هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق - ج 1 ص 95.

كما نعلم عن طريق ابن خرداذبة أنّ اليهود الرهادنة كانوا يمارسون تجارة الرقيق المحرّمة بين العالمين الاسلامي والمسيحي وكانوا عند رجوعهم من الصين يبحرون من فرما امّا الى القسطنطينية او الى رومة (1)

ولعله لم يكن للنشاط التجاري غير الرسمي أن يستمر لولم تكن السلط السياسة تغض الطرف عن وجوده بل ان هذه السلط قد ساهمت احيانا في تدعيم هدا النشاط التجاري (2) كما تحسم ذلك في التحالف الذي تم بين الجمهوريات الايطالية الصغيرة وهي نابل - Naples وجيتا « Gaëte » وسورنتو - Sorrento - وملف (امالفي) - Amalfi ومسلمين صقلية سنة (215 هـ/ 830م) أو سنة (220 هـ/ 835م)

---

(1) ابن خرداذبة - المسالك والممالك - ص = 49 - 50
- ماريوس كانار - Marius Canard المسلمون وبيزنطة - فصل XIX ص35 - 56

(2) نحاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي - ص118 - 119

وقد دام هذا التحالف قرابة خمسين عاما على الرغم من لعنات الكنيسة واحتجاجاتها والسبب في هذا التحالف وعي الجانبين بمصالحهما الاقتصادية المتكاملة وحرصهما على ايقاف حالة الحرب من أجل ذلك كما أن تلك الجمهوريات كانت تريد المحافظة على استقلالها عن امراء (بنفنت) Benfent المسيطرين اذاك على جنوب ايطاليا وهم من اللومبارديين التابعين للدولة البيزنطية . ولم تكن تلك الجمهوريات تتوقع أي مساعدة من الدول المسيحية لردا طماع امراء (بنفنت) Benfent فتحالفت مع المسلمين (1) وكان من نتائج هذا التحالف أن وحدت صلات تجارية متينة بين ايطاليا وصقلية والمغرب الاسلامي وأمكن لتجارة البرنس التي كانت تمر صادراتها عن طريق ايطاليا أن تجد مجراها الى العالم الاسلامي .

(1) العبادي - تاريخ البحرية الاسلامية - ص 129 130

ارسيبالد لويس - Archibald Lewis - السيادة الاسلامية - ص 27 (ويذكر أن التحالف مع نابولي - Napoli - كان سنة (- 222 - هـ 837م) .

تلك هي في الحملة الطروف التي كانت تعيشها التجارة الخارجية الاسلامية عموما وتجارة الرقيق على وجه الخصوص وهي طروف لم تخل من صعوبات اعترضت سبيل التجارة لاسيما بين العالمين الاسلامي والبيزنطي الا ان المصالح الاقتصادية قد استطاعت كما رأينا ان تتغلب عليها حتى في حالات الحرب . اضف الى ذلك ان تجارة الرقيق لم تصادف مثل تلك الموانع والعرقيل في المعاملات مع شعوب اخرى غير مسيحية بافريقيا وآسيا وذلك لاختلاف اوضاع تلك الشعوب حضاريا عن وضع البلاد الخاضعة لبيزنطة ولاختلاف ميزان القوى أيضا بينها وبين العالم الاسلامي بينما كاد ان يكون ذلك الميزان متعادلا في هذا العصر بين الروم والمسلمين - فسر هذا الاختلاف حضاري في جوهره سواء اكان ذلك على صعيد التشريع أو على مستوى واقع المبادلات التجارية .

2) - مصادر الرقيق المجلوب

ان الرقيق المجلوب الذي كان المسلمون يستوردونه من الامم الاجنبية عنهم مختلف المصادر فمنه ما كان يمثل الاسرى الذين يؤسرون في غارات الشعوب والقبائل البدائية على بعضها بعضا سواء اكان ذلك بآسيا او اوروبا او افريقيا . وهي شعوب كانت اذاك اقرب الى التوحش واشبه بالبرابرة اذا ما قيست بالعالم المتحضر المتمثل اذاك في العالمين الاسلامي والبيزنطي . فقد كان المتغلب من قبائل تلك الشعوب يبيع اسرى الشعب المغلوب لتجار الرقيق فيعمل هؤلاء على تصديرهم الى المسلمين او البيزنطيين طلبا للارباح . ففي البلاد الاوروبية كان سر التناحر بين تلك الامم موجات الهجرة التي عرفتها شعوب الشمال في زحفها نحو اواسط اوروبا وجنوبها واكتساحها لسكان تلك المناطق مما احدث تصادما وصراعا متواصلا معها . ونعني بهذه الهجرة نزوح الجرمان ثم النرمان من مواطنهم الاصلية بالشمال الاوربي واطلاقهم يد النهب والاغارة فيمن اعترض طريق توسعهم من الاجناس الاوروبية الاخرى (1) وقد كان هذا التناحر مصدرا خصبا بالنسبة الى تجارة الرقيق و مزودا هاما للمسلمين بهذه البضاعة .

---

1) العدوي - المسلمون والجرمان - ص 30 - 40

وكانت قبائل السود بافريقيا تغير على بعضها بعضا وتبيع اسراها الى التجار المسلمين.فممّا وصفه البكري نقلا عن هذه الفترة من التاريخ وعلى وجه التدقيق عن منتصف القرن الرابع للهجرة تناحر قبائل السودان وغاراتهم على بعضهم بعضا واستعانتهم في هذا العداء بامير ((اودغست)) الصنهاجي . يقول البكري ((وكان صاحب اودغست في عشر الخمسين والثلاثمائة : من يورتان بن ويسنو بن نزار رجل من صنهاجة وكان قد دان له ازيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدي اليه الجزية وكان عمله مسيرة شهرين في مثلها في عمارة يعتد في مائة الف نجيب . واستمده بعربي (؟) ملك ماسين على ملك اوغام فامدّه بخمسين الف نجيب فدخلت بلاد اوغام وعساكره غافلة فغنمت البلد واحرقته فلما نظر اوغام الى ماحل ببلده هان عليه الموت فرمى بدرقته وثنى رحله عن دابّته و جلس عليها فقتلته اصحاب من يورتان فلما عاين نساء اوغام اليه قتلا تردين في الابار وقتلن انفسهن بضروب القتل اسفا عليه وانفة من ان يملكهن البيضان)) (1) ويقول ياقوت عن احد ملوك زغاوة ان ((يده مطلقة في رعاياه يسترق من شاء منهم . . . واكثر رعاياه عراة مؤتزون بالجلود . . . وديانتهم عادة ملوكهم يعتقدون انهم الذين يحيون ويميتون ويمرضون ويصحون)) (2) في مثل هذه الرحال كانت قبائل السودان تعيش

---

1) البكري ـ المغرب ـ ص 159

2) الحموي ـ معجم ابلدان ـ طبعة بيروت 1376 هـ/1957م) ج 3 ص 142. 143

وكان البربر يتدخلون فيما ينشب بينهم من نزاع ويؤججونه فغالبا ما يسفر على مجموعات غفيرة من الاسرى يباعون في شكل رقيق.

وجرت العادة ايضا بين قبائل آسيا الوسطى وشعوبها ان يغير فيها القوي على الضعيف فيسبى النساء والاطفال ويؤسر الرجال فيبيع الغالب من بيده منهم رقيقا الى التجار (1). وقد اشار الحموي الى رقيق بلاد التركستان او ما وراء النهر وهو رقيق يحمل الى ذلك الاقليم من الاتراك المحيطة به يقول في ذلك ((واما الرقيق فانه يقع اليهم من الاتراك المحيطة بهم ما يفضل عن كفايتهم وينقل الى الافاق وهو خير رقيق بالمشرق كله)) (2) كما ان ولاة العباسيين بخراسان كانوا يغيرون على من لم يسلم من الاتراك ويسترقونهم وقد ذكر البلاذري ان الخليفة المأمون (198 - 218هـ/813 - 833م) كان منذ ولايته على خراسان يسلك هذه السياسة واتبع الولاة بعده نفس السلوك واغرقوا فيه خصوصا منذ خلافة المعتصم (218 - 227هـ/ 833 - 842م) عندما ازدادت الرغبة في جلب الرقيق التركي (3).

---

1) عبد السلام ترمانيني - الرق ماضيه وحاضره ص 46

2) الحموي - معجم البلدان - طبعة بيروت 1955 ج 17ص291

3) البلاذري - فتوح البلدان - ص 606 - الاصطخري - المسالك والممالك - ص 291

ولم تكن الحرب وحدها مصدرا للاسترقاق عند هذه الشعوب بل اننا نجد اساليب عدائية اخرى غير مشروعة مثل الاختطاف الذي كانت تقوم به عصابات تغير على الاطفال والضعفاء وتهربهم الى اماكن بعيدة لتبيعهم (1) وكان اليهود الرهادنة يختطفون الاطفال في الممالك الاوروبية ويسرقون ابناء النصارى (2) ثم يحملون على خصائهم ويبيعونهم باثمان باهضة في الاندلس (3) وكان بعض التجار المسيحيين لا يتورعون عن بيع مواطنيهم رقيقا لعرب اسبانيا وافريقيا وسوريا (4) وقد ذكر العمري ان سرقة الرقيق الصغير السن كانت موجودة بين القبائل الافريقية وان سراق الرقيق كانوا من التجار وكانوا يحملونهم الى بلدة بالحبشة لخصائهم (5) ويشير الادريسي الى ان اهل الحبشة يسرق بعضهم ابناء بعض ويبيعونهم من التجار فيخرجونهم الى ارض مصر في البر والبحر (6)

---

1) موريس لنجلي - M. Lengellé - الرق - ص 24

2) موسوعة لاروس الكبير le Grand larousse مادة : الرق ج 4 ص 671

3) المرجع نفسه ج 4 ص 671

4) هايد Heyd - تاريخ تجارة المشرق . ج 1 ص 125

5) الشاطر بصيلي عبدالجليل - تاريخ وحضارات السودان - ص 509

6) الادريسي - نزهة المشتاق طبعة رومة 1970 السفر 1 ص 46

وقد ساهم التجار المسلمون في هذه السرقات ايضا فمن نشاط تجار البصرة انهم كانوا يحملون التمور الى سواحل افريقيا ويتجرون فيها وكثيرا ما كانوا يخدعون بها الصبيان فيسرقونهم ويرجعون بهم الى بلاد الاسلام (1) يقول الادريسي في ذلك ((وللعرب في قلوب الزنج رعب عظيم ومهابة فلذلك متى عاينوا رجلا من العرب تاجرا او مسافرا سجدوا له وعظموا شأنه وقالوا بكلامهم هنيئا لكم ياأهل بلاد التمر وان المسافرين في بلادهم يسرقون ابناء الزنج بالتمر يخدعونهم فينقلونهم من مكان الى مكان حتى يقبضون (كذا) عليهم ويخرجونهم من بلادهم الى البلاد التي يكونون بها ... وصاحب جزيرة كيش من بحر عمان يغزو بمراكبه بلاد الزنج فيسبي منها خلقا كثيرا)) (2).

ولم يكن الاسر والاختطاف المصدر الوحيد الذي يدر على تجارة الرقيق بضاعة وفيرة وانما كانت قوانين تلك الشعوب التي يستورد منها المسلمون بضاعتهم تسمح للفرد بان يبيع نفسه او احد افراد اسرته اذا الم به الفقر واشتدت به الحاجة . وكانت الامم القديمة تعمل بهذه السنة مثل الامم الاوروبية التي استمرت هذه العادة عندها حتى نهاية القرون الوسطى فظل بيع النفس والاولاد جاريا في فرنسا حتى القرن الخامس عشر للميلاد (3) وكان بعض التجار اليونانيين

---

1) المصدر نفسه ـ ج 1 ص 41 ـ سليمان العسكري- التجارة والملاحة في الخليج العربي ص 178

2) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ طبعة رومة 1970 ج 1 ص 61

3) ديكوجيس - H.DÉCUGIS - مراحل القانون ـ باريس 1946 ـ ص 17 ـ 18

من النخاسة يشترون ابناء اللومباردیین بایطالیا بسبب خصاصة تدفعهم الى بیع انفسهم (1) كما كان التجار الیهود یشترون ابناء النصارى من آبائهم الفقراء ویبیعونهم للمسلمین باسبانیا (2) وكانت القبائل السلافیة بشرق اوروبا وكذلك قبائل التتار المستوطنة بجوار بحر قزوین او بحر الخزر تبیع ابناءها ونساءها من جراء شظف العیش وضیقه (3) وممّا یذكر عن الدیلم ان ((الدیلمي یخرج من الدیلم الى حدود ما بین دار الاسلام والدیلم ومعه امراته واخوانه وعمّاته فیبیعهن صفقة واحدة ویسلمهن الى المبتاع لا تدمع عینه ولا عین واحدة من عیاله)) (4) .

وقد كانت الشعوب الاسیویة لا ترى كذلك باسا باتخاذ هذا السلوك فكانت تبیع النفس والاولاد لمن یشتري قصد التخلص من شبح الفقر والمجاعة . ففي الصین مثلا كان فقراء الفلاحین یبیعون نساءهم واطفالهم لمن یسترقهم (5) وقد روى ابن بطوطة عن رحلته ((ان اهل الصین

---

1) هاید - Heyd - تاریخ تجارة الشرق ج 1 ص 96
— Cenni - Monumenta Dominationis Pontificiae - I - p. 369

2) موسوعة لاروس الكبیر مادة رق ج 4 ص 671

3) الاصطخري — المسالك والممالك - القاهرة 1961 ص 133 القلقشندي — صبح الاعشي ج 6 ص 474 و ص 574

4) ابن القیم الجوزیة — اخبار النساء — ص 63 . 69

5) ول . دیورانت Durant - well - قصة الحضارة — ترجمة زكي نجیب محمود و محمد بدران — القاهرة 1956 ج 4 ص 272

يبيعون اولادهم وليس ذلك عيبا عندهم غير انهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ولا يمنعون منه اذا اختاروه)) (1) وكان مصير اللقطاء عند هذه الشعوب شبيها بمصير الاولاد المعروضين للبيع فابناء الزنا عندهم يباعون بيع العبيد (2) اما شعوب افريقيا السوداء فقد كان الفقر مستفحلا في بعضها وكانت حاجتها الى الاقوات ملحة جدا مما دفعها الى بيع ابنائها مقابل التزود بالاغذية.فهذه معاهدة ((البقط)) التي عقدها المسلمون مع النوبة تنص على تزويد اهل النوبة باقوات مقابل رؤوس من الرقيق (3) وقد تواصلت عادة بيع النفس والولد عند الافارقة الزنوج الى القرن السادس عشر للميلاد وازدادت استفحالا بتشجيع الاوروبيين لها الانهم كانوا يهدفون الى شراء اكبر عدد ممكن من العبيد فكانوا يغرون الفقراء ببيع انفسهم(4) وهكذا صار بيع النفس البشرية من جراء الخصاصة عاملا من عوامل ازدهار تجارة الرقيق .

---

1) ابن بطوطة ـ تحفة النظار ـ بيروت 1964 ص 632

2) الول - ELLUL - تاريخ مؤسسات العصور القديمة - باريس مطبعة الجامعة الفرنسية (P.U.F.) 1961 ص 39

3) برنشفيك Brunschvic - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ـ ج 1 ص 33

4) عبد السلام ترمانيني ـ الرق ماضيه وحاضره ـ ص 47

ويتصل بهذا المصدر من مصادر الاسترقاق عند الشعوب غير الاسلامية والمصدرة للرقيق الى بلاد الاسلام مصادر اخرى كالدين والجريمة فالدين كان يخول للدائن استرقاق مدينه وبيعه لاستخلاص حقه وترجع هذه العادة الى اقدم العصور اذ نجدها في قانون ((مانو)) بالنسبة الى الامة الهندية كما نجدها في قانون ((حامورابي)) بالنسبة الى حضارة البابليين وهي عادة يمارسها اليهود ايضا . وكان الشعب اليوناني يرى استرقاق المدين حتى تولى صولون = Solon - الحكم سنة (594 ق م) فابطل هذه السنة وحرر المدينين كما مارس الرومان هذه التقاليد باشد قسوة ونص عليها قانونهم فكان للدائن الحق في تقييد مدينه حتى صار يطلق على العاجز عن دفع دينه اسم ((نكسي)) - ((nexi)) - اي المقيّد (1) وكان العرب في الجاهلية يتوخون نفس السلوك بالنسبة الى المدين والقمار (2) لكن الاسلام ابطل هذه العادة .

اما الجريمة فقد كانت ايضا مصدرا من مصادر الاسترقاق فكان المجرم يسلم للمتضرر او لاهله فيسترقه وهو امر عرف في بلاد اليونان (3)

---

1) عبد السلام ترمانيني - الرق ماضيه وحاضره ص42

2) الاصفهاني - الاغاني - القاهرة - 1929 ج 3 ص 100

3) ديكوجيس Décugis - مراحل القانون Les Etapes de droit ص 17

ولون Wallon - تاريخ الرق - Histoire de l'esclavage dans l'antiquité ج 1 ص161

عبد السلام ترمانيني - الرق ماضيه وحاضره ص 44

وفي رومة القديمة (1) وكان عقاب الجاني عند عرب الجاهلية الخلع احيانا اي الفصل من القبيلة فيعرضه ذلك للرق (2) وكذلك اليهود كانوا يعاقبون السارق بالرق (3) ونصت قوانين آشور على ذلك ايضا (4) وكان عقاب المدلس والمحكوم عليه بالاشغال الشاقة والاعدام في ظل الامبراطورية الرومانية العليا استرقاقه وكذلك كان عقاب الحرة المتهمة بمعاشرة مملوك (5) ويقاس على ذلك العقوبة المسلطة على الهارب من الجندية او من دفع الضرائب (6) وقد ذكر البكري ان اهل "صنغانة" "وتكرور" "وسلى" "وقلنبو" "وترنقة" وهي مدن ببلاد السودان متاخمة للنيل قد كانوا يخيرون السارق بين البيع والقتل (7)

---

1) مونيي - R - Monier - مادي القانون الروماني = - Manuel Elementaire de droit Romain - باريس 1947 في جزاين ج 2 ص 140 . 141

2) الالوسي - بلوغ الارب في معرفة احوال العرب القاهرة 24 : 1 ج 2 ص 27

3) التوراة - سفر الخروج - 22 . 3

4) كرداسيا - Cardascia - القوانين الاشورية - Les Lois Assyriennes عن عبد السلام ترمانيني - الرق ماضيه وحاضره ص 43

5) مونيي R - Monier - مادي القانون الروماني Manuel Elementaire de droit Romain ج 1 ص 214 . 215 وص 311

6) المرجع نفسه ج 1 ص 13

7) البكري - المغرب ص 173

تلك هي الاوضاع التي سمحت بتوفير مادة الرقيق وتصديرها في صورة بضاعة تجارية واتاحت للمسلمين ان يجلبوها الى اسواقهم وان يتزودوا منها بحسب ما تستدعيه حاجتهم . ومن البسير على الباحث ان يتبين ممّا سبق من تحليل ان المجتمعات المصدّرة للرقيق كانت اكثر انهيارا وتدهورا حضاريا من المستوردة له . وهي شعوب غير موحدة ولا تستطيع حماية انفسها . فكانت علاقتها بالامبراطوريتين الاسلامية والبيزنطية علاقة الضعيف بالقوي والغني بالفقير (1) والمتمدن بالمتوحش فلم تكن قوانين وشرائع العالم المتحضر كالعالم الاسلامي اذاك تسمح بتلك الاساليب في استرقاق البشر بل نظمت هذه الظاهرة وحصرت مصادر الرق في الاسر في الحرب او الولادة في العبودية . امّا في غيرهاتين الحالتين فان الاسلام لم يجز استرقاق الحر لاي سبب من الاسباب وامر الدائن بان يمهل اخاه المدين (2) وجعل نصيبا في بيت المال ((للغارمين)) (3) ولا نجد كذلك في الاسلام علاقة بين الجريمة والاسترقاق . فالعقاب على الجنايات والجراحات لا يتجاوز القصاص او الحدّ او التعزير وبذلك ابطلت الشريعة الاسلامية عدة مصادر للرق تواصل وجودها في حضارات اخرى .

---

1) لومبار - M. Lombard - الاسلام في عظمته الاول L'Islam dans Sa Premiere Grandeur ص 194 : 204

2) قرآن - سورة التوبة - آية 60 - ابن كثير - التفسير - ج 14 . ص 317 . 318

3) قرآن - سورة البقرة : آية 280

الفصل الرابع

تحويد الصقالبة

1) الصقالبـــة :

الصقالبة جمع مفرده صقلب وصقلبي وصقلابي ونادرا ما يقال صقلاب بفتح الصـــاد او كسرها وكذلك يبدا الاسم بالسين بدلا عن الصاد . وهي كلمة معربة عن اللفـــــظ اليوناني Σχλαβηνοί, Σχλαοί (1) ويطلق المسلمون هذه التسمية على الرقيـق المنتمي الى الجنس السلافي اى الى ذلك الشعب الذى استقر على حدود الولايـــات الشرقية التابعة للامبراطورية البيزنطية ونزل الاراضي المجاورة لبلاد الخزر بين القسطنطينية وارض البلغـار.

ولما كانت كلمة "سلاف" تنطـق عند ابناء هذا الشعب "سكلاف" عربها العـرب صقلبي ثم اتسع مدلولها بحكم الاستعمال ولم يعد مقتصرا على الاشارة الى الجنس السلافـي بل شمل انواعا عديدة من الرقيق الاوربي . وانتقلت الكلمة العربية الى اللغات الاوروبيـــة بهذا المدلول الواسع الذى يعني الرقيق مطلقا واتضح ذلك في كلمة esclave الفرنسيـــة و slave الانكليزية و sklave الجرمانية (2)

(1) بروفنسال - Provençal - مقال صقالبة ـ دائرة المعارف الاسلامية = الطبعة العربية ـ ص 250
بارتولـد - Barthold - مقال سلاف-نفس المرجع ص 253

(2) جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ ج 5 ص 26 ـ 28

اتسع اذن مدلول هذا اللفظ عند المسلمين حتى صار يدل على الرقيق الاوروبي اجمالا واسس يشمل الاجناس الاوروبية المجاورة للجنس السلافي وهي تلك الاجناس القاطنة باوروبا الشرقية والوسطى والمجاورة لبلاد الصقالبة (1).

فقد سمى ابن فضلان امير بلغار الفولجا باسم ملك الصقالبة (2) كما يشير حديث الطبري عن حملة ملك الصقالبة على القسطنطينية سنة (283هـ/896م) الى الحرب التي وقعت بين "سمعان" Syméon قيصر بلغار الدانوب (277 - 315هـ/890م - 927م) والامبراطور ليو السادس - VI- Léo سنة (289هـ/893م)(3) وقد حل اسم "الروس" شيئا فشيئا محل اسم الصقالبة الذى كان يطلق على اهل روسيا الجنوبية الحديثة وكان نهر الدون - Don - الذى ساد الاعتقاد زمنا بانه فرع من فروع نهر الفولجا VOLGA يطلق عليه اول الامر نهر الصقالبة ثم اطلق عليه بعد اسم نهر الروس (4).

(1) برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد بدائرة المعارف الاسلامية - الطبعة الفرنسية ج 1 ص 33

(2) ياقوت معجم البلدان ج 1 ص 783 - ابن فضلان - الرسالة ص 113 -
راجع أيضا - بارتولد - Barthold - مقال سلاف - دائرة المعارف الاسلامية - ط. عربية - ص 254

(3) الطبري تاريخ الامم والملوك ج 3 ص 2152 - بارتولد Barthold - مقال سلاف - دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة العربية - ص 254.

(4) ابن خرداذبه - المكتبة الجغرافية العربية - ليد - 1889 - ج 6 ص 154 -
بارتولد - Barthold مقال سلاف - دائرة المعارف الاسلامية - ط. عربية - ص 254 -

وازداد لفظ الصقالبة اتساعا حتى شمل شعوب الغرب الاوروبي ويتضح ذلك من خلال ما رواه ياقوت عن ابن الكلبي الذي جعل الصقالبة اخوة للروم والافرنج (1) كما يقول المسعودي في مروج الذهب ان الفرنجة والصقالبة واللومبارديين والاسبان ويأجوج وماجوج والترك والخزر والبرجان والجلالقة الاسبان من احفاد يافث (2) وان اليونان والرومان والصقالبة والفرنجة وجيرانهم في الشمال يتكلمون لغة واحدة وتتالف منهم جميعا دولة واحدة (3).

ويذكر الجغرافي ابن حوقل انه في الوقت الذي اجتاز فيه شبه الجزيرة الايبيرية كان الصقالبة هناك لا يفدون من شواطيء البحر الاسود فحسب بل كانوا يفدون ايضا من كالابريا ولومبارديا ومن بلاد الفرنجة وجليقية (4)

1) ياقوت ج 2 ص 416 بارتولد - Barthold - مقال سلاف - دائرة المعارف الاسلامية - ط عربية ص 255
2) المسعودي مروج الذهب ج 3 ص 66
3) المسعودي - التنبيه - المكتبة الجغرافية العربية ج 8 ص 83 - بارتولد - Barthold - مقال سلاف دائرة المعارف الاسلامية الطبعة العربية ص 255
4) بروفنسال - Provençal - مقال صقالبة - دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة العربية ص 250

هكذا اتسع اذن مدلول الصقالبة واسس يشمل الاجناس الاوروبية المختلفة ومما ساعد على هذا الشمول حرص الجغرافة المسلمين على ارجاع تلك الاجناس الى اصل واحد هو يافث بن نوح ، كما ان كثرة الرقيق الصقلبي الوارد على البلاد الاسلامية جعل اهلها يسمون الرقيق الابيض عموما باسم الصقالبة (1) فحتى الترك والخزر ادرجوا ضمن الصقالبة بوصفهم من احفاد يافث بن نوح (2) فقد كان هذا الاسم يطلق في الاندلس في عهد الرحالة ابن حوقل على جميع الارقاء البيض المجلوبين الذين يستخدمون في الجيش او يعينون في شتى المناصب في الحريم وقصور الخلفاء (3) وقد روى ياقوت عن ابن الاعرابي ان الصقلاب هو الرجل الابيض (4)

1) جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص26 ـ 28
2) الطبري ج 1 ص 211 بارتولد - Barthold - مقال سلاف ـ دائرة المعارف الاسلامية ط عربية ص 254
3) بروفنسال - Provençal - مقال الصقالبة - دائرة المعارف الاسلامية - ط العربية - ص 240
4) ياقوت - معجم البلدان ج2 ص 416

الا انه بالرغم من اتساع هذا المدلول وشموله فانه يؤكد حقيقة واقعة وهي ان الاغلبية الساحقة من الرقيق المستورد من اوروبا قد كان ينتمي في النوع السلافي المجلوب من بلاد الصقالبة وهو ما يفسر غلبة هذا الاسم على غيره من اسماء الاجناس الاوروبية الاخرى واذ ما حدث ان جرف التيار التجاري عناصر اوروبية غير سلافية كالعناصر الافرنجية والجرمانية وغيرها (1) فان نسبتها قد كانت ضئيلة بالقياس الى ما يستورد من رقيق صقلبي الجنس، فمن اين يرد هؤلاء الصقالبة اذن على وجه التحديد ؟

1) جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 26 ــ 28

ج) بلاد الصقالبة

يحدد الجغرافيون العرب بلاد الصقالبة بالاراضي المجاورة لبلاد الخزر بين القسطنطينية وارض البلغار (1) ولعل ادق المعلومات عن هذه البلاد قد وردت في كتب مسلم بن ابي مسلم الجرمي او الخرّمي وهو اسير مسلم وقع في ايدي الروم واراد الواثق بالله(842-227/232م)فداءه سنة (231هـ/846) لكنه ابى الاعتراف بخلق القرآن وعدم رؤية الله في الاخرة فلقي عذابا من اجل ذلك، وقد الف كتبا في تاريخ الروم والاغريق وملوكهم ورؤساء جنودهم ومختلف المسالك المؤدية اليهم والممالك المجاورة لهم مثل البرجان والابار Abares والبلغار والصقلب والخزر وغيرهم وقد قضى ثماني سنين اسيرا لدى الروم ثم اطلق سراحه سنة (230هـ/845م) ونقل عنه ابن خرداذبة ان بلاد الصقالبة تقع غربي مقدونية (2)

1) بروفنسال - Provençal - مقال صقالبة - دائرة المعارف الاسلامية - طبعة العربية ص 250
2) دي ساسي - De Sacy - تقديم التنبيه والاشراف - ذيل مروج الذهب ج 9 ص 357-358
ابن خرداذبة - المكتبة الجغرافية العربية ج 6 ص 105 س 15
بارتولد - Barthold - مقال السلاف - دائرة المعارف الاسلامية الطبعة العربية ص 255

وقد وضع المسعودي في مروج الذهب "عمل" الصقالبة بين بلاد المرجان وبلاد اليونان (1) وذكر ان قسما كبيرا من هذا الشعب قد نزل ضفاف الدانوب (2)

ونجد اوفى المعلومات المدونة عن الصقالبة باوروبا في رحلات اليهودي الاندلسي ابراهيم بن يعقوب سنة (354هـ/965م) وهي معلومات سجلها البكري وورد فيها ان الصقالبة كانوا يقيمون على البحر الادرياوي Adriatique وانه كان على حدود اراضي الصقالبة في الشمال الشرقي بلاد الامير المولندي مشقة (Mieszko) ما بين سنتي(348-382هـ/960م و 992م) تقريبًا وهو جار الروس والبروسيين(3)

ولا يذكر الادريسي بلادا للصقالبة الافي شبه جزيرة البلقان (4)

اما ياقوت فيذكر في معجمه ان الصقالبة يتاخمون بلاد الخزر في اعالي جبال الروم وانهم يسكنون المناطق الواقعة بين البلغار والقسطنطينية(4)

1) المسعودي مروج الذهب ج 4ص 83 وما بعدها بارتولد Barthold-مقال سلاف دائرة المعارف الاسلامية الطبعة العربية ص 255
2) المسعودي-المكتبة الجغرافية العربية ج 8 ص183 بارتولد Barthold-مقال سلاف دائرة المعارف الاسلامية ص 255
3) البكري الممالك والمسالك ج 1 ص 606 وما بعدها-بارتولد Barthold-مقال - سلاف-دائرة المعارف الاسلامية الطبعة العربية ص 255
4) الادريسي جغرافية الادريسي Grographie d'idrisi ترجمة A.Jaubert باريس 1836/1840 ج 2 ص 286-بارتولد Barthold-مقال سلاف-دائرة المعارف الاسلامية-الطبعة العربية ص 255
5) ياقوت - معجم البلدان ج 2 ص 416

وخلاصة القول ان الصقالبة كانوا يجلبون من بلاد الغابات في اوروبا الوسطى والشرقية وهم اجناس سلافية كانت تحتل في هذا العصر اى من القرن الثامن ميلادي الى القرن الحادي عشر ميلادي المناطق الاوروبية التي زحفوا اليها بعد الهجرات الجرمانية نحو الغرب ، وقد كانت هذه الهجرة في القرنين الثالث والرابع للميلاد ففي الغرب الاوروبي كان الصقالبة يمتدون الى مناطق الالب والصال "L'Elbe et La Saale" وجبال الالب الشرقية واستري "L'Istrie" ودلماسيا Dalmatie والبلقان "Balkan" وكذلك بلوبونيز "Pé'Loponnèse" التي اطردوا منها بعد القرن السادس الميلادي ، اما في الشرق الاوروبي فيحتلون منطقة حدودها الغابة الكبرى الشمالية La Grande forêt Nordique اي الدنيبر الاعلى Haut Dniepr والدون الاعلى Haut-Don والفولجا العليا Haute volga مع امتداد قليل نحو السهول التي تلتقي فيها مجموعات البوليان Polianes مع الدرافليان Drevlianes وتوجد وراء بلاد الصقالبة الشعوب الفنلندية الى البلطيق وهذه المنطقة ايضا يعتبرها الجغرافيون العرب ارض الصقالبة.

وقد كان الصقالبة يعيشون حياة غابية ونهرية فيتعاطون الصيد البري والبحري ويعيشون على الثمار وكانوا في قبائل لا وحدة بينها لكن امرهم تغير بعد ذلك في القرن الرابع للهجرة اذ تجمعوا في شكل دول في جهتين الاولى في بوهيميا Bohême والثانية في بولونيا Pologne (2)

1) ادم متز- A. MEZ. الحضارة الاسلامية - الترجمة العربية ج 1 ص 301
نجاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي - ص 114 _ 115
جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ص 194
2) موريس لومبار- Maurice Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص194_204

3) الرقيق الصقلبي قبل القرن الثالث للهجرة

لقد عرف المسلمون الرقيق الصقلبي في اسواقهم الداخلية قبل هذا العصر ومنذ عهود الفتح الاولى. ولا ريب في انهم قد حصلوا على رؤوس من اسرى الصقالبة خلال فتوحاتهم ، فقد تعرف العرب منذ القرن الاول للهجرة على هؤلاء الصقالبة في معاركهم مع الروم ومما يروى في هذا المجال ان مسلمة ابن عبد الملك قد استولى في حملته على القسطنطينية (97-99هـ/715م/717م) على مدينة الصقالبة بعد اجتيازه حدود الروم كما اتصل العرب ببعض السلاف وهم يستقرون في مملكة الخزر بين جبال القوقاز ومجرى الفولجا الاسفل ويقال ان عشرين الف من الصقالبة قد نقلوا في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/724م/743م) من ارض الخزر الى " خاخيط " نقلهم اليها مروان بن محمد الذي صار بعد ذلك مروان الثاني (127-132هـ/744-750م) لكنهم قتلوا اميرهم وهربوا فلحقهم وقتلهم (1) ومما يعرف عن هؤلاء الصقالبة في عهد الخليفة المنصور (131-158هـ/754م/775م) انهم كانوا من بين المستعمرين الذين نزلوا حدود الروم في قيليقية (2).

1) بارتولد Barthold. مقال سلاف ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ص 253

2) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص 166 بارتولد ـ Barthold ـ مقال سلاف ص 253

لاريب اذن في ان هذه العلاقات قد ادت من قريب او بعيد الى سقوط بعض الاسرى الصقالبة في ايدي الفاتحين والى استرقاقهم وبيعهم في الاسواق الداخلية ، ولا ريب ايضا في ان ارقاء من هذا الجنس قد وافوا البلاد الاسلامية عن طريق الجلب من البلاد الاوروبية فتيار تصدير الصقالبة من اوربا الى موانى المسلمين قد كان سابقا للقرنين الثالث والرابع للهجرة وان كان لم يشهد نشاطا حثيثا الا ابتداء من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة .وقد سبق ان بينا ان هذا التيار قد كان موجودا قبل الاسلام وانه كان يرتاد بلاد الشرق التابعة اذاك للدولة البيزنطية فلما احتل المسلمون تلك البلاد شهد هذا التيار فتورا بحكم ظروف الفتح واستغناء المسلمين عن توريد هذه البضاعة ، الا انه لم ينقطع بصورة تامة وانما كانت الاعداد من رقيق الصقالبة تستورد بين الفينة والاخرى او تهدى من ملوك اوروبا وبيزنطة الى الخلفاء المسلمين

.../...

وقد اورد صاحب كتاب الاغاني اخبارا تدل على وجود بعض الرقيق الصقلبي بايدي المسلمين منذ العهد الاموي ومن تلك الاخبار ما يروى من ان احد قواد الخليفة هشام بن عبد الملك قد قصد المدينة في موسم الحج مصحوبا بغلامين صقلبيين . (1)

1) الاصفهاني ـ كتاب الاغاني ـ طبعة بيروت ـ 1955 ـ 1964 ج 4 ص290 ـ 291

ب) تجارة الصقالبة في القرنين الثالث والرابع للهجرة

أ- مصادرهـا :

ان مصادر هذه التجارة تتمثل في نزوح النرمان او الشعوب الاسكندينافية من سويديين ودانماركيين ونورفجيين نحو الجنوب والغرب خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة والحروب التي انتجها هذا النزوح بين النرمان والكارولنجيين وهي حروب اسفرت عن انشاء مقاطعة دوقية نورماندیا Normandie وتواصل تسربهم الى ايطاليا وكذلك الحروب بين السويديين والقوط وهي حروب تواصل دوامها الى القرن 13 م وكانت جرمانيا Germanie كذلك مسرحا لهذه الحروب بين تلك الامم النازحة من الشمال والمستقرة في الجنوب الاوروبي (1) .

وقد تسبب نزوح الشعب البلغاري من جنوب روسيا الى اوروبا الشرقية في حروب مع العناصر السلافية اذ نشط زحف البلغار وخصوصا في عهد كروم Kroum (186 هـ/ 802 م) وشمل السلافيين القاطنين بسهل

1) لويس هالفن - L. Halphen - البرابرة Les Barbares ص 300 ـ 320

.../...

تيموك La vallée du Timok وبفلاشيا وبنات La valachie et Banat

وكذلك سهل كوروس La vallée du Körös وامكن ايضا لهؤلاء البلغاريين تهديد القسطنطينية بين سنة(196 هـ/ 811م) و(198هـ/ 813م).اما حروب البلغار والسلاف فقد اشتدت خاصة من سنة(216 هـ/ 831 م) الى سنة (238 هـ/852م) وقد استهدف السرب والكروات Serbes et Croates وغيرهم من السلاف لهذه الحروب .

وهكذا تمخضت هذه الوقائع عن نشاة الامبراطورية البلغارية (1)

وكانت هجرة الشعب المجري من مناطق آسيا تحت ضغط العرب والخزر والبتشناك Les Petchénègues في هذه الفترة ايضا اي ابتداء من القرن التاسع للميلاد واصطدموا في نزوحهم الى شرق اوروبا بالعناصر السلافية فدارت بين الشعبين حروب متوالية خصوصا في القرن العاشر للميلاد.ولعل السلوفاك والموراف Slovaques et Moraves هم الذين تعرضوا اكثر من غيرهم لهجومات المجريين .

1) المرجع نفسه ص 323 ـ 333

.../...

ولم يكتف المجريون بهذه الهجومات وما احرزوا خلالها من غنائم بل زحفوا على ايطاليا والمانيا ايضا .

ولم يوقفهم في زحفهم هذا الا اتون الاكبر Otton Le Grand ملك جرمانيا بانتصاره عليهم في معركة لاشفلد Lechfeld (1)

وقد اسفرت هذه الحروب عن اعداد ضخمة من الاسرى فكانت الجيوش المتغلبة كالجيوش الالمانية والافرنجية وغيرها تبيع اسراها في الاسواق فيشتريهم التخاسون وينقلونهم الى العالم الاسلامي (1)

ب-طرقها :

كانت تجارة الرقيق الصقلبي تسلك طرقا معينة في اتجاهها نحو الاسواق الاسلامية وتتفرع .هذه الطرق نحو ثلاثة اتجاهات رئيسية اتجاه غربي يخترق بلدان اوروبا الغربية نحو الاندلس والمغرب الاسلامي برا وبحرا واتجاه شرقي ينطلق من اوروبا الشرقية ويمر ببلاد

1) بروفنسال Provençal-مقال صقالبة — دائرة المعارف الاسلامية — الترجمة العربية ص 250 -الاصفهاني -الاغاني -ج 2 هامش صفحة 227

.../...

الخزر وعلى المنطقة السفلى من الفولجا Basse-volga ويتصل بالشرق الاسلامي. واتجاه ثالث يجتاز جنوب البلاد الاوروبية عن طريق مدن ايطاليا وموانئها ويتصل بحرا بموانئ العالم الاسلامي بافريقية ومصر وسوريا(1) فقد كان الرقيق الصقلبي اذن يصل الى العالم الاسلامي من طرق ثلاث كما كانت هناك متاجرة بهذا الرقيق داخل العالم الاسلامي وبين اقاليمه الغربية والشرقية وبذلك تغلق الدورة وتتم الحلقة (2) .

- **الطريق الاولى :**

اما بخصوص الطريق الغربية فقد كان التجار الافرنج وخاصة اليهود ينقلون هذه البضاعة عبر المانيا وفرنسا الى اسبانيا الاسلامية فهم ينطلقون بها من بوهيميا Bohême حيث توجد براغ Prague مركزا للخصاء ويذهبون بها الى راتسبونة Ratisbonne او ينقلونها من الاسواق الجرمانية بالالب والصال L'Elbe et la Saale مرورا بفردن verdun

1) مرويس لومبار - الاسلام في عظمته الاولى ص 194 ـ 204 ظهر الاسلام ج 1 ص 130 لاحمد امين

2) كلود كاهان - التجارة في العالم الاسلامي في عهده الذهبي - ص 36

Cl. Cahen - Le Commerce dans Le Monde Musulman à son Apogée
UNEF. FGEL. Année 1968-74 - p 36
- الشعوب الاسلامية في التاريخ الوسيط - ص 338
- Les Peuples musulmans dans l'Histoire Médiévale
Damas - 1977 - p 338

.../...

وهي سوق للرقيق ومركز هام للخصاء ايضا. ويعبرون بها اثر ذلك نهري الصاون Sâone والرون Rhône ويجتازون مدينة ليون Lyon حيث يوجد اليهود الرهادنة وقد ذكر الاسقف اجوبارد = AGobard اسقف مدينة ليون ان بعض اليهود كانوا يشترون ابناء الفرنسيين من ابائهم ويبيعونهم للمسلمين في اسبانيا (1) ثم من ليون يمر الرقيق الى آرلس Arles ثم الى نربونة Narbonne وهكذا يخترق اقليم قطلونية الى ان يصل الى ثغر بجانة باسبانيا او ينقل مباشرة عن طريق البحر الى مصر وسوريا (2) .

وقد ذكر الجغرافي ابن حوقل انه في الزمن الذي اجتاز فيه شبه الجزيرة الايبرية اي في القرن الرابع للهجرة كان الصقالبة هناك لا يفدون من شواطيء البحر الاسود فحسب بل كانوا يفدون ايضا من كالابرياو لومبارديا ومن بلاد الفرنجة وجليقية (3)

1) ادم متز- الحضارة الاسلامية ج 1 ص 301 احالة رقم 1
2) موريس لومبار- الاسلام.... ص194 ــ 204 ارشيالد لويس السيادة ص82 ــ خوان بيرنيط- هل هناك..... ص73- زيدان - تمدن ج 4 ص 194 ــ 195 برنشفيك- Brunschvic - مقال عبد - دائرة المعارف الاسلامية - ح 1 ص 33
3) بروفنسال- د - م- الاسلامية ــ الطبعة العربية ــ مادة صقالبة ــ ص 250

.../...

كما ذكر الحميري في الروض المعطار متحدثا عن افرنجة انها متصلة من ناحية الشرق ببلاد الصقالبة وان الرقيق الصقلبي المجلوب الى الاندلس يمر بها (1)

وكان التجار الناقلون لهذا الرقيق يتبعون طريقا تجارية برية في اوائل القرن الثالث للهجرة وهي التي تجاري وادي الرون مارة بلانجيدوك Languedoc الى الحدود الاسبانية ومن الطريف ان نلاحظ ان الطريق البحرية المؤدية الى اسبانيا لم تستخدم في هذه الحقبة لتجارة الرقيق ولم يقع استعمالها ايضا في منتصف القرن الرابع للهجرة(2)

ويمكننا ان نتصور من خلال وصف ابن خرداذبة للمسالك التجارية التي كان يمر بها اليهود الرهادنة في رحلاتهم من الغرب الى الشرق الطرق التي كانت ينقل بها الرقيق على ايديهم من البلاد الاوروبية الى البلاد الاسلامية ، فقد ذكر هذا الجغرافي انهم لم يكونوا يتوخون طريقا برية فحسب وهي التي تمر من بروفانس الى الاندلس الى طنجة الى المغرب ثم الى الشرق الاسلامي (3) وانما كانت لهم طرق بحرية تصل

1) الحميري - الروض ص 26
2) ارشيبالد لويس - السيادة ... ص 82 ــ 83
3) هايد Heyd ج 1 ص 43 ــ 44 ــ حسن ابراهيم حسن - تاريخ الدولة الفاطمية - ص 608

.../...

بين بروفانس واشهر الموانيء الاندلسية كميناء المريـة (1) كما تتصل بانطاكية ثم تمتد عن طريق الفرات الى بغداد (2) كما كانت سفنهم ترسو بمصـر الفاطميـة في ميناء الفرما وهي من اهم الموانيء التجاريـة في ذلك الحين ومنها يحملون بضاعتهم الى القلزم او الاسكندريـة ومنها الى الفسـطاط والقاهرة عن طريق النيل (3)

- الطريـق الثانيـة :

وكانت الطريق الثانيـة التي تسلكها تجارة الرقيق الصقلبي تذهب من غرب البلاد الاوروبيـة التي كانت كثيرة الانتاج لهذه البضاعـة بسبب حروبها مع الالمان وتتجـه نحو الشرق مارة بمدينـة براغ وبولونيا و روسيا وهذه الطريق هي التي سلكها الربي بتاحيا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وكانت مدينـة براغ هي اول هذه الطريق لكنهـا كانت مركزا لتجارة الرقيق في القرن العاشر الميلادي وقد اضطر القديـس ادالبرت Adalbert بمدينة براغ سنة (380 هـ/ 989 - م) الى اعتزال

1) برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد ص 33
2) ابن خرداذبة المسالك والممالك ص 154 ـ 155 حسن ابراهيم حسن - الدولة الفاطمية ص 608
3) ابن خرداذبة المسالك والممالك ص 153 ـ حسن ابراهيم حسن - الدولة الفاطمية ص 608
برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد ص 33

.../...

منصبه الاسقفي لانه لم يستطيع ان يعتق جميع المسيحيين الذين اشتراهم تاجر رقيق يهودي (1)

ويتجه تيار تصدير الرقيق الصقلبي بعد اجتيازه للشرق الاوروبي نحو بلاد الخزر على المنطقة السفلى من نهر الفولجا الى ان يصل الى ضفاف بحر قزوين حيث توجد مدينة "اتل" عاصمة الخزر فيباع ذلك الرقيق باسواقها.

وكانت هذه المدينة تعتبر في ذلك العصر من اكبر اسواق الرقيق العالمية يقصدها التجار المسلمون والروس والروم والبلغار والخزر واليهود وبها جاليات مختلفة الاديان من نصارى ويهود ومسلمين. وكانت بها مقادير كبيرة من الرقيق الصقلبي المجلوب اليها من بلاد الصقالبة على ايدي الروس والبلغار وغيرهم، وقد ساهمت تجارة الرقيق في ازدهار هذه المدينة اقتصاديا لان النخاسين كانوا يدفعون بها المكوس على ما يجلبونه اليها من هذه البضاعة(2)

1) ادم متز A.MEZ-الحضارة الاسلامية ج 1 ص 301 ـ 302 - ف

2) موريس لومبار M.Lombard-الاسلام في عظمته الاولى ص 194 ـ 204
فرحات الدشراوي - الخلافة الفاطمية بالمغرب - ص367 - 370

.../...

وقد اشار ابن فضلان الى هذا المركز التجاري الواقع على " نهر اتل " وقال عنه انه " موضع سوق تقوم في كل مديدة ويباع فيها المتاع الكثير النفيس " (1) ومن المتاع النفيس الرقيق طبعا ، كما اشار الى الجاليات المقيمة بها والمشتغلة بالتجارات فقال (ولملك الخزر مدينة عظيمة على " نهر اتل " وهي جانبان في احد الجانبين المسلمون وفي الجانب الاخر الملك واصحابه . وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له "خز" وهو مسلم . واحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين اليهم في التجارات مردودة الى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في امورهم ولا يقضي بينهم غيره) (2)

وقد ورد وصف هذه المدينة ونشاطها التجاري والجاليات المستوطنة بها عند كل من المسعودي والمقدسي بصورة دقيقة وقد جاء وصف المسعودي لها في مروج الذهب مؤرخا بسنة (332هـ/944 م) فقد قال: (وفي مدينة اتل عاصمة الخزر مسلمون ونصارى ويهود وجاهلية ، فاما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسهم وكان ملك الخزر قد تهود من خلافة الرشيد وانضاف اليه خلق من اليهود جاؤوا اليه من سائر بلاد المسلمين ومن بلاد

1) ابن فضلان - الرسالة - ص 136
2) المصدر نفسه - ص 172

.../...

الروم وذلك لان ملك الروم في وقتنا هذا لي سنة 332 هـ.وهو ارمنوس.حمل من كان في بلاده من اليهود على اعتناق النصرانية بالقوة ، واما الجاهلية فاجناس منهم الصقالبة والروس ... وليس في ملوك الشرق بهذا الصقع من له جند مرتزقة غير ملك الخزر ويتكون هذا الجند من عبيد من الصقالبة والروس.وفي اتل خلق من المسلمين تجار وصناع (1) .

كانت اذن هذه المدينة طبقا لشهادات هؤلاء الرحالة المسلمين محطة هامة من المحطات التي يتجمع بها الرقيق الصقلبي وسوقا تروج بها هذه البضاعة قبل موافاتها الى اسواق البلاد الاسلامية ونحن نجد عند المقدسي ايضا ما يدعم قول المسعودي وابن فضلان ويبرز دور هذه المدينة في تجارة الرقيق (2)

وكانت مدينة " اتل " توزع بضاعة الرقيق في اتجاهين احدهما عن طريق البر الى مدينة باب الابواب او دربند Derbend وارمينية حيث يوجد مركز لخصاء الرقيق (3) وقد كانت مدينة الباب هذه من اسواق

1) المسعودي - مروج الذهب — عن = اسكندر صابيل A.Seipel اخبار ام المجوس ص 60 — 64
2) المقدسي - احسن التقاسيم.عن =اسكندر صابيل A.Seipel اخبار ام المجوس ص 76
3) موريس لومبار M. Lombard الاسلام في عظمته الاولى ص 194 — 204 د — و — ج — صورد ال D. - - Sourdel حضارة الاسلام - ص 317 — 323 .

.../...

الرقيق العالمية ايضا في ذلك العهد وكانت بها جاليات تجارية اسلامية ويهودية ونصرانية وكانت خاضعة لسلطان الخزر. وقد وصف لنا ابن سعيد المغربي (610-685هـ/1214-1286م) هذه المدينة واشار الى تخريب الروس لها فقال (ومدينة الباب هي قاعدة سلطنة الباب وهي ثلاث قطع على نهر اتل الكبير عند مصبه في نهر طبرستان. فالقطعة الجنوبية كانت للمسلمين والقطعة الشمالية كانت لليهود والنصارى والمجوس والقطعة التي في الجزيرة كانت لخاقان الخزر وكان يهوديا ثم خربها الروس وازالوا سلطنة الخزر منها)(1).

واما ثاني هذين الاتجاهين فيمر عن طريق بحر الخزر الذي شهد في هذا العهد نشاطا تجاريا كبيرا وكان له دورهام في رواج تجارة الرقيق بين العالم الاوروبي والعالم الاسلامي ويعد اجتياز هذا البحر تصل بضاعة الرقيق الى طبرستان ثم الري ثم بغداد (2) .

1) ابن سعد المغربي ـ بسط الارض في طولها والعرض-عن = اسكندر صابيل - A. Seippel
اخبار امم المجوس ص 101
2) موريس لومبار M.Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص 194 ـ 204

.../...

ولم تكن هذه الطريق هي المسلك الوحيد الذي تعبر منه تجارة الرقيق الصقلبي نحو الشرق الاسلامي بل كانت هذه التجارة تعبر مسالك اخرى فتتوخى طريق بلغاريا الكبرى وهي التي تمر ببلغار الكائنة عند ملتقى نهري الفولجا volga والقاما - Kama - والمجاورة لبلاد الصقالبة ويؤدي هذا الطريق الى اقليم جيحون ويعبر الفيافي الى ان يصل الى خوارزم ومناطق آسيا الوسطى حيث توجد اسواق الرقيق السامانية مثل سوق جرجانية urgendj الواقعة جنوبي بحر آرال Aral وسوق سمرقند وبخارى وهما مركزان للخصاء ، ثم يصل الرقيق بعد مغادرته لخوارزم عبر آسيا الوسطى الى ايران ثم العراق وهكذا يمر من سوق الى آخر عبر كامل الشرق الاسلامي (1).

وقد كان دور السامانيين هاما جدا في هذه التجارة ويمكننا القول بان تجارة الامارة السامانية كانت اذاك قائمة اساسا على توريد الرقيق وقد وجدت نقود سامانية كثيرة على ضفاف الانهار الروسية وهي نقود

1) موريس لومبار - M.Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص 1943 ــ 204 المقدسي - احسن التقاسيم ص336-340 - آدم متز - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 300 ... د ــ و ــ ج صورد ال Sourdel - ج - D.El حضارة الاسلام ص 317 ــ 323

.../...

قد كانت تصرف على قوافل الرقيق (1) وكانت سمرقند اكبر سوق لهذا الرقيق وهي مشهورة بان خير رقيق ما وراء النهر ما كان من تربيتها وقد وصف ابن حوقل اهل سمرقند بالجمال وحسن التعهد لانفسهم وتفوقهم على اهل خراسان في هذا المجال (2) ولذلك اشتهرت بلادهم بحسن اشرافها على تربية الرقيق وتهذيبه فكان الناس فيها يتخذون من هذه التربية صناعة لهم يعيشون منها مثلما كان يفعل اهل "جنيف" "ولوزان" في عصور متاخرة (3) .

1) موريس لومبار - M. Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص 194 _ 204
2) ابن حوقل - صورة الارض - الترجمة - ج 2 ص 474 آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 300
3) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 300

.../...

- الطريق الثالثة :

واما الطريق الثالثة فتنطلق من جنوب البلاد الاوربية وتمر عبر مدن ايطاليا وموانئها. فقد كان الايطاليون في شتى عصورهم ملاحين حاذقين وتجارا ماهرين. وكانوا يتاجرون مع العالم البيزنطي والعالم الاسلامي على حد السواء، واذا ما كانت تجارتهم قد تعطلت في فترات بسبب الحروب مع اللومبارديين ومع العرب فانها قد تواصلت في غير هذه الظروف ، بل ان فترات الهدنة العديدة بين المسلمين والروم في جنوب ايطاليا قد مكنت من ازدهار النشاط التجاري بين الطرفين فقد اعلنت افريقية الهدنة مع الروم منذ ولاية محمد بن مقاتل العكي (181 هـ/ -797 م 184 هـ / - 800 م). وواصل الاغالبة في بداية عهدهم سياسة هذا الوالي في المهادنة رغم غضب الفقهاء وحثهم على قتال الكفرة ، وكان الهدف من هذه السياسة هو المحافظة على المصالح التجارية. وقد واصل الاغالبة هذه السياسة طيلة ربع قرن من الزمان واستطاعوا بفضلها ان يحموا الطريق التجارية التي تربطهم بالكارولنجين من خطر الروم. وقد حلل الاستاذ محمد الطالبي سياستهم هذه احسن تحليل وشرح الاسباب التي حملتهم على عقد مهادنة مع جرجير بطريق صقلية وتجديد مدة هذه المهادنة في عهد ابراهيم الاول ثم في عهد ابي العباس عبد الله الاول (196 هـ/ - 812 - م) (201 هـ/ -817 - م) ووصف لنا كيف بقيت هذه المهادنة نافذة المفعول الى سنة (212 هـ / -827 م) وكيف ضمنت تنقلات التجار بين الجانبين المسيحي والاسلامي. كما كان الادارسة في بداية

.../...

القرن الثالث للهجرة مهادنين الروم وقد عقدوا مهادنة مماثلة مع البطريق جرجير سنة (197 هـ/ 813 م) (1).

كانت العلاقات التجارية اذن قائمة في هذا العصر بين العالم الاسلامي وايطاليا ولم تكن الحروب والغزوات لتعطلها الا بصورة مؤقتة فكانت السفن الايطالية ترسو بشمال افريقيا والسواحل الشرقية بسوريا وغيرها من بلاد الاسلام ، ونشطت بفضل ذلك العمليات التجارية ومن بينها تصدير الرقيق.

وترجع ممارسة الايطاليين لهذه التجارة الى اواسط القرن الثاني الهجري اي القرن الثامن الميلادي (2) اذ بدات اوروبا الكارولنجية منذ ذلك الحين تستزود عن طريق ايطاليا ببضائع الشرق وكانت افريقية تقوم بدور الوسيط في نقل تلك البضاعة (3) وتتلقى مقابل ذلك رقيقا من المدن الايطالية وخاصة منها

1) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية ص 396
المالكي - رياض النفوس ج 1 ص 143 ـ 144 ابو العرب - طبقات علماء افريقية ص 58 - القاضي عياض - ترجمة البلهلول بن راشد (رقم 4 - من المدارك)
2) محمد الطالبي - الامارة الاغلبية ص 396
3) دوهارد - البحر الابيض المتوسط والاقتصاد الغربي ..
R. Doehaerd - Mediterranée et economie occidentale pendant le haut moyen Age - Cahiers d'Histoire Mondiale I - 1954 - P. 584

.../...

مدينة البندقية ولدينا وثائق تشهد بان التجار البندقة كانوا يذهبون الى رومة لشراء الرقيق ثم يبيعونهم بافريقية بعد ذلك (1) هناك اذن تيار تجاري منذ ذلك العهد يستعمل فيه الرقيق عملة صالحة للمعاملات ومما يؤكد وجود هذا التيار التجاري ان الوفد الذي ارسله الادارسة لعقد هدنة مع البطريق جرجير في صقلية سنة (197 هـ/813م) قد سافر في بواخر البندقية وقد جاء ذلك في الرسالة التي ارسلها البابا ليون الثالث الى شارلمان بتاريخ (11 نوفمبر 813 م) فقد كانت هذه العملة من العهيد مستعملة بين ايطاليا المزودة لاوروبا ببضائع الشرق والمغرب الاسلامي المستورد للرقيق (2).

كما ادت سيطرة المسلمين على صقلية وعلى العديد من المدن الايطالية في القرن الثالث للهجرة الى مزيد من الازدهار في تجارة الرقيق فقد كان للتحالف الذي عقده سلمو صقلية مع مدن شاطئ كامبانيا اثره في هذه التجارة، وذلك ان معظم ايطاليا الجنوبية كان خاضعا

1) هايد W. Heyd - تاريخ تجارة الشرق - ج1 ص 96-97 - L. Duchesne - Liber Pontificalis - p 581

2) الطالبي - الامارة الاغلبية - ص 396 - C - Cenni - Monumenta Dominationis Pontificiae T.2. p: 79

لامراء بنفت BENFENT اللومباردیین في حین قامت في جزء منها جمهوریات ایطالیة صغیرة هي نابولي Napoli وجیتا Gaëte وسلرنو - Salerne - و امالفي Amalfi وکانت هذه الجمهوریات تابعة اسمیا للدولة البیزنطیة ولکنها کانت بالفعل مستقلة عنها ولذلک کانت تسعی الی المحافظة علی استقلالها امام مطامع امراء بنفت. ولما کانت هذه الجمهوریات الصغیرة لا تتوقع ان تقدم لها الدول المسیحیة اي مساعدة فقد عمدت الی التحالف مع المسلمین في صقلیة. وکانت نابولي اول جمهوریة ایطالیة ~~ایي~~ تتحالف مع مسلمي صقلیة في عام (215 هـ/ 830 م) اوعام (220هـ/835م) اوعام (222 هـ/ 837 م) ودام هذا التحالف ما یقرب من خمسین عاما علی الرغم من لعنات الکنیسة واحتجاجاتها. وقد لبی الامیر ابو ~~الاغلب~~ الاغلب ابراهیم بن عبد الله والي صقلیة نداء اهل نابولي فارسل الیهم اسطولا لمساعدتهم عندما حاصرهم امیر بنفت اللوباردي (سیکاردوس) (1) sicardus وهکذا صارت مدن کامبانیا مثل نابولي اوثق اتصالا بحکم هذا الحلف بجیرانها المسلمین من البندقیة. وکان اتحادها معهم اکثر من انفصالها عنهم ولم یکن هذا الحلف دفاعیا فحسب بل کان تجاریا ایضا ولذلک ساهمت تلک المدن مساهمة فعالة في القیام بعمل النخاسین

1) عبد العزیز سالم واحمد مختار العبادي - تاریخ البحریة - ص131 ـ 135

.../...

وتصدير الرقيق الى المسلمين وتبادلت معهم بضائع اخرى كالمنسوجات المحلية او المستوردة من القسطنطينية لقاء زيت الزيتون وبضائع شرقية متنوعة (1) .

استغلت اذن هذه المدن الواقعة على ساحل البحر التيراني حريتها وانفصالها عن الهيمنة البيزنطية لتمارس هذه التجارة مع العالم الاسلامي . ففي هذه الفترة كانت سلرنو الخاضعة للامراء اللومارديين وكذلك جمهوريات امالفي ونابولي وجايتا المستقلة عن الامبراطور الروماني تغتنم الفرصة لتتاجر مع العرب اعداء الروم وكانت مثل الامارات اللومباردية تتحالف مع المسلمين المستقرين بجنوب ايطاليا لمصالح تجارية ، فكان تجار نابولي يشترون اللومباردين ويبيعونهم رقيقا للمسلمين الواقعين على الضفة الجنوبية من البحر المتوسط ويدل على ذلك نص معاهدة السلم التي عقدها امير بنفت المسمى سيكارد sicard مع مدينة نابولي سنة (221 هـ/ 836 م) اذ شرط فيه الامير على اهل نابولي ان لا يشتروا احدا من اللومباردين

1) ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية ص 79 ــ 80 وص 27

.../...

والا يبيعوه لبلاد ما وراء البحر ، ولا مجال للشك اذن في ان مدينة نابولي قد كانت اذاك تصدر الرقيق الى العالم الاسلامي وتستورد منه بضائع اخرى من انتاجه (1) .

وكانت مدينة امالفي كذلك متصلة تجاريا بالعرب في شمال افريقيا ومصر اذ نلاحظ حضور تجار هذه المدينة بافريقية في عهد الاغالبة حوالي سنة (256 هـ/ 870م) (2) كما نجدهم يحدثون عقد مبادلات مع مصر بعد ذلك بحوالي مائة سنة اي عام (362 هـ/ 973م) (3) وكانت هناك ايضا علاقات تجارية بين امالفي وانطاكية ترجع الى القرن الثالث للهجرة اي التاسع للميلاد (4) لكن تجارة امالفي بدات تتدهور منذ نهاية القرن الرابع للهجرة وبداية القرن الخامس اذ فقدت استقلالها واحتلها

1) هايد Heyd ج 1 ص 98_99
2) من هؤلاء التجار فلوروس . Florus وقد كان بافريقية سنة (- 360هـ/ 871 م) عندما قرر الامير الاغلبي محمد بن احمد غزو مدينة سلرنو Salerno (عن هايد - Heyd - ج 1 ص 99)
3) المرجع نفسه
4) المرجع نفسه ج 1 ص 104 احالة رقم 1

.../...

جيمار الرابع Guaymar IV امير سلرنو اللومباردي وعندما استنجدت المدينة بالدوق النورماندي روبرت جسكار - Robert Guiscard انتزعت حريتها تماما وانصهرت في المملكة النورماندية واضمحلت تجارتها مع بلاد الشرق (1) .

وكانت مدينة باري Bari تقوم بنفس الدور التجاري مع مسلمي مصر وسوريا وقد ذكر بيير لارميت Pierre L'ermite عند عودته من الحج الى البقاع المقدسة اواخر القرن الرابع للهجرة انه وجد على الساحل السوري سفنا تجارية تابعة لمدينة باري فاستقلها ورجع الى بلاده (2) وقد ازدادت هذه اللحمة متانة بين اهل باري والاسواق الاسلامية عندما خضعت هذه المدينة من سنة (227 هـ/ 842م) الى سنة (257 هـ/ 871 م) لسلطان المسلمين وقد تسبب خضوعها ذاك في تمتين الصلة بينها وبين العالم الاسلامي فقد كان اميرها يمنح جوازات للتجار ليتاجروا مع الشرق وقد طلب منه حاج فرنسي يدعى الراهب برنارد Bernard جوازا للمتاجرة مع الاسكندرية والقاهرة فمنحه اياه

1) المرجع نفسه ج 1 ص 107 ـ 108
2) كليمان هوار - Cl. Huart تاريخ العرب ـ ج 2 ص 108

وقصد مصر من ميناء طارنت Tarente على متن سفينة عربية فاذا كانت هذه الحال بالنسبة لاحد الحجيج فما بالك بالتجار وممارستهم للتجارة مع بلاد المشرق وهي تجارة كانت تدر الارباح الطائلة على امارة باري اذاك (1) .

فاذا كان هذا شان المدن الايطالية الجنوبية فان اكثر المدن الايطالية الشمالية تعاطيا لتجارة الرقيق مدينة البندقية (2) ، وقد رايذا كيف نشطت هذه التجارة بها منذ اواسط القرن الثاني للهجرة وتواصل هذا النشاط بعد ذلك خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة(3) فقد كانت هذه المدينة بمقتضى موقعها-في جزر جرداء حيث لا يوجد حتى الماء الصالح للشراب-مضطرة الى ان تعيش على التجارة (4) وكانت تمثل وسيطا تجاريا بين امبراطوريات غربية وشرقية وكانت تجارتها

1) هايد- Heyd ج 1 ص 95_96_97
2) لومبار- M. Lombard- ص 194 _ 204
3) ارشبالد لويس A. Lewis ص 79_80
4) ل . بريهيي L. Bréhier-الحضارة البيزنطية ص 206 — هـ . بيران _ المدن في القرون الوسطى بروكسل 1927 ص 77 _ 80)

(4) L. Bréhier - Civilisation Byzantine - p 206
H Pirenne - Les villes au Moyen Age - Bruxelles - 1927 - p 11-80

.../...

متصلة بالعالم السلافي و اوروبا الغربية والامبراطورية البيزنطية والعالم الاسلامي (1) فقد كان البنادقة يجلبون الرقيق والعسل والخشب والفراء من العالم السلافي الذي يتصلون به عن طريق اسطريا "Istrie" دلماسيا Dalmatie او بصورة غير مباشرة عن طريق جرمانيا Germanie (2) كانوا فكانوا يتلقون الرقيق الصقلبي القادم من الدانوب الاعلى Haut Danube وبلاد الرين Pays Rhénan عن طريق ممر جبال الالب (3) كما كانوا يقتنون الرقيق من اسواق روما ويبعونه باسواق شمال افريقيا ومصر وسوريا (4) ولم يكن الرقيق هو البضاعة الوحيدة التي يصدرونها الى العالم الاسلامي بل كانوا يصدرون بالاضافة الى ذلك الخشب من غابات دلماسيا والاسلحة في معامل الحديد بكورنثيا Corinthie والاقمشة الايطالية والبيزنطية. وعندما منع الامبراطور ليون الخامس الارمني - L éon V (813-820/ 198-204 م) هذه العلاقات

(1) Braunstein(P). Venise. Portrait historique - فيليب براونشتاين -- صورة تاريخية للبندقية - ص 52

2) المرجع نفسه - ل - بريهيي - L. Bréhier - الحضارة البيزنطية ص 206 - هايد - ج 1 ص 110 و 113

3) م لومبار - M. Lombard ص 194 - 204 نجاة باشا ص 115 - 116

4) هايد - تاريخ تجارة الشرق ج 1 ص 95 و ص 110

.../...

التجارية مع المسلمين يمتلك البنادقة لاوامره ولذلك نجدهم فيما بعد اي سنة (211 هـ/ 827 م) اوسنة (212 هـ / 828م) بالاسكندرية (1) فهم الذين سرقوا حوالي سنة (211 هـ/ 827م) جثة القديس مارك St Marc بالاسكندرية (2) فقد واصل البنادقة مهمة التصدير والتوريد بين الشرق والغرب رغم هذه الاوامر وصارت مدينتهم في القرن الرابع للهجرة سوقا عظمى تعرض فيها بضائع الشرق ويقصدها اللومبارديون وحتى الفرنسيون وقد هدد الامبراطور يوحنا الشمشقيق Jean Tzimiscès (969/976-365/366) سنة 971م بحرق السفن المستعملة في هذه التجارة ولكن دون جدوى (3) وهكذا استطاعت البندقية ان تزود قصور العالم الاسلامي واسواقه بما تستحوذ عليه او تقتنيه من الصقالبة ولاشك ان هذه الوساطة التجارية قد كانت باعثة على ازدهارها واثرائها كما تسببت تجارة الرقيق السودان في القرن الثامن عشر للميلاد في ثراء الكثيرمن ملاحي فرنسا وانجلترا (4) .

1) المرجع نفسه
2) ل . برييي L. Bréhier - الحضارة البيزنطية ص 206 ــ هايد - Heyd - ج 1 ص 110
3) المرجع نفسه ص 118 ج 1 كليمان هوار Huart-Cl - تاريخ العرب ج 2 ص 108
4) نجاة باشا - التجارة بالمغرب ص 118

.../...

واذا ما كان الدوق في مدينة البندقيـة قد حرم سنة (349 هـ/960م) نقل الرقيق على المراكب فان ذلك التحريم قد كان خاصا بالرقيق المسيحيين وحدهم .كما كانت المعاهدة التي عقدت بين البندقيـة والامبراطور اوتون الاكبر Ottonle Grond سنة (356 هـ/967م) تحضر على المسيحين الذين في ارض الامبراطور وحدهم المتاجرة بالرقيق ولا تمثل عرقلـة جدية لهـذه التجارة (12)

وقد تنوعت صلات هذه الطريق التجارية الايطالية بالعالم الاسلامي بتنوع الظروف السياسية وباختلاف الفترات الزمانيـة فلم تكن لها نفس الكثافـة في كل وقت ، ولا نفس الاتجاه . واذا ما اردنا التدقيق وجب علينا ان نشير الى ان علاقـة المدن الايطاليـة بشمال افريقيـا قد كانت امتن و اوثق في القرن الثالث والنصف الاول من القرن الرابع للهجرة من علاقتها ببلدان الشرق الاسلامي .

وكان لابد من ان ننتظر النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة لكي تنشط العلاقات بين مدن جنوب ايطاليـا التجاريـة وعلى راسها امالفـي والبندقيـة وبلدان الشرق كمصر وسوريـا وان كانت تلك العلاقـات موجودة بقلـة قبل ذلك. ومن الواضح ان السبب في تغيير مجرى التجارة

1) آدم متز-الحضارة الاسلامية ج 1 ص 300 احالة رقم 5

الايطالية هو انتقال الفواطم من توبس الى مصر وعدم ثقتهم في استقرار ولاء افريقية لنظامهم فكانوا يفضلون الاتصال مباشرة بتجارة ايطاليا لتعينهم على تكوين الاسطول وهكذا اتبعت التجارة الايطالية مجرى السياسة الفاطمية وارتبطت بها لكي يكونا معا طريقا تجارية تذهب من الاسكندرية او طرابلس الى البندقية او امالفي وتعوض الشبكة القديمة المركزة على الروابط المحلية بين جنوب ايطاليا وشمال افريقيا المجاور لها ، وزاد في تدعيم هذه الشبكة الجديدة ما ظهر بعد ذلك اي في القرن الخامس الهجري من قرصنة مغربية بسبب كوارث الغزو الهلالي بافريقية بالاضافة الى القرصنة الموجودة في الشمال والمركزة على اسبانيا وجزر الباليار وسرديديا ، فقد كان لهذه العوامل ايضا دور في ميل تجار ايطاليا الى المشرق الاسلامي بعد ان كانوا يكتفون تقريبا بالموانئ الافريقية (1) وصارت جنوة وبيزا بعد ذلك بزمان تلعبان نفس الدور الذي تلعبه امالفي والبندقية في تمتين علاقاتها بالدولة الفاطمية (2)

1) كلود كاهان .Cl. Cahen - الشعوب الاسلامية في التاريخ الوسيط ص 349 ــ 357

2) حسن ابراهيم حسن-تاريخ الدولة الفاطمية ص 611

لقد اشتهرت جنوة وبيزا في هذه الفترة بتصدير الرقيق الى الشرق الاسلامي خاصة (راجع آدم متز ــ الحضارة الاسلامية ــ ج 1 ص 300 ــ 301 ــ احالة رقم 5)

.../...

5) تصدير الرقيق الاوروبي الى بيزنطة

ولم يكن هذا التيار التجاري المتمثل في تصدير الرقيق الاوروبي موجها نحو العالم الاسلامي فقط بل ان بيزنطة قد كانت تستهلك منه المقدار الضروري لاوضاعها الاقتصادية والاجتماعية شانها في ذلك شان البلدان الاسلامية ، فمنذ القرن السادس للميلاد كان الروم البيزنطيون يتاجرون عن طريق موانيء القرم مع امم الشمال مثل القوط والهوس - Huns - والافار - AVARS - ويأتون من عندهم بالرقيق والفراء وعنبر البلطيق وقد استمرت معاملاتهم هذه مع الشعوب الاوروبية الشرقية المتاخمة لهم في هذا العصر. وكانوا يقتنون الرقيق الصقلبي لاعمال شتى كالعمل الفلاحي ، ففي منطقة تسالونيك Thessalonique كان هناك كثير من الصقلب الى جانب الفلاحين الروم (1) .

كما كان التجار البلغار يتاجرون مع القسطنطينية وربما مع سالونيك ايضا مع وجود قيود تتعلق بالجوازات ومدة الاقامة . وكانوا يجلبون اليها هذا النوع من الرقيق ضمن بضائع اخرى . وكان التجار الروس الفارنجيون يتعاملون مع القسطنطينية ايضا . وكانت تشيرسون في القرم الميناء التجاري الذي تدخل منه المنتوجات الروسية

1) لويس بريهيي - الحضارة البيزنطية ص 168 .

ومنها الرقيق والفرو (1) فمثلما كان الروس يصدرون الرقيق الى العالم الاسلامي كانوا يصدرونه الى بيزنطة. وتشهد النقود البيزنطية التي اكتشفت اخيرا بروسيا على ذلك (2) فقد كان بالقسطنطينية جالية من هؤلاء التجار الروس وقد كانت انظارهم موجهة في هذه الفترة الى سوق تسا ريكراد Tsarigrad بالقسطنطينية وبالرغم من الهجومات التي كان الروس يشنونها على الامبراطورية الرومانية مثل هجومهم سنة (329هـ/ - 940 م) (3) وغيرها من الهجومات التي شنوها من سنة (252هـ/ 866م) الى (434هـ/ 1043م) (4) فان علاقاتهم التجارية بها لم تنقطع اذ كانت عهود السلم بعد الحرب تسمح بنشاط هذه العلاقات مثل عهد السلم الذي ابرم اثر حرب (246هـ/ 26جوان 860م) وبعد هزيمة الروس (5) والعهد الذي ابرم بين اولغ Oleg

1) ارشبالد لويس - السيادة - ص 73 ـ 74 هايد Heyd - ج 1 ص 69
2) ل. بريهيي Bréhier - ل - الحضارة البيزنطية ج 3 ص 202
3) المرجع نفسه - راجع الهجوم الروسي على القسطنطينية سنة (246هـ/860م) لفازيليف ص 3 ومابعدها) صلة تيوفان - Theophanes.con ص 33
4) هايد - تاريخ تجارة الشرق ج 1 ص 69
5) اسكندر سابيك - اخبار امم المجوس ص 100

.../...

وليون السادس سنة (299 هـ/ 911م) وهو يشير الى وجود جالية روسية مستقرة بحي سانت ماماس Saint-Mamas بالقسطنطينية (1) ووجدت عهود اخرى تلت هجومات متتابعة وقد عقدت سنة (334 هـ/ 945م) بين رومان ليكابيان (306 - 333 هـ/ 919 -944م) وايغور - IGOR - (330-334هـ/941-945م) وسنة (-360 - هـ/ 971م) بين يوحنا شمشقيق Jean Tzimiskès (356- 365 هـ/969-976م) وسفياتسلاف Sviatoslav (353 - 361هـ/964-972م) وسنة (- 437 - هـ/ 1046م) بين قسطنطين التاسع (433 - 446هـ/1042-1055م) وايا روسلاف Iároslav (407-445هـ/1017-1054م) وكل هذه العهود تنص على بنود تجارية. وكان من بين البضائع المتداولة في هذا النشاط التجاري بصاعة الرقيق (2) وقد ذكر لنا كل من الاصطخري وابن حوقل هذه العلاقات التجارية بين الروس والامبراطورية الرومانية (3) ولم تكن بيزنطية بالرغم من اتصالها بالغرب اللاتيني تستورد الرقيق عن طريق ايطاليا ومدنها التجارية كالبندقية وامالفي مثلما يفعل المسلمون والسر في ذلك انه كان بامكانها الحصول عليه بسهولة من بروسيا (4)

1) تذكرها اخبار نسطور ص 32 ـ 150 ـ هايد - Heyd - ج 1 ص 69
2) لويس برييي L. Bréhier - الحضارة البيزنطية ج 3 ص 202 وما بعدها
هايد - تاريخ تجارة الشرق ج 1 ص 71
3) اسكندر هايبل A. Seippel - اخبار امم المجوس ص 56
4) ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية ص 73 ـ 74

ولم تكن بيزنطة تتزود بالرقيق الصقلبي عن طريق الرهادنة ايضا فاذا سلمنا بكلام ابن خرداذبة علمنا ان الطرق التي يسلكها الرهادنة لا يمر ولو واحد منها بالامبراطورية البيزنطية (1)

وكانت بيزنطة تقدم بديلا تجاريا للشعوب الاوروبية المزودة لها بالرقيق تماما كالعالم الاسلامي. فقد كانت هي الاخرى همزة وصل بين الشرق والغرب في نقل مواد الشرق وبضائع العالم الاسلامي. ونحن نعلم انها كانت ذات علاقات تجارية مع المسلمين رغم عدائها لهم، فالبرغم من ان الفتوحات الاسلامية قد عطلت التجارة مع البيزنطيين والبلاد الواقعة على السواحل الجنوبية للبحر المتوسط وخاصة منها سوريا ومصر فان هذه التجارة ما فتئت ان رجعت الى نشاطها بمجرد مرور عصر الفتوحات. فمنذ بداية القرن الثالث للهجرة نلاحظ اثار هذه التجارة بين الروم من ناحية وسوريا ومصر من ناحية اخرى ، واذا ما قرر ليون الخامس الارمني (204-201هـ/ 817 ـ 820م) ان يمنع الروم من الذهاب الى مصر وسوريا فان ذلك القرار يدل على وجود هذه العلاقات (2) .

1) كلود كاهان - Cl. Cahen - الشعوب الاسلامية ص 349 ـ 357
2) هايد Heyd - تاريخ تجارة الشرق - ج - 1 - ص 52 ـ 53

.../...

وقد كانت المهادنات العديدة بين المسلمين والروم في هذا العصر فرصا سانحة لنشاط العلاقات التجارية بين الجانبين . ويمكننا ان نذكر على سبيل المثال نبأ الهدنة الذي ذكره ابن الاثير في تعرضه لحوادث سنة (265هـ/ - 879 - م) وهي هدنة بين ملك الروم واحمد ابن طولون (254 - 270 هـ/ 868 - 884م) وقد سعى بينهما في المهادنة عبد الله بن رشيد بن كاوس(1) والهدنة بين الراضي بالله (322 - 329 هـ/ 934 - 940م) ورومانوس Romanus الذي ملك من سنة (308هـ/ 920م) الى (333هـ/ 944م) وكانت هذه الهدنة سنة (326هـ/ - 937 - م) (2) والهدنة بين المقتدر (295 - 320 هـ/ 908 - 932م) وقسطنطين السابع(300 - 348 هـ/ 913 - 959م) سنة (305هـ/ - 917 - م) (3) والهدنة بين المستنصر بالله الفاطمي (427 - 486 هـ/1036-1094م) وقسطنطين التاسع الذي ملك من (434 الى447هـ/) -(1042م 1055م) وقد دامت هذه الهدنة عشر سنوات من (437هـ/ 1046 م) الى (447هـ/ - 1056 - م) (4)

---

1) البلوي = سيرة احمد بن طولون ص 109
2) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص 60-65
3) المصدر نفسه
4) المصدر نفسه

وهكذا يبدو ان سيطرة المسلمين على البحر لم تسد الطريق امام التجارة مع الامبراطورية البيزنطية واليها. فوضع المسلمين البحري يدل على انه لم تكن هناك اية نية لفرض حصار اقتصادي على القسطنطينية وقد بقيت " طرابزون " Trébizonde هي البوابة التجارية التي تدخل منها المنتوجات والبضائع الواردة من بلاد العراق وفارس الاسلامية الى بيزنطة (1) .

وقد ذكر كل من المسعودي والاصطخري وابن حوقل سوق طرابزندة فقال المسعودي ان الشراكسة والارمن ~~والبيزنطيين والاصطخري وابن حوقل~~ والبيزنطيين والمسلمين يلتقون هناك للتجارة في معارض تقام مرارا عديدة كل عام. وتعرض الاصطخري الى هذه المدينة ملاحظا تردد التجار المسلمين اليها. وهو يعني بلا شك التجار المسلمين الذين يقطنون العراق وفارس وما وراء النهر. اما التجار السوريون والمصريون فلم يكونوا في حاجة الى الذهاب الى هذه المدينة لان لهم طرقا اخرى للتجارة مع الروم (2)

1) ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية ص 72_79 ـ صورد ال - حضارة الاسلام ص 317_323
2) هايد - Heyd - ج 1 ص 48

.../...

كما يذكر ابن حوقل ان مدينة طرابزندة يجتمع بها التجار المسلمون قبل التحول الى بلاد الروم وعاصمتهم بيزنطة للتجارة ثم يخرجون من هذه المدينة نفسها عند رجوعهم ولذلك ياخذ الامبراطور الروماني على عامله على هذا الميناء جبايات كثيرة (1) .

لقد دخل التجار المسلمون اذن الى بيزنطة (2) كما وطئت اقدام الروم الموانيء الاسلامية للتجارة وصارت اسواق انطاكية والاسكندرية اسواقا عالمية مثل القسطنطينية . وتنافس التجار الروم في المتاجرة مع العرب . ومما يذكر في هذا المجال ان الامبراطور تيوفيل قد احرق باخرة الامبراطورة تيودورا Théodora لا لانها تمارس تجارة ممنوعة وانما لانها لا تليق في قيمتها بامبراطورة الروم (3) .

ورغم سوء العلاقات بين مصر الفاطمية والدولة البيزنطية بسبب المنافسة من اجل السيادة على البحر لم تتوقف العلاقات التجارية بين البلدين فقد كانت القسطنطينية في حاجة الى منسوجات تنيس ودمياط وكانت مصر

1) ابن حوقل ج 2 ص 336 ــ 337 و 341 ديفريمري - شعوب القوقاز ج 2 ص 462
2) كلود كاهان - الشعوب الاسلامية ص 349 ــ 357 وجد ببيزنطة مسجد في القرن الحادي عشر صورد ال - حضارة الاسلام - ص 317 ــ 323
3) لويس بريبي - L. Bréhier - الحضارة البيزنطية ص 201 ــ 202

.../...

في حاجة الى الفراء المجلوب من بلاد الروس كما كانت تتقرب من البيزنطين امعانا في الكيد للعباسين. وكان بالفسطاط حي يقيم فيه تجار الروم كما كانت مصر تستجد بالقسطنطينية عند الشدة فترسل اليها بالغذاء كما حدث سنة (446هـ/ 1055م) في عهد المستنصر بالله (1)

وهكذا امكن للروم ان يحملوا بضائع المسلمين الى اوروبا اذ كان الروس الفارنجيون وكذلك البلغار يقصدون بيزنطة للتجارة ويشترون منها بضائع الشرق ثم يبعونها بالمراكز التجارية الاوروبية الشمالية والواقعة على طول الطريق الاسكندنافي مثل مدينتي كييف Kiev - ونوفوجورد NovoGorod وغيرهما (2).

ولم يكن الروم يحصلون على البضائع الاسلامية والشرقية عامة بهاته الصورة التي وصفناها فقط وانما كانت هذه المواد التجارية تصلهم بطرق اخرى وذلك ان تجارهم كانوا يقصدون اسواقا عالمية تؤخذ منها تلك البضائع مثل الاسواق الواقعة ببلاد الخزر وبلغار (3)

1) حسن ابراهيم حسن - الدولة الفاطمية ص 612 _ 613
2) ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية ص 72_79
3) لويس بيربيي - الحضارة البيزنطية ص 202
3) ECK - Le commerce Mediterranéen après L'invasion arabe - R.S.E (Revue historique du sud est européen) Bucarest - 1941 - p-34 ص 34 - التجارة المتوسطية - ايك

.../...

لعله قد اتضح لدى مما سبق من تحليل ان العلاقات التجارية بين العالم الاسلامي و بيزنطة قد كانت قائمة في هذا العصر وان كلا منهما كان يزود اوروبا ببضائع المشرق. كما ان مادة الرقيق الصقلبي كانت تعدي الاسواق البيزنطية مثلما كانت تغذي الاسواق الاسلامية وان لم تكن الطرق والمسالك واحدة . لكن هذه الاوضاع التجارية التي تسمح لنا بالتعرف على صورة انتشار الرقيق الصقلبي في العالم المتحضر ذاك وعلى اصناف البضائع المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين لا توفر لنا الدليل على تبادل لبضاعة الرقيق بين الطرفين. فليس لدينا ما يدل على ان التجار المسلمين قد استوردوا في وقت ما بعض الصقالبة عن طريق بيزنطة. لا سيما اذا ادركنا ما اشرنا اليه سابقا من موانع عقائدية وتشريعية لهذا النوع من التجارة من كلا الجانبين .

تلك اهم ملامح توريد الرقيق الصقلبي في هذا العصر وهو توريد قد نشط خاصة في القرن الثالث للهجرة وبدأ يضعف بصورة تدريجية خلال القرن الرابع الى ان نضب معينه شيئا فشيئا بحكم انتشار المسيحية بين العناصر السلافية. وقد كان لهذا النضوب اثر في تغيير مجرى تجارة الرقيق عند المسلمين خلال القرن الرابع اذ سيزداد اعتمادهم بموجب ذلك على اجناس اخرى كان توريدها معاصرا لتوريد الصقالبة ونعني بها خاصة الرقيق التركي ورقيق بلاد السودان وهو ما سنحلله في الفصول القادمة .

الفصل الخامس

تقويد الاتراك

تـــــوريـــد الرقيـــق التركـــي

ان من اهـم اجناس الرقيق التي كان المسلمون يجلبونهـا خلال هـــــذا العصـــــر الرقيـــق التركـي الذي نشطت حركـة جلبـه بالشرق الاسلامـــــي خاصـة وقـد ازداد اعتمـاد الاسـواق الاسلامية على هـذا الجنـس عنـد مـــــا آدنت مـوارد الرقيـق الصقلبي بالنضـوب فقـد تواصلت عمليـات توريـده مـــــدة طويلة من الزمن في الوقت الذي توقف فيـه حركة توريـد الصقالبـة. فما هي اولا هوية هـذا الجنس من الرقيـــــــق ؟

1) الاتـــــراك :

يطلق المسلمون كلمـة ((ترك)) على شتى القبائـل والاقوام التركيـــــه وذلك لانهم وجـدوهم متشابهين في الوانهم ولغاتهم وعاداتهم. وقـــــد كـانت هذه التسمية تطلق قبـل تاريخ اتصال المسلمين بهـذا الجنس على قبيلـه بعينهـا من تلك القبائـل (1) ثم تعميم الاسم بعد دخـول الجنس وخاصـة على الذين اعتنقـوا الدين الاسلامي فصـار لهـم ترك او تركمـانيـة وقلمـــــا سميت كـل قبيلـة باسمهـا مثل ((الكماكيـة والخرخـز والتغرغـز والخرلخيـــــه))

---

1) دائـرة المعارف الاسلاميـة ـ الطبعة الانجليزيه
ج 4 ص 901

ENCYC OF ISLAM. T.4 p 901

وانما شملتهم كلمة الاتراك جميعا. يقول المروزي في بيان تطور هذه التسمية : " فلما صاقبوا بلاد الاسلام اسلم بعضهم فسموا التركمانية. وصار بينهم وبين من لم يسلم مبابذة. ثم كثر المسلمون منهم وحسن اسلامهم وغالبوا الكفرة وطردوهم فتنحوا عن خوارزم الى محال البجناكية وانتشر التركمانية في بلاد الاسلام واحسنوا فيها السيرة حتى ملكوا اكثرها وصاروا ملوكا وسلاطين " (1).

ويرجع المؤرخون القدامى اصل هذا الجنس الى يافث بن نوح كما فعلوا بالصقالبة واهل الصين (3) وكان مرجعهم في ذلك التوراة (4) لكن الثابت هو ان الاتراك امة آسيوية استقرت منذ فجر التاريخ ببوادي آسيا الوسطى بعد انطلاقهم من جبال "تيان شان" (4) وكانوا يتالفون من قبائل عديدة من اشهرها قبائل (القرغز) و (الخرخز) و (كيماك) و (الغز أو الغزية) وهم فروع كثيرة من بينها (التغزغز) ومنهم

---

1) المروزي ــ طبائع الحيوان ص 18
2) انظر المسعودي- مروج الذهب -ج 1 .ص 286
3) سفر التكوين .الاصحاح الخامس ص 807 ــ (4) بروكلمان .تاريخ الشعوب الاسلامية ج 2 ص 109

تفرع السلاجقة والعثمانيون ومن قبائلهم ايضا (الخرلخية) و (البجناكية) و (الخزر) و (المجغرية) و (برداس) وغيرها كثير ، وقد عرف الجغرافيون المسلمون هذه القبائل ونجد لهم الماما بها وتفصيلا لخصائصها منذ القرن الثالث للهجرة ، فقد تحدثوا عنها وعن نمط معاشها والنزاعات القائمة بينها (1) .

2) بلاد الاتراك : ما وراء النهر :

وكان المسلمون يجلبون الرقيق التركي من بلاد ما وراء النهر بآسيا الوسطى وهو اقليم تحده من الشمال بلاد تركستان وبلاد الهند ومن الجنوب طخارستان ومن الشمال الغربي خوارزم ومن الجنوب الغربي خراسان ويفصل بينهما نهر جيحون ، ومن اشهر نواحي هذا الاقليم بخارى وسمرقند وكش ونخشب وبيكند والصغانيان و فرغانة والصغد والشاش واشروسنة وخوجندة .

---

1) ان خرداذبة-المسالك والممالك ـ ص 31 ـ ياقوت-معجم البلدان ج 1 ص48 ـ المروزي طبائع الحيوان ص 18 - اليعقوبي - البلدان ص 295 - ليدن - مطبعة بريل 1891

وقد وصف لنا الجغرافيون المسلمون اقليم ما وراء النهر وبسطوا الكلام في شتى مقاطعاته واعماله فبينوا اوضاع الاتراك وتجاراتهم واهم ما تميزوا به من منتوجات وبضائع ومنها الرقيق ، ونحن نجد هذه التفاصيل عند الحموي والاصطخري وابن خردا ذبه وابن الفقيه وغيرهم من الرحالة والجغرافيين ، وهذه صورة مما ذكره الاصطخري في المسالك والممالك. " واما ما وراء النهر فيحيط به من نحو شرقيه فامر (1) وراشت وما يتاخم الختل من ارض الهند على خط مستقيم وغربيه بلاد الغزية والخرلخية من حد طراز ممتدا على التقويس حتى ينتهي الى فاراب وبيكند وسغد سمرقند ونواحي بخارى الى خوارزم حتى ينتهي الى بحيرتها. وشماليه الترك الخرلخية من اقصى بلد فرغانة الى الطراز على خط مستقيم"(2)

وقد تحدثوا عن تجارات هذا الاقليم ومنتوجاته فلاحظوا ان من اهمها مادة الرقيق حتى ان الحموي يذكر لنا ان هذه المادة متوفرة جدا

---

1) زكريا كتابجي ــ الترك في مؤلفات الجاحظ ص 59
2) الاصطخري ــ المسالك والممالك ــ مطبعة بريل ليدن 1927 ـ ص 286 ــ 287

بهذا الاقليم وانها تفوق حاجة اهله اليها فيعمدون الى تصديرها الى بلاد الاسلام يقول في ذلك " واما الرقيق فانه يقع اليهم من الاتراك المحيطة بهم ما يفضل عن كفايتهم و ينقل الى الافاق وهو خير رقيق بالمشرق كله " (1) وهو ينقل هذه العبارات بحذافيرها عن كتاب المسالك والممالك للاصطخري (2) وقد فصل الاصطخري ما اجمله الحموي فاشار الى المناطق التي يجلب منها رقيق ما وراء النهر مثل منطقة " كران " و " وخان " و " السغيدة " وهي اذاك دار كفر " يقع منها السمك والرقيق " (3) وتحدث عن سعي الخلفاء العباسيين الى جلب هؤلاء الاتراك لما عرفوا به من حسن طاعة لمخدوميهم فقال " وهم من ذلك احسن الناس طاعة لكبرائهم والطفهم خدمة لعظمائهم وفيما بينهم حتى دعا ذلك الخلفاء الى ان استدعوا مما وراء النهر رجالها وكانت الاتراك جيوشهم لفضلهم على سائر الاجناس في البأس والجراءة " (4) .

---

1) ياقوت ـ معجم البلدان ـ ج17 - ص 45 - ابن حوقل. صوره الارض ج 2 ص447
2) الاصطخري ـ المسالك والممالك ص 288
3) المصدر نفسه ص 297
4) المصدر نفسه ص 291

ونحن نجد عند ابن حوقل تدعيما وتوضيحا لما سبق كما نجد عنده حرصا على تحديد المنطقة التي يجلب منها الرقيق التركي وهي حسب قوله المناطق المحيطة باقليم ما وراء النهر ومنها " وخان " و" شديقية " المجاورة لمنطقة " الوخش وختال " وهي تصدر رقيقا وفيرا يزيد عن حاجة ذلك الاقليم فينقله التجار الى اقاليم الاسلام الاخرى (1) .

ويفهم من كلام هؤلاء الرحالة الجغرافيين ان سمرقند هي اكبر سوق للرقيق باقليم ما وراء النهر ففيها تتجمع هذه البضاعة قبل توزيعها ببلاد المشرق الاسلامي ومنها يستورد ولاة خراسان وعمالها ما يريدون تقديمه من هدايا لمخدوميهم بعاصمة الخلافة " وقد روي ان طاهر بن عبد الله بن طاهر قال مرة لوكلائه " اذا وجدتم البرذون البخاري والبغل البرذعي والحمار المصري والرقيق السمرقندي فاشتروها ولا تستطلعوا رايا فيها " وذكر الاصطخري ان هذه المدينة قد كانت " مجمع رقيق ما وراء النهر " وان خير الرقيق بهذا الاقليم ما كان من تربيتها (2).

---

1) ابن حوقل ــ صورة الارض ج 2 ص 447 وص 458 وما بعدها

2) الاصطخري ــ المسالك والممالك ــ ص 318 ــ ابن حوقل. صورة الارض ج 2 ص 474

ويصفها المقدسي بقوله " قصبة الصغد ومصر الاقليم بلد سري جليل عتيق ومصر بهي رشيق رخي البال كثير الرقيق ... وفيهم نفخ وعجب ومرا جيدة الجواري رديئة الغلمان " (1) .

ولم يكن دور خوارزم اقل قيمة من دور سمرقند في هذا الشان فقد ذكر الاصطخري ان اكبر قسط من ثروة خوارزم متأت من تجارة الرقيق التركي. وذكر ان هذا الرقيق كان متنوعا من خزر وغزية وغيرهم فضلا عن رقيق الصقالبة يقول " ولهم باس على الغزية ومنعة وليس ببلدهم معادن ذهب ولا فضة ولا شيء من جواهر الارض. وعامة يسارهم من متاجرة الترك واقتناء المواشي. ويقع اليهم اكثر رقيق الصقالبة والخزر وما والاها من رقيق الاتراك " (2) ويشبه المقدسي خوارزم بسجلماسة في رواج تجارة الرقيق بها ويصفها بانها مستودع الغز والاتراك فيقول " واعلم ان مثل خوارزم في اقليم المشرق كسجلماسة في المغرب وطباع خوارزم كالبربر وهي ثمانون في ثمانين متصلة المنازل

---

1) المقدسي - احسن التقاسيم ص 278

2) الاصطخري ـ المسالك والممالك ص 305 ـ ابن حوقل. صورة الارض ج 2 ص 463

غزيرة الانهار معدن السمك والاغنام ومطرح الغز والاتراك (1).

ووصف الاصطخري رواج الرقيق التركي باسواق بخارى ايضا فقال

" ولهم داخل الحائط وخارجه اسواق متصلة معلومة في اوقات من الشهر دائرة يجري فيها من الشراء والبيع للثياب والرقيق والمواشي وغير ذلك مما يتسع به اهلها " (2) .

ويضيف ابن حوقل ان هذه البضاعة التركية الغزيرة باسواق خوارزم وبخارى وسمرقند كان تنتظ على ايدي التجار من اقليم ما وراء النهر الى بلاد الشرق الاسلامي عن طريق بوابة هي بلاد خراسان ، فاقليم خراسان هو الواسطة التجارية بين ما وراء النهر وبقية العالم الاسلامي . فقد كانت تستورد من هذا الرقيق ما يفي بحاجتها وما يمكن تصديره للاقاليم الاسلامية المجاورة لها (3)

3) **استرقاق الجنس التركي :**

اما الاسباب التي جعلت من هذا الجنس مادة للاسترقاق فهي كامنة في المناخ الاجتماعي والسياسي المتدهور الذي كان الشعب التركي يعيش فيه .

---

1) المقدسي ـ احسن التقاسيم ص 286
2) الاصطخري ـ المسالك والممالك ص 314
3) ابن حوقل ـ صورة الارض ج 2 ص 437

فلقد كان الاتراك في هذه الحقبة ومنذ ان انقرضت دولة كوك ــ توركلر -GÖK-TÜRKLƏR- (1) في النصف الاول من القرن الثامن ميلادي اي الثاني هجري لي سنة (123 هـ / 745 م) بسبب القلاقل والثورات التي حاكها لهم جيرانهم الصينيون في الخفاء. يعيشون في حالة فوضى سياسية وانقسام قبلي وانحلال عسكري وقد غلب عليهم البداوة وسكنى الفيافي وكانوا اقرب الى وضع التوحش منهم الى العمران.

يقول صاحب كتاب جامع التواريخ في وصف تبديهم (وحيث ان الاقوام الموسومين باسم الترك مقامهم وسكنهم في البلاد البعيدة التي طولها وعرضها من ابتداء طرف ماء جيحون وسيحون الى انتهاء حدود بلاد الشرق وانتهاء صحراء القبجاق الى غايه نواحي جورجية والخطا وفي تلك المواضع هم يسكنون الجبال والوهاد والاجام ولم يعتادوا السكنى في القرى والمدن) (2).

---

1) تاسست هذه الدولة سنة 552 م اي من عصر فجر الاسلام وامتدت حدودها من بلاد المغول وشمال الصين الى البحر الاسود = (Encycl of Islam T 6 p 900)

2) رشيد الدين ــ جامع التواريخ ج 1 ص 212

وقد كانت طبيعة معاشهم ذلك تدفعهم الى الاغارة على بعضهم بعضا وتمكن العداوة بين قبائلهم ولم تكن هناك سلطة مركزية توحد صفوفهم .ولولا بعض المصالح التجارية التي كانت تربط بين اقوام منهم لعمت الفوضى معظم مناطقهم " فقد كانت الولايات في هذه المنطقة تعترف بالخان سيدا لها وتدفع له الجزية ... وكانت امارة صغديان مقسمة الى ولايات صغيرة مستقلة تقوم بينها معاداة مرنة... وكان اقوى ما يصل بينها من رباط انما هو تجارة الحرير مع الصين ... وقد ارتبطت الولايات فيما عدا ذلك برباط ثان هو سيادة اسرة معينة فيها جميع الاسر الاخرى ولم يكن رباط وثيقا... وكان الى جانب هؤلاء الامراء سادة محليون لا تتجاوز سلطة الواحد منهم حدود قراه ... اما الاراضي الخاضعة للترك والتي كانت تجتاحها القبائل فلم تنشأفيها حكومة مركزية ومن ثم كانت الحروب والمنازعات ظاهرة ملازمة لها "(1)

ومما زاد اوضاعهم سوءا تدمر جيرانهم لهم في الشرق والغرب ففي الشرق كان الصينيون يهجمون عليهم بين الفينة والاخرى ويمزقون

---

1) شكري فيصل ــ حركة الفتح الاسلامي ص 160

كلمتهم و يزعزعون كيانهم . وفي الغرب كان المسلمون يرهقونهم ايضا بالهجومات المتتالية وهكذا امس كل شيء في هذه الاوضاع التركية المتدهورة ، مشجعا على التطاول عليها ونهبها واسترقاق اهلها وفرض انواع الاتاوات عليهم واتخاذها مصدرا هاما من مصادر جلب الرقيق .

ففي هذا العصر كانت المراكز التي دخلها الاسلام باقليم ما وراء النهر تستعد للغارة على الاتراك الذين لم يدخلوا في هذا الدين وقد وصف الاصطخري ذلك حين قال " ومستفيض انه ليس في الاسلام دار حرب هم اشد شوكة من الترك فهم ثغر المسلمين في وجه الترك يمنعونهم من دار الاسلام وجميع ما وراء النهر ثغر يبلغهم نفير العدو " (1) وكانت اهم تلك المراكز خراسان التي دأب ولاتها على محاربة قبائل الترك يقول اليعقوبي في ذلك " انهم يحيطون بارض خراسان ويحاربون من كل ناحية ويغزون فليس بلد من بلدان خراسان الا وهم يحاربون الترك وتحاربهم الترك من سائر الاجناس " (2)

لقد كانت هذه الاوضاع مناخا ملائما للاسترقاق وذلك لان قبائل الترك كانت تغير على بعضها بعضا وتستعبد اسراها فمما يذكر عن (الخرلخية)

---

1) الاصطخري ــ المسالك والممالك ص 291
2) اليعقوبي ــ البلدان ص 295

مثلا انهم كانوا عبيدا (للتغزغز) ويروى ايضا ان (البَجناك) كانوا يستهدفون لغارات الغزية والخزر اما (برداس) فكانوا يغيرون على (بلكار) وعلى (البجناكية) (1) وقد وصف لنا اليعقوبي هذه العلاقات العدائية بين قبائل الترك فقال : " والترك عدة اجناس وعدة ممالك فمنها - الخرلخية والتغزغز وتركش وكيماك وغز - ولكل جنس من الترك مملكة منفردة ويحارب بعضهم بعضا " (2) كما ذكر ابن رستة ان الخزر كانوا " يغزون البجاناكية في كل سنة " (3) وقد وصف لنا ياقوت الحموي الاسباب التي ادت الى وقوع الرقيق الخزري في ايدي التجار المسلمين فذكر ان " الذي يقع من رقيق الخزر هم اهل الاوثان الذين يستجيزون بيع اولادهم واسترقاق بعضهم لبعض فاما اليهود والنصارى فانهم يدينون بتحريم استرقاق بعضهم بعضا مثل المسلمين " (4) وشبيه بهذا القول ما ذكره ابن حوقل من ان الخزر وثنيون يسترقون بعضهم

---

1) المروزي ــ طبائع الحيوان ص 18 و ص 23
2) اليعقوبي ــ البلدان ص 295 ليدن ــ مطبعة بريل 1891
3) ابن رستة ــ الاعلاق النفيسة ص 140 . ليدن ــ مطبعة بريل ــ 1891
4) ياقوت ــ معجم البلدان ج 2 ص 368 بيروت 1956

بعضا ويعتبرون بيع اطفالهم امرا شرعيا (1) ويحدثنا ابن حوقل ايضا عن الرقيق التركي المجلوب من بلاد الغور باقليم خراسان فيقول ان بلاد الغور بلاد كفر تحيط بها بلاد الاسلام مثل هراة وفره ورباط كروان وتخضع لمحمد بن فرغون امير الجوزجان فكان رقيقها يرسل الى هراة وسجستان وماجاورها وقد بقيت هذه البلاد على كفرها رغم انها محاطة بمناطق اسلامية فاستمر جلب الرقيق منها (2) .

ويشير المقدسي الى بعض المناطق الاسيوية التي لم يعمها الاسلام مثل المناطق المتاخمة لارض الصين كفرغانة واشروسنة وبقيت من اجل ذلك مصدرا للرقيق التركي فيذكر لنا ان فرغانة واسبيجاب قد كانتا معدنا للرقيق التركي (3) كما يشير الى ان قسما كبيرا من بلاد الخزر قد بقي على الكفر وان الخليفة المامون كان يغزوهم من الجرجانية وان الروس كانوا يهجمون عليهم ويسترقونهم (4) .

---

1) ابن حوقل ـ صورة الارض - الترجمة الفرنسية ج 2 ص 385

2) المصدر نفسه ج 2 ص 430 - بارتولد - تركستان - Turkistan - انظر ص 338

3) المقدسي - احسن التقاسيم ص 325

4) المصدر نفسه - عن الاسكندر صايبل - أخبار امم المجوس ص 76 - ابن سعيد المغربي - بسط الارض ـ عن صايبل - أخبار امم المجوس ص 101

ب) المسلمون وتوريدالرقيق التركي :

أ- قبل القرن الثالث للهجرة :

لقد ظهرت حركة توريد الرقيق التركي عن طريق التجارة منذ القرن الثاني للهجرة وذلك منذ ان بدا ينضب معين الفتوحات بما وراء النهر وانتشر الاسلام في اكثر مراكز ذلك الاقليم ، فبعد ان كانت افواج الرقيق تتدفق على البلاد الاسلامية عن طريق الغزوات التي قام بها الخلفاء الراشدون والامويون صار التجار يقومون مقام الغزاة في جلب هذه البضاعة الى الاسواق الاسلامية ، فمنذ ان استقر الامر للخلفاء العباسيين سعوا في اقتناء الرقيق التركي جريا على عادتهم في استعمال الاعاجم للاستغناء بهم عن خدمات العرب ، وقد كان الخليفة المنصور (136 هـ / 158 م) اول من اعتمد عليهم من الخلفاء العباسيين واتخذ منهم حاجبا له ثم اقتدى به الخلفاء من بعده كالمهدي والهادي والرشيد والامين وغيرهم ، يقول الثعالبي في لطائف المعارف " اول من اتخذ الاتراك من الخلفاء المنصور اتخذ حمادا ثم اتخذ المهدي مباركا ثم اقتدى بهما الخلفاء وسائر الناس " (1) .

---

1) الثعالبي ــ لطائف المعارف ص 20

وكان الخلفاء العباسيون قد فضلوا ان يكون حجابهم من الاتراك لانهم وجدوا فيهم الخصال المطلوب في الحجابة ، لما تميزوا به من جمال الطلعة وقوة البنية.وهي خصال تشيع هيبة الخليفة في قلوب الناس وتشعرهم برافته ورحمته في الان نفسه . وما الحاجب في راي المسلمين اذاك الا صورة من الخليفة في رافته وغلظته يقول الجاحظ في كتاب الحجاب : ((ان الحاجب احد وجهي الملك يعتبر عليه برافته ويلحقه ما كان في غلظته وفصاصته فاتخذ حاجبك سهل الطبيعة معروفا بالرافة مألوفا منه البر والرحمة وليكن جميل الهيئة حسن البسطة)) (1) .

ففي هذا التصور اذن لمهمة الحاجب ما دفع الخلفاء الى اقتناء حجابهم من هذا الجنس المعروف بشدة البدن وجماله والى اتباع هذه السنة بشكل يكاد يكون مطردا فقد استحجب المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م) وصيفا ثم حماد بن دنقش واتخذ الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م) حاجبه ايتاخ ووصيف واستعمل المتصر (٢٤٧-٢٤٨هـ/ ٨٦١-٨٦٢م) حاجبه وصيف ثم بغا ثم اوتامش ....

---

1) الجاحظ ـ كتاب الحجاب ـ رسائل الجاحظ ج2ص38ـ39

واستحجب المستعين (218-252هـ/ 832-866م) اوتامش وكان حاجب المعتز (252-255هـ/ 866-869م) سماح بن صالح بن وصيف وحاجب المهتدي (255-256 هـ/ 869-870 م)بالابا كوصالح بن وصيف وحاجب المعتمد (256-279هـ/870-892 م) موسى بن بغا وجعفر بن بغا وبكمتر. وكان هؤلاء الحجاب جميعا من الاتراك (1) .

وقد اقتنى الخلفاء العباسيون الاولون الرقيق التركي لغاية اخرى هي استخدامهم في الجند ، فمنذ عهد الخليفة المهدي(158-169هـ/ 775-785م) نجد ذكرا لفرقة من جنود الاتراك بقيادة شاكر التركي (2) . وقد استمر وجودها في عهد الخليفة الهادي (169-170هـ/785-786م) بقيادة مبارك التركي الذي ساهم في التنكيل بالحسين بن علي عندما ثار بالمدينة سنة (169 هـ/ 785 - م) (3) كما انشاء حصنا بقزوين سمي بمدينة المبارك او المدينة المباركية ونقل اليها كثيرا من الاتراك (4) اما في عهد الخليفة الرشيد (170-193 هـ/ 786-790م) فقد كان الحرس مكونا

---

1) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج 5ص121ـ126
2) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص151
3) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ـ المطبعة الحسينية - مصر - ج 10ص 34
4) ياقوت ـ معجم البلدان ج 17ص51و ص 79

من الرقيق التركي وهذا الحرس هو الذي امر الرشيد بصفه والباسه الحديد بمناسبة استقبال وفد من الهنود (1) كما كان في جيوش هذا الخليفة قواد اتراك مشهورون منهم ابو سليمان التركي الذي تولى قيادة بعض الثغور مثل مدينة عين زربى سنة (190 هـ/ 806م) وذلك قبل ان يخربها الروم (2) ومنهم كذلك ابو سليم فرج الخادم الذي بنى مدينة طرسوس وعمرها سنة (170 هـ/ 786م) (3) هذا فضلا عن الرقيق المؤلف من الغلمان والجواري الاتراك الذين كانوا في بلاطه واقتناهن لحاجته الخاصة وقد صار بعض اولائك الجواري امهات اولاده مثل ام المعتصم وام المامون .

وقد وفر لنا بعض الشعراء شهادة بينة على وجود فرق من الجند التركي في جيش الامين العباسي ابان الفتنة التي قامت بينه وبين المأمون أخيه فقد قال الشاعر الخريمي واصفا الاتراك في جند الامين :

والخيل تستنّ في ازقتها بالترك مسنونة خناجرها (4)

---

1) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج 8 ص 261 ـ 262
2) ياقوت ـ معجم البلدان ج 14 ص 177
3) ابن كثير ـ البداية والنهاية ج 10 ص 161
4) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ـ المطبعة الحسينية بمصر ـ ج 10 ـ ص 179

ب- خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة :

لكن حركة جلب الرقيق التركي لم تكن في عهد هؤلاء الخلفاء العباسيين الاولين واسعة النطاق لان العباسيين لم يفقدوا بعد كل ثقتهم في مواليهم من الفرس فكانت حاجتهم الى هذا الجنس التركي غير ملحة ، الا انهم سيشعرون شيئا فشيئا بخطر العصبية الفارسية وسيدركون بمرور الزمن ان عليهم ان يعولوا على عنصر جديد يثقون به ويحميهم من المتطاولين عليهم (1) ولعل هذه الاسباب هي التي جعلت حركة توريد الرقيق التركي تشهد نشاطا حثيثا منذ بداية القرن الثالث للهجرة اي في عهد الخليفة المامون (198 هـ - 218هـ/ 813 - 833 م) فمنذ ان كان المامون واليا على خراسان وقبل توليه الخلافة كان وثيق الصلة بالاتراك يغزو المناوئين منهم ويكرم المطيعين واستطاع ان يكون منهم جندا خاصا به ، يقول الجاحظ في وصف هذا الجند " رايت في بعض غزوات المامون سماطي خيل على جنبتي الطريق بقرب المنزل مائة فارس من الاتراك في الجانب الايمن

---

1) فازيلياف -Vasiliev- العرب والروم ص 10 - 12

ومائة من سائر الناس في الجانب الايسر واذا هم قد اصطفوا ينتظرون مجيء المامون وقد انتصف النهار واشتد الحر فورد عليهم وجمع الاتراك جلوس على ظهور خيولهم الا ثلاثة او اربعة)) (1)

وعندما تولى المامون الخلافة كان الولاة يجلبون الى بغداد المماليك والاتراك . ففي سنة (200هـ/ -815- م) ارسل ابن اسد الصامي احد عمال المامون بخراسان مجموعة من الرقيق التركي كان من بينهم طولون الذي سيكون لابنائه فصل تاسيس الدولة الطولونية بمصر . وقد قرب المامون طولون هذا وولاه منصب رئاسة حرسه الخاص ولقبه باميير الستر. كما قرب اليه القائد حيدر ابن كاوس الملقب بالافشين واستعمله في اخماد ثورة بمصر (3) وقد بدات فكرة التعويل على الاتراك واستخلاصهم لخدمة الدولة والدفاع عنها وضرب العصبية العربية والفارسية بصولتهم تختمر في عهد المامون. فقد كثرت القلاقل في هذا العهد وتنوع مصدرها واندلعت الثورة بمصر سنة (215/ 217هـ/ 830- 832 م) (4) ....

---

1) الجاحظ ـ رسائل الجاحظ ـ ج 1 ص 61
2) جرجي زيدان ـ تاريخ مصر الحديث ج 1 ص 180
3) كليمان هوار - Cl. Huart - تاريخ العرب ج 1 ص 303
4) الكندي ـ الولاة ص 189

وثار اهل بغداد وولوا ابراهيم بن المهدي الخلافة (1) ونادى الثائر نصر بن شيث بالتعصب للخليفة الامين واحدث بابك الخرمي تمردا كبيرا وصدرت عن العلويين انتفاضات مشابهة (2) كل هذه الاحداث دعت الى التفكير في عنصر جديد يكفي الخلافة هذا الشر المستطير واشعرت بالحاجة الى جند ممرن على القتال قوي الشكيمة صعب المراس في وقت لم يعد بالامكان التعويل فيه على العرب والفرس بسبب تشتت اهوائهم وتناحرهم.

وكانت الانظار موجهة اذاك الى العنصر التركي الذي لم يصب بعد بعدوى هذا التناحر والتعصب بحكم قرب عهده بخدمة الدولة وباعتناقه الاسلام والذي اتصف بدربته على النزال وببلائه في الحرب وبسالته فيها، والواقع ان شهرة الاتراك بالشجاعة قد كانت حافزا على مزيد اقتنائهم واستعمالهم في الحروب ونحن نلمس صدى هذه الشهرة في ادب هذا العصر وخاصة منه رسالة الجاحظ في مناقب الترك فقد ذكر ان لتوحش هؤلاء الاتراك المجلوبين وتعودهم

---

1) الطبري ــ تاريخ الامم والملوك - المطبعة الحسينية - مصر - ج 10 ص 345
2) ابن قتيبة ــ المعارف ــ ص 391

على سكنى الفيافي يد في تخلقهم باخلاق البدو وشجاعتهم حتى عرفوا بانهم اعراب العجم لم تضعف المدنية باسهم ولا شغلتهم علوم ولا صناعات ولا تجارات عن الغارة والغزو وركوب الخيل والبحث عن الغنيمة .فكانت لذتهم الكبرى في الحرب وبها فخرهم وكان منتهى علمهم علم الفروسية والمعرفة بخصائص الخيل وضعهم لسيوفهم بايديهم. يقول الجاحظ في وصف ذلك (1) : (ولو حصلت عمر التركي وحسبت ايامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته اكثر من جلوسه على ظهر الارض. والتركي يركب فحلا اورمكة ويخرج غازيا او مسافرا او متباعدا في طلب صيد او سبب من الاسباب فتتبعه الرمكة وافلاؤها ان اعياه اصطياد الناس اصطاد الوحش . . . والتركي هو الراعي وهو السائس وهو الرائض وهو النخاس وهو البيطار وهو الفارس . . . . . واذا سار التركي في غير عساكر الترك فسار القوم عشرة اميال سار عشرين ميلا لانه ينقطع عن العسكر يمنة ويسرة ويسرع في ذرى الجبال ويستبطن قعور الاودية في طلب الصيد .وهو في ذلك يرمي كل ما دب ودرج وطار ووقع) ويقول في موطن آخر (الترك اصحاب

---

1) الجاحظ. مناقب الترك ــ ص 48 ــ 49

عمد وسكان فياف وارباب مواش وهم اعراب العجم كما ان هذيلا اكراد العرب .فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا شق انهار ولا جباية غلات ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الابطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان وكانت هممهم الى ذلك مصروفة وكانت لهذه المعاني والاسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها احكموا ذلك الامر باسره واتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم. فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة واهل الصين في الصناعات والاعراب فيما عددنا ونزلنا وكآل ساسان في الملك والرياسة) (1) وقد اشار الجاحظ ايضا الى ميزة اخرى عرف بها الاتراك ورغبت الدولة العباسية في اقتنائهم للمهام العسكرية ونعني بها مهارتهم في الرمي بالنشاب.فهم رماة بارعون وسلاحهم " نشاب معهم في جعاب كانها ايور الفيلة يدزعون من قسي كانها العتل تشط احداهن

---

1) المصدر نفسه ص 70ـ71

اطيط الزرنوق يمغط احدهم فيها حتى يتفرق شعر ابطيه ثم يرسل لشابة كانها رشاء ملقطع فيما بين احدكم وبين ان تفضح عينيه او يصدع قلبه منزلة " (1) ولم يكن الخلفاء غافلين عن هذه الخصائص الحربية التي تميز بها العنصر التركي . بل كانوا يجدون فيها ما يشجعهم على تجديد معداتهم الحربية باسلحة اكثر فتكا وعلى الزيادة في جلب الرقيق التركي ، فثارت مناقشات في المجالس حول موضوع اقتناء الاتراك لهذا الغرض. وكان فيها المحبذون لهذا الاختيار والرافضون له . وقد وصف لنا الجاحظ احد هذه المجالس التي عقدت في قصر الخلافة وحضرها وجهاء رجال الحرب والسياسة مثل القاسم بن سيار ومحمد بن الجهم وثمامة ابن اشرس ويخشاد الصغدي ويحيى بن معاذ وحميد بن عبدالحميد وابو شجاع شبيب بن بخارخداي البلخي وذو اليمينين طاهر بن الحسين وغيرهم من مشاهير القواد والوزراء .

---

1) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 7 ص 174

وكان الخليفة المامون قد احب ان يختبر صحة رايه في بسالة الاتراك وشجاعتهم فوجه لجلسائه السؤال التالي : " ايما احب الى كل قائد منكم اذا كان في عدته من صحبه وثقاته ان يلقى مائة تركي او مائة خارجي ؟" وذلك لان الخوارج كانوا من شجعان العرب ومن المسلمين المستميتين في نشر دعوتهم والمقدمين على الاستشهاد في سبيلها . فاختار المامون ان يقارن بينهم وبين الاتراك حتى يتاكد من بسالة هذا العنصر الجديد ويقف من امرهم على ما يثلج به صدره .

وقد اجاب الجميع عن هذا السؤال بانهم يفضلون لقاء مائة تركي على لقاء مائة خارجي . وفي جوابهم هذا شهادة بتفوق الخوارج على الاتراك في الشجاعة ، لكن احد القواد وهو حميد بن عبد الحميد قد خالف هذا الاجماع . وشهد بفضل التركي على الخارجي واحتج على رايه هذا بحجج منها ان التركي اكثر شدة من الخارجي واحسن رماية وصبرا على السفر وقطع المسافات . وامضى سلاحا واحكم صفوفا واقل اختلافا . ومنها ان الخارجي يستلهم شجاعته

من عقيدته الدينية بينما يستمدها التركي من فطرته وجبلته .

وقد انتهت هذه المناقشات بتصويب راي حميد بن عبد الحميد حتى قال المامون "ليست بالترك حاجة الى حكم حاكم بعد حميد فان حميدا قد مارس الفريقين " (1) .

ولم يكن هذا المجلس هو الوحيد الذي درست فيه هذه القضية في عهد المامون. بل ان هذا الخليفة كان طرحها على بطانته وجلسائه مرارا عديدة. لكن النقاش لم يكن يفضي دائما الى تجميد الاتراك وتفضيلهم. وذلك لان مجالسه لم تزل تعج بالمتحمسين للعصبية العربية او الفارسية بالرغم من ظهور هذه النزعة الجديدة المتحمسة للعنصر التركي ، فمن الطبيعي اذن الا يقدم المامون على تحقيق فكرته في اصطفاء الاتراك والاعتماد عليهم في شؤون السلم والحرب ما دامت الظروف السياسية والاجتماعية لم تسمح بعد بمثل هذا التصرف. وهكذا يمكننا ان نفهم لماذا كانت عملية توريد الرقيق التركي في عهد المامون محددة بالقياس الى ما سيحدث من جلب لهذه البضاعة في العهود الموالية.

---

1) الجاحظ ـ الرسائل ج ـ 1 ص 40 ـ 56

ج - ازدهار تجارة الرقيق التركي :

وقد تغيرت الاوضاع السياسية والاجتماعية بعد عهد المامون.وكان تغيرها عاملا من عوامل ازدهار تجارة الرقيق التركي ، فقد سمح خلفاء المامون لانفسهم بان يفسحوا المجال امام الاتراك ليلعبوا دورهم في ميادين الحياة السياسية والعسكرية والادارية والاجتماعية ولم يقفوا حيث وقف المامون.بل نسجوا على منواله اول الامر ثم كرسوا كل جهودهم في هذا الاتجاه بعد ذلك .

والواقع ان الخليفة المعتصم (218 - 227 هـ/ 833 - 842م) هو اول من جعل عملية جلب الاتراك سياسة رسمية للدولة.فقد كان منذ خلافة اخيه المامون من المشجعين على هذه السياسة. ويروى عنه انه كتب لاخيه منذ سنة (214 هـ/ - 829 - م) باتخاذ الاتراك وجلبهم الى عاصمة ملكه (1) فلما تولى الخلافة بذل ما في وسعه لجلب الرقيق التركي من بلاد ما وراء النهر

---

1) ابن قتيبة ــ المعارف ــ ص 391

الى العاصمة ،وبالغ في شرائهم ودعم بهم اسس الدولة ،وحصن بهم قصره . وقام في هذا المجال بما لم يقم به سابقوه. يقول البلاذري في وصف هذا التصرف " ثم جاءت خلافة المعتصم فكانت رغبته في الترك اكثر من الخلفاء السابقين . وجلب الاتراك من ما وراء النهر والف جيشا كثيفا منهم من اهل الصغد وفرغانة واشروسنة والشاش حتى صار جل شهود عسكره من جند ما وراء النهر " (1) .

وقد كان المعتصم يبذل الاموال لشراء الترك من اسواق الرقيق الداخلية . ولم يكتفي بذلك فصار يكلف ولاته على خراسان بتزويد حاضرة الخلافة بافواج من الرقيق المجلوب من اقاصي بلاد ما وراء النهر ، وقد وصف الاصطخري تصرفه هذا بقوله " بلغني ان المعتصم كتب الى عبد الله بن طاهر كتابا عرض تهدده فيه وانفذ الكتاب الى نوح بن اسد . فكتب اليه ان بما وراء النهر

---

1) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص 606

ثلاث مائة الف قرية ليس فيها من قرية الا خرج منها فارس وراجل لا يبين على اهلها فقدهم... وبلغني ان بالشاش وفرغانة من الاستعداد ما لا يوصف مثله عن ثغر من الثغور وهم مع ذلك احسن الناس لكبرائهم والطفهم خدمة لعظمائهم وفيما بينهم حتى دعا ذلك الخلفاء الى ان استدعوا مما وراء النهر رجالا وكانت الاتراك جيوشهم لفضلهم على سائر الاجناس في الباس والجراة والشجاعة والاقدام وحسن الطاعة والهيئة في الملبس والزي السلطاني فصاروا حاشية الخلافة وثقاتهم ورؤساء عساكرهم مثل الفرغانة والاتراك الذين هم شحنة دار الخلافة " (1) ، وذكر صاحب النجوم الزاهرة ان المعتصم " اشتراهم وبذل فيهم الاموال والبسهم انواع الديباج ومناطق الذهب وامعن في شرائهم حتى بلغت عدتهم ثمانية الاف مملوك وقيل ثمانية عشر الفا " (2) ويبدو ان هذا الرقم الاخير هو الارجح (3). اما المسعودي فيذكر انه

---

1) الاصطخري ــ المسالك والممالك ــ ص 91 2

2) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج 2ص323 ــ انظر احمد امين ــ ظهر الاسلام ــ ج 1 ص 3 دار الكتاب العربي ــ بيروت لبنان ــ الطبعة الخامسة 1388هـ/ 1969م .

3) المرجع نفسه -

كان يحب شراء الاتراك من ايدي مواليه وانه اتخذ منهم مجموعة ميزها بالزي عن سائر جنوده (1) .

وقد وصف ابن خلكان ايضا جلب المعتصم لجماعات كثيرة من فرغانة فقال " وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جلب اليه من فرغانة جماعة كثيرة " (2) .

وهكذا توافد الرقيق التركي على بغداد فقدر السيوطي عدد غلمانه منهم ببضعة عشر الف في حين قدر ياقوت جنده منهم بسبعين الف. وقدره ابن تغري بردي بثمانين الف ، وقد اشار بعض شعراء العصر الى هذا العدد فقال علي بن الجهم.

امامي من له سبعون الفا من الاتراك مسرعة السهام (3)

وقد كانت سياسة الجلب التي تعطاها المعتصم نتيجة دوافع سياسية واجتماعية وظاهرة حتمتها ظروف تاريخية معينة وليست ضربا من القرارات الفردية ، فقد كانت اوضاع الخلافة العباسية

---

1) المسعودي ــ مروج الذهب ح 2 ص 118
2) ابن خلكان ــ وفيات الاعيان ــ ج 4 ص 147
3) الاصفهاني ــ كتاب الاغاني ــ ح ص . فازيلياف ــ العرب والروم 10ــ12

منذ عهد المامون باعثة على سلوك هذه السياسة.فلم يكد يحين عهد المعتصم حتى ازدادت تلك الاوضاع تفاقما وازدادت الثقة في العرب والفرس ضعفا. فقد عمد الفرس الى الاستبداد بالسلطان وذهب العرب الى احداث الشغب دفاعا عن عصبيتهم فصارت الحاجة الى اتخاذ جيش قوي لقهر هاتين العصبيتين ملحة (1) وشعر الخليفة بالخطر المهدد من قبل الثورات الداخليةو هجومات الروم من الخارج وادرك ان انقسام الجنود الفرس والعرب يشكل وبالا على الدولة فرسخ اعتقاده في ان الحل كامن في اصطناع هذا الجنس الممتاز بخصاله الحربية وزاده تمسكا بفكرته تاثره بامه واخواله وقد كانوا اتراكا (2) فلا غرابة بعد هذا اذا كان المعتصم قد مال الى الجنس التركي وتشبه به حتى في اخلاقه ، قال السيوطي : " كان المعتصم يتشبه بملوك الاعاجم ، اي خواقين الاتراك ويمشي مشيهم " (3) ومن الطبيعي كذلك ان تكون سياسة الجلب للاتراك

---

1) كليمان هوار ــ تاريخ العرب ــ ج 1 ص 303
2) الطبري ــ تاريخ الامم والملوك - المطبعة الحسينية - مصر - ج 10 - ص360
3) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص 232

بين محبذ وناقم عليها حسب الاهواء السياسية والاجتماعية التي كانت تضطرم في افئدة الناس اذاك ، وكان الجاحظ من المحبذين لهذه السياسة ومن المدافعين عنها بقلمه فقد الف رسالة في مناقب الترك اراد تقديمها للمعتصم ليشجعه على جلب الترك واتخاذ الجند منهم (1) اما الشاعر العلوي دعبل الخزاعي المعروف بتعصبه لال البيت فيمثل النزعة المعارضة لهذه السياسة وقد هجا المعتصم بسببها فقال فيه :

وقام امام لم يكن ذا هداية ... فليس له دين وليس له لب
ملوك بني العباس في الكتب سبعة ... ولم تاتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك اهل الكهف في الكهب سبعة ... خيارا اذا عدوا وثامنهم كلب
واني لاعلي كلبهم عنك رفعة ... لانك ذو ذنب وليس له ذنب
لقد ضاع امر الناس اذ ساس ملكهم ... وصيف واشناس وقد عظم الكرب
وهمك تركي عليه مهانة ... فانت له ام وانت له اب (2)

وقد وصفت لنا المصادر مشاهد جلب الاتراك الى عاصمة الخلافة وما احدثته من سخط بين اهل بغداد. فقد روي ان افواج الرقيق التركي عندما دخلت هذه المدينة احدثت بها الهيجان لانها لم تكن قد تعودت الحياة في المدن والفت حياة التجوال في سهول آسيا الوسطى فكان اولئك الاتراك يركضون جيادهم

---

1) الجاحظ - فضائل الاتراك - رسائل الجاحظ ج 1 ص 5
2) ديوان دعبل بن علي الخزاعي ص 234

في الاسواق ويتدربون بالسلاح في ساحات العاصمة.وربما داسوا خلال جولاتهم بعض الاطفال والشيوخ وقتلوهم.فولد ذلك الصنيع الحقد في نفوس العرب والفرس خاصة انهم لاحظوا تمييز المعتصم لهم وتكريمهم بالاموال.فكانوا كلما وجدوا تركيا منفردا قتلوه فاشتكى الاتراك للمعتصم وكثر الخصام بين الفريقين.فكان هذا سببا من اسباب انشاء مدينة سامراء.وذلك ان الخليفة قد خشي مغبة العداوة بين اهل بغداد والاتراك المجلوبين فقال لخلصائه " اطلبوا لي موضعا اخرج اليه وابني فيه مدينة واعسكر به فان رابني من عساكر بغداد حادث كنت بدجوة وكنت قادرا على ان آتيهم في البر والماء" (1).

يقول المسعودي في وصف هذه الاحداث " كانت الاتراك تؤذي العوام بمدينة السلام بجريها الخيول في الاسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك.فكان اهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة او شيخ كبير او صبي او ضرير فعزم المعتصم على

---

1) ابن طباطبا ـ الفخري ـ ص 188

النقلة معهم . . . فانتهى الى موضع سامراء فاحضر الفعلة والصناع واهل المهن من سائر الامصار، ونقل اليها من سائر البقاع انواع الغـــروس والاشجار، فجعل للاتراك مواضع متميزة وجاورهم بالفراغنـة والاشروسنية . . واقطع اشنـــاس التركي واصحابه من الاتراك الموقع المعروف بكـــرخ سامرا " (1) . وهكذا وقع الشروع في بناء سامراء سنة (221هـ/ 836 م) ونقل اليها الجنود الاتراك واقطعوا بها القطائع ودامت سامراء موطنـا لهم طيلـة القرن الثالث الهجري ثم اضمحلت سنـة (289هـ/ 902 م) عقب خلافـة المعتضد العباسي (279-289هـ/ 892-902م) (2)

وهكذا احتل الاتراك المكانـة التي كان يحتلها الفرس فـــي الدولة العباسية فبعد ان كانت الامور بيد رجال مثل ابي مسلم الخراساني والبرامكـة والحسن بن سهل والفضل بن سهل وعبد الله بن طاهر وامثالهم صارت الدولة تعتمد على رجال من الترك مثل اشناس وايتاخ والافشـــين وبغا الكبير وبغا الصغير وابن طولون وغيرهم . ومنذ عهد المعتصم نجـــد الاتراك يحتلون المكانـة الكبرى في جند مصر . فقد كتب هذا الخليفـة

---

1) المسعودي ــ مروج الذهب ــ ج 7 ص 118 وما بعدها
2) ياقوت ــ معجم البلدان ــ ج 10 ص 176

الى واليه على مصر وهو كيدر واسمه نصر بن عبد الله يامره بحذف اسماء العرب من ديوان العطاء. فانجر عن هذا الاجراء خروج يحيى ابن الوزير الجروي في حوالي خمسمائة رجل من لخم وجذام. لكن مظفر ابن كيدر هزمهم واسر يحيى بن الوزير. ومنذ هذه الحادثة صار جند مصر من الموالي والعجم فكان ولاتها يجلبون الغلمان الاتراك ويجندونهم مثلما حدث ذلك في عهد احمد بن طولون(ت270هـ/884م)اذجلب منهم مايزيد عن اربعة وعشرين الف غلام (1) اما ولاة مصر فقد صاروا يتخذون من الترك ايضا فمنذ سنة 242 هـ وحكام مصر اتراك اي منذ ان تولاها يزيد ابن عبد الله بن ديبار التركي. بل كانت هذه الولاية قبل هذا التاريخ بعشرين سنة تمنح لحاكم تركي يقيم في بغداد وينوب عنه امير يقيم بمصر. وقد استمرت هذه السلطة التركية بمصر وبلغت اوجها مع الطولونيين والاخشيديين .

وقد تزايد جلب الاتراك في عهد الخليفة الواثق (228-232هـ/842-847 م)بتزايد الفتن و القلائل. اذ اندلعت حركات عصيان

---

1) الكندي ـ الولاة ـ 194 المقريزي ـ الخطط ج 1 ص 94

بين عرب قبائل الحجاز وشمال الجزيرة استدعت تعزيزا للجند التركـــــــي كي يتمكن من ارجاع الامن الى نصابه . وقد اعتمد الواثق في اخمـــاد تلـك الثورات على قواده الاتراك وخاصة منهم بغا (1) ويمكن القول بان ظاهرة اخـرى برزت في هذا العهد وكانت مواكبة لحركة جلب الرقيق التركي ونعني بها تفويض العباسيين السلطة لمماليكهم الاتراك. فمنذ ان تولى الواثق بالله الخلافة نـراه يستخلف على السلطة اشناس التركي ويلبسه وشاحين مجوهرين وتاجا مجوهـــرا "وهو اول خليفة استخلف سلطانا بعد ان كثر الترك في ايام ابيه "(2) وقد مضى الواثق شوطا آخر في تقليد الاتراك المناصب السياسية والعسكرية فاسند لاشناس التركي جملة من الاعمال منها الشام ومصر والمغرب والجزيرة . فما ان انتهى عهد الواثق حتى كان بيد الاتراك حظ كبير من النفوذ في الدولة وشعر الخلفـــــاء العباسيون منذ ذلك الوقت بتدخل هذا العنصر في كل صغيرة وكبيرة وبطموحـه الى الاستبداد بالسلطان .

وازداد تيار جلب الاتراك الى عاصمة الخلافة قوة في عهد المتوكل على الله (232-247 هـ/ 847-861م) اذ بلغ عددهم في الجيش ما يضيف على مائتي الف بعد ان كان عددهم في زمن المعتصم سبعين او ثمانين الف تركي . وقد تكونـت

---

(1) اليعقوبي ـ التاريخ ـ ج 2 ص 480 ـ الطبري تاريخ الامم والملوك . المطبعة الحسينية . ج 11 ص 21

(2) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص 236 ـ

فرقة من الجنود الاتراك في صلب الجند وكانت تسمى بالشاكرية.وقد روى الطبري "ان المتوكل وجه زيرك التركي الى محمد بن البعيث بن حلس في مائتي الف فارس من الاتراك فلم يصنع شيئا.فوجه اليه المتوكل عمرو بن سيسل بن كال في تسعمائة من الشاكرية فلم يغن شيئا.فوجه اليه بغا الشرابي في اربعة آلاف مابين تركي وشاكري ومطربي "(1).

وقد كان الخليفة المتوكل اول من شعر بخطر قوة الاتراك منذ توليه اذ اصبح النفوذ التركي حاسما وصاروا كالحرس البريتوري في الامبراطورية الرومانية يعزلون ويبولون (2) وفعلا فقد لاحظ المتوكل ان وجهاء الاتراك قد حاولوا مبايعة ابن الواثق مكانه رغم صغر سنه .ولما احبطت مساعيهم عزم على الانتقام منهم وبدا الصراع منذ ذلك الحين بين الاتراك والخليفة العباسي (3) فقتل المتوكل ايتاخ خوفا من نفوذه .اذ كان يشرف على حشر الاتراك والمغاربة والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة.لكن الدائرة دارت على المتوكل فيما بعد وعلى عبره من خلفاء بني العباس (4) وذلك ان الاتراك بعد قتل المتوكل صار بايديهم الامر والنهي .

---

(1) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك - المطبعة الحسينية بمصر - ج 11 ص 33

(2) فازيلياف - VASILIEV - العرب والروم ـ ص 10 ـ 12

(3) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك . المطبعة الحسينية بمصر - ج 11 ص 23

(4) ابن الاثير ـ الكامل ـ ج 5 ص 282 ـ 302

وقد ازداد الامر استفحالا في عهد المنتصر (247هـ 248هـ/861-862م) والمستعين (248ـ252هـ/ 862 - 866 م) والمعتز (252هـ ـ255هـ/866-869م) والمهتدي (255ـ256هـ/ 869 - 870م) وسيطر الاتراك على الدولة سيطرة عامة وتولوا تقريب بني جنسهم وساعدوا على تنشيط عملية جلبهم من اقاصي ما وراء النهر فضاق الناس باستبداد هذا الجنس حتى صرح بعض الشعراء بانه يفضل ان يغلق عليه بابه حتى لا يرى قرودا ممتطية سروجا (1) وقد انقلب خلفاء بني العباس الى لعب تحركها ايدى الاتراك وتقرر مصيرها. فقد روى ان طباطبا انه "لما جلس المعتز على سرير الخلافة قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . فقالوا له : فكم تقول انه يعيش ولم يهلك ؟ قال : مهما اراد الاتراك. فلم يبق في المجلس الا من ضحك "(2).

وقد كان لسيادة الاتراك هذه علاقة متينة بتجارة الرقيق وذلك ان هذا الجنس الذى جلب من بلاد ما وراء النهر في شكل رقيق قد سار على هذه الخطة من استيراد الرقيق والتعويل على خدماتهم بمجرد ان آلت السلطة اليه. فاستعمل نفوذه للاستكثار من توريد الرقيق التركي وسلك سياسة اقطاعية تقوم اساسا على الأيدى

---

(1) فازيلياف - Vasiliev - العرب والروم ـ ص 10 = 12

(2) ابن طباطبا ـ الفخرى ـ ص 197ـ

العاملة المسترقة فوسع بذلك من مجال جلب هذه البضاعة وترويج تلك التجارة. فكأن هؤلاء الاتراك الذين كانوا في الاصل ارقاء اشتراهم العباسيون من اسواق النخاسة ثم اعتقوهم وولوهم مناصب سياسية قد تاطت عادة الاسترقاق في نفوسهم واعتبروا الرق نظاما وتقليدا يتبع " فسعوا الى توسيع دائرة الرق وامتلكوا بدورهم الاف الرقيق . واصبح الارقاء بالامس اسيادا يسومون رقيقهم العذاب . وعاش الاتراك في قصور ضخمة فخمة اصبحت في حاجة الى عشرات الغلمان يتوفرون على خدمتهم، وعشرات الجواري والقيان والراقصات لاضفاء جو المرح واللهو على هذه القصور. وتنافس زعماء الاتراك في ميادين السياسة حول السلطة والنفوذ فاصبحوا في حاجة الى عصبية يقوون بها ويستعينون بها في الوصول الى مراكز السلطة. فاشتروا الاف الارقاء اتخذوهم حرسا وجندا واتباعا ، وامتلك هؤلاء ايضا ضيعات واسعة تضم الاف الافدنة واصبحوا في حاجة الى الاف الرقيق يسخرونهم في فلاحة اقطاعياتهم " (1)

1) علي حسني الخربوطلي - 10 ثورات في الاسلام ص 177

وقد كون العباسيون منذ عهد الخليفة المعتضد (279-289هـ 892-902م) فرقة من العلمان الاتراك سموهم بالغلمان الحجرية لانهم كانوا يسكنون بيوتا تدعى الحجر ، وكلفوهم بحراسة الخليفة وجعلوهم تحت رئاسة خصيان كبارهم الاستادون (1) وكانوا يشاركون ايضا في الحملات والغزوات . فقد ذكر الطبري انهم شاركوا في الحملة التي جهزها الخليفة لمقاومة وصيف في سيليسيا - Cilicie - سنة (287هـ/ -900 - م) (2) و هؤلاء الغلمان هم الذين ذكرهم البغدادي في وصفه لموكب استقبال السفراء البيزنطيين في عهد المقتدر (295 - 320هـ/ 908 - 932م) سنة (305 هـ/ -917 - م) فاشار الى انهم كانوا اداك مصطفين باحدى ساحات القصر حاملين السلاح (3) وقد اثار هؤلاء الحجرية الشغب في عهد الخليفة للراضي بالله (322 - 329هـ/ 934 - 940م) (4) فتحلص منهم بواسطة

---

1) محمد بن يحي الصولي : اخبار الراضي بالله ج 1ص49
2) الطبري-تاريخ الامم والملوك ج 3 ص 2262: 2265
3) الخطيب البغدادي-تاريخ بغداد ج 1 ص 104
4) محمد بن يحي الصولي - اخبار الراضي بالله ج 1ص69و86

ابن رائق سنة (325 هـ / 937-) اذ شتت كل من لؤلؤ وبجكم شملهم واوسعا فيهم القتل وصار التعامل بعد ذلك مع البريديين (1) .

وقد اتبع البويهيون عندما استبدوا بالسلطة في العراق سنة جلب الاتراك والتعويل عليهم في المهام العسكرية فكانوا يجلبونهم ويدربونهم على فنون القتال بعد تثقيفهم بالعلوم العربية والاسلامية ، وقد شجعهم على استعمالهم في الجيش طاقتهم الجسدية وبنيتهم الصلبة . فهم كما رايا من البدو الرحل المعروفين بشجاعتهم ولم تكن هذه الخصلة عند البويهيين . كما ارادت السلطة الحاكمة اذاك ان تكبح بهم جماح الفرس فعوض ان يعلم البويهيون ابناء جلدتهم فنون الحرب تخلوا عنهم خوفا من تطاولهم واطماعهم واعتمدوا على العنصر التركي (2)

---

1) المصدر نفسه ـ ج 1 ص 148 ـ 149

2) كلود كاهان Cl. Cahen - الشعوب الاسلامية ص 491 ـ 493

وقد تفاقم جلب الاتراك في ظل الدولتين الطولونية والاخشيدية بمصر. اذ كانت هاتان الاسرتان الحاكمتان من اصل تركي . فقد كان للطولونيين حرس خاص يتالف من هذا الرقيق ويبلغ عدده اربعة وعشرين الف حارس 24 000 (1).

واستمر جلب الاتراك بمصر بعد العهدين الطولوني والاخشيدي. اذ نجد الفاطميين يتخذون الغلمان الحجرية من الاتراك كما فعل العباسيون (2) وكان جيشهم يحتوي على طائفة من الرقيق التركي الى جانب الطوائف الاخرى المكونة من المغاربة والسودان (3) وقد اشتهرت فئة الاتراك في هذا الجند بعدائها ومخاصمتها لفئة السودان وكانت الفئتان تعدان خمسين الف جندي (4) كما صار هؤلاء الاتراك يشكلون خطرا بثوراتهم في عهد الحاكم بامر الله(ت 411هـ/1020م)اذبالغ ابن عمار

---

1) موريس لومبار M. Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص 194 ـ 204
2) ابن خلكان ـ ج 1 ص 469
3) حسن ابراهيم حسن ـ تاريخ الدولة الفاطمية ـ ص 669
4) المرجع نفسه ـ ص 563

في محابـاة المعارية وابطل اعطياتهـم مما ادى الى التطاحـــــــن بين الفريقيـــن . وكـــان برجـوان التركـي ينافـس ابن عمـــــار ويعاديـه حتـى اضطـر زعيـم المغاربة الى الهـرب وحـل بـرجـوان زعيـم الاتراك محلـه (1) وقـد جـاء ذكـر هـؤلاء الاتـراك فـي وصـف ناصـــر خســـرو للاحتفـــال ببـدر الخليـج في عهـد المستنصـــر (427-486 هـ/1036-1094م) يقـــول " ان الجنـد كـانوا يسيـــرون فـــى صفوف منتظمـــة فصيلـة تلو فصيلـة فيسير في المقـدمـة البـــربـــر ويليهـــم المعـــاربـــة ويسيـــــر خلـــف هـؤلاء واولائك الاتراك والفـــــرس ويطلـــق عليهـــم اسم المشرقيين ويتبعهـــــــــم الحجـــــازيـــــون والسودان وكـان يطلـــق عليهـــــــــم عبيـد الشـــراء " (2) وقـد استكثـــر الفاطميـــون مـــــــن الرقيق التركـي المذكر والمؤنث كما جلبوا الخصيان . فمـا يروى عن ست الملـك اخـت الخليفـة العـزيـز (365-386 هـ/ 976-996 م) انها كـانت تملـك ثمانمائة 800 جارية من المماليك البيزنطيين وما من ريب في ان التركيات قـد كـن يمثلـن نسبة كبيـرة من هـذا العـدد (3)

---

1) المرجـع نفسـه ـ ص 625ـ626
2) المرجـع نفسـه ـ ص 301
3) المرجـع نفسـه ـ ص 616

فلم يقتصر الحكام المسلمون على جلب الرقيق المذكر من بلاد ما وراء النهر بل نراهم اولعوا باستيراد جميلات الجواري التركيات للتسرّي بهن. وقد كان الولاة والعمال بهذا الاقليم يشترون هذه البضاعة الثمينة ويقدمونها في شكل هدايا للخلفاء والوزراء وغيرهم من الوجهاء. وكانوا يرسلون اليهم بنات الملوك والامراء الاتراك ، فلا غرو اذا ما تجمع في البلاط الاسلامي وفي العديد من دور الخواص مجموعات من الجواري التركيات اللائي كان الاقبال عليهن كثيرا لما اشتهرن به من جمال ، فهن من صنف الاماء المتخذات للفراش وانجاب الولد ، يقول ابن بطلان في ذلك " قد جمعن الحسن والبياض، ووجوههن مائلة الى الجهامة وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة. وقد يوجد فيهن السمراء الاسيلة وقدود هن ما بين الربع والقصير والطول فيهن قليل ، ومليحتهن غاية وقبيحتهن اية ،وهن كنوز الاولاد ومعادن النسل قل ما يتفق في

اولادهن وحش ولا ردي‌ء التركيب ولا حان وفيهن نظافة ولباقة " (1) .

وقد حظيت الجواري التركيات بسبب هذه الميزات بمنزلة عالية في نفوس مقتنيهن فكن يعتبرن من علية الرقيق. وصرن يمثلن الاغلبية الساحقة من امهات الاولاد بالبلاط العباسي . وانجبن العديد من الخلفاء فكان منهن مراجل ام المامون (2) وهي خراسانية تركية . و ماردة ام المعتصم وقد كانت من الصغد (3) والسيدة شجاع ام المتوكل على الله وخالة موسى بن بغا وقد كانت طخارستانية (4) وقطر الندى وهي اسماء بنت خمارويه (270-282هـ/884-896م) تزوجها المعتضد بالله (5) وكان اكثر الخلفاء العباسيين رغبة

---

1) ابن بطلان - شرح الرقيق ـ نوادر المخطوطات ج 1 ص 376
2) ابن قتيبة ـ المعارف ـ ص 169
3) ابن المعتز ـ طبقات الشعراء ص 120 ـ السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص 231
4) ابن حبيب ـ المحبر ـ ص 44 ـ الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ج 7 ص 166
5) ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ص 38

في الجواري التركيات وقد حفل بلاطه بالعديد منهن فكان من بينهن جيجك خاتون التي انجبت له ابنه المكتفي بالله (289-295هـ/902-908م) (1) ومنهن ايضا السيدة شعب التي انجبت له المقتدر بالله (295-320هـ/908-932م) (2) ومن جواري الاتراك اللائي اصبحن امهات اولاد الخلفاء الجارية زمرد ام الخليفة الناصر لدين الله (575-622هـ/1180-1225م) وكذلك ام المستنصر بالله (623-640 هـ/1226-1242م) وبائي خاتون ام المستعين بالله (248-252هـ/862-866م) وكوزل خاتون ام المعتضد بالله العباسي (279-289هـ/892-902م) (3).

ولعل من اشهر المناسبات التي جلبت خلالها الافواج الغفيرة من الجواري التركيات تلك التي اتيحت في عهد الخليفة المعتصم بالله (218-227هـ/833-842م) فقد كان من اهدافه المحافظة على الدم التركي من الاختلاط بغيره من الدماء فعزل جنوده الاتراك من فراغنة واشروسنية بمدينة سامراء

---

1) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص 261
2) جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 186
ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ص 238
3) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص 230 ـ و 355

ومنعهم من الزواج بغير التركيات خوفا من ان يصاهروا العرب والفرس فتتشتت انسابهم وتضمحل عصبيتهم وتضيع الغاية من اصطناعهم. فعمد الى شراء كميات كبيرة من الجواري والزمهم الزواج منهن. واشرف على زيجات من هذا النوع اشهرها زواج الحسن بن الافشين باترجة بنت اشناس التركي. وقد وصف المسعودي ابتهاج المعتصم بهذا القران فقال " و زوج المعتصم الحسن بن الافشين باترجة بنت اشناس وزفت اليه واقيم لها عرس يجاوز المقدار في البهاء والجمال وكانت توصف بالجمال والكمال. ولما كان من ليلة الزفاف ما عم سروره خواص الناس وكثيرا من عوامهم قال المعتصم ابياتا يصف حسنهما وجمالهما واجتماعهما وهي :

زفت عروس الى عروس ... بنت رئيس الى رئيس
ايهما كان ليت شعري ... اجل في الصدر والنفوس
اصاحب المرهف المحلى ... ام ذو الوشاحين والشموس (1)

1) المسعودي — مروج الذهب — ج 7 ص 133

وقد كان جمال الغلمان الاتراك باعثا على جلبهم ايضا وشدة الشعف بهم فهذا سيف الدولة الحمداني (333-356هـ/944-967م) المشهور بالجد يحزن كثيرا على غلامه التركي ((يماك)) عند موته بحلب سنة (340هـ/951م) وقد عزاه المتنبي عنه بقوله :

لأبقى يماك في حشاي صبابة الى كل تركي النجار جليب

وما كل وجه ابيض بمبارك ولا كل جفن صيق بنجيب (1)

وقد روي ان عز الدولة البويهي (338-367 هـ/ 943-978م) قد اسر له غلام في حرب دارت بينه وبين عضد الدولة (324-372 هـ/ 936-983م) ، فاغتم واحتجب عن الناس وامتنع من الاكل ودفع في فدائه جاريتين بذل له في الواحدة منهما مائة الف وامر رسوله الى عضد الدولة بان يعطي هذا الامير ما اراد اذا ابى ارجاع الغلام (2) وقد نوه بعض الشعراء بجمال الغلمان الاتراك فقال :

---

1) المتنبي ـ الديوان ـ ص315

2) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص 163

"اللـه اكبر ليس الحسن في العرب * كم تحت لمة ذا التركي من عجب" (1)

ومن طريف ما يرويـه داود الانطاكي في تزيين الاسواق تهديد مهذب الدين الطرابلسي للشريف الرضي بالعدول عن التشيع الى مذهب اهل السنـة ان هو لم يرجع اليه غلامـه التركـي " تتر " وكان قد ارسلـه اليـه بهدايا فظن الشريف انـه من جملـة الهديـة فاخذه ، وقد قال مهذب الدين قصيـدة في هذا الموضوع مطلعها :

عذبت طرفـي بالسهر واذبت قلـبي بالذكـر
ومزجت صفو مودتـي من بعد بعدك بالكدر

الى ان يقول مهددا بالخروج من مذهب الشيعة :

لئن الشريف الموسـوي ابن الشريف ابي مضر
ابدى الجحود ولم يرد الى مملوكي تتـر
واليت آل اميـة الطـهـر الميامين الغـرر
وجحدت بيعة حيدر وعدلت عنـه الى عمر (2)

وهكذا كانت قيمة هؤلاء الغلمان رفيعة في نفوس الناس اذاك وكان الاقبال على جلبهم كثيرا فاقبل الخلفاء وسائر الوجهاء والاثرياء على اقتنائهم .

---

1) احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص 38
2) داود الانطاكي ـ تزيين الاسواق ـ ج 2 ص 21

الفصل السادس

تـوريـد الـرقيـق الاسـود

تجارة الرقيق الاسود

1) السودان

يطلق العرب القدامى لفظ " السودان " عادة على اجناس متعددة من الرقيق تشترك في سمرة البشرة او سوادها وتجلب من مناطق متنوعة ، ومن القليل النادر ان نجد عندهم تخصيصا لهذه التسمية وحصرا لها في الرقيق الاسود المجلوب من القارة الافريقية فمدلول الكلمة عندهم يشير الى اللون اكثر مما يحدد الجنس، ولذلك نرى الجاحظ يصف لنا انواعا من السودان حين يقول : " والسودان اكثر من البيضان لان اكثر ما يعد البيضان فارس والجبال وخراسان والروم والصقالبة وفرنجة والابر وشيئا بعد ذلك قليلا غير كثير ، والسودان يعدون الزنج والحبشة وفزان وبربر والقبط والنوبة وزغاوة ومرو والسند والهند والقمار(1) والدبيلا والصين وماصين . والبحر اكثر من البر وجزائر البحر ما بين الصين والزنج مملوءة سودانا كسرنديب وكله (2) وامل وزابج (3)

---

1) بفتح القاف وكسرها : موضع بالهند ينسب اليه العود القماري

2) في معجم البلدان لياقوت : « كلة : مرسى بالهند وهي مستدق الطريق بين كيل والصين »

3) الزابج : ياقوت : جزيرة بين بلاد الزنج وسفالة السودان [illegible]

و جزائرها الى الهند الى الصين الى كابل وتلك السواحل . . . "(1)

وفي آثار الجغرافيين العرب ما يدعم شمول هذه النظرة فهم يدسون " السودان " الى اقليم واحد ويثبتون علاقة بين خصائص ذلك الاقليم وسواد البشرة ، فابن حوقل يرى ان بلاد السودان تقع في الاقليم الثاني فتمتد من بلاد غانة الى الهند (2) ، اما الادريسي الذي يجعل السودان من سكان الاقليم الاول فيقول " واهل الاقليم الاول كلهم سمر او سود ، فاما اهل الهند والسند والصين وكل من احتضن منهم البحر فالوانهم سمر واما اهل الصحاري من الزنج والحبشة والنوبة وسائر السودان الذين سبق ذكرهم فلقلة الرطوبة البحرية وتوالي احراق الشمس لهم وممرها عليهم دائما تفلفلت شعورهم واسودت الوانهم . . . "(3) وشبيه بذلك راي العمري عندما يعرف السودان عموما بانهم سكان اقصى الجنوب (4) ولعل هذه النظرة قد بلغت اقصى درجات

---

1) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج 1 ص 215ـ216
2) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ الترجمة الفرنسية ـ ج 2 ص 52
3) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ طبعة رومة 1970 مجلد 1ص98 ـ الترجمة طبعة دي غوية Dozy ودوزي Dе Goeje ـ ص 161
4) العمري ـ مسالك الابصار عن كوك Cuoq ـ ج ـ منتخبات ص 273

الوضوح والاتساع عند ابن خلدون. فالسودان عنده هم سكان الاقليم الاول والثاني من الشرق الى الغرب وهم يجاورون بلاد البربر بالمغرب وافريقية وبلاد اليمن والحجاز و البصرة وبلاد الهند وقد اسودت الوانهم بسبب حرارة المناخ (1).

فالسودان اذن بهذا المعنى اجناس متنوعة يجمع بينها لون واحد هو السواد . وبذلك نفهم السبب الذي جعل بعضهم مثل ابن النديم والادريسي يعتبر قسما من البربر من السودان ، فاهل " سدراتة " عند الادريسي هم بربر من زناوة اختلطوا بالسودان فصاروا منهم. وكذلك " بغامة " نوع من البربر قد احرقت الشمس جلودهم حسب قوله (2).

لكن هذه التسمية مهما اتسعت وتنوعت مسمياتها فانها تشير الى نوعين رئيسيين من الرقيق الاسود قد كان لهما رواج كبير في هذه الفترة التي نهتم بدراستها، ونعني بهما الرقيق الاسود

---

1) ابن خلدون ــ العبر ــ ج 6 ص 419 المقدمة - طبعة كاترمار ج 1 ص 148 ــ 155
2) الادريسي ــ نزهة ــ الترجمة - دي غوية De Goje ص 26 وص 108 ــ 116 ــ ابن النديم ــ الفهرست ــ طبعة فلوجل Flügel - ليبزج - 1871 ص 19

الافريقي والرقيق الاسود الآسيوي ــ فقد كان الرقيق الهندي او السندي يعرض في الاسواق جنبا الى جنب مع الرقيق الحبشي والزنجي. ولذلك نرى الجاحظ يعتبر السند والهند مع السودان ويجمع في حديثه بينهم وبين الزنج (1) وكذلك يجمع الدمشقي والادريسي وابن النديم بين هذه الاصناف في حديث واحد (2) فلا مناص اذن من ان نتناول بالتحليل عمليات جلب كل من هذين النوعين من الرقيق الاسود ولنبدا بالحديث عن جلب الرقيق الاسود الافريقي لانه كان اكثر انتشارا في الاسواق الاسلاميه مرجئين الحديث عن غيره الى الفصل القادم

ج) المسلمون وبلاد السودان

ان عملية جلب الرقيق الاسود الافريقي ترجع الى عهود قديمة وسابقة لهذا العصر، فقد كان السودان يبيعون ابناء جلدتهم للبيض منذ اقدم العصور وهي عادة عندهم سابقة لظهور الاسلام (3) وقد رأينا في الفصول الماضية ان هذا التيار التجاري كان موجودا قبل الاسلام وانه قد تواصل

---

1) الجاحظ ــ فخر السودان على البيضان ــ الرسائل ج 1ص 212
2) الدمشقي ــ نخبة الدهر ــ ص 267 ــ الادريسي ــ نزهة ــ رومة 1970 مجلد 1 ص 98 ــ ابن النديم ــ الفهرست ــ ط فلوجل Flugel . ــ ص 19
3) اسماعيل حمت ــ موريطانيا السينيغالية ــ ص 35

Ismaël Hamet - Chroniques Mauritanie-sénégalaise - p35

بعده . فقد عرف العرب بعض المناطق المجاورة لهم من الساحل الافريقي الشرقي وخاصة منها منطقة الحبشة.وكانت لهم معها علاقات سياسية وتجارية. وعندما خرج العرب من جزيرتهم لنشر دينهم الجديد اتصلوا ببلاد السودان الداخلية عن طريق مصر والمغرب ، ولكن هذه الاتصالات كلها لم تكن كفيلة باطلاع العرب والمسلمين على شعوب السودان اطلاعا كاملا ولم تسمح لهم بمعرفتهم معرفة دقيقة ولا بالتعامل معهم بشكل مستمر. فقبل الاسلام كانت انظار العرب مشدودة الى شمالي بلادهم والى الامارات البيزنطية اكثر مما كانت موجهة نحو افريقيا (1) ولعل هذا هو السبب في اننا لا نجد عندهم ذكرا " السودان " ولا تتجاوز معرفتهم حدود " الاحباش". ثم ان فتح مصر بعد الاسلام هو الذي جعلهم باتصال لاول مرة مع سكان سود مثل النوبة الذين عقدوا معهم معاهدة البقط سنة (31هـ / 651م) (2) وذلك بعد فشل محاولة الغزو التي قام بها عمرو بن العاص سنة (23هـ/ 644م) (3) وفشل محاولة عقبة بن نافع التوغل في منطقة

---

1) يوسف كوك - Cuoq - منتخبات - المقدمة ص 13 ــ 14
2) البلاذري ــ فتوح البلدان ــ ص 278 ــ 240 ـ
3) المصدر نفسه ــ ص 237

كـــوار جنـوب فـزان سنة (46هـ/ 666م) (1) ولم يكونوا قبـل ذلـك يعلمون شيئـا فيمـا يبـد وعـن الشعوب التى تسكـن جنوب مصـر والمغـرب . ولكـــن محـاولـة ثالثـة اكثـــر تنظيمـا قـد وقعـت بعـد ذلـك بحـوالـى مـائـــة عام (116هـ/ 734م) انطلاقا من السوس نحـو اودغست . وهي محاولـة سجـــل المـؤرخـون المسلمون نجـاحهـا . لكـن العرب لم يرجعـوا الى تلك المنطقـة ابدا فقـد عـوضهـم البربـر و سيطروا على الطرقـات والاسـواق (2) .

تلك هـي كـل صـلات المسلميـن ببلاد السـودان خـلال القـرن الاول و معظـم القـرن الثـــانـي للهجـــــــرة .

وقـد لا يكـون من باب المجازفـة ان نقـول ان العرب لم يعرفوا بلاد السودان معرفة دقيقـة الا ابتداءا من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة . فالفـــــزاري (النصف الثاني من القرن 2 هـ) هو اول من حاول تحـديـد المناطق التى يقطنهـا السود فيذكر غانة بلاد الذهب (3) ويذكـر سجلمـاسـة التى اسست اذاك منذ قليل والتى سيكون لها علاقة وثيقة بالتجارة بين غربي افريقيا وغربي المغرب . وهكذا كـــانت المعرفة بشعوب السودان قليلة والدليل على ذلك قلة المعلومات التي يذكرها ابـــن خرداذبه (-272- هـ/ 885م) رغم مسؤوليته في ميدان البريد وهو لا يتعرض الا لبعض المعلومات التقليدية حول الحبشة والســـــــودان .

1) ابن عبد الحكم ـ فتوح افريقية والاندلس ـ طبعة كاتو A. Gateau ص 122 - ابن الاثير الكامل ج 3 - ص 351 ـ ط - ليد Leyde - 1851 - 1876
2) البكري ـ المسالك والممالك ـ طبعة دي سلان - 1965 ص 156 ـ 158 - ابن الاثير ـ الكامل ج 8 - ص 315 - ط - ليد Leyde - 1851 - 1876
3) المسعودي ـ مروج الذهب ج 4 ص 39

ولعله لم يقع التمييز بين شعوب السودان الا مع اليعقوبي في القرن الثالث للهجرة (ت- 278 هـ/ 891م) واول مظاهر هذا التمييز هو ادراك الفرق بين السودان الموجودين جنوبي سجلماسة في منطقة اودغست والسودان الموجودين جنوبي رويلة وبذلك وقعت الاشارة الى البابين الذين ينفذ عبرهما الى بلاد السود وهما سجلماسة وزويلة وكل منهما ملتقى الطرق التجارية الذاهبة نحو المغرب ومصر . كما يشير اليعقوبي الى بلاد السودان الشرقية الواقعة جنوبي مصر وبذلك وقع التفطن الى وجود ثلاث مجموعات من السود (1) .

هذه هي الصورة التي حصلت للمسلمين عن بلاد السودان منذ القرن الثاني للهجرة وستزداد وضوحا خلال القرنين الثالث والرابع

---

1) اليعقوبي - كتاب البلدان - طبعة دي غوية - ليد Leyde - 1891 ص 360 و ص 345

للهجرة بفصل الاتصالات المستمرة والعلاقات التجارية مع هذه البلاد ولذلك نجد هذه الصورة عند ابن الفقيه (- 290 هـ/ 903م) كما نجدها بعد نصف قرن عند ابن حوقل (320 - 377هـ/ 932 - 988م) وسوف يحتفظ المسعودي الذي تلا هؤلاء في الزمن (355 - 356هـ/ 956 - 957م) بنفس المعلومات لكننا سنحدد او في وصف لبلاد السودان في كتاب البكري الذي الف في القرن الخامس للهجرة وعند الادريسي في القرن السادس للهجرة فقد فصل كل من المؤلفين الطرق والمسالك الرابطة بين شعوب السودان من ناحية وبلاد الاسلام الواقعة شماليها اي مصر وافريقية والمغرب:.

3) اوضاع بلاد السودان :

ان بلاد السودان التي امست من اهم مصادر جلب الرقيق الاسود منذ اواسط القرن الثاني للهجرة هي تلك المناطق الشاسعة الواقعة باواسط القارة الافريقية وسواحلها الشرقية والتي تضم شعوبا وقبائل و ممالك مختلفة من النيل الى المحيط (1) وقد قدر صاحب ((حدود العالم))

1) نجاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي ص 115 - 116

مساحتها بسبعمائة فرسخ على سبعمائة (1) ويمكن ان تقدر تلك المساحة كما قال "موريس لوبار" بمائتي الف 200،000 مرحلة (2) وهي كامل المنطقة الواقعة جنوبي مصر والمغرب (3) والممتدة شرقا الى الحبشة وسواحل البحر الاحمر وغربا الى المحيط وجنوبا الى الصحراء وشمالا الى بلاد البربر بافريقيا الشمالية (4).

وتنقسم هذه البلاد جغرافيا الى ثلاث مناطق تضم كل واحدة منها اجناسا مختلفة وشعوبا وقبائل متنوعة من السودان وتتميز عن غيرها من المناطق الاخرى بمسالك تجارية خاصة. فمنطقة بلاد السودان الشرقية تقع جنوب مصر وعلى ضفاف النيل الشرقية والغربية وتمتد على الشاطيء الغربي للبحر الاحمر، وهي تضم النوبة والبجة والحبشة وبلاد الزنج . اما منطقة بلاد السودان الوسطى فتقع جنوبي افريقية والمغرب الاوسط ويكون المنطلق اليها من بلاد زويلة والجريد التونسي وهي تضم منطقة كوار ومملكة كانم المتالفة من الزغاوة وكذلك شعب الكاوكاو.

و توجد منطقة بلاد السودان الغربية جنوبي المغرب الاقصى ويكون

---

1) مؤلف فارسي مجهول ــ حدود العالم - ص165
2) موريس لومبار = Maurice-Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص194 - 204
3) المقدسي البشاري ــ احسن التقاسيم ــ ص 231 و 241 و 242
4) القزويني ــ اثار البلاد واخبار العباد ص 11ــ38 - يوسف كوك J-Cuoq منتخبات ــ ص 193ــ199

المنطلق اليها من السوس ومن مدينة سجلماسة وهي تضم مملكة غانة ومملكة تكرور وما يتصل بهما من قبائل وممالك اخرى كمملكة " ملال " التي ستصبح " مالي " فيما بعد (1).

وقد كانت جل هذه الشعوب تعيش وضعا بدائيا خلال هذه الفترة من الزمن ، مما جعلها مرتعا خصبا من مراتع الاسترقاق. اذ كانت تحيا حياة قبلية قائمة على التناحر ودوس القوي للضعيف شانها في ذلك شان القبائل السلافية والتركية التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة. وقد اضرب الاصطخري (ت. بعد 340هـ/ 951م) عن تفصيل المقال في بلاد السودان مكتفيا بالحديث عن سجلماسة وزويلة وقربهما من مناجم الذهب لانها بلاد عديمة الحضارة في نظره . يقول في ذلك : " وبلدان السودان بلدان عريضة الا انها قفرة قشفة جدا " (2) وقد كان لابن خلدون نفس الراي تقريبا رغم تاخره في الزمن وان كان يرى علاقة بين حياة السودان البدائية وظروف المناخ والاقليم الذي يعيشون فيه ، فهم على حد قوله يعيشون في المغاور والغابات ويقتاتون بالاعشاب وهم متوحشون

---

1) اليعقوبي ــ كتاب التاريخ ــ عن يوسف كوك - Cuoq - ج ــ منتخبات ص 11ــ13
2) الاصطخري ــ المسالك والممالك ــ طبعة دي غويه ص 40

لا عهد لهم بالتمدن والعمران . ويدفعهم توحشهم الى اكل بعضهم بعضـــا وهو يشبههم بالصقالبـة والاتراك في جهلهم بالشرائع والعلوم ويرى ان بعد اهل الشمال واهل الجنوب عن المناطق المعتدلة هو الذي تسبب في بعدهم عن الانسانيـة وقربهم من الحيوانيـة (1)

وكثيرة هي الاخبار التي نقلها الرحالة المسلمون حول صفـة التوحش في قبائل السودان ومن بينها تلك الروايات التي تجعلهم من اكلة لحـــوم البشر ، فقد روى لنا العمري (700 هـ / 749هـ ــ 1301 م / 1349 م) خبرا طريفا حول هذه الظاهرة مفاده ان احد التجار الذين يجلبون الملح الى بلاد السودان اهدى الى بعض ملوكهم شيئا من الملح فاعطاه مقابل تلك الهدية جاريتين من اجمل بنات السودان ثم صادف ان التقيا بعد ذلك فسال الملك عن حاله معهن وسأله هل ذبحهن واكلهن ام لا ونصحـه بان يفعل ذلك شارحا له لذة لحومهن ، فما بين له التاجر ان لحـــم الادمي محرم ساله عن اللحوم التي ياكلها فذكر له لحم البقر والغنـــم فاهدى له بقرا وغنما ، ويشير العمري الى ان اكلة لحم البشر يوجدون بعيدا

---

1) ابن خلدون ــ المقدمة ــ طبعة كاترمار E. Quatremère = ج 1ص148ــ155

في اقصى الجنوب ومن اشهرهم بهذا الصنيع الزنوج .كما يبين لنا قدم هذه العادة عندهم. وتعرض الجاحظ (163هـ 780 م/ 255 هـ - 869 م) لها في كتاب البيان والتبين فقد ذكر فيه ان من الزنج من يقلع اسنانه الامامية ومنهم من يشحذها ويحددها، اما الاولون فلانهم ابوا ان يكونوا كالخرفان واما الفريق الثاني فهم اكلة لحوم البشر (1) .

ويصف لنا الرحالة المتاخرون في الزمن استمرار هذه العادة بعد الفترة التي تدرسها ، فيذكر لنا شمس الدين الدمشقي (ت. 727هـ/ 1327م) ان عادات السودان تشابه عادات الحيوانات اذ هم ياكلون كل ما تقع عليه ايديهم. واذا اسروا اسيرا قتلوه واكلوه كما يؤكل الصيد (2) ويشير مؤلف كتاب صور الاقاليم (النصف الاول من القرن الثامن للهجرة 8هـ/ 14 م) الى ان سكان بلاد " انكر " الواقعة غربي النيل الاسود (النيجر) متوحشون عراة الاجساد يهجمون على الاجنبي فيقتلونه ويأكلونه (3) كما يقول نجم الدين الحراني في كتابه " جامع الفنون " الذي الفه سنة (732هـ/ 1332م)

---

1) العمري ـ مسالك الابصار في ممالك الامصار ـ مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5867 5868 ص -37- قفا

2) الدمشقي ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ـ ص 88

3) مؤلف فارسي مجهول ـ صور الاقاليم ـ اعمال مؤتمر المستشرقين العالمي الرابع عشر ج 3 ص 22 ـ 27

ان قبائل " الدمدم " هم من اكلة لحم البشر (1) ولعل من اطرف ما حكاه شمس الدين بن بطوطة (703 هـ ـ 756 هـ/ 1304 ـ 1356 م) ان السودان من غير المسلمين كانوا ياكلون رقيقهم. ولا ياكلون البيض لانهم يعتبرون لحمهم نيئا. ويقولون ان الذ جزء في الجسد الانسانيى الثهود وراحة اليد (2) وقد يصل الامر احيانا الى نسج ما يشبه الخرافة حول هذه الظاهرة عندما نقرا في "آكام المرجان " ما يرويه اسحق بن الحسين (كان حيا سنة 340 هـ/ 950 م) حول السودان. اذ يقول انهم عندما شاركوا في فتح اسبانيا خاف القوط من مشهدهم لانهم كانوا اذا اسروا قوطيا اوهموا انهم ياكلونه فيزداد القوط من ذلك ذعرا (3) وقد وقعت هذه الحادثة حسب قول المؤلف في فتح طارق للاندلس سنة (-93- هـ/ 711م)

لقد كان في تداعي هذه المجتمعات اذن ما اهلها لتكون مصدرا للبضاعة البشرية ،اذ لم يكن لاهلها من العقائد ما يمنعهم ما استرقاق بعضهم بعضا. ولم يكن لها من ازدهار العمران ما يعصم كيانها من ان يكون نهبا للامم المجاورة والمتحضرة اذاك. فاغلب شعوب السودان

---

1) الحراني ـ جامع الفنون وسلوة المحزون ـ الفقرة عدد -30- وجه - عن يوسف كمال - ج 4 ص 1126

2) ابن بطوطة ـ تحفة النظار ـ طبعة باريس 1859 ـ 1869 مجلد 4 ص 429 ـ 430

3) اسحق بن الحسين ـ آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان - عن كوك ومسجد مختبات ص 29 ـ 30

قد كانت على الوثنيـة باستثناء بعض المناطق التي دخلتها النصرانيـة اواليهوديـة او الاسلام . فهذا البكري يقول عن اهل غانـة انهم بقوا علـى الوثنيـة الى ان سقطت مملكتهم تحت ضربات المرابطين سنة (469هـ/1076م) كما يصف لنا وثنيـة بلاد كانم الواقعـة جنوبي صحراء زويلـة (1) ويؤكـد العمري ما ذكره البكري فيقول عن السودان انهم سكان اقصى الجـنوب وانهم عبدة النار والاوثان باستثناء من يسكن الجزر ونصارى الحبشـة (2) هكذا كان اغلب السودان على " المجوسية " ولم يكن يوجد بينهم من النصارى الا اهل الحبشة والنوبـة (3) وبعض المجموعات في " بربرة " (4) ومن اليهود فئات من قبائل " اللملم " و " اميمة " وبلاد " قمنورية " (5) ومن المسلمين ما خلفتـه بعض الحملات منذ عصر الفتوحات بمصر والمغرب. وكذلك المناوشات التي حدثت في هذا العصر بين المسلمين وبلاد السودان ومن اشهرهـا ما جرى باقليم البجـة (6) .

---

1) البكري ـ المسالك والممالك ـ طبعة دي سلان de slane (M - G) ص10ـ11ـ كوك ـ منتخبات المقدمة ص 22ـ23

2) العمري ـ مسالك الابصار في ممالك الامصار ـ مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5867و 5868 ص 4 ـ قفا

3) ابن سعيد المغربي ـ بسط الارض في الطول والعرض ـ طبعة تطوان ـ ص 29

4) الزهري ـ كتاب الجغرافية ـ فقرة 339 و 341

5) المصدر نفسه ـ الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ ص 17ـ18 و ص 106

6) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ طبعة فيات Wiet - الترجمة الفرنسية ج 1 ص 48ـ52

وكانت قبائل السودان علاوة على ذلك في تنازع مستمر. فقد ذكر لنا المسعودي مثلا ان مملكة الزغاوة قد كانت في حرب متواصلة مع مملكة النوبة المجاورة لها . وان قبائل " الدمدم " تغير على بعضها بعضا (1) وكانت الممالك التابعة لاقليم البجة في تناحر ايضا حسب قول اليعقوبي (2) كما حدثنا البكري عن الحروب التي دارت بين اودغست وممالك السودان ومحاولة سيطرة هذه الممالك على بعضها بعضا (3) وقد كان هذا الوضع المضطرب يتسبب في اسر الكثيرين وبيعهم للتجار فيحملهم هؤلاء الى بلاد الاسلام ، ولم يكن المسلمون بمنأى دائما عن استغلال هذه الاوضاع بل كانوا يقومون بمناوشات مع شعوب السودان بين الفينة والاخرى كما حدث ذلك مع اقليم البجة (4) كما ان انتشار الاسلام في هذا العصر بين بعض القبائل البربرية المتاخمة لبلاد السودان قد تسبب في هجومات على تلك البلاد. ومن هذا القبيل ما ذكره ابن خلدون من ان لمتونة البربرية كانت

---

1) المسعودي ـ اخبار الزمان ـ طبعة يوسف كمال - Monumenta ج 3 سفر 2 ص 629
2) اليعقوبي ـ كتاب التاريخ - طبعة ليدن - 1883 - كوك ـ منتخبات ص 11ـ13
3) البكري ـ المسالك والممالك ـ طبعة دي سلان - De Slane - (M-G) - ص 159

تعـرو في عهـد الناصر (300-350هـ/912-961م) والحكم المستنصـر (350-366هـ/ 961-976م) وفي عهـد عبيد الله المهدي (259-322هـ/ 873-934م) وابنـــه ابي القاسم (278-334هـ/891-946م) المناطق المجاورة لها من بلاد السودان و تعـرض عليهـــا الحـــربـــة (1) .

لكن المسلمين فـد دخلوا الى بلاد السودان في هذه الفترة تجـــارا اكثر مما دخلوا غـزاة وكانت حالة السلم اكثـر فائدة بالنسبة اليهم من حالة الحرب. فهمهم الاكبر هو البحث عن المعدن والحفاظ على مناجم الذهب وكذلك الحرص على التزود بالرقيق . ولذلك نرى العمـري يؤكـد في القرن الثامن للهجرة ان ارض المعدن قـــد تركت خارج دار الاسلام بعيدا عن النداء الى الصلاة وبقيت على الوثنية ولم يوظف على اهلهـا الجـزية واعفيت من الغزو وحملات الجهاد حفاظا على مصالـح المسلمين بها ومن اهم هـذه المصالح المعدن والرقيـق (2) .

كـل هـذه العوامل قد هيأت مناخـا ملائمـا للاسترقاق . بل ان اليعقوبي يروي لنـا ان من ملوك السودان من كانوا يبيعون رعاياهم دون سبب ودون وقـــوع حـروب (3) وقـد نقل ياقوت في معجمه عن المهلبي (ت380هـ/ 990م) ان الزغاوة كانوا يعبدون ملكهم وكان هذا الملك يسترق منهم من يريد (4) ومن مظاهر الاسترقاق ايضا ما يذكره البكري من ان اهل ((ترنقة)) وهي مدينة ببلاد السودان تحـــاور مدينة ((غانبو)) كانوا يبيعون الساحرة او يقتلونه (5)

---

1) ابن خلدون ـ العبر-ط بيروت 1956 ج6 ص370 ومابعدها
2) كوك-Cuoq-ج. منتخبات المقدمة ص22/ 23
3) اليعقوبي-البلدان-طبعة دي غوية DeGoje - ليدن-Leyde-1891 - ص360 و345 و طبعة فيات Wiet الفرنسية ص205 و 226
4) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان-مادة . زغاوة
5) البكري ـ المسالك والممالك-طبعة دي سلان - DeSlane (M.G) ـ ص173

ووصف لنا العمري عادات بقيت راسخة الى عهد متاخر في مملكة مالي ومنها ان من كانت له بنت جميلة اهداها جارية للملك.وتواصل العمل بهذه العادة بين اهل هذه المملكة حتى بعد اسلامهم واعتناقهم لمذهب مالك (1) وكان التجار يسرقون الاطفال ويخصونهم ويبيعونهم بمصر وكان هنالك من بين السودان من يسرقون ابناء بعضهم بعضا ليبيعوهم للتجار الوافدين عليهم،مثلما كان يحدث بين سودان الزغاوة الموجودين بين النوبة والتشاد حسب ما يفهم من كلام مؤلف حدود العالم (2) ولم تكن هذه الظاهرة مقصورة على هذه الفئة من السودان.بل ان الادريسي ليشير الى انتشارها في شتى مناطق بلاد السودان.فيذكر ان اهل مدن تلك البلاد كانوا يحتطون ليلا اطفال القبائل الرحل بالصحراء ثم يخفونهم عندهم مدة من الزمن ويبيعونهم اثر ذلك للتجار بثمن بخس فيحملون الى بلاد الاسلام بالمغرب.ويصف الادريسي ان السودان لا يرون ضيرا في هذه العملية التي كانت كثيرة الحدوث في بلادهم (3)

---

1) العمري ـ مسالك الابصار ـ مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5867 ـ 5866 ص 32 ـ كوك - Cuoq - ج
منتخبات ص 273 ـ 302

2) مؤلف فارسي مجهول ـ حدود العالم ـ طبعة حيب Gibb - الترجمة الانكليزية ص 165

3) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ ص 110 وما بعدها من طبعة (دوزي Dozy ودي غوجه De Goeje - الفرنسية - ليد Leyde - 1866

4) تجارة الرقيق ببلاد السودان الشرقية

ان عملية جلب الرقيق الاسود من منطقة بلاد السودان الشرقية ترجع الى عهود قديمة سابقة لهذا العصر . فقد رأينا في الفصول الماضية ان هذا التيار التجاري قد كان موجودا قبل الاسلام وانه قد تواصل بعده ورأينا ايضا انه كان مركزا على بعض مناطق الساحل الافريقي دون غيرها .

لكن المسلمين قد اتصلوا بمرور الزمن بقبائل السودان و ممالكهم الواقعة داخل البلاد. فعرفوا النوبة والبجة والحبشة وبلاد الزنج وغيرها من بلاد السودان الشرقية الواقعة جنوبي مصر ، واصبحنا نجد تحديدات واضحة في كتب الرحالة لهذه المنطقة. مثل التحديدات التي نلاحظها عند اليعقوبي (1) وابن الفقيه (2) والمقدسي (3) وغيرهم وفيها تعريف لموقعها الجغرافي وللممالك القائمة بها ولعقائد اهلها ومللهم ، وكان البحث عن الذهب والرقيق هو الذي حفز المسلمين على التعرف على هذه البلاد وعلى ربط علاقات معها ، . .

---

1) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ ص 334ـ338 ـ ط ـ ليد ـ 1891 ـ Leyde
2) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ص 76ـ78 ـ ط ـ ليد ـ 1885 ـ Leyde
3) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ 367 دي غوية De Goeje ـ ليد ـ 1877 ـ Leyde
ص 231 وص 241

أ- رقيق النوبـة

وقداتخذت العلاقات صيغا مختلفـة منها تلك الصيغة الواردة في معاهـــد عبد الله بن سعد بن ابي سرح مع النوبـة سنـة (31 هـ/ - 652 - م) والـتي التزم النوبـة بمقتضاها بان يدفعوا للمسلمين ستين وثلاثمائة راس من الرقيق سنويـا في مقابل بعض الاغذيـة والاقوات ، وقد اشتهرت هذه المعاهـدة كما رايتا باسم البقط . وذكر كاتب الشونة في مخطوطتـه انـه وقف على بعض بنود هذه المعاهدة فقال "... ولما مات عمر رضي الله عنـه نقـض النوبـة الصلح الذي جرى بينهم وبين عبد اللـه بن سعد وكثرت سراياهم الى صعيد مصر فاخربوا وافسدوا . فغزاهم مرة ثانيـة عبد الله بن سعد بن ابي سرح وهو على امارة مصر في خلافـة سيدنا عثمان رضي اللـه عنه سنـة احدى وثلاثين وحاصرهم بمدينـة دنقـلة حصارا شديدا ورماهم بالمنجنيق ولم تكن النوبـة تعرفـه فبهرهم ذلك وطلب ملكهم الصلح فاجابـه عبدالله الى ذلك وقرر معـه الصلح على ثلاثمائـة وستين راسا من الرقيق كل سنـة وكتب لهم كتابا وقعت على بعضه " (1) وقد سبق ان ذكرنا ايضا ان الاراء تكاد تتفق اليوم على مارجحـه المستشرق "برنشفيك " من ان " البقط "

---

1) احمد بن الحاج ابو علي كاتب الشونة ــ مخطوطة كاتب الشونة ــ تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل ص 125.

الذي عرفه المسلمون في القرن الاول للهجرة هو استمرار لعادة قديمة سابقة للاسلام وان هذه التسمية مشتقة من كلمة "باكتوم" "Pactum" اللاتينية (1).

لكن الذي يهمنا هنا هو ان هذا البقط قد استمر دفعه مدة طويلة بعد فترة عقده، وكان الاساس الذي قامت عليه العلاقات بين بلاد النوبة وبلاد الاسلام في القرنين الثالث والرابع للهجرة (2) ولذلك نرى العمري عندما غزا اقليم البجة في عهد احمد بن طولون لم يعرض باذية لاهل النوبة وسالمهم " للعهد الذي لهم " (3) فلا مجال للشك اذن في ان البقط قد كان يمثل صيغة من صيغ جلب الرقيق الاسود في هذه الفترة التي نعنى بدراستها، وان كان دفعه قد تعرض لصعوبات احيانا والقطع في فترات معينة تميزت بالعداء بين الطرفين.

فقد ذكر البلاذري ان المسلمين واصلوا في عهد الخليفة المهدي

---

1) برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد — دائرة المعارف الاسلامية — محمد الطالبي الامارة الاغلبية ص 25 — 33

2) يوسف فضل حسن - العرب والسودان ص 24 — 28
ب . فوراند - P. Forand - العلاقات الاسلامية الاولى مع النوبة ص 114—115
جان كلود غارسين - Jean claude Garcin - مركز اسلامي بصعيد مصر الوسيطة ص 41—43

3) البلوي — سيرة احمد بن طولون ص 64—65

العباسي(158-169هـ/775-785م) في القرن الثاني للهجرة ارسال الاغذية والاقوات الى النوبة واخذ الرقيق منهم. لكنهم رفضوا ان يعطوا الخمر والملابس والخيل بينما كان اهل النوبة يزعمون انه قد رخص لهم في هذه الفترة نفسها في ان يدفعوا رؤوس الرقيق المتفق عليها مرة كل ثلاث سنوات، لانهم لا يستطيعون ان ياسروا هذا العدد من الرقيق كل سنة. ويعارض البلاذري في كتابه هذا الزعم مع العلم بانه قد كتب رايه هذا في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة (1)

ويفهم من كلام المقريزي ان النوبة قد حصلوا على ترخيص بان يدفعوا الرقيق كل ثلاث سنوات بعد ان كانوا ملزمين بدفعه كل سنة. وقد احرزوا على هذه الرخصة في بداية القرن الثالث وعلى وجه التحديد في عهد الخليفة المعتصم (218ـ 227 هـ/ 833 - 842 م) والسبب في هذا التحوير ان البقط لم يكن يدفع قبل ذلك بصورة منتظمة وانه قد مضت عليه اربع عشرة سنة لم يدفع خلالها مما دعا الى مراجعة النظر فيه والى التساؤل عن طبيعته والبحث عن حقيقته . وقد اشار المقريزي

---

1) البلاذري ـ فتوح البلدان ص 238

الى ان هذه المراجعة وقعت منذ سنة(211) وربط بين الرخصة التي وقعت في عهد المعتصم وسفر ابن ملك النوبة الى بغداد. وذلك ان ملك النوبة زكريا zacharie ارسل ابنه جورج للتفاوض في شان البقط عندما طالبت بغداد بدفعه (1) ويرجح فيات G. wiet ان رفض المسلمين لدفع الخمر في البقط قد وقع في هذه الفترة وربما في اواخر عهد المامون(2) وليس من المستبعد ان يكون المسلمون قد رفضوا اكثر من مرة دون ان يستجيب النوبة لرفضهم اذ كانت الخمر ضرورية للطقوس المسيحية ولغيرها من انواع الاستعمال (3).

وفي القرن الرابع للهجرة يصف لنا المسعودي عملية دفع البقط في صورة الحفل المنظم. وقد تزايد في زمانه عدد الرقيق المدفوع في البقط فاضيف عشرون راسا لعامل اسوان وخمس رؤوس لقاضي البلد واثنا عشر راسا للشهود الاثني عشر الذين يعينون عامل اسوان والقاضي بها على تنظيم

---

1) المقريزي ـ خطط ـ ج 3 ص 294 رقم 6 (طبعة فيات - G.wiet)
2) المصدر نفسه
3) ب ـ فوراند - P. Forand ص 120 - جان كلود غارسين Jean claude-Garcin مركز اسلامي بصعيد مصر الوسيطة ص 41 ـ 43

عمليـة تسلم البقط وقبضـه (1) فكأن الصعيد قد صار معبرا لهذه البضاعـة البشريـة التي كان المسلمون يرغبون فيها رغبـة كبرى ، وما من شك فـي ان هذا الرقيق النوبـي قد ساهم في تكوين كتائب السود التي وجدت في جيوش الطولونيين والاخشيديين (2).

وقد تواصل دفع البقط في عهد الفاطميين بمصر، اذ كانت علاقاتهم مع النوبـة حسنة في الغالب وان كانت لهم يد فيما يظهر في تشويش العلاقة بين النوبـة والاخشيدين مما عطل عمليات دفع البقط في بعض الاحيـان (3) . اما بعد استقرار الفاطميين بمصر فقد ساد الهدوء تلك العلاقات ووقـع تجنب القطيعة حتى في اعسر الظروف، ومنها الحملـة التي شنت على المسيحيين في عهد الحاكم بامر اللـه (4) وقد شاهد ناصر خسرو امراء النوبـة يقطنون بالقاهرة (5) وقد ادلى ابن حوقل بنفس الشهادة فذكر ان النوبـة فـي هدوء تام وان المسلمين يعيشون بينهم في مناطق مختلفـة ويتعاطون التجارة ويسافرون الى مكـة وغيرها (6) وهكذا انتشر الهدوء مما سمح لبعض العلمـاء

---

1) المسعودي ـ مروج الذهب ج 3ص 39 ـ طبعة باريس - 1861-1877
2) سيدة اسماعيل كاشف ـ مصر في عهد الاخشيديين ص 358ـ359 القاهرة 1950
3) جان كلود غارسين J-C.Garcin ـ مركز اسلامي بصعيد مصر الوسيطة ص 91ـ92
4) عبد المنعم ماجد ـ ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ـ القاهرة 1968 ص 234
5) س ـ لاين بول S.Lane-Poole ـ تاريخ مصر في القرون الوسطى ص 138
6) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ ترجمة فيات G.Wiet ص 54 ـ 56 و ص 147

في عهد الحاكم بالتفكير في اصلاح مجرى النيل وتحسين وسائل الري للزيادة في الانتاج(1) وقد كان هذا المناخ السلمي ملائما لاستمرار ورود رقيق البقط فسجل المقريزي هذا الورود سنة (585 هـ/ 1190 م) وسنة (443هـ/ 1051 م) ثم سنة (501 هـ/ 1107 م) وامكن للمصريين ان يستوردوا ما شاؤوا من رقيق في هذه الفترة بل انهم قد احرزوا هذا الرقيق النوبي في شكل ضريبة حتى في عصور متاخرة عن هذه الفترة.اذ يذكر العمري ان ملوك دنقلة في عصره كانوا يدفعون ضريبة لحكام القاهرة تتمثل في عدد معين من العبيد من الذكور والاناث،وان اكبر هدية كانوا يقدمونها لضيوفهم واصدقائهم هي ان يهدوا اليهم عبدا (2) .

ولم تكن صيغة " البقط " هي الشكل الوحيد الذي اتخذته عملية جلب الرقيق من بلاد النوبة.بل ان معاهدة الصلح التي عقدها معهم عبد الله بن سعد بن ابي سرح سنة (31هـ/ 652 م) لتنص منذ ذلك التاريخ على السماح للمسلمين بالدخول الى النوبة لاشتراء الرقيق ولا تمنعهم الا من القيام بانتزاع العبيد بانفسهم بالقوة (3) وقد تواصل العمل

---

1) ابن ابي اصيبعة-عيون الانباء ـ ط 1882 ص 90 ـ91
2) كوك-Cook-ج- منتخبات ص 273 ـ 302 ارشبالد لويس-السيادة الاسلامية ص 66
3) المقريزي ـ الخطط - ط - قيات Wiet-القاهرة- 1911-1927- ج 1 ص 322

بهذه المعاهدة كما رايذا خلال القرون الموالية لهذه الفترة،ودل استمراره على وجود جلب للرقيق النوبي الى جانب رقيق البقط ، وقد ازدهر هذا التيار التجاري بمرور الزمن وخاصة في عهد الطولونيين والاخشيديين (1) وامسى الصعيد المصري معبرا لهذه البضاعة الآدمية.وفي هذا العصر ظهرت شخصية الجلاب الذي سنجده باستمرار بعد ذلك (2).

لكن هذه الصبغة السلمية لم تكن ملازمة دائما لتجارة الرقيق النوبي اذ يعلمنا تاريخ البطاركة (3) ان العرب لم يحترموا نص المعاهدة الذي يمنع انتزاع التجار للرقيق بالقوة.كما نعلم ان الفترات القليلة التي توقف فيها دفع البقط قد كانت فترات صدام بين الجانبين تمكن المسلمون خلالها من شن هجومات على اهل النوبة وبيعهم في شكل رقيق (4) فقد رايذا ان العلاقات مع الامراء النوبيين كانت مقطوعة في بداية القرن الثالث عندما زار المامون مصر.وكان ذلك التوتر استمرارا لاربع عشرة سنة مضت من العداء عقبتها حملات انتقامية مثل حملة سنة (241هـ/ 855 م) وسنة (339هـ/ 951 م) (5) ومن ادل الامثلة على هذه الهجومات ودورها

---

1) سيدة اسماعيل كاشف ــ مصر في عصر الاخشيديين القاهرة 1950 ص 358 ــ 359

2) A.Grohman- Arabic Papyri in egyptian Library 6.V. Caire - 1934-55 G.wiet- Stèles funéraires - TH - N° 4378

جروهمان - اوراق البردى العربية - ج 5 - ص 39 - الحالة رقم 2695
ج - فيات - أنصاب جنائزية - ج 4 - عدد 1378

3) ايفتس - تاريخ البطاركة - ص 145

3) Evetts- Histoire des Patriarches - in Patrologia orientalis - V - p 145

4) المرجع نفسه ــ انظر ايضا : س - لاين - بول - تاريخ مصر -

4) S. Lane-Poole - A History of Egypt in the Middle Ages (in . W.M.F - Petrie - A History of Egypt - T6 . London - 1901)

5) انظر - ج - فيات - مختصر تاريخ مصر - (Precis de L'histoire d'Egypte) - ج 2 - ص 113
سيدة اسماعيل كاشف ــ مصر في عصر الاخشيديين ص 358 ــ 359

في انتزاع الرقيق هجوم اهل النوبة سنة (344 هـ/ 955- م) وما تبعه من رد فعل من قبل الاخشيديين اذ تمكن امراء الفسطاط من التوغل الى " ابريم " واسر مائة وخمسين اسيرا وانتزاع عدة رؤوس (1) حملوا بعد ذلك الى العاصمة ، وقد شهدت الاحداث تصاعدا في هذا الاتجاه سنة (345 هـ/ 956- م) وسنة (352 هـ/ 963- م) بسبب الاضطراب الذي احدثه النزاع الفاطمي الاخشيدي (2) وهي الامثلة الدالة على توفر الرقيق النوبي بمناسبة هذه المصادمات ما ذكره البلوي من ان عبد الحميد العمري الذي قام بالصعيد المصري في عهد ابن طولون قد "كان مسالما للنوبة للعهد الذي لهم حتى بداله النوبي الاول الذي بالموضع المعروف بمريس (3) فعطف عليه العمري واجلاه عن دياره وحرق مدائنه وسبى منهم سبيا كثيرا حتى انه كان الرجل من اصحابه يشتري الحاجة من البياع او من البقال بنوبي او بنوبية لكثرتهم في ايدى اصحابه "(4).

---

1) انظر - احمد بن الحاج ابو علي — مخطوطة كاتب الشونة ص 127

2) جار كلود غراسين - y.c-Garcin - قوص — مركز اسلامي ص 43
Bianquis(Th) - La Prise du Pouvoir par les Fatimides en Egypte
(Annales Islamologiques, XI Le Caire - 1972)

3) لعلها المريسة جزيرة في بلاد النوبة كبيرة كما في معجم البلدان لياقوت. ومريسة قرية بمصر وولاية من ناحية الصعيد ينسب اليها بشر بن غياث المريسي العلامة المعتزلي المشهور (محمد كرد علي — سيرة احمد بن طولون — لابي محمد عبد الله البلوي — دمشق 1358هـ ص 65)

4) البلوي — سيرة احمد بن طولون ص 64—65

ب- رقيـــق البجـــــة

ومن الرقيـــق الاسود الذي د خل بلاد الاسلام عن طريق جنوب مصر رقيق البجـــة ، والبجـة اقلـيم يوجد بين النوبـة ومصر والحبشـة ويحـــده البحر الاحمر شرقـا والنيل غربـا وبـه مناجـم الذهب الممتدة من اربـــاض اسوان الى قلعـة عيذاب (1) وكان اهل هذا الاقلـيم في سلـم مع المسلمين خلال القرن الاول للـهجرة فلم يجد المسلمون انفسهم اذاك في حاجـة الـى عقـد معاهدة معهم مثلمـا فعلوا مع النوبـة ، اذ لم تحدث لهم مصادمـات مباشرة معهم جديرة بالاهتمام ، فمنذ سنـة (31هـ/-652 - م) لاقاهـــــم عبد اللـه بن سعـد في رجوعـه من حملتـه على النوبـة وسال عن جنسهم ولم يابـه لـهم (2) ، وفي القرن الثاني للـهجرة عند هجوم اهل النوبـة بسبـب سجن البطريـق القبطـي شارك البجـة في الحملـة وفرض عليهم المسلمـــون معاهدة ، وكان خطرهم يتمثل في انهم ياتون تجارا الى المدن المصريـــــة ويسرقون الماشيـة ، وقد احتجز احد ممثليهم رهينـة باسوان من اجل هـــذا

---

1) اليعقوبي ــ كتاب التاريخ ــ عن كوك Cuoq - ج - منتخبات ص 11ــ13
ابن حوقل ــ صورة الارض ــ ترجمـة wiet ميات ج 1 ص 126

2) احمد بن الحاج ابو علي - مخطوطة كاتب الشونة - ص 126

التصرف، واجبروا على ارجاع الماشيـة المسروقـة ودفع ثلاثمائة من الابـــل سنويا (1).

وما ان حل القرن الثالث للهجرة حتى دخل البجـة في صراع مع المسلمين وجلب اسراهم في صورة رقيق الى الاسواق الاسلامية عن طريق جنوب مصـــر وقد وصف لنا ابن حوقل تحصن بعض المدن المصريـة مثل اسوان وقفـــط وقوص بالاسوار من خطر البجـة وذلك حوالي سنـة (212هـ/ -827 - م)(2) فقد هجموا سنـة (204 هـ / -820 - م) على مدينـة قفط فخرج اليهـــم الحكم النبيغي واعمل فيهم الاسر والسبي مدة ثلاث سنوات (3) ثـــم تدخلت السلطـة المركزيـة ببغداد وارسل الخليفـة المامون احد ولاتـــه وهو عبد الله بن الجهم الى المنطقـة ، فحدثت له معهم وقائع عديـدة واسر منـه الكثير وفرض عليهم معاهدة لحمايـة طريق الحاج الذي كانـــوا يقطعونـه (4)

---

1) جان كلود غارسين - ج.C.Garcin - قوص — ص 51—56
2) ابن حوقل — صورة الارض - ترجمـة - فيات Wiet (G) - = ج 1 ص 48 — 52
3) المصدر نفســـه
4) احمد بن الحاج ابوعلي — مخطوطة كاتب الشونـة - ص 126

وقد عاد البجة الى الصدام مع المسلمين بعد تلك المعاهدة واتيحت فرص عديدة لمقاومتهم واسترقاقهم ، وكان استغلال مناجم الذهب الموجودة بارضهم سببا في هذا الاضطراب ، فقد كثر نزوح العرب في هذه الاثناء الى السواحل المصرية بسبب الاوضاع الرديئة في الجزيرة العربية وبسبب البحث عن الذهب.وكان المسلمون يستخرجون هذا المعدن ويعطون البجة نصيبا منه لان المناجم بارضهم ، وكان البجة مطالبين ايضا بدفع ضريبة على نصيبهم الى الخلافة ، لكن المسلمين لم يكونوا يعطونهم فيما يبدو ما يرضيهم فامتنعوا من دفع الضريبة وهجموا على المناجم سنة (240 هـ/ -854- م) (1) فارسل اليهم الخليفة المتوكل على الله محمد القمّي فهاجمهم وهزمهم وارسل رئيسهم اسيرا الى بغداد ، وفرض عليهم الاتاوة والبقط (2) فهل يعني هذا البقط المضاف الى الاتاوة دفع رؤوس من الرقيق كما كان الشان بالنسبة الى النوبة ؟ ليس لنا دليل على اثبات ذلك ولا على نفيه ايضا . لكن المحقق ان الكثير من رقيق البجة قد جلب الى الاسواق الاسلامية خلال هذه الاحداث ، ولعل من الاخبار المعبرة عن

---

1) جان كلود غارسين - J-C- Garcin - قوص ص 51_56
2) احمد بن الحاج ابو علي_ مخطوطة كاتب الشونة _ ص 126

ذلك ما ذكره ابن حوقل من ان القمي قد اصطحب رئيس البجة ورئيس النوبة الى بغداد وعرضا هناك على البيع بالمزاد (1)

ويصف البلوي مصادمات اخرى بين المسلمين والبجة في عهد الدولة الطولونية كان الصعيد المصري مسرحا لها. وقد تصدى لهذه الاحداث ابو عبد الرحمن عبدالحميد العمري فخرج اليهم في جيش كثيف واحدث فيهم مقتلة عظيمة حتى ادوا اليه الجزية وما ادوها لاحد قبله (2).

ولكن جلب رقيق البجة لم يكن رهين هذه الاحداث دائما فقد وجدت علاقات تجارية بين هذا الاقليم ومصر واليمن وصفها لنا اليعقوبي (3) ولم تكن مادة هذه التجارة الذهب المستخرج من المناجم فقط بل كانت بضاعة الرقيق تمثل مادة هذه العلاقات التجارية ايضا وقد وصف لنا صاحب كتاب البلدان الاسواق بوادي العلاقي حيث توجد ارض المعدن. فذكر ان المسلمين المشتغلين باستخراج التبر والقادمين خاصة من مصر والجزيرة العربية كانوا يشترون عبيدا سودا ويستعملونهم في الحفر، يقول في ذلك: " ووادي العلاقي كالمدينة العظيمة به خلق

---

1) ابن حوقل ــ صورة الارض ــ ترجمة ـ فيات Wiet ـ (G) ـ = ج 1 ص 51ــ52
2) البلوي ــ سيرة احمد بن طولون ــ ص 64ــ65
3) اليعقوبي ــ كتاب البلدان ــ طبعة دي غويه ـ De Goeje ـ (M.G.) ـ ص 336 ــ 337

من الناس واخلاط من العرب والعجم اصحاب المطالب وبها اسواق وتجارات. . . لكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان يعملون في الحفر " (1) وقد زار ابن حوقل بلاد البجة في القرن الرابع للهجرة ولاحظ قدوم التجار اليها باصناف البضائع وعقدهم لصفقات تجارية حول مادة الرقيق فاشار الى تصدير رقيق البجة الى مصر على ايدي التجار المصريين او التجار البجة انفسهم(2).

ج - رقيق الحبشة

ان علاقات المسلمين التجارية مع الحبشة قديمة ومتينة كما رأينا سابقا وقد استمرت هذه العلاقات في القرنين الثالث والرابع للهجرة وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه ان العرب كانوا يقصدون سواحل الحبشة للتجارة وخاصة ميناء " دهلك " التجاري (3) كما يشير الادريسي الى ان التجار كانوا يقصدون ميناء " زالغ " الكائن على ساحل بحر القلزم ويستوردون منه الرقيق والفضة ويقول ان الذهب فيه قليل (4).

---

1) المصدر نفسه ص 334
2) ابن حوقل صورة الارض ــ ترجمة فيات Wiet -(G)- = ج 1 ص 51ــ52 وص 161
3) اليعقوبي كتاب التاريخ (كوك -Cuoq- J - منتخبات ص 11ــ13)
4) الادريسي - نزهة المشتاق ــ طبعة رومة 1970 المجلد الاول ص 44

كان اذن من مواد هذه التجارة الرقيق الذي كان يجلب الى موانـي اليمن ومدنها فضلا عما كان يرسل عن طريق مصر برا وبحرا (1) فقد كـان قسم هام من الرقيق الحبشي يتجـه نحو سواحل الجزيرة العربيـة لمتانـة الروابط بين ضفتي البحر الاحمر وعراقتها ، ومن اشهر الاسواق التي كان الاحباش يجلبون اليها عدن وزبيـد ، وقد اطنب المقدسي في وصف رواج الرقيق الحبشي بعدن وقارن بين هذه المديـنة وعمان واستنتج من مقارنتـه تلك ان عدن تفضل عمان بالحبش والخدم (2) وتشير نصوص اخرى كتلك الـتي خطها قلم ابن المجاور في كتابـه المستبصر الى ان اغلب اهل عدن اذاك كانوا من " الحبوش والبرابر " وانهم تغلبوا على صنعاء حتى ملكوها " وبقيـت دولتهم فيها في الكفر والاسلام الى ان افناهم علي بن مهدي سنـة اربـع وخمسين وخمسمائة ، وفي عهده انقرضوا وزالت دولتهم مع شدة صولتهم " (3) وقد حدثنا عن الضريبـة التي كانت توظف على بضاعـة الـرقيـق وهي ديناران على الراس الواحد (4) ومما يدل على غزارة هذه البضاعـة المجلوبـة الى اليمن

---

1) زيدان ــ تمدن ج 5 ص 39 ، متز ـ الحضارة الاسلامية ص 157 حدود العالم ص 169 الادريسي ـ طبعة رومة 1970 ــ مجلد 1 ص 46 ــ الدوري ـ تاريخ العراق الاقتصادي ص 76ــ77 جستاف لوبون G.Lebon ـ حضارة العرب ص 438ــ439 ــ الزهري ـ كتاب الجغرافية ـ فقرة 333

2) المقدسي احسن التقاسيم ص 97ــ98

3) ابن المجاور ــ المستبصر ص 54و ص 25

4) المصدر نفسـه ص 60

ما يروى من ان حكامها قد فرضوا على " دهلك " سنة (366 هـ/ 977 م) ضريبة تتمثل في دفع خمسمائة وصيف وخمسمائة وصيفة من النوبة والحبش (1)

وكانت مدينة زبيد الواقعة بارض تهامة بين عدن ومكة سوقا للرقيق الحبشي مثل عدن وكانت صلتها بدهلك متينة. وقد ذكر الادريسي ان اهل الحبشة كانوا يجلبون رقيقهم الى " زبيد " حيث يبيعونه وان تجار مصر والحجاز كانوا يقصدون هذه المدينة ايضا شانهم في ذلك شان تجار الحبشة، وانهم كانوا ياتون منها بالافاويه الهندية والمتاع الصيني (2).

وقد عرفت ازدهارا تجاريا خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة تحت حكم بني زياد (204 - 407 هـ/ 820 ـ 1012م) وقد كان هؤلاء الزياديون يستوردون الاحباش ويعتمدون عليهم في حكمهم لانهم كانوا من الامويين اي من عرب الشمال فلم يكونوا يطمئنون لعرب الجنوب. وقد كثر عدد هؤلاء الاحباش شيئا فشيئا حتى استبدوا بالحكم وتخلصوا من آخر ولاة بني زياد. وعندما تولت اسرة بني نجاح الحكم طيلة قرن ونصف (412 - 554 هـ/ 1021 ـ 1159) ازدادت العلاقة وثاقة مع الحبشة نظرا لاصلهم الحبشي فقد كانوا ياتون برجالهم

---

(1) ابو مخرمة ـ تاريخ ثغر عدن ـ ج 2 ص 17 ـ (2) الادريسي - نزهة المشتاق ـ المجلد الاول ص 52 ـ 53 طبعة رومة 1970

من هناك ليستعملوهم في الحرب ولمقاومة الصلحيين التابعين للفاطميين ، وقد عرفت زبيد في هذا العهد بكثرة جواريها وقيانها اللائي كن يمثلن بضاعة لتجارة تدر ارباحا طائلة. ولعل مما يعبر عن تاثير هذه التجارة في هذه المدينة اننا نجد الى اليوم بها جزءا من السكان السود (1)

د - رقيق الزنج

اما رقيق الزنج فكان يجلب من الصومال وزنجبار والموزنبيق وغيرها من بلاد الزنج الواقعة على الساحل الافريقي وضفاف المحيط الهندي (2) وقد اشار الجاحظ في رسالة " فخر السودان على البيضان " الى مصدر الرقيق الزنجي فقال على لسانهم : " قالوا : وانتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قط وانما رايتم السبي يجيء من سواحل قنبلة وغياضها واوديتها ومن مهلتنا وسفلتنا وعبيدنا ، وليس لاهل قنبلة جمال ولا عقول ، وقنبلة اسم الموضع الذي ترفون منه سفنكم الى ساحله . لان الزنج ضربان : قنبلة ولنجوبة كما ان العرب ضربان قحطان وعدنان ، وانتم لم تروا من اهل لنجوبة

---

1) انظر - ج. شلهود - مدخل لتاريخ زبيد - أرابكا - 1978 - ج 25 - قسم 1 - ص 48 - 88 -
J- Chelhod - Arabica - T XXV - Fascicule 1 - Février - 1978 - pp: 48-88

2) المروزي - في الصين والترك والهند - نشر وترجمة وتعليق - مينورسكي - V- Minorsky - لندن 1942 ص 54
الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 76 - 77

احدا قط لا من السواحل ولا من اهل الجوف ولو رايتموهم نسيتم الجمال والكمال (1) فالجاحظ يحدد كما ترى نوع الزنج المجلوب ومصدره ، فقبيلة هذه هي " جزيرة قلهو " التي ذكرها المسعودي وقال عنها انها متاخمة لبلاد "سفالة" وغيرها من بلاد الزنج المجاورة لـ " جبل القمر " (2) .

وكان هؤلاء الزنوج يوسقون الى جنوب الجزيرة العربية حيث تزدهر تجارتهم (3) فقد كانت العلاقات التجارية وثيقة بين اليمن وبلاد الزنج وتسببت في ازدهار عدن وغيرها من المدن اليمنية . وقد وصف لنا المقدسي هذه العلاقات عندما زار اليمن فقال : " ولما ركبت بحر اليمن اتفق اجتماعي مع ابي علي الحافظ المروزي في الجلبة فلما تاكدت المعرفة بيننا قال لي : قد شغلت والله قلبي قلت : بماذا ؟ قال : اراك رجلا على طريق حسنة تحب الخير واهله وترغب في جمع العلوم وقد قصدت بلادا قد غرت كثيرا من الناس وصدتهم عن طريق الورع والقناعة واخشى اذا انت دخلت عدن فسمعت ان رجلا ذهب بالف درهم فرجع بالف دينار وآخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة

---

1) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان - رسائل الجاحظ ـ ج 1 ص 211
2) المسعودي ـ التنبيه والاشراف - ط - الصاوي - 1357 هـ - ص 51
3) صورد ال ـ حضارة الاسلام القديم ـ ص 317ـ323

وآخر بكندر فرجع بمثلـــه كافورا طلبت نفسك التكاثر ، قلت : ارجو ان يعصم الله فلما دخلتها وسمعت اكثر مما قال غرنـي والله ما غر القوم وعملت على الذهاب الى ناحية الزنج وآتيت ما ينبغي ان يشترى وتقدمت فيـه الى الوكلاء فبرد الله عز اسمـه ذلك على قلـبي بموت شريك كنت عاقدتـه وكسرت نفسـي بذكـــر الموت وما بعده " (1)

ويوضح لنا البيروني طريقـة تعامل التجار مع الزنج واحترازهـــم في التعاقد معهم لما عرفوا بـه من عدم الوفاء بـالعقود (2).

وقد وصلت الى عدن عن طريق هذه المعاملات افواج من الرقيـــق الزنجي الذي كان ينقل الى سائر بلاد الاسلام او يستعمل على عين المكان فـي شتى المصالح ، ومن هذا القبيل ما رواه ابو مخرمـة من ان ابا الحسن علـــي بن الضحاك الكوفـي رغب في سكنى عدن " فاسترق رقيقـا زنوجا وجعل العبيد يقطعون لـه الحجارة من جبال عدن والاماء يحملنـه على ظهورهن " (3) .

وكان من بين هؤلاء الزنوج البرابر المجلوبون من " بربرة " وهم الذين يقول فيهم

---

1) المقدسي ــ احسن التقاسيم ــ ص 97ــ98
2) البيروني ــ الجماهر في معرفة الجواهر ــ نشر كرنكو ــ حيدر اباد الدكن 1355هـ ص 239
3) ابن المجاور ــ المستبصر ــ طبعـة اوسكار لوفجرين Oscar Löfgren ليدن 1936 ص 54

صاحب كتاب المستبصر ان عددهم بعدن كعدد الاحباش. وان في بسائهم وقاحة(1) وقد تحدث ابن خلدون ايضا عن اهل بربرة واشار الى انهم جنس من السودان يوجدون بخليج عدن قرب الزنج وعلى ضفاف المحيط الهندي (2) وهؤلاء البرابر هم سكان الصومال. وقد ذكر المقدسي ان من الخصيان السود من كانوا يجلبون من (بربرة) الى عدن. ويصفهم بانهم اكثر انواع الخصيان سواد لون (3).

وكان الزنوج يجلبون ايضا الى جنوب العراق منذ عهود الاسلام الاولى كما رايذا. وكانت الغاية من شرائهم استعمالهم في كسح طبقة الاملاح من بطائح البصرة لتصبح صالحة للزراعة. وكذلك استخدامهم في فلح اراضي السواد، وقد احدثوا انتفاضات منذ ذلك العهد بسبب رداءة الظروف التي يعملون فيها (4) وقد تواصل جلب هذا الرقيق في القرن الثالث للهجرة الى هذه المنطقة وشهد اذاك نشاطا كبيرا(5) فكان التجار يعبرون الخليج

---

1) ابن خلدون-العبر ـ ط بيروت 1956 ج 6 ص 409 ـ 419
2) المقدسي-احسن التقاسيم ص 231 وص 241 ـ 242 - هارتمان - R. Hartmann
- دائرة المعارف الاسلامية-الطبعة الثانية ج 1 ص 1207 ـ مقال (بربرة)
4) الجاحظ-فخر السودان على البيضان ـ رسائل الجاحظ ج 1 ص 190
5) صورد ال - Sourdel (D-H) حضارة الاسلام القديم ص 317 ـ 323

الفارسي ويذهبون الى سواحل شرق افريقيا فيصلون الى سفالة (الموزمبيق) ومقديشو وجزر الساحل وبعض المناطق من مدغشقر (1) وكانوا يبحثون عن الذهب والرقيق (2) وقد سلك المسعودي هذه الطريق البحرية من زنجبار الى عمان وذلك سنة (304هـ/ 916م) (3).

ومما يدل على كثرة الزنوج المجلوبين الى جنوب العراق ما ذكره الجاحظ من ان عددهم كان يتزايد بالتوالد، ولولا مغادرة ابنائهم لهذه المنطقة لتغلبوا عليها. يقول في ذلك " ولو ان الزنجي والزنجية اذا تناكحا بقيت اولادهما بعد الحيض والاحتلام ببلاد العراق كانوا قد غلبوا على الدار بالعدد والجلد والعلم والتدبير. ولكن ولد الهندي والهندية والرومي والرومية والخراساني والخراسانية يبقون فيكم وفي بلادكم كبقاء آبائهم وامهاتهم ولا يبقى ولد الزنجيين بعد الحيض والاحتلام ، على اننا لا نصيب في عشرة الاف واحد (كذا) يبلغ ما ذكرنا الا ان يغرب الزنجي في غير الزنجيات والزنجية في غير الزنج " (4) .

439

1) المسعودي ــ مروج الذهب . ج 3 ص 6 ـ جوستاف لوبون - G. Lebon - حضارة العرب ص 438
الدوري ــ تاريخ العراق الاقتصادي ــ ص 145 ــ 150
2) مؤلف فارسي مجهول ــ حدود العالم ص 165
3) المسعودي ــ مروج الذهب ج 3 ص 31 ـ ط. باريس - 1861-1877
6) الجاحظ ــ فخر السودان على البيضان ــ رسائل الجاحظ ــ ج 1 ص 212

وهكذا تالفت منهم جماعات كثيرة بمنطقة البصرة واعلنت الثورة على الاسياد المالكين لها سنة (255هـ/ 868م) (1) فقد كان هؤلاء الزنوج يستعلون عادة في جماعات كبيرة تتراوح بين الف وخمسة الاف (2) بل قد يصل عددهم الى اكثر من هذا باضعاف . اذ بلغ عدد احدى هذه الجماعات في منطقة دجيل الاهواز خمسة عشر الفا (3) ومما زاد في اقبال المسلمون بالعراق وغيرها من بلاد الاسلام على اقتناء هذا النوع من الرقيق رخص اثمانه ويتضح ذلك من خلال العرض الذي قدمه المالكون لصاحب الزنج ابان الثورة . وهو عرض يتمثل في خمسة دنانير مقابل استرجاع العبد الواحد فاذا نظرنا الى ظروف هذا العرض الذي كان يستدعي اغراء فادة الثورة فهمنا ان قيمة الزنجي في الظروف العادية قد كانت غير مرتفعة (4) .

---

1) ابن خلدون ـ العبر ـ ط بيروت 1956 ج 6 ص409؛ 419

2) لويس ماسينيون - Louis. Massignon
مقال زنج ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة الفرنسية ج 4 ص1281 - 1282

3) الطبري تاريخ الامم والملوك ج 3 ص 1750 ـ 1751

4) علي حسني الخربوطلي - عشر ثورات في الاسلام ص 53

5) الرقيق بلاد السودان الوسطى

وكان المسلمون يستوردون الرقيق من بلاد السودان الوسطى ايضا وهي الواقعة جنوبي افريقية .وقد رايا انهم اتصلوا لاول مرة بهذه المنطقة عندما ولى عمرو بن العاصي ابن خالته عقبة بن نافع افريقية سنة (41هـ/ 661ـ 662م) فقد غزا عقبة اطراف بلاد السودان الواقعة جنوبي برقة وشن حملة على قبائل كوار السود وفرض عليهم جزية مقدارها ثلاثمائة وستون 360 راسا من الرقيق سنويا . كان ذلك سنة (43هـ/ 664ـ 665م) (1) او سنة 46هـ/ 666م) (2) حسب اختلاف الروايات .

لكن جلب الرقيق الاسود من هذه المنطقة قد اتسع مداه واتخذ شكلا تجاريا في العصور الموالية وخاصة في القرنين الثالث والرابع للهجرة. وامكن للتجار المسلمين ان يتوغلوا في اماكن اخرى من بلاد السودان الوسطى لم يكونوا يعرفون عنها شيئا كثيرا في السابق ، فقد تجاوزوا حدود

---

1) ابن الاثير ـ الكامل ـ ط ـ ليدن 1851-1876 - ج 3 - ص 351
2) ابن عبد الحكم - فتوح افريقية والاندلس - ط. الجزائر 1947 ص 63ـ65

فزان وكوار التي كانت خليطا من السودان والبربر الى قبائل الزغاوة الموجودين بين النوبة والتشاد (1) والذين كانوا يؤلفون مملكة كانم (2) وقد كانت اوضاع السودان بهذه المملكة في حرب مع النوبة في الشرق ومع قبائل الكوكو وملال في الغرب (3) وكانوا ياسرون بعضهم بعضا ويبيعون الاسرى للتجار القادمين لبلادهم (4) كما كانوا يسرقون الاطفال ويبيعونهم رقيقا ايضا (5) ويروي ياقوت في معجمه عن المهلبي انهم كانوا يقدسون ملوكهم ويسمحون لهم باسترقاق من ارادوا من الاهالي (6) ويضيف صاحب كتاب البدء والتاريخ ان كثيرا من الخصيان السود يجلبون من هذه الاماكن و خاصة من الزغاوة .وقد وجد التجار المسلمون الذين كانوا ينطلقون من جنوب افريقية نحو هذه البقاع موردا خصبا للبضاعة الآدمة التي كان يرغبون في توريدها فضلا عما كان يشغل بالهم من بحث عن الذهب.

---

1) كوك -Cuoq-J- منتخبات ص 36—38 ياقوت-معجم البلدان — مادة — زغاوة
2) اليعقوبي - كتاب التاريخ - عن كوك منتخبات ص 11—13 -ابن سعيد المغربي - بسط الارض ص 26—28 البكري - المسالك والممالك -ص 10—11 - طبعة بارنيس - 1965
3) المسعودي - اخبار الزمان-Monumenta- ج 3 ص649 -ابن سعيد - بسط الارض-ص 26—28
4) اليعقوبي — كتاب البلدان- ص 346 و ص 360 -
5) مؤلف فارسي مجهول - حدود العالم ص 165
6) ياقوت معجم البلدان - مادة زغاوة

وكان منطلق هؤلاء التجار من مدينة زويلة الواقعة باقليم فزان(1) فهي المدخل الى بلاد السودان الوسطى (2) وملتقى القوافل القادمة من تلك البلاد . وبها اسواق عظيمة يصدر منها الرقيق الاسود الى افريقية والبلاد المجاورة لها (3) وقد ذكر البكري ان بيع هذا الرقيق كان مقابل قطع قماش حمراء كما اشار العمري الى هذه المعاملات ايضا (4) .

وكانت مدينة زويلة يقطنها مسلمون اباضية يشرفون على هذه التجارة . كما نجد مسلمين ايضا بمناطق اخرى عملوا على تيسير عمليات الجلب لهذا الرقيق ، اذ يذكر اليعقوبي ان بكوار مسلمون من كل الجهات وان اغلبهم من البربر وهم يمارسون هذه التجارة ، ومن المفيد في هذا السياق ان نورد هذا النص الذي تضمنه كتاب البلدان لليعقوبي اذ فيه وصف لاحوال

---

1) ابن سعيد ـ بسط الارض ـ ص 61

2) الاصطخري ـ المسالك والممالك ص 39ـ40 ـ اليعقوبي ـ كتاب البلدان ص 360 ـ 345
البكري ـ المسالك والممالك ـ ص 10ـ11 ـ ط. باريس ـ 1965

3) البكري ـ المسالك والممالك ـ ص 10ـ11 مؤلف كتاب الاستبصار ـ ترجمة فانيان E Fagnan ص 61ـ62

4) البكري ـ المسالك والممالك ص 10ـ11 ـ كوك ـ Cuoq ـ ج ـ منتخبات ص 273
موريس لومبار ـ Maurice Lombard ـ الاسلام في عظمته ص 103 ـ 120 ـ المقريزي ـ خطط ـ القاهرة 1324 هـ ج 1 ص 312 ـ 313

هذه التجارة بكل من زويلـــة وكوار يقول (. . . ووراء ذلك (ودان) بلد زويلة مما يلي القبلـــة وهم قوم مسلمون اباضيـــة كلهم يحجون البيت الحرام واكثرهم رواه (كذا) ويخرجون الرقيق السودان من الميريين والزغاويين والمرويين وغيرهم من اجناس السودان لقربهم منهم وهم يسبونهم. وبلغني ان ملوك الســـــودان يبيعون السودان من غير شيء ولا حرب ومن زويلـــة الجلود الزويليـــــــــة وهي ارض نخل ومـــزدرع ذرة وغيرها. وبها اخلاط من اهل خراســـان ومن البصرة والكوفـــة . ووراء زويلـــة على خمس عشرة مرحلـــة مدينـــة يقـــال لهـــا كوار بها قوم من المسلمين من ســـائر الاحياء اكثرهم بربر وهم ياتون بالسودان)(1) وكان ببلاد كانـــم مسلمون ايضا وربمـــا يعود استقرارهم بتلك الاماكن الى القرن الثاني ، اذ يذكر البكري ان جماعـــة من الامويين قد قصدوا هذه البـــلاد عندمـــا طاردهـــم العباسيون (2).

وهكذا كانت القوافل المتجارة بالرقيق تنطلق من افريقيـــة الى طرابلس مخترقـــة غدامس الى بلاد كانم الكائنة في صميم بلاد السودان وترجع من هنـــاك عبر المناطق الاباضيـــة محملـــة بالرقيق الاسود (3).

---

1) اليعقوبي ـــ كتاب البلدان ـــ ص 345

2) البكري ـــ المسالك والممالك ص 10ـــ11 ـ ط ـ باريس ـ 1965

3) روجي ادريس ـ R. IDRIS ـ بلاد البربر ـ ج 2 ص 684 (عن البكري ـ نص عربي ص 10 ـــ 11 نص فرنسي ص 27ـــ29

وقد وجد مدخل آخر الى بلاد السودان الوسطى علاوة على زويلـــة والمدن الواقعة جنوبيها من كوار ومدينـة اوجيلة التي يذكر الادريســـــي ان القوافل تمر بها في ذهابها من كوار الى كاوكاو (1) وهذا المدخل الثاني ينطلق من بلاد قسطيليـة بالجريد التونسي. ومما يروي في هذا المجـال ان كيـــداد والد ابي يزيد صاحب الحمار قد كان يقطن بطقيوس وهي احـدى مدن قسطيليـة. وكان يصاحب التجار في ذهابهم الى بلاد السودان فاشترى جاريـة من تدمكـة وهي السوق المشهورة الواقعة شمالي كاوكاو (Gao) وكانت هذه الجاريـة سوداء تدعى سبيكـة وقد انجبت لـه ابنـــا اعرج وله نقطـة سوداء في لسانـه فسماه ابا يزيد (2) فقد كان جلب الرقيـــق يتم اذن عبر هذه الطريق ايضا على ايدي بعض القبائل البربريـة مثل مصراتـة التي يقول عنها ابن خلدون انها فرع من هوارة وانها كانت تشتغل بالتجارة بين افريقيـة وبلاد السودان وتمثل همزة وصل بين الجريد التونســي وتلـك البلاد (3) وعرف هذا الجلب نشاطا حثيثـا حتى في العصور الموالية

---

1) الادريسي ــ نزهة المشتاق ص 312 ـ الترجمة ـ ط ـ ليد 1866 ـ Leyde
2) ابن حماد ــ اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ــ ص 18 من النص العربي وص 33 ــ 34 من الترجمة. انظر ايضا رواية ابن الاثير بالمقارنة مع هذه الرواية ــ الكامل طبعة طورنبرج Tornberg ج 8 ص 315
3) ابن خلدون ــ العبر ــ ط بيروت 1956 ــ ج 6 ص 290

لهذه الفترة من الزمن اذ يذكر ابن سعيد ان مدينة وركلان (ورقلة ouargla) هي بلاد النخيل والعبيد وعن طريقها يمر الرقيق الذي يصدر الى المغرب الاوسط والى افريقية. ومنها يقع الانطلاق عبر الصحراء الى سائر بلاد السودان (1) والى ان تصل الى عنق نهر النيجر (2)

فمن هذين البابين كان الاغالبة بالقيروان والرستميون بتاهرت يتزودون بالرقيق الاسود ويصدرونه الى البلاد الاسلامية الاخرى . وقد وصف لنا ابن الصغير في كتابه عن الائمة الرستميين نشاط مدينة تاهرت التجاري. وقد كان هو نفسه تاجرا بها. وذكر وثاقة العلاقات التجارية بين هذه المدينة وبلاد السودان. ونص على سفارة في هذا المجال ارسلها الامام افلح بن عبد الوهاب (207-258هـ/ 823 ــ 872م) الى تلك البلاد وكان السفير اذاك محمد بن عرفة (3) وكانت مدينة القيروان سوقا لهذا الرقيق ايضا وكان ياتيها من زويلة بعد ان تجلبه القوافل من اقصى الجنوب كما كان امراء افريقية يتلقون هدايا من ملوك السودان تشتمل على رؤوس من الرقيق. ومن ذلك من رواه ابن عذاري من ان المعز بن باديس تلقى سنة (423هـ/ 1034م) هدية من ملك السودان فيها رقيق كثير (4)

---

1) ابن سعيد - بسط الارض ص 61
2) ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية ص 65-66 . - لومبار - Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص 151
3) ت. لويكي - دولة تاهرت - ص 515 - كراسات الدراسات الافريقية - 8 - سنة 1962
T. Lewicki - L'Etat Nord Africain de Tahert - cahiers d'etudes Africaines - 8 - 1962 - p 515
4) ابن عذاري ــ البيان المغرب ج 1 ص 275

6) رقيق بلاد السودان الغربيـــة

كان اول اتصال للمسلمين ببلاد السودان الغربيـة في القرن الاول للهجرة وذلك عندمـا "فتح عقبـة عامـة بلاد البربر الى ان بلغ طنجـة وجال هنالك ولا يقاتلـه احد ولا يعارضـه حتى فتح كورة من كور السودان"(1) سنـة (63 هـ/ 682ـ683م) وكانت المنطقـة التي هجـم منها على تلك البلاد هي السوس بجنوب المغرب الاقصى (2) لكن الحملـة التي مكنت المسلمين مـن التوغل فعلا في هذه المنطقـة من بلاد السودان واتاحت لهم الحصول علـى رؤوس من الرقيـق الاسود هي تلك التي حدثت سنـة (116هـ/ 734ـ735م) ففي تلك السنـة جهز عبيـد الله بن الحبحاب والي افريقيـة من قبل هشـام بن عبد الملك جيشـا بقيـادة حبيب بن ابي عبـدة حفيـد عقبـة بن نافـع الفهري ، فرحل القائد الى السوس الاقصى وتوجـه نحو اودغست وغزا بـلاد السودان ثم رجع منتصرا وبيـده غنائـم كثيرة وعدد غفير من الاسرى والسبـي من بينـه جاريتان من ذوات الثدي الواحد (3) يقول ابن عذاري : "وبعـث (عبيد الله بن الحبحاب) حبيب بن ابي عبدة بن عقبـة بن نافع الفهري غازيـا

---

1) ابن عذاري ـ البيان المغرب ـ ج 1 ص 28
2) ابن خلدون ـ العبر ـ ج 6 ص 217 ـ ط. بيروت 1959
3) ابن عبد الحكم ـ فتوح افريقية والأندلس ـ ص 122 ـ ابن الاثير ـ الكامل ـ ط. طورنبرج Tornberg ج 5 ص 141

الى السوس الاقصى فبلغ ارض السودان ولم يقابله احد الا ظهر عليه .
ولم يدع بالمغرب قبيلة الا دخلها واصاب من السبي امرا عظيما .
ووجد جاريتين ليس لكل واحدة منهما الا ثدي واحد .
ثم رجع سالما ظافرا " (1) .

وكان الغزاة العرب منذ ذلك التاريخ يرتادون تلك المناطق بين الغينة والاخرى ويهجمون على قبائل البربر والسودان الموجودة جنوب بلاد السوس. وقد روى ابن الفقيه عن المشتري بن الاسود انه قال : ((غزوت بلاد انبية عشرين غزاة من السوس الاقصى)) (2) وانبية هؤلاء هم بربر ملثمون من صنهاجة يوجدون في الصحراء الفاصلة بين سجلماسة وادغست (3) وهكذا فتح العرب طريقا اخرى غربية الى بلاد السودان منذ القرن الثاني للهجرة وكان همهم موجها الى الذهب الموجود هناك . وقد اهتم بفتح هذه الطريق التجارية والي افريقية عبد الرحمن بن حبيب الذي كانت ولايته سنة (127هـ/ 745م) وقد شجعه على فتحها نجاح الغزوة التي حدثت سنة (116هـ/ 734م) (4) وقد اشار مؤلف كتاب الاستبصار الى ان الطريق الرابطة

---

1) ابن عذاري ـ البيان المغرب ج 1 ص 51
2) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ص 64
3) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ص 360
4) ج. ديفيس - تد غوست = J. Devisse - Ted Gaoust . 1970 - I . p 109-166
(انظر ـ مقالا لنفس المؤلف حول طرق التجارة ـ مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي 1972 ص 41 73 - J. Devisse - Revue d'Histoire economique et Sociale 1972 - pp 41-73)

ر. موني - طريق صحراوية ـ نشرية العلاقات الصحراوية 1953 ع 12 ـ عدد ص 31/ 41
R. Mauny - Un Itinéraire transsaharien du M.A. - Bulletin de liaison saharienne - 1953 - N° 12 - pp 31-41

بين وادي درعة بالمغرب وبلاد غانة قد احدثها الامويون (1) الا ان العرب سوف لن يرجعوا الى هذه المنطقة وسيعوضهم البربر الذين سيسيطرون على الطرق والاسواق (2).

تعرف المسلمون اذن على ممالك السودان الغربية وعقدوا معها علاقات تجارية منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة. وكان الهدف من هذه العلاقات البحث عن الذهب والرقيق ، ومن اشهر تلك الممالك مملكة غانة التي يصفها الفزاري بكونها بلاد الذهب (3) وهي مملكة توجد جنوب اودغست وبقيت على الوثنية الى ان سقطت تحت ضربات المرابطين سنة (469هـ/ 1076م) (4) وقد كان اهل غانة يغزون السودان المجاورين لهم ويأسرونهم ويبيعونهم ومن بينهم قبائل "اللملم" و "كوكو" فكان اسرى هذه القبائل يكونون اغلب الرقيق المجلوب الى المغرب (5).

---

1) مؤلف مجهول. الف حوالي 588هـ/ 1192م وهو ناقل عن البكري — الاستبصار. ترجمة أ. فانيان. E. Fagnan. قسنطينة 1900 ص 188—189

2) كوك. Cuoq. ج. منتخبات. مقدمة ص 14—15

3) المسعودي — مروج الذهب — ج 4 ص 39. ط. باريس. 1861 - 1877

4) الزهري. كتاب الجغرافية. فقرة (334—338) كوك. Cuoq. ج. منتخبات. مقدمة. ص 22—23

5) ابن خلدون. المقدمة. كاترمار. Quatremère. ج 1 ص 95. ابن سعيد المغربي. بسط الارض ص 24—28 ، الادريسي. نزهة. ط رومة 1970 مجلد 1 ص 19—20

وقد ذكر الزهري ان اهل غانة كانوا يغزون بلاد اميمة ويسترقونهم وبقوا على هذه العادة حتى بعد اسلامهم. وهو يشير الى ان اميمة هذه هي احدى قبائل جداوة وانهم مجوس يسكنون الرمال تحت خيام من نبات الصحراء (1) .

ونحن نجد عند الادريسي بالرغم من تاخره في الزمن صورة عن هذا الوضع ببلاد السودان الغربية وعن الظروف التي جعلت منها مصدرا هاما لجلب الرقيق الاسود الى المغرب. فمما ذكره عن اهل سلا وتكرور وغانة انهم كانوا " يغيرون على بلاد "لملم" ويسبون اهلها ويجلبونهم الى بلادهم فيبيعونهم من التجار الداخلين اليهم فيخرجهم التجار الى سائر الاقطار " (2) فهو يصف لنا النزاع بين الاهالي السود وما يسفر عنه من بيع للرقيق ، ويشير الى ان قبائل " اللملم " كانوا نهبا لجيرانهم المحيطين بهم فاهل غانة يسترقونهم ويبيعونهم في بلادهم عندما يقصدهم التجار (3) وكان سكان مدينة " غيارة" يمتطون الابل ويتزودون بالماء ويسيرون ليلا ثم

---

1) الزهري ــ كتاب الجغرافية ــ فقرة 334 ــ 338 انظر ايضا ـ كوك Cuoq. ج. ـ منتخبات ـ ص 92 ــ 102
2) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ طبعة رومة ، 1970 ـ المجلد الاول ــ ص 19
3) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ الترجمة ص 17 ــ 18 طبعة ـ دي غوية De Goeje ـ ليد 1866 ـ Leyde

يهجمون عليهم نهارا فياسرون منهم العديد ويرجعون مصطحبين ما انعم الله عليهم بـه من رقيق اللملم (1) كما يشير المؤلف الى قبائل عديدة من السودان توجد غربـي بلاد اللملم وتعيش في وضع بدائي وتتعرض لغزو جيرانهـا فيؤسر افرادها ويسترقون .لكنـه يلاحظ ان اغلب الرقيق المجلوب الـى المغرب كان من جنس " اللملم ".وهو رقيق كان يوسم بجرح في الوجـه بواسطـة الكي ويعتبر ذلك علامـة تميزهم عن غيرهم (2) ، اما ما بعد بـلاد " اللملم" جنوبا فصحاري لا عمارة فيها حسب قولـه .وبذلك تكون تلك البلاد هي اقصى البقـاع التي تصدر الرقيق في بلاد السودان الغربيـة (3) ويصف الادريسـي ضربـا آخر من ضروب استرقاق السـود .وذلك ان اهل المدن كان يسرقـون اطفال السودان الرحل ثم يخفونهم ويبيعونهم للتجار بثمن زهيـد فينقلهـم اولئك التجار الى المغرب الاقصى في شكل رقيق (4).

---

1) المصدر نفسـه الترجمة ص 24 ـ وطبعة رومة 1970 المجلد الاول ص 26
2) المصدر نفسـه الترجمة ـ ص 20ـ21 وطبعة رومة 1970 المجلد الاول ص 19ـ20
3) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ طبعة رومة 1970 المجلد الاول ص 19ـ20
4) المصدر نفسـه ـ الترجمة ـ ص 110

ولم تكن هذه الغارات بين ممالك السودان وقبائلهم فقط. بل ان البربر باودغست كانوا يغيرون عليهم ايضا ويغزونهم على حد قول اليعقوبي (1) كما يصف البكري سيطرة ملك اودغست في القرن الرابع للهجرة وعلى وجه التحديد بين سنة (350هـ/ 961م) وسنة (360هـ/ 971م) على اكثر من عشرين ملكا من ملوك السودان (2) ويذكر لنا ان هذا الملك الذي يدعى " تين يورتان بن وسنو بن نزار " ويمتي الى صنهاجة قد شن حربا على مملكة " اوغام " شرقي غانة واوسع فيهم القتل والسبي حتى كانت نساء " اوغام " يسارعن بالانتحار كي لا يقعن في ايدي البيضان اي البربر (3) كما يذكر نفس المؤلف ان قبائل لمتونة توجد على مسافة عشرة مراحل من بلاد السودان وانهم يقومون بالجهاد تحت رئاسة محمد بن تارسنة او تارشنة (4) .

---

1) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ ص 360

2) يصف لنا ابن حوقل وابن ابي زرع نفس الوضع مع اختلاف في التاريخ واسم الملك ـ راجع : كوك : ج. Cuoq - منتخبات ص 50ـ87

3) البكري ـ المسالك والممالك ـ طبعة دي سلان . ص 159

4) المصدر نفسه ص 164 وما بعدها ويذكر المؤلف ان ابن تارسنة هذا قد توفي بارض السودان ببلاد تدعى كنكارة (ص 164 ومابعدها) وقد تحدث ابن ابن زرع كذلك عن هذه الشخصية في روض القرطاس ص 75 ويرى ف. مونتاي - V. Monteil ان كنكارة Gangara هو اسم يطلقه عرب المغرب على جنس "صونتكي" Les Soninké (انظر طبعة 1958 ص100) وراجع ايضا (كوك - ج. Cuoq - ص . 80ـ87)

وكانت مدينة سجلماسة التي اسست في القرن الثاني للهجرة (1) منطلقا للقوافل التجارية المتوجهة نحو بلاد السودان الغربية. وقد اكتسبت هذه المدينة اهمية تجارية بسبب قربها من تلك البلاد وجلبها للرقيق والذهب من مملكة غانة (2) وقد تحدث الرحالة عن دور هذه المدينة التجاري منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ولم يمض اذاك على تاسيسها الا فترة وجيزة من الزمن ، ولنا فيما نقله المسعودي عن الفزاري ما يشير الى اوضاع هذه المدينة اذاك من الوجهة الاقتصادية والسياسية (3) وقد لاحظ اليعقوبي في القرن الثالث للهجرة هذه الخاصية التي تميزت بها بسبب متاخمتها لبلاد السودان (4) ويدل كلام ابن حوقل عن هذه المدينة التي زارها سنة (340هـ/ 951م) وشاهد بها انواعا من التجار وكثيرا من الثروات على انها احتفظت بمركزها التجاري في القرن الرابع للهجرة . فقد كان التجار

---

1) ابن عذاري ـ البيان المغرب ـ ج 1 ص71 : يقول انها اسست سنة (141 هـ/759م) وقد اسسها حكام تفليت الرستميون عام 758م (انظر ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية" ص65ـ66
2) الاصطخري ـ المسالك والممالك ص 39ـ40
3) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج 4 ص 39 - ط - باريس - 1861 - 1877
4) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ ص 360

المشارقة من عراقيين وغيرهم يقصدونها ويعقدون بها صفقات الرقيق ويذكر هذا الرحالة انه شاهد بمدينة " اودغست " وثيقة يعترف فيها احد التجار بدين مبلغه 42،000 دينار لفائدة احد سكان سجلماسة وانه لم يسمع بشيء شبيه بهذا في المشرق . ولما حكى ذلك لاهل العراق وخراسان وفارس اعتبروه امرا غريبا ، ولاحظ ابن حوقل ايضا مكوسا توظف بسجلماسة على القوافل المتاجرة مع بلاد السودان وانواعا اخرى من العشور والجبايات على تجارة هذه المدينة مع مدن اخرى بالمغرب مثل فاس واغمات والسوس ومع بلدان اسلامية اخرى مثل افريقية والاندلس . وكان المبلغ الجملي لتلك الجبايات اربعمائة الف دينار 400،000 ويمثل حوالي نصف موارد المغرب من اقصاه الى ادناه حسب قوله (1) ويصف لنا المسعودي صورة المعاملات في هذا العصر بين تجار سجلماسة وسودان بلاد غانة وهي معاملات تقوم خاصة على توريد الرقيق والذهب (2).

---

1) ابن حوقل — صورة الارض - ترجمة - فيات Wiet - (G) ج 1 ص 97
دي لافوس - تاريخ الصحراء - هسبريس - 1930 . ص 58 Delafosse. Hist du Sahara-Hespéris -

2) المسعودي اخبار الزمان — في = Monumenta - ج 3 قسم 2 ص 629

وقد عرفت سجلماسة هذا الازدهار التجاري في ظل بني المنتصر الذين حكموا بها من سنة (138 هـ/ 756م) الى سنة (346 هـ/958م)(1) وكانت قبائل البربر هي المشرفة على تجارة الرقيق اذاك والقائمة بدور الوسيط التجاري بين المغرب وبلاد السودان ، وتوجد تلك القبائل في ((صحراء نزار)) جنوب سجلماسة ، وهي صحراء تخترقها القوافل المتجهة نحو غانة طيلة 12 أو 14 يوما دون ان تجد بها ماء فكان التجار يتزودون بالماء قبل رحيلهم .وكانوا يسيرون فجرا الى مطلع الشمس ثم ينيخون في القيلولة لشدة الحر ثم يسيرون بعد العصر الى العتمة ثم ينيخون الى الفجر (2) وبهذه " المجابة الكبرى "

---

1) المسعودي ـ مروج الذهب - ج 4 ص 39 - ابن حوقل - صورة الارض - ترجمة فيات Wiet ج 1 ص 97
ت - لويكي - دولة تاهرت - كراسات الدراسات الافريقية - 1962 - عدد 8 - ص 517-518
T. Lewicki - L'Etat Nord Africain de Tahert et ses Relations avec le Soudan occidental à la fin du 8e et au 9e Siècle -
Cahiers d'Etudes Africaines
1962 - N: 8 - pp 517-518

2) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ الترجمة ص 108
ابن سعيد ـ بسط الارض ـ ص 47
الحراني ـ جامع الفنون - عن يوسف كمال - Monumenta - ج 4 قسم 1 ص 1126ـ1128

على حد تعبير البكري (1) توجد قبائل مسوفة البربرية التي قال عنها ابن حوقل انها كانت تتقاضى في زمانه اموالا على التجارة التي تمر بها (2).

وتمر القوافل التجارية بعد اختراقها لتلك الصحراء وقبل وصولها الى غانة بمدينة " اودغست " (3) وهي محطة تجارية تصلها القوافل بعد مسير اربعين 40 يوما من سجلماسة وتوجد على ابواب بلاد السودان اذ تقع تلك البلاد جنوبيها وشرقيها (4) وكان ملكها يقوم بغزوات في بلاد السودان وله ممالك عديدة (5) وقد زار ابن حوقل هذه المدينة سنة (340هـ/ 951م)وذكر ان سكانها هم بربر صنهاجة وانهم على صلة وثيقة ببلاد غانة اذ كانوا يصدرون اليها الملح ويستوردون منها الرقيق والذهب.وقد عملت هذه العلاقات على خلق ثروات كبيرة باودغست.فقد كان الحمل الواحد من الملح يباع ببلاد

---

1) البكري ــ المسالك والممالك.ط. Deslane ص 164 وما بعدها
2) ابن حوقل ــ صورة الارض ــ ترجمة نيات Wiet - (G) ج 1 ص 100
3) اليعقوبي ــ كتاب البلدان ص 360
4) ابو الفداء .كتاب الجغرافية ترجمة.رينو Reinaud - (M)-ج 2 - ص 174 - 175
5) اليعقوبي -البلدان- ص 360 ــ البكري ــ طبعة دي سلان Deslane - (M.G) - ص 159

السودان بمائتين او ثلاثمائة (200أو 300) دينار (1) وقد قامت بهـــذه المدينـة اسواق رائجـة يقصدها التجار من كل صوب. وقد وصفهـــا لنـا ياقوت نقلا عن المهلبي (2) وقد اشتهرت اودغست بكثرة رقيقهـا وجودتـه . وقد زودنـا البكري بمعلومات هامـة حول هذه البضاعـــة فذكر ان بهـذه المدينـة طباخات ماهرات من السودانيـات ثمن الواحدة مائـة مثقـال من الذهب وازيـد . وهو مقدار يمكن اذاك من شـــراء عشرة حملان. وقد مهرت تلكم الطباخات في صنع الحلويات وخاصة القطائف المصنوعـة من الجوز والعسل ، وتوجد باودغست ايضـا جوار جميـــلات رشيقـات القوام ضيقـات الفروج يخيل لمن وطئهن انهن عذارى (3)

وقد روى المؤلف عن محمد بن يوسف عن ابي بكر احمد بن خلوف الفاسـي عن ابي رستان احد سكان جبل نفوسـة القائمين بالتجارة فـي اودغسـت انـه شاهد بها جاريـة مضطجعة على جنبها وابنها يخرج من تحتهـا بسبب عظم عجزهـا (4) وكان سكان هذه المدينـة اثرياء يملكون العديد

---

1) ابن حوقل صورة الارض ــ ترجمـة فيات G.Wiet ج 1ص 99
2) ياقوت ــ معجم البلدان ــ مـادة: اودغست
3) البكري ــ المسالك والممالك ــ طبعـة دي سلان De Slane (M6)ص 158
4) المصـدر نفسـه ص 159

من العبيد حتى ان الواحد منهم كان يملك اكثر من الف عبد (1) اما المشرفون على هذه التجارة فهم بربر صنهاجة الذين كانوا يستوردون الرقيق من غانة ويصدرون اليها الملح المستخرج من المناجم الكائنة بارضهم (2).

وهكذا كانت القوافل التجارية تمثل الخط الرابط بين اودغست وغانة وتعمل على ازدهار تجارة الرقيق بهذه المدينة (3) وكانت مملكة غانة اذاك من اغنى ممالك السودان واروجها تجارة واكثرها عددا وعدة ، فالذهب ينبت بها "كالعشب في الرمال "(4) وملكها يسيطر على الكثير من امم السودان .فقد كانت القبائل المجاورة لمملكته تتقرب اليه بسبب حاجتها الى الملح المجلوب من بلاد الاسلام (5) ويذكر الادريسي ان تجار المغرب الاقصى يقصدون مدينة غانة لما فيها من اسواق رائجة لا يؤمها الا التجار المياسير (6) وكان الرقيق الاسود المجلوب

---

1) المصدر نفسه - ص 164_174

2) المصدر نفسه - ص 163 _
T. Monod - Al-Madjāba al-Kubrā - Dakar - 130.188 - ص1958 - ت.مونود - المجابة الكبرى - دكار
ابن سعيد - بسط الارض ص 48 - القزويني - اثار البلاد _ ص 11_38

3) لقد فقدت اودغست هذه الخاصية في عصر الادريسي اذ يقول عنها انها مدينة صغيرة وقليلة التجار (انظر نزهة المشتاق _ الترجمة ص 109)

4) ابن الفقيه _ مختصر كتاب البلدان ص 66

5) ابن حوقل صورة الارض _ ترجمة - Wiet - فيات ج 1 ص99.الادريسي _ نزهة المشتاق _ الترجمة ص 23_25

6) الادريسي _ نزهة _ طبعة رومة - 1970_ مجلد 1 ص 23

من بلاد السودان الداخلية يتجمع بها فتجلبه القوافل الى بلاد المغرب (1) وبذلك يتم الربط بين بلاد السودان وبلاد المغرب مرورا بهذه المراكز الثلاثة : سجلماسة واودغست وغانة ، وهي جميعا من اشهر اسواق الرقيق الاسود في هذا العصر ، وقد ساهمت مدن اخرى ايضا في تدعيم هذا الخط التجارى نذكر منها خاصة اغمات ودرعة ونول الاقصى التي اشار اليها الادريسي (2) .

7) طرق توريد الرقيق :

تلك هي المسالك والطرق التي عبرتها تجارة الرقيق الاسود من بلاد السودان الى بلاد الاسلام وخاصة منها مصر وافريقية والمغرب وقد سيطر الطولونيون ثم الاخشيديون بمصر على الطرق الشرقية بينما سيطر الاغالبة ثم الفاطميون على الطرق الوسطى ونظموا القوافل الذاهبة عبر الصحراء نحو بلاد السينغال والنيجر والسودان . وقد كان رستميو تفليت يسيطرون ايضا على طرق القوافل الوسطى والغربية الى منتصف القرن الرابع للهجرة ، وما ان جاء عام (346- هـ 958م) حتى قضى قائد الفاطميين جوهر على مملكة الرستميين وسيطر حكام تونس

---

1) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ الترجمة ص 17 ـ 18 ـ وص 21

2) المصدر نفسه ص 106 ـ مؤلف كتاب الاستبصار ـ ترجمة ـ أ ـ فانيان E- Fagnan ص 188 ـ 189

على اهم تلك الطرق ونظموا قبائل البدو المجاورة لها حتى لا يتعرضوا الى تعطيل هذه التجارة المربحة(1) لكن هذه المسالك الثلاثة التي كنا بصدد تفصيل الحديث عنها لم تكن مستقلة عن بعضها بعضا. بل وجدت طرق تجارية اخرى تربط بينها وتزيد التبادل التجاري نشاطا وخصبا ، فكان بامكان مسلمي مصر مثلا ان يستوردوا الرقيق من غانة ، فمنذ عصر اليعقوبي كانت الطريق الرابطة بين مصر وغانة معروفة وهي طريق تمر بمرندة (في الزايير - zaïr) وتخترق مملكة كوكو (2) وقد ذكرها ابن الفقيه ايضا فقال " اذا جاوزت بلاد غانة الى ارض مصر انتهيت الى امة من السودان يقال لها كوكو ثم الى امة يقال لها مرندة ثم الى امة يقال لها مراوة ثم الى واحات مصر بملسانة " (3) ، فقد كانت هذه الطريق مستعملة اذن في القرن الثالث للهجرة .وكانت القوافل تنطلق من واحات مصر وتخترق ممالك السودان الى غانة ، وبعد نصف قرن من هذا التاريخ يشير ابن حوقل الى هذه

---

1) ارشبالد لويس - السيادة الاسلامية - ص 65-66 - لومبار - الاسلام في عظمته ص 151
ابن عذاري - ج 1ص 244 - ابو العرب - طبقات علماء افريقية ص 235
ابن حوقل - صورة الارض - ترجمة - فيات - Wiet ج 1 ص 249
2) كوك - بوسكو - المنتخبات - المقدمة ص 15 - 20
3) ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان - ص 68

الطريق الجنوبيـة الصحراويـة فيذكر ان التجار كان يخرجون من الواحات المصريـة ويخترقون الصحاري والمسالك المختلفـة ليصلوا الى بلاد المغرب وبلاد السودان. وكانوا في رحلتهم تلك يمرون بزويلـة وفزان وبرقـة. لكـن هذا الرحالـة يصف لنـا عسر هذه الطريق اذ تتعرض القوافل خلالهـا الى الرياح الهوجاء والعواصف الرمليـة وقطاع الطرق فتهلك في اغلـب الاحيان ، فلما تكررت هذه الحوادث امر ابو العباس احمد بن طولـون بالتخلي عن هذه الطريق (1) وقد تعرض مؤلف " حدود العالم " الـى صعوبـة هذه الطريق ايضا فلاحظ ان التجار كانوا يقضون 80 يـومـا على ظهر الابل. ولا وجود طوال الطريق الا لمكان واحد بـه الماء والعلف (2) وقد تحدث بنيامين التطيلي عن نفس الموضوع ايضـا (3).

---

1) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ طبعة كريمر - J.H.Kramers - 1938 ج 1 ص 90ـ103
2) مؤلف فارسـي مجهول ـ حدود العالم - طبعة جيب - Gibb الانكليزية ص 165
3) روبرت -ل- هيس - طريق بنيامين التطيلي - Robert.L.Hees - the Itinerary of Benjamen of Tudela : a twelfth Century jewish description of North est Africa - J.A.H_1964 - t 6 - pp.15.24

وقع التخلي اذن عن هذه الطريق منذ عهد ابي العباس بن طولون وصارت القوافل تسلك طريقا اخرى اقل صعوبة وهي التي تتوجه نحو سجلماسة مارة بالقيروان ونفزاوة وبلاد قسطيلية ولا يقضي المسافر فيها اكثر من شهرين (1)

ومهما يكن من امر فقد وجد مسلكان رئيسيان تحدث عنهما البكري خلال وصفه للطرق التجارية البرية ببلاد المغرب (2) وهما مسلكان كانا يخترقان البلاد من الشرق الى الغرب ويصلان الشمال الافريقي ببلاد السودان جنوبا، وبمصر وما يليها من بلاد الاسلام شرقا. ويتصل بهذين المسلكين الكبيرين طرق فرعية متجهة نحو السواحل الشمالية من بلاد المغرب ومرتبطة باهم المدن الواقعة داخل البلاد ، ولا يخفى ان سلسلة جبال الاطلس المخترقة لبلاد افريقية والمغرب هي المتسببة في وجود هذين الطريقين الذين يكادان يكونان متوازيين ، فالطريق الاولى تنبعث من جهة الجريد التونسي وتمر بهضاب مرتفعة ملتوية حول جبل الاوراس ولها ثلاثة اتجاهات. الاول نحو الجنوب صوب بسكرة وورقلة

---

1) ابن حوقل ــ صورة الارض ــ طبعة كريمر J.H.Kramers - 1938 ج 1 ص 90 ــ 103

2) البكري ــ المغرب ــ جزء من المسالك ــ طبعة دي سيلان - De slane - الجزائر 1857 ــ ص 149 ــ 163

والثاني نحو الشمال الغربي من بلاد المغرب مرورا بحوض الطرف وممر الحضنة وبفتحة طازا ، والثالث يسير صوب الشمال الى بجاية ، فهي اذن طريق تخترق بلاد المغرب طولا من الشرق الى الغرب وتتصل جنوبا ببلاد السودان وشمالا بسواحل الشمال الافريقي ومدنه الداخلية اذ كانت القيروان وبلدان الساحل التونسي متصلة بهذه الطريق. وقد اطلق المؤرخون على هذه الطريق اسم طريق الهضاب.

اما الطريق الثانية وهي المسماة بطريق القصور فهي متصلة بمسلك منبعث من مصر ومار ببرقة وطرابلس ومتبعة للجهة الجنوبية من الاطلس الصحراوي متجهة نحو الجنوب الغربي من المغرب الاقصى. وتوجد بين هذين الطريقين الكبيرين سلسلة من الجبال تفصل بينهما. لكن وجود بعض الانهيارات فيها سمحت بظهور بعض المسالك الرابطة بين الطريقين الشمالي والجنوبي وبوجود فتحات ومنخفضات مثل ساحل افريقية ومنخفضات الحضنة ومن مدنها تاهرت وورگلة وسدراتة ومزاب ومثل مضيقات الاطلس المغربي ومن مدنها فاس وسجلماسة واغمات ومراكش والسوس ونول لمطة (1)

---

1) لجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي - من ق 4 الى ق8 هـ - ص 99 وما بعدها

وما من شك في ان تجارة الرقيق في بلاد السودان قد كانت تسلك هذين الطريقين الرئيسيين وتنطلق من المسالك الرابطة بينهما. وكانت قوافل هذه البضاعة تذهب من الجنوب الشرقي او الغربي لبلاد المغرب ناقلة لتجارتها نحو الشمال او نحو الشرق ، ومن المسالك التجارية ما استعمل لتجارة الرقيق منذ عهد قديم.فقد اشار البكري في كلامه على الطريق الرابطة بين مصر وبرقة الى وجود كنيسة بها رسم على جدرانها تاجر رقيق ومعه رقيقه (1) ويلاحظ موريس لومبار ان الطرقات الكبرى التي سلكتها تجارة الرقيق الاسود هي نفسها التي اتبعتها جحافل الغزاة لبلاد المغرب من اتراك وهلاليين ومرابطين وذلك لان هذه الطرقات قد صارت ممهدة بحكم تاثير الحركة التجارية التي كانت تمر بها .كما كانت مجهزة بمراكز بريد وحواضر متاخمة للمجتمعات البدائية (2) .

---

1) البكري ـ المسالك والممالك - جزء المغرب ـ طبع الجزائر 1857 - دي سلان - De Slane (M-G) ـ ص 3

2) موريس لومبار ـ M. Lombard ـ الاسلام في عظمته الاولى.ص : 194 - 204
نجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي - ص 114 ـ 115

الفصل السابع

اجناس الرقيق

اجناس الرقيق

ان اجناس الرقيق المتوفرة بالاسواق الاسلامية جد متنوعة وقد اختلفت انواعها وتعددت بتعدد الاقوام التي اتصل بها المسلمون اتصالا سلميا او عدائيا اما عن طريق التجارة او الحرب او القرصنة او حتى عن طريق الجوار وتبادل الهدايا من الرقيق، فضلا عما توارثه المسلمون من رقيق عن الفترة السابقة لهذا العصر ابان انتشار الفتوحات اذ تنوعت اجناس ذلك الرقيق بتنوعها. فكان منه الرقيق الرومي والفارسي والبربري والهندي والارمني والتركي والخزري والافرنجي والصقلبي ورقيق بلاد السودان وغير هذه الانواع. وقد يعسر احصاؤها لامتزاجها واختلاطها احيانا فالرقيق الرومي مثلا يضم عدة اجناس قد تمازجت وكذلك الرقيق الاسود. كما راينا ان لفظ صقالبة استعمل احيانا كثيرة للدلالة على الرقيق الابيض عموما. لكنه من الضروري ان نشير الى ان هذه الانواع لم تكن متوفرة بنفس المقدار في هذا العصر فاكثرها انتشارا وتداولا الرقيق التركي والصقلبي والعبيد السود (1) اما بقية الاجناس فهي متفاوتة المقادير وان كانت عموما دون الاصناف الثلاثة السالفة الذكر. وفيما يلي بعض الامثلة على هذه الاجناس التي وجدت الى جانب الاتراك والسودان والصقالبة وان كان بعضها قليل الانتشار.

---

1) موريس لومبار M. Lombard - الاسلام في عظمته الاولى - ص 194-204 - أ. متز A. MEZ الحضارة الاسلامية - ج 1 ص 300

٨) الرقيق الرومي :

ومن الرقيق الرائج في الاسواق الداخلية الرقيق الرومي وهو في معظمه ناشيء عن الصدام المستمر بين المسلمين والبيزنطيين سواء اكان ذلك الصدام بشرق العالم الاسلامي او بمغربه ، فقد كانت الثغور بالمشرق والمغرب تزود الاسواق بين الفينة والاخرى بهذا الصنف من الرقيق ، ويكفي ان نضرب مثالا على ذلك بثغر طرسوس حيث كان المسلمون يتخذون رقيقهم من السبي الحاصل في ايديهم خلال هجوماتهم على بلاد الروم. وقد ذكر ياقوت الحموي ان الروم عندما احتلوا طرسوس سنة (354هـ/ 955م) احتلوا دور المسلمين بها واستحوذوا على ما فيها. فوجدوا بها امهات اولاد من الروميات واليونانيات وكان منهن من فضلن الانضمام الى اقوامهن على البقاء مع اسيادهن العرب ، يقول ياقوت :

" ودخل الروم الى طرسوس فاخذ كل واحد من الروم دار رجل من المسلمين بما فيها ثم يتوكل بابها ولا يدالس لصاحبها الا حمل الخف. فان رآه قد تجاوز منعه. حتى اذا خرج منها صاحبها دخلها النصراني فاحتوى على ما فيها. وتقاعد بالمسلمين امهات اولادهم لما رأين من اهاليهن. وقالت: انا الآن حرة لا حاجة

في صحبتك . فمنهن من رمت بولدها على ابيه . ومنهن من ملعت الاب من ولده فنشأ نصرانيا . فكان الانسان يجيء الى عسكر الروم فيودع ولده ويبكي ويصرخ وينصرف على اقبح صورة حتى بكى الروم رقة لهم " (1) هذه صورة عن وجود الرقيق الرومي بالثغور وما يقال عن طرسوس في هذا المجال شبيه بما يجري في سائر الثغور بالمشرق والمغرب ، كما كانت اعمال القرصنة التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة توفر اعدادا من هذا الرقيق ، هذا علاوة على ما استقر في المجتمع الاسلامي من بقايا رقيق الروم الذي اسفرت عنه الفتوحات السابقة لهذا العهد .

وكانت عمليات الجلب عن طريق التجارة الخارجية تشتمل على هذا الصنف ايضا ، فبالرغم من عداء البيزنطيين لدار الاسلام وجدت علاقات تجارية بين المسلمين والروم سواء بالمشرق عن طريق طرابزندة واتل عاصمة الخزر وانطاكية والاسكندرية (2) او بالمغرب عن طريق صقلية وجنوب ايطاليا (3) وكانت هذه العلاقات التجارية

---

1) ياقوت الحموي — معجم البلدان — طبعة وستنفلد - F. Wüstenfeld - في 6 مجلدات - ليبزج - Leipzig 1866 — 1870 ج 3 ص 526 — 527 - وج 4 ص 29 من طبعة دار صادر بيروت 1376هـ/ 1957م
كنارماريوس — canard - M - نخب تاريخية - ص 189.

2) هايد - Heyd - تجارة الشرق ج 1 ص 52 — 53 و ص 44 - لويس بيربيه - الحضارة البيزنطية ص 201 — 202
ايك - التجارة البيزنطية - ص 34
(2) Heyd - Hist du Commerce du levant - T I p 44 - 52 - 53
— Louis Bréhier - Civilisation Byzantine - pp 201 - 202
— ECK - Le Commerce Méditerranéen après l'Invasion Arabe - R.S.E (Revue historique du sud est européen) Bucarest - 1941 - p 34

3) الطالبي — الامارة الاغلبية — ص 396 - 414

تتناول تبادل الرقيق بالرغم من ان الروم كانوا يمنعون بيع مواطنيهم ويحجرون تصدير هذه البضاعة الى بلاد العدو شانهم في ذلك شان المسلمين .كما ان التجار قد تمكنوا احيانا من جلب الرقيق الرومي بطرق غير مباشرة اي بواسطة اعداء البيزنطيين كالروس والبلغار وغيرهم .اذ كان هؤلاء يحاربون الروم ويأسرونهم وكان بامكانهم بيعهم للمسلمين ضمن ما يبيعونه لهم من انواع الرقيق الاخرى .ومن الثابت على كل حال ان الموانع وضروب الحجر التي فرضها الروم على عملية تصدير الرقيق الى المسلمين لم تكن محترمة دائما ، ولذلك لا نستغرب اذا ما لاحظنا في المصادر العربية ذكرا لبعض الرقيق الرومي المجلوب . ومن هذا الباب ما رواه صاحب الاغاني من انه " كان بين يدي المامون في يوم الثلاثين عشرون وصيفة جلبا روميات مزررات قد تزين بالديباج الرومي وعلق في اعناقهن صلبان الذهب وفي ايديهن الخوص والزيتون وقال فيهن شعرا وطلب من احمد بن صدقة ان يغنيه فيه وهو :

"ظبـاء كالدنانـــــير ملاح في المعاصـــــير
جلاهـن الشعانـــين عليـنـا فـي الزنانـير
وقد زرفن اصداغـــا كاذنـاب الزرازيـــر
واقبلن باوســـاط كاوسـاط الزنابيـــر"(1)

لكن هذه الصور من الجلب، نادرة بالقياس الى ما يوفـره الغزو والقرصنة، ومهما يكن من امر فقد توفرت مادة الرقيـق الرومي بالاسواق الاسلامية. واقبل الناس على اقتنائه واستخدامه في شتى امورهم، حتى بلغ مراتب عالية في خدمة الاسـر الحاكمة وفي قيادة الجيوش والاعمال الادارية والاوسـاط الفنية وقصور الخلفاء والامراء. وعرف انتشارا واسع النطاق بشرق البلاد الاسلامية ومغربها.

فقد امكن للخلفاء العباسيين ان يستكثروا في بلاطهـم من الخدم والمماليك الروم. وكان الخليفة المقتدر من اكثرهم اقبالا على اقتنائهم واصطناعهم (2) لان امه واخواله من الروم. فقد كانت امه "شغب" تباشر شؤون الحكم وتتولى الوصاية على ابنهـا

---

1) الاصفهاني ـ كتاب الاغاني ـ ج 22 ص 217 ـ 218 الوشاء ـ الظرفاء والظرفاء ـ تحقيق كمال مصطفى ـ المقدمة ـ ص: هـ ـ و

2) ابن طباطبا ـ الفخري ـ طبعة مصر 1317 هـ ص 234 ـ زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 2 ص 126 ـ 127

وتساهم في المناورات السياسية . وكان للمقتدر (295 - 320 هـ/ 908 - 932م) خال رومي يخاطبه الناس بالامرة ويرهبونه ويتقربون اليه في سبيل الوصول الى ما يريدونه من نعم الخلافة (1) وقد اشتهر بالبلاط العباسي العديد من الروميات اللائي اصبحن امهات للخلفاء . فكان من بينهن زوجة المتوكل (232 - 247هـ/ 847 - 861م) وام ولده المنتصر (247 - 248هـ/ 861 - 862م) و((فبيحة)) ام المعتز بالله (252 - 255هـ/ 866 - 869م) و ((فتيان)) ام المعتمد (256 - 279هـ/ 870 - 892 م) كما كانت ام الخليفة المهتدي (255 - 256 هـ/ 869 - 870م) رومية (2) وقد حفل دور الخاصة بالعراق بالجواري والغلمان من الروم وكانوا من اجمل اصناف الرقيق وانفسه (3) وجرى البويهيون على عادة العباسيين في اقتنائه واصطناعه (4) .

وكان هذا الصنف من الرقيق متوفرا بالشام في عهد الحمدانيين وخاصة في زمن سيف الدولة الحمداني (333 - 356هـ/ 944 - 967م) بسبب تواتر حروبه مع البيزنطيين واسره للعديد من جنودهم في مناسبات مختلفة وتكرر انتصاراته عليهم . فقد تمكن هذا الامير في بعض حملاته على الروم

1) الوشاء - الطرف والطرفاء - تحقيق كمال مصطفى - المقدمة ص ن، س
2) زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ص 153 - 154
3) ابن بطلان - رسالة في شري الرقيق - ص 376
4) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة ج 2 ص 183

من اسر وجوههم مثلما حدث ذلك سنة (343 هـ/954م) اذاسر صهره الدمستق وابن بنته وعددا من بطارقته (1) فلا غرو اذا ما عجبت تصور هذا الامير وغيره من امراء الاسرة الحمدانية بغلمان الروم والجواري الروميات، وقد روى الثعالبي اخبارا حول ولع سيف الدولة بجارية رومية من بنات الملوك كان يهواها " ولا يرى الدنيا الا بها ويشفق من الريح الهابة عليها فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلها منه وازمعن ايقاع مكروه بها من سم او غيره وبلغ سيف الدولة ذلك فامر بنقلها الى بعض الحصون احتياطا على روحها وقال :

راقبتني العيون فيك فاشفقـ ... ت ولم اخل قط من اشفاقـ
ورايت العذول يحسدني فيـ ... ـك مجدّا يا انفس الاعـلاق
فتمنيت ان تكوني بعيـدا ... والذي بيننا من الودّ باق
رب هجر يكون من خوف هجـر ... وفراق يكون خوف فـراق " (2)

---

1) ابن الاثير ـ الكامل ـ ج 8 ص 193

2) الثعالبي ـ يتيمة الدهر ـ ط ـ دمشق 1302 هـ ـ 4 مجلدات ج 1 ص 19 ـ 21 وقد نقل ابن خلكان في نسبة هذا الشعر الى سيف الدولة انظر ـ وفيات الاعيان ج 1 ص 461 ـ ط بولاق 1299 هـ في مجلدين ـ كما نقل كمال الدين بن العديم في كل ما نسب الى سيف الدولة من شعر الابيتين ذكرهما في زبدة الحلب ـ مخطوط المكتبة الوطنية بباريس ـ رقم 1566 ص 40 ـ راجع نخب تاريخية ص 402

وكان هذا الامير يشتري الرقيق الرومي ويستخدمه في الجند. وقد خلفه منهم جماعة سنة(354هـ/965م)لما كان مشغولا بامر الفداء وانضموا الى بعض القواد الثائرين عليه مثل رشيق الصقلبي احد القادة المقيمين بطرسوس ومثل دزبر بن اويليم الديلمي احد رجال قرمويه بحلب وكالحسن بن الاهوازي الذي كان مشرفا على المستغلات بانطاكية(1).

وكان هذا الرقيق الرومي متوفرا بمصر ايضا وقد استخدمه الطولونيون في شؤونهم المختلفة واشتروا منه اعدادا وفيرة واقطعهم احمد بن طولون(254-270هـ/868-884م)قطايع خاصة بهم (2) وقد تواصل وجودهم بمصر في القرن الرابع اذ نجدهم يختطون لانفسهم حارتين بالقاهرة عند تاسيسها.كما ذكر المقريزي ان الحاكم بامر الله الفاطمي(386-411هـ/996-1020م) قد هدم لهم حارتهم سنة (400هـ/1009م) (3).

وقد راجت سوق هذا الرقيق بالمغرب ايضا واستعملهم الاغالبة في الاغراض على بعض المهام.واشتهر من بينهم جماعة نذكر من بينهم

---

1) ابن العديم – زبدة الحلب – مخطوط – م – و – بباريس – 1666 ورقة 40 ظهرا – والمستغلات هي الاملاك بانواعها ، راجع لخبر تاريخية-ص 401

2) المقريزي – الخطط – ج 1 ص 315

3) المصدر نفسه – الخطط – ج 2 ص 8

" خلف " و " مسرور " و " حسن " وغيرهم (1). وقد احرزوا في غنائم صقلية وجنوب ايطاليا مجموعات كبيرة من هذا الرقيق واهدوا منه الى خلفاء بغداد هدايا سنية. منها ما اهدوه سنة (282 هـ/896م) الى الخليفة المعتضد وهو يتمثل في خمسين جارية ومائة خادم (2) ونحن نجد اشارات عديدة في المصادر الى هذه الفئة من الرقيق بافريقية . ففي رياض النفوس يقع التعرض لزاهد يدعى ابن الرومية (3) وخادم لابن اللباد (ت 333هـ/ 5-944) تدعى مارية (4) ويروى ايضا ان القاضي ابن هاشم كان له سنة (286هـ/ 899م) غلام نصراني (5) كما نجد في فتوى القابسي نظمها الونشريسي في المعيار(6) حديثا عن شراء خادم رومية بالمهدية. ولا تخلو فتاوى المازري

---

1) جورج مارسي - بلاد البربر الاسلامية وعلاقتها بالمشرق في العصر الوسيط ص 82
1) G. Marçais - La Berbérie ... Edition - Montaigne - Paris. 1946. p 82

2) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص 44
3) المالكي - رياض النفوس - ج 1 ص 378 - 379
4) المصدر نفسه
5) المصدر نفسه
6) الونشريسي - المعيار - ج 3 ص 120 - 121 طبعة فاس 1314 هـ/ 1315هـ في 12 مجلد

كذلك من مثل هاتـه الاشارات .ومنها ذكره لحادث حول وصفة رومـيـة كانت جزءا من صداق (1) وقد كان الوجهاء بافريقيـة يملكون مجموعات من هذا الرقيق النصراني وقد اشتهر تميم بن المعز(1108-1037/501-428)بالاستكثار منهم (2).

وقد جعلت عمليات الغزو والقرصنة هذا النوع من الرقيق متوفرا في شتى البلاد الاسلامية المتاخمة للبحر الابيض المتوسط .فلم تكن تخلو منه الاسواق الاندلسية وكان يمثل جزءا من رقيق الاندلس.وقد حدثنا السقطي عن رغبة اهل تلك البلاد في الجواري الروميات وتفضيلهم لهن ،خصوصا اذا كن محتفظات بلهجاتهن وعاداتهن الرومية ،ولم يخالطن بعد الاهالي ولا عرفن لغتهم وعاداتهم. وقد روى لنا حكاية طريفة تصور انخداع بعض الاندلسيين في شرائه لبعض الجواري الناطقات باللغة الرومية وحسرته عندما اكتشف ان تلك الجارية التي اشتراها لم تكن رومية (3)

---

1) المعيار نسفه ـ ج 2 ص 331 ـ البرزلي ـ جامع مسائل الاحكام ج 2 ص 59 فما مخطوط ج ـ س عبد الوهاب (لائحة من الجزء الاول)

2) روجر ادريس ـ اعياد مسيحية ـ المجلة الافريقية سنة 1954 ـ عدد 440 ـ 441 ص 274 الحالة رقم 48

(3) H.R. IDRIS - fêtes chrétiennes celébrées en IFRIQUIA à l'époque zirîde - p 274 - Note : 48

(Revue Africaine - Nº 440-441 - Année 1954 - pp 261-276)

3) السقطي ـ آداب الحسبة ص 51-52

بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 100 ـ 105 وص 315 ـ 316

ج) الرقيـــــــق اليونـانـــــــي

وقـد كان الرقيـق الرومي يشتمـل في الواقـع على اجناس اخرى اندمجت في الحضارة الرومانية ويطلق عليهـا المسلمون اسم الروم بصورة عامة . ومن تلـــك الاجناس الرقيق اليوناني والبلغاري والرومي والارمني . واصناف اخرى من المرتزقـة التي كان الروم يستخدمونها في جيوشهـم و يجلبونها من البـلاد المتاخمـــــة لهـم او ياسرونها من هجوماتهـم وحروبهـم مع الروس والبلغار وغيرهـم. وقـــد اتسـع مدلول كلمـة ((روم)) عـند المسلمين وشمل تلك الاجناس حتى قيـــل ان ((اللان)) هم جنس من الروم . بينمـا يقـول ياقوت عن بـلاد اللان انهـا بـلاد واسعـة من طرف ارمينيـة قرب باب الابواب . وهم نصارى مجاورون للخـزر ويجلب منهم عبيـد (1) فلا غـرو اذن اذ ما وقعـت جملـة من اسرى تلـــك الاجناس في قبضـة المسلمين اثنـاء غـزوهـم للبيزنطيين وان كـان عـددهـا قليـلا بالقياس الى الاجناس الاخرى الرائجـة في الاسواق .

لقـد وجـد اذن رقيـق يوناني بالاسـواق الاسلامية (2) وقـد كـــان وجـوده سابقا لهـذا العهـد بحكم قـدم الصدام بين المسلمين والبيزنطييـــن فمنذ عهـد معاوية (41 - 61 هـ/661 - 680م) نجـد يونانيا يدعى ((فلق)) استخدم في المفاوضـة بين الخليفـة والامبراطور آنذاك (3) كما حـدث قتـل عـدة اسرى يونانيين في عهـد سليمان بن عبد الملك (96 - 98 هـ/ 715 - 717م) (4) وروي ان النخاس محمـد بن موسى الرازي كان يجلب الحـواري اليونانيات من المشـــرق الى الاميـــر محمـد الاول (238 - 273 هـ/ 852 - 886م) بالاســـدلـــس (5) .

1) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 376
2) احمـد امين ـ ظهر الاسلام ج 1 ص 130
3) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج 2 ص 335
4) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ـ ج 2 ص 1338
5) بروفنسال Provençal. تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 502 ـ 503

وكان هناك في عهد الخليفة المهدي العباسي (158 - 169 هـ/ 775 - 785م) ابان الاستيلاء على ((سملو)) ((semalouos)) جماعة من اليونانيين استقروا في الحي الشمالي ببغداد الشرقية حيث سمي دير وكنيسة باسمهم ولكن ليس لدينا عنهم سوى اخبار ضئيلة (1) .

اما بالنسبة الى هذا العصر فقد اشتهر عدد كبير من رقيق هذا الجنس وخاصة في زمن المقتدر (295 - 320هـ/ 908 - 932م) ومنهم الخصي مؤنس القائد العام لجند الخليفة ونصر القشوري حاجبه وقد قام كل منهما بدور المترجم ابان السفارة التي ارسلتها بيزنطة الى بغداد سنة (305 هـ/ 917م) وقد اشتهر قبل هؤلاء الخصي يزمان امير طرسوس (ت - 278 هـ/ 891م) وداغ صيد ليون الطرابلسي المعروف عند العرب بعلام زرافة او برشين الوردامي وهو الذي احتل سلونيك thessalonique ودميانة : - Damianos - وتراس الاسطول الذي هجم على قبرص ردا على هجوم هيميريوس :- Himérios.

(2) واصل هؤلاء جميعا بما فيهم ((غريب الخال)) خال المقتدر من يونان الاناضول وقد لاحظ الجاحظ ان هذا الجنس من الرقيق كان مرغوبا فيه لانه كان من احسن الخدم العاملين في البيوت وان مالكي الابل كانوا يعتنونهم لانهم يحسنون الاشتغال بها (3) .

---

1) ياقوت . معجم البلدان . ج 1 ص 662 - 670 و ج 3 ص 416 انظر بصورة عامة المؤرخين العرب تحت سنة 163 هـ و ماريوس كانار - M. Canard - المسلمون وبيزنطة فصل 12 ص 62

2) فاريلياف - Vasiliev - العرب والروم ج 2 ص 9 - 10 و 40 - 45 و 38 ماريوس كنار - M Canard . المسلمون وبيزنطة - فصل 19 ص 44 - 45 وفصل 15 ص 111 - 119 احمد أمين - ظهر الاسلام - ج 1 ص 130

3) الجاحظ - كتاب الحيوان - ج 3 ص 434

3) **الرقيـق الروســي :**

وقد اتاحت الظروف الحربيـة ان يقع بين ايـدي المسلمـين بعض الرقيـق الروسي الاصل . وذلك لان الـروس الفـاريجيين لـم يتصلـوا ببيزنطـة تجـارا فحسب. بـل لعلهم لم يستطيعوا النفـاذ الـى الاسـواق البيزنطيـة الا بعـد سلسلـة من الهجومـات هـددوا بها احيانـا القسطنطينيـة ومن امثلـة هـذا الصـدام مـا وقـع بـين الفريقـين سنوات(346 هـ/ 860م) و (294 هـ/ 907 م) و (-330 هـ/ 941هـ) و (333 هـ/ 944م) و (-360 - هـ/ 971 م)(1) وكان من نتائجـه طبعـا وقـوع بعض الـروس فـي الاسر واستعمالهـم فـي الجنـد البيزنطـي خـلال محاربتـه للمسلمـين ، وقد اشـارت المصـادر العربيـة الى وجـود جنود روسيين في جيش الـروم عندمـا اشتبك مع جيش الحمدانيين سنـة (343هـ/ 954م) اي عندمـا اراد سيف الدولـة الحمدانـي(336-356هـ/ 944-967م) اعادة بناء ظعنـة الحدث ، وقد سجل الشاعـر ابو الطيب المتنبي فـي شعره هـذه

---

1) لويس هالفن ـ البرابرة من الغزوات العظامى الى الفتوحات التركية في القرن الحادي عشر ص 320 - 348

(1) Louis. Halphen - Les Barbares des Grandes Invasions aux conquêtes Turques du XI^e siècle - p: 318-320

- Louis - Bréhier - Civilisation Byzantine - p: 203

- لويس بيرييـه ـ الحضارة البزنطية ص 203

الواقعـــة ولاحظ وجود الروس في جيش البيزنطيين الـى جانب اصنـــاف اخرى من المرتزقـة كان مشتملا عليها ، يقول متحدثا عن قلعة الحدث :

" وكيف ترجي الروم والروس هدمها وذا الطعن اساس لها ودعائم " (1)

واذا ما شكك فازيلياف ـ vasiLiev ـ في الحضور الروسي في هـــذه الوقعـة بالذات (2) فان ذلك لا ينفي هذا الحضور في وقائع اخرى ما دمنا واثقين من استعمال الروم لهذا الجنس من الجند في صفوفهم خلال حروبهم (3) كما لا ينفي ان يكون بعض هـــؤلاء المرتزقـــة الروس قد وقعوا في اسر المسلمين و بيعوا فـــي اسواقهم رقيقـــا .

ولم تكن هذه الصورة هي الوحيدة التي يتضح من خلالها دخول هذا الجنس الى السوق الاسلاميـة في شكل رقيـق ، فقد حدث ان دخل المسلمون في صراع مباشر مع هذا الجنس وذلك عند وقـــوع

---

1) المتنبي ـ الديوان ـ = ص - 376 - ـ راجع الاسكندر صابيل ـ اخبار امم المجوس ص 47 و ص 30

2) ـ كنار ـ M. Canard ـ بحث تاريخيـة ص 110 الحالة رقم 1

3) فازيلياف ـ vasiLiev ـ الهجوم الروسي على القسطنطينية في عام 860م ص 229

(3) A. vasiLiev - The Russian Attack of Constantinople in 860 - Cambridge - 1946 p229
- Louis Bréhier - Civilisation Byzantine p 85
- Institutions p 382

لويس بيريه ـ الحضارة البيزنطية ص 85 ـ المؤسسات ص 382

غارات روسية ذات اهمية عظمى على الاقاليم الواقعة جنوب بحر قزوين (1) وقد امتدت تلك الغارات الى اقليم طبرستان في زمن حسن بن زيد العلوي (250هـ/270هـ ـ 864م/884م) لهذا الاقليم وخاصة سنة (297هـ/909ـ910م) لكن الروس منوا بعد توغلهم بهزيمة في جيلان .ولم تكن هذه محاولة الغزو الوحيدة فحوالي سنة (300 هـ او 301هـ/912ـ913م) يصف لنا المسعودي غاراتهم بالتفصيل (2) وفي عام (332هـ/943ـ944م) امكنهم الاستيلاء على برذعة ولم يستطع "نائب المرزبان" ان يصد هم عنها (3) وهكذا لم يعرف المسلمون الروس تجارا فحسب كما وصفهم لنا ابن خرداذبه (4) وانما عرفوهم غزاة ايضا وكان لهم صدام معهم في عدة فترات من الزمن .وما من شك في ان بعض الرؤوس من الجنس الروسي مهما قل عددها قد دخلت العالم الاسلامي عبر حدوده الشرقية نتيجة تلك المصادمات .وقد وصف المسلمون ابناء هذا الجنس بانهم شقر الابدان صفر الشعور طوال القامات غريبو اللغة وبانهم شر خلق الله تعالى (5).

---

1) مينورسكي V.Minorsky ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية مقال روس ص 223

2) المسعودي ـ مروج الذهب ج 2 ص 18 ـ 25

3) الهمداني ـ تكملة تاريخ الطبري ـ ابو الفداء ـ مختصر تاريخ البشر ـ ابن الاثير ـ الكامل ـ وعقد الجمان ـ للعيني ـ عن (اخبار امم المجوس ـ لاسكندر صايبل ـ A. Seipel ـ ص 84ـ 112)

4) ابن خرداذبه ـ المسالك والممالك ص 154 ـ الدوري ـ تاريخ العراق الاقتصادي ص 150 ـ 154

5) محمد بن اياس ـ نشق الازهار في عجائب الاقطار ـ عن (الاسكندر صايبل ـ A. Seipel ـ اخبار امم المجوس ص 113)

ب) الرقيق البلغاري :

وكان من بين الرقيق المتداول في الاسواق من كان من اصل بلغاري . وكانت اسباب وقوعه بين ايدي المسلمين مختلفة ، منها الاسرائناء الصدام الاسلامي البيزنطي ، لان الروم كانوا يستعملون الجنود البلغار في جيوشهم ، وقد اشار الشاعر ابو الطيب المتنبي الى وجود هؤلاء المرتزقة من البلغار في الجيش البيزنطي المحاصر لقلعة الحدث سنة (344هـ/ 6-955م) فقال :

" يجمع الروم والصقالب والبلغار فيها وتجمع الآجالا " (1)

كما اشار الشاعر نفسه الى احناس اخرى في هذا الجيش كالخزر والصقالبة والارمن وغيرهم . فكان شعره في هذا الباب وثيقة تاريخية هامة (2) وقد تحدث " شلمبرجر " Schlumberger عن تلك الاجناس من المرتزقة في كتابه الذي الفه حول الامبراطور نقفور فوقاس - Nicephorus-Phocas (3).

---

1) المتنبي - الديوان ص - 404 - الاسكندر صايبل - A. Seipel - اخبار امم المجوس ص 67-H

2) ماريوس كانار . M. Canard - المسلمون وبيزنطة - مجل 6 - ص 99 - 113

3) شلمبرجر - نقفور فوقاس امبراطور بيزنطي في القرن العاشر ميلادي - باريس - 1890 ص 46 وما بعدها

(3) Schlumberger - un empereur Byzantin au X^e siècle - Nicéphore Phocas Paris - 1890 - p 46-59

ومن هـذا الرقيـق ما كان يصل الـى المسلمـين عن طريـق الـروس الذيـن كانوا يتجارون مع العالم الاسلامـي عبر بحر الخـزر ، ويصلون احيانـا الـى بغـداد نفسهـا ، وذلك لان الروس كانـوا يغزون البلغـار ويأسرونهـم . فقد اجتاحوا سنـة (354 هـ / 965 م) منطقـة نهـر اتـل باكملهـا وخربوهـا وقـد تلقـى ابن حوقـل (1) عندمـا كان بجرجـان سنـة (358 هـ/ 968-969م) اخبـار هـذه الغـزوة الـتي شنهـا جـنود الارشيـدوق سواتوسلاو swjatoslaw علـى كل من البلغـار والبـرطاس والخـزر. وذكر انهـم الجـأوا هـذه الشعـوب الـى الفـرار بعـد نهبهـم واسرهـم ،ثـم عقـدوا معهـم اتفـاقـا علـى ان يعودوا الـى اوطانهـم وعلى وان يحبشوا تحـت سلطان الـروس (2) ولا تعتبر هـذه الغـزوة سـوى مثـال على عـادة التناحـر بـين هـذه الاجنـاس .تلك العادة

---

1) ابن حوقل ـ المسالك والممالك ـ طبعة دي غوية ـ ليد Leyde 1873 . ص 14 ـ 291 ـ 296 صورة الارض ـ ترجمة كرامر ـ Kramer ـ ج 2 ص 382 ـ 383 ـ و 388

2) بارتولد ـ Barthold ـ دائرة المعارف الاسلامية مقال بلغار ص 97

التي كانت تسفر غالبا عن اسر الغالب للمغلوب وبيعه بالاسواق الاجنبية .وكذلك كان شان الروس عند ظفرهم بعدد من اسرى البلغار (1).

واذا ما كان الحصول على رقيق من بلغار الدانوب والبلقان يتم بطرق غير مباشرة فان المسلمين ،وخاصة منهم اهل خوارزم ، قد كانوا يتوغلون ببلغار الفولجا بصورة مباشرة وباكثر سهولة لاسباب جغرافية وديمية (2) وقد روى لنا ابن حوقل ان اهل خوارزم كانوا يدخلون غالبا بلاد البلغار والصقالبة ويغزونهم ويرجعون باسراهم (3) تلك هي في الجملة طرق الحصول على رقيق من هذا الجنس.ونحن نعتقد انها رغم تنوعها لم تكن توفر اعداد كثيرة من الرقيق لان مصادر التزويد محدودة في الزمان والمكان .

---

1) الاسكندر صابيل - A. Seipel - اخبار امم المجوس ص 77-79

2) بارتولد - B rthold - دائرة المعارف الاسلامية -مقال بلغار - ص 97

3) ابن حوقل -صورة الارض - ترجمة فيات - Wiet - ج 2 ص 322 - 323

الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 76-77

5) الرقيـــــق الارمنـــــي :

وقـد كان بالسوق الاسلامية رقيق ارمني بالمشرق خاصـة (1) وقـد اقتنـى منهـم البلاط العباسـي رؤوسا جعلهـم في خـدمته ، واشتهـر امـرهـم في قيـادة الجيش مثـل علـي الارمني قائـد الشعـور فـي عهـد المتوكـل العباسـي (232 - 247هـ/ 847 - 861م) (2) كمـا اشتهـرت امهـات اولاد من الارمنيات مثـل ام الخليفـة المستضيء العباسي (566 - 575هـ/ 1170 - 1180م) وكان هذا الرقيـق يجلب الى بلاد الاسلام عن طـريـق الاسـر خاصـة وكـان للمسلمين عهـد بـه قبـل هـذا العصـر اي منذ ان قـام حبيب بن مسلمـة بفتـح بعض بلاد ارمينيـة في عهـد عثمـان بـن عفـان (23 - 34هـ/ 644 - 655م) وقـد تواصلت هجمات الجنـد الاسلامـي على ذلـك الاقليم في العهود الموالية . وظلت ارمينية محل نزاع مستمر بين المسلمين والـروم (4) .

1) ابو محمـد البلوي ـ سيرة احمد بن طولون ـ ص 225
ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 377 السقطي ـ آداب الحسبة ص49ـ51
احمـد اميـن ـ ظهر الاسلام ج 1 ص 130 زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص30
فيليب حتي ـ تاريخ العرب ـ ص 108 - PHILIP - K - HITTI - Histoire des Arabes. p 108
(2) CL. Huart - Histoire des Arabes - Te - pp : 118 - 122
2) كليمان هوار ـ تاريخ العرب ج 2 ص 118ـ 122
المسعودي ـ التنبيه والاشراف ـ ترجمة كارادي فو ـ ص 255 ـ 262
B. Carra-de-vaux - Le livre de l'Avertissement et de la révision - 1897. pp 225-262
3) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 153ـ 154
4) ابن الفقيـه ـ مختصر كتاب البلدان ـ ص 292ـ 293

-لكن تجارة الرقيق الارمني لم تشهد من الرواج في القرن الثالث للهجرة وبداية القرن الرابع ما شهدت تجارة الاجناس الاخرى .وذلك لقلة عدد هذا الرقيق في هذه الفترة .اذ كان للأرمن عهد قديم منذ فتح بلادهم فكانوا ذمة يدفعون الجزية ولم يكن للمسلمين مبدئيا الحق في الهجوم عليهم واسترقاقهم.وقد ذكر ابن حوقل ان رقيقهم لا يباع ببغداد الى سنة (325 هـ/ -937- م) لكن السلاطين المجاورين لارمينية لم يكونوا يراعون العهد الذي عقد لها.فكانوا يهجمون عليها من حين لاخر.ولعل اول من انتهك ذمتهم هو ابو القاسم يوسف بن ابي الساج ، وكانت نتيجة هذا الانتهاك اسر الارمن وبيع رقيقهم في فترات معينة من الزمن.وهذا يدل على ان تحريم بيعهم ببغداد لا يعني منعه في اسواق اسلامية اخرى.

يقول ابن حوقل واصفا هذا الوضع الخاص بالارمن : " . . . كانت ارمينية في قديم الايام لسنباط بن اشوط ملك الارمن ، واجداده ولم تزل في ايدي الكبراء منهم فازالها ابو القاسم يوسف بن ابي الساج عنهم واخرجها من ايديهم.وباديهم عهود للصدر الاول باقرارهم على حالهم واخذ الجزية منهم على ما جرت به مقاطعتهم ، وكانت بنو اميـــة

وبنو العباس قد اقروهم على سكانهم ويقبضون الرسوم عليها من جباياتهم فتحيّفهم وقصدهم ، فلم يفلح من بعدهم ولا ارتفعت له راية .والغالب على ارمينية النصرانية وللسلطان عليهم كالخراج في كل سنة .وكانهم اليوم في عهد على حسب ما كانوا بغير حقيقة ،تطرقهم السلاطين المجاورون لهم فيسبونهم ويؤذونهم وهم في ذمة .وكان وقيقهم لا يباع في بغداد ادركته كذلك الى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ولا يجيزه احد لانهم في بعض ذمة معروفة ومعهم غير عهد " (2) .

فالملاحظ ان ابن حوقل يدافع عن ذمة الارمن لكننا نعلم ان هذه الذمة قد انتهكت ابتداء من سنة (315هـ/927م) على

---

2) ابن حوقل ـ المسالك والممالك ـ المكتبة الجغرافية العربية ـ طبعة «دي غوية» ـ ليد Leyde ـ 1873 ص 245 ـ 248
صورة الارض ـ طبعة «فيات» الفرنسية ج 2 ص 336 ـ 337 و ص 341

ايـــدي الحمدانيين (1) اذ تدخلت قواتهـــم فـي ارمينيـــــة وتنازعت مناطقهـــا مع البيزنطيين واسفر هـذا التنـــــازع عن اسرى من الارمن كان مصـــير الكثـــير منهم البيـع فـــي اسواق الدخاســـــة.

وقـد كان الارمن مرتزقـــة فـي جيوش البيزنطييـــن ايضـــا. تلك الجـيوش التي خدمت اجناســـا عديـدة خـــــلال مواجهتهـــا للجنـــد الاسلامـــي. وليس ادل على ذلك من هذا الوصف الذي نجده في شعر المتنبي لجند الـــــروم حين يقول :

"تجمع فيه كل لسن وامـة فما يفهم الحداث الا التراجم" (2)

وكان من بين هذه الامم التي ضمتهـا القوات الرومية الارمن فمن بينهم من كان يؤخذ اسيرا بيد المسلمين ويكون مصيره الرق والبيع بالاســـواق (3).

---

1) كنار - M. Canard - نخب تاريخية ص 56

2) المتنبي — الديوان — ص 376

3) كنار - H Canard - نخب تاريخيـــة ص 107

6) الرقيق الديلمي :

ومن اجناس الرقيق المعروضة في الاسواق الرقيق الديلمي. فقد كان الديلم وثنيين ومن ثم تعرضوا لغارات الخاسين الى ان بايعوا عليهم الحسن بن زيد العلوي سنة (250 هـ/ 864م) (1) يقول الاصطخري " وقد كان الديلم دار كفر يسبى من رقيقهم الى ايام الحسن بن زيد فتوسطهم العلوية واسلم بعضهم " (2) ومن هؤلاء العلويين الذين نشروا فيهم الاسلام الحسن بن علي الاطروش وذلك سنة (301 هـ/ 913 م) (3) لكن كثيرا من الديلم قد بقوا على الوثنية الى هذا العصر. فالاصطخري يقول " وفيهم الى يومنا هذا كفار بالجبال المتصلة بها " (4) وهكذا كان بالامكان استرقاق اولئك الكفرة عند الحاجة خصوصا انهم كانوا يستجيزون استرقاق بعضهم ولا يرون فيه ضيرا حتى روي ان " الديلمي يخرج من الديلم ومعه امراته واخواته وعماته فيبيعهن صفقة واحدة ويحملهن الى المبتاع لا تدمع عينه ولا عين واحدة من عياله " (5).

---

1) ابن الاثير ـ الكامل ـ ج 7ص35 المسعودي- مروج الذهب ج 7ص342 -كليمان هوار - Cl. Huart دائرة المعارف الاسلامية مقال ـ ديلم ـ الطبعة العربية - ص 367
2) الاصطخري ـ المسالك والممالك ـ ص 205
3) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج 8 ص279 و ج 9 ص5 ـ كليمان هوار - Cl. Huart - دائرة المعارف الاسلامية ـ مقال ـ ديلم ـ ص
4) الاصطخري ـ المسالك والممالك ـ ص 105
5) ابن القيم الجوزية ـ اخبار النساء ـ ص 63 ـ 69

ومن الامثلة الدالة على توفر هذا الرقيق عند المسلمين خلال هذه الفترة من الزمن، ما يذكر من انه كان لمرداويه الديلمي احد قواد الجبل الذين حكموا ايران الغربية بعد موت يوسف بن ابي الساج خمسون الفا من المماليك الديلم. وقد كانوا غاضبين عليه بسبب تفضيله لمماليكه الاتراك عليهم (1) كما يذكر المسعودي ان هذا الرقيق كان يمد الجند العباسي بالمرتزقة ويساهم في بعض الانتفاضات والثورات على الخلفاء العباسيين. ومن ذلك ما دبروه بزعامة احمد بن بويه من خلع للخليفة المستكفي سنة (334هـ/ 946م) (2) وقد وصف الصابي موكب استقبال عظيم الروم " ورد بن منير " المعروف باسم " برذس السقلاروس" الى دار المملكة في عهد صمصام الدولة البويهي سنة (376هـ / 986 م) فاشار الى وجود عشرة الاف من المرتزقة الديلم في ذلك الموكب (3) وقد ذكر المقدسي ان ارض الديلم كانت معبرا لتجارة الرقيق (4) المجلوب من البلاد المتاخمة لها لكنها فضلا عن هاته المهمة قد كانت تصدر الرقيق الديلمي الذي وصفه اهل العصر باوصاف معينة (4) واشار الاصطخري الى ان الغالب على خلقته " النحافة وخفة الشعر والعجلة وقلة المبالاة "(5) وغير ذلك من الخصائص التي سنتعرض اليها في الفصول القادمة.

---

1) آدم متز - A - MEZ - الحاضرة الاسلامية ج 1 ص 52
2) المسعودي - مروج الذهب - ج 8 ص401 كليمان هوار - Huart - CL - دائرة المعارف الاسلامية مقال " ديلم " - ص367
3) المقدسي - احسن التقاسيم - ص 380
4) ابن بطلان - رسالة في شري الرقيق - ص 376
5) الاصطخري - المسالك والممالك - ص 205

7) **الرقيق الخزري :**

ومن اجناس الرقيق الابيض الرقيق الخزري . وكثيرة هي الاخبار التي تدل على توفره بالاسواق الاسلامية في هذه الفترة من الزمن ، فقد كان من بين الهدايا التي ارسلها اسماعيل بن احمد السامانى صاحب ما وراء النهر الى الخليفة المعتضد العباسي سنة (280 هـ/ 894 - م) عدد كبير من الغلمان الخزر (1) ويروى ان الشاعر ابا تمام حبيب بن اوس كان يعشق غلاما خزريا للحسن بن وهب (2) ويصف اليعقوبي وابن حوقل الخزر نقلا عن ابن فضلان(3) بانهم " لا يشبهون الاتراك وهم سود الشعور وهم صنفان : صنف يسمون قرا خزر وهم سمر يضربون لشدة السمرة الى السواد كانهم صنف من الهند وصنف بيض ظاهرو الجمال والحسن . والذي يقع من رقيق الخزر أهل الاوثان الذي يستجيزون بيع اولادهم واسترقاق بعضهم لبعض فاما اليهود والنصارى فانهم يدينون بتحريم استرقاق بعضهم بعضا مثل المسلمين " (4)

---

1) ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ـ ص 42

2) الاصفهاني ـ كتاب الاغاني ـ ج 22 ص 548 ـ ط . بيروت 1964 ـ

3) بارتولد ـ Barthold ـ دائرة المعارف الاسلامية مقال " خزر " . ص309

4) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج 2 ص 368 طبعة بيروت 1375 هـ/ 1956 م . انظر ابن حوقل ـ صورة الارض . ترجمة فيات ـ Wiet ـ ج 2 ص 385 ـ الاصطخري ـ المسالك والممالك ص 223 ـ ابن فضلان ـ الرسالة ص 172

فقد كان التجار المسلمون اذن يجلبون بعض الرقيق الخزري الجنس ضمن الاجناس الاخرى من الرقيق الذي كانوا يجلبونه عن طريق بلاد الخزر من صقالبة وغيرهم ، فقد كانت تلك البلاد معبرا هاما لتلك البضاعة كما يقول الجاحظ (1) وكان المسلمون يحصلون على الرقيق الخزري بطرق شتى منها الغزو . فقد روى المقدسي ان الخليفة المامون العباسي غزاهم من الجرجانية ودعاهم الى الاسلام (2) كما كان اعداء الخزر من الروس يهجمون عليهم ويأسرونهم .وقد سأل ابن حوقل سنة (358هـ/968م) عن مدينة " سمندر " الخزرية الواقعة بين اتل وباب الابواب فاخبر بان الروس قد خربوها (3)

---

1) الجاحظ ـ كتاب التبصر بالتجارة ص 35

2) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ (عن الاسكندر هايبل ـ اخبار امم المجوس ص 76) يرى ماركار ـ Marquarth ـ ان المقدسي لا يعني بالمامون الخليفة العباسي وانما ابا العباس مامون بن محمد والي جرجانية الذي اصبح فيما بعد عام (385 - هـ/ 995م) واليا على جميع خوارزم (راجع دائرة المعارف الاسلامية ـ مقال : خزر- بقلم بارتولد) راجع ايضا ـ المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ ط ـ دي غوية ـ D.Goeje ـ ص 261

3) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ ترجمة فيات ـ Wiet ـ G ـ ج 2 ص 333

وقد استطاع الروس ان يهددوا عاصمة بلا الخزر وان يزيلوا سلطان الخزر منها مدة من الزمن (1) وقد تواصلت هجوماتهم على هذا الجنس خلال هذا العصر وسقط بين ايديهم العديد من الاسرى (2).

وهكذا كان العداء بين تلك الاجناس من خزر وروس وغيرهم يخدم مصالح تجارة الرقيق الاسلامية لا سيما ان اغلب تلك الشعوب كانت لها علاقات تجارية مع بلاد الاسلام . فكانت تبيع ما يقع في ايديها من اسرى اعدائها وخصومها للمسلمين او البيزنطيين على حد السواء . فكما كان الخزر يسترقون الروس والصقالبة ويستخدمونهم ويبيعونهم للمسلمين ، كذلك كان الروس يفعلون بالخزر والبلغار والصقالبة وغيرهم .

---

1) ابن سعيد المغربي ـ بسط الارض في طولها والعرض ـ عن الاسكندر صايبل A Seipel اخبار امم المجوس ـ ص 101

2) الوطواط ـ مناهج الفكر ومباهج العبر ـ عن الاسكندر صايبل - A. Seipel اخبار امم المجوس ـ ص 103

8) الرقيق الافرنجي :

لقد رأينا في حديثنا عن الرقيق الصقلبي ان مصطلح " الصقالبة " قد اتخذ مدلولا واسعا عند بعض المؤلفين المسلمين مثل ابن حوقل. فكان يشمل اجناسا اخرى يتكون بعضها من مجموع الاسرى الذين اسرهم الاندلسيون في البلاد المجاورة لهم وخاصة فرنسا ويسمونهم الافرنج وهم سكان غسقونية Gascogne ولنكدوك - Languedoc - والثغور الاسبانية (1) وقد ذكر ابن حوقل انه في الزمن الذي اجتاز فيه شبه الجزيرة الايبيرية كان الصقالبة هناك لا يفدون من شواطيء البحر الاسود فحسب بل كانوا يفدون ايضا من كالابريا ولومبارديا ومن بلاد الفرنجة وجليقية (2) ويذكر نفس المؤلف انه لا يوجد شعب

---

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 179

2) ابن حوقل - صورة الارض - ترجمة فيات - Wiet - ج 1 ص 109
بروفنسال - Provençal - دائرة المعارف الاسلامية مقال - صقالبة - ص 250

من بين شعوب الكفار المتاخمين للاندلس اكثر عددا من الفرنجة. الا ان من يوجدون منهم بجوار المسلمين وعلى حدودهم القريبة، اقل عددا واضعف باسا واقل سلاحا. وعندما يقع اخذهم والفوز بهم يظهرون الطاعة والنصيحة للمسلمين. وهم يتصفون بخصال كثيرة ويتخذ الاندلسيون منهم ازواجا ويفضلونهم على اسرى جليقية لما يعرف به هؤلاء من قوة وخبث وعصيان (1)

هكذا عرف المسلمون الرقيق الافرنجي ضمن اجناس اخرى كانوا ياسرونها عن طريق الثغور الاندلسية مثل اسرى الاسبان وبلاد جليقية. والواقع انهم عرفوا الرقيق الافرنجي قبل هذا العصر اي منذ عهد الفتوحات عندما تمكنوا من الاستقرار بجنوب فرنسا قرونا عديدة (2) وتواصل احرازهم لهذا الرقيق عن طريق القرصنة تارة وطورا عن طريق الهجوم على الممالك الافرنجية التي

---

1) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ ترجمة فيات ـ wiet ـ ج 1 ص 110

2) جوستاف لوبون ـ Gustave.Lebon ـ حضارة العرب ـ ص 439

استطاعت الثبات والاستقرار على حدودهم في هذه الفترة من الزمن (1) فلم تكن بلاد الافرنج مجرد معبر لتجارة الرقيق المطلبي الوارد من اواسط اوروبا. وانما كان لها دورها ايضا في تزويد السوق الاسلامية بهذه المادة التجارية(2) وكان الحكم الاول الاندلسي يستعمل المرتزقة الافرنج في جنده، ويشتريهم من وراء الحدود الاندلسية ويضيف اليهم بعض من اسر في اقليم سبتمانيـــة Septimanie بجنوب فرنسا (3) وقد كانت الافرنجيات المجلوبات من فرنسا وغسقونية وسائر الثغور الاندلسية يحظين برواج كبير في الاندلس بسبـــب شقرة شعورهن وبياض الوانهن. وكن من احسن الجواري في نظر اهل قرطبة واذا كـــانت الافرنجية لا تعرف شيئا من لغة مشتريها كانت ابهض ثمنـــا من سائر الجواري البيض (4) وكان الخلفاء الاندلسيون يختارون جواريهم مـــن هؤلاء الافرنجيات. كما كان الخواص يشترونهن باثمان مرتفعة. وهن في هذا اشبـــه شيء بالشركسيات في العصور الحديثة. وقد استطاعت الجواري الافرنجية بدخولهن في الحريم وصيرورتهن امهات اولاد ان يسمن المجتمع الاندلســـي بطابع خاص وان يحسن اوضاع المراة الى حد ما (5).

---

1) بروفنسال - Provençal - دائرة المعارف الاسلامية مقال "صقالبة" - ص 251

2) موريس لومبار - Maurice lombard - الاسلام في عظمته الاولى - ص 194-204- الحميري - الروض المعطار - ص = - 26 - ارشيبالد لويس - السيادة الاسلامية ص 82 - 83 زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ص 194 - 195

3) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 71 - 76

4) المرجع نفسه ج 3 ص 314

5) المرجع نفسه ج 3 ص 178 - 179

9) الرقيق البربري :

وقد استمر وجود الرقيق البربري في هذا العصر وان كان عدده قد تناقص بالنسبة الى ما كان عليه في عصر الفتوحات . فقد انتشر الاسلام ببلاد البربر ولم نعد نسمع شيئا عن تلك الارساليات الدورية التي كان الغزاة والولاة بشمال افريقيا يبعثونها الى الخلفاء بالمشرق ، ولم تعد افريقية مثلا مجرد ولاية مصدرة للجواري في نظار السلطة المركزية بدمشق او بغداد وذلك ابتداء من القرن الثالث للهجرة ، اذ ظهرت دول محلية بالمغرب بعضها شبه مستقل كالاغالبة وبعضها الاخر مستقل كالادارسة والرستميين ووضع ظهور هذه الامارات حدا لذهب الجلس البربري من قبل عرب المشرق (1)

لكن هذا التغير في الاوضاع لا يعني اضمحلال الرقيق البربري ، اذ ولد الكثير من البربر في الرق وبقيت بعض المجموعات البربرية في اقاصي بلاد المغرب على غير الاسلام . فكان الهجوم والغارة عليها موردا من موارد الاسترقاق . وقد اشار ابن حوقل الى بعض هذه المجموعات حين روى لنا ان بدوا من الاشرار المحيطين

---

1) ابن عذاري — البيان المغرب — ج - 1 - ص 55-67- محمد الطالبي - الامارة الاغلبية ص 33- 37

بقابس قد هجموا على هذه المدينة وحاصروها ونهبوها . وكان اولئك البدو من المشركين . فهجم عليهم زعيم صنهاجة واسرهم وباع العشرة منهم بثوب واحد (1) ويذكر ابن البكري اخبارا شبيهة بهذه عندما يحدثنا عن رقيق بلاد برغواطة قبل ان ينتشر بها الاسلام يقول في ذلك : " ولم تزل برغواطة في بلادها معلنة بدينها وبنو صالح بن طريف ملوكها الى ان قام فيهم الامير تميم اليفرني وذلك بعد عشرين واربعمائة من الهجرة فغلبهم على بلادهم وسباهم وجلا من بقي منهم واستوطن ديارهم وانقطع امرهم وعفى آثارهم ولم يبق لضلالتهم باقية ولا من اواصر كفرهم آصرة . وتميم هذا كان ذا جد وايثار للعدل وهو الذي قتل احد بنيه لاغتصابه جارية من التجار بوادي ساسة . وجميع بلاد برغواطة اليوم على ملة الاسلام " (2) ومن مظاهر هذا السعي ايضا ما يرويه نفس المؤلف عن مدينة فاس سنة اربع وعشرين وثلاث مائة " (3) وبنوه البكري برقيق

---

1) ابن حوقل ــ صورة الارض ــ ترجمة فيات wiet - G - ج 1 ص 67
2) البكري ــ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ــ جزء من كتاب المسالك والممالك ص 141
3) المصدر نفسه ص 155

مدينة البصرة بالمغرب ويشير الى جمال القيان البصريات مستشهدا بشعر لابن الخراز التاهرتي (1) كما يحدثنا عن وفرة هذا الرقيق الابيض بمدينة اودغست وشهرته بالوسامة والجمال (2).

لقد كان الرقيق البربري متوفرا بالمغرب اذن (3) وكان المؤنث منه خاصة يعتبر نفيسا لجماله فالبربريات من احسن انواع الجواري يقول ابن بطلان : " اذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس ان تجلب وهي بنت تسع حجج ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج وبمكة ثلاث حجج ثم جاءت الى العراق ابنة خمس عشرة فكانت بالعراق في الادب ثم ملكت بنت خمس وعشرين سنة فتلك التي جمعت الى جودة الجنس شكل المدنيات (4) وخدث المكيات وآداب العراقيات واستحقت ان تخبأ في الجفون وتوضع على العيون " (5).

ويعد ابن حوقل هذا الصنف من الجواري ضمن صادرات المغرب نحو المشرق ويشير الى ان هؤلاء الجواري الجميلات قد اصبحن حظايا الخلفاء العباسيين وغيرهم من كبار الوجهاء وصرن امهات للخلفاء والجبن

---

1) المصدر نفسه ص 110
2) المصدر نفسه ص 159 ـ 159
3) ابن بطلان-رسالة في شري الرقيق ص 274 السقطي ـ آداب الحسبة ص 49ـ50
ابن القيم الجوزية ـ اخبار النساء ـ ص 7
4) الشكل بالفتح والكسر : دل المرآة وغزلها
5) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ص 374

الامراء فكان منهن سلامة البربرية ام ابي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (136 - 158 هـ/ 754 - 775م) ومثل قراطيس ام ابي جعفر هارون الواثق بن المعتصم (227 - 232هـ/ 842 - 847م) ومثل قتول ام ابي منصور محمد القاهر بن المعتضد (320 - 322 هـ/ 932 - 934م) دون اعتبار لغير هؤلاء من امهات الاولاد البربريات (1) وما من شك ايضا في ان هذا الصرب من الرقيق قد كون مادة تلك الهدايا التي كان امراء المغرب وخاصة الاغالبة يهدونها الى الخلفاء بالمشرق مثل هدية زيادة الله بن الاغلب (290 - 296هـ/ 903 - 909م) الى المكتفي (289 - 295هـ/ 902 - 908م) سنة (291 هـ/ 904 - م) وفيها مائة خادم ومائة جارية او هديه المعز بن باديس الصنهاجي (398 - 454هـ/ 1008 - 1062م) الى الملك الظاهر (411 - 427هـ/ 1020 - 1035م) سنة (420 هـ/ 1029 - م) (2) .

وليس لدينا ما يدل على ان افواج البربر التي تضاعف دخولها الى الجيش الاندلسي منذ القرن الثالث للهجرة ومجموعات الافارقة التي اطلق عليها لقب ((الطنجيون)) ووقع استعدادها الى الاندلس في عهد الخليفة الناصر (300 - 350هـ/ 912 - 961م) ثم في عهد ابنه الحكم الثاني (350 - 366 هـ/ 961 - 976 م) قد كانت مكونة من البربر الاحرار فقط ولم يكن فيها ارقاء بل ان كلام ابن حيان في ((المقتبس)) ليشير الى ان الحكم كان يشتري اعدادا من الافارقة البيض والسود ويجعلهم في حشمه (3) ويمكننا ان نقول مثل ذلك بالنسبة الى افواج البربر التي وجدت في الجيش الفاطمي وكانت تؤلف بعض كتائبه المنافسة لكتائب الاتراك والديلم (4) .

---

1) ابن حوقل - صورة الارض - ترجمة فيات - Wiet - G - ص 1 ص 95 الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 138 - 141 جورج مارسي Georges Marçais - بلاد البربر الشرقية - La Berberie musulmane et l'orient ص 25

2) ابن الزبير - الذخائر والتحف - ص 47 و ص 69 - 70

3) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 80 - 81 ابن حيان - المقتبس ج 2 ص 121 - وص 141 و ص 147 ابن عذاري - البيان المغرب ج 2 ص 147 - 152

4) المقريزي - الخطط - طبعة بولاق 1270 هـ (في جزاين) ج 2 ص 12 - جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ص 201 - 203

10) رقيـــــــق الهنـــــد والسنـــــد

ومن اصناف الرقيق الرائجة في الاسواق الاسلامية في هذا العصر الرقيق الهندي والسندي. وقد وجد هذا النوع من الرقيق بلا شك منذ الفتح الاسلامي خلال القرنين الاول والثاني للهجرة فممّا يروى عن علي بن ابي طالب (34 - 39 هـ/ 655 - 660م) انه اول من تزوج هندية من سبايا الهند هي ((خولة)) التي انجبت ابنه الشهير محمد بن الحنفية (1) وكذلك كانت ((سلافة)) امّ زين العابدين سندية . قال ابن قتيبة في كتاب المعارف ((واما علي بن حسين الاصغر فليس للحسين عقب الا منها. ويقال ان اسه سندية يقال لها سلافة ويقال غزالة خلف عليها بعد الحسين زين العابدين مولى الحسين فولدت له عبد الله بن زيد فهو اخو علي بن الحسين لامه)) ونفس هذا الكلام نقله ابن خلكان ايضا (2) وكانت كذلك ((حبلبة)) جارية يزيد بن عبد الملك (104 - 105 هـ/ 720 - 724م) سندية وقد زوجها من عمر ابن هبيرة الفزاري فانجبت له يزيد بن عمر بن هبيرة الذي اسند اليه يزيد بن عبد الملك امارة العراق (3) وما ان آل الامر الى العباسيين خلال القرن

1) محمد اسماعيل الندوي. تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ص 45 . 50

2) المرجع نفسه - القاضي اطهر المباركفوري - رجال الهند والسند - ص 138

3) محمد اسماعيل الندوي - تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية - ص 45 . 50

الثاني للهجرة حتى تدفقت الهنديات من السند ومن ((كجرات)) بجنوب الهند على بلاط الخلفاء ببغداد، وامتلأت بهن الاسواق ودخلن بيوت المسلمين سيدات و مربيات للاطفال و مغنيات ومطربات بقصور الملوك والامراء (1) وكان من اشهرهن ((خمار القندهارية)) (2) المغنية الجميلة التي روى لها الاصفهاني في كتابه الاغاني ما انشدت من ابيات (3).

وهكذا تواصل وجود الرقيق الهندي والسندي خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة. فهذا الجاحظ ينوه في رسالة ((فخر السودان على البيضان)) بمهارة الرقيق السندي في الطبخ والصرف والغناء فقال: ((قالوا: ومن مفاخر الزنج حسن الحلق وجودة الصوت وانك لتجد ذلك في القيان اذ اكن من بنات السند ... وخصلة اخرى انه لا يوجد في العبيد اطبخ من السندي هو اطبع على طيب الطبخ كله ... ومن مفاخرهم ان الصيارفة لا يولون اكيستهم وبيوت صروفهم الا السند و اولاد السند لانهم وجدوهم انفذ في امر الصرف واحفظ وآمن ولا يكاد احد ان يجد صاحب كيس صير في وفاتيحه ابن رومي ولا ابن خراساني وقد بلغ من ثقة التجار بهم ان صيارفة البصرة وبنادرة البربهارات (4) لما رأوا

---

1) المرجع نفسه

2) نسبة الى قندهار وهي مدينة في ولاية بوماي

3) القاضي اطهر المباركفوري - رجال السند والهند ص 95
وما بعدها - محمد اسماعيل الندوي - تاريخ العلاقات بين الهند والبلاد العربية ص 45 . 50 وص 47 . 55

4) البنادرة جمع بندار بضم الباء وهم التجار الذين يلزمون المعادن او الذين يخزنون البضائع للغلاء. والبربهار الادوية التي تجلب من الهند من الحشيش والعقاقير والقلوس وغيرها. يقول البحرية واهل البصرة لها البربهار (راجع السمعاني - الانساب ص 71)

ما كسب فرح ابوروح السندي لمولاه (1) من المال والارضين اشتـــــرى كلّ امرئ منهم غلاما سنديا طمعا فيما كسب ابوروح لمولاه)) (2) ويذكر ابن الزبير في ((الذخائر والتحف)) جارية سنديـــــة اهداها ملك الهند الى المأمون (198 - 218 هـ/ 813 - 833 م) وقـــد وصف جمالها وصفا اسطوريا يرمز الى ما كان يشيع في الاوســـــاط الاسلامية من جمال الجواري الهنديات (3) ومن الجواري اللائي ذكرهن ابن بطلان ((المنصورية)) وهنّ نسبة الى المنصورة الواقعـــــة بما وراء النهـــر وهـــي ((الطتـــان)) (4).

فقد وجد اذن في هذا العصر رقيق هندي وسندي بوســـائـــل مختلفة منها الوسيلة التجارية. فهذا المقدسي يشير الى جلب الرقيـــق من اقليم السند والهند والى المكوس الموظفة عليه. يقول في ذلك ((والخراج يؤخذ من الحمل اذا دخل طوران ستة دراهم وكذلك اذا خرج ومـــن الرقيق اثنا عشر اذا دخل فحسب وان كان من نحو الهند فعشـــــرون من الحمل وان كان من قبل السند فعلى مقادير القيم)) (5) ومن المعلـــوم ان تجارة المسلمين مع الهند كانت نشيطة في هذا العصر عن طريـــــق

---

1) هو محمد بن السكن كما جاء في كتاب الحيوان للجاحظ ج 3 ص 435

2) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ج 1 ص 224. 225

3) ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ص 25 الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ طبعة رومة 1970 ج 1 ص 96

4) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ الباب الرابع ـ ص 368 وما بعدها

5) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ ص 435

مـــواسـي، الخليج الفارسي و جـنوب الجـزيره العربيه . فقـد كـان لسيـــراف ولبلاد عمان وكذلك لعدن علاقات تجاريه وثيقة بالهند (1) وقـد اشتهر في هذه الفترة تاجران هما التاجر سليمان والتاجر ابو سعيـد حسن بمـا الفاه من كتب حول رحلتهما التجاريه الى الهند (2) وقد وجدت حاليات من تجار المسلمين بسيلان (3) وفي مقاطعة سيمور عرب مدينة بومباي - « Bombay » - الحاليه (4) وقـد كانت بضاعة الرقيـــق من اهم البضائع المتداوله في هذا الساحل التجاري . ففي عدن مثلا كان تبادل منتجات الهنـد والصيـن بمنتجـات بلاد السودان من عبيد النوبة والحبش والتبر امـــــرا جاريا (5) وقـد اتسع نطاق التجارة من الهند في هذا العصـر مشرقـا ومغربـــــا حتى وصلت الى شمال بحر آرال La Mer d'Aral والى مدينة جرجانية المسلمـــه الواقعـة جنوب هذا البحر (6) كمـا اتصلت منذ القرن الرابع للهجرة بالمغرب عـــن طريق عدن و مصر واشتهر تجار منهم المهدي والقيرواني والنفوسي والطنجي والفاســي والسجلماسي والمالقي برحلاتهم الى الهند وسيلان (7) وقد اشتهر من هؤلاء التاجر التونسي ابن ياحو الذي قضى معظم حياته بالهند (8) ونحن وان كنا لا نعرف على

وحـــــــــــه ...

---

1) جواد بريط - هسل هناك ..... ر 73.70 كليمان هوار - Cl. Huart
تاريخ العرب 2ر102-104 عايد - Heyd - تاريخ
تجاره الشرق 1ر30 السعودي - مروج الذهب 1ر308.305
2) رينو - Reinaud - روايات اسفار العرب والعرب الى الهند والصين
باريس 1845 (في جزاين) 1 ر 60.10 و ر 154.61
« Relations des voyages faits par Les Arabes et Les Persans dans L'Inde et La chine »
عايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق 1 ر 29
3) المرجع نفسه 1 ر 33
4) الاصطخري - المسالك ر 82 المسعودي - مروج الذهب 1ر382
و 2ر85. عايد - Heyd - تاريخ تجاره الشرق 1ر 33
5) جوستاف لوبون - Gustave Lebon - حضارة العرب ر436
6) الاصطخري - المسالك والممالك ر 127 . 129
7) روجي ادريس - R. Idris - عارد البربر 2 ر 572
8) المرجع نفســـــه

التحديد دور هذه الحركة التجارية في ترويج هذا النوع من الرقيق بالاسواق الاسلامية فانه لا مجال للشك في انها قد ساهمت في جلبه فضلا عما كانت تسفر عنه غزوات الدولة الغزنوية في الناحية الشمالية الغربية من الهند من اسرى وسبي (1).

تلك في الحملة ابرز احساس الرقيق التي كانت متداولة في هذا العصر وهي احساس تختلف قلة وكثرة وتكون في مجموعها مادة اسواق الرقيق في العالم الاسلامي. الا ان هذه الصورة التي رسمناها لتنوع تلك الاجناس لا تكون مكتملة الا اذا اشرنا الى ظاهرة اخرى قد زادت في تنوعها ونعني بها ظاهرة استرقاق الاحرار داخل حدود العالم الاسلامي نفسه

---

1) هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق ج 1 ص 34

11) استـــــــرقاق الاحـــــــرار

وقـد توفرت في السوق الاسلامية من حين لاخـر اجنـاس اخرى من الرقيـق مختلفـة عن الاصناف المحلوبة عـن طريق التجـارة او المأسورة اثنـاء الصـدام بالثغـور او بـدار الحرب،ونعنـــــي بها تلك التي لم يكن المشرع الاسلامي يجيز استرقاقها،كالاحرار من العرب والمسلمين واهـل الذمة.فلم تكن الظروف التي حادت فيهـا تجارة الرقيق عن السنن الذي سطره لها الفقـه الاسلامي نادرة في هذا العصـر. اذ كثيـرا ما عـرض في اسواق هذه التجارة رقيق من جنس عربـــــي رغـم ما اجمع عليـه الفقهاء من منع لاسترقاق العربي وبعـه استنـادا الى سيرة السلف من المسلمين منذ حياة الرسول (1) والى ما سنه عمـر بـن الخطاب (13-23 هـ/ 634-644م) في هذا الشأن بقولتـه المشهورة ((لـيس على عربي ملك)) او قوله عنـد موته ((من ادرك وفاتي من سبي العرب فهو حر من مال الله)) (2) ويعني بمال الله الزكاة الواجبة إذ فيـها سهم تعتق به الرقاب بنص القرآن (3) ولمـا كان الخروج عن المشروعيـة مرتبطا خاصة بفترات القلاقل وظهور الفتـن اتضح لنـا ان هـذه التجارة الممنوعـة قـد عرفت رواجا في اوقات متعاقبة لكثرة ما اندلع في هذا العصر من انتفـاضـات وثـــورات

---

1) عبد السلام هارون ـ مقدمة تحقيق رسالة ابن بطلان ـ ص 342هـ 349

2) محمد بلتاجي ـ منهج عمر بن الخطاب في التشريع ـ دار الفكر العربي 1970ـ496

3) قـــرآن سورة التوبة-آيـة - 9

فقد فسحت ثورة الزنج بالبصرة المجال لممارسة هذا النوع من التجارة اذ مكن زعماء الثورة العبيد من امتلاك الاحرار وبيعهم في الاسواق واتاحوا لهم فرصة سبي النساء الهاشميات ووطئهن واتخاذ هن لخدمة الاماء الزنجيات وقد ذكر المؤرخون ان الجارية كانت تباع بالدرهمين والثلاثة وينادي عليها النخاس بنسبها قائلا هذه فلانة بنت فلان . وكان فيهن الكثيرات من بنات الحسن والحسين والعباس وغيرهن من نساء قريش (1) يقول المسعودي في ذلك ((وبلغ من امر عسكره انه كان ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وسائر العرب وابناء الناس تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة وينادى عليها بنسبها هذه ابنة فلان الفلاني لكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون يطؤهن الزنج ويخدم من النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف ولقد استغاثت الى علي بن محمد امرأة من ولد الحسن بن علي بزابي طالب كانت عند بعض الزنج وسألته ان ينقلها منه الى غيره من الزنج ويعتقها مما هي فيه فقال لها هو مولاك وهو اولى بك من غيره ...))2).

---

1) ابن الاثير ـ الكامل ـ ج 7 ص 205ـ 214 وص 237ـ 246

2) المسعودي ـ مروج الذهب ج 8 ص 60ـ61

وكـــان القرامطة الذين علا شأنهم فى القرن الرابع يعتبرون جميـــع من خالفهم اهلا للحرمـــان من الحقوق الشرعية فاجازوا استرقاق من وقع فى ايديهم من اسرى المسلمين فامسى الكثير من الاحـــــرار من اهل العراق والشام وجزيرة العرب رقيقـــا لهـــم وقد اعترضـــــوا قافلـــة الحجيج سنة (312 هـ / 924 م) فاسروا من الرجـــــــال الفين ومن النساء زهاء خمسمائـــة وحملوهـــم الى هجر.وكـــان الازهري اللغوي الاديب المتوفى عام (370 هـ / 980 م) من ضمـــن الاســـرى ووقـــع في سهم قوم من العرب الذين نشأوا بالبادية يتتبعون مساقـــط الغيث ويتكلمـــون بفصاحتهم البدوية التي لا يخالطها لحن فبقـــي في اسرهم زمانا طويلا واستفاد من لغتهـــم الفاظا كثيـــرة ونوادر جمة ضمنهـــا فى مـــؤلفـــاتـــه (1).

وفـــى عهـــد بني الاغلب بافريقيـــة تصـــدى الامـــام سحنـــون الـــى بيـــوع الرقيـــق غيـــر الشرعيـــة ومنهـــا استرقـــاق الاحـــرار وبيعهـــــم ويسيـــر المالكـــي نقـــلا عن ابى جعفـــر الصـــواف احـــد تلاميـــذ سحنـــــون الى ان تـــام الحسبة لم يكن مستقـــلا ولم يعـــرف المحتســـون بافريقيـــــة الا بعـــد حـــوادث سبي الخرائـــر بتونـــس . وتفصيـــل ذلـــك ان عبـــدا الظاهر امر اعوانـــه بانقـــاذ عبـــدا السبي من ايـــدي اصحابه فتظلمـــــوا

---

1) ياقوت الحموي ـ ارشاد الاريب ـ ج 6 ص 299

آدم متـز- A.MEZ ـ الحضارة الاسلامية ج 1 ص 300

الى الامير محمد بن الاغلب (226-242هـ / 841-856م) ومنهم حاتم الجزري احد المشاركين في حملة الجند على الثورة التي حدثت بتونس وارسل الامير الى القاضي يامره برد السبي. فاجابه بقوله ((انهم احرار ولا سبي عليهم وهذا خلفتهم)) ونسبت بموقفه العادل رغم توتر العلاقة بينه وبين الامير. ولم يكتف بذلك بل الفى بحاتم الجزري في السجن . وهنا الامير يفكر في الخروج من هذا المأزق ويبحث عن سر تصلب القاضي. واختار في نهاية الامر التراجع في موقفه قائلا ((ما اظن هذا الرجل يريد بنا الا خيرا ونحن لا نعلم. ارسلوا اليه يرسل لنا المحتسبة لنكتب لهم السجلات حتى يذهبوا الى اقصى عملي ليأخذوا من يجدونه من الحرائر))(1)

وهكذا كتبت بهذه المناسبة سجلات لاناس وشحوا للحبسة. ويشير صاحب رياض النفوس الى ان سحنونا امر احد خدمه وهو اسود زكيم بالبحث عن هؤلاء الحرائر ليكشف براقعهن وسؤالهن عن اوضاعهن وقد تمكن من تحليل نساء كثيرات ومع جلبهن من تونس فحررهن كما حرر مجموعات اخرى من ((جزيرة ابن رويد)) الذين رفعوا من ايدي الجند او التجار . وبدلك تمكن القاضي حملته تعنيس عن هؤلاء الحرائر واطلق يده في تحليصهن ولم يعد

---

1) الطالبي - رياض النفوس ص 1 ص 281 - 282
الطالبي - الامارة الاغلبية ص 243 - 248

بامكـــان الامير معارضتـه او الاستماع الى شكوى المتظلمين بل اكتفى بقولـه ((ان سحنونـا لم يركـب لنـا دابـة ولا ثقـل كمـه بصـرة فهـو لا يخـافنـا)) (1) ويبين الدكتـور محمـد الطالبي عن حـق ان هـذه المناسبـة التي وقـــع فيهـا استرقاق الاحـرار بافريقيـة ليست وحيدة من نوعهـا وانمـا الواقـــع ان الامـراء الاغالبـة لم يكـونوا يصادعون دائمـا فاصيـا كسحنـــون ليعتـــرض علـــى تصـــرفـــاتهـــم (2) .

ومن المعروف ان النـــزاع السياسي بين المسلمين قـد جعـل انصـار كـــل مـذهـب يكفـــرون انصـار المذهـب المقابـل لان هـذا النزاع كـان دائمـــا ذا خلفيـة او واجهـة مذهبيـة وعقائـديـة وقـد ادى بهـم تكفيـرهـم لبعضهـم بعضـا في وقت مـا الى استبـاحـة الدمـاء والحريم فصـار كـل منتصـر يسمـح لنفسـه باسـر المغلـوب وسبيـه بـدعوى انه كافـر وقـد حـدث ذلـك مـــرارا عـديـدة وكثـــر بكثـرة النـزاعـات في هـذا العصـر ومـن امثلـة ذلـك علـــى سبيـــل الذكـر لا الحصـر مـا ذكـره البكـري عن مدينـة ((ورزيعـــــــة)) بالمغرب وهي الواقعة بين اغمات وفاس من تعرضهـا الى حمـلات الاسر والسبي خـــلال الصراعـات السياسية ومن ذلـك ان ميسـور الفتـى قـد ((سبى نساءها بعد روالـه عن مدينة فاس سنة اربع وعشرين وثلاثمائة)) (3) ومن هذه الامثلة ايضا ما وقع في ايـدي

1) المالكي ـ رياض النفوس ج 1 ص 281 ـ 282 الطالبي الامـــارة الاغلبيـــة ص 243 - 248
2) المرجع نفسه ـ موسى لقبـال = الحسبة المذهبية ـ ص 41 ـ 42
3) البكري ـ المغرب ـ ص 155

انصار الفاطميين بصقلية من احرار خلال هجوماتهم على السواطئ الاندلسية سنة (343 هـ/ 954 م) ودلك في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله (386-411هـ/996-1020م) والامثلة كثيرة (1).

وقد تعرض المسيحيون الاحرار الى عداء الاسرالبي ايضا فقد بيع خلال ثورة ابن حفصون بالاندلس العديد من الاحرار المسيحيين كعبيد. وكان منهم الكثير من الاسرى بالجهاد التي لم تهدأ ثوراتها الا في زمن متأخر جدا. ولم يكن امام هؤلاء الاحرار المسترقين سوى احد حلين اما ان يمنحهم اهل الذمة الذين لهم الحق في ملك الرقيق واما ان يعتنقوا الاسلام مما يخول لهم ان يتمتعوا في المستقبل بالعتق بفضل شريعة الاسلام (2) وهكذا يتضح مما سبق ان الاسواق الاسلامية قد احتوت في مناسبات عديدة اجناسا مختلفة ممن يمنع استرقاقهم شرعا كالاحرار من العرب والمسلمين والمسيحيين الاحرار

---

1) ارميا لدليو - A. Lewis - السيادة الاسلامية ص 49

2) بروفنسال Provençal تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 214 - 20

تلك بعض الامثلة على اجناس الرقيق التي كانت متوفرة في الاسواق الاسلامية. وهي تدل على تعدد هذه الاجناس وتنوعها وامتزاجها مما يصعب معه احيانا التمييز بينها. وما ذكرناه لا يعد وضرب مثال على هذا التعدد وليس من باب الاحصاء. اذ وجدت اجناس اخرى وان كانت قليلة العدد كالعنصر الصيني مثلا. فهذا الجاحظ يحدثنا عن الجواري والخصيان المجلوبين من الصين فيقول ((ويجلب من الصين الفرند والحرير والفضائر والكاغد والمداد والطواويس ... والجواري وطرائف الشبه والاقفال المحكمة ... وبناة الرخام والخصيان)) (1) وقد تحدث المسعودي ايضا عن جلب الخصيان من الصين (2) مما يدل على وجود هذا الجنس من الرقيق في الاسواق الاسلامية . ولا يبعد وذلك غريبا اذا علمنا ان التجار المسلمين كانوا على صلة متينة بالصين وانهم كونوا جالية تجارية بمدينة ((كانتن)) canton منذ القرن الثالث للهجرة. وقد ساهموا فيما حل من اضطرابات بها سنة (-140 هـ/ 758م) وشاركوا في نهبها (3) هذا فضلا عما يروى عن اهالي الصين انذاك من بيعهم لانفسهم واولادهم بسبب الاحتياج (4) وقد كانت هناك علاقات سلم وعداء بين السلمانيين وملوك الصين في القرن الرابع للهجرة قد اسفرت عن دخول رؤوس من الرقيق الصيني بشكل من الاشكال (5).

---

1) الجاحظ - التبصر بالتجارة - ص 33 - 34 راجع ايضا - المقدسي - احسن التقاسيم - ص 97 . 98 - جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 26 . 28

2) المسعودي - مروج الذهب - ج 1 . ص 308-309

3) كليمان هوار - Cl. Huart - تاريخ العرب - ج 2 ص 102

4) عبدالسلام هارون - مقدمة تحقيق رسالة في شري الرقيق لابن بطلان - نوادر المخطوطات - عدد 4 - القاهرة - 1954 - ص 333 . 342

5) ابن الزبير - الذخائر والتحف - ص 139 . 150

الباب الثالث

اسواق الرقيق
و
طرق المعاملات

الفصل الاول

نظام الاسواق ومادتها

1) اسـواق الرقيـــق

أ- تنوعها وانتشارها :

كانت اسواق الرقيق في بلاد الاسلام عديدة. ولعلها كانـــت متعددة بتعدد اهم العواصم والمدن الكبرى في البلدان الاسلاميـــة المنضوية تحت لواء الخلافـة او المنشقة عنها، فقد وجدت هذه الاسواق بمكة والمدينة والطائف ودمشق والقاهرة والاسكندرية وبغداد والبصـــرة والكوفـة والقيروان وقرطبة وسمرقند وبخارى وغيرها من المدن الكـبرى. وكانت هذه الاسواق على انواع فمنها ما هو محلي يستورد بضاعتـــه من اسواق اخرى في البلاد الاسلامية، ويقتصر على بيعها لمن يشـــتري، ويمكن ان نسمي هذا النوع بسوق استهلاك. وثمـة نوع آخر اكبر اهمية وهي الاسواق التي تتجمع فيها مادة الرقيق من الاسواق الاجنبيـــة وتتولى توزيعها على الاسواق الاقليميـة داخل بلاد الاسلام. ويمكـن ان نسمي هذا النوع باسواق الجلب والتوزيع التي لا تقتصر على الاستهـلاك المحلي، ويوجد اغلبها بالمقاطعات المتاخمـة لمصادر جلب الرقيـــق مثل اوروبا او بلاد السودان بافريقيـا. واحسن الامثلـة على هـــذا النوع سوق سمرقنـد وسوق عمـان وسوق عدن وغيرها. ففـي عمـــان

مثلا كانت تتجمع طوائف الرقيق المجلوب،فتوزع على الاسواق الاسلاميـــة. وكذلك كان الشان بالنسبـــةالىسوق القيروان التي توزع الرقيق على اسواق المشرق والمغرب والاندلس،وقرطبة التي تصدر الى المغرب والمشرق.

وكذلك كان الامر بالنسبـــةالىسوق سمرقند التي كانت اكبـــر سوق لتجارة الرقيق الصقلبي المجلوب من بلاد البلغار.وهو رقيـــــق سلافـي الاصل كان يقطن دول نهر الفولجا ويجلب عن طريق التجـارة الى سمرقنـــد حيث يتجمع ويربـــى انواعا خاصـــة من التربيـــة،ثم يـــوزع على سائر الممالك الاسلامية (1). ومن هذه الاسواق التي يتجمع فيها الرقيق سوق نهاوند .ومما يروى عن كثرة رقيقها ان بعض ولاتهـــا فـــي عصر المامون قد اقتنى في ظرف اربعة وعشرين شهرا من الخـــــدم والخصيان ما تقدر قيمتـــه بالف وخمسمائة دينار (2).

ولعل من اشهر الاسواق المجمعة للرقيق سوق الري الـــتي يقول عنها ابن الفقيـــه روايـــة عن محمد بن اسحق انها (واسطـــة خراسان وجرجان والعراق وطبرستان . . . واليها تقع تجارات ارمينيـــــة

---

1) آدم متز ــ الحضارة الاسلامية ج 1 ص 300 ــ عبد السلام ترمانيني ـ الرق ماضيه ص 89
2) البيهقـي ــ المحاسن والمساوي ص 163

واذربيجان وخراسان والخزر وبلاد برجان) (1) فهي من الاسواق الـــتي يتجمع فيها الرقيق المستورد من اوروبا الشرقيـة عن طريق بلاد الخزر وبحر قزوين . ويذكر ابن الفقيـه ان تجار الصقالبـة يخرجون من اقصى " صقلبة " فيركبون البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم ثم يمتطون البحر الى " سمكوش اليهود " ثم ياتون خليج الخزر ثم يصيرون الى البحـــر الخراساني فيبيعون بضاعتهم في جرجان فتقع جميع تلك البضاعـــــة الى الري (2).

كما يذكر صاحب مختصر كتاب البلدان خصائص هذه المدينـة التجارية مشيرا الى انها ملتقى طرق التجارة البرية والبحرية والـــى اكتظاظ اسواقها بالاجناس المختلفـة من التجار كما اشار الى ما ســـاد فيها من انحلال اخلاقـي وفجور نتيجة لذلك الاكتظاظ وهو فساد ناشيء عن كثرة الرقيق المتداول فيها ايضا . وقد نقل المؤلف بعض الاشعـــار الدالة على هذا التفسخ الاخلاقي منها قول ابن كربويه الرازي وهـــو احد اصحاب الحسين بن احمد العلوي بقزوين :

---

1) ابن الفقيـه - مختصر كتاب البلدان ص 270
2) المصدر نفســه ص 271

"كم حل عرصة نصر اباذ قاطبة من ابن زانية محض وكشخان
وكم بسكة ساسان اذا ذكروا من ابن فاجرة نص وقرنان (1) "

ومن الاشعار التي نظمها ايضا ما يدل على اختلاط الاجناس من اعاجم كالترك والديلم وغيرهم بهذه المدينة فاوردقول آدم بن عبد العزيز .

"مالي وللري واكنافها يا قوم بين الترك والديلم
ارض بها الاعجم ذو منطق والمرء ذو المنطق كالاعجم (2)"

وقد كانت عدن سوقا للرقيق الاسود ، وقد وصف المقدسي رواج هذه البضاعة بها في القرن الرابع للهجرة .وذكر انها مستودع الحبش والخدم واهم سوق للرقيق باليمن يقول (واليمن معدن العصائب والعقيق والادم والرقيق . . . وتزيد عدن بالعنبر والشروب والدرق والحبش والخدم) (3) كما ذكر ان تجارة اليمن كانت على اشدها مع بلاد الزنج عبر البحر وان عدن قد كانت متجرا كبيرا ومستقرا لثروات طائلة استهوت العديد من التجار .وقد حاول المقدسي نفسه ان يمارس التجارة مع بلاد الزنج عند ما حل بارض اليمن اذ استهوته تلك الثروات

---

1) المصدر نفسه ص 273
2) المصدر نفسه ص 273
3) المقدسي - احسن التقاسيم ص 97-98

ولكنه عدل عن ذلك اثر نصيحة احد رجال الدين له بالعدول اذا كان راغبا في التقوى وتاركا للغرور بمتاع الدنيا .

ولسنا نعرف على وجه اليقين نوع التجارة التي حاول المقدسي ممارستها. وليس من المستبعد ان يكون الرقيق مادتها لانها من اهم البضائع المستوردة من بلاد الزنج يقول (ولما ركبت بحر اليمن اتفق اجتماعي مع ابي علي الحافظ المروني في الجلبة فلما تاكدت المعرفة بيننا قال لي : قد شغلت والله قلبي قلت : بماذا ؟ قال : اراك رجلا على طريق حسنة تحب الخير واهله وترغب في جمع العلوم وقد قصدت بلادا قد غرت كثيرا من الناس وصدتهم عن طريق الورع والقناعة واخشى اذا انت دخلت عدن فسمعت ان رجلا ذهب بالف درهم فرجع بالف دينار وآخر بمائة فرجع بخمسمائة وآخر بكذر فرجع بمثله كافورا طلبت نفسك التكاثر ، قلت : ارجو ان يعصم الله . فلما دخلتها وسمعت اكثر مما قال غربي والله ما غر القوم وعملت على الذهاب الى ناحية الزنج وآتيت ما ينبغي ان يشترى وتقدمت فيه الى الوكلاء فبرد الله عز اسمه ذلك على قلبي بموت شريك كنت عاقدته وكسرت نفسي بذكر الموت وما بعده) (1) فهل في هذا التجافي والتلوم ما يشير

1) المصدر نفسه ص 97ـ98

الى توفـر رجل متدين عن ممارسة تجارة تتنافى معاملاتها والمبادئ الخلقية الدينية ؟ ثم لا عسى ان تكون هذه التجارة المستهجنـة في بلاد الزنج ان الراجح ان الاشارة خفية الى تجارة الرقيق الاسود .

ويبدو ان بعض المواني الاسلامية قد لعبت بصفة عامة دورا اكبر من دور غيرها من المدن في هذه التجارة (1) مثل المرية بالاندلس(2) والسفر ثم بعد ذلك الاسكندرية بمصر (3) وبربند (باب الابواب) على ساحل بحر الخزر فهي مراكز حدودية لاستقبال افواج الرقيق وقد لعبت دورا مماثلا للمراكز الداخلية الكبرى التي يتجمع فيها الرقيق مثل سمرقند وبخارى (4) .

ويوجد نوع ثالث من الاسواق يعتبر اندر من النوعين السابقين وهو السـوق التي تصدر البضاعة الى خارج البلاد الاسلامية او تقوم بدور الوسيط التجاري فقط يذكر عن سوق عدن مثلا انها كانت تصدر الرقيق المجلوب الى الهند والصين (5) وهذا النوع نادر كما قلنا لانه كـان من الممنوع ان يبيع المسلمون ما بايديهم من الرقيق للاجانب خصوصا اذا كانوا من اعداء الاسلام اي من دار الحرب وهذا المثال الذي ذكرناه لانجده يتكرر باسـواق اخرى مع بلاد الروم مثلا وبلاد السودان للعداء القائم اذا بينهم وبين دار الاسلام .

---

1) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية - مقال عبد ـ ح 1 ص 33
2) المقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 50 - 52 ـ بروفنسال Provençal ـ تاريخ اسبانيا المسلمة ـ ح 3 ص 309. 314 ـ عبد العزيز سالم ـ تاريخ البحرية ص 173. 191 ـ دي فالف - De vallve ـ مدينة المرية في العهد الاسلامي ـ فصلة من كراسات تونس منشورات الجامعة التونسية ح 10. سنة 1970 عدد 69. 70. ص 61. 72
3) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الاسكندرية ـ ص 202. 204
4) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ ص 270. ابن حوقل ـ صورة الارض ـ الترجمة الفرنسية ح 2 ص 474
5) سليمان ابراهيم العسكري ـ التجارة والملاحة في الخليج العربي ص 181

ب-اسواق قارة وموسميـــة :

تلك اصناف الاسواق من حيث الدور التجاري الذي تلعبه وهي لم تكن كلـها اسواقا قارة، بل كان هناك اسواق موسمية للرقيـق يقع الاعداد لـها وتنظيمها في اوقات معلومـة من السنة، ويبدو انهـــا كانت بمثابة المعارض الكبرى التي تتجمع فيها شتى الاجناس ويلتقـــي خلالـها العديد من التجار، ويتخللها نشاط كبير لا يوجد في الاسواق العادية. ومن المرجح ان الاسعار في هذه الاسواق كانت اقل غـلاء منها في الاسواق الاخرى، كما ان نوع الرقيق المعروض كان مختلـف المستويات. وقد اشار ابن بطلان الى الاسواق التي تعقد في المواسم وحذر المشترين منها لكثرة ما يحدث فيها من الغش (1).

ويفهم ايضا من كلام هذا المؤلف ان التجار كانوا يجمعون في هذه المناسبات مجموعات من الرقيق كسدت تجارتها ولم تنفق في الاسواق الاخرى. وكانوا يستعملون شتى الحيل لاخفاء عيوب بضاعتهـم تلك ومن هذه الحيل طبعا الاغراء برخص الاثمان. وكان هؤلاء التجار يستعدون لـهذا النوع من المعارض خلال السنة فيجدون الوقت الكافي لاحكام طرق التدليس حتى اذا حل الموسم كانوا على اهبة تامة لتقديم رقيق في احسن الصور حتى يمكنـهم بيعه بما يرغبون فيه من ارباح.

---

1) ابن بطلان ـــ الرسالة ـــ ص 355 - 356

وقد اشار القزويني ايضا الى هذه الاسواق (1) فذكر ان السوق الموسمية تقام في عهده كل سنة في اول الربيع. وكانت تدوم اربعين يوما، وكانت تسمى (بيلة). وهي سوق ياتيها الناس حسب قوله من الاصقاع البعيدة من الشرق والغرب والشمال والجنوب. وذكر ايضا ان من العادات المعمول بها في هذا السوق ان من اشترى رقيقا ليس له الحق في رده البتة ، ومن الواضح ان هذه العادة تؤكد لنا ما ذكرناه سابقا من كساد الرقيق المعروض فيها، ومن غش وتدليس كان التجار يستعملونه للتخلص مما بايديهم من بضاعة يعرفون عيوبها ولا يجدون الربح في تجارتها ، وقد روى القزويني قصة مفادها ان احد المشترين اشترى من هذه السوق مملوكا بثمن مرتفع لجمال صورته فلما انصرف بائعه وجده جارية، ومهما يكن من امر فان هذه الاسواق قد كانت بمثابة المعارض الكبرى وهي اذا ما دلت على شيء فانما تدل على رواج تجارة الرقيق داخل بلاد الاسلام وعلى تزايد الطلب لهذه البضاعة ونشاط النخاسة في ممارستهم لهذه التجارة ادراكا منهم لما فيها من ارباح .

---

1) القزويني ـ آثار البلاد واخبار العباد - ص 531 ـ بيروت ـ 1960.

ج. نظام الاسـواق :

ان الرقيق يباع في سوق خاص به ولا يخلط بغيره من البضائع في الاسواق العامة ، وسر اختصاص الرقيق بسوق راجع الى سببين اولهما عـام وثانيهما خاص. فالسبب العام هو نظام الاسواق في الحضارة الاسلامية الوسيطة ذلك النظام الذي يفرض تصنيف الاسواق وتقسيمها حسب نوع البضائـع المعروضـة. فكانت كل بضاعة تختص بسوق كسوق العطارين والبزازين والجزارين وغيرهم. ويقع الحرص في هذا التنظيم على معايير صحية مراعاة لسلامة المسلمين من الاذى، فلا يتجاور سوق العطر مثلا مع اسواق البضائع الملوثة كالاطعمة وغيرها.

وكانت هذه الاسواق ترتب ايضا وفقا لمقياس آخر هو قربهـا او بعدها عن المسجد الجامع الذي يمثل مركز المدينة وقطرها. فكانـت البضائع النظيفـة تعرض في اسواق قريبـة من المسجد. بينما تعرض غيرهـا في اماكن بعيدة، قد تجاوز احيانا المدينة الى ارباضها، وتعدي سورهـا لتكون خارجة تجنبا لاذاية المارة بالروائح الكريهة او القاذورات. ومن امثلـة هذا النوع اسواق العلف والدواب. ولم يكن هذا التنظيم خاصا بالاسـواق التجارية بل كان شاملا ايضا للاسواق الصناعية. وقد قدمت لنا كتب الحسبة نماذج واضحة من هذا النظام يمكن الرجوع اليها في مصادرها (1).

---

1) الشيزري ـ نهاية الرتبة ـ ص = 11 وما بعدهـا ـ السقطي. آداب الحسبة ص 30-40
الدوري ـ مقال ـ بغداد ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ ط. الجديدة ـ ج 1 ـ ص 922-923

اما السبب الخاص الذي فصلت من اجله سوق الرقيق عن غيرها من الاسواق، فهو حاجة هذه البضاعة الى انواع خاصة من المرافق، تستوجب اقامة اسواق على اشكال هندسية معينة ومختلفة عن تصميم الاسواق الاخرى. فالبضاعة المعروضة فيها هي بضاعة آدمية فكان لا بد من وجود اماكن لائقة بهذه البضاعة. بل اننا نلاحظ في بعض هاته الاسواق توفر اقامة للرقيق مجهزة بالمرافق اللازمة ومصممة بطريقة وظيفية تسمح بفصل الرقيق المؤنث عن المذكر مثلا. كما تستجيب لحاجات هذا الرقيق الصحية وتوفر له اقامة مريحة ومرفهة احيانا حتى تحتفظ البضاعة بمظهرها اللائق وتعرض على المشترين في احسن حال، لتدر الارباح على اصحابها.

فقد كانت هذه الاسواق اذن اشبه شيء بالفنادق. وكان مستوى الرفاهة فيها يختلف باختلاف الرقيق المعروض فيها. فاذا تعلق الامر بعرض جميلات الحواري مثلا توقعنا ان يكون مكان هذا العرض ارفه تجهيزا من اماكن عرض العبيد من الزنوج، لان متطلبات عرض الجارية الجميلة المطلوبة للفراش تختلف عن متطلبات عرض العبد المطلوب للخدمة وتستدعي شتى وسائل التجميل والتبرج التي تسمح بابراز مفاتن الجارية.

وقد وصف لنا اليعقوبي سوقا للرقيق في مدينة سامرا في القرن الثالث للهجرة فقال (انها سوق مرتفعة فيها طرق متشعبة وفيها الحجر والغرف والحوانيت للرقيق) (1). ففي قول اليعقوبي ما يدل على ان هذه الاسواق قد كانت كما قلنا اشبه شيء بالفنادق فيها جناح للاقامة وجناح للعرض .

د-الاسواق الخاصة :

لكن الرقيق لم يكن كله يعرض في الاسواق العامة ويباع بالمزاد ، فمنه ما يربأ به اصحابه عن هذه المرتبة .وهذه العادة نجدها كذلك في موقف الفاتحين عند بيعهم للسبايا ، اذ نراهم يفصلون وجيهات السبايا عن غيرهن .فيخص الامير أوالخليفة بالاميرة السبية او بابنة احد ملوك العجم المغلوبين .ومن ذلك ما فعله قتيبة بن مسلم عند ما ظفر بفيروز بن كسرى ، اذ اخذ ابنته شاهين ومعها سفط فبعث بها الى الحجاج فحملها الى الوليد (2) لكن الغاية من هذا التمييز في بيع السبايا تختلف عن الغاية من التمييز في بيع الجواري المجلوبات .فبينما يخص الخليفة بالاميرة لمركزها السياسي وحتى تستعمل وسيلة للضغط على العدو وربما

---

1) آدم متز-الحضارة الاسلامية ج 1 ص302 اليعقوبي-كتاب البلدان - ص 259
2) المقدسي-احسن التقاسيم ص 257-258

لمفاداة الاسرى المسلمين، نجد التجار يميزون بين الجيدة من الجواري والمتوسطة لغاية تجارية. وذلك لان التجار غالبا ما كانوا يضنون بنفيس بضاعتهم على هاته الاسواق، ويربؤون بها عن ان تبتذل في العروض العامة. وكانت غايتهم من وراء هذا التصرف البحث عن جزيل الربح. فتراهم يختارون اجود انواع الرقيق من بين بضاعة الرقيق المجلوبة من الاسواق الخارجية، ويحتكرونها ليقع بيعها خارج الاسواق العامة، لان البيع بالمزاد لا يوفر لهم الارباح المنتظرة ولان العوام من المشترين لا يبذلون في اقتنائها مبالغ كبيرة. ومن اجود الرقيق الذي كان يباع بهذه الطريقة القيان الجيدات.

وكانت نتيجة هذا الاحتكار ان ظهرت نقاط اخرى لبيع الرقيق الجيد، هي اسواق خاصة تعقد في منازل التجار وتعرض فيها بضاعة مرصودة لنوع خاص من الحرفاء، هم بلا ريب الاثرياء القادرون على بذل الاموال الطائلة في سبيل الحصول على هذه البضاعة الثمينة. وكان الراغب في شراء جارية جميلة او قينة حاذقة لصناعتها يتصل بالتاجر اتصالا شخصيا ويصف له مطلبه، فياتيه التاجر بما يريد، على الصورة التي وصفها له، وتروي لنا كتب الادب والتاريخ كثيرا من المواقف التي يسوق فيها التجار

الجواري الى منازل اهل الثروة لشرائهن. ونذكر على سبيل المثال ما رواه السقطي من بيع الجواري والخدم على هذه الشاكلة (1). دون ان يكلف المشتري مشقة الانتقال الى مكان البيع .

وكان الرقيق المعروض بهذه الطريقة محظوظا، لانه لا يقع الا في ايدي اصحاب الجاه والبذخ والنعيم. وكان التاجر الذي يريد عقاب احد رقيقه الجيد يبيعه في اسواق العرض العام، لانه بذلك يعرضه للابتذال فيقع في يد العوام الذين لا يستحقونه، ولا يمكنهم ان يوفروا له حياة النعيم. وقد ذكر اليعقوبي في جغرافيته هذه الاحوال بقوله: (وكان الرقيق الجيد يباع في منزل خاص او بواسطة تاجر كبير وكان بيعه في سوق عام بمثابة عقوبة وحط من قدره) (2) ويفيدنا قول اليعقوبي بشيء آخر وهو ان الذين كانوا يقومون بهذه العمليات التجارية الخاصة هم كبار التجار دون غيرهم، وذلك لانهم اقدر على القيام بها بمعرفتهم بطبقة الخواص واتصالهم بها. ولعل هذا الجاه هو الذي يخول لهم التصرف على هذه الشاكلة.

---

1) آداب الحسبة ص 48 ــ 49

2) آدم متز ــ الحضارة الاسلامية ــ ج 1 ص 302 اليعقوبي-كتاب البلدان - ص 259

لقد وجدت اذن اسواق منزلية للرقيق الى جانب اســـــواق الرقيق العامة .كما وجدت صفقات يعقدها التجار بصورة شخصية مـــع بعض الخواص . وكانت الغاية من وجود هذا الاسلوب في البيع والشـــراء ما ذكرناه آنفا من جري وراء الربح الوفير واحتكار للبضاعـة النفيســـة. ونحن نورد هنا هذه الرواية عن كتاب اخبار النساء وهي تصف ارتيـاد احد اعوان عبد الله بن طاهر ، امير خراسان ، لاحدى منازل النخاســـة وعقده لصفقـة هناك تتعلق باحدى الجواري المجيدات لقرض الشعـــر :

(ابوبكر الانباري عن ابي اليسر قال : دخلت منزل نخاس لشراء جاريـة فسمعت في بيت بازاء البيت جارية تقول :

وكنا كزوج من قـطا في مفـــازة ... لدى خفض عيش معجب مونق رغد
اصابهما ريب الزمان فافـــــردا ... ولم ار شيئا قط اوحش من فـرد

فقلت للنخاس : اعرض علي هذه المنشدة ! فقال : انها حزينة . قلت : ولم ذلك ؟ قال اشتريتها من ميراث فهي باكية على مولاها . ثم لم البث ان انشدت :

وكنا كغصني بانـة وسط دوحـة ... نشم جنى الجنات في عيشـة رغد
فافرد هذا الغصن من ذاك قاطع ... فيا فردة باتت تحن الى فـــرد

قال ابو السمراء : فكتبت الى عبد الله بن طاهر بخبرها . فكتب الي : ان الـق عليها هذا البيت فان اجازته فاشترها ولو كانت بخراج خراسان ! والبيت :

قريب صد بعيد وصل جعلت منه لي ملاذا

فقالت بسرعة :

فعاتبوه فزاد شوقا فمات عشقا فكان ماذا

قال ابو السمراء : فاشتريتها بالف دينار وحملتها اليه فماتت في الطريق فكانت احدى الحسرات)(1)

لكننا لا نعلم علم اليقين علاقة هذا الضرب من الاسواق الخاصة بنظام الجباية الموظف على الاسواق العامة فهل كان من غايات هؤلاء التجار الهروب من دفع بعض المكوس ايضا ؟ وهل كان من اهداف هذه المعاملات التخلص من الجباية وتوفير الارباح ؟ .

اننا لا نشك في وجود صفقات شخصية لا يمكن اخضاعها لنظام المكس لانها كانت تعقد في رحاب دور الخواص ، لكننا نلاحظ ان بعض الاسواق المنزلية قد اشتهر امرها كما سوف نرى ، ولعله من المفيد ان نضرب بعض الامثلة على هذين النوعين من الاسواق اي الاسواق الخاصة والاسواق العامة

1) ابن قيم الجوزية - اخبار النساء ص 113 ـ 114

هـ ـ مثال السوق الخاصة

والمقصود بالاسواق الخاصة ما يعقده النحاسون في بيوتهم من صفقات. فقد كانوا يحتفظون فيها بانفس الرقيق ليبيعوه الى الوجهاء والاثرياء ورجال الدولة . وكان هؤلاء يكلفون من يثقون بهم من خاصتهم ليتصلوا باشهر النخاسين لاقتناء ما يرغبون فيه من رقيق غير متوفر بالاسواق العامة لعلو شأنه ونفاسته (1) وقد سبق ان اشرنا الى احدى الروايات التي تصف لنا تكليف بعرولاة خراسان احد مواليه بشراء جارية من بيت نخاس (2) وقد اشتهر في هذا العصر بيوت كثيرة للنحاسين ببغداد والسبب في شهرتها ما كانت تحتفي عليه من حوار حسان يأتي اليها الشعراء والادباء . فمنها بيت نخاس يكنى أبا عمير كان له حوار عيان لهن طرف وكان منهن جارية تسمى عبادة هويها عبد الله محمد بن الواب فقال .

لو تنكى ابو عمير فليلا لاتياه من طريق العيادة

فقصينا من العيادة حقا وظفرنا في مقلتي عبادة

---

1) احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج1 ص130
2) راجع صفحة - « 581 » - من هذا البحث

ومنها كذلك بيت ابي الخطاب المحامي الذي كان له جارية تعرف ببدات الحال وكان ابراهيم الموصلي يهواها . ومن تلك البيوت ايضا بيت حرب بن عمرو الثقفي الذي كان نخاسا وكان له جارية معنية يختلف اليها اهل الادب والشعر لسماع غنائها في منزله وينعقون النعقات الواسعة ويبروه ويهدون اليه وفيها وفيه يقول اشجع :

اشكو الذي لاعيب من حبها ... وبعد مولاها الى الحرب

من بعد مولاها ومن حبها ... سقمت بين البغض والحب

تعجل الله شفائي بها ... وعجل السقم الى ((حرب)) (1)

فهذا النوع من الروايات يدل على ما كانت توفره هذه المنازل الخاصة من فرص اختيار للمغنين الجيد لم تكن لتتاح في الاسواق العامة . كما تدل على ان اغلب البضاعة النفيسة في تلك الدور كانت متمثلة في الجواري الجميلات والغيان المثقفات . ولذلك كانت منازل المغنين المشهورين ميدانا لتعليم الجواري الغناء ولبيعهن ايضا . ومن اشهر هذه المنازل منزل ابن راميل الذي تغنى به الشعراء لما حواه من جميلات الجواري المغنيات وقد قال فيه بعضهم :

"هل من شفاء لقلب لي محزون ... مباوصب الى زعم ابن راميس

الى ربيحة ان الله فضلها ... بحسنها وسماع دي اغانيس ..."(2)

وسوف يتحلى امر هذه الدور الخاصة بشكل اوضح عند الحديث عن تجارة الجواري في فصل قادم .

---

1) كمال مصطفى - مقدمة تحقيق كتاب الموشى لمحمد بن دهر

2) النويري-نهاية الارب ج 5 ص 75

و- مثال الاسـواق العامـة :

وقديكون من المفيد ان نقدم صورة مفصلـة عن بعض الاسـواق العامة المشهورة بالمدن والعواصم الكبرى في البلاد الاسلاميـة دون ان نكون مضطرين الى استعراضها جميعا نظرا لكثرتها اولا ،اذ لاتكاد تخلو عاصمـة من العواصم او مدينـة كبرى من سوق للرقيق كما سبـق ان قلنا، ولتشابـه نظامها وطرق معاملاتها ثانيا ،اذ نجد تقاربـا كبيرا بين ما يجري باسواق قرطبـة والقيروان بالمغرب الاسلامي مثـلا وما تسير عليـه المعاملات باسواق بغداد بالمشرق الاسلامي (1) باستثناء بعض الجزئيات الطفيفـة والظرفيـة التي لا يعتد بها .

فقد ذكرت المصادر رواج تجارة الرقيق ببغداد عاصمـة الخلافـة وشهرة اسواقها ،اذ كانت تتجمع بها هذه البضاعـة من كل صوب باعتبارها محط انظار التجار نظرا لكثرة الطلب وازدياد الحاجة الـى الرقيق فيها ،وهو امر استدعاه ازدهار عمرانها وولع الخواص والوجهاء فيها باتخاذ الخدم والجواري والغلمان ، فمما يذكر في هذا المجـال

---

1) بورفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية - ج - 3 - ص 314-317
آدم متز - A - MEZ - الحضارة الاسلامية ..... - ج - 1 - ص 304-306

انـه منذ عهد ابي جعفر المنصور (136 - 158 هـ/ 754 - 775 م)
اشتهرت " دار الرقيق " وهي ربض كان يجمع فيـه هذا الخليفـة
الرقيق الذي يشتريـه من الآفاق .وكان يكلف الربيع مولاه بالاشـراف
عليه .فهو اذن مستودع لرقيق الشراء الخاص بالبلاط ، وقد ذكـر
اليعقوبي ان بعض الوزراء قدكان له بجوار دار الرقيق قطيعـة
لغلمانـه يقيمون فيها .وقد عم اسم " دار الرقيق " على مجموع هـذا
المكان ، ولم يكن في بدايـة احداثـه سوقا باتم معنى الكلمـة . لكـن
وضعه قد تغير بعد ذلك واصبح سوقا تواصل نشاطها الى القـرن
السابع للهجرة ،اذ تحدث عنها ياقوت الحوي وذكر انها سوق قائمة
في الفترة التي الف فيها كتابـه (1).

وقد اشتهر امر هذه السوق ببغداد حتى سمي شارع باسمها
يقال " شارع دار الرقيق " وهو يقع بالمحلة الحربية على الضفة الغربيـة
من نهر دجلة وتصل بين الجسر الاعلى ومدينة المنصور (2) ومما يدل على

---

1) ج . لسترنج Guy-Le-Strange - بغداد في عهد الدولة العباسية ترجمة.بشير يوسف فرنسيس
الطبعة الاولى ـ المطبعة العربية ببغداد ـ 1355هـ/ 1936م ص 112
ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ دار صادر بيروت ـ 1375هـ/ 1956م ج 2ص 420وص516
2) ماريوس كانار Marius-Canard - نخب تاريخية ص 245 احالة رقم 2

ان محلـة دار الرقيق كانت مستودع هذه البضاعـة قول احد الظرفاء :

" ابي بليت بضـــــي ... من الظباء رشيـــــق
رايتـــه يتثـــــنى ... بقرب دار الرقيـــــق
فقلت مولا ي زرنـــي ... فقد شرقت بريقـــــي
فقال لي رمت امـــــرا ... اعلى من العيوق " (1)

على ان ببغداد سوقا اخرى للدخاسين تقع في الكرخ بين درب عون وطاق اللعب (2) وقد اشتهرت بالجواري اللاتي يجلبـــن اليها من اطراف الدنيا . فكان فيهن الحبشيات والروميات والجرجيـــات والشركسيات والعربيات . ويذكر ابن الجراح ان هذه السوق كان يرتادها عادة الاشراف (3) ويشير المؤرخون الى ان الف راس من الرقيق كانـت ترد على بغداد من اعمال الفرات (4) وان العبيد السود كانوا يجلبون اليها من شرق افريقية (5) كما يفد اليها الغلمان من بلاد الخزر (6)

---

1) ياقوت الحموي - معجم البلدان - ط بيروت - ج 4 ص 420
2) الازدي ـ حكاية ابي القاسم البغدادي - طبعة (هيدلبرج) 1902 م ص 23 ـ ج ـ لسترنج ـ Guy. Le. Strange ـ بغداد في عهد الدولة العباسية ص 67
3) الانطاكي - (داود بن عمر) - تزيين الاسواق بتفضيل اشواق العشاق ـ المطبعة العامرية القاهرة 1291 هـ ج 1 ص 30 / ابن الجراح ـ الورقة ـ دار المعارف مصر 1953م ص 72 حمدان عبد المجيد الكبيسي - اسواق بغداد ـ دار الحرية للطباعة بغداد 1979م / 1399هـ ص 174
4) جميل بن نخلة المدور - حضارة الاسلام في دار السلام ـ مطبعة المقتطف (مصر 1888) ص 191
5) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة - تحقيق ح ـ ح عبد الوهاب - طبعة دمشق - 1351هـ / 1932م ص 22
5) فيليب حتي ـ تاريخ العرب ـ ج 2 ص 379 و 422 - طبعة بيروت 1950

ومن اقليم الابواب (1) والجوابي والخصيان من الصين (2) فقد اصبحت تجارتها مع الصين منظمة منذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ثم ازدهرت خلال القرن الثالث للهجرة (3) كما كان اليهود الرهادنة ياتونها بالخدم الصقالبة من الغرب (4) ويجلب اليها التجار الروس الرقيق الابيض من بلادهم (5).

وكان هذا الرواج لبضاعة الرقيق باسواق بغداد له شبيه بما يجري بعواصم بلاد الاسلام الاخرى كقرطبة والقيروان والقاهرة وغيرها وانما اخترنا مثالا من عاصمة الخلافة العباسية حتى يكون رمزا لهذا النوع من الاسواق النشيطة، سواء بعاصمة الخلافة الاموية بالاندلس او الفاطمية بمصر، مع اعتبار بعض الفروق في انواع البضاعة .كأن تكون نسبة الرقيق الاسود اكبر باسواق القيروان والقاهرة منها باسواق قرطبة مثلا.

---

1) حمدان عبد المجيد الكبيسي - اسواق بغداد - ص 204
2) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 136 - بدر الدين الصيني - العلاقات بين العرب والصين - الطبعة الاولى - مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة 1950 ص 88
3) المرجع نفسه ص 108
4) ابن خرداذبه - المسالك والممالك - ص 153 - 154
5) المصدر نفسه - محمد جمال الدين سرور - تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق - مطبعة دار الثقافة العربية للطباعة - القاهرة - 1965 ص 143

ز - أسواق الرقيق بالشعور

لم يكن افراد الجند يحتفظون دائما بالرقيق الواقع في اسهمهم بل كانوا يبيعونهم في الغالب بعد انتهاء المعارك ويحصلون على اثمانهم،لانهم لم يكونوا قادرين على الاحتفاظ بهم وهم في حالة حرب وقد تثقل عليهم مؤونة معاشهم في تلك الظروف وربما كان امراء الجند اقدر على الاحتفاظ بالأسرى واستبقائهم في حوزتهم عبيدا اذ لهم في ذلك من الامكان ماليس لسائر افراد الجند .

فقد كانت هناك اذن اسواق للرقيق مصاحبة للحروب ومنتقلة بانتقالها.وكان تجار الرقيق ولا شك يقتفون أثر هذه الاسواق ويصاحبون الجند في حلة وترحاله حتى يتمكنوا من الحصول على هذه البضاعة في مظانها.فكانت هذه الأسواق كما لاحظنا في خدمة مصالح الدارفين اذ تمنن الغزاة من الانتفاع العاجل بسبيهم اذا أرادوا البيع وتخفف عليهم مؤونة الاستعداد لغزوات أخرى في نفس الحملة.كما توفر للتجار مادة مضمونة لتجارتهم .

كما كان الغزاة في حاجة احيانا كثيرة الى ممارسة نوع من المعاملات مع العدو هي شبيهة بالبيع والشراء وتهم الرقيق الموجود في دار الحرب وكثيرا ما كان الامام في حاجة الى اموال لاخذ ذلك الرقيق بالقيمة من ايدي ممسكيه وقد ضرب لنا ابو يوسف مثالا على هذه الطروف التي نرجح ان التجار قد لعبوا فيها دورا هاما ، فتحدث عن نزول اهل الحصن على حكم رجل من المسلمين وقال : (وان نزلوا على حكم رجل من المسلمين فرضي ونزلوا بالذراري والاموال والرقيق ومعهم اسرى من اسر المسلمين ورقيق من رقيقهم واموال من اموالهم فمات الرجل المحكم قبل ان يمضي الحكم فسالوا ان يردوا الى حصنهم ومامنهم حتى ينظروا في امورهم ويتخيروا من ينزلون على حكمه خلّي بينهم وبين ذلك كله ما خلا اسارى المسلمين فانهم ينزعون من ايديهم ويبيعون الرقيق من المسلمين ويعطونهم القيمة وكذلك لو كان في ايديهم اهل ذمة من ذمتنا احرار ينزعون من ايديهم وان كان في ايديهم قوم قد اسلموا فسالوا ان يردوا معهم لم يردوا ولنزعوا من ايديهم من قبل ان الحكم لا ينفذ فيما بينهم برد المسلمين الى دار الحرب والشرك ورقيق ذمتنا مثل رقيقنا . ولو كان في ايديهم عبيد لهم قد اسلموا فسالوا ردهم معهم لم يردوا وأخذوا منهم بالقيمة) (1)

---

1) ابو يوسف ـ كتاب الخراج ـ ص 200 ـ 201

فأنت ترى كيف يتحتم على الامام في هذه الحالة أن يتسلّم الرقيق المسلم وغير المسلم من أيدي العدو بعد دفع قيمته لهم لان تركه بايديهم يزيد في قوتهم ولان الرقيق المسلم لا يجوز شرعا أن يبقى بيد الكفار.واذا ماتم استرداد الرقيق المسلم من يد الكفار بعد أن كانوا قد استخوذوا عليه واحرزوه بالحرب فان لمالكيه الاوّلين الحق في استرجاعه.ويكون ذلك الاسترجاع بطريقتين امّا مجانا أو بعملية الشراء حسب الاسلوب الذي استنقذهم به الغزاة من أيدي العدو.فان استنقذوه منهم عنوة فللأصحابه حق استرجاعه مجانا مالم تقع قسمة الغنائم.فاذا وقعت القسمة وكان في سهم المجاهدين اشتراه منهم أصحابه بقيمته. امّا اذا كان الاستنقاذ لذلك الرقيق عن طريق شرائه من يد العدو لم يكن لاصحابه حق استرجاعه الا بشرائه من حديد بقيمته.

يقول ابو يوسف (وكل ما غلب عليه اهل الحرب من متاع المسلمين من رقيقهم ودوابهم فاصابه المسلمون في غنائمهم فان وجده صاحبه قبل القسمة اخذه بغير قيمة وان وجده بعد القسمة أخذه من الذي صار في سهمه بقيمته. وان اشتراه مشتر من الذي صار في سهمه او من اهل الحرب فله أن يأخذه بالثمن الذي اشتراه به. فان وهبه أهل الحرب لانسان اخذ منه بقيمته) (1).

وهكذا تجري عمليات بيع وشراء من نوع خاص ولاسيما في الثغور حيث يتجمع رقيق الأسر. وقد شرع الفقهاء احكاما لتنظيم المتاجرة بهذا الرقيق وميزوا فيها بين ما يجوز ملكه وما لا يجوز وأشاروا بالخصوص الى الأحرار والذميين ممن أسرهم العدو واسترقهم ثم تمكن المسلمون من افتكاكهم من قبضة آسريهم ومسترقيهم ومنعوا مستريهم من استرقاقهم وامتلاكهم وحرّموا على الجند احرازهم في الأسهم لانهم في نظر المشرّع أحرار.

(1) المصدر نفسه - ص 199 - 200

وكل ما يحق لمشتريهم المطالبة به هو استرجاع قيمتهم التي اشتراهم بها. واداك يتعين على هؤلاء الأحرار المسترقين السعي الى تعويض خسارة مشتريهم. ويحترز الفقهاء نفس الاحتراز بالنسبة الى رقيق المسلمين المأسورين فيرون أن ما كان فيه شائبة حرية قبل أسره كام الولد والمدبر بقي على حالته تلك عند استرجاعه ولايكون رقيقا عنا كامل العبودية كما كان في دار الحرب وما على مشتريه الآن يطالبه بثمنه بعد عتقه .

يقول أبو يوسف (حدثنا معيرة عن ابراهيم في الحرّ أو الحرّة المسلمين او الذمية أو الذمّي الحرّين يأسرهم العدو فيشتريهم الرجل من المسلمين. قال "لايكون واحد منهم رقيقا وعليهم أن يسعوا للرجل في الثمن الذي اشتراهم به حتى يؤدوه اليه" . قال أبو يوسف "وهذا أحسن ما سمعنا في ذلك والله اعلم. وكذلك ام الولد والمدبر لا يملكان ويرجع عليهما بالثمن اذا اعتقا)(1) فامكاننا ان نستنتج من هذه الاحكام أن شراء رقيق الأسر وبيعه يحصعان لبعد التحريمات التي لاتخضع لها صفقات الرقيق المحلوب .

---

(1) المصدر نفسه ـ ص200 ـ 201

ج) - خصائص البضاعة

لقد استقرت بعض الاراء في المجتمع الاسلامي حول خصال الاجناس المختلفة من الرقيق فصار الراى العام يخص كل جنس بوظيفة معينة ويعتبره بخصائص محدودة يراه احسن من غيره فيها. وتعتبر هذه الاراء نتيجة تجارب مر بها هذا المجتمع في استعماله لهذه البضاعة واقتنائها، وحصيلة ثقافات موروثة ايضا في هذا الميدان كثيرا ما يرجع فيها الى آراء جالينوس (1) او افلاطون (2) او ارسطو (3) وتضاف اليها بعض الانطباعات والملاحظات الشخصية. وصارت تلك المادة بمرور الزمن محل تدارس ونقاش ومطارحة بين اهل الذكر من المهتمين بتجارة الرقيق من شراة ونخاسين ومحتسبين. ويعتبر النخاس والمحتسب وربما الاطباء ايضا من ادرى الناس بخصال الرقيق وصفاته. كما كان لعامة المشترين تصور معين لتلك الخصائص توجه سلوكهم وتجعلهم يقبلون على نوع من الرقيق دون غيره حسب نوع الحاجة اليه وطبقا للغاية التي يرمون اليها من اقتنائه واستعماله.

---

(1) ابن خلدون ــ المقدمة ــ طبعة كاترمار " Quatremère " ج 1 ص 155 ــ 157

(2) ابن الفقيه ــ مختصر كتاب البلدان ــ ص 330

(3) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ مقدمة الرسالة ــ بقلم عبد السلام هارون ــ ص 348-349

فظهر نتيجة لذلك نوع من الادب يعبر عن تقييم خاص لمادة الرقيق بقدر ما يعبر عن نفسية اهل العصر واذواقهم وحاجاتهم وتقاليدهم واسلوب عيشهم وتفكيرهم (1) فقد تناقلوا اقوالا مشهورة فيها دعاية لهذا الجنس دون الآخر وتنويه بخصال نوع من الخدم وتحذير من عيوب نوع ثان . وقد اشار السقطي الى ان التمييز بين اجناس الرقيق وتصنيفها حسب خصائصها واختصاصاتها قد صار فنا من الفنون يتكلم فيه الناس ويطنبون. يقول في ذلك : "وقد تكلم الناس في المماليك واصنافهم وصورهم واخلاقهم وما يصلح له كل نوع منهم وخاضوا في ذلك كل الخوض"(2)..

وكان جمهور الناس ممن يتصلون بتجارة الرقيق من قريب او بعيد يصنفون هذه البضاعة الى اصناف كبرى ويتطلعون الى التعرف على مميزات كل صنف وتفحص دقائق اوصافه. فهم يميزون في النوع بين الرقيق الابيض والاسود والمذكر والمؤنث والمجلوب والمولد والاصيل والخلاسي (3) ويجعلون لكل جنس سمات خاصة ومميزات معينة وميادين محددة يتفوق فيها على غيره . واذا ماكانت آراؤهم تتفق في جملتها

(1) احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص 129

(2) السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 49 ـ 50

(3) يحيى بن عمر ـ احكام السوق ـ ص 133 ـ احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص 130

على بعض المبادئ الكبرى والاحكام العامة كاعتبار الابيض من الرقيق ارفع قيمة من الاسود والمولّد انفس من الجليب والمذكر اقدر على القيام بالخدمات الشاقـــة كفلح الارض والبلاء في الحرب وممارسة التجارة والاضطلاع بمهام الدولة. والمؤنـــث اكثر متعة واسب في الخدمات العائلية كالطبخ والرضاع وامهر في المجال الفـني من موسيقى وغناء (1) فانهم يختلفون احيانا في تقييم الجنس الواحد وتقديـــر خصاله بل ان منهم من يذكر الحكم وضده مما يوحي بتناقض تلك الاحكام.

ويمكننا ان نضرب مثالا على هذا التضارب بالمقارنة بين ما يؤكده الجاحظ من شبق الروميات (2) وما يصفه ابن بطلان من فتورهن الجنسي (3) وبين ما يصـرح به السقطي من صلوحية الزنجية للرضاع وما يشترطه نفس المؤلف من بياض في لـــون المرضع (4) والتضارب واضح ايضا في وصف الجاحظ للزنجي بحسن الخلق وقلة الاذى (5) ووصف ابن بطلان له بسوء الخلق وكثرة الهرب (6) ويرى ابن الفقيه ان الجنـــس الصقلبي لا تعرف فيه الشجاعة في حين يرى المسعودي انه معدن القوة والبأس (7) وتعتبر الامهات الارمنيات صالحات لتربية الاطفال وارضاعهم بينما يوصفن في سياقـــات

1) برنشفيك - Brunschvic - دائرة المعارف الاسلامية - مقال عبد - ج 1 ص 33 - ابن بطلان - رسالة في شرى الرقيق - ص 384-385.

2) الجاحظ - كتاب الحيوان - ج 7 ص 28 وج 4 ص 28 وج 4 ص 172 - ماريوس كانار M. Canard. المسلمون وبيزنطة - فصل 15 - ص 111 - 119.

3) ابن بطلان - رسالة في شرى الرقيق - ص 376 - 377

4) السقطي - آداب الحسبة - ص 49 = 50 = 51

5) الجاحظ - فخر السودان على البيضان - الرسائل - ج 1 ص 196

6) ابن بطلان - رسالة في شرى الرقيق - ص 374 - 375

7) ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان - ص 330 - المسعودي - مروج الذهب - ج 3 - ص 64.

اخـــرى بســـوء الخلـــق وتعكـــر المـزاج (1) واذا مـادل هـذا التضارب في الاقوال على شيء فانمـــا يـــدل على انهـا صـادرة احيـــانـا عن مـلاحظـــات وانطبـاعـات وتجـارب مختلفـــة وعلى انهـــــا تمثـــل احيانـا اخرى احكامـــا نسبيـة او شخصيـة وتعكـــس لنـا اختلافـات في العـادات والتقـاليـد المحليـة وتعيـرا طفيفـــا في تغييـم بضاعـة الرقيـــق من جيـــل الى جيـــل ومن عصـــر الى عصـــر . لكن هـذه الظاهرة لا تعني عـدم وجـود اراء مشتركـــة بين اهـل العصـر حـول خصائـص البضاعـة و ميزاتهـا بـل ان تلـــك الاراء قـد وجـدت وكـان لهـا تاثيـر مباشـر في تجارة الرقيـــق . وكـل مـا في الامـر انهـا تتعلـق بالحكم على الاغلبيـة الساحقـة مـن افـراد الجنس الواحـد وتهتم بمـا اشتهر بـه من مميـزات وان كـانـت موجـودة عنـد غيـره من الاجنـاس . وسـوف نحـاول في هـذا التحليـل ان نقف على هـذه الاراء بايجـاز لانهـا كـانت مواكبـة لواقـع هـذا النوع من التجـارة الذي نهتـم بـدراستـه .

---

1) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ 377 ـ 378
زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 30

أ- خصائص الرقيق الابيض

* الرقيق المذكر :

كان الرقيق الابيض المذكر يعتبر ارفع منزلة من العبيد السود بسبب ما تميز به من جمال ووسامة، وما اتصف به من صفات مستطرفة، كشقرة الشعور و زرقة العيون وبضاضة البشرة، وكذلك بسبب ما اشتهر به من فطنة وذكاء ومن قوة وجلادة، وقد عملت هذه الاعتبارات كلها على ارتفاع اثمانه وازدياد الرغبة في اقتنائه (1) وكان المشهور ان اغلب خصال هذا الرقيق متوفرة في جنسين ممتازين هما الجنس الصقلبي والجنس التركي، وان كان الراي العام يفضل الصقلبي على التركي ولذلك يقول ابو بكر الخوارزمي " ويستخدم التركي عند غيبة الصقلبي " (2).

وقد عرف الصقالبة من الرقيق المذكر بشجاعتهم وبسالتهم فكانوا يقتنون للحرب من اجل ذلك (3) ومما يذكر عنهم انهم كسائر سكان البلاد الشمالية " عراض الصدور شجعان وحشو الاخلاق كمون الحار دقاق السوق

1) احمد امين ـ ظهر الاسلام ج 1 ص 130

2) الثعالبي ـ يتيمة الدهر ـ طبعة القاهرة ـ 1934 ج 4 ص 116

3) السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 49 ـ 50 ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ص 387 هلال الصابي ـ رسوم دار الخلافة ـ هامش صفحة 8 ـ المسعودي ـ مروج الذهب ج 3 ص 64

لهربه من الاطراف طويلو الاعمار لجودة الهضم "(1) وكان لهم خصال عسكرية لا يشك فيها. فظهر من بينهم قواد مشهورون بالبطولة والاخلاص لنظام الحكم الاموي بالاندلس والفاطمي بمصر. وامتازت من بينهم نخبة عرفت باسم الفتيان الصقالبة (2) نذكر من بينهم بدر بن احمد الذي تولى الحجابة بالاندلس في عهد الخليفة الناصر الى ان توفي (309هـ/921م) وقد تمكن بدر من ان يهزم اوردونو الثاني ordoño II في معركة مدونية Mitonia (Midonia) وقد خلفه في الحجابة بعد موته ابناه عبد الله وعبد الرحمان. وكثيرهم الفتيان الصقالبة الذين كانو يضاهون بدرا في حسن الاضطلاع بالمهام الادارية والعسكرية. فقد ذات صيت " درّي " و " افلح " وطرفة " و " جعفر " وهم جماعة يسميهم الاخباريون بالهاء الخلفاء لان الخلفاء قد تبنوهم ونسبوهم الى انفسهم (3)

وكما كان الرقيق الصقلبي مثال الشجاعة والاقدام كان مضرب الامثال في جمال الهيئة حتى صار الرجل الابيض يوصف بانه صقلبي دون ان يكون من جنس

1) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص 372
2) بروفنسال ــ تاريخ اسبانيا المسلمة ــ ج 3 ص 177 ــ 179
3) المرجع نفسه ــ ج 3 ص 193 ــ 194

الصقالبة وذلك لما عرف به هذا الجنس من بياض وحمرة وشقرة كان الذوق العام يستطرفها (1) وكان غلمان الصقالبة يعتبرون زينة المجالس والقصور لوسامتهم. وقلما خلت منهم نفائس الهدايا التي درج الخاصة من الناس على تبادلها. ومن تلك الهدايا المشهورة ما يروى من ان المعز بن باديس قد اهدى الى الملك الظاهر اثني عشر صقلبيا بيضا صبيانا حسان الوجوه والقدود (2) واشباه هذا المثال عديدة يضيق المجال بسردها.

وقد كان هذا الرقيق الوسيم يعتبر صالحا للخدمة ايضا ومن اشهر الخدمات التي كانت تناط بعهدته حراسة الحريم والقيام على شؤونه اذا كان من الخصيان (3) فقد حظي الخصيان البيض من الصقالبة برتبة رفيعة في هذا المجتمع. وكانوا من الرقيق النفيس الذي لا يتسنى امتلاكه لكل الناس. وما من شك في ان الصقالبة قد وقع اقتناؤهم لخدمات اخرى ولكننا لا نهتم هنا الا بالميادين التي يرى اهل العصر انهم امهر فيها من غيرهم وانسب لمزاجهم وخصالهم.

1) ياقوت ـ معجم البلدان ج 2 ـ ص416 ـ المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج 3 ص64 ـ زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ـ ج 4 ص194 ـ هلال الصابي ـ رسوم دار الخلافة هامش صفحة 8
2) ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ـ ص 69 ـ 70
3) بروفنسال ـ Provençal ـ تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 124 ـ 125

وكان الرقيق التركي كما رأينا من احسن اصناف الرقيق الابيض (1) وان كان يدرج في مرتبة ثانية بعد الرقيق الصقلبي (2) ومن مميزات الاتراك الاساسية الشجاعة والاقدام. ويرى ابن بطلان انهم في هذا المجال كالصقالبة وان تجريبهم يكون بافزاعهم (3) وتعتبر رسالة الجاحظ في " مناقب الترك " من احسن النماذج التي تناولت الاشادة بخصال هذا الجنس العسكرية وتفضيله على عدة اجناس اخرى في ميدان البسالة والشجاعة ، واليك مثالا مما يقوله الجاحظ في الحديث عن خصال الترك الحربية : " ولو حصلت عمر التركي وحسبت ايامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته اكثر من جلوسه على الارض... واذا سار التركي في غير عساكر الترك فسار القوم عشرة اميال سار عشرين ميلا ، لانه ينقطع عن العسكر يمنة ويسرة ويسرع في ذرى الجبال ويستبطن قعور الاودية في طلب الصيد وهو في ذلك يرمي كل ما دب ودرج وطار ووقع ... والاتراك اذا صافّوا جيشا ان كان في القوم موضع عورة فكلهم قد ابصرها وعرفها ، وان لم تكن هناك عورة ولم يكن فيهم مطمع وكان الرأي الانصراف

1) الاصطخري ــ المسالك والممالك ــ ص 288
2) الثعالبي ــ يتيمة الدهر ــ طبعة القاهرة 1934 ــ ج 4 ص 116
3) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ص 387 السقطي اداب الحسبة ص 49 ــ 50

فكلهم قد راى ذلك الراي وعرف الصواب فيه . وخواطرهم واحدة ودواعيهم مستوية باقبالهم معا" (1)

وقد استحق الرقيق التركي منزلته الرفيعة بين سائر انواع الرقيف بميزة اخرى هي وسامة مظهره ، وجماله الجسدي. فمنذ القديم كان الغلمان الاتراك محط شغف من قبل ملوك الفرس والروم. فكانوا يتهادون احسنهم وجوها ويلبسونهم افخر الثياب (2) وقد احتفظ الغلام التركي بهذه المكانة في المجتمع الاسلامي . وكان يمثل احسن هدية تقدم للامراء والسلاطين ففي سنة (280 هـ) اهدى اسماعيل بن احمد الساماني صاحب ما وراء النهر الى الخليفة المعتضد ، تسعة واربعين جملا عليها محامل فيها غلمان مرد اتراك وخزر باقبية سمور وقلانس سمور واثنتين وخمسين غلاما اتراكا وخزرا بدوابهم وسلاحهم (3) وهذا مثال من بين عديد الامثلة التي ترويها لنا المصادر حول نفاسة الغلام التركي .

وكان الخصيان يتخذون من الاتراك ايضا ، ويستعملون في خدمة الحريم. كما كانوا يستعملون في خدمات اخرى اجتماعية. لكن اتصافهم

1) الجاحظ - مناقب الترك - الرسائل - ج 1 ص 48 - 49 وص 55
2) الجاحظ - المحاسن والاضداد ص 282
3) ابن الزبير - الذخائر والتحف - ص 42

بقوة البنيـة وجمال الخلقـة في آن واحد قد جعل المسلمين يفضلون استعمالهم في ميادين دون اخرى .فاستغلوا قوتهم في الحرب ووسامتهم في ابهة القصور وجلال المواكب ووجاهـة المناصب الادارية.وما من شك في ان تاريخ الدولـة العباسية حافل بهؤلاء الاتراك الذين كانوا يمثلون الخدم والحشـم وعظمـة الملك والسلطان .

ويعتبر الرقيق الارمني مشابها للرقيق التركي والصقلبي في ملاحـة المظهر وحسنـه ، فهو من الرقيق الابيض الذي وهب حظا وافرا مـن الجمال (1) لكنـه يختلف عنـه فـي خاصيتين تتصل الاولى بالخدمـة والثانيـة بالخلق والمزاج ، ففي خصوص الخدمـة كان المشهور عن العبـد الارمني انـه لا يعرف العناء والتعب،ولا يشعر بهمـا ولا يعجز عن اي عمل شاق.بل تراه يصبر على الكد ويمكن ان توكل اليـه كل الاعمـال الصعبـة ، وهو في هذا اشبـه ما يكون بالعبد الزنجي الذي يستخدم ليلا نهارا في شتى المهام دون ان يتالـم (2) اما فـي خصوص المـزاج والخلق فالمعروف عن العبد الارمني انـه خبيث النفس قليل الطاعـة

1) ابن رستـة ـ الاعلاق النفيسـة ص 133

2) ان بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ص 377 ـ 378 ـ السقطي-آداب الحسبة ص 49

لا يؤمن شره في حال الرخاء والغضب على حد السواء. ولا مناص لمالكه من حمله على الرضوخ والانصياع بالقوة والترهيب والضرب اذا لزم الامر. يقول ابن بطلان في ذلك : " متى نهدهت العبد ساعة بغير شغل لم يدعه خاطره الى خير. لا يصلحون الا على العصا والمخافة وليس فيهم فضيلة غير تحمل العناء والاعمال الثقيلة. والواحد منهم اذا رايته كسلانا فذاك لعله فيه (1) ليس عن عجز قوة، فدونك والعصا، وكن مع ضربه وانقياده لما تريده منه على حذر، فان هذا الجنس غير مامون عند الرضا فضلا عن الغضب " (2) وهكذا يتضح الفرق بين الارمن وغيرهم من البيض كالاتراك مثلا. وباختلافهم في الاخلاق والعادات تختلف معاملة المالكين لهم. فاذا ما كان الاتراك قوما " لا يعرفون الملق ولا الخلابة ولا النفاق ولا السعاية ولا التصنع ولا النميمة ولا الرياء ولا البذخ على الاولياء ولا البغي على الخلطاء، ولا يعرفون البدع ولم تفسدهم الاهواء " (3) فان الارمن لا يوثق بهم لقلة امانتهم وعفتهم وتفشي سرقاتهم وهم في الجملة " شر البيضان كما ان الزنج شر السودان " (4)

1) العله : خبث النفس
2) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ص 377ــ378
3) الجاحظ. مناقب الترك ــ الرسائل ج 1 ص 62
4) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ص 377ــ378

اما الرقيق الرومي فقد كان له هو الاخر حظه من الجمال فمن اقوال اهل العصر المأثورة ان " الوجوه في الترك والاجسام في الروم " (1) كما عرف غلمان الروم بوسامتهم وشغف بهم مالكوهم .فقد روي عن كل من ابي تمام والحسن بن وهب والبحتري انهم ولعوا بهذا الصنف من الغلمان وامتلكوهم (2) لكن الرقيق الرومي قد اشتهر خاصة بذكائه وحسن تدبيره للاموال حتى قيل انه لا يعرف في الروم السخاء وان الجود ليس في لغتهم (3) ومما زاد في قيمة هذا الصنف من الرقيق معرفته بفنون شتى من العمل لانتمائه الى مناطق متحضرة من العالم

1) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 30
2) الاصفهاني ـ الاغاني ـ ج 22 ص 548 وج 21 ص 49
3) ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان ـ ص 330 ابن بطلان.رسالة في شري الرقيق ص 386 الجاحظ ـ البخلاء ترجمة بلا - Ch. Pellat - ص 228 ـ 232 ـ ماريوس كنار M. Canard. المسلمون و بيزنطة ـ فصل - 15 - ص 111 - 119

* **الرقيـــق المؤنـــث**

وكان الرقيق الابيض المؤنث يعتبر من احسن اصناف الرقيق واجودها لما يتمتع بـــه من جمال المظهر.وكان يوصف بالاحمر والاصفر اشارة الى جمال لونـــه ، فتنعت الجاريـــة الحسناء بكونهـــا حمـــراء او صفراء (1) وكان الـــذوق العام يقتضـــي ان تكون الحسناء بيضاء البشرة وان يكون بياضها مشربا بحمرة اوضاربا الى الصفـــرة (2) ومن اقوالهم المشهورة ان " احسن النساء الرقيقـــة البشرة النقيـــة اللون يضرب لونها بالغداة الى الحمرة وبالعشي الى الصفـــرة "(3) وقد روى الجاحظ عن علي بن الجهم انـــه قال " كنت في مجلـــس محمد بن عمرو بن مسعدة فاقبلت جاريـــة كانها البدر ليلة التمـــام بلون كانـــه الدر في البياض مع احمرار خدين كشقائق النعمـــان فسلمت فقال لي محمد : ياابـــا الحسن هـــذه الجنـــة التي كنـــتم توعدون " (4)

1) الاصفهاني ــ الاغاني ــ ج 1ص294 ــ 295 ــ ج 7 ص 280 ج 13ص248 ج 18 ص 14
2) فيليب حتي ــ تاريخ العرب - ص 104 .Philip-K.Hitti-Hist.des-Arabes
3) الجاحظ ــ المحاسن والاضداد ــ ص 168
4) الجاحظ ــ المحاسن والاضداد ــ ص 159

ولذلك حظي هذا النوع من الاماء بمكانة عالية وتميز عن سائر الرقيق ، وقد دعا ذلك الذوق احيانا بعض الاماء الى طلاء اجسامهن بالورس واستعماله في زينتهن (1) فقد روى الحاجظ ان احد جلساء الرشيد شوهد يوما ناحل البدن كاسف البال ولما سئل عن سبب تغيره قال : " قصدت بعض القرابة فالفيت عندهم جارية قد طلت بالورس بدنها . . . " (2) وفي هذا الخبر دليل على ان الولع بصفرة اللون كان منتشرا بين الناس منذ عصور سابقة لهذه الفترة . بل ان العرب قد تغنوا به في اشعارهم منذ العصر الجاهلي ومن ذلك قول الشاعر قيس بن الخطيم :

" صفراء اعجلها الشباب لذاتها موسومة بالحسن غير قطوب " (3)

فلا غرابة اذن ان تصادف الجواري البيض رواجا كبيرا في هذا المجتمع . ومما زاد في الولع بهن امتياز اجناس كثيرة منهن

1) الوشاء . . الظرف والظرفاء - ص 240 - 240
2) الحاجظ - المحاسن والاضداد - ص 25 الورس نبات كالسمسم يصبغ به ولونه اصفر (الثعالبي - لطائف المعارف - ص 166)
3) قيس بن الخطيم - الديوان ص 17 عن زكية عمر العلي - التزيق والحلي ص 89 - 90

بصفات جسدية ، يستطرفها العرب المسلمون لانها لم تكن مالوفة عندهم مثل شقرة الشعر او صهوبته وزرقة العيون واحمرار اللون . فلما توفرت لديهم في هذا الرقيق شغفوا به وتهافتوا عليه وراح الشعراء يتغنون بالجواري " الحمر " وصار الحسن في نظرهم احمر اللون كما قال الشاعر:

هجان عليها حمرة في بياضها يروق بها العينين والحسن احمر

كما كان الشعراء يشبهون هذا الحسن بالنار ايضا لاحمرار لونها (1) وهكذا صار هذا النوع الجميل من الاماء من علية الرقيق ، لي من الرقيق الارستقراطي الذي يقتني عادة للمتعة وانجاب الولد ويتخذ للحريم لما يتمتع به من وسامة . فهو بضاعة نفيسة يحرص الناس على طلبها وترتفع اثمانها . كما تميزت اصناف من هؤلاء الاماء بمهارة واختصاص في ميدان الخدمة والعمل .

وسوف نحاول رسم جوانب مما شاع عن هذه الاجناس من خصائص وخصال .

1) احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ـ ص 136

وبالرغم من انتشار هذه الاوصاف من اجناس عديدة من الرقيق الابيض كان الراي العام يفضل الصقلبيات والتركيات والبربريات ويميزهن عن بقية الاماء بالحسن الفائق والجمال الباذخ فقد صارت الصقلبيات رمزا للحسان البيض بصورة عامة ،واشيد دائما بشعورهن ووجوههن الحمر (1) وامس جنسهن الصقلبي احسن ممثل للجنس الابيض (2) فكن بسبب ذلك اجود انواع السراري يرغب الناس في اقتنائهن للذة والمتعة (3) وقد نوه ابن الفقيه بجمال الصقلبيات المجلوبات من الاندلس (4) واشاد ابن حوقل بعده بزمان بما تصدره تلك البلاد من جوار حسان الى بلاد الشرق الاسلامي (5) وكان الوجهاء والخاصة بالمغرب والمشرق يتخذون امهات اولادهم من تلكم الجواري . فكان من الخلفاء من كانت امه صقلبية مثل المستعين بالله العباسي (6) وكان العديد من الخلفاء الامويين بالاندلس ابناء حظايا صقلبيات

1) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج 3 ص133 - بارتولد - دائرة المعارف الاسلامية ط ع مادة - سلاف ص 153
2) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي - ج 4 ص 194
3) هلال الصابي ـ رسوم دار الخلافة ـ هامش صفحة 8
4) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ص 252
5) ابن حوقل -صورة الارض ـ الطبعة الفرنسية ـ ج 1 ص 95
6) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ ج 4 ص 166

ايضا ، لكن هذا النوع من الاماء ذوات الحسن الفائق لم يكن مشهورا بخصب الارحام وكثرة الانجاب. بل ان ابن بطلان ليذهب الى ان اغلب نساء الصقالبة من العواقر بسبب طبيعة مناخ الاقاليم الشمالية التي يجلب منها الرقيق الصقلبي ، وهو يصف لنا الصقلبيات بانهن قليلا ما " يتقين من دم الحيض " (1) وانهن جواري متعة يصلحن للتسرى بهن اكثر مما يصلحن للولد ، لكن هذه الظاهرة لم تكن لتنقص من قيمتهن في نظر الشراة بل ان المشهور في هذا العصر ان اثمن الهدايا ما كان يتضمن هذا الرقيق النفيس (2).

اما التركيات من الاماء فلم يكنّ دون الصقلبيات شهرة بالجمال . بل ان ابن حوقل ليذهب الى ان اجمل انواع الرقيق ما كان يجلب من بلاد الاتراك وليس في رقيق العالم كله حسب قوله ما يضاهي هذا الجنس في روعة الحسن وارتفاع الثمن (3) ويضرب

1) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص 372
2) ابن الزبير ــ الذخائر والتحف - ص 48 - 59 وص 69 - 70
3) ابن حوقل ــ صورة الارض ــ الطبعة الفرنسية ــ ج 2 ص 437

المقدسي مثالا على جمال التركيات بالاماء المجلوبات من فرغانة والشاش فهن في رايه احسن الوانا من اهل اقليم المشرق كلهم (1) كما يشيد بجودة الجواري التركيات المعروضات باسواق سمرقند وبخارى، ويصفهم بما تتصف به الوان اهل خوارزم من بياض وحمرة (2) وقد كان هذا الجمال التركي دافعا الى الاقبال على الجواري التركيات وسببا في رواجهن ، فقد دخلن قصور الخلفاء و دور الخاصة في صورة حظايا وصارت لهن مكانة مرموقة بين سائر الاماء . وهذه صورة من جمالهن كما رسمها ابن بطلان يقول : " وقد جمعن الحسن والبياض ووجوههن مائلة الى الجهامة وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة ،وقد يوجد فيهن السمراء الاسيلة ،وقدودهن ما بين الربع والقصير، والطول فيهن قليل ومليحتهن غاية وقبيحتهن آية ... وفيهن نظافة ولباقة.. لا يكاد يوجد فيهن لكنة متغيرة ولا من لها عجيزة عظيمة " (3) وقد عرفت الجارية التركية علاوة على جمالها بكونها ولودا ،فكانت تتخذ للتسري وانجاب

1) المقدسي ــ احسن التقاسيم ــ ص 336
2) المصدر نفسه ص 278
3) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص 376

الولـد (1) فلا غرو ان يكون كثير من امهات الخلفاء العباسيين من جواري الاتراك مثل (ماردة) زوجـة الرشيد وام المعتصم و (شجاع) جارية المعتصم وام المتوكل و (شغب) زوجـة المعتضد وام المقتدر بالله و (زمرد) زوجـة المستكفـي وأم الناصر لدين الله وغيرهن (2) فالتركيات " هن كنوز الاولاد ومعادن النسل ظ ما يتفق فـي اولادهن وحش ولا ردي التركيب ولا حان " (3).

واما البربريات فيعتبرن من الجواري المرتفعات ايضا (4) لما اشتهرن بـه من حسن وقد ادرك المسلمون هذه الصفة في الامـة البربريـة منذ عصور الفتح الاولى لبلاد المغرب فقد روي في هـذا الصدد عن بعض الغزاة انـه قال في الامـة الصنهاجيـة :

الا لا ابالي اليوم ما فعلت هنـد ... اذا بقيت عندي الحمامة والورد
شديد مناط المنكبين اذا جـرى ... وبيضاء صنهاجية زانها العقد
فهذا لايام الحروب وهـذه ... لحاجة نفسي حين ينصرف الجند (5)

1) السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 49ـ50
2) زكريا كتابجي ـ الترك في مؤلفات الجاحظ ـ ص 173 وص 184
3) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 376
4) بروفنسال ـ Provençal ـ تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 314 ـ 315
5) ابن قتيبـة ـ عيون الاخبار ـ مجلد 3 ج 10 ص 48 ـ49 ـ الابشيهي ـ المستطرف ط ـ بولاق ـ ج 2 ص 284 ـ الجاحظ ـ المحاسن والاضداد ـ ص : 183

وكان اقبال اهل المشرق على السبايا من البربر كبيرا ، وقد تنافس الخلفاء في اتخاذهن ،والحوا على امراء افريقية في طلبهن(1) حتى صار منهن العديد من امهات الاولاد في قصور الامويين والعباسيين مثل ام ابراهيم الامام وام ابي جعفر المنصور المعروفة بسلامة البربرية (2) وام ابن عيسى بن الرشيد التي كانت من احسن الناس وجها (3) وقراطيس ام الواثق بن المعتصم وقتول ام القاهر بن المعتضد (4) وغيرهن كثير ، وقد استمر الولع بجمال البربريات في هذا العصر واعتبرن من انضر انواع الاماء اللائي يميزن عن وحش الرقيق (5) ، فهذا ابن حوقل ينوه بحسنهن عند حديثه عن رقيق المغرب ويمتعتهن بجمال الالوان والوسامة وحسن القوام (6) ويصف البكري جواري منهن باودغست فيقول " وبها جوار حسان الوجوه بيض الالوان منشيات القدود لا تتكسر

1) ابن عذاري ـ البيان المغرب ـ ج 1- ص53-54. الطالبي- الامارة الاغلبية ص 33-37
2) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ الطبعة الفرنسية ـ ج 1 ص95 ـ زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 153 ـ 154
3) الاصفهاني ـ الاغاني ـ ج 10 ص 197
4) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ الطبعة الفرنسية ج 1 ص95
5) بروفنسال- Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 314 ـ 315
6) ابن حوقل ـ صورة الارض - الطبعة الفرنسية ج 1 ص 101

لهن نهود ، لطاف الخصور ضخام الارداف واسعات الاكتـــاف ضيقـــة الفروج ، المستمتع باحداهن كانـــه يتمتع ببكر ابدا ، قـــال محمد بن يوسف : اخبرنـــي ابو بكر احمد بن خلوف الفاسي شيـــخ من اهل الحج والخير قال : اخبرنـــي ابو رستم النفوسي وكـــان من تجار اودغست انـــه راى منهن امراة راقـــدة على جلهـــا وكذلك يفعلن في اكثر حالهن اشفاقـــا من الجلوس على ارداقهن وراى ولدها طفلا يلاعبها فيدخل تحت خصرهـــا وينفـــذ مـــن الجهة الاخرى من غير ان تتجافى لـــه شيئا لعظم ردفهـــا ولطف خصرها " (1) ويشيد المؤلف نفســـه بالجوارى الابكار من بنات برغواطة لما تميزن بـــه من قوة البنيـــة وجمالها فقد " كانت الجاريـــة البكر منهن تثب ثلاث حمر مصطفـــة ولا يمس ثوبهـــا شيئا من الحمر ولا تقدر على ذلك ثيب " (2) اما نساء البصـــرة الواقعة بين طنجـــة وفاس ففيهن اماء مخصوصات " بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس بارض المغرب اجمل منهن ، قال احمد بن فتح المعروف بابن الخراز التاهرتي يمدح ابا العيش بن ابراهـــيم

1) البكري ــ المغرب - ص 158 ــ 159
2) المصدر نفســـه ص 140

ابن القاسم :

قبح الاله اللهو الا قيدة بصرية في حمرة وبياض

الخمر في لحظاتها والورد في وجناتها والكشح غير مفاض

في شكل مرجيّ ونسك مهاجر وعفاف سنيّ وسمت اباض" (1)

فلا غرابة بعد هذا ان تتفق آراء اهل العصر على ان من اراد ان يتخذ جارية للذة وانجاب الولد عليه ان يختارها بربرية فيحقق لنفسه بذلك المتعة وجمال النسل (2) اما اذا ما كانت تلك الجارية على جانب وافر من التربية والثقافة فانه يكون بذلك قد احرز احسن انواع الاماء على الاطلاق. يقول السقطي عن ذلك : " والبربريات اطبع الخلق على الطاعة وانشطهم للعمل و اصلحهم للتوليد واللذة واحسنهم للولد. . وحكي عن ابي عثمان رئيس النخاسين بالمشرق والشان اليه هناك لكثرة الخبرة والمداولة على القوم انه كان يقول : اذا وجدت المراة بدت تسع حجج كتامية الام صنهاجية الاب مصمودية المنشأ قد جلبت الى المدينة واقامت بها ثلاث

1) المصدر نفسه ص 110

2) السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 50 ـ ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 373 374 ابن قيم الجوزية ـ اخبار النساء ص 7

حجج وبالعراق عشر حجج فتلك جمعت حسن الجنس الى كمال القصد وقليل ان تخفى في اجفان العيون " (1).

ولم يكن الناس يعتقدون ان الجمال منحصر في هذه الاجناس التي ذكرناها من الاماء البيض. فالواقع ان الاجناس الاخرى كالروميات والارمنيات والافرنجيات والديلميات قد كان لها نصيبها من الحسن ايضا. وكان الراي العام يعترف لها بذلك، لكن كل ما في الامر انه يفضل الاجناس السابقة الذكر لشيوع الجمال فيها اكثر من غيرها.

وقد كان لجمهور الشراة احكام وانطباعات اخرى لا تتعلق بجسد الامة هذه المرة وانما تهم اخلاقها ومزاجها. وهي امور هامة يحرص المشتري على معرفتها لانه مقبل على مخالطة مملوكة يرغب في ان تكون حسنة المخبر كما يريدها جميلة المظهر. فاذا ما عرفت البربريات كما رايتا بالطاعة لمالكهن (2) فان الديلميات

1) السقطي ـ آداب الحسبة ص 49 ـ 50
2) المصدر نفسه ـ ص 49 ـ 50

والارمنيات عرفن بالرغم من جمالهن بسوء الخلق وعسر الانقياد (1) فالجارية الارمنية لا تعرف النظافة.والعفة فيها قليلة والسرقة فاشية مع غلظ في الطبع واللفظ (2) وفي الجواري التركيات مع حسنهن الباع سماحة في الخلق وقلة وفاء (3) اما الروميات فقد جمعن بين ملاحة الشكل وقلة الشبق (4) فلذلك لا يصلحن للمتعة حسب قول ابن بطلان (5) لكن الجاحظ يدلي براي مناقض لهذا الراي تماما فيرى انهن اكثر النساء شبقا ويعلل ذلك بانهن لم تختن ،كما يشير الى انهن لا يغسلن الاعضاء التناسلية ولهن رائحة كريهة ،الا انهن يحملن سهولة (6) فهل يرجع هذا الخلاف الى اختلاف اجناس الروم او الى تضارب الاراء والتجارب الشخصية ؟

1) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص376ــ377 ــ ابن رستة الاعلاق النفسية ــ ص133 السقطي ــ آداب الحسبة-ص 50ــ51
2) انظر ايضا : ــ ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق - ص 377 - 378
3) المصدر نفسه ص 375ــ376 ابن الفقيه مختصر كتاب البلدان ص 330
4) الاصفهاني ــ الاغاني ــ ج 22 ص 217 ــ 218 زيدان -تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 30
5) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص 376 ــ 377
6) الجاحظ ــ كتاب الحيوان ــ ج 4 ص172 و ج 7 ص28 ماريوس كانار M.Canard المسلمون وبيزنطة - فصل 15 -ص 111 - 119

لكن الخلاف لا يشمل صفات اخرى امتازت بها الروميات ومنها الطاعة والموافقة والوفاء والمناصحة والثقة والامانة (1) .

وقد رسخت في اذهان المشترين آراء حول اختصاصات الاماء المهنية لا سيما ان منهن من جلبن من بلاد ذات حاضرة مثل الروميات والافرنجيات وغيرهن ، وهكذا صنفت اجناسهن حسب مهارتهن في فن من الفنون او صنعة من الصنائع ، فبنات الروم " يصلحن للخزن لضبطهن وقلة سماحتهن ، ولا يخلو ان يكن يألفن صنائع دقيقة " (2) ولذلك يحسن بمقتنيهن ان يستعملهن في تدبير الاموال وحفظها ، وان يدتفع بما طبعن عليه من قلة سخاء (3) ولهذا الصنف من الاماء براعة في الخدمة بصفة عامة ، حتى قيل من اراد جارية للخدمة فعليه ببنات قيصر (4) وممن اشتهرن بالصبر على الكد ايضا وتحمل الاعمال

1) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص376ــ377 السقطي ــ آداب الحسبة ص 50ــ51
2) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص 376ــ377
3) ابن الفقيه ــ مختصر كتاب البلدان ــ ص 330 السقطي ــ آداب الحسبة ص49ــ50
4) ابن قيم الجوزية ــ اخبار النساء ص7 ــ زيدان. تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 30

الشاقة الارمنيات لصحة بنيتهن وشدة اسرهن ، وكذلك شأن الديلميات اللائي عرفن بالصبر على الشدة (1) ولا يعدم المشتري في الامة الارمنية خدمات عائلية اخرى كالرضاع مثلا، فهي في ذلك اشبه شيء بالامة الزنجية (2) اما اذا رام جودة الطبيخ ونظافته فانه يظفر بذلك عند التركيات من الجواري خاصة (3)

1) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ص376ــ377 السقطي ــ آداب الحسبة ص 50ــ51
2) زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 5 ص 30 ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ص 376 ــ 377
3) المصدر نفسه

ب- خصائص الرقيق الاسود الافريقي

لقد كان الرقيق الاسود دون الرقيق الابيض قيمة في الجملة وكان معدل اثمانه منخفضا بالنسبة المعدل اثمان الرقيق الابيض. ويرجع هذا الانخفاض الى اسباب متنوعة منها ما هو تجاري ومنها ما يتصل بالاخلاق والعادات والاذواق ، فقد كانت وفرة هذا الرقيق الاسود ،وكثرة افواجه المتدفقة على البلاد الاسلامية ،عن طريق القوافل التجارية الاتية من الصحراء الافريقية خاصة ،سببا في انخفاض اثمانه (1) كما ان طرق جلبه قد كانت اقل تعقيدا وعسرا من جلب بعض اصناف الرقيق الابيض كالصقالبة مثلا، هذا فضلا عن عدم وجود وسطاء تجاريين يرغبون في طائل الارباح كما كان التجار اليهود الخزر الرهادنة يفعلون .

وكان الرقيق الاسود يعتبر دون الابيض في المنزلة ،لانه لم يكن يتصف في الغالب بحظ وافر من الجمال . بل كان الراي السائد بين الناس ان السود هم سكان (البلاد الجنوبية وهي التي اهلها سكان تحت القطب الجنوبي كالحبشة .واحوالهم ضد احوال البلاد

1) برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد - دائرة المعارف الاسلامية - ج 1 ص 33 -

الشماليـة والوانهم سود ومياههم مالحـة كدرة ومعدهم بـاردة و هضومهم رديـة واخلاقهم هاويـة واعمارهم قصيرة وبطونهم ليدة لسوء الهضم) (1) ويصفهم صاحب حدود العالم بان نصفهـم الاعلى قصير ونصفهم الاسفل طويل وبان جسمهم نحيل وشفاههم غليظة (2) اما شعورهم " فمتفلفلة " واعناقهم قصيرة وانوفهـم مفلطحـة وعيونهم حمراء ورائحتهم كريهـة كرائحـة القـرون المحروقـة (3) فقد (انتنت اعراقهم و تقشفت جلود اقدامهـم وتشوهت خلقتهم وقلت معارفهم و فسدت اذهانهم فهم في نهاية الجهالة واقعون ، واليها يسرعون وقلما ابصر منهم عالم او نبيـل وانما يكتسب ملوكهم السياسة والعدل ، بالتعليم من اقوام يصلـون اليهم من اهل الاقليـم الرابع او الثالث ممن قرأ السير واخبـار الملوك وقصصها) (4)

1) ابن بطلان ـ رسالة في شرب الرقيف ـ ص 372
2) مؤلف فارسي مجهول ـ حدود العالم ـ طبعة جب Gibb ص 165
3) ابن رستة ـ الاعلاق النفيسة ـ ص 101 ـ ابو حامد الغرناطي ـ تحفة الالباب - المجلة الاسوية 1925 - عن كوك - منتخبات ص 159 - 161
4) الادريسي ـ نزهـة المشتاق ـ طبعة رومـة 1270 ـ المجلد 1 ص 98

لكن هذه الصورة المرتسمة في اذهان اهل ذلك العصر قد كانت تتعلق باغلب الرقيق الاسود لا بجميعه كما سوف نبين عند التفصيل. فاجناس هذا النوع من الرقيق تتفاوت في درجات الحسن والقبح وتختلف في الخصائص الجسدية والخلقية وفي نوع الاختصاص بعمل من الاعمال ولنبدأ بالحديث عن الرقيق الاسود المذكر .

الرقيق المذكر :

كان المشهور عن هذا الرقيق امتيازه بقوة البدن والصبر على العمل الشاق . فكان يتخذ غالبا في شكل يد عاملة ووسيلة من وسائل الانتاج ، اما بالنسبة الى الاسرة فهو يمثل احسن انواع الرقيق خصوصا اذا كان من الخصيان ، فهو رقيق لا يتصف بالجمال الذي يغري النساء ، وهو بالاضافة الى ذلك قادر على العمل بسبب قوته الجسدية فلذلك كان يرغب فيه للخدمات المنزلية ، وقد تعرض ابن بطلان لخصال الزنوج فذكر مالهم من جلد على الكد ((فالزنجي اذا شبع صب العذاب عليه صبا فانه لا يتالم له)) (1) وقد نوه الجاحظ بهذه الخاصية في الزنوج فقال : ((وليس في الارض امة في شدة الابدان وقوة الاسراع منهم فيها : وان الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الاعراب وغيرهم . وهم شجعان اشداء الابدان)) (1) .

---

1) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص375
2) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج 1 ص195

وترتفع قيمة العبد الاسود اذا جمع الى هذه الخصال الوفاء والامانة ،مثلما ما هو معروف عن عبيد النوبة الذين يرغب فيهم عادة لحفظ الاموال والنفوس (1) وترتفع اثمانهم بسبب هذا الامتياز. فقد روي ان الصاحب بن عباد بذل في عبد نوبي اربعمائة دينار. وهو مبلغ يندر بذله اذاك في الرقيق الاسود (2) لكن هذه الخصال المعنوية والخلقية لم يكن اهل العصر يرونها متوفرة في سائر اجناس الرقيق الاسود. بل كانوا يرون ان العبد اذا جاع سرق واذا شبع زنا. ولا بد لمالكه من الاحتياط والشدة في معاملته وقد انعكست هذه الصورة في هجاء المتنبي لكافور وخاصة من قوله :

" لا تشتر العبد الا والعصا معه ان العبيد لانجاس مناكيد " (3)

وكان المتعارف ايضا في العبيد حرارة امزجتهم ونشاطهم الجنسي (4) ولذلك يستحسن في الخادم الاسود ان يكون خصيا.

1) السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 29
2) آدم متز - A - ME Z - الحضارة الاسلامية ج - 1 - ص 497
3) المتنبي ـ الديوان - ص 486
4) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج 1 ص 212 ـ 215

لكن للعبيد ميزة يعترف بها اهل العصر وكذلك سابقوهم من المسلمين مما يدل على عراقتها وانتشارها بين اصناف الرقيق الاسود ونعني بها صفة الشجاعة والاقدام في الحرب . وكثيرة هي الشواهد في التراث الادبي على بسالة السود وباسهم ،حتى جعل منهـــا الجاحظ امرا وراثيا اذ يقول ان ابناء الزنجيات ينزعون الى الزنج في البسالة والانفة (1) وقد شجع هذا الاعتقاد على اتخاذ عناصر السودان في الحرس الخلافي وفي كتائب الجند ،وهو ما نعرفه من خلال تاريخ الدول الاسلامية في هذا العصر ، وهكذا كان الرقيق الاسود المذكر يقتنى لغرضين اساسيين هما الخدمة والحرب (2) وهما غرضان يتلاءمان مع خصائصه الجسدية ومع عقائد اهل العصر وتقاليدهم .

1) المصدر نفسه ــ ج 1 ص 192
2) ابو حامد الغرناطي ــ تحفة الالباب ــ عن كوك ــ Cuoq - ج ــ منتخبات ص159-161

* الرقيق المؤنث :

وكان للاناث من الرقيق الاسود خصائص ينفردن بها ايضا. منها ما هو جسدي وخلقي ومنها ما هو مهني صناعي ، اما بالنسبة للصفات الجسدية والخلقية فقد كان الغالب على تفكير اهل العصر انهن دون صفات الاماء من البيض. فالزنجيات مثلا كن يعتبرن اردأ انواع الاماء السود (1) لان " مساويهن كثيرة وكلما زاد سواد هن قبحت صورهن وتحددت اسنانهن وقل الانتفاع بهن وخيفت المضرة منهن والغالب عليهن سوء الاخلاق وكثرة الهرب..... وليس فيهن متعة لصنائهن وخشونة اجسامهن " (2)

واذا كانت الزنجيات بمثل هذه الصفة فان الزغاويات (3) شر منهن اذ " لا يصلح الرجال لخدمة ولا النساء لمتعة " (4) ومهما يكن من امر فان جمهور الناس اذاك قد كانوا يرون ان نسبة الجمال واللطف عند السودانيات قد كانت اقل من نسبتها عند

1) الابشيهي ـ المستطرف ـ ج 2 ص 77
2) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 374 ـ 375
3) يقول ياقوت عن زغاوة : " هو بلد في جنوبي افريقية بالمغرب وقيل قبيلة من السودان جنوبي المغرب وفيهم يقول ابو العلا المعري : بسبع اماء من زغاوة زوجت من الروم في نعمان سبعة اعبد " ويقول ايضا : " ومملكة الزغاوة مملكة عظيمة من ممالك السودان في حد المشرق منها مملكة النوبة الذين باعلى صعيد مصر .... وهم امم كثيرة " ياقوت-معجم البلدان ـ دار صادر بيروت 1376 هـ 1957 م ـ ج 3 ص 142
4) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 375

الجواري البيض وكان الذوق العام يقتضي ان تكون المراة الحسناء "صفراء" او "حمراء" وان شائبة السواد تضر بالحسن وتنقص منه . وقديما قال الشاعر المصري في اهل اليمن عندما خالطهم الاحباش :

فافسد نسلكم بسواد لون واير مثل غرموك الحمار (1)

وكثيرة هي الاخبار والاشعار التي ترويها المصادر وخاصة كتاب الاغاني في تعيير السود بلونهم (2) وان كنا نرى ان سبب ذلك التعيير ليس مجرد اسوداد اللون ، وانما دلالته خاصة على رق اصحابه وعبوديتهم . ولذلك كان الاسود لا يعير غالبا بلونه اذا ما اظهر نجابة ونبوغا يسمو به الى درجة الاحرار. وما من شك ايضا ان هذه النظرة الى السود لم تكن مستقرة عند المسلمين بل شهدت تطورا عبر العصور وصارت اقرب الى الاعتبار الجمالي منها الى الاعتبار العنصري .

1) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج 1 ص201
2) الاصفهاني ـ كتاب الاغاني - ج 1 - ص 345 - وص -338

فهذه النظرة لم تكن شاملة لكل الرقيق الاسود المؤنث لاننا نجد اعترافا بالجمال والقسامة، لاصناف عديدة من الجواري السود ولم يكن اللون الاسود رمزا للقبح دائما بل اعتبر احيانا مساويا للبياض في الحسن ، ولعل في هذا الاعتراف ما يدل على ان موقف المسلمين من هذا الرقيق لم يكن موقفا عنصريا قائما على اساس اللون . فمنذ عهود سابقة لهذه الفترة اختلط العرب المسلمون بالسود وعاشروهم وصاهروهم ،وكانوا اقرب الاجناس اليهم اذ وجد من بين العرب من كانوا سود الالوان مثل بني سليم بن منصور (1) كما وجد في المبادىء الخلقية التي غرسها الدين ما اضعف الاعتبار العنصري وزاد تلك العشرة لحمة وتآلفا ، وقد كان موقف المسلمين من هذا الجنس في تطور مستمر بحكم اتساع دائرة الاختلاط مع السود . وبدات نظرة الاستهجان تضعف بمرور الزمن.كما زال الاعتقاد بان سواد لون السودان هو نتيجة لعنة نوح لا بيهم حام (2) وحلت محله تفسيرات اخرى منذ القرن

1) الجاحظ ــ فخر السودان على البيضان ... الرسائل ــ ج 1 ص 219
2) ابن خلدون ــ المقدمة ــ طبعة كازمار ــ ج 1 ص 148 ــ 155

الثالث للهجرة نجدها عند ابن رستة (1) وابن سينا (2) والادريسي (3) وهي تفسيرات جغرافية ومناخية قد بلغت اوجها عند ابن خلدون في المقدمة (4) ونحن لا ننفي ان يكون في آثار هذا العصر مواقف استقباح وتحقير لهذا الجنس بلونه الاسود مثلما يبدو ذلك في هجاء المتنبي لكافور. ولكننا نرى ان جل تلك المواقف لم تكن تعدو الصعيد النظري والحالات الشاذة كمناسبات التعبير والهجاء. وهي مناسبات قد يتراجع فيها اصحابها في احوالهم العادية ولم تكن منسجمة مع واقع معاملة المسلمين للسود على الصعيد الاجتماعي والواقعي عموما. فقد مدح المتنبي كافورا بالسواد ايضا عندما سنحت الفرصة. ودل موقفه ذلك على البون الموجود بين بعض التقاليد وسوابق الظن التي كانت في طريق الزوال وحقيقة الممارسة التاريخية للعلاقة بين الجنسين.

1) ابن رستة ـ الاعلاق النفيسة ـ طبعة دي غوية - De Goeje - المكتبة الجغرافية العربية ج 7 ص 102
2) ابن خلدون ـ المقدمة ـ طبعة كاترمار - Quatremère - ج 1 ص 148ـ155
3) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ طبعة روما 1970 مجلد 1 ص 18
4) ابن خلدون ـ المقدمة ـ طبعة كاترمار - Quatremère - ج 1 ص 148 ـ 159

ومن صور هذا الواقع التاريخي ان المشتري كان يقبل على اقتنـــاء الجارية السوداء للتسري بها فضلا عن اقتنائها للدخمـة ، وذلك لمـا اشتهرت بـه الجواري السود من جمال ، فقد كانت الزنجيات بالاندلس يتخذن في شكل السراري كالبيض. وكان الاقبال عليهن كثيرا وغالبـــا ما يستاثر الخواص بهن (1) وقد ذكر السقطي ان الاماء السود بتلـــك البلاد قد كن يتخذن للفراش والولد . وروى لنا تقليب احد الاثريـــاء من الخاصـة لجاريـة سوداء جميلـة وصفها بائعها بانهـا " هـــي الكاملـة القد الحالكة البديعة الصورة الحلوة الشكل . . . قد التحفت بكساء ابيض محشى بالاحمر وجود مثلها نادر " (2) وما كان يقع في الاندلس كان يحدث ايضا في سائر البلاد الاسلاميـة ، ففي الحجاز مثلا كـــان سكان المدينة مولعين بالجواري السود وكانوا يتخذونهن لانجاب الولـد حتى قال شاعرهم :

لا تشتمن امرءا في ان تكون لـه ... ام من الروم او سوداء عجماء
فانما امهات الناس اوعيـــــة ... مستودعات وللاحساب آبـاء
ورب واضحة ليست بمنجبـــــة ... وربما انجبت للفحل سوداء (3)

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 177 _ 179
2) السقطي _ آداب الحسبة ص 48_49
3) ابن قتيبـة _ عيون الاخبار-ج 10 ص 8 _ 9

وقد نقل لنا ابن قتيبة كثيرا من اخبار المدنيين واشعارهم الدالة على تنويههم بجمال الامة السوداء ويمكننا ان نكتفي منها بقول الشاعر :

اشبهك المسك واشبهته ... قائمة في لونه قاعدة
لا شك اذ لونكما واحد ... انكما من طينة واحدة

او قوله :

احب لحبه السودان حتى ... احب لحبها سود الكلاب (1)

ويمكن الرجوع الى الفصل الذي عقده المؤلف في عيون الاخبار حول الاماء للتاكد من منزلة الجواري السودانيات في نفوس المدنيين ، وليست غايتنا هنا ان نسترسل في ذكر الامثلة على اثبات هذه النزعة في سائر انحاء العالم الاسلامي اذاك ،لاننا لا نشك في انتشار هذه التقاليد بين مسلمي ذلك العصر وخاصة في المناطق المتاخمة لمواطن توريد الرقيق الاسود وذلك ما عناه الجاحظ بقوله (ان الشهوات عادات واكثرها تقليد . من ذلك ان اهل البصرة اشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والاغوار ، واليمن اشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات .واهل

1) المصدر نفسه ج 10 ص 43

الشام اشهى النساء عندهم الروميات وبنات الروميات .وكل قوم فانما يشتهون جلبهم وسبيهم الا الشاذ وليس على الشاذ قياس) (1)

وحسبنا ان نقدم نموذجا معبرا عن هذا الاتجاه نتخبه من ديوان احد شعراء القرن الرابع للهجرة وهو الشريف الرضي الذي اكثر من الغزل بالاماء السود يقول :

احبك يا لون الشباب فانني ... رايتكما في العين والقلب توأما
سواد يود البدر لو كان رقعة ... بجبهته او شق في وجهه فما
سكنت سواد القلب اذ كنت مثله ... فلم ادر من عز من القلب منكما
وما كان سهم العين لولا سواده ... ليبلغ حبات القلوب اذا رمى
اذا كنت تهوى الظبي العيفلا تلم ... جنوني عن الظبي الذي كله لمى (2)

وقال ايضا مدافعا عن حبه للسواد في لون محبوبه

لاموا ولو وجدوا وجدي لقد عذروا ... وذنب من لام ذنب غير مغتفر
لما تمادوا على عذلي اجبتهمو ... بعز معترف لا ذل معتذر
اهوى السواد براسي ثم امقته ... فكيف يختلف اللونان في نظري ؟

1) الجاحظ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج 2 ص 215
2) الشريف الرضي ـ الديوان ـ ج 4 ـ ص 314

ابي علقت سواد اللون بعد كمو	علاقة تشمت الظلماء بالقمر
لو لم يكن فوق لون البيض ما رقمت	صبغ الغرالى على الاجياد والعذر
والليل استر للخالي بلذتـــه	والصبح افضح للساري على غرر
وللفتى في ضلال الليل معـذرة	ومالـه في الضحى ان ظل من عذر
وكيف يذهب عن قلبي وعن بصري	من كان مثل سواد القلب والبصر (1)

ومما اشتهر به الشاعر ابن سكرة نظمه لعشرة الاف بيت في قيـــة سوداء تدعى " خمرة " وكثيرون هم الشعراء الذين تغنوا بجمال الجواري السود في هذا العصر وابدعوا في وصفه كما فعل ابي الرومي (2)

ومن الصفات التي كان الناس يعدونها من خصائص نساء السودان الحافزة على تسريهن واستيلاد هن ما اشتهرن بـه من شدة الشهـوة الجنسية وفرط الشبق والغلمة وما يترتب عنها من كثرة الانجاب (3) فالزنجية مثلا " تلد نحوا من خمسين بطنا في نحو من خمسين عاما في كل بطن اثنين فيكون ذلك اكثر من تسعين" (4) وقد فسروا هذه الظاهرة الجنسية وكثرة الاقبال على الجماع بحرارة الاقليم ومخالطتهن للرجال منذ الصغر وعدم استقرارهن في البيوت (5) فكثر بذلك تناسلهن وكن

1) المصدر نفسه - ج 1 - ص413 - 418
2) ابن الرومي ـ الديوان - ج-ع - ص 762
3) الادريسي نزهة المشتاق-الترجمة-طبعة دي غوية - De Goeje (M.G) ص110 ـ 116
محمد بن عمر التونسي-تشحيذ الاذهان ص 256
4) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ج 1 ص 213
5) محمد بن عمر التونسي ـ تشحيذ الاذهان ـ ص 256

من اخصب النساء ارحاما وان الواحدة منهن لتجرّ وراءها اذا انتقلت ما لا يقل عن اربعة او خمسة اطفال (1) وان كان الجاحظ يرى ان الزنجية لا تكاد تشط لغير الزنجي (2)

وكان الرأي السائد في هذا العصر ان الجمال متوفر في اجناس من السودانيات دون اخرى. وان تلك الاجناس متفاوتة في درجة للحسن. وقد تعرض ابن بطلان الى مقياس التفاضل فذكر ان درجة الجمال تقاس بدرجة السواد، فكلما اشتد سواد هذه الاجناس نقصت محاسنها (3) وقد احتلت النوبيات مرتبة مرموقة في هذا المجال (4) فنوه الادريسي بجمالهن واشاد بقسامة وجوههن ووصف صغر افواههن ورقة شفاههن وبياض اسنانهن. وراى انهن يتميزن بشعورهن المرسلة عن نساء الحبشة والبجة والزنج وغانة. كما اشار الى اقبال اهل مصر على الزواج منهن. واليك ما يقوله في هذا الصدد عن اهل النوبة: "... وفي نسائهم جمال فائق وهن مختتنات ولهن اعراق طيبة ليست من اعراق السودان في شيء

1) الادريسي ـ نزهة المشتاق ـ الترجمة. طبعة دي غوية - De Goeje ـ ص 110 ـ 116
2) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ج 1 ص 213
3) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 374 ـ 375
4) المصدر نفسه ص 376

وجميع بلاد ارض النوبة في نسائهم الجمال وكمال المحاسن،وشفاههم رقاق وافواههم صغار و مباسمهم بيض وشعورهم سبطة .وليس في جميع ارض السودان من المقازرة ولا من الغانيين ولا من الكانمبين ولا من البجاة ولا من الحبشة والزنج قبيل شعور نسائهم سبطة مرسلة الا من كان منهم من نساء النوبة،ولا احسن ايضا للجماع منهن وان الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلاثمائة دينار واقل من ذلك .ولهذه الخلال التي فيهن يرغب ملوك ارض مصر فيهن ويتنافسون في اثمانهن ويتخذونهن امهات اولاد لطيب متعتهن ونفاسة حسنهن ، وذكر بعض الرواة انه كان بالاندلس جارية من هؤلاء الجواري المقدم ذكرهن عند الوزير ابي الحسن المعروف بالمصحفي فما ابصرت عيناه قط باكمل منها قدا ولا اصبح خدا ولا احسن مبسما ولا املح اجفانا ولا اتم محاسن .وكان هذا الوزير المذكور مولعا بها بخيلا بمفارقتها ويذكر ان شراءها عليه مئتان وخمسون دينارا من الدنانير المرابطية وكانت هذه الجارية المذكورة مع تمام محاسنها وبديع جمالها اذا تكلمت اسحرت سامعها لعذوبة الفاظها وحلاوة منطقها لانها ربيت بمصر فكانت تامة الصفات " (1)

1) الادريسي-نزهة المشتاق ـ طبعة روما 1970 ـ المجلد 1 ص 30ـ31 وص 37

وقد اشتهر الرقيق المؤنث المجلوب من مملكة غانة بانه اجمل انواع السودان ايضا، وبانه يمتاز بخصال جسدية واخلاقية تفوق التمني من لطافة خصر ونقاء سواد وجمال عينين واستقامة انف وبياض اسنان وطيب رائحة في الافواه كما عرفوا بشعورهم السبطة وذكائهم النادر (1) وكانت " البجاويات " المجلوبات من المنطقة الواقعة بين الحبشة والنوبة " مذهبات الالوان حسنات الوجوه ملس الاجسام ناعمات البشر جواري متعة ان جلبت صغيرة وقد سلمت من ان يمكن بها فانهن يكبرن ويسمح بالموس باعلى فروجهن من اللحم كله حتى يبدو العظم فيصرن شهرة من الشهر" (2) .

ولا يعدم المشتري حظا من الجمال عند الزنجيات ايضا بالرغم مما عرفن به من صفات منفرة ففي بعضهن " جمال وكمال " (3) وقد ذاعت شهرة بعض الزنجيات في الافاق وصار جمالها وعلمها مضرب المثل . وذلك

1) الشريشي ـ الاستيفاء شرح مقامات الحريري ـ ص 99 ـ 100 ابو حامد الغرناطي تحفة الالباب ـ المجلة الاسيوية ـ A-J-1925 ـ عن كوك-C009 ـ J ـ منتخبات ـ ص 159-161
2) ابن بطلان ـ رسالة في شي الرقيق ـ ص 375 ـ 376
3) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج 1 ص 211

شان " اشراف السوداء " التي اشتهر امرها في القرن الرابع للهجرة (1) كما كانت الاماء المجلوبات من " بربرة " جميلات رغم سوادهن القاتم (2) وهكذا كان اهل هذا العصر يعترفون للرقيق الاسود الافريقي بنصيب من الجمال الجسدي وان كانوا يعتبرونه وقفا على جنس دون آخر من هذا الرقيق. وقد تواصلت هذه النظرة الى نساء السودان حتى في العصور المتاخرة. فهذا ابن عمر التونسي يرى ان قبائل السودان يكثر في بعضها جمال النساء ويكثر في بعضها الاخر قبحهن ويأتي على ذلك بامثلة عديدة (3).

ومن الجواري السودانيات من تميزن بصفات اخلاقية ترغب في اقتنائهن. ومن احسن الامثلة على هذا النوع الحبشيات فهن رغم جمالهن المحدود وبالرغم مما عرفن به من" لين الاجسام وضعفها" قد انفردن بحسن الخلق و " قوة النفوس " وكان فيهن " خيرية وعياسرة وائتمان " (4)

ويرى ابن بطلان ان نساء النوبة قد اتصفن بهذه الخصال ايضا

1) لومبار Lombard - الاسلام في عظمته الاولى - ص 194_204
2) ابن بطلان - رسالة في شري الرقيق - ص 374
3) ابن عمر التونسي - تشحيذ الاذهان - ص 264 _ 265
4) ابن بطلان - رسالة في شري الرقيق - ص 374

" فالغالب عليهن نعومة الاجسام ولينها وضعفها. يعتادهن السل ولا يصلحن لا للغناء ولا للرقص. دقاق لا يوافقهن غير البلاد التي تشـــان فيها " ، وكن مع ذلك على حظ كبير من الرضوخ والاذعان لسادا تهـن وعلى خلق قويم (1) لكن الغريب ان السقطي يقدم لنا صورة معاكسة عنهن ، فيرى انهن رديئات الخلق والسلوك قد فطرن على العهوديـــة والسرقة وقلة الامانة (2) وان الذكور من رقيق النوبة هم قد فطروا الذين اتسموا بهذه السمات واتخذوا لحفظ النفوس والاموال (3).

وكانت الاماء السود ماهرات في الغناء والرقص فضلا عن خصالهن السابقة الذكر. وكان فيهن مؤهلات فطرية لهذا الاختصاص ترجع الى طبائعهن وامزجتهن . فالزنجي كما يقول الجاحظ " لا تراه ابدا الا طيب النفس ضحوك السن حسن الظن " (4) واذا ما كانت عجمة الزنجيات تمنعهن من انشاء الشعر فانه يعدل بهن الى الزمر والرقص. فهن جوار " ليس في خلقهن

1) المصدر نفسه ـ ص 376
2) السقطي ـ اداب الحسبة ص 48
3) المصدر نفسه
4) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج 1 ص 196

الغم والرقص والايقاع فطرة لهن وطبع فيهن... ويقال : لو وقع الزنجي من السماء الى الارض ما وقع الا بالايقاع " (1) وقد ذهب بعض اهل هذا العصر وهو المسعودي الى تفسير هذه الظاهرة بنقص في عقول السود وبخفة في ادمغتهم وطيش في سلوكهم وقلة ذكائهم .وهو في هذا يتابع فكرة قديمة تنسب الى جالينوس.وقد رد ابن خلدون عليهما وبيّن خطأهما وذهب الى تفسير اخر عماده المناخ .فالزنجي في رايه يطرب بمجرد سماعه للموسيقى لنمو الروح الحيواني فيه ، تحت تاثير ارتفاع الحرارة وبنمو ذلك الروح تحدث النشوة والسرور ويقع الاندفاع الى الغناء والرقص (11)

وقد كان من نتائج هذا الاقبال على الغناء والرقص ان اشتهر العديد من الشبان والراقصات السود في هذا العصر .

وقد عرفت الاماء السود بجودة خدماتها وخاصة منها ما يتصل بخدمة المنزل والاسرة. فقد وصف لنا البكري بمدينة اودغست سودانيات جيدات الطبخ كانت الواحدة منهن تباع باكثر من مائة مثقال من الذهب.كما

1) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص 374 ــ 375
2) ابن خلدون ــ المقدمة ــ طبعة كاترمار - Quatremère - ج1 ص 155 ــ 157

يصف لنا انواع الطبوخ التي اشتهرن بصنعها ،يقول في ذلك : " وبها (اودغست) سودانيات طبلنات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة مثقال واكثر. تحسن عمل الاطعمة الطيبة من الجوزيداقات والقطائف واصناف الحلوات وغير ذلك .... " (1)

وتتخذ احسن الحواضن والدايات لارضاع الاطفال وتربيتهم من النوبيات او الزنجيات. وذلك لما عرفت به نساء النوبة من رافة وحنان صرن بهما " من احسن الربايات للاطفال " (2) وان كن قد فطرن على السرقة وقلة الامانة (3) اما الزنجيات فيتخذن مرضعات لجودة البانهن واكتمال خصائصها الغذائية ، يقول ابن بطلان في بيان هذه الخصال في النوبيات والزنجيات : " يختار لتربية الاطفال النوبة لانهن من جنس فيه رحمة وحنين على الولد. وليس يلقن الطفل لغة بشعة. ويختار للرضاع الظئر الصحيحة الجسم الحديثة السن المعتدلة المزاج ..... واعتبار اللبن ان تقطر على ظفرك منه فاذا صار كالعدسة لا غليظا مقببا ولا مائعا سيالا وكان طيبا في رائحته ابيض في لونه كان جيدا. وبعض الاطباء اختار الزنج

1) البكري ـ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ـ نشر دي سلان De Slane ـ الجزائر 1857 ـ ص 158 ـ 159
2) السقطي ـ اداب الحسبة ـ ص 50
3) المصدر نفسه ص 49

للرضاع لان حرارتهن البارزة نحو الاثداء منضجة للبن ،ولانهن لغلظه اكثر غذاءا ،وقال قوم : ان قياسه قياس لبن الاتن في اللطافة لغلظ اجسامهن " (1) وهكذا ارتفعت منزلة هذا الجنس من الاماء بسبب هذه الخصال ،وصارت لبعضهن اثمان باهضة حتى روى ان احدى النوبيات قد بيعت بثلاثمائة دينار (2)

وبصورة عامة كانت الاماء السود اقدر على القيام بشؤون الاسرة والخدمات المنزلية ،وخاصة منها تلك التي تستدعي الجهد والكد ، من غيرهن من الرقيق المؤنث. فكان الشراة يفضلون استخدام هذا النوع من الخدم في منازلهم لما عرف به من صبر على العمل وتحمل المشاق، خصوصا اذا كانت الاسرة المخدومة تعيش في البادية ، وقد اشار ابن بطلان الى هذه الخاصية في كلامه عن الزنجيات فقال (فهن جلد على الكد .فالزنجي اذا اشبع فصب العذاب عليه صبا فانه لا يتالم له) (3)

1) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ــ ص 387
2) ادم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 - ص 297
3) ابن بطلان ــ رسالة في شري الرقيق ص 374 ــ 375

ج- خصائص الرقيق الاسود الاسيوي

* الرقيق المذكر

ان الخاصية الغالبة على الرقيق الهندي المذكر هي امتيازه بدرجة من الثقافة والدراية بشؤون المعاملات المالية قليلا ما تتوفر في غيره من اصناف الرقيق ، وقد نقل ابن النديم ما ذكره الجاحظ في كتاب البيان والتبين من ان اغلب امم السودان ليست لها كتابة ولا ابجدية باستثناء الهنود الذين كانوا متقدمين على غيرهم في هذا المجال (1) فهم اكثر تحضرا من غيرهم من امم السودان وقد عرفوا بالمهارة في امور الصرف واشتهروا بالامانة والصدق. فكان الرقيق الهندي يقتنى من اجل هذه الخاصية لحفظ الاموال والنفوس (2)

وكان الرقيق الهندي من اجود الرقيق ثقافة ومهارة في التجارة والصرف، والمعرفة بشؤون الصيدلية والتمييز بين اصناف العقاقير ، يقول الجاحظ في وصفهم : " فاما الهندي صاحب الخربة (3) اذا صار الى البدو وهو طفل خرج افصح من ابي مهدية (4) ومن ابي مطرف الغساني

1) ابن النديم ـ الفهرست ـ طبعة فلوجل - FLügel ـ ص 19 - الجاحظ - فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ـ ج 1 ص 212
2) السقطي ـ اداب الحسبة ص49 ـ ابن بطلان - رسالة في شري الرقيق - ص 374
3) الخربة ـ ثقب في شحمة الاذن
4) شاعر جاهلي

ولهم طبيعة في الصرف لا ترى بالبصرة صيرفيا الا وصاحب كيسه سندي ، اشترى محمد بن السكن ابا روح فرجا السندي فكسب المال العظيم ، وكل صيدلاني عندنا الاوله غلام سندي فبلغوا ايضا في البربهار والمعرفة بالعقاقير وصحة المعاملة واجتلاب الحرفاء مبلغا حسنا " (1)

ويطنب الجاحظ في وصف خصال الرقيق السندي ورواجه بمدينة البصرة ويذكر لنا اقتداء الناس بمحمد بن السكن في اتخاذه لابي روح السندي مشرفا على شؤونه التجارية ، وذلك لما لاحظوه من ازدياد في ثروته بفضل حسن تدبير غلامه السندي ، يقول في ذلك : " ومن مفاخرهم (اي العبيد من السند) ان الصيارفة لا يولون اكيستهم وبيوت صروفهم الا السند واولاد السند لانهم وجدوهم انفذ في امور الصرف واحفظ وآمن . ولايكاد احد ان يجد صاحب كيس صيرفي ومفاتيحه ابن رومي ولا ابن خراساني . وقد بلغ من ثقله التجار بهم ان صيارفة البصرة وبنادرة (2) البربهارات لما راوا ما كسب فرج ابو روح السندي لمولاه (3)

1) الجاحظ . كتاب الحيوان - ج 3 ص 435

2) جمع بندار بضم الباء . وهم التجار الذين يخزنون البضائع للغلاء ، ومنها البربهار وهي الادوية المجلوبة من الهند في صورة حشيش وعقاقير وتطلق على توابل الهند ايضا (راجع الانساب للسمعاني ص71 وحواشي كتاب الحيوان ج 3 ص435 . وتاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية لمحمد اسماعيل الندوي ص 49 ـ 50)

3) هو محمد بن السكن كما جاء في كتاب الحيوان ج 3 ص 435

من المال والارضين اشترى كل امرئ منهم غلاما سنديا طمعا فيما كسب ابو روح لمولاه (1) ولئن كانت هذه الخصلة هي احس ما اشتهر به رقيق الهند في هذا العصر فان ذلك لا يعني انه لم يكن يجيد صناعة اخرى بل المعروف عن اهل العصر "انه لا يوجد في العبيد اطبخ من السندي. " (2)

الرقيق المؤنث

وكانت الجواري الهنديات او السنديات يعتبرون من انفس اصناف الجواري وابدعهن جمالا (3) فكان التجار يقبلون عليهن ويتخذونهن للمتعة وانجاب الولد ، ويصف لنا ابن بطلان بعض خصائص جمالهن فيلاحظ انهن ينفردن بدقة الخصر وطول الشعر واعتدال القوام وسمرة اللون ، ويقول ان الشيخوخة تسرع اليهن ، كما يشير هذا المؤلف الى الشبه الكبير بين الهنديات والسنديات لقرب المسافة بين بلديهما الاصليين . وهو يصف الى هذين الصنفين الجواري الزرنجيات المجلوبات من "زرنج" احدى مدن الهند الواقعة على مسيرة شهرين من مدينة "الملتان" ويصف هذا الصنف من الاماء بطيب رائحة عرقهن حتى ليخاله المرء مسكا وبانهن صالحات للمتعة (4) .

كما يتحدث عن الجواري "المنصوريات" المنسوبات الى "المنصورة" وهي مدينة الملتان الواقعة بما وراء الهند وكذلك الجواري "الفندهاريات"

---

1) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ج 1 ص 224ـ225
2) المصدر نفسه
3) ابن رستة ـ الاعلاق النفيسة ص 135
4) ابن بطلان ـ رسالة في شراء الرقيق ص 373ـ374

المنسوبات الى " قندهار " وهي مدينة صغيرة في ولاية بومباي. ويقول عنهن ان الشيب منهن تعود كالبكر (1)

وقد صار هذا الصنف من الجواري السود عنوانا للحسن والروعة حتى حيكت الاوصاف الاسطورية حوله . فقد روى ان احد ملوك الهند (2) قد اهدى الى الخليفة المامون العباسي جارية سندية طولها سبعة اذرع تسحب شعرها وراءها، حسنة البشرة، لها اربع ضفائر تعقد ضفيرتين على راسها تاجا وترسل ضفيرتين من خلفها فتبلغان الارض. ويبلغ طول كل شفر من اشفار عينيها الاصبع ويصل اذا اطرقت الى نصف خدها وكان بين شفتيها لمعان البرق من بياض اسنانها ولها نهدان وثماني عكن (3).

فنحن وان كنا لا نشك في وجود هذه الهدية وبلوغها الى المامون لما نعرفه من علاقات بين البلاط العباسي وبلاد الهند فاننا نعجب لهذا الوصف الذي لا يمكن ان يكون واقعيا وان كان ذلك على سبيل المبالغة، ويكفي ان نتامل فيه من زاوية الحقيقة والواقع لندرك ان مظهر هذه

1) المصدر نفسه ص 376 وما بعدها

2) يرى محمد حميد الله محقق كتاب " الذخائر والتحف" لابن الزبير ان ملك الهند هو " دهمي " حسب هذا المصدر ولكننا لا نعرف بعد هل هو ملك " بنغال " (شرقي باكستان) الذي اشار اليه سليمان التاجر والمسعودي وابن خرداذبه وغيرهم او هو ملك سومطرة (اندونيسيا) او ملك السند لانه اهدى جارية سندية ولان السند اقرب الى البصرة من بنغال وسومطرة ؟ (انظر الذخائر والتحف ــ هامش صفحة 25)

3) ابن الزبير ــ الذخائر والتحف ص 25

الجارية بيدو مخيفا وان كان صاحب الرواية يرمي الى ابراز جماله الرائع . وكل ما في الامر ان هذا الوصف قد بلغ حدود الاسطورة وصار من الاوصاف النموذجية التي تسند الى هذا الجنس من الجواري . ومما يدعم هذا الراي ان ابن الزبير يذكر نفس الاوصاف بالنسبة الى حادثة اخرى وقعت في عهد قديم ، وتتمثل في اهداء احد ملوك الهند لجارية سندية الى كسرى ، وهي جارية تطابق نعوتها حرفيا صفات الجارية المهداة الى المامون (1) .

وعلى كل فان لهذا المذهب الذي ذهبت اليه تلك الروايات ما يبرره اذ هو يدعم ما عرف في ذلك العصر من جمال اشتهرت به الهنديات والسنديات من النساء (2) .

وقد عرف الاماء الهنديات ايضا بحسن الصوت وجودة الغناء والطرب فكانت العيان تتخذ منهن وتنفق سوقها في مجالس الخاصة وقصور الملوك والوزراء وقد اشتهرت منهن الكثيرات مثل "خمار القند هارية" التي روى لها صاحب الاغاني ما انشدت من ابياتها ومنها :

اذا سرها امر وفيه مساءتي فصيب لها فيما تريد على نفسي

وما مر يوم ارتجي فيه راحة فاذكره الا بكيت على امس (3)

وينوه الجاحظ بجودة الصوت عند الغيان السنديات فيقول "قالوا : ومن مفاخر الزنج حسن الحلق وجودة الصوت وانك لتجد ذلك في الغيان اذا كن من بنات السند" (4)

---

1) المصدر نفسه ص 4
2) الادريسي - نزهة المشتاق - طبعة روما 1970 - مجلد 1 ص 56
3) محمد اسماعيل الندوي - تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ص 46/ 47
4) الجاحظ - فخر السودان على البيضان - الرسائل ج 1 ص 224

الفصل الثاني

طرق المعاملات

1). العـــــرض

كان باعـة الرقيـق يتوخون اسلوبا معينا في العرض لبضاعتهـم في الاسواق. ويتمثل هذا الاسلوب في ابراز البضاعـة للحرفـاء ابرازا يخـول لهم التامل فيها بوضوح. ولعل لهذا التصرف صلـة وثيقـة بتسميـة سوق الرقيـق بالمعرض في بعض الاقالـيم الاسلاميـة كالاندلس (1) ويختلف نمط العرض طبعا في السوق عنـه في المنازل الخاصـة حيث يباع افـراد من الرقيق لافراد من الشراة ، ففي السوق حيث يكثر الزبائن وتتعدد رؤوس الرقيق كان الباعـة يقيمون عبيدهم واماءهم على مصاطب مرتفعـة او منصات لتسهيل رؤيتهم. ومن هذا القبيل ما حدث عند بيع الجارية " عنان " جاريـة الناطفي بباب الكرخ اذ اقيمت على سرير حتى تبرز للناس بمـا فيـه الكفايـة (2) لكن عرض الرقيق في منزل خاص لم يكن يحوج اصحابـه الى هذا النمط من التصرف لانـه يقدم للمشتري في مجلس يحضره قليـل من الناس وتعرض خلالـه رؤوس معدودة.

وكان الدخاسون في شتى الظروف يحرصون على عرض بضائعهـم في احسن الصور حتى تروق لمقتنيها. وهم لا يشذون في ذلك عن سـائر التجار، فاذا عرضوا الجواري المرتفعات اي اللائي يقتنين لجمالهن وللتمتع

---

1) السقطي ــ آداب الحسبة ــ ص 48
2) الاصفهاني ــ الاغاني ج 22 ص 529 ــ 530

بهن ، اجتهدوا في اظهار زينتهن وحملوهن على التبرج والبسوهن من الثياب ما يزيد في اناقتهن ويتلائم مع محاسنهن . وقد وصلوا في ذلك الى غاية الاتقان وكان لهم في عصرهم من فنون الزينة وادواتها ومساحيقها وضروب التزيق المبتكرة ، كاشكال اللباس وانماط حلاقة الشعور وتسريحها وصبغها ، ما ساعدهم على بلوغ هذه الغاية (1).

فمن عادتهم انهم كانوا يطلون اجساد الجواري بالورس لان العرب كانوا يميلون الى هذا اللون اي لون البشرة الضارب الى الصفرة وقد ورد وصف ذلك في الشعر العربي منذ القديم يقول قيس بن الخطيم

" صفراء اعجلها الشباب لذاتها موسومة بالحسن غير قطوب" (2)

وقد ذكر الجاحظ هذا الطلاء في المحاسن والاضداد ، فروى ان الاصمعي كان يحادث الرشيد يوما فجرى ذكر احد اصحاب الرشيد وقد كان ناحل البدن كاسف البال فسأله الاصمعي عن سبب تغيره فقال : " قصدت بعض القرابة فألفيت عندهم جارية قد طلت بالورس بدنها . . . " (3)

---

1) زكية عمر العلي - التزيق ص87 - 88 - 89 - 90
2) قيس بن الخطيم - الديوان ص 17
3) زكية عمر العلي - التزيق - ص 89

و من عاداتهم ايضا قص الطرر والاصداغ باشكال جذابة تتلاءم مع اذواق الناس اذاك وكانوا يصنعون للجارية شوارب خضرا يمدونها فوق شفتيها. وقد ورد وصف لها على السنة بعض الشعراء مثل قول ابي نواس

" اصداغهن معقربات والشوارب من عبير " (1)

والسبب في اتخاذ هذه الزينة مادرج عليه الجواري من تشبه بالغلمان حتى سمين بالغلاميات (2) ، وكان هنالك نوع آخر من الزينة يستعمله الدخاسون في عرضهم للجواري وهو الكتابة على الوجوه والجباه والخدود وراحات الايدي والاكف والاقدام. وتشتمل تلك الكتابة عادة على ابيات من الغزل بالاضافة الى عبارات رقيقة اخرى واسماء لبعض الاشخاص والهدف من كل ذلك طبعا هو استمالة القلوب ولفت الانظار. وقد نقشت تلك الكتابة بمواد مختلفة منها المسك والبسك والعنبر والغالية والحناء ، وقد اورد صاحب كتاب الموشى امثلة عديدة من هذه العبارات والاشعار منها ما كتبته جارية عباس بن الديم على راحتيها بالمسك والعنبر فقد كتبت على يمناها

" قالوا تمن وقل فقلت لهم يا ليتها حظي من الدنيا "

وكتب على يسراها

" لا ابتغي سقيا السحاب لها في عبرتي خلف من السقيا " (3)

---

1) ابو نواس ـ الديوان ص 83
2) آدم متز ـ A. MEZ ـ الحضارة الاسلامية ج 2 ص 134
3) زكية عمر العلي ـ التزيق ص 87ـ98

ومن العبارات التي كانوا يخطونها على الجباه : " العشق والكتمان ضدان لا يجتمعان " او " مما عمل في طران الله فتنة لعباد الله " ، وقد روى الوشاء ما رآه على جبين جاريـة لنخاس عندما اخرجها للعرض فقـال : (قرأت على جبين جارية لنخاس بغالية وقد اخرجها للعرض :

وشادن احسن خلق الله ... في كفـه سيف رسول الله
قد كتب الحسن على وجهها ... سطرين بالعنبر باسم الله
على يدي رضوان منسوجـة ... صنعة حسن في طراز الله
انا غريق في بحار الهـوى ... شبه قتيل في سبيل اللـه

واخبرني من رأى على جبين جارية نخاس مكتوبا في سطرين

اذا حجبت لم يكفك البدر فقدها ... وتكفيك فقد البدر ان حجب البدر
وحسبك من خمر تفوتك ريقهـا ... ووالله ما من ريقها حسبك الخمر) (9)

وكثيرة هي الروايات التي اوردها صاحب الموشى في وصف ما طرزت به اثواب الجواري من اشعار. وقد خصص البابين الثالث والعشرين والرابع والعشرين من كتابه لوصف زينة التـكك والنعال والخفاف ، والباب الخامس والعشرين لوصـف الخواتيم والفصوص التي تتحلى بها الجاريـة ، والباب السادس والعشرين للعطور والطيب ودورها في زينـة هذا النوع من الرقيق. كما وصف لنا تدقيق الحواجب وترقيقها ومدها واحداث البلج بالافراج بين الحاجبين لانه من شروط الجمال وكذلك ازالة القرن وهو اتصال الحاجبين والزبب وهو كثرة الشعر في الحاجبين

---

1) الوشاء - الموشى - ص 239 ـ 241

والمعط وهو تساقط الشعر من بعض اجزاء الحاجبين ، ولا تقل العناية بالاسنان عن العناية بالحواجب فهي تجلّى بالاراك الذي تتخذ منه الجواري السواك (1) ، ونحن لا نشك في ان النخاسين قد استعملوا اغلب فنون التجميل المتعارفة في زمانهم حتى يعرضوا الجارية في شكل جذاب.

وقد وصفت لنا بعض النصوص طرقا من تفننهم في اختيار الاصباغ والالوان واحداث التناسب بينها في ذوق بديع. فمن وصاياهم لجواريهم (ان يصرفن العناية كلها الى النظافة والطيب والتبرج للمشتري ..... ومن ذلك ما يأخذونهن به في زينتهن شيئان وهما ، ما يلزمونهن من تحمير خدودهن بالشاستج وغسل سواريهن بالحصر وخضاب حواجبهن بالرامك واطرافهن ، ان كانت الجارية بيضاء بالخضاب الاحمر وان كانت سوداء بالذهبي والاحمر ، وان كانت صفراء بالاسود) (2) ويعتنون ايضا بالملاءمة بين الوان البشرة والوان الثياب . فاذا كانت الجارية بيضاء البسوها الاكسية الحمراء او السود او الموردة ، وان كانت سوداء القوا عليها الاردية الصفراء او البيضاء المحشاة بالاحمر (3) وكانوا يهدفون بكل ذلك

---

1) كمال مصطفى ــ مقدمة الموشى - ص.ك.ل ــ م
2) ابن بطلان ــ الرسالة ــ ص 383ــ384
3) السقطي - آداب الحسبة ص 48ــ49ــ50ــ51

الى استهواء القلوب واستدرار الجيوب ويستعملون اغراء الجارية لغايات تجاريـة حتى تجاوزوا بهذا الصنيع الحدود الشرعيـة،اذ نراهم يعرضون الاماء في الاسواق العامـة في "غلائل" اي ثياب شفافـة يرى كامل جسد الجاريـة من خلالها (1) ولا يبالون بزجر المحتسبين لهم على هذه العادة وبما ذكروهم بـه من احكام في هذا الصدد كقول بعضهم (من اراد شراء جارية جازله ان ينظر الى وجهها وكفيها) (2) فـهمهم الوحيد هو عقـد اكثر ما يمكن من صفقات واحراز اوفر الارباح. فلا غرو بعد هذا اذ روي عنهم انهم كانوا يوصون جواريهم باستمالـة الحرفاء واظهار التمنع عليهـم تارة والتقرب اليهم وملاطفتهم طورا لاثارة احاسيسهم حتى يسلس قيادهم فيدعوهم داعي الشهوة الى اقتناء من راق لهم منهن. يقول السقطي في ذلك: (ومن وصاياهم لهن ان يتبرجن ويختفين للمشتري تارة وتارة ويسلبن المبتاع والنافرين بطبائعهم عن النساء، ويتمشين على الثياب ويتكسرن لهم ويتمنعن عليهم فان في ذلك هلاكا للقلوب. ويلبسون الجواري البيض الالوان من الثياب الشفافـة والموردة ويلبسون السود الغلائل الحمر والصفر) (3) ويصف ابن بطلان هذا السلوك بنفس العبارات حين يقول (ومن وصاياهم ان يدارين المشائخ والنافري الطباع ويستميلونهم ويتجنون على الشباب ويتمنعون عليهم ليتمكنوا من قلوبهم) (4)

---

1) المصدر نفسـه -
2) ابن الاخوة- معالم القربـة- 152 ــ 153
3) السقطي- اداب الحسبة- ص 50ــ51
4) ابن بطلان ــ الرسالة ــ 383ــ384

ولسنا في حاجة الى التذكير بما تؤول اليه اسواق الرقيق بموجب هذا التصرف من تحد للاخلاق العامة و مجاهرة بالمجون والخلاعة ، وكأن التجار لم يكتفوا بهذا الاعتداء على القيم حتى راحوا يستعملون كل انواع الحيل والخديعة للتدليس على المشترين باخفاء عيوب بضاعتهم كي يتمكنوا من بيعها بالاثمان المرتفعة.

2) الغش والتدليـــس

لم يسلم تجار الرقيـق كغيرهم من التجار من آفـة الغش والتدليس في البضاعـة التي يعرضونها في الاسواق. وقد صارت معاملاتهم وبضائعهم تلك مناطا لاهتمام المحتسبين واستهدفت لمراقبتهم، كما خصصوا لهـا في كتبهم فصولا تدل على حيل الدخاسين وخدعهم وتشهد على استفحال الغرر في بيوعاتهم. وقد كانت هذه الظاهرة من اهم الدوافع التي حملت الطبيب النصراني ابن بطلان على وضع " رسالة جامعة لفنون نافعـة في شري الرقيق وتقليب العبيد " (1) نبـه فيها الغافلين عن مواطـن الدلس فيما يقتنونـه من رقيق، وافرد بابا منها هو الباب الخامس للكشف عن حيل الدخاسين ولفت انتباه الشراة الى الوسائل الكفيلـة بالتحرز من مغالطات الباعـة ، وقريب من ذلك ايضا ما ادرجـه السقطي في رسالته " آداب الحسبة " (2) وابن الاخوة في " معالم القربة في احكام الحسبة "(3) والشيزري في " نهاية الرتبـة في طلب الحسبة " (4) وغيرهم ممن مارسـوا الاحتساب والفوا فيـه .

---

1) ابن بطلان ـ رسالة جامعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد - تحقيق عبد السلام هارون نوادر المخطوطات - المجموعة عدد 4 الطبعة الاولى ـ القاهرة 1954

2) السقطي ـ آداب الحسبة - نشره - بروفنسال وكولن - E.L.Provençal - G S Colin - ط - باريس 1931

3) ابن الاخوة - معالم القربة - نشره - روبن - Reuben-Levy - مطبعة دار الفنون - كمبردج - 1937

4) الشيزري ـ نهاية الرتبـة في طلب الحسبـة - ط - دار الثقافـة - بيروت - د.ت

وان المطالع لهذه الاثار ليشعر بان ظاهرة الغش قد كانت اكثر انتشارا في مجال بيع الرقيق منها في المجالات التجارية الاخرى لطبيعة البضاعة المعروضة ، فقد كانت السوق قاسية وكان البائع يحاول التخلص مما بيده بكل وسيلة (1) وكانت غاية اهل السوق اغتنام الفرص للحصول على اوفر الارباح ،ولذلك نراهم يسعون الى تحسين البضاعة وتزيينها في عين المشتري حتى قال احدهم " ربع درهم حداء يزيد في ثمن الجارية مائة درهم فضة " (2) كما ان البضاعة كانت خلابة خصوصا اذا تعلق الامر بالجواري القادرات على الاغراء ،وهنا تتدخل الشهوة لتوقع المشتري في الفخ ، وكان المتحيلون يجدون مرتعا لحيلهم في الاسواق الموسمية خاصة .ففي المواسم يكثر اقبال الشراة وتكثر البضائع المعروضة ويختلط الحابل بالنابل ويمسي الجو ملائما للدلالين والسماسرة كي يطلقوا العنان لمواهبهم وقرائحهم ويبذلوا ما في طاقتهم لترويج البضاعة وتنفيقها (3) ولذلك ينصح المحتسبون باجتناب شراء الرقيق في المواسم (4) .

---

1) راجع - عبد السلام هارون -تحقيق رسالة ابن بطلان ص 342-349
2) ابن بطلان - الرسالة ص 356
3) المصدر نفسه
4) المصدر نفسه

واذا ما اتيح للحريف ان يرد البضاعة بالعيب في الاسواق اليومية او في الصفقات المباشرة بين الافراد من بائع ومشتروموحق من الحقوق التجارية التي تخولها له الاحكام الفقهية فاننا نستبعد ان يكون قادرا على ممارسة هذا الحق فيشرائها من السوق الموسمية. ذلك ان اغلب الروايات التي تصف لنا صفقات من هذا النوع تدل على ان اصحابها قد وقعوا ضحية التحيل والغش ولم يمكنهم ارجاع ما بايديهم. فبانقضاء تلك السوق تنتهي الصفقات ويذهب البائع والمشتري كل في سبيل حاله كأنما كانت المعاملات في هذه المناسبة قائمة على الصيغة القانونية الفقهية المعروفة بالبراءة من العيب او ما يسمى ببيع البراءة. وقد اكد لنا القزويني في عهد متاخر ان هذه السوق يقصدها الناس من الاصقاع البعيدة وليس لهم الحق في رد ما اشتروه من رقيق (1) وقد يكون الغش احيانا لاسباب غير تجارية كدس غلام او جارية في السوق للتجسس على من يشتريها من الوجهاء ورجال الحكم وقد تسبب هذا الدس حسب قول ابن بطلان في هلاك كثير من الملوك والرؤساء (2).

---

1) القزويني - آثار البلاد واخبار العباد - طبعة بيروت 1960
2) ابن بطلان ــ الرسالة ــ ص 357

أ- الغش في الالوان

يتناول الغش تغيير لون البشرة فتقلب درية اللون بيضاء باستعمال غبرة تصنع من باقلاء نقع في ماء البطيخ ستة ايام ثم في لبن حليب سبعة ايام ويحرك اللبن في كل يوم ويطلى به وجه الجارية فتصبح بيضاء. ويتغير لون السمراء فيصير ذهبيا وذلك بغمسها في ماء الكرويا لمدة اربع ساعات ، اما السودان فتدهن وجوههم واطرافهم بدهن البنفسج والطيب فتحسن بذلك الطلاء. ويسعى الخاسون الى تحمير خدود الجارية بغاسول يتركب من خمسة اجزاء من دقيق الباقلاء والكرسنة ومن عروق الزعفران وبورق وحناء من كل واحد ربع جزء. ويعمدون ايضا الى تسويد الشعر بدهن الآس ودهن قشر الجوز الرطب ودهن الشقائق ويغسل من ذلك بطبيخ الاملج. كما يجعدون الشعور بالسدر والآس والزادرخت . ويسعون كذلك الى تحسين مظهر الجارية بتنقية بدنها من الشعر بالنورة ثم ببيض النمل او بدهن قد طبخ فيه ضفادع خضراء اوعظاية او مرارة الارنب ثم يغسل بالشب والبورق والعفص ، اما الدمش والوشم فيخشونه بغاسول مصنوع من عروق القصب واللوز المر والكرسنة والباقلاء وحب البطيخ معجونا بالعسل

اما الاسنان فيجلونها بالسواك والاشنان والسكر وسحيق الصيني او الفحم او الملح المدقوق ويصيرون العين الزرقاء كحلاء بان يقطر فيها ماء قشر الرمان الحلو (1).

والملاحظ ان هذه العمليات لا يمكن ان نعتبرها جميعا من باب الغش والتدليس الا اذا نظرنا اليها بمنظار فقهي ديني متشدد اذ فيها مايمكن ان نلتمس فيه العذر لهؤلاء التجار اذا راعينا ظروف مهنتهم وذلك لانهم كغيرهم من التجار يسعون الى اظهار بضاعتهم في اليسوق مظاهرها عند العرض حتى تنفق سوقها. فلا نرى مثلا ضيرا او غشا في جلاء الاسنان وتنقية البدن من الشعر اذ هي وسائل لا غش فيها وانما يقصد من ورائها الترغيب في اقتناء البضاعة وهي عادة تجارية طبيعية في كل زمان ومكان . لكن هؤلاء النخاسين كثيرا ما يتجاوزون هذه الحدود المعقولة الى ضرب من التزييف كجعلهم الشعور الشقر حالكة السواد والسبطة جعدة واطالة الشعر القصير بشعر من جلسه (2).

---

1) السقطي ـ آداب الحسبة - ص 50 ـ 51

2) ابن بطلان ـ الرسالة - ص 379 ـ 382

ب-تغيير الروائح الكريهة

ويعمد الدخاسون الى تغيير الروائح الكريهة في رقيقهم بوسيلتين: الاولى هي حرصهم على نظافة الرقيق ليكون مقبولا عند العرض وهي وسيلة لا نعتبرها من الغش وانما هي اتقان للمهنة واجادة للعرض فيغسلون الابدان مثلا خوف القمل بالبورق وماء السلق ودردي الشراب والصابون ، وهي وسائل كان معمولا بها في اسواق الاندلس.ومنها ازالتهم لروائح الانف الكريهة بسعوط من دهن المرزنجوش والبنفسج والنيلوفر والياسمين، وتطييبهم للجسد بالصندل والورد والمرتك المربّى بماء الورد وبالبخورات،والثياب بالذرور المطيبة (1) والثانية هي تجاوزهم هذا الحد الطبيعي من اعداد الجارية اعدادا لائقا للبيع الى محاولة الغش والتدليس باخفاء بعض الروائح الكريهة الملازمة لافراد من الرقيق مثل الصنان الذي يخفونه (بان يأخذوا مردَا سنجا مبيضا ويعجن بماء الورد، ويتخذ اقراصا وتدفن في الورد حتى تجف وترفع الى وقت الاستعمال. ويستعملون لذلك ايضا التوتية المغسولة مدقوقة مدخولة بماء وملح ثم بماء ورد وكافور وتتخذ ذرورا وتستعمل. ويصنعون لذلك ايضا اقراصا من ورد احمر ومسك وسنبل وسعدى وشب وتستعمل عند الحاجة بماء الورد)(2) .

---

1) السقطي ــ آداب الحسبة ص 50ــ51 ابن بطلان -الرسالة ص 379ــ382

2) المصدر نفسه .

ومن هذا القبيل اخفاؤهم للبخر في فم الجاريـة بمضغ " العود الرطب والكزبرة والفول وقشر الاترج " وتقطع الروائح من الفم كذلك باقراص تصنع من مواد مختلفـة هذا تفصيلها (بسباسة ــ منّ ــ سعدى جناح ــ ماء ــ ورد ــ قرنفل ــ من كل واحد جزء وصمغ عربي جزءان يحلّ الصمغ بماء الورد وتلقى الاجزاء المذكورة فيه مسحوقـة مدخولة ويتخـذ حبوبا كحب السعال وتجفف وتمسك في الفم واحدة بعد واحدة وقد نظم ذلك لكي لا يضيع :

منّ وبسباسـة وسعـــدى ... الى جناح ومـــاء ورد
يلفهـا الصمغ ان تـــلاه ... قرنفـل الهند نظم عقـد
اجزاؤها كلهـا ســـواء ... والصمغ جزءان لا تعـــدّ
فيها لذي خفـة امـــان ... اكرام نفس وردّ صـــدّ) (1)

ج-ستر العيوب والعاهـات :

ومن قبيل تضليل المشتري والتمويـه عليه حرص الدخاسين علـى اخفاء عيوب الرقيق وعاهاتـه بشكل مؤقت ريثما يتم بيعه حتى اذا بيع اكتشف المشتري انـه خدع واتلف مالـه ، فاذا كان بالرقيق برص مثلا فانهم (يخرزون في مواضع البرص بالابرة ويخضبون عليه القلقديس والعفص والزنجار من كل واحد جزءا معجونا بماء ولبن التين اربعة ايام فـــي

---

1) المصدر نفســه .

الشمس فيبقى مصموغا اربعين يوما. ويغسلون ذلك الخضاب بخل واشنان مغلى او بماء القلي)(1). ويصنعون قريبا من ذلك بالكلف الذي يصيب البدن اذ يزيلونه (بمعجون الشونيز واصل قثاء الحمار وورق الخبازى وبزر الجرجير واصل الكرم والعسل) (2) .

ويخفون ما يصيب سواد العين من بياض بان يقطر فيها لبن اتان حار (3) ويزيلون الشعث من اصول الاظفار بالخل والعسل والمرتق وبدهن الورد واللوز المر (4) وينعّمون الاطراف الخشنة بالدهن والشمع واللوز ولخلخة بماء الورد ودهن البنفسج (5) واذا كان الرقيق يشكو هزالا سمنوا اعضاءه الهزيلة بالدلك بالمناديل الخشنة والادهان الحارة(6) وقد يصل الامر احيانا الى استعمال وسائل لا تخلو من تعذيب لستر بعض علامات المظاهر الجلدية كالبرص مثلا. وذلك ان النخاسين يعمدون الى كي الرقيق المريض لاخفاء اثار العاهة او يتوخون طريقة اخرى هي الوشم (7).

---

1) السقطي ــ آداب الحسبة - ص 50ــ51
2) المصدر نفسه ــ ابن بطلان - الرسالة ص 379 ــ 382
3) المصدر نفسه
4) المصدر نفسه
5) المصدر نفسه
6) المصدر نفسه
7) السقطي ــ آداب الحسبة ص 52

د- الخلط بين الاصناف :

ولم يقتصر الدخاسون في غشهم وتدليسهم على تغيير الالوان والروائح وستر العيوب والعاهات بل تجاوزا هذا الحد الى تزييف نوع الرقيق وجعل الرديء منه في مظهر الجيد. فكانوا يبيعون الشيب على انها بكر وذلك بان يستعملوا (في الثيّب قلوب الرمان الحامض والعفص معجونين بمرارة البقر ويحتملنه فيصرن كالبكر) (1) كما كانوا يبيعون الحامل مع اخفاء حملها والايهام بحيض مصطنع ودم كاذب يصنعونه (من الصمغ ودم الاخوين ان لم يمكن اخذ دم الحيوان)(2) ويوصون الجارية بان تستعمل الشداد لتخفي الحمل وتوهم بالحيض (3) وسبب هذا الغش هو الاستزادة في الربح لان الحمل عيب في الجارية، وبراءة رحمها تزيد في قيمتها ، ومن هذا القبيل بيع الجواري في شكل غلمان والغلمان في شكل جواري (4)

هـ- الخلط بين الاحرار والارقاء :

ومن غرائب الامور ان الدخاسين قد تجاوزوا في غشهم وتدليسهم تغيير الالوان والاشكال والروائح والخلط بين اصناف الرقيق، الى نوع آخر من الغش هو بيع الاحرار في صورة رقيق. فكان لهم نسوة حرائر يجيدون

---

1) السقطي ـ آداب الحسبة-ص ابن بطلان الرسالة ص 379ـ 382
2) المصدر نفسه
3) المصدر نفسه ص 383
4) المصدر نفسه ص 355 ـ 356 ـ القزويني-آثار البلاد واخبار العباد-ص 531

اللغات الاعجمية والتشبه باخلاق الرقيق المجلوب من بلاد الروم فيبيعونهن على انهن جوار روميات ويغلون في اثمانهن، ثم يقتسمون تلك الاثمان معهن لانهن شريكات لهم في هذا التحيل. ويكون البيع عادة لغرباء عن البلد الذي تتم فيه الصفقة. فاذا نقل المشتري الجارية الى بلاده طلبت منه العتق ثم الزواج، فان لم يتم لها ذلك اعلنت انها حرة واحتكمت في ذلك الى حاكم البلد، وراح المشتري باحثا عن البائع ليسترجع ماله، فيدعي الدخاس انه غير عارف بمكانه. واليك هذا المثال الذي يرويه السقطي حول هذا الضرب من الغش يقول: (ومن خدعهم المشهورة وحيلهم المذكورة ان لهم نساء شاطرات ذوات حسن فائق وجمال رائق يحكمن اللسان الاعجمي والزي الرومي، فاذا وقع لهم من غير بلدهم من يطلب جارية حسناء قريبة العهد بالجلب من بلاد الروم يحده بقرب وجودها ويطمعه بتاتي قصده فيها ويسوفه في امرها ويشوقه اليها، حتى يحضرها له على انها نضو سفر وحديثة عهد بالجلب. وقد اعد لنفسه مشاركا في حالها يزعم انه مالك رقها و مستوجب حقها اشتراها بالثغر الاعلى واغلى في ثمنها اغتباطا بحدث جلبها وقصد الاغراب بها. فاذا اكملا بيعها اقتسما معها ثمنها وخرج مشتريها بها الى موضع استيطانه. فاذا رات منه ما ترضاه اغتبطت بمكانها منه

وطلب منه ان يعتقها ويتزوجها. وان كان غير ذلك صرحت بالحرية واظهرت عند حاكم البلد التي تكون فيه (كذا) من عقود مسترعا تهـا وغيرها ما يوجب حريتها. ويصرف المذكور بعقد اشترائه اياها وما حكم عليه به في حقها ليرجع بثمنها على بائعها. فينكر النخاس ان يكون يعرف لبائعها مستقرا ويقول " كان معلوم العين كثير التجارة والجلب للخدم الروميات وغيرهن فخي فيخفق سعي المذكور ويخسر ماله) (1)

وقد روى لنا السقطي حادثة جرت لرجل من اهل البيرة بالاندلس في شرائه لجارية بمدينة قرطبة. ووصف لنا ما تعرض له المشتري من غش، اذ بيعت له انها اعجمية لا عهد لها بمخالطة الناس فاذا به يكتشف انها متقنة للسان العربي وانها من ربات الفجور. وهذا نص الرواية (اتفق لرجل من اهل مدينة البيرة حلف على ترك التزويج بالاندلس يمينا لم يجد لها مخرجا. فتوجه الى قرطبة وهي اذاك حضرة الاندلس دار الملك وقاعدة العلم، واشترى بها جارية لم يكن يرى الراؤون مثلها بهجة وجمالا، واركبها بغلة له و أوطأ ها ثوب ديباج والبسها ثوب حرير طرازيّا

---

1) السقطي ـ آداب الحسبة ص 51

كانت نساء ملوك الاعاجم اذاك تلبسه . وهي لا تُفهّم عجمتها الا بواسطة ، تُعرَف من ترجمتها ارادتُها . وسار بها وغلامه يزجي بغلتها لا تعلو نشزا ولا وعرا ولا تشتط واديا ولا وهدا الا ويزداد فرحا بها وسرورا بحالها ، لما يرى من تعجبها مما تراه بالطريق من رفع وخفض وطول وعرض ، حتى وصل بلده ، واحتاط لدخولها بالنهار ، وانزلها جنة له خارج المدينة الى ان انسدل جنح الظلام . فادخلها المدينة وقد نهض بفرسه من امامها يقصد داره المعدة لنزولها ومقامها . وكان بربضها رجل قفاص كانت له خلطة مشهورة وفتكات مذكورة الى ان تاب وكبر سنه ، وصار مفردا يسكن حانوته . ولانفراده في مسكنه وضيعة حاله ووطنه ، كان كثيرا ما يسهر لضوء السراج داخل الحانوت او القمر خارجه . ولحين ما راته حملتها عادتها معه على الطنزية والتوقيح معه الى ان قالت له " الشيخ السوء يعيش ! " فرفع راسه اليها وقال لها : " فلانة أو قد جيت ! " وسمع الغلام ذلك فعجب من فصاحة لسانها وبرع كلامها . ولما وصلوا الى الدار اخبر مولاه بما اتفق ، فسقط في يده ، واشفق من تلاف ماله وخسارة صفقته . ووجه من اهل مودته الى القفاص يساله فقال : " وهي الا فلانة الشاطرة خديدة الخُلطيّين وصاحبة الفُتّاك المنقطعين ! " ولما تقرر ذلك لديه

عظم الامر عليه ، وجعل يرتاد كيف التخلص منها والزوال عنها . وعند ما شعرت بما ثبت لديه من امرها ، وتقرر عنده من عادتها وفجورها ، قالت له : " لا عليك مما تهي اليك إ ان كنت تخاف على مالك احملني الى المرية تاخذ الزائد على ماوزنت إ " وكانت المرية اذاك محط السفن ودار التجار والمسافرين ، فاعتمد مقالتها ، ولزمت زيها وحالها ، حتى ورد بها المرية وباعها بازيد مما دفعه ثمنا فيها . ولولا براعة رأيها وكمال حسنها في حالتي مسراها ومثواها ، كان المسكين قد خسر ، واعتاض بالايمن من الخطر) (1).

وما كان يفعل مع الجواري في هذا الباب كان يستعمل في بيع الغلمان ايضا . فيتفقون معهم على اقتسام اثمانهم ثم يفرون من مشتريهم الى بلد آخر حيث يباعون من جديد ، وهكذا دواليك . وكثيرا ما يتفق الدخاسون فيما بينهم على احكام طرق الغش ، ويتواطؤون عليها لتوفير الارباح ومن امثلة ذلك (ان يشتري احدهم من صاحبه بربح يقتسمونه بينهم ، ثم يبيعون ذلك المشترى مرابحة من اجلي بربح زائد يقتسمونه ايضا بينهم ويزينون ذلك لمشتريه ، ويصفون بائعه بالاضطرار الى بيعه ، وانه لولا ذلك لم يكن امر يلحقه اليه لاغتباط مالكه به ، وذلك كله غش ودلس) (2)

---

1) المصدر نفسه ص 51ـ52

2) المصدر نفسه

و- تزييف الخلق والسلوك :

ويتناول الغش كذلك اخلاق الرقيق وسلوكه . فيوصي الدخاس الجارية بتوخي سلوك خاص عند العرض مع الشيوخ ونافري الطباع من الناس. وباتخاذ ضرب آخر من التصرف مع الشباب المقبلين على النساء وذلك بان يتلطفن مع النافرين لتاليف قلوبهم ، وان يتمنعن عن الراغبين للزيادة في رغبتهم وشوقهم، وان يظهرن من الدلال ما تبرز معه فتنتهن واغراؤهن يقول ابن بطلان في ذلك (من وصاياهم لهن ان يصرفن العناية كلها الى النظافة والطيب والتبرج للمشتري تارة ،والاختفاء اخرى. فان هذا باب من التحبب مالك القلوب. ومن وصاياهم لهن ان يظهرن اجمل ما فيهن ويخفين اقبح ما فيهن . ومن وصاياهم ان يدارين المشايخ والنافري الطباع ويستميلونهم ويتجنون على الشباب ويتمنعون عليهم (كذا) ليتمكنوا (كذا) من قلوبهم) (1).

وهكذا يساهم الرقيق نفسه في التدليس والخداع ،وتشترك البضاعة مع بائعها في التمويه على المشتري ،لان هذه البضاعة آدمية وبذلك يصبح الغش في هذه التجارة اكثر منه في التجارات الاخرى ، وقد

---

1) ابن بطلان ــ الرسالة ــ ص 383 ــ 384

وصف لنا الجاحظ ، تحيل القينة الراغبة في بيع نفسها من احد الشراة . فكشف لنا ما كانت تستعمله من وسائل لتحقيق غايتها خصوصا اذا كانت عاشقة لذلك المشتري يقول : (وربما قادها التمويه الى التصحيح وربما شاركت صاحبها في البلوى ، حتى تاتي الى بيته فتمكنه من القبلة فما فوقها ، وتفرشه نفسها ان استحل ذلك منها . وربما جحدت الصناعة لترخص عليه ، واظهرت العلة وألتاثت على الموالي ، واستباعت من السادة ، وادعت الحرية احتيالا لان يملكها واشفاقا ان يجتاحه كثرة ثمنها ، ولا سيما اذا صادفته حلو الشمائل رشيق الاشارة عذب اللفظ دقيق الفهم لطيف الحس خفيف الروح) (1) .

ولهذا السبب نجد ابن بطلان يوصي الشراة بان يتجردوا من الشهوة عند اختيار جارية او غلام من الاسواق ، لانها توقع في الخطأ ولان المحتاج — حسب قوله — لا يرى عيب حاجته ، فلا بد له من الاستغناء عنها ليعرف قيمتها الحقيقية . اي ان يحاول النظر الموضوعي الى البضاعة ، بالتخلي عن ميوله وعواطفه . كما ينبه هذا المؤلف المقلب للجارية بان لا يثق باول نظرة اليها ، لانها سحارة خداعة

---

1) الجاحظ — كتاب القيان — رسائل الجاحظ - ج 2 ص 174

وان عليه ان يكرر النظر.فكل جديد يبدو لذيذا لاول وهلة وان لم يكن كذلك في الحقيقة والواقع.فالعاقل من اتهم نظره فيما استحسنه وارتاب فيما اطمأن اليه ،واساء الظن بمن وثق به ،وهو يحذر ايضا من التاثر باول كلمة تقولها الجارية او يتلفظ بها الغلام ،اذ قد تكون تلك الكلمة نتيجة الصدفة ولا تدل على رجاحة عقل اوسلامة طوية وربما كان وراءها مقابح مستورة (1) .

وعديدة هي العيوب الخلقية التي يسترها باعة الرقيق مثل عهر الجارية اوسرقة العبد ،وهي خصال لا يمكن للمشتري الاطلاع عليها ويوكل الامر فيها الى صدق نية التاجر وصراحته.لكن تهافت هذا النوع من التجار على الربح الوفير والسريع قد انساهم الصدق والصراحة وجعلهم يدلسون حتى مهنة الرقيق واختصاصه .فمما يذكر عنهم انهم كانوا يسودون انامل العبد بالمداد حتى يظن المشتري انه قادر على الكتابة فيدفع فيه الثمن المرتفع (2) .

فقد شمل الغش اذن ميادين مختلفة لخصها ابن بطلان في

---

1) ابن بطلان ــ الرسالة ــ ص 353 و ص 357

2) ابن قدامة ــ المغني - ج - 4 - ص 141-142

قولة نظمها عن القدماء هذا نصها (قالوا : كن على حذر من شري الرقيق في المواسم ،ففي مثل تلك الاسواق يتم للدخاسين الحيل.فكم من قضيفة بيعت بخصبة وسمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة وممسوح العجز بثقيل الروادف وبطين بمجدول الحشا وابخر الفم بطيب النكهة .وكم صفروا البياض الحادث عن القروح في العين ،والبرص والبهق في الجلد وجعلوا العين الزرقاء كحلاء.وكم من مرة حمروا الخدود المصفرة وسمنوا الوُجوه المقعقعة ، وكبروا الفقاح الهزيلة ،واعدموا الخدود شعر اللّحى واكسوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجعدوا الشعور السبطة وبيضوا الوجوه المسمرة ، ودملجوا السيقان المعرقة ،ورطلوا الشعور الممرطة واذهبوا آثار الجدري والوشم والنمش والحكة .... وكم من مريض بيع بالصحيح وغلام بجارية.هذا زائد على ما يوصون به الجواري من دل ومجانة على مسافرين شباب قد احل لهم لحم الميتة،سوى ما يفعلنه من من زينتهن بالخضاب والحناء والملابس المصبغة الناعمة ،سمعنا بعض الدخاسين يقول : " ربح درهم حناء يزيد في ثمن الجارية مائة درهم فضة "(1)
ولم تكن الاجراءات القانونية من رد للرقيق المشترى بالعيب واقرار لبيع الخيار الذي اكد عليه الفقهاء،لتحد من ضرر هذا الغش دائما لاسباب كثيرة منها ما ذكرناه في بداية هذا الفصل ، من ان الرقيق قد يشترى من معارض موسمية في اصقاع بعيدة يتعذر على المشتري منها التمسك بذلك الحق.ومنها ايضا تفاقم هذا الدلس مما لا يمكن معه الهروع الى القضاء في كل مناسبة.

---

1) ابن بطلان ــ الرسالة ــ ص 355 ــ 356

3) وسائل كشف الغش

ومن الطبيعي ان يؤدي انتشار الغش في سوق الرقيق واشتهار الدناسة بالتدليس، الى نوع من الاحتياط من قبل جمهور الحرفاء والمشترين والى اهتمام بطرق التمييز بين الزيف والحقيقة في البضاعة التي يريدون اقتناءها. وهكذا كانت تروج في تلك الاوساط اساليب يتداولها الناس ويخبرون بها بعضهم بعضا، وهي تهدف الى حماية المشتري من الانخداع. وما نجده في كتب المحتسبين من نصائح ووصايا تتعلق بهداية مشتري الرقيق وتنبيهه هو صدى لما كان يروج بين الناس في هذا المجال، وان كان يمثل احسن ما وقع الاهتداء اليه، وما صدقته التجارب من تلك الاساليب المستعملة. فمن الطرق التي ينصح بها المحتسب المشتري للتمييز بين الحامل وغير الحامل مثلا، ما ذكره السقطي من ان حمل المرأة يختبر (بان يوضع تحتها بخور او عنبر ويمنع ان يخرج من اردانها او على ثيابها. فان ظهرت الرائحة على فيها فهي حامل. وان لم تظهر فليست بحامل. وقيل امر عجيب ان صح ولا اعلم كيف ذلك، وهو ان يقدر بخيط من وسط سرة المرأة الى وسط الفقارة المحاذية لها من ظهرها، ويعلم المكان بمداد، ويدار القياس الى الجانب الثاني من الموضع الى الموضع فان نقص الخيط من الجانب الايمن عن العلامة فهي حامل بذكر وان طال فهي

حامل بانثى والله اعلم بذلك) (1) وينصح بان بطلان بالتاكد من براءة الجواري من الحبل قبل الشراء والتفطن الى تحيلهن لاخفائه بوضع خرق في فروجهن ملطخة بالدماء. ويوصي بتكليف امراة صالحة صادقة بتفقد ثدي الجارية وجس حشاها (2) ثم يقترح طريقة لكشف التدليس في هذه الحالة هي نفس ما اقترحه السقطي في هذه النقطة. يقول (ومعرفة ذلك يتم بان يوضع تحت المرأة بخور كالعنبر ونحوه ويمنع خروجه من اردانها او فرج اثوابها فان ظهرت الرائحة من فيها فليست حاملا . وبالضد ..... وهذا يتبين في الذكر من سرعة الحامل واشراق لونها، وان يقدر بخيط من وسط السرة الى وسط الفقارة المحاذية لها من احد الجوانب ويعلم المكان بمداد، وتديره الى الجانب الاخر فان نقص الخيط عن العلامة من الجانب الايمن فهي حامل بذكر وان طال فبأنثى) (3).

وثمة وسائل يقع بها كشف العيوب في الرقيق ويعرفها المحتسبون عادة ويخبرون بها المشترين حتى لا يقعوا في الغرر وهي

---

1) السقطي ــ آداب الحسبة ـ ص 50ــ51
2) ابن بطلان ــ الرسالة ــ ص 358
3) السقطي ــ آداب الحسبة ـ ص 51- 52

في اغلبها مستمدة من سجل الكشوف الطبية .وتشتمل على علامات جملة من الامراض الشائعة ،كامراض الكبد والطحال والمعدة وخاصة الامراض البارزة العلامات كالامراض الجلدية ،مثل البهق والقوباء.ويحتاط ايضا من التدليس باختفاء هذه العلامات بالوشم او الكي الذين يخفى بهما البرص.فينصح المحتسب بادخال الجارية او العبد الى الحمام ، حتى يدلك الوشم والكي ليختبر ان كان حقيقيا او اريد به اخفاء عاهة جلدية.ومن احسن النصوص وصفا لهذه التحريات هذه الفقرة التي ننتخبها من كتاب آداب الحسبة للسقطي والتي يقول فيها ما يلي : (ويؤخذون (اي النخاسون) بتفقد الوان العبيد فان كان اللون حائلا يدل على علة في الكبد او الطيحال او المعدة او البواسير يذف منها الدم.ويتفقدون ايضا مواضع البهق من ابدانهم،فان لونه في الابتداء ابيض واسود . وكذلك القوباء فانها خشونة تظهر في الموضع ثم تكبر وتنمي وان كان في موضع من المملوك ما يشبه الشامة والوشم او اثر جرح برص او كي ، فيبحث عليه ، ويدخل الحمام ويغسل بالماء الحار والبورق والخل ثم يتفقد بعد ذلك.فان كان كيا او وشما ظهر من حينه ، وذلك حذرا من ان يكون ابرص قد كوي عليه ، او وشم وصبغ عليه بذلك ،لانه يخاف ظهوره مع تطاول الايام واتساع البرص عن موضع الكي والصباغ) (1).

---

1) المصدر نفسه - ص 383 ــ 384

وما من شك في ان المحتسبين هم اعلم الناس بهذه الكشوف ، وان المقتلين للرقيق لا يتاح لهم العلم بكل ذلك الا اذا كانوا من ذوي الاختصاص . وبذلك تتضح لنا رسالة المحتسب المفيدة في هذا الميدان. ولا يخفى ايضا ان المحتسب في حاجة الى مستوى معين في هذا المجال، ليتمكن من القيام بدوره احسن قيام . ويبدو ان كلا من النخاس والمحتسب يشتركان في العلم بهذه الامور بحكم ممارستهما لهذا الاختصاص وملازمتهما للاسواق. وقد يعمد ايضا الى تحليف النخاس حتى لا يخفي عيبا علمه. وينصح المحتسبون بوجوب اعتماد هذه الطريقة . ويشير السقطي الى ان من واجب المحتسب تحليف النخاسين حتى لا يقترفوا الغش فيقول (ويحلفون بايمان مغلظة عليه ان لا يكتموا عيبا دقيقا ولا جليلا، ولا يخفون مما يطلعهم البحث عليه، والعلم منهم به كثيرا ولا قليلا . ويحرص في ذلك كله على ان لا يستعمل للمسلمين الا الخيار، ولا يقلّد في امورهم الا الثقات الابرار) (1)

---

1) السقطي ـ آداب الحسبة - ص 52

4) التقليب

وكان تقليب الرقيق عند شرائه عادة متبعة في الاسواق وملازمة لهذه التجارة منذ اقدم العصور. وذلك لان الرقيق بضاعة كسائر البضائع يحرص مشتريها على انتقاء الجيد منها، قبل ان يدفع فيها الثمن. وقد نقل ابن بطلان بعض المناهج في تقليب العبيد عن " معلم الاسكندر " وهو ارسطو استاذ اسكندر بن فيليبس ملك مقدونية(1) وفي هذا ما يدل على قدم هذه السنة في تجارة الرقيق. ولسنا هنا في حاجة الى تقديم شواهد على وجودها عند امم اخرى، لان طبيعة المعاملات التجارية تستوجبها. ونكتفي بان نقول بان العرب المسلمين قد كانوا يقلبون الامة او العبد ويفحصونهما قبل اتمام الصفقة. وكانوا يسمون هذا التصرف تقليبا، او اعتراضا ، او عرضا. فيقال اعترض الجارية او عرضها قبل الشراء بمعنى قلبها (2) وقد ورد في كتاب الاغاني عبارات بهذا المعنى مثل قول المؤلف نقلا عن بعض الروايات " والله لكأنها تعرض عبدا تشتريه " (3) او قوله عن عبد الله بن محمد الامين انه " يعترض جارية مغنية لبعض نساء بني هاشم فزادت عليه في السوم "(4)

---

1) عبد السلام هارون ـ مقدمة رسالة ابن بطلان ـ ص348ـ349 وخطبة الرسالة
2) الاصفهاني-الاغاني- ج 17 ص 13
3) المصدر نفسه ج 3 ص 11
4) المصدر نفسه ج 10 ص 210

ويعتبر تعدد انواع البضاعة وتنوع اجناسها ،وما يحدث فيها من غش ويعتريها من عيوب،او يطرأ عليها من امراض،من اهم الدواعي التي تحوج المشتري الى التقليب ، كما ظهرت تآليف في هذا الموضوع تشهد باهميته بالنسبة لتجارة الرقيق في كل الازمنة والعصور، من اشهرها رسالة ابن بطلان في " تقليب العبيد " (1) وكذلك رسالة محمد الغزالي احد مؤلفي القرن الحادي عشر للهجرة وهي بعنوان " هداية المريد في تقليب العبيد " (2).

أصلته بتقليب الدواب

وتشترك تجارة الرقيق في خاصية التقليب مع تجارة الدواب اذ يمارس فيها بطريقة تكاد تكون واحدة ،وليس من باب الصدفة ان سميت كل من التجارتين نخاسة واطلق على تاجر الرقيق وتاجر الدواب اسم واحد هو النخاس(3) وكثيرا ما كان هذا النخاس يجمع بين هذين النوعين من التجارة فنحن نجد في فتوى لابن ابي زيد القيرواني ان المضطلع بهما قد كان شخصا واحدا (4)

---

1) ابن بطلان-رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد ، تحقيق عبد السلام هارون سلسلة-نوادر المخطوطات-المجموعة عدد 4 -الطبعة الاولى-القاهرة 1954

2) محمد الغزالي ــ هداية المريد في تقليب العبيد-سلسلة نوادر المخطوطات-القاهرة-1951

3) ابن منظور ــ لسان العرب-مادة-نخس-آدم متز-الحضارة الاسلامية ج -1- ص 304

4) ر ــ ادريس-بلاد البربر الشرقية في عهد بني زيري ج 2 ص684 -ابن ابي زيد القيرواني الرسالة ص 634

ونفهم من كلام ابن الفقيه ايضا ان تجارة الرقيق قد كانت ذات علاقة بتجارة المواشي والسباع وسائر الحيوان. اذ يبدو من خلال كلامه ان هذه الانواع من التجارات متقاربة ، وانها تعتبر من جنس واحد ما دام كل منهما بيعا لحيوان ، وهو كغيره من الجغرافيين العرب يذكر انواع البضائع والسلع الرائجة في الاقاليم ، ويفرد بابا للرقيق ضمن تعداده لاجناس الدواب ، فيقول مثلا في حديثه عن انتاج بلاد المغرب (ولاهل المغرب البغال البربرية والجوابي الاندلسية والنمور الزنجية) (1).

وليست هذه الوجوه هي الوحيدة التي تشترك فيها نخاسة الدواب مع نخاسة الرقيق. بل نجد التقارب ايضا بين اسعار انواع من الرقيق واصناف من المواشي . ولكننا لسنا هنا بصدد استعراض كل الخصائص التي يشترك فيها هذان النوعان من البيوعات ، وانما نريد التركيز خاصة على ظاهرة التقليب التي تجسم بحق التشابه المذكور وتوضح التقارب باكثر جلاء ، اذ يفحص العبد فحصا مماثلا لفحص الدابة خوفا من ان يكون به علة او نقص خفي .

---

1) ابن الفقيه - كتاب البلدان - ص 252

ولدينا نموذج من تقليب لغلام قد ورد في مقامات بديع الزمـــان الهمذاني وهو يذكرنا فعلا بتقليب الدابة ،يقول الهمذاني على لســـان بطله في المقامـة المضيرية مبرزا خصائص غلام اشتراه له " ابو العباس " من النخاس : (وتقدم الغلام فقال : ترى هذا الغلام ؟ انه رومي الاصل عراقي النشيء ،تقدم يا غلام ، واحسر عن راسك وشمر عن ساقك وانض عن ذراعك وافتر عن اسنانك واقبل وادبر ففعل الغلام ذلك) (1) وقد تواصل هذا الاسلوب في التقليب في العصور المتاخرة فقد ذكر ابن بطوطة ان اهل مالي كانوا يقدرون سن العبد ، انطلاقا من قيس قامتـه . فالخماسي هو الشاب المراهق والسداسي من هو اكبر منه . واما السباعي فهو الرجل الكامل وثمنـه اقل من الصغير. وكان العبد عندهم يقاس من اسفل قدمه الى اسفل اذنه (2)

ولعل دقـة الفحص واحكامـه تتجلى باكثر بيانا فيماذكره السقطـي حول تقليب الرقيق. فقد جاء وصفـه مفصلا ومصوغا في قالب يمكن ان يكون شاملا للرقيق والحيوان على حد السواء يقول في ذلك (ويختبرون ايضـــا ذكاء سمعه . . . . وشعر راسه وجلدته وصفاء ها وجرحاته وسعلته ان كانت به وملخ حدة نظره وصفاء بياض عينـه فان كدرتـه وظلمته مؤذنـة

---

1) الهمذاني ـ المقامات ـ ص 110 ــ 111

2) ابن بطوطة ـ تحفـة النظار ــ طبعة باريس 1859 ج 4 ص 436

بالعلة الكبرى، والصفرة علامة علة الكبد، والعروق الحمر الكثيرة في العين هي السبلة فيها. ونقاء اجفانه وسهولة حركتها، وتغمر ماء في عينه فان سال منها رطوبة دلت على ناسور هناك. وحال انفه وفمه ..... وشدة اسنانه وقوتها. وهل فيها حركة او تحفر. وهل في عنقه اثر جرح لئلا تكون خنازير. ويستلقى على ظهره ويجس بطنه ليظهر فيه فتق ان كان معه. ويغمز على موضع كبده وطيحاله هل يتالم ام لا. وتنظر قوة وطئه في المشي وصلابة عصبه في شده ام لا. وتقاس احدى يديه بالاخرى وكذلك رجلاه لئلا تكون احداهما اطول من الاخرى لكسر او فك اصابه قديما) (1).

هذه صورة من التقليب يمكن ان تكون صالحة في شراء العبد او الدابة وهي تتميز بالدقة في النظر والاختبار وطرق التفطن الى العيوب والمحاسن في البضاعة المعروضة، الا ان المتأمل في بعض رسائل الحسبة يلاحظ ان فحص الرقيق كان ادق واعسر من فحص المواشي، اذ ينظر الى سلامة صوته من البحة والى لون بشرته ورائحة فمه (2) وغير ذلك من وجوه الفحص

---

1) السقطي ـ آداب الحسبة ـ 52
2) المصدر نفسه

الدقيقة لان الرقيق بشر يخالط غيره من ابناء جنسه وتنقل امراضه بالعدوى اليهم.

ب- تقليب الجواري :

وكان الجواري يخضعن ايضا لنفس الدقة في التقليب في غير حرج. وتتاح لمقتنيهن فرصة تاملهن واختبارهن سواء أكان ذلك في الاسواق العامة او في المنازل الخاصة، فللمشتري الحق في تفحص الجارية المعروضة للبيع والنظر الى محاسنها قبل شرائها حتى يامن الضرر ويعرف قيمة ما يشتريه. وتنص الاحكام الفقهية على ضرورة رؤية البضاعة في البيوعات عموما لا تستثني من ذلك الرقيق المؤنث.

وقد ذكر الجاحظ ان رؤية الجارية او القينة قبل شرائها ليست منافية للشرع والاخلاق بل اعتبرها احدى ضرورات التجارة ورد على المتحرجين من هذا التقليب ورماهم بالتزمت والمحافظة، جهلا منهم في نظره بطبيعة المساومات والمشارة، فقال (وبعد فان الرقيق تجارة من التجارات تقع عليه المساومات والمشاراة بالثمن، ويحتاج البائع والمبتاع الى ان يستشفّا العلق ويتاملاه تاملا بينا يجب فيه خيار الرؤية المشترط في جميع البياعات، وان كان لا يعرف مبلغه بكيل ولا وزن ولا عدد ولا مساحة فقد يعرف بالحسن والقبح) (1).

---

1) الجاحظ ـ كتاب القيان ـ رسائل الجاحظ ج 2 ص 161 ـ 162

لكن التقليب في الاسواق العامة لا يمكن ان يصل الى الدقة التي يكتسيها في المنازل الخاصة لا سيما فيما يتعلق بفحص جسد الجارية . فاذا عرضت الجارية في منزل خاص امكن للمشتري ان يتامل مفاتنها الخفية وان يطلع على عيوبها المستترة ، وقد نقل لنا صاحب كتاب الاغاني صورة موحية عن هذا الفحص يرجع تاريخها الى ما قبل القرن الثالث للهجرة ، اي في عهد هشام بن عبد الملك .وهي تدل على ان هذه العادة كانت متبعة في شتى العصور.فقد روى ان احد قواد هشام بن عبد الملك زار المدينة في موسم الحج واصطحب غلامين له ، ونزل بجوار احد المخنثين المشهورين وهو المسمى بالدلال ،فاعجب هذا المخنث بالغلامين واستوهبه احدهما فوهبه له وعسر عليه الحصول على الثاني ، واغتنم فرصة عزم القائد على شراء جارية على صفة معينة ووعده بان يرشده اليها وشرط عليه تسليم الغلام عند ظفره بالجارية .ثم اقتاده للتقليب عند مولاتها (فلما صار الى المرأة ادخلته فاذا هو بحجلة فيها امرأة على سرير مشرف برزة جميلة .فوضع له كرسي فجلس.فقالت له : امن العرب انت ؟ قال نعم ، قالت : من ايهم ؟ قال : من خزاعة .قالت : مرحبابك

اهلا اي شيء طلبت ؟ فوصف الصفة : فقالت : اصبتها ، واصغت الى جارية لها فدخلت فمكثت هنيهة ، ثم خرجت فنظرت اليها المرأة فقالت لها : اي حبيبتي اخرجي . فخرجت وصيفة ما راى الراؤون مثلها . فقالت لها : اقبلي ، فاقبلت . ثم قالت لها : ادبري فادبرت ، تملأ العين والنفس فما بقي منها شيء الا وضع يده عليه . فقالت : اتحب ان نؤزر هالك ؟ قال نعم . قالت : اي حبيبتي ائترزي فضمها الازار وظهرت محاسنها الخفية ، وضرب بيده على عجيزتها وصدرها . ثم قالت ، اتحب ان نجرد ها لك ؟ قال نعم قالت : اي حبيبتي وضحي . فألقت ازارها فاذا احسن خلق الله كانها سبيكة . فقالت ، يا اخا اهل الشام كيف رايت ؟ قال : منية المتمني ، قال : بكم تقولين ؟ قالت : ليس يوم النظر يوم البيع ولكن تعود غدا حتى نبايعك ولا تنصرف الا على الرضا) (1) .

تلك هي صورة التظليب بما فيها من تفصيل وتدقيق ، وللمشتري كما نلاحظ ان يلمس الجارية وان ينظر الى مفاتنها ، بل له ايضا ان يجردها ما دامت في منزل خاص وان يتامل محاسنها في غير حرج ، ويضع يده على صدرها وعجيزتها .

---

1) الاصفهاني - الاغاني - ج 4 ص 290 ــ 291 .

وكانت نفس الطرق متبعة في القرن الثالث والقرن الرابع. فهذا الجاحظ يحدثنا عن جواز لمس القينة عند تقليبها. ويقول بجواز الالمام بها لان الله يغفر اللمم. ويرى ان النظر الى مفاتنها عند الشراء حلال. ويشبهه بالنظر الى الزرع والغرس والتفسح في خضرته واستنشاق روائحه دون اخذ شيء منه (1).

ويذهب الجاحظ ابعد من ذلك في تفسير هذا " اللمم " المباح فيرى ان الله يغفر حتى القبلة، ووضع اليد على القينة بشرط ان تكون هناك نية التقليب، وان لا يتجاوز المقلب ذلك الحد الى الخلوة بالجارية يقول في ذلك (وكذلك مكالمة القيان ومفاكهتهن ومغازلتهن ومصافحتهن للسلام، ووضع اليد عليهن للتقليب والنظر حلال، ما لم يشب ذلك ما يحرم وقد استثنى الله تبارك وتعالى اللمم فقال " الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة " (2) قال عبد الله بن مسعود وسئل عن تاويل هذه الآية فقال : اذا دنا الرجل من المرأة فان تقدم ففاحشة وان تاخر فلمم، وقال غيره من الصحابة : القبلة واللمس. وقال آخرون : الاتيان فيما دون الفرج ..... وكذلك قال الاعرابي حين سئل عما نال من عشيقته فقال : ما اقرب ما احل الله مما حرم الله) (3).

---

1) الجاحظ ــ كتاب القيان ــ رسائل الجاحظ ح 2ص 163
2) قرآن ـ سورة النجم ــ آية 23
3) الجاحظ ــ كتاب القيان ــ رسائل الجاحظ ــ ح 2 ص 163 ــ 164

لكن الاساليب المشروعة التي يسهر المحتسبون على تنفيذها ورجال الدين على احترامها بالنسبة الى تقليب جارية في منزل خاص، كانت تقتضي الا ينفرد المقلب بالجارية في مكان التقليب صيانة لعفافها وللاخلاق العامة. وان يمكن المشتري من رؤية ما يحب من بدن الجارية بمحضر النسوة في المنزل . وبذلك يتم التوفيق بين الغرض المقصود من اختبار البضاعة، والتزام حدود الشرع واحترام القيم الاخلاقية. ولذلك كانت العادة المتبعة بالنسبة الى من اراد ان يبيع جارية، ان يضعها عند امرأة من الثقات ليعترضها الشراة بحضور سيدها. وتدعى هذه المرأة " الاميلة " وهي المشرفة على عملية التقليب المتعلقة بجسد الجارية او صناعتها ان كانت من ارباب الصنائع (1) واذا ما اراد المشتري اعتراضها في منزله لم يكن له ذلك الا بحضور نسوة في المنزل ايضا ، فاذا توفر هذا الشرط تسنى له ان يعترض الجارية كما يريد ، وان يجردها كما رايدا ذلك في الرواية التي اوردها الاصفهاني ، وان ينظر الى كل جزء منها باسم التقليب وان كان عورة . الا انه لا يجوز له في صورة تقليب الغلام ان ينظر الى ما بين السرة والركبتين لان الغرض من تقليب جارية يختلف عن الغرض من تقليب غلام في نظر المشرع.

---

1) السقطي - اداب الحسبة ص 52

يقول صاحب معالم القربة مقارنا بين التظيب في الاسواق العامة والتظيب في منزل خاص ومميزا بين اعتراض الجارية والغلام ما يلي (ومن اراد شراء جارية جازله ان ينظر الى وجهها وكفيها. فان طلب استعراضها في منزله والخلوة بها، فلا يمكنه التخاس من ذلك، الا ان يكون عنده نساء في منزله فينظرون جميع بدن الجارية. وان اراد شراء غلام فله ان ينظر الى ما فوق السرة و دون الركبة، هذا كله قبل العقد، واما بعد فله ان ينظر الى جميع بدن الجارية) (1).

واذا ما كانت هذه الاساليب قد احترمت في بعض الظروف و أودع البائع جاريته عند امراة للتظيب كما نفهم ذلك من بعض روايات كتاب الاغاني (2) فانها لم تحترم في سائرها. وتدل التحريات التي تنص عليها كتب الفقه والحسبة، وتجعل من واجب المحتسب الاضطلاع بها على ان الواقع التجاري، قد كان في حاجة الى تعديل وتقويم، وان الامور كانت تجري في الغالب على عكس ما يريده حفظة الشرع والاخلاق، وان قانون الربح هو الذي كان سائدا على غيره من الاعتبارات المبدئية والاخلاقية، خصوصا ان مراقبة الزيغ في هذا المجال من الامور العسيرة، فالتهافت على الربح

---

1) ابن الاخوة- معالم القربة - ص 152 ــ 153

2) الاصفهاني -الاغاني - ج 17 ص 13

كان يدعو الدخاسين الى اغراء المشترين بمفاتن الجارية او الغلام في غير اكتراث ، بالموانع الدينية .ولم يكن هذا التهافت ليصد الدخاس او البائع لجاريته الخاصة عن الاخلاء بينها وبين المشتري عند التقليب،لاسيما اذا كان من علية القوم الذين يرجى منهم الثمن الباهض،ويخول لهم الجاه من التصرف مالا يخوله لغيرهم ، وقد روى لنا السقطي ان الدخاسين قد تجاوزوا قوانين الشريعة في تقليب الجواري ،فسمحوا بارسال الجارية الى المشتري لتقليبها بنفسه مع الانفراد بها في غرفة بدون رقيب عليها .وهذه احدى الروايات التي ساقها لنا يقول (حدثني رجل من الصناع لم ازل اعرضه بخير وانتماء الى دين ،فطلبته يوما في دكانه الذي كان يلازمه لعمل الصناعة،وكان سراجا ،فاخبرني من كان في الحانوت انه غاب في ذلك اليوم عند رجل من اهل الثروة ،في عمل الشغل له في داره ،فلما طلع النهار اختطرت عليه فوجدته في دكانه ،و عرفته بما اتفق لي في طلبه وما عرّفت به فقال : كان ذلك وعاهدت الله الا اعمل لاحد عملا بعد يومي هذا الا في دكاني لما رايت . فاشفقت مما سمعت وسالته عن امره ،فقال لي : اني كنت اعمل في برانية دار الرجل حتى دخل علينا فلان من مفسدي هذا الصنف المذكور ولم اظنه على ذلك .فقال له صاحب

الدار : اين الخادم التي ساق لك فلان للبيع ؟ فتجاهل له وقال : لا اعرف ما تقول ، فقال له : هي الكاملة القد الحالكة البديعة الصورة الحلوة الشكل . وكيف تجحدها وقد وصفت لي وعرّفت بها ، فقال له : وبعد هذا ما تريد ؟ قال : اريد ان اراها ، ثم قام اليه وساره فسمعته يقول له : خمسة دراهم تعطيني والله وحينئذ اسوقها لك ، واعطاه صاحبه الذي طلب ثم خرج عنا وغاب قليلا وجاء بخادم سوداء على النحو الذي وصف قد التحفت بكساء ابيض محشى بالاحمر وجود مثلها نادر فقال له : هذه ، واشار لها الى غرفة بالمرانية المذكورة فطلعتها وطلع صاحب الدار بعدها وخلى بينهما ومشى لوجهه . فعجبت من فعلها وجمعت اسبابي وخرجت والتزمت ما التزمت) (1)

من الواضح اذن ان عادة اتخاذ "الاميلة" او اي امرأة اخرى عند التقليب لم تحترم دائما ، وان بعض النخاسين قد فرطوا فيها من اجل دريهمات حتى صارت الاساليب التجارية محلا للريبة والتفسخ الاخلاقي ، ولم تكن " الاميلة" نفسها عند اتخاذها قيّمة على التقليب لتسلم في كثير من الاحيان من الانحراف ، والخضوع لسلطان الدينار والدرهم . ومن هذا القبيل ما رواه السقطي

---

1) السقطي - اداب الحسبة - ص 48-49

ايضا عن اميـنـة باحدى اسواق الرقيق بالاندلس،اذ كانت تحمل الجواري الى ديار من يطلبهن باسم الشراء والتقليب وتتقاضى على ذلك اجرا ، وقد استغل المفسدون هذه الفرصـة لاقتراف المحرمات.فكانوا يحصلون علـى من يروق لهم من الجواري لقاء بعض المال ، فيقضون منهن الوطر باسـم التقليب ودعوى اشتراء ، وهكذا امسى التفسخ الخلقـي ملابسا للمعاملات باسواق الرقيق.وقد ذكر السقطي ان هذه الظاهرة قد بلغت من التفشـي حدا يتنـزه المرء عن وصفـه . يقول في ذلك (ويتوصل المفسـدون بمشاركتها (اي الاميـنة) الى ما لم يكونوا يقدرون عليه دونها. وذلك انهـا تحمل المرتفعات مزينـات معطرات،الى ديار من يطلبهن باسم الشـراء ويوهم بارادة التقليب والاختبار،ولاسيما ذوات الصناعات منهن وتقيم يومها بهن لاختبار صنعتها، فيعطيها على وجه الشكر لها والجزاء على تهممهـا مع ان لها اجرة على البيع والشراء،اذا كان يوضح لها في العطاء بحسـب ماليتـه وشرهـه في ارادتـه ، ويستعد الطعام والشراب بالاربع والخمـس منهن وما تقتضيـه الصنعة المطلوبـة فيهن، ويقمن على ذلك . ولقد افصح لي احد من فعل معه هذا بشيء يجب التنزه عن ذكره) (1)

---

1) السقطي ـ اداب الحسبة ـ ص 48ـ49

هكذا نرى اذن ان حدود الشريعة لم تحترم في هذا المجال ، رغم تخصيص امرأة " اميدة" للاشراف على تقليب الاماء. اذ انقلب الامر الى ضرب من التمعش المستتر وراء دعوى الاختبار ، ومهما يكن من امر هذا الفساد فانه يدل على ان فرص التثبت من البضاعة قد كانت متاحة ، ولولا هذا لما وجد مرتعا. فقد كان للمشتري ان يتثبت من بضاعته في الاسواق العامة وخارجها ، وكان من حقه في بعض الاحوال ان يتمادى في اختباره حتى بعد عقد الصفقة ببضعة ايام. فاذا اكتشف في رقيقه عيبا امكنه رده ، واسترجاع ثمنه ، او الاحتفاظ به والمطالبة بتعويض النقص وهو نوع من البيوع كان يدعى بيع الخيار. وغالبا ما يتسنى تطبيقه في غير الاسواق الطارئة او الموسمية اي في الصفقات التي تعقد بين الافراد ويكون فيها البائع معلوم الهوية او في الاسواق الدائمة التي يرتادها نخاسون معروفون .

ج- <u>وسائله واهدافه</u> :

فاذا كانت هذه هي مناهج التقليب وكيفيته وما اتسم به من دقة حينا وانحراف حينا آخر، فما هي اغراضه ووسائله ؟ ان مرامي التقليب للرقيق المذكر و المؤنث تتلخص في التاكد من جماله او قوته ثم سلامته من العاهات والآفات واخيرا في امتحان قدرته على عمل من الاعمال او صنعة

من الصنائع ومحاولة التعرف على مزاجه ، لان احوال الرقيق النفسية تهم المشتري ايضا ، وهي غرض هام من اغراض التقليب يهدف من ورائه المشتري الى التعرف على اخلاق العبد او الامة حتى يحمي نفسه وذويه من امراضه النفسية والخلقية كما يحتمي من امراضه الجسمانية .

ولم تكن هذه المهمة المناطة بعهدة المقلب مهمة سهلة اذ يتعين ان يكون عارفا بكثير من القواعد والوسائل الصالحة للتقليب . ولا بد له كذلك من تجربة في هذا الميدان تعصمه من غوائل الغش في البضاعة وتكشف له ما يحجبه المظهر الحسن من مخبر سيء سواء أكان ذلك بالنسبة الرجالة الرقيق الجسدية او النفسية .

فاذا كان هدف المقلب التحقق من جمال الجارية كان في حاجة الى معرفة الحسن الطبيعي من المصطنع وادراك اسرار الجمال في كل جزء من جسد الامة وهو امر لا يتسنى ادراكه لكل العيون على حد قول الجاحظ . وعلى المشتري ايضا ان يتخير واحدة من بين حسان عديدات بعد المقارنة بينهن وكثيرا ما تعسر المقارنة ، ويكون الاختيار متعذرا ، ويظل المقلب مخدوعا بزي جميل او لفتة لطيفة او تبرج متقن . ويتمثل سرّ الصعوبة في معظم الاوقات في تزييف الدخاس

او تحسينه لمظهر الجارية.ولولا ذلك التمويه لما وجد اغلب الناس صعوبة في تمييز الجميل من القبيح.وقد كان وجوه الناس في هذا العصر الذي نهتم بدراسته يتفننون في انتقاء حسان القيان، ويكلفون بهذه المهمة من يتوسمون فيه الذوق المرهف والقدرة على ادراك لطائف الحسن واسرار الوسامة في الرقيق المشترى ، يقول الجاحظ مبرزا اهمية هذا الاختيار (وان كان (اي الرقيق) لا يعرف مبلغه بكيل ولا وزن ولا عدد ولا مساحة فقد يعرف بالحسن والقبح ولا يقف على ذلك ايضا الا الثاقب في نظره الماهر في بصره الطب بصناعته فان امر الحسن ادق و ارق من ان يدركه كل من أبصره) (1).

وقد كان طلاب القيان الحسان في هذا العصر يحرصون على انتقاء اتمّهن خلقا واكملهن حسنا.وكانوا ولعين بتتبع ادق خصائص الجمال واصطياد اخفى مظاهر القبح وكانوا يخضعون في اختبارهم هذا لنموذج في الجمال معين ولمثال اعلى يرغبون في الفوز به ، ومن امثلة هذا الضرب من التمحيص ما حدث عند بيع " عنان " جارية الناطفي.فقد روي ان مالكيها قد طلبوا فيها شيئا يعاب فلم يجدوا فاوقعوا بخنصرها في ظفر رجلها

---

1) الجاحظ ــ كتاب القيان ــ رسائل الجاحظ ــ ج 2 ص 162

عيبـــا لئلا تصيبها عين حسب اعتقادهم (1) ولا ريب في ان النخاســين قد كانوا اقدر الناس على تمييز الملاحــة من السماجــة ولذلك كانوا يستشارون ويكل اليهم الاعيان شؤون اختيار ما يرغبون فيه من ضروب الحسان. ومن هذا القبيل ما صنعه أبو جعفر المنصور عندما كلف ابا عوف عبد الرحمن بن صقرن بشراء جارية له من المدينة فقد امره باخذ راي احد المختصين في هذا الشان وهو المسمى ابا نفيس(2) وقد كان صاحب قيان.

- استخدام العلوم الطبيــة :

اما بالنسبة لقوة جسد الرقيق وسلامته من العيوب فيحتاج المقلب الى بعض المبادىء الصحية التي تكشف له عن اعراض العلل والامراض الخفيــة، وما من شك في ان الكثير من هذه المبادي قد انتشر في اوساط بيع الرقيق وشرائه بصورة من الصور. ولا ريب ايضا في ان جانبا منها لم يكن يعرفــه الناس على وجهـــــــه الصحيح، وكان عندهم اقرب الى التخمين والوهم، مما دعا اهل الاختصاص من الاطباء مثل الطبيب النصراني ابن بطلان الى تصنيف هذه القواعد الصحية في كتاب متناولا كل اعضاء الجسد عضوا عضوا، ومفصلا لما يعتريها من عاهات. فنبــه الشراة الـــى ضرورة تفقد لون البشرة، فاذا راوه حائلا الى الصفرة مثلا ادركوا انه نتيجـــة

---

1) الاصفهاني ــ الاغاني ــ ج 22 ص 530
2) المصدر نفســه ج 8 ص 120

"ضعف الكبد وغلبة الصفراء " وان كان حائلا الى السواد دلّهم ذلك على " ضعف الطحال ومرض السوداء " فالابيض السليم هو من كان بياضه مشربا بحمرة والاسمر السليم من كانت سمرته صافية ،ولتكن البشرة ليدة نقية وخالية من البهق والبرص والوشم والكي والثآليل والخيلان وآثار القروح وخاصة القرحة الناشئة عن عضة كلب (1) و يطلب في الاعضاء التناسب في الطول والقصر والعظم والصغر مراعاة لجانب الجمال في صاحبها ولقدرته على نوع العمل الذي يتعاطاه .

ويطول الحديث عن هذه المبادىء الصحية الضرورية في تقليب الرقيق والتي راج بعضها بين الناس ونبه الاطباء الى بعضها الاخر فمنها ما يختص بالراس والحواس من شم وسمع وذوق ومنها ما يتعلق باللثة واللهاة والدغابغ والازبتين والصدر واليدين والسواعد والحشا والمعدة والكلى والمثانة والانثيين والقضيب والرجلين والرحم وسائر اعضاء البدن وقد اطنب ابن بطلان في وصف احوالها في صورة الصحة والمرض (2) ولعل من اهم ما اورده في هذا الباب حديثه عن عضو ثمين هو العين

---

1) ابن بطلان ـ الرسالة ص 359 ــ 360
2) المصدر نفسه ـ ص 360

فيتحدث عن العينين محذرا المشتري (من حركتهما بان لا تكونا مضطربتين فانهما من علامات الوسواس،لاسيما اذا لم يكن الكلام منتظما . وهذا يعتبره العارف بلغة المملوك . ومن لونهما بان لا يكون بهما زرقة في السواد لم تكن من قبل،لانها من علامات الماء. ولا يكون بياضهما كدرا او اصفر او فيه عروق فانه من مقدمات السّبل . ومن شكلها بان لا يكون شكل العين مستديرا لاسيما ان كان الوجه متحجّرا فان ذلك من علامات الجذام.ولا يكون ثقبا الحدقة سواداهما غير متساويين ولا احدهما اكبر من الاخر وكأنه مشقوق بالطول ، وهذا يعتبر بان يغمض كل واحدة منهما ويرى اشكالا مختلفة ، ومن المأق بان لايكون في المأق ظفرة ولا لحم زائد ولا ناصور وعلامته انك اذا عصرت المأق خرج منه مِدّة ، ومن الاجفان بان لا يكون شعرها منتشرا ولا منقلبا ولا تكون الاجفان غليظة) (1) .

استخدام علم الفراسة :

ولا يقتصر اختبار الرقيق كما سبق ان ذكرنا على الناحية الجسدية فقط بل يقع التاكد ايضا من سلامته النفسية والعقلية والخلقية ويحتاج المشتري لبلوغ هذه الغاية الى حظ غير قليل من علم كان متداولا في تلك

---

1) المصدر نفسه ص 360 ــ 361

العصور وله رجاله المختصون فيه ، ونعني بـه علم الفراسـة .فيستعمل المقلب مبادىء هذا العلم للتامل في كلام العبد ومنطق الامة وتصرفاتهما ويستدل بكل ذلك على اوضاعهما النفسيـة والخلقيـة .فيعتبر بعلامـات الانقباض البادية على الوجـه وصفرة اللون وكره الدعابة ويستنتج منهـا كدرة المزاج وتعكره .كما ينظر الى طلاقـة المحيا وبهاء الطلعة وحسن الدعابة فيكتشف من ورائها اعتدال المزاج وصفاءه . يقول الجاحظ في كتاب التبصر بالتجارة :(وخير الناس السهل الطلق الوجه المتواضع .وفراسة الرجل السوء ان يكون منقبضا غير منشرح ،وان يرى لونـه الى الصفرة والكمود من غير مرض وان يكون طائش القلب،وان يكون للدعابة والمزاح كارها ولهما عائبا ،وان تراه غليظ اللفظ عند المحاورة ، ومن فراسـة الرجل الصالح ان تراه سهلا طلقا ذا منظر بهي وكلام شهي سبط الجبين غير منقبض ولا نزق علق قلـق وغير كاره للدعابة والمزاح يذكر بخير ليّن المحاورة متواضعا) (1) ويقول في وصف نفسيـة الامة الجيدة (وكل امراة او امة اذا كانت اكثر سكونا و اجمل حالا وانزر طعما و اشكر للناس فهي اصون)(2).

---

1) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة-ص 48
2) المصدر نفسـه -ص 47

وقد ارجع ابن بطلان فن تطبيق مبادئ هذا العلم في مجال التقليب الى مجموعة من الاصول ذات صبغة عملية. وبين كيفية هذا التطبيق فحذر من الاكتفاء بدليل واحد على خلق معين. وبين ضرورة استقراء مجموعة من العلامات حتى يصح القياس. فاذا اجتمعت دلائل متضادة وقع الحكم باقواها. واقوى هذه الدلائل في رايه ما يبدو على الوجه والعين، اما القاعدة التي تقوم عليها مبادئ هذا الفن فهي المشابهات بين اشخاص الناس وكذلك ما يوجد منها بين الانسان والحيوان، وضرب على ذلك امثلة عديدة منها مثال الشجاعة الذي توجد دلائله عند البشر والحيوانات. وميز هذا المؤلف ايضا بين ما يخص اخلاق الذكور واخلاق الاناث في هذا الميدان. وافرد كذلك فصلا لاخلاق الخصيان ثم مضى يحلل دلائل كل جزء من اجزاء البدن من ملامح واعضاء وحركات وان كان قد اضرب عن ذكر دلائل اعضاء النساء تصونا حسب قوله (1).

وقد كان السبب الذي دفع ابن بطلان من اجله هذا الموضوع كل هذه الاهمية هو الخطر الذي يتجسم في اقتناء رقيق ردئ الاخلاق لان مولاه يعاني العنت من جراء ذلك ويخشى مغبة اختلاطه بافراد اسرته، وهو على هذه الحال من رداءة السلوك، فعلى المشتري ان يتجنب

---

1) ابن بطلان - الرسالة - ص 366 ــ 367

شراء مملوك قد مرن على الضرب والخصومة وعليه ان يسال عن سبب بيعـــه ، اذ كثيرا ما يكون سوء الخلق هو السبب في البيع (1) ويحسن بنا في هذا السياق ان نورد امثلة مما ذكره هذا المؤلف حول بعض الدلائل الهامـة ، ونخص بالذكر منها ما يتصل بالعبد الشجاع.يقول (وهو ان يكون قوي الشعر خشنه شديد العظام والاطراف والاصابع عظيم الصدر والاكتاف والرقبـة عريض القص ضامر الورك معرق الجبهة قوي المفاصل منتصب القامة ممسوح الاليتين بعيد ما بين المنكبين ممدود الحاجبين ازب الصدر والكتف والجبان بالضد) (2).

ويذكر ابن بطلان ان دلائل الشعر سبعة اشياء، تفصّل كما يلـــي (اللين منه يدل على الحمق ــ الخشن دليل الشجاعة ــ كثرته على البطن دليل شبق ــ كثرته على الصلب دليل الشجاعة ايضا ــ كثرته على العنـــق والكتفين دليل حمق ايضا ، كثرته على الصدر دليل قلة الفطنة ــ قيـام الشعر دليل جبن) (3)، ومن طريف ما يسوقـه المؤلف في هذا المضمار مقارنتـه بين اخلاق الاناث والذكور والخصيان فهو يصل من هذه المقارنة الى ان (الانثى من كل جنس اموت نفسا واقل جلدا واسهل انخداعا واسرع غرورا وسكونا واشد مكرا واصغر راسا والطف وجها وادق عنقا واضيـق

1) المصدر نفســه ص 357 ــ 358
2) المصدر نفســه ص 365
3) المصدر نفســه ص 365 ــ 366

اكتافا وصدرا واعظم بطنا ووركا والطف كفا وقدما، واسوأ اخلاقـــا من الذكر في كل جنس، اخلاق الخصيان كالمشابهة لاخلاق النســاء ومن ولد بلا خصيتين اوكانتا فيه صغيرتين كان اشر) (1) ومهما يكن من امر صحة هذه الدلالات او خطئها فان الهام بالنسبة الينا هــو ان نعتقد ان نصيبا وافرا منها قد كان حصيلــة تجارب في اوساط تجارة الرقيق قد تناقلها الخلف عن السلف عبر العصور فاكتسبت بحكم هــذا التداول صبغة علميــة،وان كانت في اغلب الاحيان ذات صبغة تقريبيــة وافتراضية لكن وضع الشراة قد كان يحوجهم الى هذا النوع من طرق الفحص لحرج موقفهم عند تقليب العبيد والتحقق من اوضاعه النفسية والخلقية.

واستعمال الاختبار المهــني :

وتشــمل عمليــة التقليب صنعة الرقيق المتخذ للخدمة (2) فاذا كان هذا الرقيق من الاماء ربات الصنائع اي المقتنيات للعمل لا للمتعة كان اختبارهن عند "اميتة" ايضا فيوضعن عددا من الايام عندها حــتى يقع التثبت من اتقانهن للصنعة (3) وينبغي على المشتري ان يكون على علم

---

1) المصدر نفســه -
2) السقطي - اداب الحسبة - ص 52
3) المصدر نفســه - ص 43ـ49 و ص 52

باختصاص كل جنس من اجناس الرقيق حتى ينجح في ادراك ضالته .وذلك لان كل جنس من تلك الاجناس قد اشتهر بنوع من تلك الخدمات والصنائع كما يجدر به ان يكون عارفا بتلك الصنائع ووجوه اتقانها وحذقها ليتسنى له اختبار العبد او الامة قبل شرائهما ، وهكذا يتضح لنا ان هذا الباب من ابواب التقليب يستدعي كذلك شيئا من الخبرة التي تسمح للمقتني بالحصول على ما يريد ، وتعصمه من ان يقع فريسة لحيل الدخاسين ومن ان يخضع لمشيئتهم ، وينفق ماله في التعويل عليهم . وقد ضمن رجال الحسبة رسائلهم بعض النصائح للشراة في هذا المجال ، فبينوا ما يفضل فيه الرقيق المذكر الرقيق المؤنث من اعمال ، وما يتفوق فيه الرقيق المؤنث على المذكر منها وذكر بعضهم ان من طلب رقيقا للطبخ او الغناء فعليه بالاماء دون العبيد لانهن اقدر منهم على هذين الفنين ومن طلب رقيقا لمباشرة الاعمال الشاقة فعليهم بالعبيد دون الاماء لانهم اقدر عليها منهن (1).

ووصف ابن بطلان درجة الجودة في بعض الصناعات ، وبين شروط الاتقان فيها فقال مثلا في الجيد من الغناء ما يلي : (اذا اجتمع للغناء ان يكون مطبوعا سليما من الخروج والنفور وكانت الجارية شحرورية الصوت جيدة الصنعة والضرب صحيحة التادية للشعر ، قد اخذت عن الحذاق وتزيدت من نفسها

---

1) ابن بطلان ـ الرسالة ـ ص 385

بجودة الطباع فهي الغاية القصوى في هذا الشان ،فان اتفق لها مستمع عارف بالطرائق والضرب واللحن ومجرى الاصابع وقائل الشعر وما فيه من العروض والنحو وما في الصوت من ردات وترجيحات وشذرات ونقرات وتشبيعات كان اوفر في اللذة وانفق للصناعة) (1). وتخضع ايضا جودة الطبيخ لمجموعة من القواعد يمتحن فيها الرقيق المختصون ،وتتناول عددا من الاكلات الفنية التي لا يتقنها كل الناس والتي تعتبر مقياسا من مقاييس مهارة الطباخين ، وقد ذكر ابن بطلان وصفا موجزا لها في قوله (عمدة الطبيخ على طيب المرق وجودة المزاج .فان اتفق للطباخة مع هذا جودة الصنعة وسرعة العمل فذاك غاية الامل ، وقل ما يتفق ان تكون كاملة في البوارد والشواء والطبيخ والحلواء على اصنافها الثلاثة ،فهذا مما يعجز عنه قدر النساء والذي يمتحنون به الاسفيد باج والديكبراكة (2) اما الاسفيدباج فلان الابازير مطيبة لها وكثرتها يسوّد مرقها واتقنها بياضها فلهذا يتعذر سلامتها ، واما الديكبراكة فلانها لون سهل يتبين في التلطف في منع سهوكتها (3).

---

1) المصدر نفسه ص 385

2) الاسفيد باج ضرب من الطعام يصنع من اللحم والبصل والحمص والابازير ويقال له ايضا اسفيد با كما في معجم ستينجاس - steingass - اما الديكبراكة فالارجح انها من الارامية ومعناها الديك المبارك وهي اكلة مشابهة للسابقة (عبد السلام هارون - تحقيق رسالة ابن بطلان هامش صفحة 386)

3) ابن بطلان الرسالة ص 386 ــ 387

ويبسط لنا السقطي منهجا قريبا من هذا في اختبار جودة الطبيخ علي يد الطباخات من الاماء ،ويذكر نفس الاكلات التي تنتخب للامتحان مثل الاسفيدباج ويعلل هذا الاختبار بان (ابازيره كثيرة وتسودّ مرقته وحكمه ان يكون ابيض وشرطها طيب العرف وجودة المزاج فان زاد على ذلك جودة الصنعة وسرعة العمل فهي غاية الامل وقلما يتفق انطباعها في البوارد والشواء والطبخ والحلواء واصنافها كثيرة) (1).

وعلى المقلب ان يقوم بنفس التحريات عند اختيار مرضعة لاطفاله فيختار الصحيحة الجسم وذات الرحمة والحنان والمعتدلة المزاج والخلق حتى تحسن تغذية الرضيع بلبانها وتربيته على السلوك الحسن ولا بد كذلك من النظر الى سلامة لبنها وخصائصه الغذائية .واليك صورة من صور اختبار لبن المرضعة .يقول ابن بطلان (واعتبار اللبن ان تقطر على ظفرك منه فاذا صار كالعدسة لا غليظا مقببا ولا مائعا سيالا ،وكان طيبا في رائحته ابيض في لونه ،كان جيدا .وبعض الاطباء اختار الزنج للرضاع لان حرارتهن البارزة نحو الاثداء منضجة للبن ،ولانهن لغلظه اكثر غذاءا وقال قوم : ان قياسه قياس لبن الاتن في اللطافة لغلظ اجسامهن) (2)

---

1) السقطي -اداب الحسبة-ص 50-51
2) ابن بطلان -الرسالة-ص 387

تلك هي وجوه تقليب العبيد بصورة مجملة وهي تعكس لنا ما استقر في حياة الناس من تقاليد متصلة بتجارة الرقيق ،وتطلعنا على ما تناقلوه من تجارب ومعارف في هذا الميدان ،وعلى خطر هذه القضية في المجتمع الاسلامي اذ سخرت العلوم في سبيل مواجتها .لكننا لا ندعي ان عمليات التقليب هذه قد طبقت دائما على وجهها الصحيح وبشكل متقن وناجح بل الواقع عكس ذلك ،لان ظروف الشراة ومستوياتهم لم يتكن واحدة ولا كفيلة ببلوغ تلك الدرجة من النجاعة .ولا مراء في ان كل هذه النصائح التي يسديها اهل الاختصاص ورجال الحسبة على الاسواق الى المشترين تشير الى ان المقتنين لهذه البضاعة قد كانوا في الاغلب مغرورين ومخدوعين في اختيارهم وانهم لم يكونوا دائما ملمين بوسائل الفرز بين الجيد والردي من الرقيق .اضف الى ذلك ما اتسمت به سوق الرقيق من غش يدعو الى الاستغراب من مهارة القائمين به ،وتفشل في مواجهته وسائل التحري التي كنا بصدد تفصيلها ،ولا يمكننا ان نتصور عسر مهمة المقلب الا اذا ادركنا فداحة التدليس.

5) شـــــروط ابرام الصفقـــــة

أ- عدم التفريق بين ذوي القربى :

و من اهم الاحكام المتعلقة ببيع الرقيق والمسلم بها في هذا الضرب من المعاملات التجارية تجنب التفريق بين الام وولدها في البيع اذا كان صغير السن (1) وسببه مراعاة حاجة الصبي الى امه من الوجهة المادية والروحيـــة. ويقترح الفقهاء في مثل هاته الاحوال ان تباع الام مع ولدها ، يقول ابن الاخوة في باب ما يجب على المحتسب منعه من البيوع الفائدة (. . . . وكذا بيـــع ام دون الولد اذا كان الولد صغيرا وكذا بيع الولد دون الام لان تسليمه يفرق بينهما وهو حرام مجمع عليه ولا يصح التفريق بينهما بالبيع دون البلوغ)(2).

وهم يقيسون هذه الاحكام على احكام اخرى تتصل باقتسام السبي وقت الغنيمة في الحروب. ويعتمدون في ذلك على ما روي في الحديث النبوي من قول الرسول (لا توله والدة بولدها) وقوله ايضا (من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين احبته يوم القيامة) (3) كما رووا ان الرسول قد جيء بسبـــي

---

1) ابن الاخوة. معالم القربة ص152ـ153 ابن ابي زيد القيروان. الرسالة ج 2 ص257 ـ258 السقطي. آداب الحسبة. ص 52

2) ابن الاخوة ـ معالم القربة ص 57

3) الماوردي ـ الاداب السلطانية ـ ص126ـ141 الشيباني. كتاب السير الكبير ج 5 ص 2071 2074 ـ مسلم. صحيح ج 12 ص 63ـ64

فنظر الى امرأة منهن تبكي فقال : ما يبكيك ؟ فقالت ابني بيع في بني عبس فقال الرسول لابي اسيد الانصاري : فرقت بينهما فلترجعن ولتاتين بـــــه ، فرجع فاتى بـــه (1).

وقد اعتبر الفقهاء باسباب هذا النهي عن التفريق ومقاصده ورأوه ممنوعا في التجارة ايضا ،لانه يلحق نفس الضرر بالام والولد .وكان لهم في احداث اخرى جرت في حياة الرسول ما يدعم قياسهم هذا.اذ يروون ان عليا ابن ابي طالب قد فرق بين جارية وابنها الصغير في البيع فنهاه الرسول عن ذلك ورد البيع (2).

لكن الفقهاء رغم اجماعهم على هذا المبدا يختلفون في حـــدوده وابعاده ، فبينما يرى المالكية ان التفريق محرم ،يراه الحنفية مكروهـــا فحسب ، فاولئك يتحدثون عن عدم الجواز وهؤلاء يقولون بالاستكراه ، يقول بعض المالكية (ولا يجوز ان يفرق بين الام الحاظة وولدها في البيع ومـــا شابهه من كل عقد معاوضة) (3) في حين يقول السرخسي (القياس يوجـب

---

1) الشيباني-كتاب السير الكبير ج 5ص 2071ـــ2074 مالك بن انس-المدونة الكبرى ج 10 ص 112ـــ113

2) ابن الاخوة-معالم القربة ص57- مسلم-صحيح ج 12 ص 63ـــ64

3) ابن ابي زيد القيرواني-الرسالة ج 2 ص 257 احمد النفراوي-الفواكه الدواني ج 2 ص 257

التفريق لان منعه هو منع للمالك عن التصرف في ملكه لكن عرفت الكراهة شرعا ، فقد جاء الشرع بكراهة التفريق بين صغيرين او صغير وكبير من ذي الرحم المحرم ، فان كانوا كبارا جاز القياس ولا شرع فيه . والسبب في عدم تفريق الصغيرين الالفة بينهما لان الصغير لا يحتمل الوحدة) (1).

ولا يشمل هذا الحكم في نظر المالكية الا الام وولدها الصغير (2) ويدققون في هذا الحصر بقولهم " الام الدنية " حتى يقع استثناء الجدات والامهات من الرضاع والاباء ، قال النفراوي (وقيدنا بدنية لانه لا تحرم التفرقة بين الجدة وولد ولدها كما لا تحرم بين الاب وولده ولا بين الام وولدها من الرضاع لان المراد الام من النسب) (3).

لكن هذا الحكم يتجاوز عند الحنفية والحنابلية " الام الدنية " الى كل ذي رحم محرم مثل الاخوين الصغيرين والجدة وحفيدها الصغير والاب وابنه الصبي ، اما من لم يكن بينهم رحم محرم مثل ابناء الاعمام وابناء الاخوال ، فيجوز التفريق بينهم . يقول الشيباني محللا لموقف الحنفية (فاما اذا كانت والدة وولد صغير او اخوان صغيران او كبير وصغير او غلام لم يدرك وعمته او خالته صغيرة مثله او كبيرة فليس ينبغي ان يفرق بينهم في

---

1) الشيباني - كتاب السير الكبير - ج 5 ص 2071 ـ 2074
2) مالك بن انس - المدونة الكبرى - ج 10 ص 110
3) النفراوي - الفواكه الدواني - ج 2 ص 257 ـ 258

قسمة ولا بيع . . . . واذا كانا غير ذي الرحم المحرم مثل بني العم او بني الخال وهما صغيران او احدهما كبير والاخر صغير فلا باس بان يفرق بينهما في البيع والقسمة) (1) كما يروي السرخسي ، ان عمر بن الخطاب كتب بألاّ يفرق بين الاخوين اذا كانا صغيرين وبين الام وولدها (2).

ويستشهد الحنابلة على رايهم ايضا بما رواه احمد في مسنده من ان عليا بن ابي طالب قال : (امرني رسول الله بان ابيع غلامين اخوين فبعتهما ففرقت بينهما . فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادركهما فارتجعهما ولا تبعهما الا جميعا) (3).

اما الشافعية فقد توسطوا بين هذين الموقفين فجعلوا منع التفريق محصورا في الوالدين والمولودين مهما تباعدوا ، يقول ابن قدامة مقارنا بين هذه المواقف كلها (ولا يجوز ان يفرق في البيع بين كل ذي رحم محرم وبه قال ابو حنيفة ، وقال مالك : لا يحرم التفريق الا بين الام وولدها . . . فدل على الاباحة فيما سواه ، وقال الشافعي : يحرم بين الوالدين والمولودين

---

1) الشيباني-كتاب السير الكبير- ج 5 ص 2071 ــ 2074
2) المصدر نفسه
3) ابن قدامة ــ المغني ــ ج 4 ص 266 ــ الحبشي ــ البركة في فضل السعي والحركة ــ ص 99 ــ 101

وان سفلوا ولا يحرم بين من عداهم،لان القرابة التي بينهم لا تمنع القصاص ولا شهادة بعضهم لبعض فلم تمنع التفريق في البيع كأبني العم)(1).

وبالرغم من تعميم بعض الفقهاء لهذه الاحكام على ذوي القربى فانهم يشيرون الى انها لا تشمل الازواج من الرقيق.فيستحلون التفريق رغم الرابطة الزوجية.لان العبرة في عدم التفريق هي " وصلة النسب لا السبب" على حد قول السرخسي.واذا ما حدث هذا التفريق لا يبطل النكاح ببيع ولا قسمة في نظره (2).

ثم ان الفقهاء لا يميزون في سنهم لهذا القانون بين انتماءات الرقيق الدينية.فسواء اكانت الام مسلمة او كتابية او مجوسية فان من حقها الاحتفاظ بطفلها عند بيعها (3).

واذا كانت الجارية مع صبي تدعي انه ابنها وقع اثبات البنوة المانعة للتفرقة بالبيّنة او باقرار مالكيها او دعوى الام مع قرينة صدقها ويقبل ذلك منها بالنسبة لمنع التفريق فقط.ولا يقبل في غير ذلك من احكام البنوة من ارث وغيره (4).

---

1) المصدر نفسه
2) الشيباني - كتاب السير الكبير - ج 5 ص 2071 ـ 2074
3) السقطي ـ آداب الحسبة ص 52ـ النفراوي - الفواكه الدواني - ج 2 ص 257ـ258
4) المصدر نفسه - ج 2 ص 258

واذا ما حدثت التفرقة على الوجه الممنوع فسخ البيع واعتبر فاسدا وارتجع البائع بضاعته ، احتذاءا بما فعله الرسول مع علي عندما امره بارتجاع الغلامين الذين فرق بينهما في البيع (1) وكذلك بفسخه لبيع جارية له فصل بينها وبين طفلها (2) ويضيف المالكية ان بائع التفرقة يضرب وكذلك مبتاعها اذا كانا عالمي بحرمتها والاعذرا بالجهل (3).

ويصبح فصل الصبي عن والديه او ذويه الاقربين عند البيع ممكنا اذا صار مدركا. ويتجسم هذا الادراك عند المالكية في الاثغار وهو سقوط رواضع الطفل، ثم نباتها من جديد ، ويكون عادة بعد السن السابعة(4) ويحدده الحنابلة بالبلوغ. يقول ابن قدامة (فان فرق بينهما قبل البلوغ فالبيع باطل ، وبه قال الشافعي فيما دون السبع . . . . وان كان فرق بينهما بعد البلوغ جاز ، وقال ابو الخطاب : فيه روايتان ، احداهما : لا يجوز لعموم النهي. والثانية : يجوز وهي الصحيحة لما روي ان سلمة بن الاكوع اتى ابا بكر بامرأة وابنتها فنفله ابو بكر ابنتها ، فاستوهبها النبي صلى الله عليه وسلم

---

1) ابن قدامة المغني - ج 4 ص 266
2) مسلم. صحيح - ج 12 ص 63-64 ابن الاخوة. معالم القربة. ص 57
3) نفراوي - الفواكه الدواني - ج 2 ص 258
4) المصدر نفسه - ج 2 ص 257 - مالك بن انس. المدونة الكبرى - ج 1 ص 110

فوهبها له ، وأُهدي الى النبي صلى الله عليه وسلم ماريـة واختها سيرين فاعطى النبي صلى الله عليه وسلم سيرين لحسان بن ثابت وترك مارية له . ولا نـه بعد البلوغ يصير مستقلا بنفسه) (1) اما سن البلوغ فقد اختلف في تحديدها بين قائل بثماني سنين وقائل بسبع (2) ، ولدينا من الاخبار ما يدل على احترام هذه الاحكام. فمما يذكر عن هارون الرشيد انه تجنب التفريق بين الاقربـاء في اسرى سملوس semalous عندما حملهم الى بغداد .وقد مدحه بذلـك الشاعر ابو تمام (3). الا انه ليس لدينا ما يثبت ان هذا التشريع الانسانـي الذي يسمو بتجارة الرقيق على غيرها من تجارات البضائع الاخرى قد كان موضع احترام كامل عند التجار. بل المفروض ان مثل هذا التشريع يصطدم مع رغبـة بعض الشراة في اقتناء الجارية دون الابن ، ومع ميل التاجر ايضا الى بيعها دون ابنها لاعتبارات اخرى تتصل بترويج بضاعتـه ، واحراز ما ينتظره مـن ارباح . وكان الفقهاء قد شعروا بصعوبة تطبيق الاحكام السابقة فراحوا يبحثون عن بعض الجوازات التي تتلائم مع سير المعاملات التجارية في الواقع. فمن ذلك مثلا افتاء بعضهم بامكان الاكتفاء بالجمع بين الصغير وامه او ذي الرحـم

---

1) ابن قدامة - المغني - ج 4 ص 267 — ابو داود - السنن - ج 3 ص 64
2) ابن الاخوة - معالم القربة - ص 57
3) ابو تمام - الديوان - طبعة 1905 — = ص 218 - ماريوس كانار - M. Canard - المسلمون وبيزنطة - فصل -٧× ص 111 — 119

المحرم عليه في حوز واحد ،اذا لم يمكن الجمع بينهما في ملك واحد. وبهذه الطريقة يمكن التفريق بينهما في الشراء والبيع مع تمكينهما من الاتصال ببعضهما او حتى التعايش في مقر واحد (1) ويهرع الفقهاء ايضا الى منفذ آخر لتسهيل عملية التبايع في هذه النقطة.فمنهم من يرى مثل خليل بن اسحق ان عدم التفرقة حق للام،فيمكن في رايه استشارتها في الفصل بينهاوبين ولدها الصبي قبل بلوغه سن الادراك.فان رضيت به جاز وان رفضته منع ، ويذهب خليل ايضا الى ان التفرقة على الوجه الممنوع اذا حصلت ومضى زمن الحرمة بان بلغ الصبي ،لا يقع التراجع في البيع (2) ومن المفروض ايضا ان يقع التسامح في مثل هذه الاجراءات خصوصا في الاقاليم التي انتشر فيها المذهب الحنفي لان معتنقيه ،لا يقولون الا بكراهة التفريق وشتان بين الاستكراه والتحريم.

1) نفراوي - الفواكه الدواني - ج 2 ص 257-258
2) المصدر نفسه .

ب-استبـراء الامـــاء

ومن شروط بيع الاماء اللائي يشترين لغاية الاستمتاع او الاستيلاد ان يقع النظر في براءة ارحامهن من الحمل . وهو ما يسمى بالاستبراء اذ قد تكون الجارية المعروضة للبيع حاملا من سيدها الاول ، فلذلك يتعيـن التثبت مبدئيا من وجود الحمل او انعدامـه ، حتى يكون البائع والمشتري على بينـة من الامر ، ولا تكون المعاملات قائمـة على غرر يضر باحدهمـا وحتى يقع التثبت في انتساب الجنين الى المالك الاول ، وربما ادى ذلك الى فسخ البيع تماما في بعض الاحيان ، اذ بالحمل تصبح الجاريـة ام ولد يمنع بيعها في نظر جمهور الفقهاء . لكن قضية المصلحة التجارية او الاستلحاق النسبي ليست هي المبدا الوحيد المعتبر في وجوب الاستبراء بل ان مبادىء خلقيـة وديانيـة اخرى قد ابنى عليها هذا التشريـع التجاري . والمرجع فيـه الى النصوص الديانيـة مثلما جاء في الحديث النبوي من قول الرسول (لا يحل لرجلين يؤمنان بالله واليوم الاخر يجتمعان على امراة في طهر واحد) وقوله (لا يحل لامرىء مؤمن بالله واليوم الاخر ان يسقي ما زرع غيره) يعني بذلك اتيان الحبالى ، وقد قاس الفقهـاء هذه الاجراءات التي وقعت مراعاتها في انتقال الجارية من ملك الى ملك

آخر بطريق الشراء، على اجراءات مماثلة تتعلق بانتقال السبي من ايدي الغزاة الفاتحين ، وتنص على ان الجارية اذا وقعت في سهم رجل من الغانمين لا يحل له وطؤها حتى يستبرئها، ليعلم ان كانت حاملا او لا ثم له الوطء ان لم يكن بها حبل .وذلك عملا بنهي الرسول عن وطء الحبالى من سبايا اوطاس حين قال (الا لا توطأ الحبالى حتى يضعن حملهن ولا الحبالى حتى يستبرئن بحيضة) (1).

فالاستبراء اذن لازم عند انتقال الامة من ملك رجل الى ملك آخر باجماع الفقهاء .وهم يرونه واجبا سواء اكان هذا الملك بشراء او هبة او وصية او ميراث او خلع او غير هذه الوجوه .وسواء أكان البائع صبيا او امرأة او مملوكا او من لا تحل له الجارية . وسواء أكانت الجارية بكرا او ثيبا صغيرة او كبيرة. وسواء أكانت من ذوات الحيض او آيسة منه لصغر او كبر (2) ، وهم يتحرون في ذلك غاية التحري بسبب

---

1) ابو يوسف -كتاب الخراج -ص 206 العيني-شرح الكنز-ج 2 ص211 -الشافعي-الام-9 269-270 بهلوي-الجامع-ج 2 ص 240 - 241

2) العيني- شرح الكنز- ج 2 ص 211 - مالك بن انس-المدونة الكبرى-ج 6 ص 142 -143 - و ص 122 - البكري -المغرب - ص 19

ما يترتب عن هذه القضيـة من مشاكل خطيرة تتعلق بمصالح الاحـرار ومنافعهم المادية ،وباوضاع الرقيق الاجتماعية ونصيبهم من العهوديـة والحرية ،وبحدود الشرع وتحريمـه لنوع من العلاقات الجنسية كالزنـا ، وبمراعاة للانساب وحفظها كما ذكرنـا .

ويكون استبراء الامة بان تتربص حتى تضع ان كان حملهـا ظاهرا. أو بان تحيض حيضـة واحدة ان كانت من ذوات الحيض أو بعض شهر ان كانت آيسـة ، هذا عند الحنفية. ويرى المالكية ان استبراء الآيسة يكون ثلاثـة اشهر. وافترق الشافعية في الآيسـة فمنهم من جعل استبراءها شهرا كالحنفيـة ،ومنهم من جعله ثلاثة اشهر كالمالكية .لكن الاتفـاق حاصل على الاستبراء بوضع الحمل او بالحيضة بالنسبة الذات الحيض (1).

ويحسن ان نورد في هذا السياق بعض اقوال الفقهاء حول هذا الموضوع. يقول ابن ابي زيد القيرواني :(واستبراء الامة في انتقال الملـك حيضة .انتقل الملك ببيع او هبة اوسبي اوغير ذلك .ومن هي في حيازتـه قد حاضت عنده ثم انه اشتراها ،فلا استبراء عليها ان لم تكن تخـرج

---

1) الشافعي-الام ص 273 ـ ابن ابي زيد القيرواني-الرسالة ج 2 ص 225ـ226 ـ العيني- شرح الكنز ج 2 ص 211

واستبراء الصغيرة في البيع ان كانت توطأ ثلاثة اشهر. واليائسة من المحيض ثلاثة اشهر. والتي لا توطأ فلا استبراء فيها. ومن ابتاع حاملا من غيره او ملكها بغير البيع فلا يقربها ولا يتلذذ منها بشيء حتى تضع) (1).

ويقول الاوزجندي ، في نفس الموضوع (هو (اي الاستبراء) طلب البراءة مطلقا. وهنا طلب براءة الرحم من ملك امة بشراء اوهبة او ميراث او خلع او كتابة او نحو ذلك. حرم عليه وطؤها ولمسها والنظر الى فرجها بشهوة حتى يستبرئ بان يتركها الى ان تحيض حيضة واحدة، ان كانت من ذوات الحيض، او يمضي عليها شهر واحد، ان كانت آيسة، او الى ان تضع حملها، ان كانت حاملا، لقوله عليه الصلاة والسلام في سبايا اوطاس : "الا لا توطأ الحبالى حتى يضعن حملهن ولا الحيالى حتى يستبرئن بحضية". وهذا يفيد وجوب الاستبراء بسبب احداث الملك واليد، حتى يجب على المشتري من مال الصبي ومن المرأة والمملوك وممن لا يحل له وطؤها الاستبراء. وكذا اذا كانت المشتراة بكرا لم توطأ لتحقق

---

1) ابن ابي زيد القيرواني ـ الرسالة ـ ح 2 ص 225ـ226

السبب.ولا يعتد بالحيضة التي اشتراها في اثنائها ولا بالحيضة التي حاضتها بعد الشراء،او غيره من اسباب الملك قبل القبض،ولا بالولادة التي حصلت بعد الاسباب قبل القبض)(1).

وهكذا يدقق الفقهاء في تحديدهم للحيضة التي يتم بها الاستبراء فيذكر الشافعية،ان المشتري اذا اقتنى الجارية وهي في اول الحيض او وسطه او آخره،لم تعتبر تلك الحيضة استبراء.وانما عليه ان يستبرئها بحيضة سبقها طهر،وله وطؤها بعد ذلك.الا اذا ما ارتابت المستبرئة.وفي هذه الحال يمتنع الوطء،حتى تذهب الريبة دون تحديد بوقت معين (2) ولايكتفي الحنفية ايضا بالحيضة التي اشتريت فيها الجارية ولا بالحيضة التي حاضتها بعد الشراء وقبل القبض (3) .

الا اننا لا نلاحظ هذه المبالغة في التحري عند المالكية.اذ نراهم يكتفون بالحيضة التي تباع فيها الجارية.يقول عبد الوهاب البغدادي (واذا ابتاع المرء حائضا في اول حيضها اجزأ من الاستبراء خلافا لابي حنيفة والشافعي في قولهما لا بد من حيضة مستانفة،لان الحيض امارة دالة على

---

1) الأوزجندي - الفتاوى الهندية - ج 2 ص 113
2) الشافعي - الام - ج - 4 - ص 273
3) العيني - شرح الكنز - ج 2 ص 211

براءة الرحم وذلك يحصل بتوالي الدم في ايامها. ولا يؤثر فيه فوات ساعة اويوم ولا يزيل المعنى المقصود منه ..... واذا تقابلا وهي في يد البائع اوكانت وديعة عنده فورثها وكانت قد حاضت عنده، لم يحتج الى استبراء خلافا للشافعي في قوله: لا بد لتجدد الملك من الاستبراء، لان العلم ببراءة رحمها حاصل، فجاز وطؤها كما لو استبرأها، ولان الاستبراء انما حصل ليفصل بين الماءين مع امكان ان يكون هناك ماء فاما مع تحقق عدمه فلا معنى له) (1).

ولعل المالكية يتحررون في جانب آخر من جوانب عملية الاستبراء، فبينما تكتفي بعض المذاهب بفرضه على المشتري دون البائع (2) نراهم يشركون البائع في هذه المسؤولية مثلما يوصي بذلك بعض الحنفية (3) وهذه صورة من تحري المالكية في هذه النقطة، وبيان لوجهة نظرهم على لسان احدهم (اذا وطىء المرأة ثم اراد بيعها، فعليه ان يستبرئها قبل البيع. وكذلك المشتري يلزمه الاستبراء. فان اتفقا على استبراء واحد جاز. وقال ابو حنيفة والشافعي يجب الاستبراء على المشتري دون البائع

---

1) عبد الوهاب البغدادي- الانصاف - ج 1 ص 274
2) بهلوي- الجامع- ج 2 ص 240 ــ 258
3) العيني- شرح الكنز ج 2 ص 211

وحكي عن قوم انه يجب على البائع دون المشتري ، ودليلنا على وجوبه على البائع انه اذا وطئها جاز ان تكون حاملا من ذلك الوطء فيكون بائعا لولده ، ومدخلا للشبه على النسب، وقياسا على المشتري بعلة انه احد المتبايعين ولان المشتري انما لزمه الاستبراء لحفظ مائه ، لئلا يدخل ماؤه على ماء غيره . والبائع يلزمه حفظ مائه ، كما يلزم المشتري فيلزمه الاستبراء ، ولانه عقد يبيح وطئها (كذا) فوجب على مالكها استبراؤها وهذا يقاس على اصل آخر، وهو اذا اراد ان يزوجها، ودليلنا على وجوبه على المشتري ، قوله صلى الله عليه وسلم: "لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض" وقوله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فلا يسقين ماءه زرع غيره" ولانه يأمن ان تكون حاملا، فيكون بوطئه مدخلا للشبهة في النسب، فلزمه الاستبراء) (1) .

ويتجاوز المالكية هذه الوصية الى اشتراط " المواضعة " اي ان توضع الجارية المتخذة للفراش عند احدى النساء لمعرفتهن بامر الاستبراء، فتمكث عندها المدة اللازمة للتأكد من براءة رحمها . ويطالب كل من البائع والمشتري بهذه المواضعة على حد سواء . فاذا اسفرت المواضعة عن براءة

---

1) عبد الوهاب البغدادي- الانصاف - ج 1 ص 273 ـ 274

الرحـم ،وقع اتمام الصفقـة .وان ظهر الحمل على الجارية وكان من سيدها الاول فسد البيع،لانها تصير بذلك الحمل ام ولد يمنع بيعها ،وان كـان الحمل من غير السيد ،كان للمشتري الخيار في ردها او الاحتفاظ بها(1).

ولا يجب ان نفهم من هذه الاجراءات المذكورة آنفـا انهـا تخص كل الاماء المعروضات للبيع .ففي الاماء من يقتنين للخدمة فقط دون الوطء، ولا يكون المشتري في حاجة الى استبرائهن او المواضعة فيهن. وعلى هذا الاساس يميز ابن ابي زيد القيرواني بين الامة العلية والوخش.فالامـة العليّة او المرتفعة ،كما يدعوها السقطي و ابن الاخوة ،هي الحسناء الـتي تراد للمتعة والولد ويتخيرها المشتري لنطفتـه ، ويكون حملها منقصـا من قيمتـها التجارية. اما الامـة الوخش فهي التي لا تقتنى لجمالها وانما لخدمتها. وليس من الضروري استبراؤها ،الا اذا اقر سيدها الاول بوطئها مع العلم بان الحمل يزيد في قيمـة الجارية الوخش بينما ينقص من قيمـة العلية (2).

---

1) ابن ابي زيد القيرواني ــ الرسالة ــ ج 2 ص250ــ256 ـ احمد النفراوي ـ الفواكه والدواني ج 2 ص 250 ــ 256 ــ مالك بن انس ـ المدونة الكبرى ج 6 ص 131

2) ابن ابي زيد القيرواني ــ الرسالة ــ ص 225ــ226 و ص 250ــ 256 ــ احمد النفراوي الفواكه والدواني ج 2 ص 225ــ226 وص 250ــ 256 مالك بن انس-المدونة الكبرى ج 6 ص 129 ــ 130

لكن قاعدة الاستبراء المنصوص عليها في التشريع الخاص ببيع الرقيق المؤنث، لم تكن محترمة دائما. ومن اهم الوثائق الدالة على عدم احترامها، ما وصفه السقطي من اهمال لها في اسواق الرقيق الاندلسية بل اننا لنفهم من وصفه لذلك، ان الناس لم يكونوا عارفين جميعا بهذه القاعدة الشرعية، وانهم كانوا يشترون رقيقهم المؤنث ويبيعونه دون مراعاة لها. حتى ان بعضهم ليشتري الجارية في يومه ويجامعها في ليلة ذلك اليوم، دون اعتبار لما يمكن ان ينجر من وراء ذلك من وقوع في الزنا واختلاط للانساب وضياع للحقوق.

يقول السقطي في وصف حادثة من هذا القبيل كان فيها شاهد عيان (استدعاني يوما رجل له دنيا وكلفني بداره، كتبَ عقد جارية من المرتفعات اشتراها. فسألته عن استبرائها، فلم اجده ولا البائع منه يعرف حكم ذلك. فقلت لهما لا بد ان توقف للاستبراء عند ثقة من النساء تتفقان عليها او عند رجل من الثقات اهل الدين والامانة تكون عند اهله، الى ان يتحقق استبراؤها، فقال المشتري : تقول لي شيئا والله ما سمعته قط ولا عمل معي. وانما عادتي اشتري بالمعرض الخادم وابيت معها ليلة ذلك اليوم فانفصلت وتركتهما) (1)

---

1) السقطي - اداب الحسبة - ص 48 ــ 49

لم يكن اذن اهل الاسواق عارفين في كل الاوقات بهذه القواعد الشرعية لشغلهم عنها بمسائل التجارة، واستعجالهم ارباحها ومنافعها. وربما كان ايضا للمستوى الاخلاقي دخل في هذا التجاهل للمبادئ الشرعية. وقد جرت العادة احيانا بان تكلف امرأة هي "الاميلة" بالاشراف على شؤون استبراء الجواري، حسب ما تنص عليه الاحكام الشرعية وما يراعيه المحتسبون على اسواق الرقيق. لكن هذه "الاميلة" لم تكن لتسلم من الاغراء بالاموال. فكانت تتغاضى عن تلك الاحكام وتتساهل مع الشراة، بل تقصر في القيام بمهمتها تلبية لرغبة الدخاس في تعجيل البيع ولرغبة المشتري في تعجيل الاجتماع بالجارية. وتتقاضى مقابل هذا الاخلال بواجبها مكافأة مالية من المتبايعين (1).

لكن عادة المواضعة في الجواري لم تكن سنة متبعة في بعض الاقاليم الاسلامية. وقد ذكر لنا احمد النفراوي شارح رسالة ابن ابي زيد القيرواني ان المصريين لم يكونوا يستعملونها في بياعاتهم (2). اضف الى ذلك ما كان يستعمله الجواري من تمويه على الشراة بوضع الدماء

---

1) السقطي ـ اداب الحسبة ـ ص 47 ـ
2) احمد النفراوي ـ الفواكه الدواني ـ ج 2 ص 255

الكاذبة في مروجهن ايهاما بالحيض وبراءة الرحم، حتى يقبل المشتري على شرائهن . وهن يتبعن في ذلك توصيات النخاسين . وقد وصف لنا ابن بطلان هذه الحيل ، ونصح الشراة بالتعويل على امراة لفحص حشا الجارية وتفقد ثيبوبتها وشحوب وجهها واشتهائها للطعام المالح ، وهي كلها علامات التوحم بالنسبة الى الحامل (1) .

ج . مكاسب الرقيق

ولقد كانت مكاسب الرقيق المبيع محلّ اعتبار ايضا عند ابرام الصفقة فبالرغم مما نشا بين الفقهاء من خلاف حول حظ الرقيق من الملكية ومشروعية الفصل بين ماله ومال سيّده (2) فانهم يرجعون في حالة البيع الى قول الرسول "من باع عبدا وله مال فماله للبائع الّا ان يشترطه المبتاع" (3) ولذلك نراهم يشترطون في هاته الحالة التمييز بين ما يؤول للبائع وللمشتري من مال الرقيق المعروض للبيع ويصلون في ذلك الى التاكد حتى من الثياب التي يرتديها العبد او الامة عند العرض وما شابه ذلك من حلي وزينة . فاذا كانت الصفقة تتناول الرقيق ومكاسبه وجب الاحتياط من الوقوع في الربا ومن بيع المال بالمال، وتعيّن تقييم المكاسب وتحديدها والموازنة بينها وبين ثمن البيع ويتضح من هذه الاجراءات كلها ان مكاسب العبد أو الامة المعروضين للبيع تعتبر من الاسباب الهامة في الرفع من ثمنهما (4)

---

1) ابن بطلان — الرسالة — ص 356 — 357

2) مالك بن انس — المدونة الكبرى — ج 3 ص 217
الشيباني — السير الكبير — ج 2 ص 680 — 690
ابن حزم — المحلّى — ج 9 ص 52 — 53

3) الترمذي — صحيح — ج 6 ص 2 — 3

4) ابن قدامة — المغني — ج 4 ص 171 — 173

د-عقـود البيع والشراء :

وللعقود اهميـة كبرى في بيع الرقيق وشرائـه فليس هو من البضائع التي تباع وتشتري بمجرد " المعاطاة " اي تسلم المبيع وانما يعتبر من الممتلكات النفيسـة التي لا يجوز انتقالها من ملك الـى آخر الا بعد امضاء عقـد خاضع لصيغ شرعيـة مضبوطة واعـلان عـن البيع صريح لا لبس فيـه . ومن نفائس المبيعات عند الفقهـاء ورجـال الحسبـة الجواري والعبيـد والعقارات والدواب وهي لا تجوز فيهـا المعاطاة بالاجماع لاهميتها . ولذلك يتعين امضاء العقود فيها حسمـا للخلاف بين المتابعين . ويكتسي هذا الامر بالنسبـة الى الرقيق اهميـة خاصـة تتجاوز مجرد نفاسـة هذه البضاعـة ، الى ما يمكن ان يترتـب عن تسليم الرقيق من مشاكل اخلاقيـة واجتماعيـة خطيرة ، لا مناص مـن تحديد مسؤوليـة المشتري والبائع فيها ، اذ الرقيق جزء من المجتمـع البشري فضلا عن كونـه بضاعـة تبـاع وتشترى ، وفي هذا ما يمـيزه عن سائر البضائع . وبذلك ندرك اهمية العقود الخاصة بالمتاجـرة فيـه (1).

---

1) ابن الاخوة ــ معالم القربـة ــ ص 60 ــ 61

كانت صفقات بيع الرقيق وشرائه تتم اذن بكتابة عقود ولدينا شاهد على وجود هذه العقود بالاندلس،اذ اشرف ابوعبد الله محمد بن ابي محمد السقطي المالقي الاندلسي على كتابة عقد من هذا القبيل في دار احد الوجهاء،وكان موضوع العقد شراء احدى الجواري.لكن كتابة هذا العقد لم تتم لان الجارية لم يقع اذاك استبراؤها،وهو امر انكره السقطي لمخالفته للشرع ورفض بسببه ابرام العقد (1).

وقد اورد لنا كل من القيسي (2) والجزيري (3) نماذج من هذه العقود،تتضمن بعض التدقيقات الفنية المتعلقة بهذه التجارة ويستفاد منها ان عقد البيع كان ينبغي ان يشتمل على كل الدقائق والجزئيات المتعلقة بعيوب الجارية او العبد الجسدية،وذلك بعد ان تسجل في تقرير خاص وتضمن في دفتر تحتفظ به " امينة " السوق تحريا مما قد يحدث من غش او تحيل بين البائع والمشتري ، ولم يكن

---

1) السقطي ــ اداب الحسبة ــ ص 47 ــ 49

2) القيسي ــ مخطوط - عن بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 314-317

3) الجزيري ــ مخطوط - عن بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 314-317

امضاء العقد او تسجيله الا بعد التاكد من البضاعة وبعد اخذ الاحتياطات اللازمة من قبل المشتري (1).

ومن الامور المشترطة مبدئيا في العقد ضبط هوية البائع للتاكد من مشروعية ملكه للرقيق المبيع واثبات اسمه وصفته في دفتر البيوعات بالسوق .فان تعذر على الدخاس معرفة البائع تعين عليه الاتيان بمن يعرفه ليكون ضامنا لمشروعية البيع.وتتخذ هذه التحريات خصوصا مع جلاب العبيد من الغرباء حتى لا يكون الرقيق مسروقا ، او حرا متواطئا على الغش،وحتى يمكن للمشتري ان يعلم من البائع حقيقة امر البضاعة وشؤونها الخفية ،كأن يكون للامة زوج او ابن ،الى غير ذلك من الشؤون من محاسن وعيوب.وحتى يمكن ايضا معرفة الشروط التي يشترطها المتبايعان على بعضهما وهي شروط تسجل عادة في وثيقة حتى يمكن الرجوع اليها عند الحاجة (2).

يقول ابن الاخوة متحدثا عن هذه الاجراءات مقارنا لها بما يحدث من اجراءات بيع الدواب " وينبغي الا يبيع (اي الدخاس) لاحد

---

1) ليفي بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 314 ــ 317 - خليل بن اسحق المختصر ص 7 ــ 8

2) ابن الاخوة - معالم القربة ــ ص 152

جارية ولا عبدا حتى يعرف البائع او ياتي بمن يعرفه ويثبت اسمه وصفته في دفتره لئلا يكون المبيع حرا او مسروقا ،ويتفقد عهد المماليك المتقدمة في ايدي مواليهم ليعلم منها ما قد شرط على المشتري من ذلك بينهما ..... ويؤخذ على سماسرة الدواب الا يبيعوا دابة حتى يعرفون (كذا) البائع او يعرفون من يعرفه ويكتب اسمه في دفتره لئلا تكون معيبة او مسروقة كما قلنا ويعين عيبها للمشتري وسنها وطرقتها ،ولا ينادي عليها الا من فم التاجر، ويراقب الله تعالى فيما هو بصدده من امر الحيوان " (1).

ويحدثنا السقطي عن التحري في امر البائع وضرورة البحث عن " ضامن بلدي " في صورة غيابه ، ليكون ضامنا في صفة المبيع ومسؤولا عن ظاهرة الغش فيه امام المشتري ، فيقول "ويؤمر النخاسون الا يبيعوا لغير مشهور بالعين والاسم مملوكا او مملوكة الا بان يعطي ضامنا بلديا معروفا بالعين والاسم ،ولا سيما الغرباء الذين يحملون المماليك

---

1) المصدر نفسه ـ ص 152 ـ 153

من البلدان. وان يباحثوا العبيد ويسائلوهم لما يخاف في ذلك كله من ان يكون العبد مسروقا، او يكون له اهل يمكن هروبه اليهم، او يكون حرا قد استعبد او معدا للموافقة، او يكون للانثى زوج أو ولد، او يكون لواحد منهم عيب خفيّ يختفي " (1).

ويشترط في بيع الرقيق النفيس الذي يعز وجوده، قبض ثمنه مباشرة حال امضاء العقد. ويمنع " السلم " عادة في هاته الحال، لانه من العقود الممنوعة في هذا النوع من الرقيق. فلا يسلم مثلا في الجارية الحسناء، لان السلم فيها يفوت الربح على بائعها لكن هذا العقد الممنوع في بيع الرقيق النفيس يباح في غير النفيس منه، لما فيه من تسهيل لطرق المبادلات والمعاملات (2).

و للفقهاء احترازات ايضا ازاء عقود اخرى مثل بيع الجراف اذا تعلق الامر ببيع الرقيق وذلك بسبب ما ينحر عنه من عرر قائم على احفاء قيمة البضاعة الحقيقية (3)

---

1) السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 52
2) ابن الاخوة ـ معالم القربة ـ ص 74
3) ابن قدامة المغني ج 4 ص 131

6) احكام الخيار والرد بالعيب

أ- خيار الشرط او التروي

ولقد سن الفقهاء في تشريعهم للمعاملات التجارية نوعا من البيوع يسمونه بيع الخيار. وهو وان كان شاملا للتجارات كلها، ولم يكن مقصورا على تجارة الرقيق، فانهم يؤكدون على اهميته بالنسبة الى هذا النوع من التجارة. ويظهر ذلك في الامثلة التي يوردونها عند تحليلهم لصيغ هذا البيع اذ يستمدونها في الغالب من المبايعات الخاصة بالرقيق (1) كانهم يشيرون بذلك الى ان هذه التجارة هي احوج التجارات الى بيع الخيار واكثرها ملاءمة له، لان المشترى للرقيق احوج من غيره الى مهلة يتخير فيها بضاعته، ويتاملها ويقلبها، ولان هذه البضاعة في حد ذاتها قد كانت في اكثر الاحيان، مظنة للغش وموضوع تحيل وتدليس، فاذا علمنا ان هذا الخيار هو باب مفتوح امام الشراة لكي يقلبوا العبيد كما يقلب المتاع والحيوان ادركنا السر في الحاح الفقهاء على صلوحيته في المعاملات الخاصة بتجارة الرقيق.

ويتمثل هذا الخيار الذي يدعوه المالكية بخيار التروي (2) ويدعوه الشافعية بخيار التشهي (3) في مهلة من الوقت يتفق عليها المتبايعان

---

1) انظر مثلا : الشافعي - الام - ج 3 ص 4
2) ابن ابي زيد القيرواني - الرسالة ح 2 ص 250 ـ 256
3) الشربيني الخطيب - مغني المحتاج ح 2 ص 43

ويتم خلالها فسح المجال للمشتري حتى يعقد العزم على الشراء بعد تفحص البضاعة، والتاكد من قيمتها، واستشارة من يريد استشارته في خصوصها. فان لم يرتضها امكنه ردها (1) وتتضح لنا صيغة هذا البيع المشروط بالخيار من خلال هذا الحوار الدائر بين الامام سحنون وعبد الرحمان بن القاسم في المدونة الكبرى (قلت لعبد الرحمان بن القاسم: صف لي بيع الخيار في قول مالك . قال : قال مالك : بيع الخيار ان يقول الرجل ابيع منك هذا الثوب او هذه الدار او هذه الجارية او هذه الدابة، وانا عليك فيها بالخيار هذا اليوم او هذه الجمعة او هذا الشهر قال : قال مالك : اما الثوب فلا باس به ان يكون فيه اليوم واليومين وما اشبه ذلك. وما كان اكثر من ذلك فلا خير فيه. والجارية يكون الخيار فيها ابعد من ذلك قليلا الخمسة ايام والجمعة وما اشبه ذلك، فلا باس فيها بالخيار الى ذلك ينظر الى خبرها وهيئتها وعملها . . . ويختبر العبد بالاستخدام فيعرف بذلك عمله ونفاذه ونشاطه من ضعفه وبلادته وكسله) (2).

---

1) الشافعي-الام ج 3 ص4ـ5 الشربيني الخطيب.مغني المحتاج-ح 2ص45 النفراوي ـ الفواكه الدواني ج 2 ص 250ـ 256

2) مالك بن انس-المدونة الكبرى ج 10 ص2 ـ3 انظر ايضا-ابن ابي زيد القرواني ـ الرسالة ح 2 ص 250ـ256 ـ والشربيني الخطيب -مغني المحتاج ج 2 ص 43

وقد اجمع الفقهاء على شرعية هذا البيع وعرفوه بنفس الطريقة. وكان السبب في تسميته بخيار الشرط هو تمييزه عن خيار المجلس، لان المشتري لا يكتفي فيه بفرصة المساومة والتعاقد مع البائع، ويشترط فرصة اخرى لمزيد التامل (1) يقول الشافعي في ذلك (وكل متبايعين في سلف الى أجل أودين أو عين أو صرف أو غيره تبايعا وتراضيا ولم يتفرقا عن مقامهما او مجلسهما الذي تبايعا فيه ، فلكل واحد منهما فسخ البيع، وانما يجب على كل واحد منهما البيع حتى لا يكون له رده الا بخيار او شرط خيار او ما وصفت اذا تبايعا فيه وتراضيا و تفرقا بعد البيع عن مقامهما الذي تبايعا فيه ، او كان بيعهما عن خيار، فان البيع يجب بالتفرق والخيار) (2). ويقدم الحنابلة والحنفية تعريفات لبيع الخيار شبيهة بهذا التعريف، وهم يستندون جميعا في تشريعهم لهذا البيع الى تصرفات الرسول (ص) واقواله فيروون عنه انه كان قد خير بعض المشترين بعد البيع (3) وانه قال (المتبايعان كل واحد منهما على صاحبه بالخيار ما لم يتفرقا الا بيع الخيار) (4).

---

1) النفراوي - الفواكه الدواني ج 2 ص 250ـ256
2) الشافعي-الام - ج 3 ص4 انظر ايضا - الشربيني الخطيب - مغني المحتاج ج 2 ص 43
3) الشافعي-الام - ج 2 ص 4ـ5
4) المصدر نفسه - النفراوي - الفواكه الدواني - ج 2 ص 250ـ256 الشربيني الخطيب - مغني المحتاج ج 2 ص 45 ـ ابو غانم الخراساني الاباضي-المدونة الكبرى - ج 2 ص 103

وقد اختلف الفقهاء في مدة خيار الشرط بالنسبة للرقيق، و ان كانوا يجمعون على ضرورة التحديد بمدة. فمنهم من جعلها اسبوعا مثلما جاء في قول مالك. ومنهم من زاد على ذلك الى شهر. ومنهم من حددها بثلاثة ايام. لكن الراي السائد عندهم في خيار الرقيق هو ما يسميه بعضهم "بعهدة الثلاثة" اي ثلاثة ايام يخصصها المشتري لتفحص بضاعته والتروي فيها. وهم يؤيدون ذلك بما رووه من قول الرسول (ص) (عهدة الرقيق ثلاثة ايام) (1) يقول صاحب الفتاوى الهندية في الخلاف حول المدة وترجيح عهدة الثلاثة (وهو (اي الخيار) على انواع فاسد بالاتفاق، كما اذا قال اشتريت على اني بالخيار اوعلى اني بالخيار اياما اوعلى اني بالخيار ابدا. وجائز بالاتفاق، وهو ان يقول على اني بالخيار ثلاثة ايام فما دونها. ومختلف فيه، وهو ان يقول على اني بالخيار شهرا او شهرين، فانه فاسد عند ابي حنيفة رحمه الله تعالى، جائز عند ابي يوسف ومحمد رحمهما الله تعالى... والصحيح قول الامام) (2).

ولا يخفى ان غرض هذا التحديد هو تمكين المشتري من اختيار البضاعة في حدود زمنية معقولة ومنعه من اطالة المدة حتى لا يغتنم الفرصة

---

1) عبد الوهاب البغدادي- الانصاف - ج 1 ص 278 النفراوي - الفواكه الدواني ج 2 ص 250-256

2) الاوزجندي - الفتاوى الهندية - ج 3 ص 38 - انظر ايضا - ابو غانم الخراساني الاباضي - المدونة الكبرى ج 2 ص 103

للانتفاع بها على حساب البائع. ولذلك نرى المشرع يجتهد ايضا في تحديد مسؤولية كل من البائع والمشتري اثناء مدة الخيار، ولا يخفى كذلك ان صيغة هذا البيع قد كانت جد ملائمة لتجارة الرقيق لانها كانت تمكن المشتري من ان يختبر ويقلب البضاعة ومن ان يمتحن قدرة الرقيق على العمل والخدمة وان يتاكد من اتقانه للصنعة ان كان من ذوي الصناعات .

ب-خيار النقيصة او العيب :

ويخول الفقهاء للمشتري بعد اتمام الصفقة ان يرد ما اشتراه من رقيق، اذا اكتشف به عيبا قديما لم يكن قد تفطن اليه عند الشراء او عيبا طرأ عليه مدة التقليب التي يسمونها، بخيار التروي، او التشهي، او الشرط، فيكون المشتري في هذه الحال مخيرا بين امساك العبد والرضى به، رغم عيبه، او رده على البائع ويعتبر هذا التخيير حقا من حقوقه بعد تسلم البضاعة ودفع الثمن. ويسميه الفقهاء "خيار بالعيب" لان قيمة العبد قد نقصت بعد الشراء عن قيمته زمن البيع .

يقول ابن قدامة في تعريف هذا الخيار: (انه متى علم بالبيع عيبا لم يكن عالما به، فله الخيار بين الامساك والفسخ، سواء كان البائع علم العيب وكتمه، او لم يعلم. لا نعلم بين اهل العلم في هذا خلافا) (1)

---

1) ابن قدامة - المغني - ج 4 ص 143

كما يقول ابن ابي زيد القيرواني في هذا المعنى (ومن ابتاع عبدا فوجد به عيبا فله ان يحبسه ولا شيء له او يرده ويأخذ ثمنه) (1) ويتعرض النفراوي شارح رسالة ابي زيد ،الى تفسير معنى خيار النقيصة ،فيستشهد بتحديد ابن عرفة لهذا المصطلح فيقول (وعرفه ابن عرفة بقوله : لقب لتمكين المبتاع من رد مبيعه على بائعه ،لنقصه عن حالة بيع عليها) (2) ولا يختلف الشافعية والحنفية عن غيرهم من ارباب المذاهب في فهمهم لمعنى الرد بالعيب .فهذا الشربيني الخطيب يقارن بين خيار الشرط وخيار النقيصة فيقول (الخيار هو طلب خير الامرين من امضاء العقد او فسخه .والاصل في البيع اللزوم ،لان القصد منه نقل الملك ،وقضية الملك التصرف ،وكلاهما فرع اللزوم .الا ان الشارع اثبت فيه الخيار ،رفقا بالمتعاقدين وهو نوعان : خيار تشه وخيار نقيصة .فخيار التشهي ما يتعاطاه المتعاقدان باختيارهما وشهوتهما من غير توقف على فوات امر في البيع وسببه المجلس او الشرط ، وخيار النقيصة سببه خلف لفظي ، او تغرير فعلي ،او قضاء عرفيّ ،فمنه خيار العيب والتصرية والخلف ،وتلقي الركبان ونحو ذلك) (3) وهذا الاوزجندي الحنفي

---

1) ابن ابي زيد القرواني-الرسالة ج 2 ص 251
2) النفراوي- الفواكه الدواني - ج 2 ص 251
3) الشربيني الخطيب - مغني المحتاج ج 2 ص 43

يحدد العيب بقوله (اذا اشترى شيئا ولم يعلم بالعيب وقت الشراء ولا علمه قبله ، والعيب يسير او فاحش فله الخيار، ان شاء رضي بجميع الثمن وان شاء رده) (1).

ويستند المشرع في اقراره لهذه الصيغة التجارية الى حديث الرسول (ص) حول تصرية الغنم قبل بيعها، وهي ترك حلابها حتى يعظم ضرعها، ويتوهم المشتري انها حلوب فيرتفع ثمنها. وهذا نص الحديث (لا تصروا الغنم، ومن ابتاعها فهو بخير النظرين بعد ان يحلبها، ان رضيها امسكها، وان سخطها رد ها وصاعا من التمر) (2) ويتضح من هذا المستند المجمع عليه ، ومن تعريفات الفقهاء الآنفة الذكر، ان الغاية من تشريع هذا الحكم، هي مواجهة الغش الحادث في المبايعات وحماية حقوق الشراة وحفظهم من الغرر ، ولهذا السبب ادرج مصنف المدونة الكبرى لمالك ، وجوه الرد بالعيب في باب التدليس (3) ومن السهل ان نفهم من خلال الحاح الفقهاء على مبدأ الرد بالعيب في تجارة الرقيق خاصة انهم كانوا يواجهون تيارا قويا من الانحراف في هذا الميدان التجاري، وان التجار

---

1) الاوزجندي - الفتاوى الهندية- ج 3 ص 66
2) الشافعي- الام- ج 3 ص 68 والمصادر السابقة-
3) مالك بن انس- المدونة الكبرى- ج 10 ص 132

لم يكونوا يعملون بتعاليم الشرع في معاملاتهم،فكان على المشرع اذن ان يضبط من هذه الصيغ القانونية ما يحمي الشراة من هذا الخطر بمنحهم حق الرد .

ج.العيوب الموجبة للـــرد :

وقد حدد الفقهاء العيوب الموجبة للرد،وميزوها عن غيرها من العيوب الطفيفة التي يعتبر الرد من اجلها من قبيل التعنت والتطاول على البائع.ويدل تحديدهم لهذه العيوب على ان الاغلبية الساحقة منها متصلة بالغش والمخادعة ومن اهمها تلك العيوب الخفية التي تتصل بحال الرقيق الجسدية والنفسية والاجتماعية،ويتفطن اليها المشتري ،ويطالب البائع شرعا بارشاده اليهـــا ولكنه يتعمد اخفاءها طلبا للربح.ولذلك اجمعوا على ان كل تدليس من قبل البائع في اخفاء عيب من العيوب يعتبر موجبا للرد .وكانت احكامهم شديدة في هذه النقطة حتى ان بعضهم ومنهم الحنابلة،قد جوز للمشتري ان يرد العبد المغشوش على بائعه ، وان كان قد تعيب عنده بعيب جديد .وان يسترجع ثمنه دون تعويض لما اصابه من نقص حادث (1).

---

1) ابن قدامة-المغني-ج 4 ص 151

ويضرب بعضهم امثلة على العيوب الموجبة للرد فيقول :(وكل تدليس يختلف الثمن لاجله ، مثل ان يسود شعر الجارية او يجعده ، او يحمر وجهها ... يثبت الخيار لانه تدليس بما يختلف الثمن باختلافه ، فاثبت الخيار كالتصرية) (1) ومن الامثلة ايضا ان يصرّي البائع ثديي امة تباع للرضاعة ، ويقتليها المشتري لتكون ظئرا ، فيتفطن بعد حين الى نضوب لبنها (2) وبصورة عامة كل تدليس يقصد من ورائه الزيادة في ثمن العبد او الجارية ، يخول للمشتري حق الرد بالعيب .

وليس من الضروري ان يكون سبب الرد عيبا ، بل يكفي ان لا يفي البائع بشرط اشترطه المشتري في الرقيق الذي يرغب في الحصول عليه ، كأن يطلب منه جارية ثيبا فيعطيه بكرا ، لكي يقع رد البضاعة . وذلك بالرغم من ان البكر اكثر قيمة من الثيب ، فالعبرة هنا بمصلحة المشتري ورغبته ، لانه قد يكون عاجزا عن البكر على حد قول ابن قدامة . يقول في ذلك :(واذا اشترط المشتري في البيع صفة مقصودة مما لا يعد فقده عيبا صح اشتراطه ، وصارت مستحقة يثبت له خيار الفسخ عند عدمها ، مثل ان يشترط مسلما فبين كافرا ، او يشترط

---

1) المصدر نفسه - ج 4 ص 141
2) المصدر نفسه

الامة بكرا او جعدة .... فمتى بان خلاف ما اشترطه فله الخيار في الفسخ والرجوع بالثمن ،او الرضى به ولا شيء له ، لا نعلم بينهم في هذا خلافا ،لانه شَرَط وصفا مرغوبا فيه ، فصار بالشرط مستحقا) (1).

ويعرف الفقهاء هذه العيوب ايضا بانها " ما العادة السلامة منه " من امراض وعاهات ،وكل ما ينقص قيمة الرقيق وثمنه ، بسبب خلل نفسي او عطب جسدي . يقول ابن قدامة في تعريف هذه العيوب:(هي النقائص الموجبة لنقص المالية في عادات التجار،لان المبيع انما صار محلا للعقد باعتبار صفة المالية ، فما يوجب نقصا فيها يكون عيبا . والمرجع في ذلك الى العادة في عرف اهل هذا الشان وهم التجار ، فالعيوب في الخلقة كالجنون والجذام والبرص والعمى والعور والعرج والعفل والقرن والعقق والرتق والقرع والصمم والخرس وسائر المرض ،والاصبع الزائدة والناقصة ، والحول والخوص والسبل وهو زيادة في الاجفان ، والتخنيث وكونه خنثى ، والخصاء والتزوج في الامة والبخر فيها ، وهذا كله قول ابي حنيفة والشافعي ولا اعلم فيه خلافا . . . .وكذلك الدين في رقبة العبد اذا كان السيد معسرا ، والجناية الموجبة للقود ، لان الرقبة صارت كالمستحقة لوجوب الدفع في الجناية

---

1) المصدر نفسه - ج 4 ص 154-155

والبيع في الدين ، ومستحقة للاتلاف بالقصاص ، والزنا والبخر عيب في العبد والامة جميعا ، وبهذا قال الشافعي ، وقال ابو حنيفة ليس ذلك بعيب في العبد ، لانه لا يراد للفراش والاستمتاع به بخلاف الامة ، ولنا ان ذلك ينقص قيمته وما ليته ، فانه بالزنا يتعرض لاقامة الحد عليه ، والتعزير ولا يامنه سيده على عائلته وحريمه ، والبخر يؤذي سيده ومن جالسه وخاطبه وساره ، واما السرقة والاباق والبول في الفراش ، فهي عيوب في الكبير الذي جاوز العشر وقال اصحاب ابي حنيفة : في الذي ياكل وحده ويشرب وحده . وقال الثوري واسحق ليس بعيب فيه حتى يحتلم ، لان الاحكام تتعلق به من التكليف ووجوب الحدود ببلوغه فكذلك هذا . . . .) (1).

هذه بعض الامثلة التي يسوقها الفقهاء على العيوب الموجبة للرد وفيها كما اتضح ما يتعلق بجسد الرقيق واخلاقه ، ومزاجه و وضعه الاجتماعي. وهي جميعا تتسبب في نقص قيمة الرقيق عند البيع ويدخل منها الضرر على المشتري ، فان اطلع عليها عند الشراء ورضيها ، جاز البيع وان اكتشفها بعد العقد واتمام الصفقة ، كان له الحق في الرد .

---

1) ابن قدامة - المغني - ج 4 ص 152

ويورد لنا خليل بن اسحق قائمة لبعض العيوب الموجبة للرد شبيهة بما ذكره ابن قدامة منها.فهو يحددها (بما العادة السلامة منه كعور وقطع ولو انملة ،وخصاء، واستحاضة ،ورفع حيضة استبراء ،وعسر وزنا وشرب وبخر وزعر وزيادة سن وظفر،وعجر وبجر،والدين او والد لا اخ ولا جد،وجذام أبا و جنونه ، بطبع لا بمس جن،وكرهص وعثر و حرن ،وعدم حمل معتاد ،وكالدين وتقويس الذراعين ،وقلة الاكل في الحيوان البهيمي او العاقل ،اذا كان ينقص عمله بسبب قلة اكله ، واما كثرة الاكل فليست عيبا في الحيوان البهيمي ،واما في العبد والامة فيظهر انها عيب حيث خرجت عن المعتاد ،كما يؤخذ من تخيير ما استاجر رجلا باكله فيوجد اكولا) (1).

وما يعتبر عيبا في الكبير في الرقيق،قد لا يعتبر كذلك في الصغير منه لان الصغير لم يستتم ادراكه ،وفي الامكان تقويمه ، اماالحد الفاصل بين الكبر والصغر في مجال العيوب فهو السن العاشرة .ويعلل ابن قدامة ذلك بقوله (وحد ذلك بالعشر لامر النبي صلى الله عليه وسلم بتاديب الصبي على ترك الصلاة عندها ،والتفريق بينهم في المضاجع لبلوغها ،فاما من دون ذلك فتكون هذه الامور منه ،لضعف عقله ، وعدم تبتّته . وكذلك ان كان

---

1) خليل بن اسحق ــ المختصر - ص 50-70

العبد يشرب الخمر او يسكر من النبيـذ ، نص عليه احمد لانه يوجب عليـه الحد فهو كالزنا ، وكذلك الحمق الشديد والاستطالة على الناس لانـه يحتاج الى التاديب ، وربما تكرر فافضى الى تلفـه ، ولا يكون عيبا الا فـي الكبير دون الصغير لانه منسوب الى فعله ، وعدم الختان ليس بعيب فـي الصغير لانه لم يفت وقتـه) (1).

د-شروط الرد واساليبـه

وقد ضبط الفقهاء اساليب الرد بشكل يردع المتبايعين عن اغتنام الفرص على حساب بعضهم بعضا ، فاذا اكتشف المشتري برقيقـه عيبـا وعزم على رده ، لم يكن له ان يتصرف معه تصرف الراضي به ، والا بطل الخيار. فليس له ان يمسكه اطول من المدة الضروريـة لكشف العيب ، ولا ان يطيل صمتـه عن ذلك العيب رغبـة في استغلال ما بيده من بضاعـة كاستخدامـه للعبد او الامـة . ولهذه الاسباب حاول الفقهاء ضبط المدة التي يجوز فيها الرد (2) وحددها اغلبهم بثلاثـة ايام واستشهـدوا

---

1) ابن قدامة -المغني- ج 4 ص 153 انظر ايضا -الشربيني الخطيب مغني المحتاج ج 2 ص 54

2) ابن ابي زيد القيرواني ـ الرسالة ـ ج 2 ص 251 ـ 252 ـ ابن قدامة ـ المغني ج 4 ص 143 وما بعدها .

بقول الرسول (من اشترى مصرّاة فهو فيها بالخيار ثلاثة ايام ، ان شاء امسكها وان شاء ردها ورد معها صاعا من التمر) فاذا انقضت هذه المدة كان على المشتري الاسراع في الرد ، ان عزم عليه لان تراخيه يدل على رضاه (1).

اما اذا كان العيب من النوع الذي لا يظهر الا بعد مضي مدة طويلة مثل الجنون والجذام وغيرهما من الامراض فقد خصص الفقهاء للرد مدة اطول ، سموها بعهدة السنة ، وقد نال الرضى بالعيب من قبل المشتري اهتمام المشرع ايضا ، فيخول الشافعية والمالكية والحنفية الامساك للمشتري ويضيف الحنابلة حقا آخر له ، وهو مطالبة البائع بدفع قيمة النقص الموجود في الرقيق اي دفع التعويض وجبر الضرر . ويشترط الفقهاء في العيب الموجب للرد ان يكون من العيوب التي يمكن الاطلاع عليها من غير تغيير لذات المبيع ، اما ما لا يمكن الاطلاع عليه الا بالتغيير فلا رد للمشتري به لان فيه اتلافا لحقوق البائع .

ويذهب المالكية الى ان فسخ البيع بالعيب لا يحتاج فيه الى حكم الحاكم ولا رضى البائع سواء اكان ذلك قبل قبض المبيع او بعده ، وان خالفتهم في هذا الراي بعض المذاهب مثل الحنفية . يقول عبد الوهاب

---

(1) الاوزجندي - الفتاوى الهندية - ج 3 ص 75

البغدادي (الفسخ بالعيب غير مفتقر الى حكم الحاكم ولا رضى البائع قبل القبض وبعده ، ووافقنا ابو حنيفة فيه قبل القبض وخالفنا فيه بعد القبض فقال : لا يثبت الفسخ الا باحد امرين اما بحضورهما او حكم الحاكم ودليلنا هو قوله صلى الله عليه وسلم في المصرّاة : ان سخطها ردها فاطلق ولم يخصص ولانه معنى يقطع استدامة العقد . فاذا لم يكن رضى المتعاقدين شرطا فيه ، لم يكن حضورهما شرطا فيه . وهذا يقاس على الطلاق) (1).

وقد يتفق ان يحدث المشتري في تلك الاثناء بعبده او امته عيبا جديدا بالاضافة الى عيبه القديم الذي تقرر الرد بموجبه ، وفي مثل هاته الحال يقترح المالكية حلولا ثلاثة ، اقلها ان يكون العيب الحادث طفيفا ، لا ينقص من قيمة الرقيق ، ولا يغير من هيئته التي اشترى عليها مثل الوعك والرمد والصداع وذهاب ظفر . واذاك لا يكون له اعتبار في مسالة الرد ويحتفظ المشتري بحقه في رد عبده بعيبه القديم واسترجاع ثمنه (2)

---

1) عبد الوهاب البغدادي - الانصاف - ج 1 ص 267

2) ابن ابي زيد القيرواني - الرسالة - ج 2 ص 151 - 153

وثانيها اذا كان العيب الحادث مفسدا للرقيق اي منقصا لقيمته وثمنه او مغيرا لهيئته ، كقطع عضو منه ، او تزويج الامة ، ولم يقبل البائع الرد بسبب ذلك ، فيكون المشتري في هذه الصورة امام حلين : اما ان يمسك الرقيق الذي بيده ، ويطالب البائع بتعويض العيب القديم ، واما ان يرد الرقيق ويدفع للبائع تعويض العيب الحادث ، ويكون تقدير ارش العيب القديم بالنسبة الى قيمة العبد سليما ، اما تقدير ارش العيب الحادث فيكون بالنسبة الى قيمة العبد معيبا بالعيب القديم (1) قال خليل بن اسحق متحدثا عن هذا النوع من العيوب الحادثة ، وهو الذي يسميه بالمتوسط : (وتغير المبيع ان توسط فله اخذ القديم ورده ، ودفع الحادث وقوّما بتقويم المبيع يوم ضمان المشتري ، فيقوّم سالما من العيبين بعشرة مثلا وبالقديم بثمانية وبالحادث بستة فان رد دفع للبائع اثنين وان تماسك اخذ اثنين وان زاد الثمن او نقص فبنسبة ذلك منه) (2).

وثالثها ان يكون العيب الحادث مخرجا عن المقصود من المبيع اي متلفا له ، وليس منقصا لثمنه فحسب . وفي هاته الحال يكون العيب مفوتا

---

1) النفراوي ـ الفواكه الدواني - ج 2 ص 151 ـ 155

2) خليل بن اسحق ـ المختصر ـ ص 50 - 70

للرد ،ولم يبق امام المشتري الا ان يطالب البائع بارش العيب القديم وان يمسك ما بيده من عبد او امة ، ويكون تقدير الارش بالفرق الموجود بين قيمة العبد سليما وقيمته معيبا (1) قال خليل في هذه الصورة الثالثة :(والمخرج عن المقصود مغيت ،فالارش،فيقوم سليما من كل عيب لا نه اشتراه على وجه انه سالم .فاذا قيل قيمته عشرة يقال : وما قيمته معيبا بالقديم؟فاذا قيل ثمانية ،فانه يرجع من الثمن بنسبة ما نقصته الثمانية عن العشرة ،وهو الخمس.فاذا كان الثمن خمسة عشر رجع بثلاثة واذا كان الثمن مائة رجع بعشرين وهكذا) (2). ويوافق الحنابلة المالكية في هذه الصور المتعلقة بالرد ،عند طروء عيب جديد فضلا عن العيب القديم لكن الشافعية والحنفية يخالفونهم ويرون حدوث العيب الجديد ،معطّلا للرد ،مهما كان نوع ذلك العيب .وليس للمشتري في نظرهم الا المطالبة بتعويض العيب القديم .

وبالرغم من كل هذه الاحتياطات نجد الرد بالعيب نفسه ، يصبح مجالا للتحيل من قبل المشتري هذه المرة .وتواصل ذلك التحيل الى عصور متاخرة ،اذ نجد روايات تفيد ان هذه الاساليب قد استعملت من قبل

---

1) النفراوي ــ الفواكه الدواني ــ ج 2 ص 151ــ156

2) خليل بن اسحق ــ المختصر ــ ص 50-70

الشراة للانتفاع بالرقيق مدة من الزمن ، ثم اتخاذ ادعاء العيب ذريعة لرده واسترجاع ثمنه .وقد افضى الامر في هذه الحال الى العبث بالاخلاق ،كالتمتع بالجواري بصورة وقتية ، ثم رد هن الى بائعهن.وهاتان روايتان يورد هما ابن المجاور في المستبصر ، نورد هما لدلالتهما دون حاجة الى التعليق عليهما .

يقول ابن المجاور متحدثا عن صفة بيع الجواري : " تبخّر الجارية وتطيب وتعدّل ويشد وسطها ، ويأخذ المنادي بيد ها ويدور بها في السوق وينادي عليها ويحضر التجار الفجار يقلبون يد ها ورجلها وساقها وافخاذ ها وسرتها وصدرها ونهد ها ويقلب (كذا) ظهرها ويشبر عجزها ويقلب لسانها واسنانها وشعرها ويبذل المجهود .وان كان عليها ثياب خلعها وقلب وابصر .وفي اخر الامر يقلب فرجها وجحرها معاينة من غير ستر ولا حجاب.فاذا قلب ورضي واشترى الجارية تبقى عنده مدة عشرة ايام زائد وناقص (كذا) فاذا رعى وشبع ومل وتعب وقضى وطره وانقطع وطره (كذا) يقول زيد المشتري لعمرو البائع باسم الله يا خواجا بيني وبينك شرع محمد بن عبد الله فيحضرا عند الحاكم فيدعى عليه العيب"(1)

ويقول ايضا عن الرد بالعيب " حدثني الحسن بن علي حرور الفيروزكوهي قال : اني بعت جارية هندية بعدن على رجل اسكندراني بقيت عنده سبعة ايام

---

1) ابن المجاور ــ المستبصر ــ تحقيق اوسكار لفجرن ـ Oscar Löfgren ـ
طبعة ليدن 1950 .ج ٢ ـ ص 66

فلما شبع استعيب فيها واحضر ني الى الحاكم وادعى علي العيب فقال الحاكم: وما عيبها قال : هي واسعة الرحم رهلة الفرج فقلت له : اذا كان ا يرك صغيرا وانت تتباخل على الجارية بشرى الماء فما يصنع رحمها السمين الابيض المتوف الطيب ،فلما سمعها الحاكم قال لمن حضر : اخرجوهم فخرجنا ورحت الى شغلي وبقيت الجارية في كسبه ولم ادر ما فعل الدهر بهما " (1).

---

1) المصدر نفسه-ج 2 ص 66ـ67

الباب الرابع

تجارة كل صنف من الرقيق

الفصـــــــــل الاول

تجـــــــارة الرقيـــق المـذكر

٥ رواج رقيق الخدمة

انّ من عوامل نشاط تجارة الرقيق المذكر في هذا العصر اقتناء المسلمين له لاستخدامه في الميدان الاقتصادي من فلاحة وتجارة وصنائع وقد كان هذا الرقيق موجودا في المدن والعواصم والارياف والحقول على حد سواء. وكان يشترى ليشتغل لفائدة اسياده في المتاجر ودكاكين الحرف والمزارع والمراعي. كما كانت الدولة تقتني منه اعدادا وفيرة للقيام بأنشطة اقتصادية أيضا. ومن أشهر هذا الرقيق المجلوب لغايات اقتصادية الزنوج الذين كانوا يجلبون من الصومال وزنجبار الى العراق لتوفير اليد العاملة لكبار الاثرياء من اصحاب المصالح قصد خدمة السهول الملحية قرب البصرة حتى تصبح قابلة للزراعة وتتمّ الاستفادة من الاملاح المتجمعة (1).

---

(1) الطبري - تاريخ الأمم والملوك. ج 3 ص 1742

فقد جلبت جماعات كبيرة من الزنوج لهذا العرض كان بعضها يتراوح بين ألف وخمسة آلاف (1) وقد يصل عددها الى اكثر من ذلك بكثير. فقد بلغ عدد احدى هذه الجماعات في منطقة "دجيل الاهواز" خمسة عشر الفا (2) كما استعمل عبيد القرى المجاورة للبصرة في هذه المهام الاقتصادية الفلاحية ايضا (3).

ولئن كان استخدام مثل هذه المجموعات الكبيرة من الرقيق في خدمة الأرض يعتبر ظاهرة نادرة في تاريخ المسلمين الاقتصادي فانه لا مجال للشك في انّ الرقيق قد جلب للقيام بشتى المهام الاقتصادية كالعمل في المناجم والمزارع والاضطلاع بممارسة مختلف الصناعات والتجارات لفائدة الاسياد.

---

(1) ل. ماسينيون - L. Massignon - دائرة المعارف الاسلامية مقال زنج - ج 4 ص 1281 - 1282

(2) الطبري - تاريخ الامم والملوك - ج 3 ص 1750. 1751

(3) المصدر نفسه

وقد قدم لنا ابن حوقل صورة حيّة عن استخدام السيد لعبده في التجارة وتنمية الأرباح وذلك من خلال ما رواه عن أحد التجار بما وراء النهر وهي أخبار تصوّر لنا مدى تعويل السادة على مماليكهم في الاشراف على مباشرة شؤونهم التجارية (1) كما عرضت لنا كتب الحسبة صورا عن اختبار الرقيق في شتى المهن والحرف والصنائع ممّا يدّل على أهمية هذه الايدي العاملة في حياة الاقتصاد الاسلامي اذاك (2) وكان شأن المغرب شأن المشرق في هذا المجال فقد كان للرقيق بالاندلس مثلا دور كبير في اقتصاد البلاد الفلاحي والصناعي وكانت لهم يد بيضاء في ازدهار الحضارة الاندلسية (3) .

---

(1) ابن حوقل - صورة الارض - الترجمة الفرنسية . ج - 2 - ص 382 - 380

(2) السقطي - آداب الحسبة - ص 47 - 50

(3) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 180 - 185 و ص 208 - 214 .

وقد نشطت تجارة الخدم في هذا العصر سواء منهم المختصون بخدمة القصور والبلاطات أو الذين يقع اقتنائهم لخدم الأسر في المنازل. وكانوا يتألفون من رقيق مذكر ومؤنث على حدّ السواء. كما كانوا يتألفون من الخصيان أيضا . ويحسن أن نقدم بعض الامثلة على رواج تجارة هؤلاء الخدم بالمشرق والمغرب خلال هذا العصر. ففي عهد المكتفي بالله (289 ـ 295 هـ / 902 - 908 م) كان بدار الخلافة ببغداد عشرة آلاف خادم (10.000) من سود وصقالبة وفي عهد المقتدر (295 - 320 هـ/ 908 - 932م) احدى عشر ألفا (11.000) منهم سبعة آلاف (7.000) من السود وأربعة آلاف (4.000) من الصقالبة وعدّ من بينهم اربعمائة حارس (400) وثمانمائة (800) فرّاش وكان بالبلاط اذاك نوعان من الخدم: "الخواص" وهم موكلون بخدمة الخليفة خاصة و "البرانية " وهم الذين يخدمون خارج الدار وليسوا متعلّقين بخدمة سيدهم في القصر (1) .

---

(1) الصابي (هلال) ـ رسوم دار الخلافة ـ ص8 ـ 25

ومما ذكر عن الخليفة الطائع لله (363 - 381 هـ / 974 - 991 م) في استقباله لعضد الدولة سنة (367 هـ / - 977 - م) أنه وضع حوله من خدمه "الخواص" مائة وعلى جانبي السرير الخدم "المطيعية" وهم شيوخ الخدم من الصقالبة ومنهم "خالص" و"طريف" و"بدر" و"أهيف" و"سابور" و"رياض" و"موهب" و"صلف" وغيرهم (1) .

وكان كذلك شأن تجارة الخدم بالمغرب الاسلامي ويعرف ذلك من خلال ما يتهاداه الملوك والأمراء منهم فقد أهدى ابراهيم بن أحمد الأغلبي (261 - 289 هـ / 875 - 902 م) سنة (282 هـ / - 896 - م) مائة خادم الى المعتضد (279 - 289 هـ / 892 - 902 م) كما أهدى زيادة الله بن الأغلب (290 - 296 هـ / 903 - 909 م) سنة (291 هـ / - 904 - م) مثل ذلك الى المكتفي (289 - 295 هـ / 902 - 908م) (2)

---

(1) المصدر نفسه - ص 80 - 81

(2) ابن الزبير - الذخائر والتحف - ص 44

وكان لسكان المدن والعواصم من الخواص العديد من هؤلاء الخدم أيضا. وقد ذكر البكري عن سكان أودغست من العرب وبربر زناتة أن الرجل الواحد منهم كان يملك ألف خادم واكثر من ذلك (1) وكان الاندلسيون يقتنون رفيق الخدمة لاستخدامه في شتى مصالحهم، شأنهم في ذلك شأن ملوكهم الذين استكثروا من هؤلاء الخدم وجعلوهم متصرفين في عدّة ميادين. وقد روي انّ المنصور بن أبي عامر (326 - 392 هـ/938-1002م) قد حلب السودانيين المشهورين بصبرهم على السير والعدو ليكون منهم فريقا من عمّال البريد. وكان يسمّى الواحد منهم "رقاصا" (2) وذلك قبل انتشار الحمام الزاجل في القرن الخامس هجري (3). هذه بعض الامثلة عن رواج تجارة هؤلاء الخدم مشرقا ومغربا وسوف نرى أهمّية الخدم من الرفيق المؤنث في الفصول القادمة.

---

(1) البكري - المغرب - ص 168

(2) بروفنسال - Provençal . تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 2 ص 255 احالة رقم 3

(3) المرجع نفسه - ج 3 ص 177 - 179

ج) تجـــارة الغلمـــــان

أ- ظـاهـــرة الـــولـع بالغلمـــــان

لقـد كـان لبعـض الظـواهـر الاجتماعيـة والخلقيـة اثـر كبيـر في تنشيـط بعـض وجـوه تجـارة الرقيـق ومـن بينهـا ظـاهرة الشـذوذ الجنسـي التى غـزت المجتمع الاسـلامي وفشت خـاصـة فى الطبقـات العليـا منـه بشكـل غـريب.وقـد تجسمت هـذه الظـاهرة التي عـاصـر استفحالها الفتـرة الزمنيـة التي نـدرسهـا فى الولـع الجنسي بالغلمـان وممارسـة عـادة اللـواط التى حـرمتها الشريعـة . وقـد وجـدت هـذه النزعـة الشـاذة تلبيـة لـرغبتهـا فى صغـار السـن من الرقيـق خصـوصـا اذا كـانـوا يتمتعـون بحـظ وافـر من الجمـال . فكـان الخـواص يميلـون بحكم حياتهم المترفـة الى التمتـع بالغلمـان.ورغب الكثيـرون منهـم ممن بيـن ايـديهـم من جميـلات الجـواري لان عيشـة البذخ قـد حطتهـم بمـا فيهـا من بطـالـة الى ضـرب من الهوجـة، والسعي وراء انـواع الشهـوات فكـانـوا يبحثـون عـن وسـائـل جـديـدة للمتعـة كلمـا سئمـوا الوسـائـل القـديمـة وبـذلـوا فى سبيـل ذلـك الامـوال الطائلـة .فليس من الغريب اذن ان يكـون من نتـائج هـذا الشـذوذ والاقبـال على اقتنـاء الغلمـان في اسـواق الرقيـق وجلبهـم عن طريق التجارة لتزيين المجالس وتوفير اللـذة فيهـا فروجـوا بـذلـك تجارة هـذا النـوع من الرقيـق .

وقد تعددت مدلولات مصطلح الغلمان في هذا العصر فاطلق على الرقيق المتخذ للخدمة في القصور وكذلك على المماليك المصطلعين بحراسة اصحاب الجاه والثراء، والمكونين للحرس الخاص بالخلفاء والملوك. وقد استعمل بعضهم في الجند ايضا. والمقصود بالغلمان هنا هو الرقيق الصغير السن المتخذ للمتعة واللهو والرقيق الذكر الذي كان على جانب من الجمال ومنه الخصيان الذين حظوا بعناية خاصة وكانوا يتزينون ويتعطرون ويلبسون فاخر الثياب ويظهرون التخنث (1). فكان اسيادهم لا يتحرجون من الاستمتاع بهم والعدول بهم عن وظيفتهم الاصلية وهي حراسة الحريم. ولم يكن تعدد مدلولات مصطلح ((الغلمان)) من قبيل الاتفاق والصدفة، وانما سببه ارتباط هذه الوظائف ببعضها بعضا فقد يتخذ ((الغلام)) الصغير السن للمتعة، فاذا ادرك البلوغ وكبر استعمل للخدمة والحراسة فاذا اتقن فنون الحرب استعمل في الجند. وكذلك الشأن بالنسبة الى الخصيان الذين يقتنون للخدمة ثم يصبحون اداة لهو اذا تمتعوا بحظ من الحسن. وكان الغلمان المتخذون للمتعة من الرقيق الابيض والاسود على حد السواء (2)

1) فيليب حتي PH HITTI- تاريخ العرب ص 108

2) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص 69.70

ب-اسباب الظاهرة

وقد اشار ادباء العصر الى بعض العوامل المؤدية الى طهور الشذوذ الجنسي في المجتمع الاسلامي. فذكروا ان اللواط عادة مستوردة من بلاد المشرق، انتقلت مع جيوش العباسيين الذين جاؤوا من خراسان. واوضح الجاحظ في ((كتاب المعلمين)) الاسباب الداعية الى انتشار هذه الفاحشة في الخراسانيين فارجعها الى خروج الغلمان في البعوث مع العسكر، لان ابا مسلم الخراساني منع خروج النساء مع الجند خلافا لما كان جاريا في عهد بني امية فلما خرج الغلمان مع الجند طال مكثهم معهم ليلا نهارا وعند اللباس والتستر وهم جنود فحول فكانت ابصارهم تقع على خد كخد المرأة وردف كردفها وساق كساقها فتولدت هذه الفاحشة (1).

---

1) الجاحظ - مفاخرة الجواري والغلمان الرسائل ج 2 ص 123

آدم متز A. MEZ - الحضارة الاسلامية - ج 2 ص 166 و ص 182 - احمد امين - ظهر الاسلام - ج 1 ص 131

ولم يكن هذا العامل الذي يصفه الجاحظ هو الوحيد في الواقع وإلا لما سرت هذه العدوى خارج صفوف الجند، وخارج اقليم خراسان. فهذا الثعالبي يشير في ((الضعاف والمنسوب)) الى انتشارها في بلاد الافغان خلال القرن الثالث للهجرة وتفاقمها في القرن الرابع (1) كما ان قصور الخلفاء قد صارت مسرحا لهذه الفاحشة ردحا طويلا من الزمن فكأن رجال البلاط سئموا النساء لكثرة مخالطتهم لهن فراحوا يبحثون عن اسباب جديدة لاثارة الشهوة، وابتكروا اشكالا اخرى من اللهو والقصف (2) ولا مناص في الجملة من ارجاع هذه الظاهرة الى اسباب نفسية واجتماعية بعيدة الغور ومن ان نلاحظ انها مرتبطة بدخول العناصر الاعجمية في المجتمع الاسلامي، اذ لم يكن لهذا الولوع بالغلمان شأن طوال العصور التي كانت السيادة فيها للروح العربية. ولذلك لانجد في اهتمامات الفقهاء في تلك العصور ما يشير الى تلك الظاهرة اذ لم يكن في واقعهم الاجتماعي ما يدعوهم الى الحديث عنها.

---

1) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 166

2) صلاح الدين المنجد - بين الخلفاء ..... ص 45 - 50

وقد لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان ظاهرة الشذوذ في المجتمع الاسلامي قد كان لها يد ايضا في نشر الولع بالغلمان. وذلك لان السادة المالكين الذين يستخدمون البالغين من الرقيق المذكر ويتسرون بالجواري، قد كانوا عرضة لاستغلال الصبيان من الرقيق، خصوصا ان هؤلاء الصبيان قد كانوا يختلطون بغيرهم من الكهول الذين لا تربطهم بهم رابطة ابوة او اخوة وانما رابطة امتلاك وخدمة . فقد لا تكون اذن هذه الاوضاع اجنبية عن وجود العلاقات الشاذة وبذلك يمكن القول بان الرقيق، كان من عوامل ظهور الشذوذ كما اصبح الشذوذ نفسه دافعا من دوافع اقتناء الرقيق .

وقد تحدث الجاحظ عن بعض الاسباب التي كان الرأي العام يفضل من اجلها الغلمان على الجواري . وهو ما دعاه الى تأليف رسالة في ((مفاخرة الجواري والغلمان)) (1) ومما جاء فيها قوله : ((ان من عيوب الجواري ان الرجل اذا اشترى الوصيفة الى ان يستبرئها محرم

---

1) الجاحظ ـ مفاخرة الجواري والغلمان ـ
الرسائل ـ ج 2 ص 104 - 113

طيـــــه ان يستمتـــع بشيء منهـا قبـل ذلك ... قـال الشاعـر : (في الغلام)

((قد يتك انمـا اخترنـاك عمـدا لانك لا تحيض ولا تهيـض ..))

فـامـا الادبـــاء والظـرفـاء فقـد قـالوا في الغلمـان فاحسنـوا ووصفـوهـــم فأجـادوا وقـدّ مـوهـم على الجـواري فى الجـد منهـم والهـزل ... قـــال (صـاحب الغلمـان) : لـو نظـر كثيّـر وجميـل وعـروة ومـن سمعت من نظرائهـم الى بعض خـدم اهـل عصـرنـا ممـن قـد اشتـري بالمـال العظـيم فراهـــةً وشطـطـا ونقـاء لـــون وحسـن اعتـدال وجـودة قـدّ وقـوام لنبـذوا بثينـــة وعـــزة وغـــراء مـن حـالق وتركوهـن بمزجر الكـلاب ..... وقال آخر :

((ان تزن محصنـة تُـرجَـم عـلانيـة وان يلط عـزب لا يرجم العزب))

وقـــال آخـــر :

((ايسـر مـا فيه من مفـاضلـة أمنـك من طمثه ومن حبلـه ...))

وقـال بعض اللوطيين : انمـا خلق الا بر للفتحة مدوّر لدوّة ولو كـان للجِرِ كـــان على صيغة الطبرزين ...))(1) ثم يتحـدث عن التمتـع بجمـال الخصيـان لانهـم كانوا من اشهـر الغلمـان بالجمـال فيقـول ((وذكرت الخصيـان وحسن قدودهـم ونعمـــة ابشارهـم والتذ ذبهـم وأن ذلك شيء لا تعرفـه الا فاعـل))(2) .

1) المصـدر نفسـه ـ ح 2ص104. 126

2) المصـدر نفسـه ـ ح 2 ص 123

ج- موقف العلماء منها

وعندما تفشت عادة الاستمتاع بالغلمان في هذا العصر جلبت اهتمام الفقهاء فأدلوا بفتاويهم في هذا الشأن واختلفت اراؤهم في ذلك اختلافا واضحا. فذهب بعضهم الى اعتباره في حكم الزنا وجعلوا حده الرجم (1) وميز بعضهم الاخر بين اللواط بالغلام المطوك وغير المطوك فأسقطوا الحد عن الاول وأقاموه على الثاني لكن أغلبهم قد أفتى بان لا حد فيه واكتفوا بمجرد التعزير عليه من قبل القاضي (2) ويدل موقفهم هذا على مراعاتهم لاحوال عصرهم التي رسخت فيها هذه العادة الشاذة .

وقد تسربت هذه العادة الى العلماء انفسهم من فقهاء ومفسرين ومحدثين وصوفية، مع ما عرف به هؤلاء من التزام لحدود الشرع وصرامة في الاخلاق. وقد نقلت عنهم اخبار عديدة تصف ولعهم بالغلمان واستهتارهم بهم. وقد روى ياقوت الحموي نبذة منها فمن ذلك ما رواه عن هيام الفقيه المشهور محمد بن داود الاصفهاني (3) باحد الغلمان

1) آدم متز A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 165
2) السبكي - الطبقات - ج 3 ص 18
3) توفي سنة (297 هـ/ - 910 - م)

حتى كان ذلك سببا في مرضه ثم موته - ولما عاده احدهم في مرضه وسأله عن حاله اجاب ((حب من تعلم اوثني ما ترى . ثم قال : حدثني سويد بن سعيد الحدثاني عن ابي يحي القتات عن مجاهد عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : من حب فعف وكتم ثم مات مات شهيدا ... ثم مات من ليلته)) (1) وكان من نتائج تفشي هذه الظاهرة بينهم ان ادى الامر بالعلماء الاتقياء الى منع الشبان غير البالغين من حضور دروسهم حتى يتجنبوا اتهام الناس لهم بحب الغلمان فكان بعض الصبيان الراغبين في التعلم يتخذون لحىً صطنعة ليتمكنوا من حضور مجالس العلم (2).

ومع ذلك لم ينج اشهر رجال الدين بالزهد والتقوى من الاقبال على اقتناء الغلمان لغرض المتعة . ومن هؤلاء الصوفية . فقد تطرقت اليهم في هذا العصر آفة ((صحبة الاحداث)) وقد اشار الامام القشيري الى هذه الافة التي اصابتهم وروى عن ابي سعيد الخراز (3) انه قال ((رايت ابليس في النوم وهو يمرّ عني

1) ياقوت الحموي - الارشاد - ح 1 ص 308.309

2) آدم متز - A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 173

3) توفي سنة - (277هـ/890 م)

ناحية فقلت له : تعال مالك ؟ فقال ايش اعمل بكم ؟ انتم طرحتم عن نفوسكم ما اخادع به الناس فقلت : وما هو ؟ قال الدنيا . فلما ولّى عني التفت اليّ وقال : غير ان لي فيكم لطيفة . فقلت: وما هي ؟ قال: صحبة الاحداث)) (1) وروي ايضا عن الواسطي (2) انه كان يقول ((اذا اراد الله هَوَانَ عبد القاه الى هؤلاء الانطاع والجيف)) مشيرا بذلك الى صحبة الاحداث .(3)

هذه شهادات الصوفية انفسهم على انسياقهم مع تيار الولع بالغلمان وقد استمر زيغهم هذا الى عصور متأخرة . فهذا الهجويري احد صوفية القرن الخامس للهجرة يشهد بانهم لم يتورعوا عن جعل صحبة الاحداث قاعدة في مذهبهم (4) ومما شجعهم على المضي في هذا الاتجاه اعتقاد جماعة منهم انهم بوصولهم الى مرتبة ((الولاية)) قد سقط عنهم التكليف الشرعي واحلت لهم المحرمات وقد آخذهم ابن حزم على موقفهم هذا لانهم قالوا بان ((في اولياء الله تعالى من هو افضل من جميع الانبياء والرسل وقالوا : من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها ...))(5) وهكذا يتضح مما سبق ان موقف العلماء ورجال الدين من الصوفية لم يعرقل مجرى هذا التيار بل ساعد على انتشاره وساهم في توفير المناخ الملائم لرواج تجارة الغلمان .

---

3) القشيري ـ الرسالة ـ ص 24

4) آدم متز A.MEZ ـ الحضارة الاسلامية ـ ج 2 ص 35

5) ابن حزم ـ الفصل ـ ج 4 ص 226

1) القشيري ـ الرسالة ـ ص 22 . 23

2) توفي ـ (320هـ / 932م)

د- انتشارها بالمشرق والمغرب

وكان رجال البلاط اكثر الناس ولعا بالغلمان. وقد سمحت حياة الفراغ لبعض الخلفاء بالاستكثار من هذا النوع من الرقيق واشار المؤرخون الى ان اول من صدف عن الجواري منهم وعني باقتناء الغلمان وقدمهم وآثرهم وجعلهم لاوقات خلوته ومجالس انسه الخليفة الامين العباسي (193-198 هـ/790 - 813 م) (1) ويذكر المسعودي انه بالغ في الشغف بهم حتى سعت ((ام جعفر)) الى صرفه عنهم واستمالته الى الجواري. فانتخبت مجموعة منهن والبستهم ثياب الغلمان لتهرز فتنهن ولتحد من استهتاره وشذوذه - يقول في ذلك ((فلما رات ام جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجواري القدود ات الحسان الوجوه وعمت رؤوسهن والبستهن الاقبية والمناطق فماست قدودهن وبرزت ارداقهن وبعثت بهن اليه فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه اليهن وابرزهن للناس من العامة والخاصة فاتخذ الناس الجواري المطومات والبسوهن الاقبية والمناطق وسموهن الغلاميات)) (2).

---

1) صلاح الدين المنجد : بين الخلفاء والخلعاء ص45. 50

2) المسعودي : مروج الذهب ج 8. ص299

وهكذا . حمل هذا الشغف اصحابه الى تغيير هيئة المرأة وتشبيهها بالغلام.وحدث تنافس في هذا المجال بين الذكور والاناث من الرقيق. فهذه ((عريب)) المغنية المشهورة التي كانت وصيفة الامين وعمرها اذاك سبع عشرة سنة تقول :((فكنت البس قباء اومنطقة واقوم على راسه وربما سقيته)) (1) وتواصلت هذه العادة في تشبه الجواري بالغلمان خلال القرن الرابع للهجرة وصرن يرتدين المناطق والاقبية.وقد وصف المسعودي اختلاف الجواري الغلاميات بين يدي الخليفة القاهر العباسي (320-322هـ/ 934-934م) نقلا عن احد جلسائه وهو محمد العبدي الخراساني فقال ((فبادر اليه جوار كثيرة قد هن واحد توهمتهن غلمانا بالقراطق والاقبية والطرز والاقفية ومناطق الذهب والفضة)) (2) وقد اثر هذا التشبه بالغلمان في لباس الجواري وزينتهن فصرن يتخذن ((الشوارب الخضر)) وهي شوارب صغيرة تمتد فوق شفاه الجارية الغلامية (3) وفي شعر ابي نواس اشارة الى ذلك حين يقول :

((اصداغهن معقربات والشوارب من عبير))(4)

وتجلت هذه النزعة عند ((الغلاميات)) في طريقة قص الشعر وتسريحه اذ

---

1) آدم متز A-MEZ-الحضارة الاسلامية-الشابشتي- الديارات- ح 2 ص 165

2) المسعودي - مروج الذهب - ج 8 ص 300

3) الاصفهاني - الاغاني ج 13 ص 128 - زكية عمر العلي - التزيق والحلي ص 89 - 90

4) ابونواس - الديوان - ص 83

اصبحن يتعمدن قص ((الطرر)) و ((الاصداغ)) بطريقة فقيـة تسمى ((الطم)) ومن اجله سميت ((الغلامات)) من الجواري باسـم ((المطمومـات)) (1) ومـن اطرف ما يـذكر في هذا الصدد ان ((ريطة)) بنت العباس بن علي زوجة المتوكل العباسي (238-246هـ/ 847-861 م) قد فضلت الطلاق على ان ((تطم)) شعرها كمـا طلب منها المتوكل وذلك لكي لا تتشبـه بالجـواري (2).

واذا ما سلمنا بان الخليفة الامين كان من اول رجال السياسة ولعا بالغلمان فان هذه الظاهرة لم تكن خاصة به، بل انتشرت عدواها في اوساط رجال الدولة عموما، وعرف بها حتى اشهرهم بالحزم والجد والاستقامة في السلوك . ويمكن ان نكتفي بضرب مثال على ذلك من اخبار الخليفـة المأمون (198-218 هـ/ 813-833م) الذي اشتهر بالعزوف عن اللهو وباهتمامه بشؤون الملك . ومـع ذلك يذكر الثعالبي انه كان يتخـذ الولدان بدلا من النساء ويلهوبهم صحبة وزيره يحي بن اكثم وقد عرف منهم غلامه ((متـرف)) الذي روى لنا ما كان يدور في مجالس سيده مع يحي . بقول ((مترف)) : قال المأمون : ياأبا محمـد اخبرني عن اظرف غلام مربك ؟ قال : نعـم يا امير المؤمنين. احتكم اليّ غـلام في نهاية الملاحة والطرف واللباقة فاخذته

---

1) زكية عمر العلي - التزيق والحلي - ص 89 . 90

2) الجاحظ - المحاسن والاضداد - ص 15

عينـــي وتعلقـه قلبي فلم افصـل فى الحكـم بينـه وبين خصمـه ايثـارا مني للقـائـه ومعـاودتـه ايـاي في حكـومته . فـدخـل اليّ حـين خلـوة وثله لا يحجـب عنـي فلمـا وصـل اليّ قـال : ايهـا القـاضي اعـدنـي على خصمي فقلت لـه : ومـن يعدني على عينيك يابنيّ؟ قال شفتـي وادناهـا منـي . فلمـا شممت الخمـــر من فيـه وبلغت حـدا من الثقـل قلت لـه يابنيّ مـابال شفتيك متشققتيـــن ؟ فقـال : احلـى مـا يكـون التين اذا تشقق ؟ فقلت لـــــه ويـدي فى ثيـابـه : يابني مـاأنحفـك؟ فقـال : كلمـا دق قصب السكـــر كـان أحلـى . فضحـك المأمـون ووقـع لـه بمائتـي دينـار وقـــال : اوصلهـا اليـه ولو على اجنحـة الطيـــر . وكـان الغـلام قـد التحـــى وكـان يحـي يعـرف منـزلـه فأوصلهـا اليـه)) (1) .

وقـد واصـل المعتصـم (218-227هـ/833-842م) سلـوك اخـويـــه الأميـن والمأمـــون في اتخـاذ الغلمـان واشتهـر بخلـع العـــــدار فى عشقهـم وامتلك منهـم زهـــاء ثمانيـة آلاف (2) وكـــان للمتوكـــل (232-247هـ/847-861م) غـــلام مشهـور يسمـى ((شـاهـك)) وكـــــان

---

1) الثعالبي ـ ثمار القلوب ـ ص 123 . 124 و ص 148
صلاح الدين المنجد ـ بين الخلعاء والخلعاء ص 45 . 50
2) المرجع نفسـه

وزيره الفتح بن خاقان يتعشقه ويهيم به (1) اما المعتز (252-255هـ/866-869م) فكان يغدق الاموال الكثيرة على غلامه ((يونس بن بغا)) ويشرب على وجهه ويقول فيه :

تغيب فلا افرح فليتك لا تحرح (2)

وقد اشتهر المعتمد(256-279هـ/870-892م) بحبه لغلامه ((بدر الجلنار)) (3) وكان الوزراء والامراء وغيرهم من الوجهاء والاثرياء وسائر افراد طبقة الخاصة ينسجون على هذا المنوال في اتخاذ الغلمان .

وقد ازدادت هذه الظاهرة استفحالا في القرن الرابع فهذا الامير سيف الدولة الحمداني (333-356هـ/944-967م) لم تشغله غزواته وحروبه عن الاهتمام بالغلمان وقد اشتهر بهيامه بغلام له يدعى ((ثمل)) (4) وهذا الامير البويهي بختيار (334-367هـ/943-978م) يغتم لغلام

---

1) الشابشتي ـ الديارات ص 4 . 5 . صلاح الدين المنجد بين الخلفاء والخلعاء ص 45 . 50

2) الشابشتي ـ الديارات ص 107

3) المصدر نفسه ص 66

4) مسكويه ـ تجارب الامم ج 6 ص 81

لـــه تـركـي وقـع في الاسـر ويقـــول ان ((فجيعتـه بهـذا الغـــــلام فـوق فجيعـتـه بالمملكـة والانسـلاخ منهـا ومن النعمـة)) (1) وقـــد اقتـــدى النـاس بسلـوك حكـامهـم وادى الامـر بالمجتمـع الاســـلامي ازاء الى اقـامـة الملاهـي التي يقصـدهـا الراغبـون في الغلمـــــان مثـــل الطهـى الذي اقيـم على شـاطئ دجلـة اذ كـان المـــــرء يجـــد فيـه الطبي الغـريـــر))الى جانب ((الظبيـة الغـريرة)) ولا يدفع قـاصـــده في الليلـة سـوى درهمين (2) وقـد وصـف ادبـاء العصـــــر مثـل الهمـذانـي (3) والتوحيـدي (4) انتشـــار هـذه الظاهرة في المجتمع.

وقـد اكثـــر شعـراء هـذا العصـر من التغنـي بالغلمـــــــان وتجـــاوزوا القـدر الذي بلغـه ابو نـواس. فبعـد ان كـان شعـــــر الحســـن بن هـانيء في الغلمـــان يعتبـر بـدعـة وشـذوذا امســـت ((الغـلاميـات)) غـرضـا قـائـم الذات في الشعـر العربي نجـــــده عنـدا ابي تمـام والبحتري والصنوبـري وابي الفتـح البستي وكشاجـــــم وابن حجـاج وابن سكـرة والقـاضي التنوخي والثعالبي والصابي وأبي فراس الحمداني

---

1) المصـدر نفسـه ج 6 ص 469 ابن الاثير ـ الكامل ج 8ص495
2) الثعالبي ـ يتيمـة الدهر ـ ج 1ص483
3) الهمذاني ـ المقامـات ص
4) التوحيدي ـ الامتاع والمؤانسـة ـ ج 2 ص 171 ـ 178

والوزير المهلبي وغيرهم . ومن اشهر قصائد ((الغلاميات)) في هذا العصر قصيدة سعيد الخالدي التي مطلعها :

((ما هو عبد لكنه ولد خولنيه المهيمن الصمد))(2)

واذا كان هؤلاء الشعراء يجمعون بين الغزل المؤنث والمذكر فان شعراء آخرين مثل ((صعب)) و ((السلامي)) و ((الخبزأرزي)) (2) قد اختصوا بالغزل بالغلمان ومما عرف عن نصر بن احمد الخبزأرزي شاعر البصرة انه كان يشتغل بخبز الارز في حانوته بالمربد وينشد الاشعار في الاحداث الذين يرتادون دكانه ومن قوله في احدهم .

وددت اني بكفه قلم اوانني مدة على قلمه

يأخذني مرة ويلثمني ان لطمت منه شعرة بفمه (3).

وكان لحركة الغلمان رواج ~~بالمغرب~~ ايضا بالمغرب الاسلامي وان لم يكن به حسب ابن حوقل من الفواحش الظاهرة والعادات المنكرة مثل ما بالمشرق (4) الا ان هذه الظاهرة قد غزت المجتمع الاسلامي المغربي ، وكان في

1) احمد امين ـ ظهر الاسلام ج 1 ص 140
2) الثعالبي - يتيمة الدهر ج 2 ص 133 وص 163
الشابشتي - الديارات ص 183 آدم متز A HEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 166
3) المسعودي - مروج الذهب ج 8 ص 374 الثعالبي -
يتيمة الدهر ج 2 ص 133
4) ابن حوقل - المسالك ـ ص 70 آدم متز ـ A HEZ
الحضارة الاسلامية ج 2 ص 175

سلـــوك الخلفاء والملـوك ما شجـــع عليهـا ايضـا . فمما يـروى عـن استهتـار الحاكـــم بامـر الله الفـاطمي(386-411هـ/996-1020م) انـــه امـــر احـــد رجالـه بان ياتـي شيخـا خليعـــا بمشهـد منـــــه ومـن جلســائه ،ففعـــل الرجـل وضحـك الخليفـــة مـن قبـــح المشهـد وطـــرب لـــه (1) وكـان للغلمـان رواج ايضـا بافريقيـــــة واشتهـر منهـم ((ملاح السـودان)) الى جانب الغلمـان البيـــــض وكـــان امـــراء افريقيـــة يهـدون منهـم الى ملـوك المشـرق فمـــن ذلـــك مثـلا مـــا ذكـــره ابن الزبيـر في ((الذخـائـر والتحـف)) مـــن ان المعـز بن بـاديـــس(398 - 454هـ/1008 -1062م) قـد اهـدى الى الظـــاهـر(411-427هـ/1020-1035م) ((عشـرين خـادمـا من مـلاح السـودان صبيـــانـــا)) (2).

ولم تكـن عـواصـم الانـدلـس في القرنين الثالث والرابـع للهجـــرة تقـــل مجـونـا وخـلاعـة عن عـــواصم المشـرق اذ طهـر فيهـا الولـــع بالغلمـــان ويكفـي ان نراجـع كتـاب ((طوق الحمامـة)) لابن حـــــزم

---

1) المرجـع نفسـه- ج 2 ص 163

2) ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ـ ص 69 . 70

الاندلسي لندرك ابعاد هذه الخلاعة وهذا التهتك ومن الامور الدالة على انتشار اللواط وصيرورته امرا عاديا في هذا المجتمع ((حب الولد)) عند الخليفة الحكم الثاني (350 -366هـ/961-976م) (1) والهجاء الموجه الى القاضي ابن سالم (2) وكذلك الحكاية التي رواها لنا كل من ابن حزم والضبي حول احمد بن كليب الشاعر والنحوي القرطبي المتوفى سنة (426هـ/ 1035م) حزنا وهياما بغلام من الطبقة الارستقراطية لم يكن يستجيب لحبه . وقد انتشرت هذه الاخبار حتى رواها المشارقة .(3) وصورة عامة لم تكن عواصم المغرب لتخلو في هذا العصر من (مخنث)) او ((خصي)) او ((حاو)) يبيع محاسنه لمن يغليه الثمن . ولعل من اشهر دواوين الغزل بالغلمان في الادب العربي ديوان الشاعر الاندلسي ابن قزمان الذي تناول فيه لاول مرة الغزل بالخصيان وفتيان الصقالبة الذين كانوا يعيشون في ظل الخلفاء وفي قصورهم الخاصة (4) ويبدو من خلال اشعاره واشعار غيره من شعراء المغاربة شدة الولع بالغلمان ورواج سوقهم في مختلف الاوساط.

---

1) بروفنسال Provençal-تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2ص173 احالة رقم 4
2) المرجع نفسه - ج 2ص 218 احالة رقم 2
3) المرجع نفسه-ج 3ص444 . 448 عند مراجعة طوق الحمامة مجلة الاندلس سنة 1950 عدد 15 ص357. 360. 368
3) L Provençal - En relisant le « collier de la colombe » Revue Al-Andalus - 1950 N° XV - pp. 357. 366 368
ياقوت الحموي-الارشاد ج 2ص 19. 23. ادم متز A MEZ-الحضارة الاسلامية ج 2ص 169. 170
4) بروفنسال Provençal-تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3ص 444. 448

3) صفقات رقيق الحرس والجند

ومن اهم عوامل نشاط تجارة الرقيق المذكر افتناء الدول الاسلامية له لغايات عسكرية. فالرغم من ان فريضة الجهاد لم تكن واجبة حسب الاحكام الفقهية الا على الذكر البالغ الحرّ (1) ولم تكن واجبة على العبد لارتباطه بواجبه نحو مالكه ولعجزه المالي (2) فقد وجد ارباب السلطة في جواز استئذان العبد من سيده قبل الخروج للجهاد مخرجا ذريعة لتجنيد الرقيق (3) كما اعتمدوا ايضا على فتاوى الفقهاء في حالات النفير العام وهي حالات يصبح فيها حمل السلاح واجبا على الحرّ والعبد والمرأة على السواء (4).

وكانت ظاهرة اتخاذ الحرس الخاص في هذا العصر للاحتماء من انتقام عناصر الجند ونزاع العصبيات مجالا متسعا لشراء العناصر الرقيق. فنشأت مجموعات من هذا الحرس في بعض الدول والامارات حمل بعضها اسماء مكوّنيها او قوادها. فقيل مثلا "اليانسية" نسبة لياقوت و "المفلحية" و "المسرورية" وعكدا (4)

---

1) ابن قدامة - المغني - ج 10 ص 366

2) نفس المصدر - ج 10 ص 352 وقرآن - سورة التوبة - آية 75

3) اليماني - السير الكبير - ج 1 ص 251-257

4) المصدر نفسه

5) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية - ج 1 ص 271

ولمعت اسماء عديدة من بين رقيق الجند لعب اصحابها دورا كبيرا في قيادة العساكر وسياسة الدول مثل "مؤنس القائد بالعراق و "فائق "قائد السامانيين و"جوهر الصقلي" بالمغرب ومصر و "كافور الاخشيدي "بمصر و " سبكتكين " بالافغان (1) .

ويحسن بنا ان نقدم صورة لنشاط تجارة الرقيق العسكري بدول المغرب والمشرق الاسلامين معتمدين على ما ورد في المصادر التاريخية وكتب الاخباريين من اخبار تلك الدول ، مع الملاحظة ان اسماء مختلفة كانت تطلق على هذا النوع من الرقيق من "حشم " و "غلمان " و "خدم "وحصيان" وهي تسميات ذات مدلولات متعددة وان كانت تدل فيما تدل عليه على رقيق خاص للسلاح (2) وسوف نعين في سياق آخر معاني احسن لهذه التسميات الاصلية لها بالرقيق العسكري . ولنبدا بتقديم بعض الامثلة عما كان المسارعة يقتنونه في هذا العصر من رقيق لتدعيم حرسهم وكتائب خدمهم . فقد ذكر ابن الزبير في "الذخائر والتحف "ان المواكب التي اقامها نصر بن احمد بن نوح الساماني (301-332هـ/ 913 - 943م) لاستقبال

1) احمد امين . ظهر الاسلام - ج 1 ص 130 . 131

2) ليفي بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 71 76
دوزي DOZY - ملحق المعاجم العربية - ج 1 ص 291

رسل ملك الصين سنة (327هـ / 938- م) كانت مناسبة لوصف ما اقتناه السامانيون باقليم ما وراء النهر من رقيق لتكوين حرسهم الخاص ولتعزيز فرق الجند .فقد اقام نصر عند استقبال الرسل اربعين حاجبا بين يدي كل واحد منهم الف غلام تركي وعشرة غلمان متقلدين السيوف.وكان على يمين نصر منهم مائة وعلى شماله مائة بالاضافة الى ما حشده من جيوش المماليك بفرغانة وخجندة واشروسنة وسمرقند والشاش واسبيجاب والصغد وفاراب وبخارى (1) وقد وصف رسول القادر بالله (381-422هـ / 991-1031م) الى محمود ابن سبكتكين الغزنوي (ت 421 هـ / 1030 م) وهو ابو العباس الطوسي ما رآه بغزنة من الغلمان المسلحين عند استقباله ، فقال: " فرأيت من الغلمان الاتراك الصبيان الذين برسم الحجر عدّة عظيمة في العدد والسلاح ذكر لي انها بضعة عشر الفا " (2) .

وقد كانت تجارة عبدا الرقيق على اشدها في العراق مركز الخلافة العباسية ولعل تجارة الرقيق العسكري ببغداد قد كانت المنوال الذي احتذاه الملوك والامراء بعواصم الدول الاسلامية الاخرى فبعد ان كان الاعتماد على العرب والفرس اتخذ الخلفاء العباسيون الرقيق التركي حرسا وجندا .وكان المأمون (198-218هـ / 813-833م) من اول من اتخذ نفسه بحرس تركي (3) وعمل المعتصم (218-227هـ / 833-842م) على

---

1) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص 13-150

2) المصدر نفسه ص 151

3) فاسيليف - VASILIEV - العرب والروم - ص 10 - 12

شراء افساح من رقيق الترك من بلاد ما وراء النهر وسهر على تدريبهم وتجنيدهم فتعاظم امرهم واقلقوا راحة ساكني بغداد فاختط لهم مدينة سامراء (1) وقد رأى الشاعر دعبل ابن علي الخزاعي (2) في ذلك مناسبة لهجاء الخليفة بقوله :

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ... ولم يأتنا عن ثامن لهم كتب

كذلك اهل الكهف في الكهف سبعة ... غداة ثووا فيه وثامنهم كلب

وانى لازهي كلبهم عنك رغبة ... لانك ذو ذنب وليس له ذنب

لقد ضاع امر الناس حيث يسوسهم ... وصيف واشناس وقد عظم الخطب

وانى لارجو ان ترى من مغيبها ... مطالع شمس قد يغص بها الشرب

وهمك تركي عليه مهانة ... فانت لاام وانت له اب(3)

فهذه الابيات فيها اشارة الى مشاهير هذا الرقيق العسكري مثل وصيف واشناس وغيرهما كبغا والافشين. وقد اشار الجاحظ في رسالته حول " مناقب الترك " الى مدى اقبال الدولة العباسية في عصره على اقتناء الرقيق وتجنيده والى ما اثار من حزازات بين هذا الرقيق وغيره

---

1) ابن طباطبا - تاريخ الدول الاسلامية بيروت 1960 ص 231

2) شاعر شيعي عاش من سنة (148 هـ / 766 م) الى سنة 246 هـ / 860 م)

3) السيوطي - تاريخ الخلفاء - طبعة القاهرة د ت ص 335

من عناصر الجند (1) وقد تفاقم امر هذه التجارة مع المتوكل (232-247هـ / 847-861 م) وصار نفوذ الاتراك معه حاسما (2) فقد روي انه ترك بعد وفاته ثمانية آلاف من الغلمان والمماليك (3) وكان للمعتضد (279-289هـ / 892-901 م) "الختارون" وهم حرس يبرزون في مواكبه ويتألف من المماليك المسلحين وكان له المماليك "الحجرية" وهم حرس اختيروا من بين الفرسان الذين يحسنون الركوب والرمي، ويقيمون في القصر والحجر تحت مراعاة الخدم والاستاذين وكانوا يسمون ايضا عسكر الخاصة (4) وقد كوّن المعتضد ايضا فرقة عسكرية من عبيد السودان (5) وقد وجد بدار الخلافة ببغداد في عهد المكتفي (289-295هـ / 902-908 م) عشرون الف غلام "دارية" اي مختصون بملازمة دار الخلافة وحماية الخليفة (6)

1) الجاحظ، رسالة في مناقب الترك والرسائل ج 1 ص 62 وما بعدها

2) فاسيليف - vasiliev - العرب والروم ص 10-12

3) ابن الزبير - الذخائر والتحف - ص 218-220

4) آدم متز - A-MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 271

5) هلال الصابي - تحفة الامراء تاريخ الوزراء نشر امدروز - Amadroz - بيروت 1904 ص 11-12

6) هلال الصابي - رسوم دار الخلافة ص 3

ويذكر الصابي ان عدد رقيق النوبة ممن يقوم بحفظ دار الخلافة من الرجالة الصافية خمسة آلاف رجل. وهؤلاء جنود محاربون فيهم الرجالة والخيالة. وقد قوي نفوذهم ايام المقتدر (295- 320هـ/ 907 -934 م) (1) ويرى ان هذا الخليفة قد اتخذ احد عشر الف مملوك في شكل حرس خاص بقصره (2) وكان في جيشه فرق كاملة من المماليك (3) كما كانت امور الشرطة او "المعونة" بلغة ذلك العصر بيد احد الارقاء الاتراك المشهورين وهو نازوك التركي (4) وقد سار خلفاء بغداد في القرن الرابع للهجرة على هذا المنوال. فأستبد الرقيق دونهم بالسلطة وصاروا لعبة في ايدي مماليكهم وتمكن البويهيون من السيطرة اذان على شؤون الحكم بالعراق.

وقد سار معظم الامارات والدول في هذا العصر على هذه السنة من شراء الرقيق الذكر من ابيض واسود لغايات عسكرية. فهؤلاء الزياديون

---

1) المصدر نفسه

2) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد -
نشر و ترجمة سالمون Salomon. باريس 1904 ج 1 ص 51

3) هلال الصابي - تحفة الامراء بتاريخ الوزراء -
نشر آمدروز Amedroz. بيروت 1904 ص 11-12

4) هلال الصابي - رسوم دار الخلافة - ص 9

الذين حكموا اليمن طوال القرنين الثالث والرابع للهجرة (204 هـ/ 820م- 402 هـ/ 1012م) يمارسون تجارة للرقيق الحبشي لهذه الغاية احترازا من عرب الجنوب وذلك بحكم انتمائهم الى الامويين وبالتالي الى عرب الشمال. ولكن هؤلاء العبيد الذين تكاثر عددهم قد استبدوا بالحكم دونهم آخر الامر، وتولى شؤون عاصمتهم " زبيد " عبد نوبي سنة (402 هـ/ 1012 م) هو حسين بن سلامة وآل الامر طيلة قرن ونصف اي من سنة (412 هـ/1021م) الى سنة (554 هـ/ 1159 م) الى اسرة بني نجاح ذات الاصل الحبشي (1).

وكانت مصر في عهد الطولونيين مسرحا لهذه التجارة. فقد اكثر احمد ابن طولون (254-270 هـ/ 868-884 م) في اقتناء الرقيق لحرسه وجيشه من جنس الاتراك والسودان وكان هؤلاء ذاته من اصل تركي، ومن الغلمان الذين وقع تدريبهم على خطة السيف. واشترى افواجا من العبيد وكون فرقا عسكرية واضطر لكثرة كتائب هذا الجند الى توسيع " الميدان " وهو قصر ملكي تحيط به قطائع الجند من كل جانب فكان لغلمان النوبة قطيعة وللروم قطيعة ولغيرهم ايضا. وقد اشتهر من هؤلاء الغلمان " لؤلؤ " الذي انقلب على سيده فيما بعد. وقد ذكر البلوي ان ابن طولون خلف بعد وفاته اربعة وعشرين الف غلام ابيض (2) وروي ايضا انه خلف خمسة واربعين الف اسود (3) وسار خطرويه

1) شلهود .Ch.elhod - مدخل الى تاريخ زبيد - أرابيكا - Arabica - سنة عدد ص 48-88

2) البلوي - سيرة احمد بن طولون ص 22-26 وص 33-34
وص 51-56 وص 349

3) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص 227

الطولوني (270-282هـ/884-896م) على هذا المنوال فكان له حرس يقاتلون امام جنده واذا ركب مشوا خلفه وقد سماهم " المختارة " (1) كما عج بلاطه بالخصيان حتى تنمروا له وكادوا يفتكون به فبطش بهم سنة (282هـ/ -896-م) (2) وبصورة عامة يمكن القول بأن هذه التجارة كانت مزدهرة ايضا في عهد الطولونيين بمصر حتى روي انه وجد بالفسطاط لعهدهم اربعة وعشرون الف غلام من الاتراك واربعون الف من السود (3)

وتواصل امر تجارة الرقيق العسكري في عهد الاخشيديين فروي عن الاخشيد (321-334هـ/933-946م) انه "كان له ثمانية آلاف مملوك يحرسه في كل ليلة الفان منهم " (4) وكان الجيش في عهد الاخشيديين يتألف من رقيق تركي وسوداني ومماليك من اجناس مختلفة وقد عظم هذا الجيش حتى بلغ عدده اربعمائة الف مقاتل في مصر والشام (5) ولما آل الحكم الى كافور (334-357هـ/946-968م)

ابو المحاسن - النجوم الزاهرة طبعة - ليدن ج 2 ص 295
آدم متز A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 271

2) ابن الاثير - الكامل ج 7 ص 32-329 - حميد الله - تحقيق كتاب الذخائر والتحف لابن الزبير ص 50

3) لمبار Lombard - الاسلام في عظمته الاولى ص 194-204

4) ابن خلكان - وفيات الاعيان ج 2 ص 55 - ابو المحاسن النجوم الزاهرة - ج 3 ص 256 سيدة اسماعيل كاشف - مصر في عهد الاخشيديين ص 120

5) المقريزي - خطط ج 1 ص 94 - ابن اياس - بدائع الزهور ج 1 ص 43 ابو المحاسن - النجوم الزاهرة ج 3 ص 252 - ابن خلكان - وفيات الاعيان ج 2 ص 55 - سيدة اسماعيل كاشف - مصر في عهد الاخشيديين ص 257 . 258 .

بعد الاخشيد ضم الى جيشه عددا كبيرا من السودان ليكونوا عدة له لا سيما وقد انقسم الجيش الى طائفتين "الاخشيدية" والكافورية" (1).

وقد اتبع الفاطميون اسلافهم بمصر في شراء الرقيق لتكوين طوائف الجند من الاتراك والسودان. وقد اشتهر العزيز بالله (365هـ/975م - 386 هـ/ 996م) الفاطمي خليفة المعز (341-365هـ/952-975م) باستكثاره من استخدام الاتراك والديلم خوفا على حياته من البربر. وقد ظهر التنافس بين الفريقين طيلة حكمه وحكم الحاكم بأمر الله (386هـ/996م - 411هـ/1020م) والظاهر لاعزاز دين الله (411 - 427 هـ/1020-1035م) فلما تولى المستنصر (427 - 486 هـ/1035-1094م) استكثرت امه من شراء العبيد السود لانها كانت سوداء. واستكثر هو من شراء الاتراك فصار الجند طائفتين تتنافسان وتتحاربان مما اضطر معه الخليفة الى الاستنصار بجند الشام فأتاه امير الجيوش بدر الجمالي وهو ارمني الاصل فأقام بمصر جندا من الارمن (2) وكانت طوائف الجند الفاطمي المؤلفة من الرقيق

---

1) المقريزي خطط ج1 ص94. سيدة اسماعيل كاشف. مصر في عهد الاخشيديين ص257. 258

2) المقريزي - الخطط - طبعة بولاق 1270هـ (في جزأين) ج2 ص12. زيدان. تاريخ التمدن الاسلامي ج4 ص201-202

قد تعددت فصارت تنسب الى اسماء الخلفاء والوزراء فقيل لبعضها "الحافظية" و "الامرية" و "الجيوشية" و "الافضلية" وقد وصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو الجند المصري في عهد المستنصر (427 - 486 هـ/1035 - 1094م) فتحدث عن فصائله التركية التي كان يطلق عليها اسم "المشرقيين" وفصائله السودانية التي كانت تسمى "عبيد الشراء" (1).

هذه امثلة لما كان يروج بالمشرق الاسلامي خلال هذه الفترة من تجارة تهدف الى اقتناء الرقيق للخدمة العسكرية. ويمكن ان نقدم بعض الامثلة عن هذه التجارة بالمغرب الاسلامي، وخاصة بافريقة والاندلس فبافريقية عمل الاغالبة منذ عهد مؤسس امارتهم ابراهيم بن الاغلب (184-196هـ / 800 - 814م) على شراء الرقيق لاستعماله في الحرس والجند. فقد عمد ابراهيم الاول الى شراء الرقيق الاسود ليحتمي به من الجند العربي الذي كان يقوم بانتفاضات متواصلة مثل ثورته مع حميد بن الكندي بتونس سنة (186 هـ / 802م) ومع عمران بن مخلد سنة (194 هـ/810م) (2) مما اضطر الامير

---

1) عبد المنعم ماجد - نظم الفاطميين ورسومهم - ج 1 ص 193

2) جورج مارسي G.Marçais - بلاد البربر Berbérie - ص 74

مما اضطر الامير الى شراء زهاء خمسة الاف عبد من السودان والانعزال بهم بقصر العباسية خارج القيروان لحماية نفسه من صولات العرب والبربر (1) وقد زاد زيادة الله الاول (201-223هـ/817-838م) هذا الحرس تدعيما بشراء مجموعات اخرى من الرقيق وذلك بسبب اشتداد الصدام بين القصر والجند العربي اذ اندلعت ثورة منصور الطنبذي ودامت حوالي ثلاث عشرة سنة (2) وقد عزز هذا الامير جيشه بعناصر من العبيد السود واستعطه في خوض معارك " سبيبة " سنة (210 هـ/ - 826 - م) وقد قال شعرا تعرض فيه الى هؤلاء العبيد منه قوله :

"امنت سبيبة كل قرم باسل ... ومن العبيد جماجما ابطالا

فاذا ذكرت صنائعا بسبيبة ... فابكي حلاجل واندبي اعوالا

يا ويح نفسي حين اركب غاديا ... بالقيروان تخالني مختالا

في فتية مثل النجوم طوالع ... وتخالني بين النجوم هلالا

فاليوم اركب في الرعاع ولا ارى ... الا العبيد ومعشرا انذالا " (3)

---

1) بلاذري - فتوح البلدان - نشره عبد الله وانيس الطباع - بيروت 1958 ص323 - ونشره رضوان محمد رضوان في طبعة اولى مصر سنة 1350هـ/1932م ص235 - الطالبي - الامارة الاغلبية ص 136 - 138

2) جورج مارسي G. Marçais - بلاد البربر ص75

3) ابن الابار - الحلة السيراء - تحقيق حسين مؤنس الطبعة الاولى - القاهرة 1963 ج 1 ص166 167 - الطالبي - الامارة الاغلبية ص 187 . 188

أما أبو ابراهيم أحمد الاغلبي (242-249هـ / 856 - 863 م) فقد جدّد عقد صفقات الرقيق لتدعيم الجند. وقد قال عنه ابن خلدون انه " جعل العبيد جندا " (1) ووجد ابراهيم الثاني (261-289هـ/ 875-902م) نفسه مضطرا الى اقتناء افواج جديدة من هؤلاء العبيد فجند منهم خمسة آلاف برقادة وتمكن بفضلهم من اخماد ثورة التميميين سنة (280 هـ/ 893 م) واعدام حوالي سبعمائة ثائر (2) وكان هجوم جيش ابراهيم الثاني على تونس سنة (280هـ/ 893 - م) بقيادة ميمون الخادم (3) وقد لقب بهذا اللقب اكثر من قائد لهذا الامير ومنهم صالح الخادم الذي اخمد ثورة قمودة ويسميه ابن عذاري ميمون الحبشي (4) وقد توفي هؤلاء الخدم بسبب كثرتهم ونفوذهم فحاولوا التمرد على الامير لكنه فتك بهم سنة (264هـ/ 878 - م) وعوضهم بعبيد آخرين اشتراهم بمبالغ ضخمة مما جعل الخزينة تتأثر بثقل النفقات وبلغ

1) ابن خلدون - العبر ج 4 ص 429 الطالبي - الامارة الاغلبية - ص 251

2) ابن عذاري - البيان ج 1 ص 117 - 123

3) الطالبي - الامارة الاغلبية ص 293. 296

4) ابن عذاري - البيان ج 1 ص 123

بالامير الحال ان جعل من حلي نسائه دارهم ودنانير والتجأ الى فرض ضرائب ضجّ لها الاهالي (1) ولما زحف ابو عبد الله الشيعي داعية المهدي (ت298هـ/ + 911 م) على القيروان سنة (296هـ/ - 909 - م) هرب زيادة الله ابن الاغلب متوجها الى مصر وخرج معه بالف غلام دفع الى كل واحد منهم الف دينار (2) .

وقد ادت هذه الاوضاع الى تزايد عدد رقيق الشراء في الجند بافريقية زمن الاغالبة وكانت كثرتهم سببا في تمرّدهم لاحساسهم بالقوة.وكذلك كان الامر بصقلية فاستطاعوا ان يقتطعوا سنة(257هـ/ -871- م) واليها محمد بن حفاجة كما اقتطعوا واليا آخر لها هو جعفر بن محمد (3) وادى التوسع في شرائهم الى تأصل العداء بينهم وبين سكان البلاد حتى ان ابن شرف الشاعر القيرواني المشهور يفسّر العداء القائم بين أعالي سوسة والقيروان بأن اصل سكان سوسة هم عبيد اهل القيروان استعطفوهم للدفاع عن الساحل ضد الروم ثم انضم اليهم بعض

1) المصدر نفسه ج 1 ص 117 - الطالبي-الامارة الاغلبية- ص 282. 284

2) ابن الزبير - الذخائر والتحف ص 227

3) ابن عذاري-البيان - ج 1 ص 115-117

" المرابطين " للجهاد واستقل اهل سوسة بمرور الايام.ويضيف ابن شرف وهو فقيه بالاضافة الى كونه شاعرا انه لا يجوز قبول شهادة قيرواني ضد سوسيّ والعكس بسبب هذا العداء القائم (1)

وكذلك كان الشأن بالنسبة الى تجارة الرقيق العسكري بسائر بلاد المغرب ويمكن أن نكتفي بمثال ذكره البكري حول اقتناء الرقيق الصقالبة بمدينة " نكور " الواقعة بين "وجدة" و " فاس" خلال القرن الثالث للهجرة يقول متحدثا عن تنمر هؤلاء الصقالبة على بعض حكام المدينة وهو سعيد ابن سعيد :" فلما توطد له الامر واستوسق دخل عليه عبيدهم الصقالبة فسألوه العتق فقال لهم: انتم جندنا وعبيدنا وانتم كالاحرار لا تدخلون في المواريث ولا تجرى عليكم المقاسم فما طلبكم العتق ؟ فالحوا عليه في ذلك فأبى فنالوه منهم جفاء وغلظة وقد سوا اخاه عبيد الله وعمه الرضا المكنى

---

1) التجاني ـ الرحلة ـ طبعة تونس 1927 ص 24 ـ انظر ايضا ـ طبعة تونس 1958 مع مقدمة لحسن حسني عبد الوهاب ـ وقد نقل التجاني عن كتاب " الذيل " أوصلة تاريخ الرقيق " وهو كتاب مفقود نقل عنه ابن عذاري والتجاني والبرزلي (راجع مواطن النقل عندهم في قائمة مصادر روجي ادريس ـ R IDRIS بلاد البربر ـ Berbérie ـ طبعة ـ باريس ـ 1962)

بأبي علي وزحفوا بهما الى القصر فحاربهم سعيد من اعلى القصر بالفتيان والنساء حتى انهزموا وقامت عليهم العامة فأخرجوهم الى قرية فوق المدينة تعرف بقرية الصقالبة " (1) وكانت ظاهرة اتخاذ " الحشم " الى جانب " الجند " بالاندلس (2) سببا في ازدهار هذه التجارة وهو يتكون من الرقيق والمرتزقة. ومن عوامل اتخاذ " الحشم " ماكان عليه الجند الاندلسي من مستوى رديء لاحظه الرحالة ابن حوقل (3) وقد بدأت نشأة هذه الظاهرة منذ عهد الحكم الاول (180- 206 هـ / 796 - 822م) الذي اتخذ حرسا قارا من المماليك الافرنج والصقالبة يتراوح عددهم بين الفين وثلاثة الاف وقع شراؤهم بالمال من وراء الحدود الاندلسية وكانوا يسمون " الخرس " لعجمتهم. وكان يرأسهم القوس المسيحي ربيع بن تيودولفو - Tuodulfo (4).

وقد ازداد اهتمام الدولة بشراء الرقيق وتجنيدهم في عهد عبد الرحمان الناصر (300- 350 هـ/912-961م) ونسجوا بذلك على

---

1) البكري - المغرب - ص 93

2) د وزي - Dozy - ذيل المعاجم - Supp. ج 1 ص 291

3) ابن حوقل - صورة الارض - الترجمة الفرنسية ج - 1 ص 11 - 17

4) المقري - نفح الطيب - طبعة بيروت 1949

ج 1 ص 320 بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة

ج 3 - ص 71-76 - (علاوة على عناصر اخرى من أهل نربونة Narbonne)

منوال ملـــوك بغداد وبيـــزنطة فبـــرز " فتيـان الصقالبـــــــة" على راس كبريات المهام العسكرية والسياسية ومن اوائـل هؤلاء الفتيان بدر بن احمد الـذي تولى الحجابة بعد عتقه لسيده الامير منذ بداية عهده الـــى وفاته بعد تسع سنوات عام (309هـ/921 م) وقد خلفه في مهامـــه ابناه عبد الله وعبد الرحمن وكان بدر بن احمد هذا هو الـــذي هـــزم " اوردنـو " الثاني Ordoño II في معركة ميدونية Mitonia (1) ومنهم ايطا نجدة الصقلبي الذي عهد اليه الخليفة سنة (328هـ 939م) بقيـــادة الحملة على ملك ليـــون *León* (2) ومن هـؤلاء الفتيـــان المشهـــورون " درّي " و " افلح " و " طرفة " و " جعفـــر" وغيرهم وهم جماعة كانوا يسمـــون بابنـــاء الخلفـــاء (3) ولدينا ثلاث احصائيات متعاقبة للرقيق الصقلبي بقرطبة في عهد الخليفة الناصر وهي (3750 و 6087 و 13750) رأس وتدل على ازدياد عشرة الاف عبد 10.000 في مـــدة خمسين سنة بمكان واحد بل في مدينة واحدة ونقطة واحدة من العالم الاسلامي (4) وقد اصبح هؤلاء الصقالبة منافسين لاهل البيـــوتات

---

1) المرجع نفسه ـ ج 3 ـ ص 193ـ194

2) بروفنسال Provençal ـ دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ـ مقال صقالبة ص 251

3) بروفنسال ـ Provençal ـ تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 193 ـ 194

4) لمبار ـ Lombard ـ الاسلام في عظمته الاولى ص 194ـ204 ـ بروفنسال Provençal ـ دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ـ مقال صقالبة ص 251 ـ تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 193ـ194

العربية في تولي المناصب وخاصة في عهد الحكم الثاني (350-366هـ/961-976م) وهشام الثاني (366-399هـ/976-1009م) (1) وقد اوغل الحكم الثاني في شراء الصقالبة وتجنيدهم حتى تعاظم امر الحرس الصقلبي في عهده، وصاروا رهن مشيئة رجلين من كبار الاعيان هما فائق النطاعي صاحب البرد و الطراز جؤذر صاحب الصاغة والبيازرة وقد اخفى هذان الخصيان نبأ وفاة الحكم وحاولا الوقوف دون المناداة بوريث العرش خليفة وكان لا يزال طفلا لكن الوزيرين المصحفي وابن ابي عامر قاوماهما في ذلك فازدادت شهرتهما بما انزلاه بهما من عقاب وكان بقصر قرطبة اذاك زهاء الف مجبوب من الصقالبة قد شاركوا في شتى المؤامرات السياسية والعسكرية (2) وقد كان الحكم اكثر عناية من سابقيه بجلب الرقيق الاسود لاتخاذه حرسا واستعمال جندا. وكان هؤلاء السودان يشترون ويجلبون من بلاد السودان عن طريق المغرب وقد اطلق عليهم اسم " العبيد " وسموا ايضا باسم " الطنجيين " لان حشدهم كان يتم بطنجة قبل توجيههم الى الاندلس وكان الحكم الثاني هو الذي استكثر منهم وادخلهم في حشمه بعد ان كان

1) المرجع نفسه

2) بروفنسال Provençal - دائرة المعارف للاسلامية الترجمة العربية

مقال صقالبة ص252

عـــدد هـم محـــدودا في عهـــد ابيـــــه (1) .

وهكـــذا كـــانت تجـــارة الرقيـــق العسكـــري من غلمـــان وخصيـــــان في اوج رواجهـــا بالانـــدلس خـــلال هـــذا العصـــر. فمـــا ان اطـــل القـــرن الخـــامس للهجـــرة حتى كـــان الصقالبـــة يكـــونون شبـــه حـــزب منـــاوئ للعنـــاصـــر الاخـــرى ولـــه قـــواده المشهورون مثـــل خيـــران الصقلبـــي (2) وقـــد سبـــق ان تصـــدى لهـم الحاجـب المشهـــور ابن ابـــي عامـــر (326 -392هـ/938 -1002م) ورام كســـر شوكتهـم باستقـدام بـــربـــر المغـرب والاعتمـــاد عليهـــم (3) ولكـن بعـض هـؤلاء الصقالبـــة الذيـــن كـانـوا عبيـدا ثم اعتقـــوا قـد اتيح لهـم ان يصبحـــوا ولاة وامراء على دويـــلات في عصـــر ملـوك الطوائـف مثـل امـــارة دانيـة وبلنسيـــة (4) .

---

1) ابن حيان ـ المقتبس ـ نشر وترجمة غرسية قومس Garcia-Gómez ج 3 ص 212 . 213 من النص و ص 219 ـ 220 من الترجمة
ابن عذاري ـ البيان ـ ج 2 ص 147 ـ 152 ـ بروفنسال Provençal- تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 80 ـ 81

2) بروفنسال ـ Provençal ـ دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ـ مقال صقالبة ص 292

3) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 194 ـ 195

4) بروفنسال ـ Provençal ـ دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية مقال صقالبة ص 251

1) الحصـــاء قبـل الاســـــلام

أ- الخصـاء والحضـارات القديـــــه :

يعتبـر الخصـاء احـدى العادات التي كانت الشعوب الغابـرة تمارسهـا منذ اقـدم الحضـارات . فقـد كانت معروفـة في حضارة بابل واشور وراجت عنـــد قدماء المصريين ، والشعوب الافريقيـة القديمة (1) اذ كانوا يخصـون الزنوج المحلوبين من بلاد النوبة والسودان (2) كما كـانت الامـة اليونانية من اوائل الامم اتخاذا للحصيان (3) وانتقلت هذه العادة بعد ذلك الى الروم ثم الى الافرنج . ويقـــال ان اول من استنبط هذه العادة هي الملكة "سميراميس" - Sémiramis - ملكة اشور وذلك حوالي سنة العين 2000 قبل الميلاد . وقد اشتهر في التاريخ جماعة من الحصيـــان عـــرفـــوا بالسياســة والشجـــاعـــة وتولـــــــوا مناصب مـــرمـــوقـــة في ازمنـــــة مختلـــفة نـــذكـــــر منهم "نرسيس" - "Narcisse" - القائـــد الرومـــانـــــى المشهـــــور في عهـــــد جـوستينيـــان - «Justinien» - (95-77 ق هـ / 565-527 م) خلال القـــرن الســـادس للميـــــلاد وكـــذلـــك "هـــرميـــاس" Hermias (القرن 4 - ق - م) حاكـم "اتارنيـــة" - ATARNée - في "ميسيـــا" والمشهور بأنه هو الذي قـدم الفيلسـوف ارسطو بيحة عن روحه فصلا عما ذكـــره

1) عبد المنعم خفاجة-قصة الادب في الاندلس ج 2 - ص 83 - لاروس الكبير G.Larousse الموسوعة ج 4 ص 800
2) عبد السلام ترمانيني - الرق ماضيه ص 96
3) جرجي زيدان-تمدن ج 5 ص 26 - 28

فيـه من قصائد . وقد عرف الخصيان باستبدادهم اواخر الدولة الرومانية استبدادا كبيرا (1) .

وكان الاقباط بمصر قبل الاسلام يمارسون هذه العمليـة . وقد اهدى المقوقس صاحب مصر الى الرسول خصيا يدعى "مابور" في جملة الهدية التي اهداها له جوابا عن رسالته التي دعاه فيها الى الاسلام وكان هذا الخصي في خدمة مارية القبطية المهداة الى الرسول (2). ولا ريب ايضا في ان الأمّـة الفارسية قد عرفت الخصاء واتخذت الخصيـان كغيرها من الامم القديمـة . وقد ذكر الجاحظ ان الصابئة بالعراق كانوا قبل الفتح الاسلامي يخصون ابناءهم ويوقفونهم على بيوت العبادة حتى لا تؤذيهم الشهوة (3)، كما يذكر ان هؤلاء الصابئة واصلوا هذه العـادة بعد الاسلام وانه اتصل بجماعـة منهم وعرف بعضهم ومنهم ابو المبارك الصابي .

لكن الجاحظ يصرح بان الروم هم اول من ابتدعوا الخصـاء الا ان رايه هذا لا يستند الى حجـة بعد ما شرحناه من قدم هـذه

---

1) المصدر نفسـه
2) ابن الزبير-الذخائر والتحف ص 7 ـ الكتاني-التراتيب الادارية ج 2 ص 445
3) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص 125 ـ 128

العادة في تاريخ الانسانية (1) وكانت الامة الصينية تعرف الخصاء رغم شهرتها بالرأفة بالرقيق والعطف عليه ، ورغم قانون الامبراطور (كوانجون) الذي اصدره في القرن الاول للميلاد ، والذي ينص على ان (من قتل رقيقه اوعذبه فسوف يلقى جزاءه في جهنم) (2).

وكان العرب قبل الاسلام معرفة بالخصاء ايضا وكانوا يسلطونه على الاحرار والعبيد على حد سواء. ولعله كان يمثل عقوبة بالنسبة الى المخصي . ومن امثلة هذا الخصاء ما حدث للشاعر علقمة الخصي الذي اقام بعمان وطالت حياته الى عهد الخليفة عمر بن الخطاب . فقد روي ان الذي خصاه هو بعض ملوك اليمن . وكان يدعى قبل ذلك علقمة ابن سهل بن عمارة ثم سمي بالخصي ولذلك سمي علقمة بن عبدة الشاعر بالفحل تمييزا له عنه (3) وكان العرب يخصون البهائم ايضا لاسباب تتعلق بتربية المواشي . ولنا في نهي الرسول عن خصاء الخيل والابل والبقر (4) ما يدل على وجود هذه العادة قبل الاسلام ، وقد

---

1) المصدر نفسه ج 1 ص 124 ــ 125
2) احمد شفيق باشا ــ الرق في الاسلام ــ ص 85. وستر مارك westermarck أصل الآراء ج 1 ص 678 ــ 689
3) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 120 ــ 121
4) المصدر نفسه ــ ج 1 ص 178

كانت اغراض خصاء الدواب مختلفة عندهم ،ولكن اغلبها يهدف الى البحث عن الربح وتوفير الكسب بتحسين نوع الماشية .وقد عرف العرب قبل الاسلام هذا النوع من الخصاء اذ كانوا يخصون فحولة الابل ويستبقون اجودها ضرابا واكثرها نسلا وهو من عمليات الاختيار في اللقاح ،ويذكر لنا الجاحظ ان غرضهم من خصاء البهائم والغنم هو توفير شحمها وجعل لحومها رطبة لان السفاد حسب قوله يورث الهزال والضعف .ويذكر لنا ايضا ان الديك يخصى ليرطب لحمه ويطيب ويعمل الشحم وكذلك الغنم (1) وكان للعرب هدف آخر من خصاء الخيل ، وذلك لكي يتجنبوا صهيلها ليلة البيات واذا نصبوا كمينا وارادوا الفرار.فاذا خصوا الخيل لم تصهل عند رؤيتها الاناث لزوال دواعي الغريزة وانعدام الفحولة (2).

والمهم ان عملية الخصاء هذه قد سلطت اذاك على بعض العبيد وقد

---

1) الجاحظ ـ الحيوان ج 1 ص 131
2) المصدر نفسه

حافظ العرب على هذه العادة الى زمن ظهور الدعوة المحمديـــــة .

وقد روت كتب الحديث خصاء زنباع الجذامي لعبده "سندر" عقابا لـه على زناه مع جارية له .فشكى سندر الى الرسول ما فعله به سيده فاعتقه (1) كما تذكر كتب السيرة ان العبد الذي رميت به مارية القبطية قد كان خصيا (2).

ولم تكن هذه الامم كلها اذن ترى باسا بخصاء الانسان سواء أكان حرا أوعبدا. وقد لاحظ الجاحظ هذه الحقيقة عندما اعتبر الخصاء امرا شائعا بين الاحرار والعبيد والعرب والعجم (3) لكننا نجد بعض التشريعات السماوية و الوضعية قد شهّرت بهذه العادة ومنعتها وان كان ذلك لم يحد من انتشارها على صعيد الواقع .فالديانة النصرانية تنادي بالرفق والرحمـة وتشنع بما في الخصاء من وحشية وشراسة ،كما ان الرومان شرعوا قوانـين تمنع خصاء الرقيق مثل قانون سنة 83م الذي شرع في عهد " دوميتيـان " « Domitien »(51 - 96م)ونص على عقاب مرتكب هذه الجريمـــة بحجز ممتلكاتـه وضاعف " هادريان " « Hadrien »(76 - 138م) في القرن الثاني للميلاد من هذه العقوبـة (4).

---

1) البغوي-مصابيح السنة ج 2 ص 32 ــ 33
2) ابن هشام ــ السيرة ــ ج 4 ص 19
3) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 53ــ 56 عبد المنعم خفاجة ــ قصة الادب ــ ج 2 ــ ص 80
4) كركوبينو ــ الحياة اليومية بروما- ص 77-
G- Carcopino- La vie Quotidienne .... - Librairie Hachette 1939 - p 77

ب-اغراضه قديمـــا :

كان للخصاء عند الشعوب القديمة اغراض شتى اهمهما العقوبة على بعض الجرائم الاخلاقية والمدنية. فقد كان المصريون القدامى يعاقبون الزاني بخصيه (1) وقريب من هذا خصاء الصينيين لابناء المرأة الزانية اي للقطاء وابناء الزنا (2) وكان الآشوريون يجعلون الخصاء عقوبة للسارق والخائن كما كان الخونة عند البابليّين والفرس ينالون نفس العقاب .

وقد كان العرب قبل الاسلام يخصون عبيدهم على سبيل العقاب ايضا ولا يخلو من ذلك بعض الاحرار احيانا. وقد ذكرنا بعض الامثلة عن الخصاء عندهم ومنها ما انزله بعض ملوك اليمن بعلقمة الخصي من عقاب (3) وكذلك عملية الجب التي سلطها زنباع الجزامي على عبده سندر لانه باغته في حالة زنا مع جاريته (4)

وقد تواصل هذا الغرض القديم للخصاء بعد الاسلام رغم نهي الشريعة الاسلامية عنه . فقد عاقب الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان

---

1) عبد السلام ترمانيني ـ الرق ماضيه ـ ص 97
2) المسعودي ـ اخبار الزمان - ص 95
3) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص 120 ـ 121
4) البغوي - مصابيح السنة - ج 2 ص 32 ـ 33

المخنثين فكتب الى عامله بالمدينة لكي يخصيهم (1) كما امر في دمشق بخصي شاعر يدعى سمير الايلي لانه شبب بجاريته (2) وقد افضى الغضب بالسلطان السلجوقي طغرلبك الى خصاء وزيره منصور بن محمد الكندري الملقب بعميد الملك لانه كلفه بان يخطب له امراة ليتزوجها فخطبها لنفسه وتزوجها (3).

وقد وجد غرض آخر للخصاء في القرون الوسطى وهو التشدد في طلب العفة زهدا في الحياة وتعبدا. وقد ذكر الجاحظ هذه العادة عند الصابئة، وضرب على ذلك مثلا بابي المبارك الصابي (4) وكان النصارى من رهبان الاديرة يتعمدون نوعا من الخصاء لا يقطع فيه القضيب وانما تسل الخصيتان، لان غرضهم كان تجنب احبال النساء مع تمكين الخصي من قضاء الوطر ولان العادة عندهم ان يفتض الراهب العروس البكر كي تنالها البركة، ويكون ذلك بمحضر الزوج حتى يتاكد من ان الراهب هو الذي افتضها (5) وقد تواصلت عادة افتضاض الابكار باوروبا من قبل رجال الدين حتى القرن السابع عشر (6).

---

1) الاصفهاني ـ الاغاني ج 4 ص 269 طبعة القاهرة 1929
2) عبد السلام ترمانيني ـ الرق ماضيه ـ ص 98
3) ابن الاثير ـ الكامل ج 10 ص 32
4) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص 125
5) القزويني ـ آثار البلاد واخبار العباد ص 587 طبعة بيروت 1960
الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص 124 ـ لاروس الكبير ـ الموسوعة ج 4 ص 800
6) أ ـ وسترمارك ـ تاريخ الزواج ـ الترجمة الفرنسية ـ ج 1 ص 185 وما بعدها
6) E. Westermarck - L'Histoire du Mariage - (Traduction Française) Paris - 1934 (6 Tomes)
T: 1 - p 185 et sv

ج) الاسلام والخصاء

وقد شدد الاسلام في منع الخصاء. ويندرج موقفه هذا في نطاق دعوته العامة الى الرفق بالعبيد ، وحسن معاملتهم والمحافظة على سلامتهم الروحية والجسدية. وقد نزلت آيات قرآنية عديدة في اقرار هذا المبدأ منها قوله تعالى (وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين و الجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا)(1) وقد بلغ المشرع من التاكيد على هذا الرفق في المعاملة حدا ادى به الى النهي عن ضرب العبيد ، او استعمال اي وجه من وجوه العنف معهم. فليس للسيد ان يضرب عبده الا في الحالات الشاذة مثل تركه للواجبات الدينية ، اما في ما عدا هذه الحالة فانه يمنع من ضربه ويعتق عليه ، اذا لم يمتثل لما امر به الشارع في هذا الباب ، فقد اورد الامام البغوي في مصابيح السنة الحديث الآتي (من ضرب غلاما له حدًّا لم ياته او لطمه فان كفارته عتقه) (2) وقال (ما من رجل

---

1) القرآن ــ سورة النساء ــ آية 36
2) البغوي ــ مصابيح السنة - ج 2 ص 32 ــ 33

يضرب عبده الا اقيد منه يوم القيامة)(1).

وكثيرة هي الروايات التي نهى فيها الرسول اصحابه عن الضرب فمنها نهيه لابي مسعود الانصاري عن ضربه لغلامه بالسوط وقوله له :(والله لله اقدر عليك منك على هذا) (2) فاذا كان هذا شان المشرع مع الضرب للرقيق فان موقفه من منع التمثيل به وتشويه خلقته اشد. وقد نهى الرسول عن التمثيل بالعبيد واوجب العتق على من فعل ذلك. وروى ابن جريج ان زنباعا الجذامي وجد غلاما له مع جارية له ، فجدع انفه وجبّه. فاشتكى العبد الى الرسول فقال له : اذهب فانت حر. فقال العبد : يا رسول الله فمولى من انا ؟ فقال : مولى الله ورسوله. فلما مات الرسول ، جاء مولى الله هذا الى ابي بكر وطالب بوصية الرسول له ، فاجريت عليه النفقة. ولما مات ابو بكر طالب عمر بن الخطاب بالوصية فاقطعه عمر ارضا في مصر(3) ومن نهي الرسول عن الخصاء قوله :(خصاء امتي الصوم والصوم وجاء) (4) كما نهى

---

1) الحبيشي ــ البركة ــ ص 99
2) الغزالي ــ احياء علوم الدين-ج 2 ص 221 طبعة بيروت - راجع أيضا - ج 6 ص 1036 من طبعة القاهرة
3) احمد شفيق ــ الرق في الاسلام ــ ص 71 وما بعدها ــ البغوي - مصابيح السنة ج 2 ص 32ــ33
4) الكتاني ــ التراتيب الادارية ــ ج 2 ص 440 ــ 441

النبي جماعة من الصحابة اراد وا ان يختصوا رهدا وورعا (1) و روي عنه قوله (من حصى عبدا حصيناه) (2) . وهكدا نهى الاسلام عن الخصاء لان فيه تعديبا للحيوان والانسان وقطعا للتناسل (3) ولدلك نجد المحتسبين في البلاد الاسلامية في هذه العهود القديمة يزجرون من يقدم على خصي البهيمة او الادمي ويعاقبونه ، وقد يستخلصون منه العود او الدية ويستوفونها لمستحقه ، اذا لم يكن المخصي ملكا له (4) ومما يدل على تحريم الاسلام للخصاء نهيه عنه بصورة مطلقة سواء اتعلق الامر بالبهائم او بالادميين . فقد روى عبد الله وابو بكر ابنا نافع عن نافع انه قال : (نهى رسول الله صلعم عن ان تخصى دكور الخيل والابل والبقر ويقول: فيها نشاة الخلق ولا تصلح الاناث الا بالدكور) (5)

لكن من المسلمين من لم يعتمد في موقفه من خصاء الحيوان على هذا الحديث وجوز هذه العملية مراعاة للمصلحة العامة . واذا ما كنا نجد خلافا بين المسلمين في جواز خصاء الدواب اوعدمه ، واعتقاد فريق منهم في مشروعية خصاء البهائم قياسا على وسم ابل الصدقة بالنار ، وعلى القصواء والعضباء ناقتي الرسول التين كانتا موسومتين ، ومراعاة للمصلحة من تجارة وكسب وغيرهما من المنافع (6) فاننا نجد بالنسبة الى حرمة خصاء الادمي اجماعا بينهم .

---

1) الدهبي ـ سير اعلام النبلاء ـ القاهرة 1957 ج 1 ص113 (انظر حديث ابن مطعون في تحريم الرسول للخصاء)
2) رواه ابو داود ـ السوكاني ـ نيل الاوطار ـ القاهرة 1961 ج7 ص15
3) ابن عمر التونسي ـ تشحيد الاذهان ص263ـ264
4) ابن الاخوة ـ معالم القربة ـ 197
5) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص178
6) المصدر نفسه ج 1 ص 159ـ 160

3) تجارة الخصيان قبل القرن الثالث للهجرة

لكن كثرة اتخاذ الخصيان في الحضارة الاسلامية وازدهار تجارتهم والاقبال على جلبهم واستخدامهم في شكل مجموعات وفيرة العدد لم يظهر الا ابتداء من حكم بني امية .ولا عبرة بما نجده عند المسلمين قبل هذا العهد من افراد الخصيان الذين تلقوا بعضهم في شكل هدايا او امتدت حياتهم من اواخر العصر الجاهلي الى صدر الاسلام ،او اقبل على شرائهم بعض تجار العبيد .فكل هذه المظاهر لا تدل على وجود نشاط تجاري منتظم غايته هذا الصنف الخاص من البضاعة الادمية ونحن لا نكاد نعثر في المصادر التي بين ايدينا على ما يفيد ان المسلمين كانوا في بداية عهدهم يولون هذا الضرب من الرقيق عناية خاصة او يفردونه بالخدمة في أُسَرهم .بل الارجح ان بعض هؤلاء الخصيان الظليلين قد كانوا غير متميزين عن السواد الاعظم من الرقيق الاسلامي وقتئذ .

ولا يتسنى الحديث في نظرنا عن وجود تجارة للخصيان لها عاداتها ومراكزها ومستهلكوها قبل العصر الاموي ، وذلك لان حضارة صدر الاسلام

قد كانت اقرب الى الفطرة والبساطة وابعد عن الترف والبذخ من حضارات الاسلام التاليـة .واذا علمنا ان بضاعـة الخصيان هي ضرب من الرقيـق الارستقراطي ، و نوع من الكماليـات التي ترغب فيها الاسر المترفـة واثـرياء القوم ،ادركنا بعد اوائل المسلمين عن هذا النمط من التصرف ، فمـتى ظهرت اذن عند المسلمين تجارة الخصيان باتم معنى هذه الكلمـة ؟ وما هي الظروف التي ساعدت على بروز نشاط تجاري من هذا القبيل ؟.

من العسير ان نحدد تاريخا مضبوطا لهذه الظاهرة في تاريـخ المسلمين ،لانها كغيرها من الظواهر الاجتماعيـة تنشأ على ايـدي الافراد ويتكامل كيانها تدريجيا الى ان تصبح عادة اجتماعيـة واضحـة الحدود .الا انـه بامكاننا ان نقول على وجه الاجمال ،ان المسلمين قد بدأوا يتوفرون على اقتناء الخصيان عندما انتقلت حضارتهم من طـور البداوة والفطرة الى طور الابهـة وعظمـة الملك .ولذلك يروى ان معاويـة ابن ابي سفيان هو اول من اتخذ الخصيان لخدمتـه (1) ومن المعروف عنـه اهتمامـه بعظمـة السلطان ورياشـه و تشبهه بعظماء الحضارة

---

1) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص 131 ـ عبد المنعم خفاجـة -قصة الادب في الاندلس ج 2 ص 83

الفارسيـة والروميـة ، ولعله من الهام ان نلاحظ في هذا المجال ان رجال السلطة هم الذين كانوا السباقين الى اقتناء الخصيان وليس عامـة الناس لان منوال حياتهم يختلف عن منوال الحياة العاديـة ويتميز بهذه النعمة التي تمكنهم من استعمال هذه البضاعـة الارستقراطية .

لكن اتخاذ معاويـة للخصيان لا يكفي وحده دليلا على رواج هذه التجارة مهما بلغ هذا الخليفـة في اتخاذهم ، وذلك لسببين رئيسيـن اولهما ان المسلمين لا يزالون اذاك حديثي عهد بالحضارة الجديدة ، ولم تنتشر بعد هذه العادة بينهم انتشارا يسمح بقيـام تجارة نشيطـة في هذا المجال ، وثانيهما ان دور الخصيان لم يتبلور بعد في المجتمـع الاسلامي ، ولم تتضح بعد ميزتهم او بالاحرى تميزهم عن سائر الرقيق في المجتمع ، ونعني بهذه الميزة حراسـة الحريـم .

ومما يدل على ان الاوضاع الاجتماعية في اوائل العصر الاموي لـم تالف بعد سنـة استخدام الخصيان في شؤون الحريـم ما يرويـه المسعودي بسنده الى المدائنـي من ان فاختـة زوجـة معاويـة انكرت ان يدخل عليها زوجها خصيا وهذا نص الخبر (وذكر المدائني ان معاوية بن ابي سفيان

دخل ذات يوم على امرأتـه فاختـة وكانت ذات عقل وحزم ومعه خصـي وكانت مكشوفـة الراس فلما رات معه الخادم غطت راسها، فقال لهـا معاويـة: انـه خصي. فقالت: يا امير المؤمنين، اترى المثلـة به احلت لـه ما حرم الله عليه؟ فاسترجع معاوية وعلم ان الحق ما قالتـه فلم يدخـل بعد ذلك على حرمـه خادمـا الا كبيرا فانيا) (1).

هذا يدل اذن على ان المسلمين لم يستسيغوا بعد وظيفـة الخصي، تلك الوظيفـة التي ستتسبب في ازدياد الحاجـة الى الخصيـان في العصور الموالية. ويمكننـا ان يقول ان نشأة تجارة الخصيان وازدهارها مرتبط عند المسلمين بظهور نظام الحريـم في مجتمعاتهم. وهكذا يؤول البحث عن تاريخ ظهور هذه التجارة الى البحث عن تاريخ ظهور نظام الحريم في الحضارة الاسلامية. فمتى ظهر هذا النظام ؟ يقول المستشـرق "فون كريمر" ان نظام الحريم لم يظهر الا في عهد الوليد الثاني الخليفـة الاموي (2) واذا سلمنا بهذا الراي فهمنا سر اكثـار هذا الخليفـة

---

1) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج 8 ص 148ـ149 طبعة باريس 1970

2) كريمر A-Kremer ـ الشرق في ظل الخلفاء ـ ص 171.
The orient under the Caliphes ـ P.171

من اتخـاذ الخصيان حتى جعل منـهم أمنـاء في قصره (1) فالعلاقـة طبيعية بين هاتين الظاهرتين .اذ لا بد من خصيان في ذلك العهـد لحراسـة مجموعـة نساء الخليفـة وجواريـه ، في وقت صارت الحرة فيـه محتجبـة عن الاعين بعد ان كانت قبل هذه الفترة سافرة تخالـط الرجـال .(2)

ويبدو ان المسألـة متعلقـة اساسا بتاريخ ظهور الاحتجاب بالنسبة للحرائر، وهو تاريخ مرتبط باوضاع المرأة في المجتمع العربي الاسلامـي . ومهما يكن من امر الاسبـاب التي عملت على احتجاب الحريـم واستتاره واحتياجـه الى من يقوم على شؤونـه ، فان حقيقـة تتجلى لاعيننا وهـي ان الصلـة متينـة بين ازدهار تجارة الخصيان ورسوخ نظام الحريـم في طبقـة الخاصـة من المجتمـع ، فالحريـم نظام خاص بهـذه الطبقـة ولا نجده عند العوام.فطبيعي اذن ان يكون الخصيان عبيـدا مكلفـين بخدمـة هذه الطبقـة قبل غيرها ،وهو ما يدعـم ما ذهبنـا اليهـا من انهم كانوا يمثلون رقيقـا ارستقراطيـا .

---

1) عبد المنعم خفاجـة ـ قصة الادب في الاندلس - ج 2- ص 86

2) زنـاتي ـ اختلاط الجنسين عند العرب - ص 76 - 77

من المسلم بـه اذن ان هذه الدلائل كلها تشير الى وجـود تجارة خصيان عند المسلمين قبل القرن الثالث والرابع للهجرة. ولا جـدال ايضا في ان هـذه التجارة قد نمت خلال النصف الثانـي من القـرن الاول وطيلـة القـرن الثانـي للهجرة. ومن عوامـل هـذا النمـو تنـافس الخلفـاء في الاستكثـار من هـذا الصنف من الـخدم رغبـة فـي جـلال السلـطان وعظمـة الملك. ومن الادلـة علـى ذلك مـا كان يرسلـه والي افريقيـة والمغرب عبيـدة بن عبد الرحمن القيسـي الى الخليفـة الاموي هشـام بن عبـدالملك من الخصيـان. فقد روى صاحب الذخائـر والتحـف ان هـذا الوالـي قد اهدى لهشام سنـة (114هـ) سبعمـائـة 700 منهم (1) واذا مـا دلـت هـذه الهديـة على شـيء فانمـا تـدل علـى رواج تجارة الخصيـان بالمغرب منذ ذلك العهد، وعلى ان هـذه المنطقـة من العالم الاسلامـي قد اشتهرت بهذا النوع من البضاعـة المجلوبـة امـا من الاندلس او من بلاد السودان كما سوف نبيـن ذلك.

---

1) ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ـ ص 15

ب) تجارة الخصيان في القرنين الثالث والرابع

أ - عوامل التطور

اما العصر الذي يهمنا اي القرن الثالث والرابع للهجرة فقد شهد نشاطا جديدا في هذه التجارة يفوق من وجوه عدة ما كان عليه الامر في العصور السابقة في هذا المضمار. ومن اسباب هذا التفوق زيادة استحكام نظام الحريم في ظل العباسيين وانتشاره في طبقة الخاصة. فاستتبع ذلك ازديادا في الحاجة الى هذا النوع من الرقيق، وذلك ان المراة المسلمة ما فتئت متمتعة بحريتها في عهود الاسلام الاولى وهي حرية تقليدية عند البدو منذ العصور القديمة. لكن الامر تغير تماما وخاصة خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة اذ صار نظام الحريم والفصل بين الجنسين امرا قارا ومطلقا وعاما، فبعد ان كانت المرأة في اوائل العهد العباسي تتبوأ مرتبة ممتازة في شؤون الدولة، وتتمتع بتاثير كبير فيها وتشارك في الحرب وتنظم الشعر وتناظر الرجال في الادب والموسيقى والغناء صارت هذه المرأة نفسها منذ القرن الرابع للهجرة في احط المستويات ينظر اليها على انها ذات كيد ودسائس واخلاق ذميمة وشهوات جامحة وهي الصورة التي نجدها في الف ليلة وليلة، وكان ذلك بداية تدهور بسبب المبالغة في

التسري وانحلال الاخلاق الجنسية والجري وراء الترف واللذة فحكم على المرأة بان تقتصر في دورها على خدمة زوجها وابنائها ثم غزل الصوف (1) وكان من نتائج هذه الاوضاع ان ازدادت الحاجة الى الخصيان لحراسة الحريم .

وقد سجل المؤرخون والاخباريون كثرة الخصيان في هذا العصر فمما ذكره البيهقي في هذا الباب ان والي نهاوند في عهد المامون قد ملك كثيرا منهم (2) ويذكرون ايضا ان عدد خدم المقتدر من الخصيان قد كان يقدر باحدى عشر الفا من الروم والسودان (3) كما كان اغلب خدم القصر في عهد الناصر بقرطبة والزهراء من الخصيان . وكان الخصي منهم يدعى غلاما كالفحل ، فاذا اظهر النجابة صار فتى ، ولو كان طاعنا في السن . فكل ما تذكره المصادر حول الغلمان والفتيان في خصوص الحديث عن خدم الناصر انما يرمز الى هؤلاء الخصيان في الاغلب وهذا يدل على كثرتهم (4).

---

1) Philip K. Hitti - Précis d'Hist des Arabes - Paris - 1950 - p: 103
فيليب حتي - تاريخ العرب - طبعة باريس 1950 ص 103
2) البيهقي - المحاسن والمساوي - ص 163
3) الصابي - رسوم دار الخلافة - ص 8
4) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج - 2 - ص 117 - 130

وكانت هذه الوفرة في عدد الخصيان تابعة للوفرة في عدد الجواري في القصور و دور الخاصة. فلا ريب ان عدد الرقيق المؤنث قد تزايد في هذا العصر بسبب نشاط تجارة الرقيق عموما، فكان لا بد من مضاعفة عدد الخصيان المشرفين عليهن (1) وقد ذكر ابن الخطيب في اعمال الاعلام ان عدد النساء من جوار وحرائر في عهد الناصر بالزهراء ستة آلاف وسبعمائة وخمسون الفا 6750 بينما يجعل ابن عذاري هذا العدد ستة الاف وثلاثمائة 6300 (2) وليس من همنا تحقيق وجه الصحة في هذه الارقام وانما نكتفي بما فيها من دلالة على ضخامة هذا العدد. ومن هذه الارقام ايضا ما ذكره ابن عذاري من ان عدد هؤلاء الخصيان في قصر الحكم الثاني ابن عبد الرحمن الناصر كان اكثر من الف مجبوب (3) ولم يكن هؤلاء الخصيان وقفا على قصور الخلفاء بالاندلس بل انتشروا ايضا في دور الخاصة مع الازواج والجواري وكان يشرف على الجميع قهرمان (4).

---

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 122 ــ 130

2) ابن الخطيب ــ اعمال الاعلام ص 47 - راجع ايضا = ابن عذاري - البيان المغرب ج 1 ص 247 ــ بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 122 ــ 130

3) ابن عذاري ــ البيان المغرب ــ ط ــ دوزي - Dozy - ص 276 وما بعدها - وترجمة فانيان - Fagnan ج 2 ص 430 وما بعدها - انظر (دالمعارف الاسلامية - الطبعة العربية ص 252)

4) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 399 ــ 402

وقد صار للخصيان ايضا في هذا العصر وظائف اخرى غير خدمة الحريم تسببت في ازدياد عددهم. وذلك لان رجال الدولة رغبوا في اصطناعهم فقلدوهم شتى المهام ووثقوا بهم واطمأنوا اليهم وكان من اسباب هذه الثقة وهذا الاطمئنان ان اغلب ابناء الامراء والخلفاء قد نشؤوا بينهم وتربوا على ايديهم فانسوا بهم لتفانيهم في خدمتهم. ثم لما تولوا شؤون السياسة استأمنوهم على الكثير من مهامها اذ لا تخشى منهم عصبيّة ولا أبناء يطمعون في كرسي الملك. فلا غرابة اذا ما رأينا العباسيين يعهدون اليهم بشتى الوظائف لخضد شوكة الاتراك الذين استبدوا بالحكم ابتداء من عهد المتوكل على الله العباسي (1) ويمكن ان نرجع تقليد الخصيان لشؤون الدولة الى ما قبل هذا التاريخ. فمما يذكر عن الخليفة الامين انه اتخذ منهم صنفين سماهم الجرادية والغرابية وكان من بينهم خصيان

---

1) زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 162

من الحبشـــان (1)

ب.الجدال حول تجارة الخصيان :

وقد دعا ازدهار تجارة الخصيـــان في هذا العصر فريقـــا من الفقهـــاء وعلمـــاء الدين الـــى مراجعـــة النظر فـــي شرعيـــة هـــــذه التجارة. فذهب بعضهم الى منـــع بيـــع الخصـــي وشرائـــه واعتبـــاره حرامـــا مثل عمليـــة الخصـــاء نفسها، بحجـــة ان اقتنـــاء الخصيـــــان يشجع علـــى تلك العمليـــة ويروجهـــا، فوجب اذن قطع السبب ليضمحل المسبّب. وذهب البعض الاخر الى مراعـــاة الواقع الاجتماعـــي والمصالح التجاريـــة، فلم ير بتجارة الخصيـــان باسا، واقر الفصل بين عمليـــــة الخصاء وهي حـــرام وبيـــع الخصـــي وشرائـــه بعد ذلك وهو حلال. ونشط الجدال حول هذا الموضوع ورام كل فريـــق حشد ما يسعـــــه من الحجج العقليـــة والنقليـــة لتدعـــيم موقفـــه .

وقد كان الجاحظ كعادتـــه في مستوى هذه الاحداث فهو رجل العصر بدون منازع يتحدث بمنطق ذلك العصر ويعي مصالحه الاقتصاديـــــة وضروراتـــه الاجتماعية. فردّ على الراي القائل بان الارباح المنجرة عـــن تجارة الخصيان والحاصلة من الفرق الكبير بين ثمن الفحل وثمن الخصـــي تشكل مشجعا على ترويج عمليـــة الخصاء، واعتبر انـــه راي صادر عن بعض

---

1) ابن الاثير ــ الكامل ــ ج 6 ص 120
زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 161

(الملحدين المعاندين او بعض الموحدين من الاغبيـاء المنقوصين)
وذكر بان الرسول قد قبل في هديـة المقوقس خصيـا بعد ان عرفـه واحـاط علمـه بانـه خصـي. وبذلك يتضح الفـرق فـي نظره ، بين ممارسـة الخصـاء وهو حـرام وقـبول الخصـي وشرائه وبيعـه وهو حـلال (1).

ومن الواضح ان الموقف الـذي سانـده الجاحظ قد كان المتغلب فـي نهايـة الامـر، لانـه كان اكثر ملاءمـة للواقـع بالرغـم من بعده عن النظـرة الانسانيـة. ولم يكـن بامكان الموقف المعارض الصمـود امـام هـذه الظاهرة الـتي سـادت القرنـين الثالث والرابع للهجرة وتواصـل امرهـا بعد ذلك بقرون. ومن المفيـد أن نذكر انهـا قد صادفت فـي غير هذا العصر الـذي نـهتم بـه من يساندهـا ويضفـي عليهـا ما تحتاج اليـه من اطار شرعـي يمكنـها من النمو

---

1) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص 163 ـ 165

والاستمرار بالرغم من وجود المعارضين في شتى العصور، فمن العلماء المصرحين بحرمة اتخاذ الخصيان جلال الدين السيوطي في كتابه الذي الفه حول " حرمة خدمة الخصيان لضريح سيد ولد عدنان " (1) لكن ندائات هؤلاء العلماء لم تجد آذانا صاغية وكانت الغلبة دوما للموقف الثاني المساند لهذه الظاهرة. وها نحن اولاء نجد في القرن التاسع عشر للميلاد محمد بن عمر التونسي يرى ان بيع الخصي وشراءه بعد خصائه يعتبر بابا من ابواب الاحسان وعمل الخير يثاب عليه الانسان ثوابا عظيما لان الخصيان اذا لم يستخدموا حصل لهم حسب قوله الضرر من وجهين : الاول " مما وقع عليهم من الخصي الموجب لفقد اللذة العظيمة وقطع التناسل " والثاني من ضيق المعيشة (2).

---

1) محمد بن عمر التونسي ـ تشحيذ الاذهان ـ ص 263 ـ 264

2) المصدر نفسه .

ج-الاستكثار من الخصيـــان :

والمهم ان هذا الجدال الفقهي حول شرعية الخصاء قد كان له دور فعال بالنسبة للعصر الذي يهمنا ،اذ فيه اتجاه نحو التوفيق بين واقع اجتماعي معين واحكام الشريعة الاسلامية بالرغم من التنافر الموجود بينهما ،وفيه محاولة لتبرير الظاهرة الموجودة بسبب حاجة المجتمع اليها ، ولم يكن عائقا لرواج تجارة الخصيان بالرغم من تنديد بعض المدارس الفقهية بهذه التجارة .وفعلا نلاحظ تزايدا في اقتناء الخصيان والاستكثار منهم خاصة في قصور الخلفاء والامراء ورجال الدولة وغيرهم من الوجهاء والاثرياء اذ استعملوهم في شتى المهام المتصلة بابهة السلطان وترف الملك.

فقد جاء في اخبار الراضي بالله للصولي ان المعتضد قد كلف كبار الخصيان بالاشراف على الغلمان الحجرية وسماهم الاستاذين وكان الخصي "راغب" يشرف في عهد الراضي على تبادل الاسرى مع الروم (1) وقد تفاقم عدد هؤلاء الخصيان ببغداد في عهد المعتضد حتى كان

---

1) الصولي - أخبار الراضي - ج 1-ص 49 - و 169
(كان يطلق على الخصيان تسميات مختلفة منها : الطواشين والاستاذين والخدم - راجع برنشفيك - Brunschvig - سهال عبد - دائرة المعارف الاسلامية - ج 1 ص 34)

اهل هذه المدينة يسخرون منهم في الطرق ويعيرونهم بشتى الالقاب. وحدث من جراء ذلك شغب سنة (284 هـ/898 م) (1). ولم يكن عدد الخصيان بمصر الطولونية قليلا. وكانت العادة ايضا تقليدهم شؤون ادارة القصر وتكليفهم بشتى المهام. وتسنم بعضهم اعلى المراتب في الدولة حتى تدمر لها وتآمر على اسياده فيها. واحسن مثال على ذلك ما فعله مؤنس بالخليفة المقتدر والخصي لؤلؤ باحمد بن طولون وكذلك قتل بعض الخصيان لخمارويه بن طولون (2) وقد آنس الخصيان من انفسهم قوة في عهد خمارويه الطولوني حتى تآمروا عليه وقتلوه، وقد تزايد عددهم في قصر المتوكل حتى صار 4000 اربعة الاف وبلغ في بلاط المقتدر 10،000 عشرة آلاف (3) فلما كانت دولة المماليك تجاوز عددهم هذه الارقام وسموا بالطواشية والاغوات وسمي مقدمهم بالاستاذ وامسى لهم نفوذ في الدولة كبير.

---

1) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ ج 4 ص 164 ـ 165
2) المسعودي ـ مروج الذهب ـ طبعة باريس 1970 ـ "ج 8 ص 147
زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ ج 4 ص 164
ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ـ ص 50
3) التنوخي ـ نشوار المحاضرة ـ ج 5 ص48 ـ الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ـ القاهرة 1931 ج 1 ص 100

واذا ما بلغ الخصيان اوج المراتب بالمشرق فكان منهم مؤنس القائد العام لجند المقتدر وكان منهم يزمان اميرطرسوس(1) وكافـــور الاخشيدي امير مصر وشكر غلام عضد الدولة وفائق قائد السامانين(2) فان شأن الخصيان بالمغرب لم يكن يختلف عن شانهم بالمشرق اذ كانوا يقومون بجلائل الوظائف ويقررون مصير الدولة احيانا ،فمن الخصيان الذين اشتهروا في عهد الحكم الثاني وهشام الثاني الحاجب جعفـــر بن عبد الرحمن الناصر وهو ينسبـــه الى عبد الرحمن لانه هو الـــذي اعتقـــه (3) وقد ذكر ابن عذاري ان الحكم الثاني بالاندلس قد اتخـــذ منهم حرسا فاشتهر منهم خصيان همـــا فائق النظامي صاحب الـــبرد والطراز وجؤذر صاحب الصاغـــة والبيازرة وقد بلغ هذان من تصرفهما في شؤون القصر ان اخفيـــا نبأ موت الحكم وحاولا الوقوف دون المناداة بوريث العرش خليفـــة،وهو لم يزل بعد طفلا رضيعا.وكادا ينجحـــــان

---

1) فازيلياف - Vasiliev - العرب والروم — ج 2 ص 9 — 10 وص 38 و 40 و 45
ماريوس كانار - M. Canard - المسلمون وبيزنطة - مقال عدد 15 ص 111 — 119
2) احمد امين — ظهر الاسلام — ج 1ص 130 — 131
3) بروفنســـال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 122 — 130

في مسعاهما لولا تصدي الوزيرين ابن المصحفي وابن ابي عامر ومقاومتهما لهما (1) وهكذا كان الخصيان الصقالبة بالاندلس يساهمون في الدسائس والمؤامرات السياسية ويستبدون بالحكم. وانتهى بهم الامر الى تكوين حزب مستقل عن العرب والبربر كان من زعمائه في وقت من الاوقات الخصي خيران وكاد امرهم يستفحل لولا سياسة المنصور بن ابي عامر في خضد شوكتهم (2) .

وثمة عامل ثالث ساهم ايضا في الكلف بالخصيان والاقبال عليهم وتنشيط تجارتهم في القرنين الثالث والرابع وهو ما بدأ يستفحل في المجتمع الاسلامي ابتداء من اواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث من شذوذ جنسي وجد في صغار الخصيان مرتعا له ، وذلك لان الولع بالغلام وتفضيله على الجارية جعل الانظار تتجه الى هذا الصنف من الرقيق لما يمتاز به من الجمع بين صفات الذكورة والانوثة في وقت كانت الجواري تتشبهن فيه بالغلمان والغلمان يتشبهون بالجواري (3)

---

1) ابن عذاري — البيان المغرب — طبعة دوزي Dozy ص 276 وترجمة فانيان E. Fagnan ج 2 ص 430 - راجع في ذلك = بروفنسال - Provençal - دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة العربية مقال = صقالبة - ص 252

2) بروفنسال - Provençal - دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة العربية - مقال = صقالبة - ص 252

3) المسعودي — مروج الذهب — ج 2 ص 366 — زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 31

ولهذه الاسباب علبت التسمية بالعلمان على الخصيان من الاطفال

فكأن الخصي قد كفى هؤلاء الشذاذ مؤونة البحث عن طلبتهم بما توفر فيه من حظوظ الجمال التي يبلغ منها مبلغ الغواني وزيادة حسب قول الجاحظ (1) فقد روي عن الخليفة العباسي الامين انه كان يستكثر من الخصيان ويغالي فيهم ويصيرهم لخلوته ومتعته وترفه ولهوه وكان يزينهم بمثل زينة الجواري (2) ويدمك معهم في القصف وقد وصفه شعراء عصره في مجالس انسه محاطا بالخصيان حتى هجاه بعضهم بقوله :

الا ايها المثوى بطوس	غريبا ما تفادى بالنفوس
لقد ابقيت للخصيان عقلا	يحمل منهم شؤم البسوس
فاما نوفل فالشأن فيه	وفي بدر فيالك من حليس
وما للمعصمي شيء لديه	اذا ذكروا بذي سهم خسيس
وما حسن الصغير اخس حالا	لديه عند مخترق الكؤوس
لهم من عمره شطر وشطر	يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للغانيات لديه حظ	سوى التقطيب والوجه العبوس
اذا كان الرئيس كذا سقيما	فكيف صلاحنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوس	لعز على المقيم بدار طوس (3)

---

1) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 114 ــ 115 ــ مفاخرة الجواري والغلمان الرسائل ج 2 ص 123

2) احمد امين ــ ظهر الاسلام ــ ج 1 ص 130 ــ 131 زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 161 ابن الاثير ــ الكامل ــ ج 6 ص 120

3) ابن الاثير ــ الكامل ــ ج 6 ص 120 طبعة مصر في 12 جزء 1302 هـ زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 161

وقد ادى هذا الوضع زبيدة ام الامين الى ان تبعد ابنها عنهم فاختارت له من الجواري املحهن والبستهن لباس الغلمان فعرفن باسم (الغلاميات Les Garçonnes-) وقد وصف احد الشعراء جارية غلامية بقوله :

وصيفة كالغلام تصلح للامرين كالغصن في تثنيها
اكملها الله ثم قال لها لما استتمت حسنها : ايها (1)

ومما زاد في هذا الشغف الجنسي بالخصيان غلبة العنصر الصقلبي والتركي على البيض منهم. وقد عرفت هذه الاجناس بنصيب كبير من الجمال الخلقي بشقرة شعورهم وزرقة عيونهم وبياض بشرتهم (2) الا اننا لا نزعم ان كل الخصيان البيض قد استهدفوا الى مثل هذا الشغف كما نشير الى وجود اجناس اخرى منهم كالسودان والاحباش الذين لم يلص المؤرخون على صلتهم بهذا الميدان، وانما اكدوا اختصاصهم بالخدمة دون غيرها ووصلوا فيها الى اعلى الرتب، فاتخذهم الخلفاء والملوك زينة و ابهة لمجالسهم واصطحبوهم في مواكبهم حتى روي ان هارون الرشيد كان اذا خرج مشى بين يديه اربعمائة من الغلمان

---

1) عبد السلام ترمانيني ـ الرق ماضيه وحاضره ـ ص 100
2) راجع في ذلك = المكتبة الجغرافية العربية ج 3 ص 242 و ج 5 ص 84 و ج 6 ص 92 بروفنسال- مقال = صقالبة ـ دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة العربية ـ ص 251 ـ 252

يحملون قسي البندق يرمون بـه من يعارضه في الطريق (1) ويكفـي للدلالـة على تعاظم شان الغلمان في هذا العصر وضع الجاحـظ رسالة في المفاخرة بينهم وبين الجواري (2). تلك ابرز العوامل الـتي عملت على كثرة اقتناء الخصيان وبالتالي على ازدهار تجارتهم في هذا العصر.وقد تزايد نشاط هذه التجارة باستفحال هذه العوامل فكـان رواجها في القرن الرابع قد بلغ القمـة في شتى بـلاد العالـم الاسلامـي (3)

---

1) ابن الاثير ـ الكامل ـ ج 6 ص 34
2) الجاحظ ـ الرسائل ـ ج 2 ص 91 تحقيق عبد السلام محمد هارون القاهرة 1965
3) احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص 130

د - مراكز تجارة الخصيان

ان مراكز تجارة الخصيان مرتبطة وثيق الارتباط بمراكز الخصاء ذاتها، شانها في ذلك شان ارتباط نقاط الانتاج بنقاط البيع. واذا ما كان الباعة ينقلون بضاعتهم احيانا الى اقاصي البلاد، بحثا عن الربح، فان مكان الانتاج يبقى دائما المستودع الكبير لرواج تلك البضاعة وغزارتها. ومهما كان المستورد لها قادرا على استيعاب قدر كبير منها فان المصدر يبقى دائما صاحب النصيب الاوفر، فلا مناص اذن من ان نقدم الحديث عن مراكز الخصاء.

ان هذه المراكز هي مخاص اي اماكن تجرى بها عمليات الخصاء على الرقيق. فهي اذن مصانع وظيفتها "صناعة الخصيان" على حد تعبير دوزي (1) وقد كانت متعددة ومنتشرة خارج البلاد الاسلامية وداخلها. ويفسر لنا هذا التعدد كثرة ما وجد بقصور الخلفاء طوال القرون الوسطى كلها من خصيان (2) ومن وجد منهم في بيزنطة وعواصم جنوب ايطاليا وفرنسا وغيرها، ويبدو ان اشهر هذه المراكز باوروبا هو مدينة فردون verdun بفرنسا حيث كان التجار اليهود يشرفون على عملية الخصاء

---

1) دوزي - Dozy - تاريخ مسلمي اسبانيا ج 3 ص 59 ــ 62 - بروفنسال - د.م الاسلامية الطبعة العربية ص 251 - مقال: صقالبة

2) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 122 ــ 130

و يسلطونها على الرقيق الصقالبة الذين لم يتجاوزوا بعد شرخ الشباب (1) ثم يحملونهم الى الاندلس ويبيعونهم الى كبار تجار المسلمين او "الجلابين" فيقوم هؤلاء ببيعهم في اسواق الرقيق داخل البلاد الاندلسية.

لكن الخصيان الصقالبة لم يكونوا يخصون بهذا المركز الاجنبي فحسب بل ان اغلبهم حسب قول المقدسي (2) قد كان يخصى داخل البلاد الاندلسية فذكر ان الرقيق الصقالبة يجلبون الى ميناء بجانة (3) Pechina حيث يشتريهم السماسرة اليهود غالبا ثم يسوقونهم الى بلدة اخرى داخل البلاد يرجح بروفنسال انها لوشنة Lucena وقد كان اغلب سكانها يهودا في القرون الوسطى (4) وكانت هذه العملية تؤدي غالبا الى وفاة العبد لصعوبتها.

تلك اهم المراكز التي يخصى بها رقيق الصقالبة اما اجناس الخصيان الاخرى فقد كانت تخصى بغير هذه المراكز. فأين يخصى الخصيان السود مثلا ؟ ان الثابت انهم كانوا يخصون داخل بلاد السودان لا خارجها

---

1) بروفنسال Provençal "دائرة المعارف الاسلامية" - الطبعة العربية - مقال: صقالبة - ص 251
2) المقدسي - احسن التقاسيم - ص 241 - خوان بيريط - مجلة المعهد المصري - رقم 1 مدريد ص 73 - 76
3) ابن خرداذبة - المسالك والممالك - بيروت 1889 - ص 112
4) بروفنسال - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 2 ص 132 - 130

ولذلك يشير مؤلف حدود العالم الى ان الخصيان السود كان يجلبون من المنطقة الكائنة بين النيل والمحيط (1) الا ان مصادرنا لا تحدد مدينة بعينها يقع فيها الخصاء بالنسبة للفترة التي تهمنا.

وقد وفر لنا ابن فضل الله العمري شهادة على وجود مراكز للخصاء بشرقي افريقيا خلال القرن السابع للهجرة ملاحظا ان بعض هذه الاماكن لا يعتنق اهلها دينا من الاديان وانهم كانوا يبتعدون عن عيون الرقباء، ثم يخص بالذكر مركز مدينة "وشلوا" ببلاد الحبشة. وهو مركز يقصده سراق الرقيق والدخاسون في اختفاء عن السلطة المسيحية التي كانت تمنع هذا النوع من العمليات. وبعد انجاز الخصاء يحمل العبيد الى مدينة "هدية" وهي اذاك مجتمع الخدم المجلوبين من سائر الانحاء فيعالج الخصيان من آثار جراحهم وتجرى عليهم عملية اخرى لتفتح مجرى البول بعد التئامه ثم يباعون باثمان باهضة وهذا نص ما يذكره العمري:

---

1) مؤلف مجهول ـ حدود العالم ـ ص 169 الدوري ـ تاريخ العراق الاقتصادي ص 77

(والى " هدية" تجلب الخدام من بلاد الكفارة ، حدثني الحاج فرح الفوى التاجر ان صاحب "امحرة" يمنع من خصي العبيد ويكر هذا ويشدد فيه . وانما السراق تقصد مدينة اسمها " وشلوا" بفتح الواو والشين المعجمة واللام ،واهلها همج لادين عندهم فيخص بها العبيد.ولا يقدم على هذا في جميع بلاد الحبشة سواهم وكذلك التجار اذا اشتروا العبيد خرجوا بهم يعرجون الى " وشلوا" ليخصوهم بها لاجل الزيادة في الثمن .ثم يحمل كل من خصي الى مدينة " هدية " فتعاد عليه الموسى مرة ثانية ليفتح مجرى البول ،لانه يكون قد انسد عند الخصي بالقيح ثم انهم يعالجون " بهدية" الى ان يبرو (كذا) لان اهل " وشلوا" ليس لهم معرفة بالعلاج ،فسالت الفوى : لاي شيء تختص بهذا " هدية" دون بقية اخواتها ؟ فقال لي : لانها اقرب هذه البلاد الى " وشلوا " وقد صار لاهلها دراية في علاج هؤلاء ،وقال : ومع هذا فالذي يموت منهم اكثر من الذي يعيش.واضر ما عليهم حملهم بلا معالجة من مكان الى مكان ولو عولجوا في مكان خصيهم كان اصلح لهم ولولا حملهم الى مكان يعالجون به ما سلم والله احد منهم) (1)

---

1) الشاطر بصيلي ــ تاريخ وحضارات السودان الشرقي والاوسط من القرن السابع الى القرن التاسع عشر للميلاد طبعة مصر ــ 1972 ص 509 (مستخرج من مخطوط مسالك الابصار لابن فضل الله العمري)

فهذه الشهادة وان كانت متاخرة تدل على ان مراكز خصاء السود قد كانت الى ذلك العهد خارج بلاد الاسلام. وقد اورد لنا القلقشندي في صبح الاعشى نفس الخبر (1) مؤكدا ان ببلاد الحبشة مركزين للخصاء هما " هدية " و شقلو " وان الزنوج كانوا يخصون بهما. ولدينا من النصوص ما يشير الى وجود مراكز اخرى للخصاء خارج بلاد الاسلام، ولا سيما تلك النصوص التي اوردها كل من الجاحظ والمقدسي حول خصاء الروم. فقد ذكرا ان الروم يخصون بعض ابنائهم ويوقفونهم على الكنائس لئلا تؤذيهم الشهوة في اوقات تبتلهم، فاذا اغار المسلمون على تلك الكنائس اخرجوا الصبيان منها، ويقول المقدسي ان هؤلاء الخصيان كانوا يرسلون الى الشام ثم انقطع سيلهم عندما تخربت الثغور (2) كما يذكر المقدسي ان " جزيرة الذهب " القريبة من قبرص قد كانت مركزا لخصاء اولاد الروم (3).

اما الجاحظ فانه وان ذكر امورا شبيهة بما ذكره المقدسي فيما بعد، مثل علاقة الخصاء بخدمة بيوت العبادة، فانه كان يعتبر ان الغرض

---

1) القلقشندي — صبح الاعشى — طبعة القاهرة 1928 ج 5 ص 328

2) المقدسي — احسن التقاسيم — طبعة بريل - Brill - 1906 ص 241

3) المصدر نفسه ص 242 - لاروس الكبير - Le G. Larousse - الموسوعة مادة : خصي eunuque ج 2 ص 696

منه هو تجنب النسل والانجاب من الرواهب في الاديرة لان الرهبان كانوا يرومون قضاء الوطر مع تجنب الاحبال .ويؤاخذ الجاحظ الروم بتنكرهم للديانة المسيحية القائمة على الرافة والرحمة بممارستهم لعملية الخصاء (1) ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه المسألة الدينية وانما نريد ان نثبت حقيقة وهي وجود بعض مراكز للخصاء في ظل الامبراطورية البيزنطية خصوصا اننا نعلم ان الخصيان قد وصل بهم الامر الى التغلب على شؤون الدولة في بعض عهودها فاستبد بالحكم فيها اسطفان المعتق - L' Affranchi - S وكذلك سليمان الخصي (2).

وشبيه بهذا ما ذكره الجاحظ حول الخصيان الوافدين على العراق من بلاد الصين .فان في كلامه ما يشير الى وجود مراكز لهذه الصناعة في اطراف البلاد الاسيوية .ونحن نظفر بما يدعم هذه الحقيقة عند المسعودي في زمن لاحق اذ نراه يؤكد لنا ان اهل الصين يخصون كثيرا من اولادهم شأنهم في ذلك شأن الروم(3). وليس من الغريب ان تنتشر هذه المراكز في نواحي المعمورة لان عادة الخصاء كانت من العوائد

---

1) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 124 ــ 125
2) زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 4 ص 164
3) المسعودي ــ مروج الذهب ــ طبعة باريس 1970 ج 8 ص 148

القديمة كما رايتا . واستمر وجودها عند اغلب الشعوب خلال هذا العصر وقبله وبعده ، فقد كان ملوك الافرنج اذا ارادو التقرب الى خليفة المسلمين بالاندلس اوغيرها اهدوه التحف، ومن بينها الخصيان كما فعل ملكا برشلونة وطركونة عندما اهديا عشرين خصيا الى المستنصر طلبا لتجديد الصلح (1).

ومن الجدير بنا ايضا ان نميز بين مراكز الخصاء التجارية كالتي ذكرناها بفرنسا والاندلس وبلاد الحبشة، وغيرها من المواطن التي وقع بها الخصاء في بعض الفترات لاغراض غير تجارية، مثل ما كان يحدث عند الصابئة بالعراق على حد قول الجاحظ ، فقد كان هؤلاء قبل الاسلام يخصون ابناءهم ليقفوهم على بيوت العبادة ويخصون انفسهم زهدا وتعبدا. وتواصلت هذه العادة عندهم بعد الاسلام وفي عصر الجاحظ نفسه، اذ تمكن من الاتصال ببعضهم والتعرف عليهم مثلما كان امره مع أبي المبارك الصابي (2) وهذه الظاهرة شبيهة بما وجد عند الروم وهي تختلف عن ظاهرة الخصاء التجارية التي وجدت بمراكز مشهورة في هذا العصر .

---

1) زيدان ــ تاريخ التمدن الاسلامي ــ ج 5 ص 27 ــ 28
2) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 125 ــ 128

هذا اهم ما نعرفه عن مراكز الخصاء في هذه الفترة. وهي كما رايذا منها ما هو خارج عن دار الاسلام ومنها ما هو مجاور لها او موجود بها. لكننا نلاحظ ان المشرفين على مراكز الخصاء سواء اكانت داخل دار الاسلام او خارجها لا ينتمون الى الاسلام وانما هم في الاغلب مجموعات يهودية (1) او وثنية مستوطنة بجوار المسلمين او خارج ديارهم. ولذلك لم توجد مراكز خصاء سلامية لان الدين الاسلامي والسلطة الممثلة له يحرمان ممارسة الخصاء .

الا انه لا دليل لدينا على ان بعض المسلمين على الاقل لم يمارسوا في وقت من الاوقات هذه العملية المحرمة في دينهم والممنوعة في مجتمعهم. فالمخالفون للشريعة موجودون في كل زمان، وارتكاب الممنوع امر شائع بين اصحاب كل الملل. فهل ثمة ما يمنع ان يكون هذا المحرم قد ارتكبه افراد في يوم من الايام ؟ اضف الى ذلك ما في تجارة الخصيان من ارباح مغرية من الطبيعي ان تستهوي بعض تجار المسلمين وتستدرجهم الى

---

1) ابن خرداذبة ـ المسالك والممالك ـ ص 112

الى مضاعفة ارباحهم باقتراف مثل هذه الاعمال . واذا ما علمنا ان الخصاسين المسلمين قد كانوا على صلة وثيقة بالخصاة بحكم مهنتهم التجارية و ترددهم الى اماكن الخصاء ومراكزه القريبة منهم عسر علينا الا نتهم بعضهم بالمساهمة المتسترة او التواطؤ على الاقل، اذ مصالحهم تقتضي ان يعينوا على رعاية هذا المورد والسهر عليه حتى لا يذهب ما دام بالامكان الاختفاء عن اعين السلطة للقيام بمثل هذه المهمة ، وقد رجح بعض الباحثين هذا الراي . وقد ذكر محمد بن عمر التونسي في حديثه عن خصاء السودان ان المسلمين لا يخصون الا في النادر (1) كما ذكر احمد امين في كتابه ظهر الاسلام نقلا عن كتاب الحيوان للجاحظ ان المسلمين لم يكونوا يمارسون الخصاء الا قليلا وبصفة عرضية (2) .

---

1) محمد بن عمر التونسي ـ تشحيذ الاذهان ـ ص 263 ـ 264
2) احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص 130 ـ 131

4 - اجناس الخصيـــــان

كان عنصر الخصيان من الرقيق في هذا العصر على ضربين الابيض والاسود (1) وكانت اجناس البيض والسود متنوعـة ايضا، اذ كان من بين اجناس العنصر الابيض الصقالبـة والترك والروم واليونان والافرنج والفرس وغيرهم. بل ان الجاحـظ ليحدثنا عن خصيان مجلوبين من الصين الى العراق في عهده فهل كانـوا من الصينيين ام من جنس آخر؟ هذا ما سنحاول البت فيـه بعد حين (2) لكن الثابت لدينـا ان الخصيان البيض كانوا كثيري الاجناس بسبب تنوع مصادرهـم. فاذا ما كنا قادرين على تحديد نسبيّ لاصناف المجلوبين منهم، تعذر علينـا تحديد من طوحت بهم ظروف الحرب والسلم الى رقعة العالم الاسلامي المترامية الاطراف. كما ان مصدر الخصي لا يقطع باثبات جنسـه لاختلاط هذه الاجناس في ظل الامبراطورية البيزنطية وان كانوا جميعا يحملون اسم الروم . . . وما قيل في شان الخصيان البيض يصح قولـه في السود منهم. فهم كذلك اجناس متنوعة لا يجمع بينهم احيانا الا سواد البشرة. فقد تعرض الجاحظ في كتاب الحيوان الى الخصيان من السند والحبشة والنوبـة والسودان (3) كما اطلق مؤلف حدود

---

1) بروفنسال Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 177 ــ 179
2) الجاحظ ــ التبصر بالتجارة ص 33 - الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ــ ص 138 ــ 141
3) الجاحظ - الحيوان - ج 1 ص 53 ــ 56 ــ احمد امين - ظهر الاسلام - ج 1 ص 130 ــ 131

العالم ولم يخصص،فجعل اجناس السود منهم راجعة الى الرقعة الجغرافية الكائنة بين النيل والمحيط الاطلسي (1).

لكن هذه الاجناس تختلف قلة وكثرة بقطع النظر عن الوانها ولذلك سوف نركز حديثنا على اشهرها واغزرها عددا واكثرها انتشارا.ومستندنا في اقرار اشهر هذه الاجناس اهتمام المؤرخين بها اهتماما خاصا في حين انهم يشيروا الى الاجناس الاخرى بصورة عرضية.فاكثر الخصيان البيض عددا هم الصقالبة بدون منازع،وقد اثرت هذه الكثرة في معنى كلمة "صقلب" اذ صارت تعني في بعض الاوقات الخصي دون غيره من الرقيق المنتمي الى هذا الجنس.و نحن نجد هذا الاستعمال بهذا المعنى عند كل من ابن حيان وابن بسام فهما يوردان هذه العبارة الدالة على هذا المعنى " اربعة غلمان احدهم فحل والثلاثة صقلب " وقد اعتمد دوزي على هذا الاستعمال ليستنتج منه ان اغلب الخصيان البيض قد كانوا من الصقالبة (2) وكانوا يجلبون من اوروبا الى الاندلس ثم يوزعون في شتى انحاء العالم الاسلامي كما يجلبون كذلك

---

1) مؤلف مجهول ـ حدود العالم ص 169 ـ الدوري ـ تاريخ العراق الاقتصادي ص 77

2) دوزي ـ Dozy ـ ملحق المعاجم العربية Sup. aux Dict. Arabes ـ الطبعة 3 ج 1 ص 663ـ664

الى دار الاسلام من الشرق الاوروبي (1) ومن اسباب هذه الكثرة في خصيان الصقالبة توفر مراكز الخصاء باوروبا والاندلس كما سوف نرى .

ويلي هذا الجنس من الخصيان البيض في كثرة العدد واهميته الخصيان الاتراك والروم (2) كما ذكرنا ان الجاحظ صرح بوجود خصيان مجلوبين في عهده من الصين . ولكنه لا يذكر لنا هل كان هؤلاء من جنس صيني ام لا ، الا انه بامكاننا ان نرجح انهم ينتمون الى هذا الجنس وذلك بالاعتماد على ما ذكره بعض الباحثين (3) من ان اغلب الارقاء في الصين كانوا من ابناء البلاد ، وقد بيعوا بسبب الفقر والعوز . ويمكن لنا ان نعتمد ايضا على ما لدينا من اخبار حول ممارسة الصينيين للخصاء واجرائه على بعضهم بعضا . ولعل من اكثر هذه الاخبار دلالة ما ذكره لنا المسعودي حول ظاهرة الخصاء في الصين ، اذ بين لنا في كتابه اخبار الزمان ان من القوانين الجاري بها العمل في هذه البلاد ، خصاء اللقطاء اي ابناء الزنا ، فاذا فجرت المرأة ثم انجبت نظر الحاكم في وليدها ، فان كان بنتا اعتبرت بغيا مثل امها ، وان كان

---

1) - راجع - المكتبة الجغرافية العربية ج 3 ص 242 و ج 5 ص 84 و ج 6 ص 92

2) المرجع نفسه — ماريوس كانار — M. Canard المسلمون وبيزنطة - فصل عدد 15 ص 111 — 119

3) ا-وسترمارك - Westermarck - (E) - اصل الاراء الاخلاقية وتطورها - L'origine et le developpement des idées morales طبعة باريس 1928 في جزاين ج 1 ص 678 — 689

ذكرا تم خصاؤه ووقع تسخيره لخدمة الملك. يقول المسعودي في ذلك:(ومن سيرتهم ان عمال الملك واصحاب خراجه وجيوشه خدم وذلك ان المرأة اذا لم تكن محصنة وارادت الفجور رفعت امرها الى الملك تذكر حالها فيدفع اليها خاتم نحاس من خواتم الملك فجعلته في عنقها ولبست المصبغات وعملت ما شاءت علانية واذا ولدت الذكور خصوا واستعملهم الملك في داره واعماله وان ولدت انثى كانت على رسم امها) (1).

فاذا صح كلام المسعودي فهمنا ان بضاعة الخصيان كانت متوفرة في الصين وانها كانت مستعملة في مجالات داخلية كخدمة قصر الملك، فليس من المتعذر ان تكون مادة تصدر كذلك الى الخارج، وان يكون الخصيان المجلوبون من الصين الى العراق من جنس صيني حقا. كما نلاحظ من خلال ما اورده المسعودي ان ظروف الخصاء بالصين مرتبطة بعادات اجتماعية معينة وبنظرة خاصة الى ظاهرة الفجور. فكأن اللقيط كان يعتبر عندهم وارثا للفجور فيعمل على خصائه تجنبا ربما لتفشي تلك الظاهرة وهذه الدواعي تختلف عن دواعي الخصاء في مجتمعات اخرى .

---

1) المسعودي ـ اخبار الزمان ـ ص 95

اما الخصيان السود فلم يكونوا اقل رواجا في العالم الاسلامي من البيض ويبدو ان الاقبال عليهم كان اكثر في الشؤون المتعلقة بخدمة القصور و دور الخواص، لانهم كانوا يعتبرون اقل اغراء بالنسبة للحريم من البيض الموصوفين بحمرة الشعر وزرقة العيون .كما كانوا يعتبرون اكثر جلدا على الاعمال الشاقة من البيض. فكانت قصور الامراء وبلاطات الخلفاء تجمع غالبا بين الخصيان البيض والسود ، وتكون منهم فريقين متميزين، فكان للخليفة الامين منهم فرقتان هما الجرادية والغرابية (1) وفيهم العديد من الخصيان الحبشان وقد كثر عددهم ببغداد ، وصار اغلب الخصيان في البلاد من الطواشية السود . وهؤلاء هم الذين اثار اهل الحاضرة العباسية الشغب حولهم بسخريتهم منهم سنة (284 هـ) في عهد المعتضد العباسي مما حمل الخصيان على الشكوى الى الخليفة، فقام بحملة تاديبية لهؤلاء الثائرين الساخرين .

وقد وصف لنا المسعودي في مروج الذهب هذه الحادثة بدقة فقال : (وفي هذه السنة (283 هـ) كان لاهل بغداد ثورة مع السلطان لصياحهم بالخدم السودان : " يا عقيق صب ماء واطرح دقيق يا عاق يا طويل الساق "

---

1) ابن الاثير- الكامل- ج 6 ص 120 طبعة مصر 1302 هـ — زيدان -تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 161

وذلك ان الخدم في دار السلطان منهم اجتمعوا فكلموا المعتضد بما يلحقهم في الازقـة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام فامر المعتضد بجماعة من العامـة فضربوا بالسياط فشغب العامة لذلك ....)(1) وكان من هؤلاء الخصيان السود في البلاط الاموي بالاندلس عدد كبير يعمـل جنبا الى جنب مع الخصيان الصقالبـة (2).

---

1) المسعودي ــ مروج الذهب ج 8 ص 180 ــ 181 طبعة باريس الثانية 1970

2) بروفنسال ـ Provençal ـ تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 177 ــ 179

و- عمليـة الخصـــــاء

وقد توفرت لنا من حسن الحظ بعض النصوص التي تصف عملية الخصاء وصفا مدققا . ومن اهم هذه النصوص ما ورد بقلم كل من الجاحظ في كتاب الحيوان (1) ورسالة فخر السودان على البيضان (2) والمقدسي في كتابه احسن التقاسيم في معرفة احوال الاقاليم (3) ويستفاد مما ذكره هذان المؤلفـان ان عمليـــة الخصاء قد كانت من الصعوبة بمكان كبير، وان الخصاة لا ينجحون دائما في القيام بها، كما سوف نبين ذلك فيما يلي . ونفهم ايضا من خلال هذه النصوص ان هنالك اكثر من عملية جراحية واحدة في هذا الميدان . فمن انواع الخصاء التي يذكرهـا المقدسي قطع العضو التناسلي كاملا دفعة واحدة وهو ما يعبر عنه بالمسح في قوله (قال بعض : يمسح القضيب والمزودان في مرة واحدة) (4) ومنها ان تستخرج البيضتان اولا بعملية جراحية ثم يقطع القضيب بعد ان توضع خشبـة

---

1) الجاحظ ـ كتاب الحيوان ـ تحقيق عبد السلام هارون . دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثالثة - 1388 هـ/ 1969 م ج 1

2) الجاحظ ـ فخر السودان على البيضان ـ رسائل الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي بالقاهرة - 1384 هـ/ 1964 م

3) المقدسي ـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ـ تحقيق دي غوية De Goeje الطبعة الثانية - مطبعة بريل Brill - ليدن 1906

4) المصدر نفسـه ص 242 ـ 243

في اصله يقول في ذلك:(وقال بعضهم : يشق المزودان وتخرج البيضتان ثم تجعل تحت القضيب خشبة ويقط من اصله) (1) فالطريقة الثانية تنجز على مرحلتين بينما تتميز الطريقة الاولى بالسرعة في الانجاز .

فهل وراء هذا الاختلاف سر من الاسرار ؟ وهل يعني ذلك ان الاسلوب الاول اكثر تطورا واقل ايلاما من الثاني ام العكس ؟ وهل وجدت الطريقتان في فترة واحدة من الزمن ام في زمنين متباعدين ؟ ان هذه النصوص لا تجيب عن شيء من ذلك ، اما الجاحظ فاننا نجد عنده اوصافا لهذه العملية تطابق الاسلوب الثاني ولم نعثر له على اشارة تفيد ان الطريقة الاولى قد كان معمولا بها ، فهو يذكر لنا ان الخصاة يجبون القضيب ثم يمتلخون الاثيين ويكون ذلك " بسل " الخصيتين بعروقهما بعد ان تشق عنهما " الصفن " وهي جلدة الخصيتين (2).

فقد يجوز للباحث ان يفترض اعتمادا على سبق الجاحظ زمنيا للمقدسي بقرن من الزمان على الاقل ، ان عملية الخصاء قد مرت باطوار وان المقدسي

---

1) المصدر نفسه
2) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص 130 ـ 131

قد عاصر نوعا منها لم يكن معروفا لدى مؤلف كتاب الحيوان. ويذكر لنا الجاحظ نوعا ثالثا من الخصاء ينسبه الى الروم. فيشير الى انهم كانوا لا يقطعون القضيب ولا يتعرضون الا للانثيين، لانهم ارادوا - حسب قوله - تجنب احبال النساء فقط واما قضاء الوطر فان خصيانهم من اقدر الناس عليه لصبرهم على المطاولة في الجماع (1) فهذا نوع آخر اذن معاصر لهذا العهد الذي ندرسه. واذا سلمنا بصحة ما يقوله الجاحظ ادركنا بسهولة ان المسلمين لا يمكن ان يرغبوا في مثل هذا النوع من الخصيان مما لا يشجع على انتشاره في اوساط الخصاء. بل ان الجاحظ يعتبر ان هذا النوع شاذ التجأ اليه الروم بالنسبة لسدنة بيوت العبادة حتى يعطلوا الانجاب في هذه البيوت.

وللخصاء مرحلة اخرى تلي قطع العضو التناسلي وهي معالجة مجرى البول ومقاومة انسداده بعد التئام الجرح. ويصف المقدسي هذا العلاج بقوله: (واذا خصوهم جعلوا في منفذ البول مرود رصاص يخرجونه أو قات البول الى ان يبرأوا كي لا يلتحم) (2) وقد يحوج الامر الى عملية جراحية اخرى بسبب هذا الانسداد. ولدينا صورة من ذلك بالنسبة لخصاء رقيق السودان لكنها متاخرة عن الفترة الزمانية

1) المصدر نفسه ج 1 ص 124 ـ 125
2) المقدسي ـ احسن التقاسيم ص 243

التي ندرسها ، اذ يرجع عهدها الى القرن السابع للهجرة ونحن نستخرجها من كتاب مسالك الابصار لابن فضل الله العمري ، زيادة في توضيح هذا الشان ، وان كنا لا نملك الدليل على مطابقتها للوسائل المعمول بها في القرون السابقة . فمما يذكره هذا المؤلف ان العبد الذي يتم خصاؤه بمدينة (وشلوا) يحمل بعد ذلك الى مدينة (هدية) لاجراء عملية فتح مجرى البول لانه ينسدّ بعد الخصاء . يقول العمري في ذلك : (وكذلك التجار اذا اشتروا العبيد خرجوا بهم يعرجون الى " وشلوا " ليخصوهم بها لاجل الزيادة في الثمن ثم يحمل كل من خصي الى مدينة " هدية " فتعاد عليه الموسى مرة ثانية ليفتح مجرى البول لانه يكون قد انسد عند الخصي بالقيح) (1) ، ويبدو ان الظروف الخاصة بهذا الخصاء في بلاد السودان هي التي احوجت الى عملية جديدة لعدم توفر وسائل العلاج على عين المكان . وهذا ما جعل المؤلف يذكر لنا موت كثير من الخصيان اثناء الانتقال من مكان الخصاء الى مكان العلاج .

---

1) الشاطر بصيلي ــ تاريخ وحضارات السودان ــ ص 509

ومن الغريب ان ما بقي لنا من نصوص حول خصاء الرقيق الاسود في العصر الذي يهمنا ،وحتى بعده بقرون، يبرز لنا الظروف السيئة التي تتم فيها العملية الجراحية ،كما يصف لنا نتائجها الوخيمة. فمنذ القرن الثالث للهجرة يشير الجاحظ الى ان الخصي الاسود (متى استقصي جبابه لم يتماسك بوله ،فان لم يستقص الجباب فقلما يدخل الرجل منزله هذا النوع من الخصيان ،واغلبهم بصرّته نفطة شديدة وضرب من الفتق قبيح المنظر من آثار الخصاء) (1) ويتعلق كلام الجاحظ بخصيان الحبشة والنوبة وغيرهما من بلاد السودان، ولا يسعنا ان ننسب هذه الظاهرة الى خصائص السودان الجسدية وتركيبهم العضوي ،كما يعتقد الجاحظ. وليس بامكاننا الا ان نتساءل عن سبب ذلك ،فهل الامر راجع الى تأخر معدات الخصاء و بدائيتها بالقياس الى ما توفر منها بالنسبة لخصاء الرقيق الابيض ؟ ام ان الظروف التي تلزم الخصاة بالتستر عن الاعين هي التي تضطرهم الى ارتجال العملية والمجازفة بحياة العبد ؟

---

1) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 119 ــ 120

لكن هلاك الخصيان لم يكن راجعا فحسب الى هذه الظروف الخاصة بل ان العملية في حد ذاتها، وفي اكمل صورها، قد كانت تشكل خطرا على حياة العبد. فبالرغم من توالي العصور واتخاذ العلاج المصاحب لعملية الخصاء نلاحظ ان اخطارها لم تضمحل. وقد وصف لنا محمد بن عمر التونسي عملية الخصاء لعبيد السودان في القرن التاسع عشر، واوضح ما يتخذ فيها من تحريات ومواد طبية، ولكنه صرح بان موت العبد كان امرا متوقعا باستمرار. يقول في ذلك: (اخبرني بعضهم انه يؤتى بمن يراد الفعل به فيضبط ضبطا جيدا، وتمسك المذاكير وتستاصل بموسى حاد، ويوضع في ثقب مجرى البول انبوبة صغيرة من صفيح لئلا يسد، ويكون قد سخن السمن على النار تسخينا جيدا حتى غلى، ثم يكوى به محل القطع، وبعد ان يكون محل القطع جرحا حديديا ينقب جرحا ناريا، ثم يداوى بالتغيير عليه بالتفتيك والاربطة حتى يشفى او يموت ولا يشفى منه الا القليل)(1) كان الكثير منهم اذن يهلكون اثناء اجراء هذه العملية، كما يحدث احيانا ان تكون عملية غير تامة فيصير العبد نصف خصي او نصف فحل، لكن الغالب ان اكثر الرقيق الذي تجرى عليه هذه العملية كان مآله الموت

---

1) محمد بن عمر التونسي ــ تشحيذ الاذهان ــ ص 263

ولا ينجو منهم الا القليل ، ولذلك كانت اثمان الخصيان مرتفعة (1) وقد روي ان من بين ثلاثين غلاما جرى خصيهم ليقوموا بخدمة حريم سلطان مراكش مات ثمانية وعشرون (2).

واذا ما بحثنا عن الاسباب التي جعلت الرقيق يموتون من جراء هذه العملية (3) ادركنا انها راجعة بلاشك الى ان هذا الضرب من الجراحة كان يشكل صعوبة كبيرة ، بالرغم من توفر بعض المعدات والالات لمباشرتها . فمهما كان مستوى علم الجراحة متطورا في تلك العهود ، فانه لم يكن يسمح باجراء هذا التشريح بسلام . كما ان الادوات الجراحية لم تكن من الجودة والتطور بالدرجة التي نتصورها اليوم لاسيما اذا ما وقفنا عند عبارة الجاحظ الاتية (حديدة مرهفة محماة تسمى الحاسمة او القاطعة) (4) او عبارة المقدسي (تجعل تحت القضيب خشبة ويقط من اصله) او (مرود رصاص) (5) وهي كلها تشير الى هذه

---

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 2 ص 122 ـ 130
2) مصطفى الجداوي ـ الرق في التاريخ - وفي الاسلام طبعة الاسكندرية 1963 ص 131
3) القلقشندي ـ صبح الاعشى ـ ج 5 ص 328
4) الجاحظ ـ الحيوان ـ ج 1 ص 130 ـ 131
5) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ ص 241 ـ 243

المعدات التي تعتبر دون معدات الجراحة الحديثة في نوعها وان كانت ارفع نوعا من الات خصاء البهائم والدواب المستعملة اذاك مثل " الخيط " الذي يستعمل في (شدة التحزيق للبيضتين . . . حتى تمنع من الغذاء وتجف وتسقط) (1) .

ونحن نجد في فنون ذلك الخصاء وانواعه ما يوحي بالالم في الجملة مثل " السلّ " او " الامتلاخ " (2) و " القط " (3) و "المسح "(4) وان كانت هي الاخرى دون " الوجاء " او"الوجر" اي رض البيضة وتخزها دون قطع للقضيب،وهي طريقة مستعملة خاصة بالنسبة للبهائم (5) وليس لدينا كذلك ما يدل على ان طرق تنفيذ هذه الاساليب الجراحية لم تكن في حالة وعي العبد ،وان وسائل كانت تتخذ للتخفيف من الالم لا سيما ان الجاحظ يصرح بان للخاصي في بعض الاحيان ظلما " لا يفي به ظلم" "يربي على كل ظلم" (6). كما يقول:(لااعلم قطعة

---

1) الجاحظ ــ الحيوان ج 1 ص 130
2) المصدر نفسه ج 1 ص 129 ــ 131
3) المقدسي ــ احسن التقاسيم ــ ص 241 ــ 243
4) المصدر نفسه
5) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 130
6) المصدر نفسه ــ ج 1 ص 129 ــ 130

اذا كان القتل قتلة مريحة ــ الا اصغر عند الله تعالى واسهل على هذا المظلوم من طول التعذيب والله تعالى بالمرصاد)(1).

ان كل هذه الدلائل تجعل عملية الخصاء اقرب الى التصرف الوحشي منها الى المجال الطبي. ومما يضاعف من توحش هذه العملية انها كانت تباشر في مواطن نائية غالبا عن اماكن العلاج والتمريض، وتجري في ظروف قاسية لان مباشريها قد يتعمدون الاختفاء عن اعين الرقباء ويهربون من مراقبة السلطة التي كانت تمنع هذا التصرف وتعاقب عليه ، مما يضاعف من اخطار هذا الخصاء على حياة الرقيق ويكثر من حدوث الاخطاء المتسببة في فشل العمل الجراحي، مثل ما ذكر من " صعود احدى البيضتين الى جوفه (الخصي) " فاذا طلبت ورام الجراح البحث عنها " لم توجد في الوقت ثم تنزل بعدما التحم الشق " (2) ويرى الجاحظ ان القتل بالنسبة للخصي اهون عليه من هذه الحالة لان احدى البيضتين اذا تعذر استئصالها، وبقيت بعد التحام الجرح ،لم يكن الخصي رجلا ولا امراة فتخرج لحيته ولا يدخله اذاك احد على حريمه ،ولا يمكنه مشاركة الرجال في الفحولة والانجاب (3)

---

1) المصدر نفسه
2) المقدسي ــ احسن التقاسيم ــ 241 ــ 243
3) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 129 ــ 130

ونحن نلاحظ ان الصور التي ذكرت لنا اماكن الحصاء قد اشارت من طرف خفي الى انها لا تكون عالبا في المدن الكبرى حيث الرقابة المشددة والاعين اليقظة فهي تحتل عادة بالقرى الصغيرة المجاورة للمدن الكبرى مثل "وشلوا" بالنسبة "لهدية" (1) و "لوشنة" بالنسبة لبجانة (2) وأما "فردن" verdun فوضعها مختلف عنهما (3) ولم يكن السر عادة في اختيار هذه الاماكن يعود مجاورتها لاسواق الرقيق الشهيرة دون اهتمام بملاءمتها لمثل هذا العمل الجراحي. ولهذا السبب يذكر العمي ان الذين يخصون بوشلوا لا يقع علاجهم الا بهدية فيموت الكثيرون بين المدينتين بسبب انغلاق مجرى البول الذي لا يمكن فتحه على عين المكان (4).

ولسنا ندري كذلك شيئا ذا بال عن الذين يقومون بعملية الخصاء فهل كانوا من الجراحين حقيقة ام من الذين يدعوهم الحرص على الكسب الى تسليط العذاب على الاخرين في صورة وحشية بشعة ؟ من العسير الجواب عن هذا السؤال. لكن الامر الذي لا ريب فيه هو ان الذين يسمحون لانفسهم بممارسة امر غير مشروع لا يستبعد ان يقدموا على تنفيذه بوسائل غير مرعية ايضا. لكن الامر تطور فيما بعد وتغيرت ظروف الخصاء في العصور الحديثة اذ اصبح امر السرى الاوسط في العصور المتاخرة تحت عملية الخصاء على الرغيس في المستشفيات ويتم بعمليه جراحيه (5).

1) الباطربصيلي - تاريخ وحضارات السودان ص509
2) المقدسي - احسن التقاسيم - ص 241 - 243 بروفنسال - Provençal
تاريخ اسبانيا المسلمة ج 1 ص 372 الحالة رقم 2
3) هي من العواصم التجارية الكبرى - لاروس G. Larousse. الموسوعة - ج 10
4) الباطربصيلي - تاريخ وحضارات السودان ص509
5) مصطفى الحداوي - الرق في التاريخ وفي الاسلام ص131 الاسكندرية 1963

ز- آثار الخصاء المادية والروحيـة

* تاثير الخصاء في البنية الجسدية :

وللخصاء انعكاسات على مظاهر البنية الجسدية بالنسبة للخصـي وقد تعرض المؤلفون في هذا العصر الى تفصيل القول فيها وخاصة منهـم المسعودي في كتابه اخبار الزمان والجاحظ في رسائلـه وكتاب الحيوان(1) وتتمثل هذه الانعكاسات في حدوث تغييرات في هيئـة الانسـان المخصي وسماتـه وملامحـه وبشرتـه ولونـه وهي تغييرات تجعلـه اقرب الى خصائص النساء الجسديـة. فمن ذلك مثلا تساقط شعـره الا شعر العانـة والراس واشفار العينين لانها موجودة عند كل من الرجل والمرأة. اما بقيـة الجسد فتصير مجردة، بل انـه (ليفضل المراة فـي الانجراد والزعر بان تجد المراة زباء الذراعين والساقين وبان تجد لها الشعر في ابطيها وليس الخصي كذلك) (2) وقد تحدث الجاحظ على اهم هذه التغييرات ولاحظ ما فيها من تشبـه بخصائص الانـاث فيقول ان صوت الخصي يتغير ويشعر جميع الناس بتغييره وليسوا فـي حاجة لمعرفـة ذلك الى قيافـة.

---

1) المسعودي ـ مروج الذهب ج 8 ص 148 طبعة باريس 1970 ـ أخبار الزمان طبعـة - بيروت - 1966 - ص 95 - الجاحظ - الحيوان - ج 1 - من ص - 106 إلى ص 175

2) الجاحظ ـ الحيوان ج 1 ص 114 ـ 115

يقول الجاحظ (ويعرض له عند قطع ذلك العضو تغير الصوت حتى لا يخفى على من سمعه من غير ان يرى صاحبه انه خصي ،وان كان الذي يخاطبه ويناقله الكلام اخاه او ابن عمه او بعض اترابه من فحولة جنسه ..... وما اقل من تجده ناقصا عن هذا المقدار الا وله بيضة او عرق فليس يحتاج في صحة تمييز ذلك ولا في دقة الحس فيه الى حذق بقيافة بل تجد ذلك شائعا في طباع السفلة والغثراء وفي اجناس الصبيان والنساء) (1) ويبين الجاحظ ان هذه الصفات هي في جملتها قريبة من صفات النساء ويذكر ان الخصي يزداد بها جمالا ولكن هذا الجمال سريع الزوال ....

---

1) المصدر نفسه ج1 ص 113

يقول في هذا الصدد (. . . . انك ترى الخصي وكأن السيوف تلمع في لونه وكأنه مرآة صيدية وكانه وذيلة مجلوة وكأنه جمارة رطبة وكانه قضيب فضة قد مسه الذهب وكأن في وجناته الورد، ثم لا يلبث كذلك الا سيئات يسيرة حتى يذهب ذلك ذهابا لا يعود ، وان كان ذا خصب وفي عيش رغد وفي فراغ بال وقلة نصب) (1) فطبيعي اذن اذا ما كان المسلمون يستملحون في بعض عهودهم هؤلاء الخصيان ويتسرّون بهم ما داموا صغار السن، فيستكثرون منهم في مجالس لهوهم قصد الترفيه والاستمتاع ، وليس من الغريب والحالة هذه ان يتناول الغزل المذكر في بعض البلدان الاسلامية كالاندلس وصف الخصيان قبل غيرهم فقد كان هؤلاء موضوع هذا الغزل في اغلب الاحيان وديوان ابن قزمان حافل بهذا النوع من الغزل (2) وقد شجع هذا الولع بجمالهم على شرائهم فضلا عن حاجة الحريم اليهم.

---

1) المصدر نفسه ج 1 ص 106 ــ 108

2) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 399 ــ 402

*.تاثير الخصاء في الامزجة والاخلاق :

وللخصاء تاثير في مزاج الرقيق واخلاقه فضلا عن تاثيره في خلقته وبنيته الجسدية (1) ويتجلى هذا التاثير في تغير طباع الخصي من الشدة الى اللين ومن الخشونة الى الرقة فيصبح شبيها بالمرأة في ذلك ، ويفقد اخلاق الرجال شيئا فشيئا .وقد لاحظ الجاحظ هذه الظاهرة قائلا : (اذا قطع العضو الذي كان به فحلا تاما اخرجه ذلك من اكثر معاني الفحول وصفاتهم) (2) وقد اشار ابن بطلان ايضا الى هذا التحول في صفات الخصي النفسية فقال :(اخلاق الخصيان كالمشابهة لاخلاق النساء) (3) ويضرب الجاحظ مثالا حسنا على هذا التحول من الذكورة الى الانوثة او ما يقاربها بالاحباش الذين يخصون اذ تفتر حيويتهم ويذهب نشاطهم وتقل حركتهم والحال انهم عرفوا بكثرة النشاط وسرعة الحركة لما ينفردون به من حرارة الطباع حسب قوله (4) لكن الخصي بالرغم من اتصافه

---

1) الجاحظ ــ فخر السودان ــ الرسائل ج 2 ص 124
2) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 106 ــ 108 (يشير الجاحظ الى غزارة دموع الخصيان)
3) ابن بطلان ــ الرسالة ــ ص 365 ــ 366
4) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 119 ــ 120

باخلاق الصبيان والنساء (1) لم يفقد كل خصائص الذكور النفسية كما لا يتكيف طبقا للنموذج الانثوي الكامل. وانما تراه جامعا بين الخلقين والسجيتين متأرجحا بينهما، وان كان يجذب احيانا الى احد هذين الطبعين اكثر من انجذابه الى الآخر، وقد ادرك الجاحظ هذا التوسط في الطباع فقال :(وتصير طباعه مقسومة على طباع الذكر والانثى وربما لم يخلص له الخلق ولم يصف، حتى يصير كالخلق من اخلاق الرجال، او يلحق بمثله من اخلاق النساء ولكنه يقع ممزوجا مركبا فيخرج الى ان يكون مذبذبا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ....) (2).

---

1) المصدر نفسه ج 1 ص 135
2) المصدر نفسه ج 1 ص 106 ـ 108

ومهما يكن من امر فان اخلاق الخصي تتغير بعد خصائـــه وقد اثبت العلم الحديث اليوم ما لاحظـه هؤلاء العلماء بالامس.فقد جاء في موسوعـة لاروس الكبير تحت مادة خصاء ان عملية خصاء الرجـل تفضي الى تطبعه بطباع النساء وان خصاء النساء تكسبهن طبـــاع الرجال ،كما يصبح الخصي ذا تفكير صبياني يدل على غباوة (1) ونحن نجد في فتوى للفقيـه اللخمي (توفي 478هـ/1085م) رايا شبيهـــا بهذا اذ يذكر ان الصقالبـة لهم عقول غبيـة لان الخصاء ينقص من الذكاء (2) .

وما من شك في ان نوع التربيـة التي يتلقاها الخصي ومعاشرته للنساء تميل بـه الى التطبع باخلاق الاناث.وقد ساعـد هذا الوضـع على اتخـاذ غلمـان من الخصيـان لممارسـة الشذوذ الجنســـــي. لكن الجاحظ قد ذكر نتـائج اخرى لعمليـة الخصاء يعسر ان نرجعها لطبيعة تلك العمليـــة ،ولا يمكن ان تكون الا اثـرا من آثار الوضـــع

---

1) لاروس الكبير- الموسوعـة ج 2 ص 696

2) البرزلي ـــ مخطوط ـــ نسخـة -حسن حسني عبد الوهاب ج 2 ص 41

الاجتماعي الذي كان عليه الخصيان في المجتمع الاسلامي ا ذاك ومنها انه كان يعتبر الخصاء متسببا في صبر الخصيان على الركوب ومهارتهم في الحرب ومنميا لذكائهم خصوصا اذا كانوا من الصقالبة، فتصبح لهم معرفة بابواب الخدمة وفطنة وحذق بالرغم من شهرة الصقالبة بالحمق والبلاهة حسب قوله ، وتراه يقارن بين صقلبي فحل وآخر خصي فيقول:

(. . . . . ان اخوين صقلبين من ام واب لو كان احدهما توأم اخيه ، انه متى خصي احدهما خرج الخصي منهما اجود خدمة وافطن لابواب المعاطاة والمناولة ،وهو لها اتقن وبها اليق وتجده ايضا اذكى عقلا عند المخاطبة ، فيخصّ بذاك كله ، ويبقى اخوه على غثارة فطرته ، وعلى غباوة غريزته ، وعلى بلاهة الصقلبية وعلى سوء فهم العجمية) (1) فهو هنا يصف وضع الخصيان في المجتمع الاسلامي ويتوهم انه طبع فيهم وخلق ناجم عن الخصاء. وكل ما في الامر ان الصقلبي من غير الخصيان يكون اقل اختلاطا بالاوساط العائلية واعجز عن حفظ اللسان العربي من الخصي ولا يتاح له ان يتخلق باخلاق المسلمين وان يتفهم عاداتهم كما يتاح للخصيان بسبب كثرة استخدامهم وتربيتهم .

---

1) الجاحظ ــ الحيوان ــ ج 1 ص 116 ــ 118

الفصل الثالث

تجارة الرقيق المؤنث

لقد راحت تجارة الرقيق المؤنث في هذا العصر رواجا كبيرا وخاصة في المدن والعواصم لان حاجتها اليه كانت أكبر من حاجة القرى والارياف حيث يقتنى الرقيق المذكر خاصة (1) وكان المؤنث من الرقيق يقتنى لغايتين هما المتعة المعبر عنها بمصطلح "التسرّي" والاصطلاع بأعمال منزلية وعائلية وهي المعبر عنها بمصطلح "الخدمة" فتسمى الأمة المقتناة للمتعة "سرية" وتدعى المقتناة للخدمة "خادما" وقد شرع الفقهاء أحكاما للفصل بين اماء التسرّي واماء الخدمة مفادها عدم جواز الجمع بين الاستخدام والاستمتاع بالنسبة الى الامة الواحدة حفظا للحقوق وللسلوك الاخلاقي وكانت صفة الجمال في الجارية من اهم العوامل التي تجعلها مخصصة للمتعة بينما تعتبر صفات أخرى فيها عند تخصيصها بالاستخدام (2).

---

(1) بروفنسال ـ Provençal ـ تاريخ اسبانيا المسلمة ـ ج 3 ص208. 214

(2) السقطي ـ آداب الحسبة . ص47. 50 ـ ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ص356 ومابعدها

ومن أطرف ما يروى حول موضوع التمييز بين هذين النوعين ما ورد في رسالة "مفاخرة الجواري والغلمان" للجاحظ من أن رجلا نظر "الى جارية سرية ترتفع عن الخدمة فقال: يا جارية في يدك عمل؟ قالت: لا ولكن في رجلي." (1) الا انه ليس لدينا ما يثبت ان المالكين للرقيق قد احترموا هذه الحدود بين الاستخدام والاستمتاع.

1) افتناء الخدم

وكان افتناء "الخدم" من الاماء عادة راسخة في مجتمع هذا العصر سواء أكان ذلك بالنسبة الى حياة القصور أو دور الخواص وقد اهتم المحتسبون والنخاسون وأهل الاسواق عامة بضروب الاختصاص الموكولة الى الاماء من طبخ وعسل ورضاع وغزل ونسج وغيرها من الشؤون المنزلية وحرصوا على امتحانهن في هذه المشاغل كلها (2) كما كانت ربات القصور يقتنين "الوصائف" ويتهادينهن وهن نوع من الخدم المصانعات بخدمة الحظايا في القصور

(1) الجاحظ ـ مفاخرة الجواري والغلمان ـ الرسائل ـ ج 2 ص 131

(2) السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 47 ـ 50

فممّا يروى مثلا عن "ست الناس" وهي جارية محمد بن علي الماذرائي بمصر انها كانت تجلس في شباك من شبابيك قصره وحولها وصائفها قياما بالمذاب (1) وعادة اتخاذ الوصائف هذه كانت منتشرة في قصور الامراء والملوك واضرابهم من الوجهاء والاثرياء في العالم الاسلامي وغالبا ما تتخذ في القصور مديرة للخدم تدعى "قهرمانة" (2) وفي ذلك دليل على كثرتهنّ وحاجة مالكيهنّ الى من يشرف على شؤونهنّ. ومن أمثلة هذه الكثرة ما روي عن الخدم اللائي خرجن في جنازة ابن طولون (254 - 270 هـ/ 868-884م) اذكنّ خلقا عظيما "لايعرف عدده الا الله جلّ اسمه ... وقد كنّ صارخات فارتجت الارض لهن وعظمت الحال في قلوب من شاهدهن" (3).

---

(1) سيدة اسماعيل كاشف. مصر في عهد الاخشيديين - ص255. 256

(2) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص399 - 402

(3) البلوي - سيرة احمد بن طولون - ص 345

ويمكن أن نعرض صورة مختصرة حول ظاهرة اقتناء الخدم بالمغرب الاسلامي حيث كان الاقبال خاصة على اقتناء الاماء السود للقيام بالخدمات المنزلية وكذلك كان الأمر بالاندلس (1) فيذكر البكري أن بمدينة "اودغست" طبّاخات محسنات من الاماء السود تباع الواحدة منهنّ بمائة مثقال من الذهب وباكثر من ذلك وقد اشتهرن باتقان الوان عديدة وفاخرة من الاطعمة (2) وقد يتجاوز الأمر اقتناء الخدم الى استئجارهنّ ففي العائلات الثرية بالاندلس يقع استئجار الخدم وقد وصلت الينا امثلة من عقود الاستئجار هذه وفيها ذكر لمختلف الخدمات المنزلية كعجن العجين واعداد الأكل وغسل العرف وتنظيم الفراش وحلب الشاء وغسل الثياب وعزل الصوف ونسجه وهي عقود سنوية يلتزم فيها السيد باطعام الخادم وايوائها وكسوتها وقد حفظ لنا هذه النماذج من العقود كل من الفيسي والحزيري (3) .

---

(1) المرجع نفسه - ج 3 ص 177 - 179 - نجاة باسا - التجارة في المغرب الاسلامي - ص 115 - 116

(2) البكري - المغرب - ص 168

(3) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 399 - 402

ج) رواج تجارة الجواري

وقد شرح الجاحظ الاسباب التي من اجلها صار اكثر الاماء احظى عند الرجال من اكثر المهيرات بان الرجل يكون قبل ان يملك الامة قد تامل كل شيء فيها وعرفه ما عدا حظوة الخلوة فيقبل على ابتياعها بعد وقوعها في نفسه اما الحرة فانما يستشار في جمالها النساء والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجل و موافقتهن قليلا ولا كثيرا والرجال بالنساء ابصر وانما تعرف المراة من المراة ظاهر الصفة فاما الخصائص التي تعرض من نعوس الرجال فلا تعرفها .(1)

وقد كان شغف الخاصة بالجواري في هذا العصر مضرب المثل حتى قيل "انه لم يل الخلافة في الصدر الاول من امه امة حاشا يزيد وابراهيم ابني الوليد ولا وليها من بني العباس من امه حرة حاشا السفاح والمهدي والامين ولم يلها من بني امية بالاندلس من امه حرة اصلا " (2) وفي هذا القول بيان للتطور الذي حدث في المجتمع الاسلامي بخصوص رواج بضاعة الرقيق وحسبنا ان نراجع انساب خلفاء العصر الرابع للهجرة من العباسيين

1) الجاحظ - المحاسن والأضداد - ص 299
آدم متز - A - MEZ - الحضارة الاسلامية 2 ص 180
2) ابن حزم - نقط العروس - عن :
احمد امين - ظهر الاسلام 1 ص 124

وغيرهم وخلفاء الامويين باسبانيا المسلمة لنعلم ان امهاتهم كن في الاغلب من الصقلبيات ،وفي بعض الاحيان من التركيات او الروميات وغيرها من الاجناس التي ينتمي اليها الجواري اذاك (1) ولذلك تراهم يتبعون نسب امهاتهم فلا يتزوجون غير المملوكات الا نادرا .ونظرا الى غلبة هذا التصرف سميت زوجة احدهم بالحرّة تخصيصا لها (2)

وقد يكون من المفيد في هذا المقام ان نورد بعض الامثلة ممّا يرويه المؤرخون عن شغف الخاصة في المجتمع الاسلامي باتخاذ السراري .وهي امثلة لا يخلو بعضها من مبالغة ولكنها جدّ معبرة عن هذا الوضع الجديد الذي استفحل تدريجيا مع استحكام الحضارة وازدهارها .

فبالنسبة الى المشرق الاسلامي اشتهرت من امهات الخلفاء والامراء مجموعة من الجواري منهن " مراجل " الفارسية ام المأمون (198-218هـ 813-833م) و" ماردة " ام المعتصم (218-227هـ/833-842م) و "قراطيس" ام الواثق (227-232هـ/842-847م) " و شجاع " ام المتوكل (232-247هـ/847-861م)

---

1) ابن الحوزي ـ المنتظم ـ ج 5 - ص 121-141

آدم متز A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2ص180

2) آدم متز A.MEZ - الحضارة للاسلامية ج 2ص 180

و " قبيحة " ام المعتز (252-255هـ/ 866-869م) و"حبشية " أم المنتصر (247-248هـ/861-862م) و " شغب " التركية ام المقتدر (295-320هـ/908-932م) وكانت ام المستعين بالله (248-252هـ/862-866م) صقلبية وام المهتدي (255-256هـ/869-870م) رومية وام المكتفي (289-295هـ/902-908م) تركية وام المستضيء (566-575هـ/1170-1180م) ارمينية وام الناصر(575-622هـ/1180-1225م) تركية وغير هؤلاء ممن لم نذكر (1).

وتعج كتب التاريخ والادب بأخبار هيام هؤلاء الخواص بجواريهم وبما ينفقونه في سبيل رضاهن مما يعتبر احصاؤه متعذرا وايراده مخرجا لهذا البحث عن قصده. وانما يكفي للتدليل على ولع المشارقة بالرقيق المؤنث الجميل هذه الابيات التي جاءت على لسان المستضد (279-289هـ/892-902م) في التفجع على جاريته " دربرة" :

---

1) صلاح الدين المنجد — بين الخلفاء والخلعاء ص 45 — زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي — ج 4 ص 153 — 154

" يا حبيبا لم يكن يعدله عندي حبيب

انت من عيني بعيد ومن القلب قريب

ليس لي بعدك في شيء من اللهو نصيب

لك من قلبي على قلبي وان بنت رقيب

وخيال عنك مذ غبت خيال لا يغيب

لو تراني كيف لي بعدك عول ونحيب

لعلمت بأني فيك محزون كئيب

ما اس نفسي و ان سليتها عنك تطيب

لي دمع ليس يعصيني وصبر ما يجيب"(1)

وكثيرة هي الاخبار التي تبرز لنا اعتداد ذوي السلطان والجاه بعبود يتهم لسلطان الجمال في الجواري بالرغم من عودية هؤلاء الحواري (2) ومنها ما يبرز لنا كثرة ما يقتنيه هؤلاء منهن فمما يذكر ان المتوكل العباسي (232-247هـ/ 847-861م) كان له اربعة الاف جارية وطئهن جميعا (3) وان من الهدايا التي كان يتلقاها من عبد الله بن طاهر اميرخراسان ما استمل

---

1) السيوطي - تاريخ الخلفاء - القاهرة - (د ت) ص 372

2) ابن بسام - الذخيرة - القاهرة 1939 المجلد الاول - القسم الاول ص 33. الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 - ج 21 ص 74 وج 22 ص 151 و 204 و 205 - 539 - 542 - 566

3) المسعودي - مروج الذهب - ج 7 ص 276 فيليب حتي - Ph Hitti - تاريخ العرب - ص 109

في بعض المناسبات على أربعمائة وخمسين (1)

وكان غير هؤلاء من أمراء المصرف يعيشون على نفس المنوال في استكثارهم من اقتناء السراري فهذا ناصر الدولة صاحب ميافارقين يتخذ لنفسه ثلاثمائة وستين جارية على عدد أيام السنة (2) وكأن الفاطميين بمصر نافسوا غيرهم في هذا الميدان اذ يروى ان قصر الحاكم بأمر الله (386- 411 هـ / 996-1020م) قد كان يضم عشرة آلاف جارية (3) وقد حاول الفاطميين على هذا النمط من التهارى في اقتناء السراري كلما تقدم الزمن فلما احتل صلاح الدين الايوبي (569-633هـ/1167-1193م) قصورهم وجد في القصر الكبير اثني عشر الف نسمة ليس فيهم خادم فحل الا الحليفة واهله واولاده باستثناء الخدم والغلمان وقد مكث صلاح الدين يبيع هذا الفيض من الرجال عشرين سنة (4).

ولم تكن الاجواء بالاندلس والمغرب بدون ذلك اعتبارا لشأن الحراري الفيلسوف ابن باجة الاندلسي والاندلسي ولعل ما يروى عن عائشة عبد الرحمان بن الحكم (206-238هـ/822-852م)

---

1) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بولاق 1285هـ.
ج 1 ص 133

2) ابن خلكان - وفيات الاعيان ج 1 ص 57

3) المقريزي - الخطط - طبعة بولاق 1270هـ.
(في حزاين) ج 1 ص 30

4) المصدر نفسه ج 2 ص 405

بجاريته " طروب " وعلاقة عبد الرحمان الناصر (300- 350هـ/ 912- 961م) بجاريته " الزهراء " التي ابتنى لها قصرا تحت جبل العروس شمال قرطبه وسماه بأسمها هو احسن رمز للطابع الاندلسيين بهذه البضاعة الثمينة واقبالهم على اقتنائها (1) هذا فضلا عما اشرنا اليه سابقا من امهات اولاد الخلفاء والامراء بالاندلس واقبال ذي الجاه والثراء على التسري وكذلك الزواج بالاماء من صقلبيات وافرنجيات وغيرهن (2).

ومن العوامل التي كانت تحث الاسر الحاكمة على الاستكثار من الحظايا والسراري حرصها على الاستكثار من النسل بدافع عصبي تسعى فيه تعزيزا لمركزها فكان افرادها يعتبرون كثرة الولد من باب حماية كرسي الملك من الاطماع المتواثبة عليه فتسابقوا الى احراز الجواري واستيلادهن حتى اننا نجد منهم من احصن عددا كبيرا منهن في آن واحد ولا غرابة بعد هذا اذا ولد لاحدهم خمسون او مائة ولدا وأكثر من ذلك او اقل حسب ما تفيده اخبار عبد العزيز ولا غرو ان يروى عن عبد الرحمن بن الحكم الاموي (206-238هـ/ 822-852م) أنه ولد له مائة وخمسون ذكرا وخمسون انثى (3) وعن تميم بن المعز الفاطمي

---

1) المصدر نفسه ـ ج 2 ص 435

2) المقري ـ نفح الطيب ـ طبعة بروت 1949
ج 1 ص 347 و ج 2 ص 65 و ص 9

3) بروفنسال Provençal. تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3
177 ـ 179

(337-374هـ / 948-985م) انه انجب اكثر من مائة ذكر وستين انثى (1) وذلك لان امثال هؤلاء لم يشكوا في ان القوة تقوم على كثرة العدد وهي عقيدة عصبية قديمة متوارثة بينهم (2) .

وكان من نتائج كل ذلك ان ازداد نفوذ الجواري وخاصة منهن امهات الاولاد واستطاع بعضهن ان يشارك في الدسائس السياسية وان يستبد بالسلطة مثل ام المقتدر (295-320هـ / 908-932م) التي اعادته الى الحكم مرتين ومثل " حسن " الجارية الشيرازية التي قضت على الخليفتين المتقي (329-333هـ / 940-944م) والمستكفي (333-334هـ / 944-946م) ومثل " صبيحة " ام المعتز (252-255هـ / 866-869م) وجارية المتوكل (234-247هـ / 847-861م) وهي التي اوعزت لابنها ان يقتل اخاه المؤيد فقتله ثم خذلته بعد ذلك عندما طالبه الجند بارزاقهم فامتنعت عن اسعافه رغم ثرواتها الطائلة (3) وما ذاك الا نتيجة تغلب الرقيق المؤنث الجميل على نفوس رجال الدولة وطبقة الخاصة بصورة عامة .

وقد كانت الفئات الثرية المتوسطة المعارضة تنسج على منوال

---

1) ابن خلكان ـ وفيات الاعيان ـ طبعة مصر 1310هـ
2) المصدر نفسه ج 2 ص 147
3) كمال مصطفى ـ مقدمة تحقيق الوشاء لابي الطيب الوشاء
ص = ن — س

الوجهاء والملوك والامراء فالناس على دين ملوكهم كما يقال، فكانوا يفضلون اقتناء الاماء للتسري او الزواج على خطبة الحرائر والاقتران بهن وقد وصف الجاحظ هذه النزعة في "المحاسن والاضداد" بقوله: ((كان يقال: من اراد قلة المؤنة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالاماء دون الحرائر وكان مسلمة بن مسلمة يقول: عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوج المهائر! وقال: السرور باتخاذ السراري ...)) (1).

وكان عنصر الجمال في الجواري عاملا اساسيا في رواج تجارتهن لانهن يتخذن للتسري قبل كل شيء او " للفراش والوطء " كما يقول الفقهاء. ولذلك كثرت العناية لدى ارباب هذه التجارة بالتأمل في دقائق الجمال ولطائف الحسن ووضعت لهذا الغرض مؤلفات في " نعوت " الرقيق كما وضعت في " عيوبه " لتنبيه الشراة وهدايتهم الى الجيد من السراري. ومن الرسائل الطريفة في هذا الباب رسالة احمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصفدي المتوفى سنة (350هـ/961م)(2)

---

1) الجاحظ المحاسن والاضداد طبعة بيروت
دار مكتبة العرفان د ت ـ ص 299

2) معاصر للخليفة عبد الرحمان الثالث (300-350هـ/912-961م)
وقد ذكره ابن الفرضي في تاريخه رقم 140 وقد وردت الرسالة في مخطوطة للقيسي ـ (= راجع بروفنسال Provençal تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 314-317

وقد اهتم فيها صاحبها بتفصيل نعوت الجارية الجميلة وكأنه يريد ان يرسم نموذجا للذوق الجمالي في هذا العصر ويلاحظ المتمعن في جملة النعوت المذكورة في هاته الرسالة وفي غيرها من رسائل الحسبة التي تعرضت الى هذا الموضوع بطريقة غير مباشرة لانها اهتمت بالعيوب خاصة وبعمليات التزييف والغش ان لهذا العصر نموذجا من الجمال المؤنث قد تأثر بالخصائص التي تتميز بها اجناس الرقيق المختلفة.اذ صار فيه بعض السمات المستطرفة مثل شقرة الشعر وزرقة العين واحمرار البشرة مع بياضها وان كان فيه احتفاظ بالسمات التقليدية التي كانت عنوانا للذوق الجمالي العربي مثل " الصفرة " واللمى " و " الدعج " والهيف " ونحافة الخصر مع بروز العجز والنهدين الى غير ذلك من السمات المعروفة (1) ولعل هذا الاحتفاظ هو الذي اوهم فيليب حتي بأن المثال الاعلى للجمال قد بقي على حاله ولم يتغير (2) بينما التغير موجود ويكفي ان نشير الى كثرة ما يتردد في الشعر من وصف الجمال باحمرار اللون حتى صار الحسن احمر كما قال الشاعر :

---

1) الجاحظ.المحاسن والاضداد ـ ص 25

2) فيليب حتي ـ Ph. Hitti ـ تاريخ العرب ـ ص 104

هجـان عليهـا حمرة في بياضها يروق بها العينين والحسن احمر(1)

وكـان الحسن يشبـه من اجـل ذلـك بالنـار (2) الا ان الجاريـة تـوصفـه ايضا بانها "صفـراء " وقـد عدت جواري هـذا العصـر الى طلاء اجسـاد هن بالورس (3) تجمـلا كمـا قـال الجاحظ (4).

وقـد دعـت تجارة الجواري اهل هذا العصر الى الجدال في مفهوم الحسن وفلسفـوا الكـلام فيـه وحاولـوا وضـع قواعـد لـه فتعـرف منهم " جها بذة النقـد " الذين تكـلموا في الالوان وحسنهـا وسعـوا الـى الجمـع بين المستحـدث من الصفات والتليد منهـا فذكروا ان البيـاض يمازجه ((لونـان يزيدانه حسنا الحمرة والصفـرة فامـا الحمـرة فتعتري البيـاض من رقـة اللون وصحة الدم وامـا الصفرة فتعتري البيض لاستتـارهن وملازمتهن النعمـة والخفض والدعـة وتعتريهن ايضـا لملازمتهن التضمـخ بالطيـب ويقـال ان المراة اذا كانت عميقة الحسن ناعمـة البدن فان لونها يكـون من أول النهـار الى ابتداء العشية يضـرب الى الحمـرة ومن ابتـداء العشية الى آخـر النهار يضرب الى الصفرة)) (5) .

---

1) احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص 136
2) المـرجـع نفسـه
3) السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 50-52
4) الجاحظ ـ المحاسن والاضداد ـ ص 25
5) احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص 129
نقلا عن كتاب النساء لابي الفرج الاصفهاني ـ

وما قاله هؤلاء ((الجهابذة)) في الالوان قالوه في كل عضو من جسد المرأة من الشعر والجبين والحواجب والعيون والانوف والخدود والشفاه والشعور والاعناق والمعاصم والاعضاء والانامل والنحور والصدور والاثداء واختلاف الاذواق في كبرها اوصغرها والخصور والسوق والاقدام وكانوا((يقدمون المجدولة التي تكون بين السمينة والمشوقة ولابد تكون كاسية العضام)) (1)وفيه دليل على الذوق الجديد المختلف عن القديم الذي يرى في المراة ((بهكنة)) (2) وقد كان لاجناس الجواري دور في تغير هذا الذوق وخاصة منهن الصقلبيات ثم التركيات وغيرهن من الجواري البيض (3) وقد كانت الافرنجيات يحظين في الاندلس برواج كبير بسبب شقرة شعورهن وبياض الوانهن وكن انفس الجواري بالبلاط الاندلسي وبحريم الخلفاء ووجهاء اهل قرطبة وكان ثمنهن باهضا جدا (4).

وقد نوه المقدسي بجمال الاتراك وخاصة منهم اهل الساشر وغانة واعتبرهم احسن الوانا من اهل اقليم السودان كلهم.وقد جعل

---

1) الاصفهاني ـ كتاب النساء عن احمد امين ـ فجر الاسلام ص 129 وخليل بن اسحق ـ المختصر ص 265 وهو يقول:ان انخفاض نهدي الجارية يعتبر عيبا فيها

2) الجوزني ـ المعلقات ـ ص 65 والكلمة واردة في بيت شعر لطرفة وهو قوله:

وتصير يوم الدجن والدجن معجب بهكنة تحت الخباء المعمد

3) الثعالبي ـ يتيمة الدهر ـ القاهرة 1934 ج 4 ص 116 وهو يشهد بافضلية الصقالبة على الاتراك

4) بروفنسال Provençal ـ تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 177ـ179

لهذا الجمال درجات وخص بالدرجة الثانية اهل نسف وطراز وباراب وهؤلاء لا نظير لنسائهم حسب قوله . ثم جعل في المرتبة الثالثة السمرقنديين والبخاريين والمراوزة اما اهل خوارزم فهم من البيض الحمر ولهم خلقة اخرى حسب تعبيره (1)

ويتحدث البكري حديث المعجب بجمال الجواري في اودغست ويصف خصائص جمالهن قائلا ((وبها جوار حسان الوجوه بيض الالوان ثنيات القدود لا تتكسر لهن نهود لطاف الخصور ضخام الارداف واسعات الاكتاف ضيقة الفروج المستتبع باحداهن كأنه يتمتع ببكر ابدا ، قال محمد بن يوسف : اخبرني ابو بكر احمد ابن خلوف الفاسي شيخ من اهل الحج والخير . قال : اخبرني ابو رستم النفوسي وكان من تجار اودغست انه راى منهن امراة راقدة على جنبها وكذلك يفعلن في اكثر حالهن اشفاقا من الجلوس على ارداف هن تراى ولدها طفلا يلاعبها فيدخل تحت خصرها وينفذ من الجهة الاخرى من غير ان ينجافى له شيئا لعظم ردفها ولطف خصرها)) (2).

---

1) المقدسي ـ احسن التقاسيم ص 336

2) البكري ـ المغرب ـ ص 153 ـ 159

وكان مجتمع هذا العصر يرى الجمال ايضا في جنس الرقيق الاسود وقد ارتفعت اثمان الجواري السود بالاندلس لان الطبقة الارستقراطية كانت تحبذ اقتناءهن وترغب فيهن رغبتها في الجواري البيض فتتخذ الخاصة من المسلمين السراري منهن مما يدل على انعدام الاعتبار العنصري الخاص باللون في هذا العهد (1).

وقد كانت الجواري النوبيات مضرب المثل في الجمال اذ يتميزن بقسامة وجوههن ويوصفن بان شفاههن رقيقة وافواههن صغيرة واسنانهن ناصعة البياض وشعورهن مرسلة ويبلغ ثمن الجارية منهن ثلاثمائة دينار واكثر من ذلك وكان ملوك مصر يتخذون منهن امهات اولادهم كما اقبل الخاصة من اهل الاندلس على شراء هؤلاء النوبيات الجميلات وقد اشتهرت منهن الكثيرات كالجارية التي اشتراها الوزير ابو الحسن المعروف بالصحفي بمائتين وخمسين دينارا فشغف بها لانه لم يشاهد قواما اكثر حسنا ولا خدودا اكثر لطفا ولا اسنانا انصع بياضا ولا اجفانا اكثر اتساعا وكان لها فضلا عن جمالها حسن منطق وكلام يسحر السامعين لانها من اللائي تلقين تربيتهن بمصر (2).

---

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 178 وص 205 - 214

2) الادريسي - نزهة المشتاق - ترجمة القسم الخاص بالمغرب والاندلس - لدوزي Dozy ودي غوية De Goeje في مجلد واحد - ليد 1964 - 1966 - ص 29 - كوك Cuoq. J. مستخبات - ص 108 - 140

وكان من اسباب الولع باتحاد جواري المتعة واللهو ما برع فيه الرقيق المؤنث خلال هذا العصر من فنون التجميل والتبرج حتى صار فيه مضرب الامثال واصبحت جميلات الجواري هن اللائي يقتدى بهن في حسن المظهر من هندام وهيئة ظريفة. وقد اورد الوشاء جملة من اخبارهن الدالة على ما جلبنه من اوطانهن الاولى من ضروب التزيّق كالاستعاضة بدقيق الكحل عن الشعيرات المتهافتات وتدقيق الحواجب واستعمال السواك من الاراك لتنظيف الاسنان وقد فتن الشعراء بهذا الاراك وتمنوا ان يكونوا مثله ليصلوا الى ثغر الحبيب وقد برعن ايضا في تصفيف الشعر على هيئات متنوعة واتخاذ العصائب المزركشة والمرصعة بانواع الحجارة الكريمة هذا فضلا عن تفننهن في الخواتيم والفصوص والتعطر باصناف الطيب والتظرف بالالبسة الانيقة (1)

---

1) الوشاء - الموشى - ص 150 - 200

كمال مصطفى - مقدمة تحقيق - كتاب

الموشى - ص - ك - م

وقد كان العرف التجاري يعتمد صفة الجمال في التمييز بين اماء المتعة واماء الخدمة أو بين ((العليّة)) و ((الوخش)) من الجواري (1) بينما كانت الاحكام الفقهية تضيف مقاييس اخرى عقائدية فتعتبر من المميزات بين النوعين عقيدة الامة اذ لم يكن من المباح للمسلم ان يتسرى بغير المسلمات او الكتابيات من ملك اليمين امّا ((المجوسيات)) فلا يحل له ملكهن الا للخدمة. والمستند الفقهي في هذا التمييز ما نهى عنه الرسول في حياته من مناكحة مجوس اهل هجر فاعتمده الفقهاء اصلا من اصول تشريعهم في هذا الميدان يقول ابو يوسف :

((واذا وقعت المجوسية في سهم رجل فلا يحل له وطؤها. قد كره ذلك غير واحد من الفقهاء مع ما جاء عن النبي صلعم في مناكحة المجوس ـ حدثني قيس بن الربيع عن قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية قال : صالح رسول الله صلعم مجوس اهل هجر على ان يأخذ

---

1) ابن ابي زيد القيرواني ـ الرسالة ج2 ص219

منهم الجزية غير مستحل مناكحة نسائهم ولا اكل ذبائحهم ... وحدثنا مغيرة عن حماد عن ابراهيم قال : اذا سبيت المجوسيات وعدة الاوثان عرض عليهن الاسلام واجبرن عليه ووطئن واستخدمن فان ابين ان يسلمن استخدمن ولم يوطأن .قال : وحدثنا مغيرة عن حماد عن ابراهيم في اليهوديات والنصرانيات يسبين قال : يعرض عليهم الاسلام فان اسلمن او لم يسلمن وطئن واستخدمن واجبرن على الغسل . قال ابو يوسف : وهذا احسن ما سمعنا في ذلك والله اعلم)) (1)

الا انه ليس من الثابت ان التجار على الاقل قد احترموا هذه الاحكام الشرعية في التمييز بين الاماء.وليس لدينا دليل كذلك على انهم كانوا يعلمون المشتري بديانة الامة قبل بيعها والراجح ان هذه الاعتبارات لم تكن تهمهم بقدر ما كانت الارباح مستأثرة باهتمامهم فاذا كانت الجارية حسناء مرغوبا فيها للمتعة لم يكن

---

1) ابو يوسف ـ كتاب الخراج ـ ص 206 . 207

من صالح التاجرا بعاد الراغبين فيها بالاشارة الى تحريم وطئها لاسيما اذا تذكرنا ان النخاسين كانوا يستعطفون جمال الامة وسيلة ترويج لتجارتهم وبذلك يبقى التمييز مناطا بعهدة المشتري وعمق ايمانه وستراه العقائدي ولم يمنع هذا التشريع ان تكون قصور الامراء والاثرياء مسرحا لعديد الجواري من مختلف الطل و ان تكون "المجوسيات" من الخطايا والسراري اللائي يسمح لهن بالاحتفال بطقوسهن في الاعياد والمناسبات (1).

واذا كانت ظاهرة التسري من اهم عوامل نشاط تجارة الجواري فان ظاهرة البغاء غير الشرعية لم تكن اقل اهمية في تنشيط هذه التجارة. فبالرغم من تحريم الشريعة لظاهرة التعهر من البغاء استنادا الى قوله ((ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصنا لتبتغوا عرض الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم))(2)فان هذه الظاهرة لم تضمحل من المجتمع الاسلامي وازدادت رواجا في هذا العصر بسبب رسوخ عوائد المجون والخلاعة ومساهمة الرقيق في ازكاء هذه العوائد ونشرها. ففي الاندلس كان البغيات يستعملن في الخانات حيث يكون استقرارهن وكن يدفعن

---

1) كمال مصطفى - مقدمة تحقيق كتاب الموشى لابي الطيب الوشاء ص - س - ع

2) قرآن - سورة النور-24آية-33

مكـــوسـا على تلـك الخـدمـة اي البغـاء. ولذلـك كـن يسمـيـن ((الخراجيات)) ونحن نجـد عـبارة ((خـراجيـات الخانـات)) في رسالة لابن شهيـــد الانـدلسي وقـد تعـرض اليهـا ابن بسـام في الذخيـرة (1) وكـان يوجـد بقرطبـة وبعض العواصم الانـدلسيـة الاخـرى دور للبغـاء تسمى الواحـدة منهـا ((دار الخراج)) ويذكـر ابن عـذاري ((دار البنـات)) (2) ولـم يتحرج الخليفة عبـد الرحمان الناصـر (300-350هـ/912-961م) من ان يصطحب معـه في موكـب رسمي من قرطبـة الى مـدينـة الزهـراء احـدى البغيـات في بعـــض الاعيـاد وان يخترق بهـا اسواق المـدينة وهـي بغي من دار الخـراج تـدعى ((رصيـــص)) وكـان يحبهـــا (3).

ويتضح من خلال كتاب احكـام السوق ليحي بن عمـران هـذه الظاهـرة قـد قويت بافريقية في هاتـه الفترة ممـا دعـا رجال الحسبـة الى التصـــدي لهـا ومراقبتهـا وانزال العقاب ببعض النسوة اللائي كن يمارسنهـا او يشرفـــن على ممارستهـا (4) وقـد دعـت مظاهـر تفشي هـذه العادة بمصـر الخليفـة

---

1) ابن بسام ـ الذخيرة ـ ح 1ص207 ـ بروفنسال ـ Provençal
تاريخ اسبانيا المسلمة ـ ح 3ص444ـ443
2) ابن عذاري ـ البيان ـ ح 3ص31 بروفنســـال
تاريخ اسبانيا المسلمة ح 3ص444ـ 448
3) المرجـــــع نفســـه
4) يحي بن عمـــر ـ احكـام السوق ـ ص133 - 135

الفاطمي الحاكم بامر الله (386-411هـ/996-1020م) الى التشدد في مراعاة آداب الشريعة فمنع النساء من المشي في الطرقات الا لضرورة قاهرة وبرخصة من الشرطة(1) ويقول المقدسي ان النساء بمصر لا يتورعن عن الفجور وللمراة زوجان (2) وكانت سوق البغاء قد راجت بالمشرق الاسلامي ايضا بل ان ابن حوقل ليقول انه ليس في بلدان المغرب من الفواحش الظاهرة وتعاطي الامور المنكرة والفسق الشنيع مثل ما في المشرق (3) فقد بلغ من مخالفة عضد الدولة البويهي (ت 372هـ/ 982 م) للشريعة ان فرض على القحاب بفارس ضريبة مثلما كان يفعل الفاطميون بفرضهم للرسوم على بيوت الفواحش (4).

ويحكي لنا المقدسي انه في مدينة السوس عاصمة اقليم خوزستان ترى دور الزنا عند ابواب الجامع ظاهرة (5) وان نساء شيراز شهيرات

---

1) المقريزي ـ خطط ـ ج 2 ص289 ـ الكندي الولاة ـ ص 210 ـ آدم متز . A.MEZ ـ الحضارة الاسلامية ج 2 ص 176

2) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ ص 200 ـ آدم متز ـ A.MEZ الحضارة الاسلامية ـ ج 2 ص 178

3) ابن حوقل ـ مسالك ـ ص70 ادم متز MEZ.الحضارة الاسلامية ج 2 ص 175

4) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ ص 441 ـ المقريزي خطط ج 1ص89 آدم متز MEZ.الحضارة الاسلامية ج 2ص174

5) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ ص407 آدم متز ـ MEZ ـ الحضارة الاسلامية ج 2ص175

بالفاحشة اما نساء هراة فهن ((يغتلمن اذا ازد هرت اشجار الغبيراء كما تغتلم السنانير)) (1).

وقد تحدث ابن بطلان عن دور البغاء بالمشرق وذكر ان المشرفين عليها كانوا من الروم المسيحيين وقد وصف مارآه بالشام عند ذهابه الى مصر في اوائل القرن الخامس للهجرة فقال انه مما اختصت به مدينة اللاذقية ان المحتسب فيها كان يجمع القحاب والغرباء الموثرين للفساد من الروم في حلقة وينادي على كل واحدة منهن ويتزايد الفسقة منهن لليلة الواحدة ثم يوخذن الى الفنادق التي يسكنها الغرباء بعد ان تأخذ كل واحدة منهن خاتما يسمى خاتم المطران ليكون حجة بيدها من تعقب الوالي لها لانه ان وجد خاطيء مع خاطئة من غير خاتم المطران عوقب وقد ذكر هذا النظام بعد ان عادت مدينة اللاذقية الى الروم (2).

وقد كان الرقيق الموئث مادة اساسية لتجارة البغاء هذه فهن اللائي يخالطن الرجال بينما انعزلت الحرائر في دورهن خلال هذا العصر بحكم الاستبداد الذي ساد العلاقات الاجتماعية فسادت

---

1) ماريوس كايار - المسلمون وبيزنطة - ف15 ص111-119
Schaht. et Meyerhof - the Controversy between Ibn Butlan and Ibn Ridwan - Le caire - 1937 - P19

2) القفطي - اخبار الحكماء -
ص298 آدم متز A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج2 ص175

الخشيـة على الاسرة من ان تتسـرب اليها هـذه الآفـة وتركت الحياة العامة للحظايا من الجواري (1) وللاماء اللائي كـن يتهافتـن على الدرهـم والدينـار وان ادى ذلك الى المتاجرة بعرضهن.ومن طريف مـا يحكيـه ابو القاسم البغـدادي ان غـلامـا وقـع فى هـوى احداهن وصـار يستدرجهـا بالمراسلات ويصف فيها عشقـه وهيامـه فلمـا استعصت عليـه لانها لم تك تعرف سـوى لغـة الدينـار كتب اليهـا في رقعـة ((واذ قد منعتنى زيارتك واستزارتك فمي بالله خيالك ان يطرقنـي ويبـرد حرارة قلبي)) فقالت لرسولته ،((قولي لهذا الرقيع يـا مـدبـر انا اعمـل بك مـا هـو خير لك من ان يطـرقك خيالي احمـل دينـاريـن في قرطـاس حتى اجيئـك بنفسـي)) (2)

---

1) المرجـع نفسـه ج 2 ص 176 177 وص 179 ـ 180

2) انـظـر الازدي ـ حكاية أبي القاسم البغدادي طبعة آدم متـز - A. MEZ - ص 73

الفصل الرابع

تجارة الرقيق المولد

تجـــارة الرقيـــق المولـــــد

1) الرقيق المولـــد

ان لكلمة مولّد اذا استعملت في سيـاق الكلام عـن الرقيق مدلولات عـدة يتفـرع بعضهـا عن بعـض ولكنهـا رغم تعـددهـــا تشترك في معنى اساسي هـو التمييـز بين الرقيـق المجلـوب من بـــلاد الاعـاجم والرقيـق الـذي ولـد ونشـأ في الوسـط العربـــي الاسـلامي اوخـالـطهـذا الوسـط ـ وتطبـع باخـلاقـه وعـاداتـه وتأدب بآدابـه . يقـول ابن منظـور ((المولـدة الجاريـة المولـودة بيـن العـرب ... وعـربيـة مولـدة وجـل مولـد اذا كـان عربيـا غيـر محـض ... وجـارية مولـدة تولـد بين العرب وتنشأ مـع اولادهـــم ويغـذونهـا غـذاء الولـد ويعلمـونهـا من الادب شـل مـــا يعلمـون اولادهـم وكـذلـك المـولـد من العبيـد)) (1) فالمهـــم اذن لكـي يكـون الرقيـق مولـدا ان تكـون لـه صلـة مـا بالمحيـط الحضاري الاسلامي سـواء أكـان ذلك بالولادة او النشأ والعربـي او اختـلاط الدمـاء ايضـا . وقـد ذكـر بـروفنسـال Provençal- ان التسمية بالمولـد كـانت تطلق في الانـدلـس على فئـات ثـلاث يشتـرك

---

1) ابن منظور ـ لسـان العرب ج 3 ص 981

اصحابها في خاصية واحدة هي الانصهار في المجتمع الاسلامي والتخلق باخلاقه وتبني ثقافته رغم الاصل الاجنبي فمنهم من اسلم طوعا وخضع للفاتحين ومنهم من قهر بالسيف ووقع استرقاقه ثم اسلم ومنهم اولاد اهل الذمة الذين اسلموا وكان هؤلاء من اصل قوطي او اسباني وكانوا يتكلمون العربية الى جانب الرومية وهم الذين وسموا بميسمهم الحضارة الاندلسية ومن هؤلاء المولدين من حافظ على لقبه الاصلي ومنهم من عربه مثل بني انجلينو = AngeLino وبني سفريكو Savarico وبني تومس Gomez وبني قرلمان CarLoman وبني مرتين Martin وبني غرسية Garcia وبني بارون - Barun (1) .

فقد شاع اذن استعمال هذه التسمية للدلالة على تلقي تربية خاصة على النمط العربي الاسلامي تمكن هذه العناصر الاجنبية من التأقلم والتكيف في امزجتها ولغتها وعقليتها وتقاليدها وفقا لطابع المجتمع الجديد الذي احتضنها وتتمثل هذه التربية في استيعاب الثقافة الجديدة بفنونها وآدابها واذواقها والتخلص من العادات الاولى والطباع السابقة . وبذلك

---

1) بروفنسال-Provençal- تاريخ اسبانيا المسلمة"
ج 3ص180 ـ 185

يغادر الرقيق عجته وسذاجته لان تلك العجمى والسذاجة الاصلية التي كان عليها عند جلبه من اوطانه قد كانت توقع الوحشة في نفوس مالكيه وتقف حاجزا دون التعامل والتجاوب معه خصوصا اذا كان من الرقيق المقتنى للحياة الخاصة والعائلية مثل الجواري . (1)

واذا ما استثنينا اصناف الرقيق الثقف الذي دخل في حظيرة الحياة الاسلامية فان سائر الاصناف قد كانت على حالة من البدائية قد تضاهي احيانا التوحش نظرا الى المستوى الحضاري الذي كانت عليه اوطانهم الاولى وهو مستوى يعتبر ساذجا بالقياس الى حضارتي العالم اذاك اي الاسلامية والبيزنطية . ومن ثم وجب الرفع من مستوى هذا الرقيق والسمو به عن مرتبته الاولى حتى يواكب الحضارة الجديدة ، ويقوم بدوره الكامل فيها ويعتنق الدين الجديد . وقد تحدث بعض الرحالة المسلمين عن البدائية التي كانت عليها جموع الرقيق الصقلبي او الاسود فهذا البكري يقول عن نساء بلد ((سامة)) من اعمال ((غانة)) ((الا ان المرأة تسترفرجها بسير تظفرها وهن يوفرن شعر

---

1) كمال مصطفى - مقدمة تحقيق كتاب الموشى - ص : ط - ص

العانة ويحلقن شعر الرأس وحدث أبو عبد الله المكي انه راى منهن امرأة وقفت على رجل من العرب طويل اللحية فتكلمت بكلام لم يفهمه فسأل الترجمان عن مقالتها فذكرا نها تمنت ان يكون شعر لحيته في عانتها فامتلأ العربي غضبا واوسعها سبا)) (1).

وشبيه بذلك ما ذكره الادريسي عن قبائل السودان القاطنين غربي بلاد ((لمطم)) وجنوب بلاد((غانة)) فهم ((امم كثيرة سودان عراة لايستترون بشيء وهم يتناكحون بغير صدقات ولاحق)) (2) اما ابن فضلان فقد وجد رحلته مناسبة لوصف الصقالبة وعاداتهم الجنسية ومعاملتهم لرفيقهم واشتراكهم في مجامعة الجواري بشكل فاضح (3) ومهما يكن من امر عادات هذا الرفيق ونصيبها من التمدن والتحضر فان عطبة انصهاره في المجتمع الجديد قد حتمت اعادة تنشئته على منوال آخر يعتبر اكثر ملاءمة للمجتمع الاسلامي وانسب للقيام بشؤونه وخدماته .

---

1) البكري - المغرب - ص 178 - 179

2) الادريسي - نزهة المشتاق - طبعة رومة 1970 السفر الاول ص22

3) ابن فضلان - الرسالة ص153-159 - سامي الدهان - مقدمة تحقيق رسالة ابن فضلان ص 32 - 33

٤) رقيق المهن والصنائع

وقد نشطت حركة تعليم الرقيق وتخريج المولد منه في شتى الميادين الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والفنية والعلمية خلال هذا العصر وكان التجار حريصين على الرفع من مستوى بضاعتهم والمواجهة للطلب المتزايد عليها كما ان متطلبات الحضارة في هذا العصر كانت تفرض وجود يد عاملة مختصة في شتى ميادين الحياة وازدهارا لمختلف الصناعات والفنون التي كانت عماد حياة الترف في القصور وبيوت الخواص. فكان الرقيق يعلّم مهنا صالحة لكل هذه الشؤون فيعلّم تدبير المنزل ليكون منه الفرّاش والطباخ والخازن والوكيل او النقيب والبواب والملاح والركابي والسائس والوصيف وغير ذلك من المهن (1) وكان الرقيق يدرب على هذه الشؤون الاجتماعية ويمتحن مستواه فيها فللطباخات مثلا مستوى لابد من بلوغه في فن الطبخ ليكون لهن رواج في الاسواق ولترتفع بذلك قيمتهن عند الشراة .

---

1) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ ج 5ص22 . 25

ومن النصوص الدالة على هذا المعنى قول ابن بطلان ((عمدة الطبيخ على طيب المرق وجودة المزاج فان اتفق للطباخة مع هذا جودة الصنعة وسرعة العمل فذاك غاية الامل وقل ما يتفق ان تكون كاملة في البوارد (1) والشواء والطبيخ والحلواء على اصنافها الثلاثة فهذا مما يعجز عنه قدر النساء والذي يمتحنون به الاسفيدباج (2) والديكبراكة (3) اما الاسفيدباج فلان الابازير مطيبة لها وكثرتها يسود مرقها واتقنها بياضها فلهذا يتعذر سلامتها . واما الديكبراكة فلانها لون سهل يتبين في التلطف في منع سهوكتها)) (4).

ومن مناهج هذا التعليم ما ينظر فيه الى الاستعداد الجسمي والنفسي في الرقيق حتى يمكنه النجاح في الاختصاص المقرر له فيختار للتدريب العسكري الشجاع الذي ((يكون قوي الشعر خشنه شديد العظام والاطراف والاصابع عظيم الصدر والاكتاف والرقبة عريض القص ضامر الورك معرق الجبهة قوي المفاصل

---

1) بقول مطبوخة في حوامض كالخل (عبد السلام هارون - تحقيق رسالة ابن بطلان ص386 . 387)

2) طعام يقال له ايضا ((اسفيدبا)) كما في معجم steingas اسينجاس ويصنع من اللحم والبحل والحمص والابازير (المرجع نفسه)

3) الارجح انها من الارامية ومعناها ((الديك المبارك)) وهي اكلة مشابهة للسابقة (المرجع نفسه)

4) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ص386 . 387

منتصب القامة ممسوح الاليتين بعيد ما بين المنكبين ممدود الحاجبين ازب الصدر والكتف والجبان بالضد)) (1) ويختار للتدريب على تربية الاطفال ((الحواضن والدايات)) اللائي يتمتعن بسلامة الجسم واعتدال المزاج وصحة اللبن وهن يختبرون في ذلك باجراء فحوص عليهن وتحليلات طبية (2) ويختار للغناء والرقص والتخصص فيهما جميلات الصوت ورشيقات القوام عادة . وقد استدعى التحري في هذا التعليم ان يكون التوجيه نحو الاختصاص حسب جنس الرقيق عموما اي حسب الذكورة والانوثة . فيوجه الرقيق المذكر نحو جميع الحرف والصنائع بينما يقتصر الرقيق المؤنث غالبا على بعضها مثل ((الغناء والغذاء))(3) وما من شك في ان تعليم اللغة والتمرن على الخطاب قد كان مصاحبا لتخريج هؤلاء المولدين حتى يمكنهم الاندماج في الوسط المهني الذي يستعدون له (4).

وقد كانت الاسواق والمصانع مدارس لتعليم رقيق التجارة والصنائع . فهذا العصر الذي بلغت فيه التجارة الاسلامية اوجها وادركت فيه الصنائع نضجها قد لعب فيه الرقيق دورا اساسيا وكان معظمه بالمدن والعواصم يشتغل بدكاكين التجار ويعمل

---

1) المصدر نفسه ص365 . 366 يقول المؤلف
ان تجريب هؤلاء يكون بافزاعهم
2) المصدر نفسه ص 387
3) المصدر نفسه ص 385
4) زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي - ج 5-ص 29

بحـوانيت الحرفيين واصحاب المهن وقـد بـرع الكثيـر من الرقيـق المولـد في هذه الميادين وصار بيـده مصيـر الدورة الاقتصادية وقـد تحـدث ابـن حـوقـل عـن بعـض هـؤلاء المهرة في التجـارة (1) . وتحدث كـذلـك عن الثـروات التي كـانت بايـديهـم .كمـا اشـار الجاحظ الى مشـاهيـر الصيارفـة من الرقيـق (2) . واشا رعيـره من المؤلفين الى النسـاخ بدكاكين الوراقين والى الحداديـن وغيرهم من العبيد الذين تخصصوا في مختلف المجـالات الصناعية والتجـاريـــــة (3) .

وادا ما كـان من العسير على الباحث ان يحيط بظـروف تنشئـة وتحريـج هـذا النـوع من الـرقيـق المولـد احاطـة كاملـة لان المصـــادر شحيحـة في هـذا الباب وقليلـة العنايـة بـه فانـه بوسعـه ان يـرسـم صورة اوضح عن ظـروف تعليم نوع آخـر من الرقيـق المولـد ونعنـي به المختـص في العلوم والمعارف ومجالات الفكر والفن لان المادة التاريخية متوفرة في هـذا المصمار ولان هذه الميادين كان ينظـر اليهـا في ذلـك العصر على انها ارقى الصناعات واشرفها (4) فلما صوره متكاملة مثلا عن اوضاع تخريج الرقيق المثقف ثقافة فنية كرقيق الغناء والطرب وخاصة منه "الغيان" او الجواري المغنيات اللائي راجت تجارتهن رواجا عظيمـــا .

1) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ الترجمة العربية ج 2 ص 380 - 384
2) الجاحظ . فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ج 1 ص 224 . 225
3) ابن ندامه ـ المغني ـ ج 4 ص 141 . 142
4) ابن خلدون المقدمة ـ طبعة بيروت ـ ص 430

3) تخـــريـج القيـــان والمغنيين

أ- الـــولـــع بالغنـــاء

لقـد راجت تجارة القيان في هـذا العصر رواجا عظيمـا كمـا قلنا وسر هـذا الرواج انتشار الولـع بالغنـاء وازدهـار هـذا الفـــن ورسوخـه في المجتمع العربـي الاسلامـي وكـذلك بأصـل تقـاليـد الترف وعوائـد البـذخ المشجعـة عليـه. وقـد عمت هـذه الظاهـــرة كـل الاصقـاع في العالم الاسلامـي من مشرقـه الى مغـربـه خـلال هذه الفترة بينمـا كـانت قبـل ذلـك منحصـرة في بعـض الاقاليم المشرقيـة ولاسيمـا الحجـاز ومـركـز الخلافتـين الامـويـة والعباسيـة بالشام والعـراق. واذا مـا كنـا نجـد خـلال القرن الاول والثاني للهجـرة بعـض الخلفـاء يعـارضون هـذا التيار مثـل عمر بـن عبـد العـزيـز (98 - 102 هـ/ 717 - 720 م) وابي جعفـر المنصـور (136- 158هـ/ 754 - 775م) وغيرهمـا (1) فان النـزعـة الغالبـة على حكـام هـذا العصر وساستـه ومن لف لفهـم من علية القوم الانغماس فيه واتخـاذه مجـالا لانسهـم ولهـوهـم ومـزا لجـلال ملكهـم وابهـة سلطانهـم وتفاقـم بذخهـم

1) زيـدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 2 ص 104

ما ولد نزعة لدى رجال الدين والفقه معارضة لهذا التيار ومشنعة بظاهرة الغناء وقائلة بحرمته. وان كان الدافع الاساسي لذلك ما كان يلابسه من ظواهر المجون والانحلال الخلقي (1) ومن هذا القبيل ما يروى عن احتجاج مروان بن أبي شحمة على اللهو والغناء الذي اغرق فيه امراء الاغالبة بافريقية. وذلك انه قصد قصر احدهم يوما فوجد على بابه خصيا بيده ناي فانتكه منه وكسره وعند ما تظلم الخصي الى الامير اجاب مروان بانه وجد منكرا فغيره (2).

لكن هذه الاصوات المحتجة لم تستطع الوقوف في وجه هذا التيار العارم تيار تأثر المجتمع بفن الغناء وانواع الايقاع الموسيقي المختلفة وقد كانت الارواح الحساسة تبعث اصحابها على تمزيق الثياب والتمرغ في التراب ولطم الوجوه والوصول الى حالات من الصرع والجذب الصوفي من جراء التأثر. فترى احدهم يدق الحائط برأسه ويهيج ويزبد

---

1) يتشدد بعض الفقهاء في بيع الجارية للغناء ويرون في منع هذا البيع احاديث عن الرسول ويستدلون ايضا ببعض الايات منها قوله تعالى ((ومن الناس من يشتري لهو الحديث)) قرآن. لقمان آية عدد 31 (انظر ـ ابن قدامة المغني ج 4 ص 333 وابن الاخوة ـ معالم القربة ص 152 ـ 153)

2) ابو العرب الطبقات ص 196 جورج مارسي ـ G. Marçais بلاد البربر ـ .... La Berberie ـ ص 95

ويعض بنانه ويركل برجله (1) وترى غيره يحطق بعينيه ويستغيث ويحوقل والدمع منهمل على خديه (2) وقد شاعت في هذا العصر آراء واساطير حول ظاهرة التأثر بالغناء وتصنيف درجاته الى ما يسر وما يبكي وما يزيل العقل وما يغشى على صاحبه من وقعه (3) ويروى عن ((مخارق)) انه غنى يوما في منتزه وقد سنحت ضباء فجاءت اعجابا بغنائه. وتوسط دجلة يوما وغنى فلم يبق احد الا بكى. وكان غناؤه احيانا يسر من جماله كل قلب (4). واتفق ان غنى الامير ابراهيم بن المهدي مرة في مجلس المأمون (198-218هـ/813-833م) فأحسن وكان في المجلس كاتب من كتاب طاهر ابن الحسين يكنى ابا زيد قد بعثه في بعض اموره فطرب ابوزيد واخذ بطرف ثوب ابراهيم فقبله (5) فنظر اليه المأمون كالمنكر

---

1) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة ج 2ص183 - انظر اللازدي - الحكاية - ص78 وما بعدها

2) المصدر نفسه

3) آدم متز A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2ص 250

4) المرجع نفسه

5) كان ابراهيم قد خرج على المأمون والقي عليه القبض

لما فعل. فقال له أبو زيد : ما تنظر ! اقتله والله ولو قتلت إفتهسم المأمون (1).

وقد دعت هذه الظاهرة علماء العصر وادباءه الى دراسة التأثير الموسيقي في النفس البشرية دراسة فلسفية وتحدث بعضهم مثل ابن مسكويه وابي حيان التوحيدي وابي سليمان السجستاني الملقب بالمنطقي عن مدلول ((الطرب)) وابعاده النفسية واثره في الحواس والملكات الذهنية وكانت تحليلاتهم لهذا الموضوع مدخلا لسيكولوجية الفن الموسيقي بالنسبة الى الفرد والجماعة وضربا من الدراسات النفسية والاجتماعية (2).

ب-رواج القيان والمغنين

وكان من نتائج هذا الاهتمام ان وضعت التأليف المختلفة في الغناء والمغنين منها ((رسالة القيان)) للجاحظ وكتاب ((القينات)) لاسحق الموصلي وكتاب ((القينات)) للمدائني وكتاب ((القينات)) ليونس بن سليمان المغني كما كان من اهم التأليف في هذا الباب كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني وكتاب الموشى لابي الطيب الوشاء (3) وذلك لان تيار الغناء قد ازداد قوة بسبب ازدهار تجارة الرقيق من جوار وغلمان

1) طيفور - بغداد ص 192
2) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة - ج 3 - ص 80
3) لم يصلنا من هذه المؤلفات سوى ((رسالة القيان)) للجاحظ ((والاغاني)) للاصفهاني و ((الموشى)) للوشاء

فهؤلاء بمخالطتهم اوساط الغناء كانوا اداة انتشاره في الحياة العامة والخاصة. بل ان منهم من كان له يد في تطوير هذا الفن وغيره من الفنون المتصلة به كالشعر والرقص والعزف وابتكار الالات الموسيقية بفضل ما نقله من تراث حضارته الاصلية . فكان الرقيق عاملا اساسيا من عوامل ازدهار الغناء في هذا المجتمع الاسلامي بعد ان كان منحصرا في نخبة من اهل الاختصاص . وكأنما كانت الجارية المغنية او القينة اشبه شيء بالة تسجيل للاغاني بلغة اليوم او مستودع اصوات بلغة الامس وكانت بانتقالها من مالك الى آخر تساهم في شيوع هذا الفن وانتشاره وصارت بحكم وظيفتها هذه تعتبر من الضروريات الترفيهية التي يطمح ابناء المجتمع الى اقتنائها .

وقد ظهر هذا الولع باقتناء المغنين والمغنيات والتهافت على شراء القيان والراقصات والمهرة من الرقيق في شتى الفنون كالشعر والموسيقى عند رجال الدولة ووجهاء الناس وحاكتهم في ذلك الفئات الاجتماعية المختلفة . وكانت الاجواق بالقصور عنصرا اساسيا في حياة اربابها وكانت تسمى ((الستار)) او ((الستارة)) لان الجواري يغنين خلفه عادة او بين يديه اذا استدعى الامر

ذلك (1) فهذا الامين (193-198هـ/ 790-813م) يأمر قيمة جواريه بان تهيئ له مائة جارية صانعة فيصعدن اليه عشرا عشرا بايديهن العيدان ويغنين بصوت واحد (2) وهذا المأمون (198-218هـ/ 813-833م) يجتمع مع اسحق الموصلي وابراهيم المهدي وفي مجلسه عشرون جارية قد اجلس عشرا عن يمينه وعشرا عن يساره وهن يغنين (3) وذاك القاهر (320-322هـ/ 932-934م) الذي امر سنة (321هـ/ 933م) بتحريم الغناء وبيع الجواري المغنيات بابخس الاثمان يتراجع في قراره ويأمر من جديد بان يشترى له كل حاذقة في صنعة الغناء (4) وفي اواسط القرن الثالث الهجري نزل عبيد الله بن طاهر ضد المعتز (252-255هـ/ 866-869م) فاراه اشياء عجيبة منها انه اراه غناء ((سارية)) وزمر ((رنام)) الزامر ثم اراه آلة موسيقية عجيبة وادخله الى شباك وامر ان يجمع بين السبع والفيل فراى تواثبهما ثم سأله اي الاشياء اطرف فيما راى فقال:

---

1) موريس لومبار M. Lombard الاسلام في عظمته الاولى ص 194 - 204

2) ابن الاثير - الكامل طبعة مصر 1302هـ/ ج 6 ص 120

3) المصدر نفسه - ج 6 - ص 130

4) آدم متز A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 247

غنـــاء ســـاريـة (1) ومثـــل هـــذه الاخبـار تـروى عـن الخلفـــــاء والامـــراء بالمغـرب والانـدلـس ومصـر ومـا وراء النهـر ويكفـي ان نذكـــر بشهـرة جـــواري عبـد الرحمـان الناصـر (300-350هـ / 912- 961م) اللائي كـن يـرأسن في قـرطبـــة جـوقـا كـامـلا من العـازفـــات المغنيـــات (2) .

وكـان ولـع الوزراء والقواد وكبار الموظفين والاثرياء من الخاصـــــة بالرقيق المختص في فن الغناء والمثقف ثقافـة فنيـــة لا يقـل عن هـذا المستوى الذي وصفنـــاه . ومما يحـكى عـن الوزيـر ابي الحسن علي بن الفـــــرات انـــه خـلا للشـراب في وزارتـه الاولى فحضـر جماعـة مـن كتـابـــــه وحضـــر من المغنيـات بين يـدي الستـائـر ومـن ورائهـا مـالا يحـــصى كثـــرة (3) وقـد انتشـــر هـذا الولـع في سائـر الفئـات الاجتمـاعيـة وكـان النـاس يقـــتنـون القيـــان والمغنين كـــل حسب طاقتـــه كمـــا كـانـوا يتوردون على المحال العامـة للغنـــاء و ((بيـــــوت القيـــان)) للسماع ولم يتحـرج منهـا حتى العلمـــاء والادبـاء والقضـــاة

---

1) الشابشتي ـ الديـــارات ـ ص 111

2) بروفنســـال Provençal ـ تاريخ اسبانيا المسلمة ج 3 ص 314 - 317

3) آدم متـز ـ A.MEZ ـ الحضارة الاسلاميـة ـ ج 2 ص 250

والصوفية فابن فهم الصوفي يسمع مغنية اسمها ((نهاية)) جارية ابن المغني وابن فهلان التاجر يسمع غناء ((بلور)) جارية ابن اليزيدي وابو الحسن الجراحي القاضي يسمع غناء ((شعلة)) وهذا المنطقي الفيلسوف الكبير واستاذ ابي حيان التوحيدي يسمع غناء صبي موصلي فتن الناس في صوته (1).

وكان من نتائج رواج هذه البضاعة والتهافت عليها ان نشطت حركة تعليم الجواري الغناء واتخاذ بيوت لهن في شتى الاحياء للسماع. وقد كثرت هذه البيوت ببغداد في هذا العصر حتى قال ابو حيان التوحيدي ((وقد احصينا ونحن جماعة في الكرخ اربعمائة وستين جارية 460 في الجانبين (جانبي بغداد) ومائة وعشرين حرة 120 وخمسة وتسعين 95 من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل اليه لعزته وحرسه ورقبائه وسوى ما كنا نسمعه من لا يتظاهر بالغناء وبالضرب الا اذا نشط في وقت او ثمل في حال

---

1) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة - ج 2 ص183
احمد امين - ظهر الاسلام ج 1 ص125

اوخلـــع العـذار في هـوى قـد حـالفه واضناه)) (1).

وقـد زاد في الاقبـال على رقيـق الغنـاء مـا كـان يتصـف بـــه من وسـامـة وجمـال اذ كـان يختـار لهـذا الغـرض جميـلات الجـواري ذوو القسـامـة من الغلمـان لتزدان بهـم مجـالـس الانـس والشـراب و اللهـو وليضـاف الى لـذة السـماع لـذة المشاهـدة .فصـار اسـاتذة الغنـاء وتجـار الرقيـق يخصـون بالتعليم الرقيـق الجميـل حتـــــى تتضاعـف قيمتـــه ويـرتفـع ثمنـه (2) في حيـن كـان النـاس قبـــل هـذا العصـــر يضنـون بالحسـان من الاماء . وهكـذا صـارت القيـــان من أنفـس الرقيـق لجمـالهـن وصنعتهـن حتى تعـذر اقتنـاؤهـــــن على غيـــر الاثـريـاء . ومـمـا يـروى فـي هـذا المجـال ان ابـا عيينـة ابن محمـد بن أبي عيينـة المهلبـي هـو جاريـة يقـال لهـــــا ((أمـــان)) فأظـــى بهـا مـولاهـا السـوم وجعـل يـردهـــــا الى اسحـق الموصلـي ليأخـذ عنـه الغنـاء فكلمـا ترقـت في هـــــذا الفـن زاد في ســـومـه فقـال ابو عيينـــة :

قلت لمـا رايت مـولى امـان قـد طغـى سومـه بهـا طغيـانـا

---

1) التوحيـدي ـ الامتـاع والمؤانسة ـ ج 2 ص 183
راجـع الا زدي ـ الحكـايـة ص 78 ومابعدهـا
2) الاصفهـاني ـ الاغاني ـ طبعـة بيروت 1964 ج 5 ص 156

لا جزى الله الموصلي ابـــــــــا اسحق عنا خيرا ولا احســـانـا

جاءنا مرسلابوحي من الشيـــــــــطان اغلى به علينا القيـــــانـا

من غناء كانه سكرات الحـــــــــب يصبي القلوب والاذانـــــا (1)

وهكذا كان الاعجاب بغنـــاء القيان ممزوجـا بعشقهـن ولم يكـن من المستحـب في القينة وفي الجارية المثقفة بصـورة عامـة ان تكـون قبيحـة المنظـر فقـد روي ان جاريتيـن عـرضتـا على المتـوكـل (232-247هـ/ 847 - 861م) ليشتريهمـا بحضـور وزيـره الفتح بن خاقـان فاختبرهمـا في قـول الشعـر فاجاد تـا فامـر بشـراء واحـدة ورد الاخـرى لان بوجههـا نمشـا (2) ومـن طـريف ما انشـده الشاعـر ابن زريـق الكوفي في قينـة قبيحـة المنظـر جيـدة الصـوت تـدعى ((دبسيـة)) قـولـه :

ابا سعيـد اصخ لـي ... ياسيـدي وند يمـي

منيت امس بامـر ... من الامـور عظيـم

حصلت عند صديـق ... حر طـريف كـريـم

اسقى على شـدود بسيـة فتنعي همـومـي

فكنت حين تغنـي ... لـدى جنـان النعيـم

---

1) المصـدر نفسـه

2) التنوخي ـ نشوار المحاضرة ـ طبعة القاهرة بـدون تاريخ ج 6 ص 193 ـ 194

وان نظـــرت اليهـــا ففي العـذاب الاليـــــم

وان شربت بصـــــوت فالراح بالتسنيـــــــم

وان شربت بلحـــــظ فالمهـل بـا لزقـــــوم

فكـان سمعـي بخيـــر وعقلـتي في الجحيـــــم(1)

كـان اذ ن ((امـرا عظيمـــا)) الا تكـون القينـــة جميلـــة وقـــد حفـل شعـر ابن الرومـي بـوصـف القيـان الجميلات مثـل ((وحيـــــد)) المغنيـــة وغيـــرهامن يتنـاسـق صـوتهـن مع طلعتهـــــــن وهيئتهـن ويحمـل الاعجـاب بغنـائهـن على عشـق جمـالهـن يقـــول في ((وحيـــــــــد)):

تتغنـي كأنهـا لا تغنـــي مـن سكـون الاوصـال وهـي تجيـد

مـد في شأوصوتهـا نفـس كـــــاف كأنفـاس عاشقيهـا مديـــد (2)

وقـد كـان مـن خصـال القيان واخلاقهـن بالاضافـة الى جمالهـــن صنـاعتهـن مـا يغـري بالاقبـال على شـرائهـن ومـن هـذه الاخـــلاق بـراعتهـن في استمـالـة المشترين واثارة عـواطفهـم باظهـار الانوثـــة

---

1) احمـد امين ـ ظهـر الاسلام ج 1 ص 138

2) ابن الرومي ـ الـديـــوان ـ ج 2 ـ ص 762

والبدل حتى صون صدر غرايبة وفتون وقد الف الجاحظ رسالة اطنب فيها في وصف طباع القيان واساليبهن في الاغراء كما خصص لهن ابو الطيب الوشاء قسما من كتاب ((الموشى)) وصف خلاله عشقهن ومهارتهن في تصيد المعجبين بالحب الكاذب والهوى المتبدل وكل غايتهن الطمع في اهل اليسار واجتناب ذوي الافلاس والاقتار (1) فكانت القينة منهن ((اذا رات في مجلس فتى له غنى وكثرة مال ويسار وحسن حال مالت اليه لتخدعه ... ومنحته نظرها واشارت اليه بكفها وغمزته بطرفها وغنت على كاساته ومالت الى مرضاته حتى توقع المسكين في حبالها وتحويه بلطف تعلقها وتستعين بالمكر والخداع ثم ترسل اليه من يخبره عن سهرها وقلقها وتبعث اليه بخاتمها وخصلة من شعرها وكتاب قد نقطه بظرفها ونقطت عليه قطرات من دمعها وختمته بالغالية والعنبر ... حتى اذا حوت عقله وسلبت قلبه اخذت في طلب الهدايا من ثياب وحلي وشكت من غير الم لتتوالى عليها هداياه حتى اذا نفد اليسار و تلف المال واحست بالافلاس اظهرت الملل واعلنت البدل وتمرمت بكلامه وضجرت بسلامه واخذت في الجفاء والعتاب

---

1) الجاحظ ـ رسالة القيان ـ الرسائل ـ ج٤ ص ١٧١ - 173

وصرفت عنها هواه ومالت الى سواه)) (1)

ويروي الوشاء اشعار الشعراء العصر في اغراء هؤلاء القيان وتاجرتهن بالعشق مما زاد في رواج سوقهن ويمكن ان نجتزيء بهذه الابيات من قول احدهم بعد ان وقع في حبائلهن :

صحوت فأبصرت الغواية من رشدي ... وايقنت اني كنت جرت عن القصد

فلا يعشقن من كان يعشق قينة ... فما هو منها في سعيد ولا سعد

تودك ما دامت هداياك جمة ... وترفدك عشقا ما بقيت اخا رفد

اذا ما رأت في مجلس من تخاله ... غنيا حبته بالتحية والورد

فذا دأبها حتى يعود من الهوى ... سقيم فؤاد لا يعيد ولا يبدي

فتفصد لا من حاجة لفصادها ... ولكن لتكليف الهدية في الفصد

فمن بين خلخال يصاغ وخاتم ... ومن دملج يهدى على اثر العقد

فذا فعلها حتى اذا طاد مفلسا ... تجنت وابدت جانب الهجر والصد

فقولا لمن يهوى القيان تفهما ... مقالي فاني قد نصحت لكم جهدي (2)

ويرى الجاحظ انهن تطبعن بهذه الطباع بسبب ما تعودنه في اوساط الغناء والطرب من مخالطة الرجال والاتصال بهم والهزل معهم

---

1) الوشاء - الموشى - الباب 20.

2) المصدر نفسه

هـزلا يصـل الى حـد المداعبـة حتى امس تعلّم الجارية للغنـاء مرتبطـا وثيـق الارتبـاط بتخـرجهـا في فن ابراز المفاتن الجسديـة وافضـى بهـا هـذا السلـوك الى الانحـدار غالبـا نحـو تصـرفـات مريبـة تخلب قلـوب الشبـاب مـن الخاصـة والعامـة وتـدفعهـم الى التهـافت عليهـا. يقـول في ذلـك : ((وكيـف تسلـم القينـة من الفتنـة او يمكنهـا ان تكـون عفيفـة وانمـا تكتسب الاهـواء وتتعلم الالسن والاخـلاق بالمنشأ وهـي تنشأ من لدن مولـدهـا الى اوان وفـاتهـا بمـا يصـد عن ذكـر الله من لهـو الحديـث وصنـوف اللعـب والاخـابيث وبين الخلعـاء والمجـان. وتـرمي الحاذقة منهن اربعـة الاف صـوت فصاعـدا يكـون الصـوت فيهـا بيـن البيتيـن الى اربعـة ابيـات اذا ضـرب بعضـه ببعض يكـون عشـرة آلاف بيـت ليـس فيهـا ذكر الله الا عـن غفلـة ولا ترهيب عن عقـاب ولا ترغيب في ثـواب وانمـا بنيت كلهـا على ذكر الزنـا والقيـادة والعشـق والصبـوة والشـوق والغلمـة ثم لا تنفك من الدراسـة لصناعتهـا منكبـة عليهـا تأخـذ من المطارحين الذين طرحهـم كلـه تجميش وانشادهـم مرادة. وهـي مضطـرة الى ذلك في صنـاعتهـا لانهـا ان جفتهـا تفلتت وان اهملتهـا نقصـت وان لم تستفـد منهـا وقفـت)) (1)

---

1) الجـاحـظ ـ رسـالـة القيـان ـ الرسائل ج 2 ص 176

ويصفهن نفس المؤلف بأنهن شراك ابليس ويعتبر ذلك مدحا لهن ودليلا على سحرهن وكأنه هو الاخر قد تيمه حبهن (1) .

وكان تخريج الغلمان في الغناء وغيره من الفنون والاداب شبيها بتخريج القيان من الجواري . وكانت تراعى فيهم وسامة المظهر وجمال الصورة ايضا.وقد ذكر لنا ابو حيان التوحيدي انه كان في بغداد خمسة وتسعون غلاما جميلا يغنون للناس وانه كان بها صبي موصلي مغن ملأ الدنيا ((عبارة وخسارة وافتضح اصحاب النسك والوقار واصناف الناس من الصغار والكبار بوجهه الحسن وثغره المبتسم وحديثه الساحر وطرفه الفاتر وقده المديد ولفظه الحلو ودله الخلوب ... يسرقك منك ويردك عليك ... فحاله حالات وهدايته ضلالات وهو فتنة الحاضر والبادي))(2) كما حدثنا عن ((علوان غلام ابن عرس)) فانه اذا حضر ((والقى ازاره وحل ازاره وقال لاهل المجلس : اقترحوا

---

1) المصدر نفسه ج 2 ص 176 - صلاح الدين المنجد - الخلفاء والخلعاء - ص 159

2) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة ج 2 ص 174

واستفتحوا غاني ولدكم بل عبدكم لاخدمكم بغنائي واتقرب اليكم بولائي ... لا يبقي احد من الجماعة الا وينبض عرقه ويهش فؤاده ويذكو طبعه ويفكه قلبه ويتحرك ساكنه ويتدغدغ روحه)) (1) وقد وتفننن اهل العصر في تسمية هؤلاء الغلمان المغنين فسموا ((فاتن)) و ((رائق)) و((نسيم)) و ((وصيف)) و((ريحان)) وسموا بعضهم بأسماء الاناث مثل ((جميلة)) و ((بشرى)) (2).

والواقع ان تأثير القيان والمغنين في نفوس مشتريهم وسر رواجهم راجع الى جمعهم بين خصال عديدة جعلت منهم بضاعة نافقة في الاسواق ومن تلك الخصال طبعا المستوى الثقافي الذي كانوا يتمتعون به. فكان منهم الرواة للشعر والشاعرات ذوات الذكاء والبديهة ولم يبلغوا هذه المرتبة الا بالدربة والمران وبتعليم وتلقين ولذلك يحسن ان نشير الى حركة تعليم الرقيق ومناهجها التي كانت متبعة في هذا العصر

---

1) المصدر نفسه ـ ج 2 ص 178 ـ احمد امين ـ ظهر الاسلام ـ ج 1 ص 132

2) المرجع نفسه

حتى يمكن لنا ان نفهم سر الشهرة التي احرزت عليها الجواري المولدات والغلمان المولدون وسبب رواجهم واقبال الناس على اقتنائهم مما تسبب في ارتفاع اثمانهم .

ج - مدارس تعليم الغناء

وقد ادى رواج الرقيق والتهافت على اقتناء الحاذق منه لفنون الادب والعزف والغناء والرقص وغيرها من الفنون والثقافات الى انتشار مدارس تقيين الجواري وتخريج المغنيين والى تنشيط مجالس تعليم الغناء ودور القيان لغاية تجارية هي الرفع من اثمان الرقيق وقيمته بتعليمه الفنون الرائجة في ذلك العصر (1) ولعل اعرق هذه المدارس ما نشأ منها بمدن الحجاز كالمدينة والطائف ومكة وغيرها لسبقها في الاهتمام بصناعة الغناء خاصة ولازدهار هذه الصناعة عند اهل الحجاز منذ القرن الاول للهجرة على ايدي الارستقراطية العربية ولا سيما المهاجرين والانصار في ظل دولة بني امية (2) وقد استمر اشعاع هذه المدرسة الحجازية في العصور

---

1) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بولاق 1285هـ
ج 12 ص 43 - الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي
ص 77/79

2) المسعودي - التنبيه والاشراف - ترجمة كارادي فو B. Carra de Vaux
ص 397 احالة رقم 2 - مروج الذهب - ج 1 ص 157
شكري فيصل - تطور الغزل - ص 352
H. Lammens - Les chanteurs des ommiades - J.A. série IX - T.IV - P 447

الموالية وكان اغلب الرقيق المولد قبل القرن الثالث للهجرة يتخرج في فن الغناء من المدينة ويصدر بعد ذلك الى سائر النواحي بالعالم الاسلامي . وكانت الجواري المدنيات من اثمن ما يجلب الى قصور الامراء بالعراق والشام ومصر وافريقية والاندلس وهن اللائي نشرن فن الغناء والثقافة المشرقية بالمغرب الاسلامي (1).

وقد تواصل نشاط هذه المدرسة الاولى خلال هذا العصر في تخريج القيان والمغنين وقد ذاع صيت الجواري المغنيات الائي تخرجن منها ثم رسلن الى العواصم الاسلامية الاخرى ومن امثلتهن ((محبوبة)) التي اهداها عبد الله ابن طاهر الى المتوكل (232-247هـ/ 847-861م) من خراسان وكانت قد نشأت وتعلمت بالطائف فحذقت الشعر والغناء (2) واشتهرت ((دنانير)) و ((بذل)) بحظوتهما عند خلفاء بني العباس لجودة غنائهما وقد تعلمتا بالمدينة (3) وقد

---

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بيروت ج 1ص48
365 محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية ص 33- 37
بروفنسال-Provençal- تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 314-317

2) الابشيهي ـ المستطرف ج 2 ص154ـ155
ابن القيم-اخبار النساء ص 49 ـ 51

3) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بولاق 1285 هـ
ج 16ص137 وطبعة بيروت 1964 ج 18ص14. 16
محمد احمد برانق ـ البرامكة في ظل الخلفاص164

نبغت ((الجواري المدنيات)) ببلاط قرطبة وكن اول من احدث جوقا هناك (1) وهذا قليل من عديد الامثلة الدالة على تواصل نشاط هذه المدرسة .

لكن تخريج هؤلاء المغنين من غلمان وجواري لم يبق حكرا في هذا العصر على المدرسة الحجازية بل ظهرت مدارس اخرى في عواصم البلاد الاسلامية المختلفة فبعد ان كانت مدرسة المدينة هي المزود الوحيد ظهرت بمدن العراق مثل الكوفة والبصرة وبغداد مدرسة لتخريج هذا الرقيق المختص ولمواجهة الطلب المتزايد من شتى انحاء العالم الاسلامي . وقد عرفت مولدات البصرة وبغداد والكوفة شهرة كبيرة في اوساط الغناء وفي قصور الملوك والامراء وكبار الاثرياء (2) وقد قيل فيهن انهن ((ذوات الالسن العذبة والقدود المهفهفة والاوساط المخصرة والاصداغ

---

1) بروفنسال - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 1ص268
وج 3 ص 502 - 503

2) موريس لومبار - Maurice Lombard
الاسلام في عظمته الاولى ص194 - 204
زيدان-تاريخ التمدن الاسلامي-ج 5 ص29

المزرفنة والعيون المكحلة . . . مما يطول شرحه)) (1) وكان منهن ((متيم)) وهي صفراء مولدة من مولدات البصرة وبها نشأت وتأدبت وغنت واخذت عن اسحق الموصلي وعن ابيه من قبله وكانت من احسن الناس وجها وغناء وادبا (2) وكانت منهن ((فضل)) وهي من مولدات البصرة ايضا لم يكن في زمانها اشعر منها وقد اشتريت واهديت الى المتوكل (232-247هـ/ 847- 861م) (3).

وغير هؤلاء كثيرات ممن ارسلن خارج العراق مثل الجارية "عريب" التي اشتهرت بخراسان بعدان تعلمت بالبصرة وكان لها شأن مع الخلفاء ببغداد (4)

---

1) المسعودي ـ مروج الذهب ج 2ص154
زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 5ص30
2) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بيروت 1964
ج 7ص280 كمال مصطفى ـ مقدمة لتحقيق كتاب
الموشى ص: ط ـ ي
3) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بيروت 1964
ج 19ص 257 كمال مصطفى ـ مقدمة لتحقيق كتاب الموشى
ص: ـ ط ـ ص ـ ي
4) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بيروت
1964 ج 21 ص 58 ـ 88

ومثل المغنية البغدادية التي اشتراها تميم بن المعز لدين الله بمصر (ت 368هـ/978م) وقضت بجواره مدة ثم حنت الى بغداد (1) ويروى ان بعض التجار مثل محمد بن موسى الراني كانوا يبيعون الجواري العراقيات النشأة والتربية للبلاط الاندلسي (2) وقد ذاع صيت المغنية البغدادية ((قمر)) التي اشتراها ابراهيم ابن حجاج (ت 298هـ/ + 910 م) امير اشبيلية في آخر القرن الثالث للهجرة وقد جلبها من المشرق بثمن باهظ (3) ونجد ذكرا للقيان البغداديات حتى في عصر المنصور بن ابي عامر (386-392هـ/ 938-1002م) الذي اشترى مغنية بغدادية انتقلت بعد ذلك الى حريم احد الوزراء بمالقة في السنوات الاولى من القرن الخامس للهجرة (4) وكان

---

1) انظر: الازدي - الحكاية - ص78 ومابعدها
آدم متز A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2ص251

2) بروفنسال Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3ص502 . 503

3) المرجع نفسه ج 1ص367 . وج 3ص502
503 المقري - نفح الطيب - طبعة بيروت 1949
و ج 4ص136 . 137 وج 6ص1

4) احمد الشرواني - حديقة الافراح - طبعة القاهرة
1302 هـ/ ص 127 بروفنسال Provençal - تاريخ
اسبانيا الاسلامية - ج 3ص502 . 503

وكانت قصور الاغالبة تشتمل على هذا النوع من الجواري ايضا خصوصا قبل ان تزد هر مدرسة القيروان (1) ولا مراء في ان هؤلاء المغنيات كن من الاماء ولدينا شهادة في حكاية ابي القاسم البغدادي ترجع الى سنة(306هـ/ -918 - م) ومفادها ان اغلب المغنين ببغداد كانوا من الرقيق (2).

وقد انتشرت مدارس اخرى لتخريج القيان والمغنين باقليم فارس وقد اشار الجاحظ في القرن الثالث للهجرة الى كثرة ما بمدينة الاهواز من ((صناجات)) و ((رقاصات)) وقال انهن يجلبن من هذه المدينة الواقعة باقليم خوزستان الى العراق وماذاك الا لنشاط مدارس التعليم التي كان من اهتماماتها تعليم الرقيق العزف على الالات الموسيقية وكذلك تعليم الرقص (3) اما احسن الرقيق باقليم ماوراء النهر

---

1) محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية ص 33 31

2) انظر الازدي ـ الحكابة ص101

3) الجاحظ ـ كتاب التبصر بالتجارة ص 41

فهو الذي كان يتلقى تربيته وتعليمه بسمرقند لازدهار حركة تخريج القيان والمغنين بها (1) وقد لاحظ ابن حوقل ان ببلاط السامانيين رقيقا وافر العدد وماهرا في فن الغناء (2) وهو رقيق قد تم تعليمه بعواصم وراء النهر مثل مدينة سمرقند ومدينة خوارزم (3)

ولم يكن المغرب الاسلامي دون المشرق في حركة تخريج المولدين وتزويد الاسواق بهم فهو وان كان قبل هذا العصر اقرب الى التعويل على بضاعة المشرق الاسلامي يستورد ها او يرسل رقيقه الى مدارسه للتعلم بها فانه في هذا العصر قد صار يمارس هذه الصناعة ويصدر انتاجها بعد تحقيقه الاكتفاء الذاتي منها . وتدل هدية الملك الظاهر (411-427هـ/1020-1035م) بمصر الى المعز بن باديس الصنهاجي (398-454هـ/1008-1062م) على تأصل هذه الصناعة بمصر في هذا العصر وقد قال ابن رشيق شعرا في وصف هذه الهدية المشتملة على جوار من المغنيات والراقصات يقول :

---

1) ابن حوقل ـ صورة للارض الترجمة الفرنسية ج 2 ص 474

2) المصدر نفسه ج 2 ص 437

3) زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 39

((. . . فيها القيان الطهيات كأنما الحانهن على المعز ثناء
يصحيك من سكر المدام سماعها وبه تصرع لهّيها الندماء
لوغنت الصمان وهو كلفظه جبل اصم بداله اصغاء
وراقص هيف الخصور كأنما حركاتهن على الغناء غناء
لوان موطئهن مقلة ارمد لم يشك ان نعالهن خفاء . . .)) (1)

وظهرت بافريقية والمغرب مدارس على نفس المنوال بالقيروان وسائر مدن هذا الاقليم فبعد ان كانت هذه البلاد مجرد ((ولايات صدّرة للجواري)) الجميلات في صورتهن ((الخام)) وبعد ان كان أمراؤها وكبراؤها يستوردون الرقيق المثقف المتعلم من مدارس الحجاز والعراق وصر صاروا يمارسون صناعة تخريج المولدين وادرك التجار وسيلة الربح الوفير بتكوين الرقيق قبل بيعه ،فنافسوا بذلك تجار المشرق وقد مرا بضاعة نفيسة تضاهي ما كان يروج باقاليم البلاد الاسلامية الاخرى(2) وقد اضحت القيان المغربيات محل اعجاب والهام للشعراء وقد تغنى الشاعر احمد بن فتح المعروف بابن الخراز التاهرتي بقينة من مدينة البصرة

---

1) ابن الزبير ـ الذخائر والتحف ص71 ـ 73

2) محمد الطالبي ـ الامارة الاغلبية ـ ص 33 ـ 37

بالمغرب وهي مدينة كائنة بين طنجة وفاس فقال :

قبح الاله اللهو الاقينة ... بصرية في حمرة وبياض

الخمر في لحظاتها والورد في ... وجناتها والكشح غير مفاض

في شكل مرجي ونسك مهاجر ... وغذاف سني وسمت ابياض

ظهرت انت خلية وبريئة ... عوضت منك ببصرة فاعتاض (1)

وكذلك كان الامر بالنسبة الى الاندلس فابتداء من فترة ظهور الخلافة بها لم يعد جلب القيان المتعلمات بالمشرق امرا شائعا فيها وانما قل ذلك حتى صار ظاهرة شاذة اذ صار الجواري والغلمان يتعلمون بالاندلس نفسها حيث رسخ زرياب قبل هذا العصر تقاليد فنية ومدارس غنائية قائمة الذات وتواصل الامر على هذا المنوال في عصر الطوائف اذ كان ملوكها يتنافسون في اقتناء ابرع القيان اللائي تعلمن على عين المكان شتى فنون الادب والغناء . وقد تحدث ابن بسام عن احد معلمي الرقيق من مغنيات واديبات وهو طبيب اندلسي يدعى ابن الكتاني عاش من اوائل القرن الخامس للهجرة وهو يفتخر بانه علم بمفرده اربع جوار نصرانيات وقد اشترى احداهن بثلاثة آلاف دينار هذيل ابن رزين امير منطقة ((سهلة)) فكانت اجمل زينة في حريمه . وكان

---

1) البكري ـ المغرب ـ ص 110

هذا يدل هذا حسب ما تذكره الاخبار ينفق الكثير للحصول على اشهر القيان في البلاد (1) وهكذا بلغ تعليم الجواري بالاندلس من الجودة مستوى لم يعد الاندلسيون يرغبون معه في جلبهن من المشرق وتدل اخبار محمد بن موسى الرازي الذي اراد ان يتحف البلاط الاندلسي بقينة بغدادية التعليم على ان اهل البلاط لم يأبهوا لهذه الجارية رغم جودة اختصاصها لان مثل هذه البضاعة قد توفرت لديهم (2).

د- برامج التعليم

وكانت برامج هذا التعليم تتشل في تلقين الرقيق كل المعارف الكفيلة بأن تجعل منه اختصاصيا في صنعة الغناء ولما كان معظم الجواري والغلمان من الاعاجم غير العارفين بلغة العرب وآدابها وجب تعليمهم هذه اللغة اولا وتدريبهم على القراءة والكتابة وحسن الاداء بالاطلاع على مخارج الحرف وعلم الخط العربي وقواعد النحو والصرف حتى يمكن

1) هنري بيريس H. Pérès - الشعر الاندلسي ص 383 - 385 بروفنسال Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 314 . 317

2) بروفنسال Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 502 . 503

للمتخرج فيما بعد ان يتلقى دروسا في الشعر الذي كان من مواد الغناء الاساسية . وكانت الاشعار الغنائية وخاصة منها الاشعار الغزلية اهم ما يتعلمه الرقيق ليغني فيه . وقد عجت كتب الادب برواية هذه الاشعار التي وضعت فيها الالحان مثل كتاب الاغاني للاصفهاني والعقد الفريد لابن عبد ربه وغيرهما (1) ثم يأتي بعد ذلك مرحلة التدريب على اداء اللحن وحفظ الاصوات وهي اقصى مراحل التعليم بالنسبة الى المغنين وهم يترقون فيها من مستوى الى آخر حسب حظوظهم من عدد الاصوات التي يحفظونها (2) .

ومن برامج هذا التكوين ايضا تخريج العازفين والعازفات على الالات من صناجين وصناجات وطنبوريين وطنبوريات وعوادين وعوادات (3) وزامر وكراعات (4) وغيرهم من العازفين والموسيقيين وكان هناك مستوى ادنى من التعليم لابد ان يبلغه المتعلمون ويذكر

---

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بيروت 1964 ج 21 ص 61 ـ موريس لومبار M. Lombard ـ الاسلام في عظمته الاولى ص 194 ـ 204

2) الجاحظ ـ كتاب القيان ـ الرسائل ـ ج 4 ـ ص 176

3) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة ـ ص 41 الاصفهاني ـ الاغاني طبعة بيروت 1964 ج 22 ص 207 ـ 209

4) ابن بطلان ـ رسالة في شرب الرقيق ـ ص 388

ابن بطلان في هذا الصدد ان اختيار هذا المستوى يكون باتقان عشرة اصوات من جملة مائة صوت كانت مضبوطة ومعلومة (1) واذاك يصبح المتعلم قادرا على التصرف فيما يلقى عليه من الحان وعلى التمييز بينها. وكانت الالحان الطريفة تباع وتشترى بالمال وخاصة منها الحان كبار الموسيقيين كما ترى اخبار كثيرة في سرقة هذه الالحان واختلاسها بسبب التنافس بين شهيرات الجواري وكبار النخاسين والمغنيين (2) فمن ذلك ما يروى عن علي بن هشام احد قواد المأمون (198-218هـ/813-833م) من انه كان يرشو من يخرج له صوتا سمعه من ((قلم)) المغنية من دار زبيدة مولاتها وبلغ هذا الرشاء مائة الف درهم تمكن به من الحصول على الصوت ومن طرحه على جواريه (3).

وهكذا اذا اجتمع العزف الجيد مع الصوت الحسن والشعر الصحيح الاداء كان ذلك غاية المطلوب في الغناء

---

1) الصدر نفسه

2) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بيروت 1964 ج 11 ص 269 ـ 270 و ج 7 ص 286 و ج 10 ص 147

3) الصدر نفسه ج 7 ص 286

ومعيار جودته وامتيازه يقول ابن بطلان ((اذا اجتمع للغناء ان يكون مطبوعا سليما من الخروج والنفور وكانت الجارية شحرورية الصوت جيدة الصنعة والضرب صحيحة التأدية للشعر قد اخذت عن الحذاق وتزيدت من نفسها بجودة الطباع فهي الغاية القصوى في هذا الشأن فان اتفق لها مستمع عارف بالطرائق والضرب واللحن ومجرى الاصابع وقائل الشعر وما فيه من العروض والنحو وما في الصوت من ردات و ترجيحات وشذرات ونقرات وتشييعات كان اوفر في اللذة والنفق للصناعة)) . (1).

ويقع تخريج الرقيق في فن الرقص ايضا اذ وجدت الى جانب الجواري العازفات والمغنيات الجواري ((الرقاصات)) (2) ويختار منهن لهذا الفن كل ((مجدول الحشا وعريض الصدر)) (3) فيتم تدريبه على فنون من الرقص مختلفة مثل ((الدستهند)) و ((الايلا)) (4) وقد وصف المسعودي فنون

---

1) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ ص 385

2) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة ـ ص 35

3) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة ـ ص 41

4) ابن بطلان ـ رسالة في شري الرقيق ـ 388

الرقص الرائجة اذاك وتحدث عن انواعها وعن الشمائل والصفات المحمودة في الراقص وما يجب ان يتصف به من طبع وخلق وعمل (1) وكان هذا الرقص يسمى باسماء الموسيقى من خفيف ورمل وهزج وخفيف الثقيل الاول احيانا او يسمى بأسماء خاصة مثل رقص الجمل او رقص الكرة ونحو ذلك (2) .

وكان تعليم هذا الفن الجواري خاصة امر ضروريا ومكملا لتعليم الشعر والغناء والضرب على الالات لانها جميعا من مستلزمات مجالس الشراب واللهو التي يقتني المترفون الرقيق المولد من اجلها (3).

وتتعلم الجارية او الغلام فنونا اخرى تستدعيها مجالس الانس والطرب التي تهيأ لها هذه البضاعة مثل البراعة في لعب الشطرنج او النرد (4) وقد تتنوع هذه الفنون احيانا فيكون منها فن السحر او اللعب بالسلاح كما نجد ذلك بالاندلس

---

1) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 ج 22 ص 218

2) المسعودي - مروج الذهب ج 8 ص 100 - آدم متز الحضارة الاسلامية ج 2 ص 249 - 250 احالة رقم 5

3) المرجع نفسه

4) ابن الزبير - الذخائر والتحف - ص 71 . 73 موريس لومبار M-Lombard الاسلام في عظمته الاولى ص 194 - 204

مثلا (1) لكن من مواد التعليم التي كانت تلقن للرقيق ما لا علاقة له باللهو والطرب والفنون الجميلة. وانما يتصل بالعلوم والمعارف الانسانية المختلفة كالفلسفة وعلم التنجيم والعروض وعلوم اللغة والخط والطب والفلك والرياضيات والقرآن والحديث والعلوم الشرعية عموما (2) وليس ذلك بدعا في هذا العصر فقديما عرفت بلاط العباسيين في بغداد مجموعات من الجواري تتباهز المائة جارية لكل واحدة منهن ورد عشر القرآن وقد اتخذت منهن ((ام جعفر)) جماعة فكان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة (3) وكانت جواري الطبيب ابن الكتاني بالاندلس متضلعات في علم التنجيم والفلسفة واصناف من العلوم النقلية والعقلية (4) وقد يتجاوز الامر مواقف الجد الى مقامات الحزن والالم فيقع تعليم الجواري النواح في المآتم لانهن كن يستعطين نادبات ونائحات ايضا (5)

---

1) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 ج 21. ص 98

2) هنري بيريس H.Pérès - الشعر الاندلسي - Poesie Andalouse ص 383 385 بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 317

3) المرجع نفسه - فيليب حتي PH. Hitti - تاريخ العرب ص 109

4) ابن خلكان - وفيات الاعيان ج 1 ص 190 زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 30

5) هنري بيريس H.Pérès - الشعر الاندلسي Poesie Andalouse ص 383. 385 بروفنسال - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 317

هـامـــاكـــن التعليـــــــــم

وكـان تخـريج هـذا النـوع من الرقيـق يتـــم في بيـوت كبـار المغنين مثـل اسحـق الموصلـي ومخـارق وابراهيـم بن المهـدي وكبـار الموسيقيـين مثـل زلزل الضارب ومرصوما الـزامر وعيـدة الطنـــبورية (1) وغيـــرهـم ولم يكـــونـــوا يكتفـــون بمهمـة التخريج في الصنـاعـة بـل منهـم من يعمـل لحسابـه الخـاص فيشتري الرقيـق السـاذج بسعـر منخفـض ثم يعلمـه ويبيعـه باضعـاف ما اشتراه بـه فيجمـع بذلـك بيـن ممارسـة التعليـم والنخاسـة (2) وكـان الاثرياء يرسلون بغلمانهم وجواريهم الى بيـوت هـؤلاء الاساتـذة ليحـذقـوا صنعـة الغنـــاء وقـد روى الغـلام ((ينشـو)) مولى ابي احمد بن الرشيـد مـاجـــرى لـه فقـال ((اشتراني مولاي ابو احمد بن الرشيد واشترى رفيقـــي ((محمـومـا)) فـدفعنـا الى وكيل لـه اعجمي خراسـاني وقـال لـــه : انحـدر بهـذين الغلامين الى بغداد الى اسحق الموصلي. ودفع اليه مـائـــة الف درهـم وشهـريـا بسرجـه ولجامـه وثلاثة ادراج من فضـة مملوءة طيبـا

---

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعـة بيروت 1964 ج6 ص 25 - 28
و ج 18 - ص 93 و ج 22 ص 211
2) المصدر نفسـه ج 5 ص 150 151 و ج 18 ص 268

وسبعة تخوت خز سوسي وثلاثين الف درهم للنفقة وقال للرسول : عرف اسحق ان هذين الغلامين لرجل من وجوه اهل خراسان وجه بهما اليه ليتفضل ويعلمهما اصواتا اختارها وكتبها له في درج)) (1) وكان اسحق كأبيه يمتلك العديد من الجواري ويتاجر فيهن بعد تعليمهن الغناء (2).

وقد عرفت بيوت مشاهير المغنيين بانها مجتمع الادباء والشعراء الذين يأتون لسماع الغناء واقتراح ما لديهم من فنون القريض (3) كما اشتهر اساتذة الغناء انفسهم بالتضلع في فنون اللغة والأدب (4) فساعد ذلك على تخريج الرقيق في فنون شتى لا يستقيم الغناء الا بها . وكان للنخاسين بيوت ايضا يحتفظون فيها بأجمل الرقيق ويجلبون اليها اهل الغناء والادب ليعطوا على تكوين الجواري وعلى صناعة القيان وكان النخاس المدرس لهذه المهمة يعرف باسم ((القيّن)) او صاحب القيان وقد اشتهرت اسماء بعضهم مثل ((ابي عكل)) وذاع صيت بيوتهم مثل بيت ابن راهين وبيت ابن الاصبغ بالكوفة (5).

---

1) المصدر نفسه ج 5 ص 265
2) المصدر نفسه ج 5 ص 390 ((وقد اهدى منهن الجارية ((شجى)) للواثق بالله العباسي (227-232هـ/842-847م))) وج 5 ص 306
3) المصدر نفسه ج 8 ص 339. 341
4) المصدر نفسه ح 5 ص 245
5) المصدر نفسه - ج 18 ص 93

وقد نبغ من الرقيق المولد شهيرات القيان اللائي صرن بدورهن يعلمن هذا الفن ويجنين ثمرة ما تدره عليهن هذه الصناعة . وقد كان ((مخارق)) المغني المشهور مملوكا للمغنية عاتكة بنت شهدة فنبغ في هذا الفن وصار بدوره يساهم في تخريج المغنيين (1) وقد ذاع صيت قينتين ماهرتين بالعراق هما ((عريب)) و ((شارية)) وكانتا متنافستين ولكل منهما جواريها وانصارها فكانتا رمزا لمدرستين مختلفتين في فن الغناء (2) ومما يروى عن علي بن يحي المنجم انه قال :((خرجت يوما من حضرة المعتمد فصرت الى عريب فلما قربت من دارها اصابني مطر فبعثت ثيابي الى ان وصلت الى دارها فلما وصلت اليها امرت باخذ ثيابي عني واتتني بخلعة فلبستها واحضرنا الطعام فأكلنا ودعت بالنبيذ واخرجت جواريها ثم سألتني عن خبر الخليفة في امر ذلك اليوم وشربه وايش كان صوته ...))(3).

وكانت حظايا الخلفاء والامراء وكبار الاثرياء عموما يتلقين تعليمهن حيث يوجدن بقصور مالكيهن اي على عين المكان فيستدعى لهن اهل

1) الاصفهاني ـ الاغاني طبعة بيروت 1964 ج 1 ص 253 وج 12 ص 44 وج 6 ص 248

2) المصدر نفسه ـ طبعة بيروت 1964 ج 14 ص 203 وج 10 ص 183 . 184

3) ابو الحسن الطلقي ـ الحدائق الغناء ص 99

الاختصاص مقابل اجرة وصلات سنية . ولنا في قصة تعلم الجارية المشهورة ((دنانير)) في قصور العباسيين احسن مثال على هذا النوع من تعليم الخطايا من رقيق طبقة الخاصة (1) وقد كان كل اشكال التعليم هذه متواجدة ومتعايشة فضلا عما كان تحفل به محالس الطرب والادب من فرص لتجويد القرائح وتحسين الصناعة ونشرها بين مختلف اصناف الحواي والعلمان . وهكذا نشطت حركة تحريج الرقيق في هذه الصنعة خلال هذا العصر وكان التجار اكبر المشجعين لها لما فيها تكفل ارباح تجارتهم ولذلك يرى بروكلمان ان المدارس التي فتحوها لتعليم الحواي قد فاقت في نشاطها مدارس تعليم ابناء الخلفاء في القصور . (2) .

---

1) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1904 ، 5ص262 و ص80

2) بروكلمان - تاريخ الشعوب الاسلامية ج 1ص 98-99

و- نتـــائـــج التعليـــــــم

وقـد كـان من نتـائج هـذا التكـوين ان نبغـت مجموعـات مـن الرقيـــق المؤنث والذكـر في شتـى الصنائـع والفنـون وكـان منهـم مـــــن لـم يكتف باتقـــان الصنعـة المأخـوذة عن اساتذتهـم وانمـا اضافـــــوا اليهـا ابتكـارا وابـداعـا واشتهـر منهـم كبـار الشعراء والمغنين والملحنيـن وذاع صيت مئـات القيـان اللائي ((تروي الحاذقـة منهن اربعـة الاف صوت فصاعـدا يكـون الصـوت فيمـا بين البيتين الى اربعـة ابيـات اذا ضـرب بعضـه ببعض يكـون عشـرة الاف بيت)) (1) وبلـغ الامـر باحـدا هـن ان غنت ثلاثين الف صـوت واعتنت بجمـع تلك الاصوات في مصنفـات (2) امـا الشعـراء من الرقيـق فقـد احـرزوا نفـس الشهـرة بـل كـانت الجـــــواري المغنيـات شـاعـرات ايضـا وكـذلـك الغلمـان وقـد روت كتب الادب جانبـا لا يستهـان بـه مـن هـذا الشعر مثـل العقـد الفريد لابن عبد ربـه ومثـل المستطرف للابشيهـي ونفـح الطيب المقـري والاغـاني للاصفهـاني وغيـــرهـا من امهـات كتب الادب (3) ويكفي ان نجتزئ هنا بمثـال واحـد على بديهـــة هـــؤلاء الشعـراء والشاعرات لان تعداد الامثلـة لايقف عنـد حـد ويتجـــاوز

---

1) الجاحظ رسالة القيان ـ الرسائل ج 4 ص 176

2) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بيروت 1964
ج 1 ص 60 وطبعة القاهرة 1929 ج 7 ص 296

3) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج 8 ـ ص 115 - 116
بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ج 1 ص 101

الاحصاء ويتعلق هذا المثال بجارية شاعرة للمعتضد (279 - 289هـ/ 892-902م) يقال لها ((بدعة الكبرى)) فقد قال لها يوما :

"يابدعة اما ترين الشيب في لحيتي وراسي ؟ فقالت : ياسيدي عمرك الله حتى ترى ولد ولدك قد شابوا فانت والله في السيب احسن من القمر"

وفكرت طويلا حتى قالت هذه الابيات :

ماصرك الشيب ورد ت فيه حمالا

قد هذبتك الليالي وزد ت فيه كما لا

فعد لنا في سرور وانعم بعيشك حالا

تزيد في كل يوم وليلة اقبالا

في نعمة وسرور ودولة تتعالى (1)

فهذا المثال قطرة من بحر الاشعار التي قيل على السنة الرقيق وهي ان دلت على شيء فانما تدل على نمط هذا الشعر الذي له طابع السلاسة وسهولة اللغة لانه نشأ من العناء وللعناء (2) وصار ريسة اهل الظرف يكتبونه في محال السهم وتكتبه الحواري على وجوههن ويطرزن به ثيابهن ليبرزن به ظرفهن وثقافتهن وقد اطنب الوشاء في وصف هذه العادة واورد امثلة عديدة من هذا الشعر (3) منها

---

1) السيوطي ـ المستطرف من اخبار الجواري ـ ص12ـ14
2) احمد امين ـ ظهر الاسلام ج 1 ـ ص 125
3) الوشاء ـ الموشى ـ ص 220 . 241 كمال مصطفى
مقدمة تحقيق كتاب الموشى ص : ك : ي

قـــولـه ((قـرأت على جبيـــن جـاريـة لنخـاس بغاليـــة وقـــــد اخـــرجهـــا اللعـــــــوض :

وشادن احسن خلق الله في كفـه سيف رسول اللـــه

قد كتب الحسن على وجهها سطرين بالعنبر باسم اللـــه

على يدي رصوان منسوجة صنعة حسن في طراز اللـــه

أناغريق في بحار الهوى شبه قتيل في سبيل اللـــه ....

واخبرنـي من رأى على جبين جـارية نخاس مكتوبا في سطـــريـــن :

اذا حجبت لم يكف البدر فقدها وتكفيك فقد البدر ان حجب البدر

وحسبك من خمر تفوتك ريقهـــا ووالله لا من ريقها حسبك الخمر))(1)

الى غيـر ذلـك من الاشعار التي كانت تكتب على المناديل لو تطـرز بهـا الاقمشـــة والـزنـــانيـر والقـلانس وتـزخـــرف بهـا آلات الطـرب عنوانـا على الظـرف وتـهـاهـيـا بهـذه الثقافـــة المأنقـــــة (2)

---

1) الوشـاء ـ الموشى ـ ص 239 ـ 240

2) الصـدر نفســه ـ ص 220 ـ 227

الباب الخامس

المعاملات المالية

الفصـــــــــل الاول

المكـــــــــوس

المكوس على الرقيق

1) المكوس العامة

ان المتأمل في الاحكام الشرعية بدقة يلاحظ أن الرسوم الجمركية عموما غير جائزة في الشريعة الاسلامية لكن الفقهاء قد اضطروا الى الاجتهاد في هذا الموضوع حتى يجدوا مبررا لظاهرة "المكس" التي احتفظ بها المجتمع الاسلامي في معاملاته التجارية رغم استنكاره الديني لها واقتصاره في ميدان الضرائب على الزكاة والجزية والخراج . وقد وجد هؤلاء الفقهاء مخرجا في اعتبار هذه الضرائب الجمركية داخلة في باب الزكاة واصطلحوا على تسميتها بالعشر وعلى عملية استخلاصها بالتعشير(1) ويوظف هذا المكس على الواردات من الرقيق كما يوظف على كل بضاعة بلغت قيمتها حدا معينا يحدده بعضهم بمائتي درهم(2) والرقيق بضاعة تتجاوز قيمتها هذا المقدار. والملاحظ أن هذه الضريبة كانت تعتبر شخصية اذ كانت تختلف باختلاف نوع التجار . فالتاجر المسلم لم يكن يدفع ما يدفعه التاجر الاجنبي او الذمي(3) ومن هنا كانت التسهيلات بالنسبة

---

1) آدم متز A. MEZ - الحضارة الاسلامية - ج 1 ص 223

2) ابو يوسف - كتاب الخراج - ص 132 - 135

3) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية - ج 1 ص 236

الى تجار المسلمين اكثر كما لا يطالب التاجر بدفع هذا المكس الا مره واحدة في السنة يصبح بعدها معفى من الاداء وله أن يطوف حيثما شاء من حدود البلاد عاما كاملا (1)

يقول ابو يوسف في كتاب الخراج " يؤخذ من المسلمين ربع العشر ومن أهل الذمة نصف العشر ومن أهل الحرب العشر من كل ما مر به على العاشر وكان للتجارة وبلغ قيمة ذلك مائتي درهم فصاعدا اخذ منه العشر وان كانت قيمة ذلك اقل من مائتي درهم لم يؤخذ منه شيء "(2) وهكذا تكون المبالغ الموظفة من المكس بنسبة 2,5 / او 5 / او 10 / حسب نوع التجار(3) وكان التعامل بالعشر مع غير المسلمين والذميين أي التجار الاجانب هو نوع من المعاملة بالمثل لان التاجر المسلم كان يدفع العشر على بضاعته بدار الحرب ومن الادلة على ذلك بنود المعاهدة التي ابرمت بين امراء حلب والروم سنة (359هـ/ 969م) بعد موت سيف الدولة الحمداني (332 - 356هـ/ 944 - 967م) وقد جاء فيها على لسان كمال الدين بن العديم الحلبي "ان العشر الذي يؤخذ من بلد الروم يجلب عشار الملك من صار قرمويه ويكحور منهما كل من التجارة . . يعشره

---

1) القلقشندي - صبح الاعشى - جامعة القاهرة - طدار الكتب - ج 3 - ص 463

2) ابو يوسف - كتاب الخراج - ص 121 - 122 وص 187 - 188

3) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 182

عشار الحاجب وبكجور بعده وبعد هما يعشر ذلك كله عشار الملك "(1)

ج) المكوس الخاصة :

ذلك هو الاطار الذي كان يضبط ضريبة المكوس على التجارة عموما في تعامل المسلمين فيما بينهم وتعاملهم مع غيرهم وهو اطار يشمل تجارة الرقيق وله من التاثيرات فيها ماله في غيرها من التجارات الا ان المكوس على الرقيق وغيره من البضائع قد كانت في الواقع مختلفة عن هذا النموذج المبدئي الذي يحدده الاطار القانوني واكثر تعقيدا على صعيد التطبيق والممارسة ، وذلك لان الاسلام لم يقض على الكثير من الوسائل الاقتصادية القديمة التي جرت العادة باللجوء اليها لتمويل خزينة الدولة كما أن تعدد الدول الاسلامية نشأ عنه تعدد في صيغ التطبيق أضف الى ذلك ما حدث بالنسبة الى ضريبة المكس من تطور ابتداءا من النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة اذ فقدت طابعها الشخصي وأمست توظف على البضائع(2)فهذا عضد الدولة البويهي (324 - 372 هـ/ 936 - 983م) يفرض في آخر أيام دولته رسوما على بيع الدواب وغيرها من الامتعة(3)ولذلك قال الشاعر:

---

1) ابن العديم الحلبي - زبدة الحلب في تاريخ حلب - مخطوط المكتبة الوطنية بباريس - رقم 1666 ورقة 44

2) آدم متز - A.MEZ - الحضارة الاسلامية - ج 1 ص 436

3) ابن الاثير - الكامل - ج 9 - ص 125

اي كل اسواق العراق اتاوه وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم (1)

وقد عرفت مصر بكونها ارض المكوس وقد ابتدعت فيها رمال الفاطميين ضرائب وطفت على كل شيء حتى قيل انه لم يسلم منها الا الهواء (2) وقس على ذلك سائر الاقاليم الاسلامية اذ تطورت الحايل (3) وصار المكس يتنوع بتنوع البضاعة وفي هذا ما يدعونا الى التساؤل عن نوع المكوس التي كانت تولف على الرقيق داخل العالم الاسلامي وخارجه ؟ .

3) مكوس الرقيق

ان العينات القليلة التي توردها المصادر في هذا الشأن تدل على اختلاف مبالغ هذه المكوس من اقليم الى آخر ومن عهد الى عهد وتشير الى ارتفاع هذه المكوس حينا وانخفاضها حينا آخر . وقد ارتفعت الضريبة على الرقيق بسبب المدن الاوروبية المصدرة للرقيق كمدينة البندقية الى حد يتساءل معه المرء عن امكانية الربح بالنسبة الى التجار المستوردين له (4) وكان اليهود اثناء تعاملهم للرقيق يدفعون ضرائب ثقيلة ودلت بالمانيا على الاقل حيث كان عاشور الحمار يقضي في معظم المدن بدفع اربعة دنانير على كل رأس - وكان اسقف مدينة "حور" chur يفرض على الرأس دينارين يدفعان في العبور بمدينة

"فاليستات" Wallenstadt (5)

1) الجوهري - الصحاح - ماده : مكس
2) المقريزي - خطط 1 ص 103 وما بعدها. آدم متز A-MEZ الحضارة الاسلامية ج 1 ص 234
3) ابن خلدون - المقدمة طبعة بيروت - ص 279-280
4) كلود كاهان - C.Cahen - الشعوب الاسلامية - ص 339-344
5) آدم متز - A MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 301

ويشير المقدسي الى ارتفاع في المكوس على الرقيق التركي بحافة جيحون حيث يؤخذ على الغلام من سبعين الى مائة درهم وكذلك على الجارية يقول في ذلك "ويصعبون بحافة جيحون في الرقيق ولا يعبرون غلاما الا بجواز من السلطان ويأخذون مع الجواز سبعين الى مائة وكذلك على الجواري بلا جواز اذا كانوا اتراكا ويأخذون على المرأة عشرين الى ثلاثين درهما وعلى الجمل درهمين وعلى فرس الراكب درهما (1) " ويتضح من هذا القول ان هذه المكوس قد اختلفت باختلاف جنس الرقيق ونوعه كما يظهر ارتفاعها ايضا بالقياس الى الضرائب الموظفة على البضائع الاخرى .

لكن المقدسي يذكر لنا امثلة اخرى من المكوس الموظفة على الرقيق باماكن اخرى من العالم الاسلامي وهي تبدو اقل ارتفاعا من الامثلة السابقة فيشير الى ان المكس على الرأس الواحد من الرقيق بجزيرة العرب دينار واحد . كما يقارن بين هذا المكس وغيره من الضرائب الموظفة على بضائع اخرى كالاقمشة والتوابل والافواه فيبدو انخفاضه بالنسبة اليها يقول " والضرائب والمكوس يؤخذ بحدة من كل حمل حنطة نصف دينار وكيس من فرد الزاملة وعلى سفط ثياب الشطوي ثلاثة دنانير ومن سفط الدبيقي دينار ان وحمل الصوف ديناران وبعشر على كل حمل دينار وعلى سلة الزعفران دينار وكذلك على رؤوس الرقيق "(2) وهو يذكر ان المكس على الرأس الواحد باقليم السند يساوي اثني عشر درهما بينما يوظف على الحمل ستة دراهم اي النصف (3)

1) المقدسي احسن التقاسيم ـ ص 340 ـ آدم متز - AMEZ الحضارة الاسلامية ج 1 ص 225 226
2) المقدسي ـ احسن التقاسيم ص 104
3) المصدر نفسه ص 485

ونحن وان كان من العسير علينا الاحاطة بالعوامل الاقتصادية المتحكمة في الجبايات الموظفة على الرقيق بشتى نواحي العالم الاسلامي فانه باستطاعتنا ان نسلم بان وفرة هذه البضاعة او قلتها بمكان دون اخر من الاسباب الاساسية في انخفاض المكس الموظف عليها وارتفاعه واذا علمنا ان الاقاليم المجاورة لمصادر الجلب قد كانت اوفر حظا من هذه المادة من غيرها امكننا على وجه التقريب ان نجتهد في تحديد مناطق الارتفاع والانخفاض في هذه المكوس. وقد لعب هنا قانون العرض والطلب دوره مما دعا السلط الى التدخل احيانا بحذف بعض المكوس لتشجيع حركة التوريد (1) ولا يخفى ايضا ان هذه المكوس قد كان لها تاثير في ارتفاع اسعار الرقيق كما سنرى

---

1) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 119 -
آدم متز - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 223 - 224
احالة رقم 3 - مما يروى عن الخليفة الواثق (227-232هـ/842-847م)
انه الغى المكوس البحرية سنة (232هـ/ 7- 846م) انظر
الطبري - تاريخ الامم والملوك - ج 3 ص 1363 ومن الفقهاء من اجاز
للامام ان ينقص من ضريبة العشر او يزيد فيها او يحذفها اذا راى في ذلك
مصلحة - انظر - السرخسي - شرح السير الكبير - ج - 5 - ص 2139 - 2141

الفصل الثاني

اسعار الرقيق

اسعـــــــار الرقيـــــــق

ليس من اليسيـــر على البـاحث في تـاريخ تجـــــارة الرقيـق ان يحـــدد سعـــر هـذه البضـــاعـة في عصـــــــر من العصـــور تحـديـدا مطلقـــا . وذلـك لان صعـوبـــــات عـــدة تحـــول دون بلـــوغ هـذا التحـديـد الدقيـــق ويمكـــن حوصلتهـا في ثـلاثـة اصنـاف.فأولهـا تغيـــر اسعـار هـذه البضاعة بتغيـــر الظروف والاوضـاع التجارية والاجتمـاعيـة العامـة . فثمـــن العبـــد اوالامـة رهيـن بعـدة عـــوامـل كقـانون العرض والطلب واوضـاع السلـم والحرب وتكـاليف الجلـب والتوريـد .وثـانيهـا تنـــوع اصنـاف الرقيـق واجناسـه واختـلاف مستـوياتـه .فالرقيـق انـــواع مـن مـذكـر ومـؤنث ومثقـف وجـاهـل وجميـل وقبيـح وصغيـــــر ومســـن وفحـــل وخصـي وسليـم ومصـاب وحـــــاذق لصنعـــــة وفـاقـد لهـا.ولهـؤلاء جميعـا اثمـان متفـاوتـة في الســـــوق الـواحـدة بتفـاوت قيمـة اصحابهـا فـلا يجـــوز والحـالـــــة هـذه ان نتحـدث عـن سعـر موحـد وثمـن مطلـق . وثالثهـــــا دلالـة هـذه الاسعـار التي نجـد بعضهـا مضمنـا في اخبـــــار الرقيـق وروايـات بيعـه وشـرائـه فهي دلالـة تفتـقر الى الوضـوح فضـلا عن الشـك في حقيقتهـا التاريخيـة . ولا منـاص من تمحيـــص

تلك الاسعار ومقارنتها بغيرها من اسعار المواد التجارية الاخرى حتى نتأكد من دلالتها الصحيحة وحتى نعرف مقاييس الغلاء والرخص في بضاعة الرقيق خلال هذا العصر (1)

ان المتأمل في اثمان الرقيق يلاحظ ارتباطها بمجموعة من العوامل المحددة لمقاديرها والمؤثرة فيها بالزيادة والنقصان . فهي تتنوع وتتغير بتنوعها وتغيرها ولا بد من دراسة تلك العوامل حتى نتمكن من التعرف على اسعار بضاعة الرقيق وما يطرأ عليها من حين لاخر من ارتفاع او انخفاض فمن هذه العوامل ما يتصل ببعض القوانين التجارية التي تشمل شتى انواع التجارات ومختلف البضائع كقانون العرض والطلب وتكاليف التوريد وارتباطها بقرب مصادر الجلب او بعدها وكذلك المكوس الموظفة على هاته البضاعة فضلا عن مستوى المعيشة وتأثيره في غلاء الاسعار او رخصها . فهل لعبت هذه العوامل والاعتبارات الاقتصادية دورها بالنسبة الى تجارة الرقيق ؟

---

1) برنشفيك - Brunschvic - دائرة المعارف الاسلامية مقال عبد ج 1 ص 33

1) العوامل التجارية

أ- عامل العرض والطلب

وتخضع اسعار الرقيق لما تخضع له اسعار البضائع الاخرى من قوانين العرض والطلب التي تتسبب تارة في ارتفاع تلك الاسعار وطورا في انخفاضها حسب قلة العرض او كثرته وحسب تناقص الطلب او تفاقمه . ولذلك كان سعر الرقيق في بعض البلدان الاسلامية مرتبطا بحالة الثغور في الحرب والسلم وقد رتبها على تزويد الاسواق بهذه المادة التجارية او نضوب معينها في حالة السلم خاصة . وهكذا ارتفعت اثمان الرقيق الابيض بصورة ملموسة عند تخريب الثغور الغربية بالعالم الاسلامي وعندما انقطع رقيق الاندلس في القرن الرابع للهجرة (1)

اما في حالة وفرة الرقيق فان الاسعار تنخفض بصورة واضحة وقد يباع الرقيق في هذه الحالة بالجملة وكثيرا ما يحدث ذلك بالثغور حيث يباع السبي وتفرق الغنائم والاسهم على اصحابها وقد ينادى على الرأس بمائة درهم او الف درهم

---

1) آدم متز A.MEZ الحضارة الاسلامية ج 1 ص 299

واقل واكثر. وقد روي ان العبد في واقعة الاتراك بالاندلس قد بيع بدرهم وبيع السيف بنصف درهم . (1) وشبيه بذلك ماروي عن فتح عمورية اذ نودي على الرقيق خمسة وعشرة عشرة لكثرته وطول مدة البيع (2) ومن اخبار العمري (3) ايضا انه هجم في عهد احمد بن طولون (254 -270 هـ/ 868 - 884م) على النوبة وسبى منهم سبيا كثيرا حتى كان الرجل من اصحابه يشتري الحاجة من ((الباعة)) او من ((البقال)) بنوبي او بنوبية لكثرتهم بين ايدي اصحابه (4).

بدالعامل الجبائي

ولا مراء كذلك في ان للمكوس الموظفة على جلب الرقيق من بلاد اسلامية الى اخرى ومن البلاد غير الاسلامية ايضا دور في اختلاف الاسعار وتفاوتها وذلك بسبب اختلاف هذه الجبايات في الزمان والمكان وتراكمها احيانا فالمملوك المجلوب من طريق البندقية

---

1) المقري ـ نفح الطيب ـ طبعة بولاق 1279 هـ في (4 اجزاء) ج 1 ص209 ـ زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص44 ـ 46

2) فاز يليف vasiliev العرب والروم ـ ص 113-156

3) هو ابو عبد الرحمان عبد الحميد بن عبد الله بن عبد العزيز ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب

4) البلوي ـ سيرة احمد بن طولون ـ ص 64 ـ 65

شـــلا يـــوظف عليه مكـــس معيـــن فـاذا انتقـــل الى بـــلاد الاسلام ومـــر من اقليـــم الى آخـــر وظفت عليـــه مكـــوس اخـــرى وهكـــذا الى ان يتضـــاعف ثمنـــه احيـــانـــا (1) وقـد ترتفـع نسبـــة المكـــس الواحـد في ناحيـة من نـواحي البـلاد الاســلاميـة وتنخفـــض في اخـــرى بالرغـــم من وجـــود تشريـــع اسلامي ينـــص على العشـــر بالنسبـة لعمليـــة التوريـد التجـــاريـة . وقـد تحـدث المقـدسي عـــن ارتفـــاع في المكـــوس الموظفـة على الرقيـق التركي بحافـة جيحـــون حيـث لا يعبـــر الغـــلام الا بجـــواز من السلطـــان مع مكـس من سبعيـــن الى مـائـة درهـــم وتعبـــر الجاريـة بعشـــرين وثلاثين درهـم (2) امـــا باقليـــم السنـد فيـــؤخـذ على الرأس اثنـا عشـــر درهمـــا ويؤخـــذ بجـــدة دينـــار على الرأس من الرقيـق (3) وتـــدل قائمـة جمـــايـة الدولـــة العبـاسيـة التي ضبطهـا الوزيـر علي بن عيس وزيـر المقتـدر (295-320هـ/ 908-932م) سنـة (306هـ/ -918- م) على قيمـــة الاعشـــار الموظفـة على التجارة الخارجيـة بمـــا في ذلـك عطيـة جلـــب

---

1) كلـــود كاهـــان - الشعوب الاسلامية - ص 339 - 344

2) المقـدسي - احسن التقاسيم - ص 340

3) المصدر نفســه ص 104 - وص 485

الرقيق (1) وهكذا كانت الاسعار تتأثر طبعا بهذه العوامل الجبائية ارتفاعا وانخفاضا .

ج-تأثير مستوى المعيشة

وكانت ظروف غلاء المعيشة ببعض الدول الاسلامية تنعكس على اثمان الرقيق كما تنعكس على غيرها من اسعار المواد التجارية الاخرى . ففي مثل هذه الظروف التي يتعذر فيها القوت احيانا على ابناء الطبقة المتوسطة مثلما حدث ذلك في ظل الدولة البويهية خلال القرن الرابع للهجرة (2) وخاصة في عهد الملك صمصام الدولة (372-376هـ/ 982 - 986م) (3) لا يمكن ان تكون اسعار الرقيق منخفضة او في متناول متوسطي الحال من ابناء المجتمع .

د) المؤثرات الاجتماعية

وللاوضاع الاجتماعية تأثير في اسعار الرقيق لا يقل اهمية عن تأثير العوامل الاقتصادية التي كنا بصدد

1) زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 2 ص 114
2) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - 226 - 236
3) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة ج 3 ص 21 - 26

ذكرها.ويتضح ذلك فيما نلاحظه مثلا من انخفاض سعر العبد او الجارية لاسباب اخلاقية كشهرتهما بالسرقة او العصيان او الزنا.وقد كان الانحراف الخلقي سببا في كساد هذه البضاعة في غالب الاحيان.وقد روي عن الرسول انه نصح ببيع الامة الزانية ولو بظفير كناية عن انخفاض قيمتها (1) وهذا ما دعا التجار والشراة الى التثبت من سلامة خلق الرقيق الى جانب التأكد من سلامته الجسدية،ومما جعل رجال الحسبة يتتبعون الدلائل والسمات والملامح التي تشير الى المستوى الخلقي في العبد او الامة والى التعرف على مزاج الرقيق من خلال ما يبدو عليه من مظاهر وعلامات الخير او الشر (2).

ولهذه الاعتبارات كانت الجواري الافرنجيات والصقلبيات وغيرهن من جميلات الجواري اللائي لم يعرفن بعد شيئا من لغة من يشترينهن ابهض ثمنا من سائر الجواري البيض لان في ذلك ضمانا لسلامتهن من مخالطة الناس ولحداثة عهدهن بالمشتري وقد روى لنا المقطي كيف اشترى احد سكان البيرة بالاندلس

---

1) البخاري ـ صحيح ـ ج 3 ص 298. 299

2) ابن بطلان ـ الرسالة ص 366 ـ 367

جارية رومية مسيحية بذل فيها ثمنا مرتفعا و تسلمها من البائع على انها تجهل اللسان العربي فلما انصرف بها اكتشف حيلة بائعها اذ سمعها تخاطب بعض المارة بكلام خليع وبلسان عربي فندم وباعها بالمرية (1) .

وقد كان هنالك في الجملة عزوف عن شراء جارية غير عفيفة او عهد فاسق صيانة للعرض وحفاظا على سلامة الاسرة ومما يرى في هذا المجال ان احدهم ((اراد ان يشتري قينة وقد كان احبها فبات عند مولاها ليلة فامكنته من نفسها وكان الامتناع منه فانشأ يقول :

ما رأينا بواسط كسليمى منظرا لونزينه بعفاف
بت في جنبها وبات فجيمي جنب القلب طاهر الاطراف
فأقيمي مقامنا ثم بيني لست عندي من فتية الاشراف))(2)

الا انه اذا كان من الطبيعي ان يقع التحري بخصوص الرقيق المتخذ للاسرة من آفة الانحراف الخلقي فاننا لا نظن ان الاوساط التي كانت تتخذ الرقيق للبغاء والتمعش منه والمتاجرة بعرضه

---

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية - ج 3 ص 314 - 317

2) ابن القيم الجوزية - اخبار النساء - ص 12

في هـذا العصـر تتوخى مثـل هـذا التحري في اقتناء هذا النوع من الرقيق بل المفروض ان يكـون رائجـا لديهـا ومرغوبـا فيـه ومـن المـتوقـع ايضـا ان يؤثر هذا الرواج في اثمانه بالارتفاع.

ومن الظروف الاجتماعيـة الشاذة التي تؤثر فـي اسعـار الرقيق الاضطربات الاجتماعيـة والثورات وغيرهـا من الظـروف الحرجـة ففي ثـورة الزنج بالعراق كـان الحرائـر من القرشيـات والهاشميـات يسبيـن وتبـاع الواحدة منهن بالدرهمين والثـلاثـة (1) بأسـواق العـراق . وكـانت بعض الثـورات بالمغرب وافريقيـة فرصـة لبيـع مجمـوعـات من السبي بأثمـان زهيـدة مثلمـا حـدث في عهـد سحنـون ابـان ثـورة تونـس (2) ويروي ابن حوقـل ان زعماء صنهاجة كـانوا يشنـون حمـلات تاديبيـة على البد والمحيطيـن بمـدينـة قـابـس ليردوا هجـومـاتهـم على هـذه المـدينـة فكـانـوا يأسرونهـم ويبيعـون العشـرة بثـوب واحـد (3) وكـانت الانتفاضـات

---

1) المسعـودي - مروج الذهب ج 8ص60 ـ 61

2) المالكي ـ رياض النفوس ج 1 ص 280

3) ابن حوقـل ـ صورة الارض الترجمة الفرنسية ج 1ص67

التي شهدتها منطقة النوبة مناسبة لبيع رئيسي النوبة والبجة سنة (238هـ/852-م) ببضعة دنانير في اسواق بغداد .(1)

3) العوامل الخاصة بالبضاعة

أ- الاعتبار العرقي

ولجنس الرقيق اعتبار في تحديد ثمنه وكقاعدة عامة يمكن ان نقول ان الرقيق الابيض اغلى ثمنا من الرقيق الاسود (2) فالبيض هم ارستقراطيو العبيد وا غلاهم سعرا الاتراك والصقالبة (3) وقد كان يرد على بلاد الاسلام رقيق تركي من خراسان غال جدا وبما بيع الغلام منه بخمسة آلاف دينار (4) ويرى ابن حوقل ان الرقيق

1) الصدر نفسه ج 1 ص
2) برنشفيك Brunschvig- دائرة المعارف الاسلامية - مقال عبد ج 1 ص 33
3) آدم متز A-MEZ- الحضارة الاسلامية ج 2 ص 304
4) زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 39

التركي المجلوب الى خراسان ليس في انواع الرقيق ما يضاهيه في الثمن والجمال وانه راى العبد منه يباع بخراسان بثلاثة آلاف دينار ويضيف نفس المؤلف انه لم يسمع قط بهذا الثمن الا بالنسبة الى الرقيق الماهر في صنعة الغناء . وهكذا نراه يعتبر الاتراك المجلوبين من البلاد المحيطة باقليم ما وراء النهر من اغلى انواع الرقيق (1)

وكذلك كان شأن الرقيق الصقلبي والافرنجي والبربري (2) ويبدو ان الرقيق الصقلبي قد لاقى من الرواج بالاسواق الاسلامية ما جعله اكثر امتيازا في بعض الظروف من سائر اجناس الرقيق الابيض وامسى نموذجا للجيد من الرقيق وبذلك تجاوزت اثمانه اثمان الرقيق التركي وهذا الخوارزمي يقول في القرن الرابع للهجرة ان التركي يستخدم عند غيبة الصقلبي (3) . وقد نشأ من اختلاط اجناس الرقيق ببعضها ....

---

1) ابن حوقل ـ صورة الارض ـ الترجمة الفرنسية ج 2 ص 433 و ص 447
2) بروفنسال Provençal ـ تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 314 ـ 317
3) آدم متز A. MEZ ـ الحضارة الاسلامية ج ـ ع ـ ص ـ 301 .

بعضا وغيرها من اجناس فئات الاحرار بالمجتمع الاسلامي نوع من الرقيق يدعى ((خلاسيا)) (1) او ((معلهجا)) او ((مذرّعا)) (2) وهو يقابل - métisse باللغة الفرنسية. وكانت اثمانه مرتفعة ايضا لانه من قبيل الرقيق الجيد في نظر اهل العصر ولاشك في ان لهذا الاختيار صلة بلون الرقيق وقاته وخصائصه الجسدية وكونه طويلا او قصيرا او ((خماسيا)) كما يقال (3).

ولم يكن ارتفاع اسعار الرقيق الابيض بالقياس الى اثمان الرقيق الاسود امر قائما على اعتبارات عنصرية، وانما هي ظاهرة عامة ترجع الى اعتبارات جمالية خاصة، وكذلك الى تفضيل استعمال السود في القيام بالخدمات العائلية او الاجتماعية والاقتصادية في الغالب ومن الدلائل على عدم وجود هذا الاعتبار العنصري ارتفاع اثمان الرقيق الاسود الجميل تماما كان شأن السودانيات اللائي اتخذن للتسري بالاندلس وبلغت اثمانهن مبالغ لا تقل اهمية

---

1) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت ج 20 ص 286-287

2) الجاحظ - فخر السودان على البيضان - الرسائل ج 1 ص 210. راجع أيضا: مناقب الترك - الرسائل - ج 1 ص 10

3) ابن القيم الجوزية - اخبار النساء ص 15

قيمة الجواري البيض (1) كما كان الخصيان السود من الرقيق النفيس الذي يقتنى باثمان مرتفعة . وقد يبلغ العبد الاسود لخصاله وكفاءته قيمة مرتفعة ايضا. وقد روي ان الصاحب بن عباد كان يشتري العبد النوبي باربعمائة دينار (2) وسنوضح فيما يلي الاعتبارات الاساسية التي لعبت دورا كبيرا في ارتفاع اسعار الرقيق وهي اعتبارات لا علاقة لها بالنظرة العنصرية .

ب- عامل الجمال

وتختلف اثمان الرقيق باختلاف حظه من الوسامة والجمال ويعتبر في هاته الحال من الرقيق النفيس المقتنى من اجل المتعة والترف والزينة خصوصا اذا كان من الرقيق المؤنث الصغير السن(3) وتقدر قيمة الجارية او الغلام من هذا النوع بمبالغ مالية باهضة في الغالب لان هذا النوع من الرقيق يعتبر ارستقراطيا بالقياس الى غيره اذ يقبل على شرائه الوجهاء ورجال الدولة والخاصة من الاغنياء

1) بروفنسال- Provençal- تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 314 - 317

2) آدم متز- A-MEZ- الحضارة الاسلامية ج 1 ص 397

3) برنشفيك Brunschvig- دائرة المعارف الاسلامية- مقال عبد ج 1 ص 33

ويبذلون فيه الاموال الطائلة ليرفهوا به عن انفسهم وليجعلوا منه جزءا من مباهج حياتهم المترفة التي يعيشونها .

وكان التجار يفصلون في الاسواق بين المرتفعات من الجواري ووخش الرقيق لاختلاف النوعين في القيمة باختلافهما في الجمال الجسدي (1) واذا كانت الجارية المرتفعة صغيرة السن وكذلك الغلام ارتفع ثمنهما ايضا (2) وتعتبر الجارية البكر اثمن من الثيب فاذا اشترى احدهم بكرا وافتضها ثم طالب بردها على البائع لعيب فيها كان عليه ان يدفع ((الارش)) تعويضا لبكارتها لان الوطء ينقص من ثمنها (3) ولا يخفى ما لقيمة البكارة من علاقة بعقلية المسلمين وتاريخهم العقائدي وتقاليد حضارتهم اذ يروى عن الخليفة عمر رضي الله عنه قوله ((عليكم بالابكار الشواب فانهن اطيب افواها وانتق ارحاما)) (4) وتنخفض في مقابل ذلك قيمة الامة الحامل لان الحمل يمنع الوطء ويخشى منه التلف (5)

---

1) بروفنسال Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 314 - 317

2) المرجع نفسه - ج 3 ص 208 - 214

3) ابن قدامة - المغني ج 4 ص 146 - 148

4) الجاحظ - مفاخرة الجواري والغلمان - الرسائل ج 2 ص 105

5) ابن قدامة - المغني ج 4 - ص 149

وقد ساهم ازدهار فنون التزيق والتبرج في تحسين مظهر هذا النوع من الرقيق ولاسيما المؤنث منه مما زاد في ارتفاع اثمانه. وتنوعت فنون التجميل وتطورت استجابة لمتطلبات ظاهرة الظرف التي تفشت في اوساط اهل الرخاء من الخاصة . فهرع الجواري في طم الشعر وقص الذؤابة ومد الوفرة حول الاذن والعقرب على الجبين ووضع العصابة المزركشة على الرأس وتدقيق الحواجب واحداث البلج بينهما وهي كلها فنون تزيد في قيمة الجارية عند الشراء (1)

ولهذه الاسباب كلها ارتفع ثمن الجارية الجميلة فمنذ العصر الاموي اشتهرت ((الدلفاء)) جارية سعيد بن عبد الملك بغلاء ثمنها اذ اشتراها سعيد بالف درهم (2) وقد بلغت هذا الحد من القيمة بفائق جمالها الذي وصفه ابو زيد الاسدي لسليمان بن عبد الملك (96 - 98 هـ / 715 - 717 م) كما يلي : ((كنت جالسا على باب اخيك سعيد بن عبد الملك واذا جارية قد خرجت الى باب القصر عليها قميص اسكندراني يبين منه بياض ثديها وتدويرسرتها ونقش تكتها وفي رجليها نعلان قد اشرق بياض

1) كمال مصطفى - مقدمة تحقيق كتاب الموشى - ص ك.ل.م

2) الاتليدي - اعلام الناس - طبعة مصر 1318 هـ 35 - ابن القيم الجوزية - اخبار النساء ص 83 - 88 - زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 2 ص 26

قد مها على حمرة نعليها ولها ذؤابة تضرب الى حقويها وتسهل كالعثاكيل على منكبيها وطرة قد اسبلت على جبينها ولها صدغان كانهما نونان على وجنتيها وحاجبان قد تقوسا على محجري عينيها وعينان مكحولتان سحرا وانف كأنه قصبة در))(1) ويروى ان سيعدا كان اول من بذل مثل هذا المقدار في ثمن جارية وهو يبلغ حوالى سبعين الف دينار (2).

ومن هذا القبيل ما يروى من أن الرشيد (170-193هـ / 786-790م) امر وزيره يحي بن خالد بدفع مائة الف دينار في جارية فاستكثر يحيى المال واعتذر عن دفعه فغضب الرشيد واراد يحيى ان يبين له مقدار ما يتحطه بيت المال من هذا الاسراف فجعل ذلك المال دراهم فبلغت حوالي الف الف وخمسمائة درهم 1.500.000 فلما راى الرشيد ذلك المال استكثره وادرك اسرافه (3) كما اشترى جارية من ابراهيم الموصلي بمبلغ ستة وثلاثين الف 36.000 دينار فباتت عنده ليلة ثم ارسلها الى الفضل (4) وطلب

---

1) ابن القيم الجوزية ـ اخبار النساء ـ ص83 ـ 88

2) الابشيهي ـ المستطرف ج 2 ص 132

3) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ـ طبعة ليدن 1885 م (في 11 جزءا) ج 2 ص 1338

4) المصدر نفسه ـ زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 119 ـ 120

محمد الامين (193 - 198هـ/809-813م) من جعفر بن الهادي ان يبيعه الجارية ((بذل)) فابى فامر فاقرا قاربه ذهبا فبلغت قيمة ذلك عشرين الف الف درهم 20.000.000 اي اكثر من مليون دينار واذا صح هذا الخبر كان اعظم ما وصلت اليه اثمان الجواري (1)

وقد واصل الخواص دفع مثل هذه المبالغ الخيالية في شراء الجواري الفائقات الجمال فقد بالغ الخليفة العباسي الواثق بالله (227 - 232هـ/842-847م) في ثمن جارية فماطل وزيره ابن الزيات في دفع الثمن لاستكثاره اياه فقرر الخليفة ضاغنة القدار (2) وقد عجز المعتمد (256 - 279هـ/870-892م) عن شراء الجارية ((شرة)) فاشترتها له ام المعتز بعشرة آلاف دينار واهدتها اليه (3) واشترى المعتصم في خلافة المأمون (198-218هـ/ 813-833م) جارية بخمسة آلاف دينار (4) وكثيرة هي الاخبار التي تروي لنا

---

1) ابن عبد ربه - العقد الفريد - طبعة مصر 1305 هـ ج 3 ص 43 - الاصفهاني - الاغاني - طبعة بولاق 1285 هـ/ ج 15 ص 145 زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 119 - 120

2) ابن الاثير - الكامل - طبعة مصر 1302 هـ (في 12 جزءا) ج 7 ص 13

3) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 (في 25 جزءا) ج 15 ص 327

4) المصدر نفسه - ج 20 ص 212 - 213

ما ينفقه رجال الدولة في القرنين الثالث والرابع للهجرة من مبالغ مالية كبيرة في سبيل شراء الجواري الجميلات.

ولكنه بالرغم من كثرة الروايات التي تذكر لنا هذه الاثمان الباهضة لا يمكننا الا ان نعتبرها من قبيل الاسعار الشاذة التي لا يقدر على دفعها الا الامراء وكبار التجار والوجهاء من رجال الدولة ، والتي لا تبذل عادة الا في ظرف معينة ولأسباب ذاتية وعاطفية احيانا كما تختص في الغالب بشهيرات الجواري اللائي يعتبرن ضرب المثل في الحسن فهن أشبه بملكات الجمال او ما يسمى بالكواكب ، ونجوم الحسن بلغة اليوم وذلك فضلا على عدم سلامة الروايات من المبالغات لابراز ظاهرة الثراء أو النعيم والترف أو ظاهرة التبذير والاسراف.

الا اننا لا نشك في أن ثمن الجارية الجميلة أرفع بكثير من ثمن العادية ولكنه في نظرنا قلما يصل الى تلك الحدود التي اشرنا اليها سابقا ولدينا بعض الامثلة التي تشير باكثر واقعية الى ثمن الجارية الجميلة خلال هذا العصر وهو ثمن يقدر عليه اصحاب الطبقة المتوسطة من المجتمع كما يقدر عليه الاثرياء اذ لم تكن ظاهرة التسري والتمتع بالاماء مقصورة على حياة القصور والبلاطات والارجح ان معدل سعر الجارية

الجميلة قد كان يتراوح بين بضع مئات من الدنانير و بضعة آلاف واليك بعض هذه الامثلة :-

ففي سنة (300هـ/ -912- م) سميت جارية ((جميلة حلواء)) بمائة وخمسين 150 دينارا (1) وقد شغف المعتز بالله (252 -255هـ/ 866 -869م) سنة (296هـ/ -909- م) بجارية جميلة بيعت بسبعة آلاف 7000 درهم (2) ويقول الاصطخري ان ثمن الجارية الجميلة في عصره يبلغ الف دينار واكثر (3) وقد طلبت جارية للخوارزمي بعشرة آلاف درهم فلم يجد بها (4) واخذت جارية الجهشياري منه لقاء فرامة قدرت سنة (366هـ/ -976- م) بخمسة عشر الف دينار (5) وبيعت جارية جميلة حوالي سنة (300هـ/ -912- م) بخمسة آلاف دينار بالرغم من ان اقدامها كانت كبيرة (6) ويذكر لنا الادريسي ان ثمن الجارية النوبية الجميلة يبلغ ثمنها ثلاثمائة دينار (7).

---

1) آدم متز A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 297
2) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 226 - 228
3) آدم متز A.MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 298
4) المرجع نفسه
5) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 226 - 228
6) المرجع نفسه
7) الادريسي - نزهة المشتاق - ترجمة القسم الخاص بالمغرب واسبانيا - لدوزي - Dozy - ودي غويه - De Goje -
ليدن Leyde 1864 - 1866 ص 29

فهـذه الامثلـة من اسعار الجواري الجميلات سواء أكن من البيض او السود لان المسلمين يرون الجمال في النوعين معـا (1) تـدل على ارتفـاع في الثمـن بـدون شك ولكنـه دون مايدفعـه الخلفـاء والامـراء واصحاب الثراء الفاحش وتـدل في الوقت نفسـه على ارتفـاع في قيمـة هـذا الصنف من الجـواري وكـان الغلمـان الذين يقتنـون للمتعـة لجمالهم يظاهـون الجـواري في اثمـانهم.فقـد رءى الجاحـظ ان الغـلام الوسيـم يشتري بالمـال العظيـم (2) وان الاقبـال على التلذذ بالغلمـان قـد فـاق في بعض الفتـرات الولع بالجواري فغلت اثمـانهم وتجـاوزت احيـانا اثمـان الاماء الجميلات حتى اعتبر بعـض شعـراء العصـر ان التمتـع بالجاريـة دليـل على قلـة المـال وان الغنيّ من قـدر على اقتنـاء الغـلام يقـول :

((ليس لي في الحرحاجـة نيـكه عنـدي سماجـة))

مـا ينيـك الحـر الا كـل ذي فقـر وحاجـة

فـاذا نكتم فنيكـوا امـردا في لون عـاجـة))(3)

ولدينـا بعض الامثلـة على اسعار هؤلاء الغلمـان في صورتها الباهضـة فمـن ذلك مايروى من ان ابا احمـد بن الرشيد قـد اشتـرى في عصـر

---

1) بروفنسـال Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3ص177 179

2) الجاحـظ - مفاخرة الجواري والغلمـان - الرسائل ج 2ص105

3) المصدر نفسه ج 2ص 111 - 112

الخليفة المأمون العباسي (198 -218 هـ/ 813 -833 م) غلاما يدعى ((فائزا)) بثلاثمائة الف درهم فغضب المأمون وارتجع منه نصف المال واراد ان يسترد اكثر من ذلك فوجده قد انفقه فحجر عليه التصرف في ماله طيلة مدة خلافته وكان ذلك المال مردودا الى مخلد بن ابان (1) وتورد المصادر اخبار غلمان وقع شراؤهم ببضعة مئات من الدنانير واحيانا ببضعه آلاف (2) واذا ما اعتبرنا ما في هذه الامثلة المروية من مبالغات و شذوذ امكننا ان نعرف ان معدل سعر الغلام الجميل كان قريبا من معدل سعر الجارية الوسيمة .

ومن الرقيق النفيس بسبب اتخاذه لغرض المتعة الخصيان الذين يقتنيهم الخاصة من الناس لما يتصفون به من جمال او لحراسة الحريم وسواء أتعلق الامر بهذه المهمة او ذلك فالغاية هي توفير اللذة لاهل الترف والبذخ وقد يتطور امرهم بعد ذلك فيستأمنون على مهام عسكرية او سياسية في الدولة.وقد وصف الجاحظ جمال الخصيان المحبب الى النفوس في عهده فقال ((وذكرت

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بيروت
(في 25 جزءا) 1964 ـ ج
2) المصدر نفسه ج 23 ص 31 و ج 20 ص113

الخصيان وحسن قد وهم ونعمة ابشارهم والتذ بهم وان ذلك شيء لا تعرفه الاوائل)) وقال ايضا ((لانك ترى الخصي وكأن السيوف تلمع في وجهه وكأنه مرآة صينية وكأنه قضيب فضة قد مسه ذهب وكأن في وجناته الورد)) (1) وكانت هذه الوسامة سببا في ارتفاع اثمان الخصيان كما كانت صعوبة اجراء عملية الخصاء وندرة نجاحها سببا ثانيا في ارتفاع هذه الاثمان . وقد اعتبر الثمن الذي اشتري به الخصي كافور الاخشيدي سنة (312 هـ/ 924- م) وهو ثمانية عشر دينارا ثمنا منخفضا بالنسبة الى اثمان الخصيان الشائعة في ذلك العصر وخاصة ذي الجمال منهم (2) وفي الجملة كان ثمن الخصي في العالم الاسلامي اضعاف ثمن العبد العادي شأنه في ذلك شأن ثمن الخصي في بيزنطة حيث كان يقدر باربعة اضعاف ثمن العبد العادي (3) وقد اعتبر الفقهاء قيمة الخصي في احكامهم المتعلقة بغصب الرقيق فرأوا ان الغاصب لعبد اذا ما خصاه بعد غصبه ولم يؤثر الخصاء

1) الجاحظ - مفاخرة الجواري والغلمان - الرسائل ج 2ص123
2) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج - 1 - ص 297
3) بروفنسال Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 2ص122-130

في صحته لم يعتبر ذلك عيبا في المغصوب ولم يطالب الغاصب به عند ارجاعه الى مالكه وهذا شعور منهم بان الخصاء يزيد في قيمة الرقيق ولا ينقص منها (1).

ج- عامل الاختصاص

واذا ما كانت صفة الجمال عاملا من عوامل ارتفاع اثمان الرقيق فان مستوى الرقيق الثقافي او المهني او الفني يعتبر عاملا آخر في ارتفاع هذه الاثمان (2) وبما ان اصناف المهن والفنون والمعارف ليست ذات قيمة واحدة بالنسبة الى المجتمعات المختلفة بل تختلف باختلاف حاجتها اليها وراجها فيها كانت قيمة الرقيق تتفاوت حسب نوع المهنة او الفن الذي يختص فيه. ومن ابلغ الصور على هذا التفاوت ما رواه الاصفهاني من تقدير ابن خريم لقيمة نصيب الشاعر بمحضر الامير عبد العزيز بن مروان وهي صورة تفيدنا من حيث وجود هذا التفاوت في شتى العصور ولاعبرة بالاسعار المذكورة فيها من حيث هي لانها مستمدة من فترة زمانية سابقة لهذا العصر. وقد جاء في كتاب الاغاني ان ثمن العبد يختلف باختلاف صناعته فالعبد الذي لاصناعة له يساوي مائة دينار فاذا كان راعيا للابل يحسن

1) خليل بن اسحق - المختصر - ص 264

2) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية

مقال عبد ج 1 ص 33 موريس لومبار - الاسلام في عظمته الاولى

ص 194 - 204

الغيام عليهـا تعـدر قيمته بما ئتي دينار فاذا كـان عارفا بصناعـة النبـــال والقسي "يبـاع باربعمـائة دينـار فاذا كان يحسـن روايـة الشعـر صارت قيمتـه ستمائـة دينـــــار (1) .

وقـد لا حظ الاصطخري ان ثمـن العبـد المختص في صناعـــة ما قـد كـان مرتفعـا في عصـره (2) كمـا يـلاحظ البكـري ان الطباخـات السودانيات الماهـرات تباع الواحدة منهن بمائـة مثقال من الذهب واكثـر (3) ولا غـرو في ذلـك فاليـد العاملة المختصـة هي الى اليوم ارفع ثمنـا من اليـد العاملة غيـر المختصـة . وطبيعي ان يكـون الرقيـق الحاذق لحرفة من الحرف اغلى سعـرا من غيـره لانـه اكثـر مردودا او انتاجـا واقـدر على توفير الربح لما لكيـه في المجال الاقتصادي وعلى توفير الراحـة والمتعـــة لهـم في مجـال حياتهـم الخاصـة. ومن الصناعـات التي ترفـع من مكانة هذا الرقيق روايته للشعـر واجادتـه للغناء . ولذلـك نجـد الغلام ((زيـــاد)) يبـاع في العـرن الثالثة للهجـرة بعشـرين دينارا أو نحـوهـا (4) بينمـا يشتري ابـو سعيـد الثغري لابي تمـام الطائـي الشاعر المشهور غـلامـا يدعى ((الفتح)) بثلاثمائة دينار لينشد شعره (5) وتسوق لنا المصادر امثلـة كثيرة تدل على ان الرقيق المولـد ، اي الذي تلقى تربيـة وتكوينـا ملائمـا للـوسط العربي الاســـلامـي وتثقـف بثقـافة ذلـــك

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بولاق 1285هـ
في (20 جزءا) ج 1 ص 133 زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 44 46
2) الاصطخري ـ المسالك والممالك ص 37 نجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ص 114 ـ 115
3) البكري ـ المغرب ص 158
4) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة 1964 ج 20 ص 286 ـ 287
5) المصدر نفسه ج 20 ص 113

الوسط وتخلق باخلاقه احب الى نفوس الناس من الرقيق الذي احتفظ بعجمته وعاداته وتقاليده الاجنبية وكان بالتالي ارفع قيمة واغلى ثمنا .

واذا ما اجتمع الحذق في صنعة الغناء والجمال الفائق في شخص جارية او غلام تضاعف الثمن وازدادت القيمة ارتفاعا خصوصا اذا علمنا ان الغناء كان يعتبر في هذا العصر من انفس الصنائع وارقاها لما فيه من معرفة بالشعر والالحان وجودة الصوت ولما عرف به المجتمع العربي المسلم من تفضيل للفنون والعلوم على سائر الصنائع (1) ومن تهافت في هذا العصر على مواد الترف وادواته . وبذلك صارت اثمان القيان اوفع اثمان المرقيق المؤنث بدون استثناء لان الجارية المولدة اثمن من الجليبة (2) ولان القينة تجمع عادة بين جمال الجسد وجمال الصوت فضلا عن ثقافتها في ميدان الشعر والادب والغناء .

ويمكننا ان نقدم صورة وجيزة عن اثمان هؤلاء القيان الشهيرات او ((الكواكب)) بلغة اليوم مشيرين الى ان مقتنيهن كانوا في الغالب من الخلفاء

---

1) ابن خلدون - المقدمة - طبعة بيروت ص 430

2) زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 29

والامـــراء والوزراء وكبـــار الاثريـاء من التجار والى ان هـذه الاثمان لا يمكـن ان تكـون عامـة بالنسبـة الى كـل القيان . فمما يـروى فـي هـذا الصـدد ان الخليفـة الواثق (227-232هـ/ 842-847م) اشتـرى الجارية المغنيـة ((قلم الصالحية)) من كـاتبـه صالح بن الرشيـد بعشـرة الاف دينـار (1) وطلب الخليفـة المعتصم العبـاسي (218- 227 هـ/ 833-842م) من محمـود الوراق احـد كبـار النحاسين ان يبيعـه قينـة بسبعـة آلاف دينـار فامتنـع (2) ودفـع اسحق بن ايوب في ((بـدعـة)) مائـة الف دينـار فرفضت مـولاتهـا بيعهـا (3) واشترى ابن رائق امـير العراق قينـة سنـة (325هـ/ 937- م) بثلاثـة عشـر الف دينـار واعطى العالمـين دلـه طيهـا حسب رواية ابن الجوزي.اما الصولـي فيقـدر السعـر باربعـة عشـر الف دينـار فاستعظم الناس ذلـك (4) واشترى المأمون (198-218هـ/ 813-833م) ((غريب المغنيـة)) بخمسـه الاف دينـار (5) وعـرضت على هـذا الخليفـة نفسـه قينـة ساومـه التجـار في ثمنهـا

---

1) الاصفهـاني-الاغاني-طبعة بيروت 1964
ج 13 ص348 زيدان تاريخ المدن الاسلامي
ج 5 ص119 120
2) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد-طبعـة القاهـرة-1931 ج 13 ص 38
3) السيوطي ـ المستطرف في اخبار الجواري-طبعة القاهرة - بدون تاريخ ص 13
4) ابن الجوزي ـ المنتظم ـ ج 6 ص391 آدم متز الحضارة الاسلامية-ج 1-ص 298
5) النويري ـ نهاية الارب ج 2 ص 6 ـ الاصفهاني الاغاني ـ طبعـة بيروت 1964 ج 21 ص 75

بالفي دينار فقال المأمون : ان هي اجازت بيتا اقوله ببيت من عندها اشتريتها بما تقول (1) وروي ان صالح بن الرشيد اشترى ((نيران)) من احد النخاسين بثلاثة الاف دينار (2) وكثيرة هي القيان اللائي وقع شراؤهن بمبالغ باهضة مثل ((حبشية جارية عون)) التي يقول عنها الجاحظ انها بلغت من الثمن مائة وعشرين الف دينار (3) كما بلغت قيمة احدى الجواري المغنيات سنة (300هـ/ - 912 - م) مبلغ ثلاثين الف درهم وبلغت قيمة قينة اخرى سنة (330هـ/ - 941 - م) مبلغ سبعة آلاف درهم (4) .

وما من ريب في ان هذه الامثلة بقطع النظر عن صحة المبالغ المروية تصور لنا ارتفاع اثمان القيان في هذا العصر حتى ان بعضهم مثل صالح بن عبد الوهاب قد اشترى ضيعة بثمن جاريته قلم الصالحية (5) ومهما يكن من امر فان الف دينار والفي دينار تعتبر سعرا عاديا بالنسبة الى الجارية المغنية (6) وهو سعر

---

1) السيوطي - تاريخ الخلفاء - طبعة القاهرة - بدون تاريخ ص 323
2) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 ج 20 ص 28 و 29
3) الجاحظ كتاب القيان الرسائل ج 2 ص 177 . 178
4) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 226 - 228
5) الاصفهاني - الاغاني - طبعة بيروت 1964 ج 13 ص 349 . 350
6) آدم متز A HEZ - الحضارة الاسلامية ج - 1 - ص 298

يساوي اضعاف ثمن الجارية غير المتعلمة فقد تشترى الجارية بمائة دينار فاذا تعلمت وحذقت فن الغناء بيعت بخمسمائة او الف او الفي دينار او اكثر من ذلك احيانا (1) وفي ذلك بيان للفرق بين اثمان سائر الجواري واثمان القيان . وقد كان كذلك الشأن بالنسبة الى قيمة الجواري المغنيات في غير هذا العصر من العصور الموالية فهذا ابن بطوطة يصف لنا شراء اهل ((تاكدة)) ببلاد السودان وكثرة رقيقهم ويقول انه من النادر ان تجد منهم من يبيع رقيقا مثقفا واذا حدث ذلك فباثمان باهضة جدا (2).

4) معدل اثمان الرقيق

لكن اسعار الرقيق الممتازة تقدم لنا صورة شاملة عن اسعار الرقيق في هذا العصر وخاصة الرقيق العادي المستعمل في الخدمات المنزلية والفلاحية والتجارية وفي شتى انواع الصنائع وكذلك الرقيق المستعمل في الخدمات

---

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بولاق 1285 هـ ج 3 ص154 زيدان-التمدن الاسلامي-ج 5ص30
ابن القيم الجوزية ـ اخبار النساء ـ ص 113ـ114
2) ابن بطوطة-الرحلة ج 4 ص 439 ـ 440 كوك 1905 منتخبات ص 324 ـ 378
2) Sanguinette et Defrémery - voyages d'Ibn Batouta Paris 1859-1864 (4 Volumes)
ـ Ismaël-Hamet- Chronique Mauritanie sénégalaise -P 110

العسكرية . ولا يخفى اهمية هذا النوع من حيث الكم اذا كان للنوع الاول اهمية من حيث الكيف والواقع ان اسعار الرقيق النفيس تعتبر اسعارا شاذة بالنسبة الى سعر الرقيق العادي (1) وهي فضلا عن ذلك ليست في متناول كافة طبقات المجتمع . كما ان انخفاض اسعار بعض الرقيق في حالات خاصة وظروف استثنائية يعتبر ظاهرة شاذة ايضا لا يمكن الاستناد اليها لمعرفة السعر العادي لهذه البضاعة المتداولة بين الناس .

وفي هذا ما يدعونا الى التساؤل عن ثمن العبد العادي او الامة بقطع النظر عن الاختلافات التي اشرنا اليها سابقا بين اصناف الرقيق ودون اعتبار ايضا للحالات الاستثنائية وتنوع الاسواق في البلاد الاسلامية . والملاحظ ان هذا الثمن لم يكن يختلف في اغلب الاحيان عن ثمن بعض الدواب كالبغال مثلا فبأسواق عمان كان يدفع في العبد الزنجي ما بين خمسة وعشرين وثلاثين دينارا وهو نفس السعر المستعمل ببيزنطة في هذا العصر (2) وقد راينا سابقا ان الصاحب بن عباد لما دفع

---

1) موريس لومبار - M. Lombard
الاسلام في عظمته الاولى ص194 ــ 204 ــ برنشفيك Brunschvic
دائرة المعارف الاسلامية - مقال عبد ج 1 ص 33

2) آدم متز A MEZ - الحضارة الاسلامية ج1 ص 297

في عبد نوبي اربعمائة دينار استكثر الناس ذلك (1) وقد بيع كافور الاخشيدي بثمانية عشر دينارا سنة (312هـ/-924- م) بالرغم من كونه خصيا كما راينا (2) وقد بيعت جارية سندية حبلى خلال القرن الثالث للهجرة بعشرين دينارا فلما اراد والد الجنين ان يشتري ابنه بعد ان زنا بالامة طلب قوم الامة في الولد خمسين دينارا (3) وروي عن اسحق للموصلي انه اشترى غلامه الخلاسي ((زياد))بعشرين دينارا او نحوها (4)

ونحن نظفر بامثلة عديدة حول الاسعار المتداولة للرقيق العادي في هذا العصر وهي اسعار متقاربة في الجملة وتمثل بضعة عشرات من الدنانير.ففي سنة (282 هـ/ -896- م) تورد المصادر اخبار غلام بيع ببغداد بثلاثين دينارا (5) وعرضت

1) المرجع نفسه
2) المرجع نفسه
3) الاصفهاني - الاغاني.طبعة بيروت 1964
ج 14 ص 183
4) المصدر نفسه ج 20 ص 236 237
5) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 226- 223

جـاريـة ((ساذ جـة)) للبيـع في عهـد الامـام احمـد بن حنبل فكانت قيمتهـا ثلاثيـن دينـارا (1) وقـد يـرتفـع هـذا الثمن العادي لسبب من الاسباب تتعلق بالبضـاعـة او بمشتريهـا الى مائة دينار او اكثـر من ذلك او اقـل ولكن دون ان تصـل الى مبالغ باهضة جدا كمـا راينـا في حديثنـا عن الرقيق الممتاز ومن هـذه الصور مـا روي من ان احد تجار مصـر في عهـد احمـد بن طولـون (254 - 270 هـ/ 868 - 884 م) قـد اشترى غـلامـا بمائتي دينـار (2) وفي الجملة وفي غير هاته الحالة كـان الثمن المتعارف للرقيق العادي يتراوح بين ثلاثيـن وستيـن دينـارا أي مـا يقـابـل الـدخـل الادنى الشهري لصانع من صنـاع بغـداد (3)

فهـذه الامثلـة يمكن ان تقارن باسعار الدواب فـي هـذا العصـر ويكـون لهـا اذاك من الدلالـة مـا يفيـد ان المشتري لعبد او ناقـة او بغل او حمار كـان يـواجه تكـاليف متقاربـة وانـه في كل هـذه الاحوال انما يقتني ادوات خدمة او انتاج .....

1) ابن قـدامـة ـ المغني ـ ج 4 ص 223

2) البلوي ـ سيـرة احمـد بن طولون ص 213 ـ 221

3) نجاة بـاشـا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ص 114 ـ 115

متشابهة القيمة . فمن اخبار بيع الدواب بالعراق في القرن الرابع للهجرة ان ثمن الناقة كان حوالي ثلاثمائة درهم (1) وقد بيع حمار سنة (329 هـ/ -940 - م) بعشرة دنانير (2) وقد ترتفع اثمان الدواب الجيدة كما يرتفع سعر العبيد الممتازين فابن حوقل يذكر لنا ان البغال الجيدة بميورقة كان يباع الواحد منها بثمن يتراوح بين مائة وخمسمائة دينار (3) وروي ان حصانا اصيلا لبكجور مولى الامير سيف الدولة الحمداني (332 - 356 هـ/ 944 - 967 م) قد بيع سنة (381 هـ/ -991 - م) بمبلغ الف دينار (4) .

فهذه الامثلة وغيرها من اسعار الدواب في صورة انخفاضها او ارتفاعها يمكن ان تقارن باسعار الرقيق مع اعتبار علاقة الدراهم بالدنانير في قيمتهما المالية المتغيرة (5) ويمكن ان نستنتج منها معدل السعر المتداول بالنسبة الى الصنفين وهو يكاد يكون

---

1) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 226 - 228

2) المرجع نفسه

3) ابن حوقل - صورة الارض - الترجمة الفرنسية ج 1 ص 114 بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص 285

4) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 226 - 228

5) كان صرف الدينار في النصف الاول من القرن الثالث للهجرة يساوي خمسة عشر درهما (انظر دائرة المعارف الاسلامية مقال - درهم ودينار)

واحـدا كمـا نرجـح انـه كـان في متنـاول الطبقـات المتوسطـــــة من المجتمـع خصوصـا اذا اطلعنـا على اسعار الاقوات والمواد الغذائيـة في هـذا العصـر. ففي ايام قـدامـة بن جعفـر مثلا كـان ثمن الكـــر من الحنطـة والشعيـــر بالعراق ثلاثيـن دينـارا (1) ويمكننا القول بان دخـل ابنـاء الطبقـة المتوسطـة يمكنهم من اقتنـاء الخـدم فـنـــي منـازلهـم وحقـولهـم ومتاجرهـم و ورشاتهـم دون ان يحـدث ذلـــك ضيقـــا في مستـوى عيشهـم لكن ابناء الطبقـة الضعيفـة التي تجـــــد عسـرا في اقتنـاء الاقـوات لم يكـن بوسعهـــا اتخـــــاذ الخدم مـن العبيـــــد او الامـــــاء .

---

1) الكر العراقي يساوي اربعين اردبـا (انظر زبـدان-تاريخ التمـدن الاسلامي ج ص 70 ــ 71)

الباب السادس

اهل السوق
والبياعة والشراة

الفصـــــــل الاول

النخـاســـون

النخاسون

1) النخاسة

النخاسون تسمية اطلقت على تجار الرقيق كما سميت تجارتهم بالنخاسة على وزن فعالة المستعمل للدلالة على الحرف والمهن المختلفة. والاصل في النخاسة حسب ما جاء في لسان العرب تجارة الدواب فيقال للتاجر الدواب نخاسا. ثم شملت التسمية تاجر الرقيق فقيل له نخاسا ايضا وان كان الاغلب في الاستعمال الدلالة على بائع الدواب (1) وواضح انّ هذا التطور في مدلول الكلمة راجع الى وجوه الشبه الموجودة بين هذين النوعين من التجارة.

ويحتاج تاجر الرقيق او النخاس الى معرفة بأسرار مهنة النخاسة والى ضرب من التجربة في ممارستها وربّما الى اختصاص في بعض المعارف الصالحة للنجاح فيها وهي معارف نشأت عبر العصور من مجموعة من التقاليد والتجارب والعادات ونمت بفضل بعض العلوم ايضا . فمن ذلك ضرورة معرفة النخاس للعلل والامراض التي يمكن ان تصاب بها بضاعته حتى يمكنه الاحتياط لها وحتى يتسنى له تحديد قيمتها في البيع والشراء والتمييز بين الجيد والرديء من الرقيق على الصعيدين النفسي والجسدي (2) كما يحتاج الى معرفة بالاجناس البشرية وقدرة على التميز بينها وما يرغب فيه الناس منها. وعليه ايضا ان يعلم خصائص الرقيق المهنية ويدرك مستواه في الصناعة او الحرفة التي يتعاطاها حتى يمكنه ضبط ثمنه وتحديد قيمته .

1) ابن منظور ـ لسان العرب ـ

2) ابن الاخوة ـ معالم القربة ـ ص 152. 153

وهكـــذا يتضـح ان مهنـة النخاسـة يشترط فيهـا تكـويـن معيـــن لصعـوبـة ممـارستهـا فيحتاج صاحبهـا الى بعض المعارف الطبية والمهنية والى الاخذ بطرف من علم كـان له رواج في تلك العصور هو علم الفراسة الذي يستدل به على احـوال الرقيـق النفسية ويستعان به على معرفـة جنسه وكـذلك علم القيافـــة الذي يستخـدم في التعرّف على العلاقات النسبية بين الرقيـق . ولقد تبيّـــن لنـا من خـلال الفصـول السابقة انّ النخاسين قد كـانـوا ملمّيـن ببعض المعارف الصيدليـة من خـلال معرفتهـم بانواع العقاقيـر والمساحيـق وطريقـة المـزج بينهـا لكـي يقـع استعمالهـا في تحميـل الرقيق الذي يعرضونـه بالاسواق وفي علاج العلل او اخفائهـا عن المشترين (1) .

وقـد مهـر النخاسـون في هـذه الفنـون ولكنهـم استعملـوهـا غالبـا كـا رايـنـا لغايات الغش والتضليـل اكثـر من استعمالهـا في صالح المشتريـن وهذا مـا حمـل رجال الدين من فقهـاء ومحتسبين على اشتراط صفة الامـانة والثقـــة في النخاس ونبّهـوا الى ضـرورة مراقبتـه في مهنتـــه (2) وتـدل هـذه العنايـة بسلوك النخاس على انـه كـان محـلّ شكّ وتهمـة وهـذا مـا يدعـونـا الى الحديث عـن قيمـه النخاس الاجتماعيـة فمـا هي النظرة السائدة في مجتمع هذا العصـــر الى شخصيـة النخـــــاس ؟ .

---

1) السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 47 . 51

2) ابن الاخـوة ـ معالم القربة ـ ص 152 الونشريسي- المعيار ـ ج 8 ص 226 (فتوى ابي عمران الفاسي (ت 430 هـ/ 1038 م))

أ- قيمة النخاس الاجتماعية

وقد اشتهر النخاس في الاوساط الاجتماعية الاسلامية بسمعة معينة وذلك انه كان موضع تشنيع كتاجر الحبل (1) ومحل ازدراء واحتقار رغم الحاجة الى خدماته ورغم المكانة التي يحتلها في المجال التجاري . وصارت كلمة " نخاس " تستعمل بمعنى أحد نعوت الشتم والثلب . فقد روي ان محمد ابن الاشعث صاحب شرطة مصر شتم من على المنبر احد القواد قائلا " النخاس الكذاب " (2) ويعتبر الجاحظ النخاسين من شرار الخلق مرجعا ذلك الى طبيعة المهنة فيقول " وكما ان اصحاب الخلقان (3) والسماكين والنخاسين والحاكة في كل بلد من كل جنس شرار خلق الله في المعاشرة والمعاملة معلما بذلك ان ذلك خلقة في هذه الصناعات ونشء في هذه التجارات حتى صاروا من بين جميع الناس كذلك " (4)

---

1) ادم متز . A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج - 1 - ص 304
2) المرجع نفسه - الكندي - الولاة - ص 434
3) هم باعة الثياب القديمة جمع خلق وهو البالي
4) الجاحظ - مناقب الترك - رسائل الجاحظ ج 1 ص 52

ومن اسباب استقرار هذه النظرة ما عرف به النخاسون من انتهاك لحرمة الاخلاق ولتعاليم الدين واستعمالهم لشتى وسائل الخداع والغش في سبيل الاحراز على الثروة. يقول السقطي " فاما هؤلاء فقوم خطبهم جليل وامرهم ليس بالمختصر ولا القليل وذلك انهم يتصرفون بين الانساب والاموال وياتي مفسدوهم بما لا يقتضي الشرع ولا تقره نفس مؤمن ولا ترتضيه بحال ولهم في شانهم خدع ومكر يعاملون الناس بها ويداخلونهم بحسبها " (1) فالرأي العام يوجه اليهم اتهامين على الاقل اولهما التحيل في ممارسة تجارة الرقيق بما يدر عليهم الاموال، حتى ان رجال الدين كانوا ينظرون الى ارباحهم باحتراز كبير بل ان العامة انفسهم ليستقبحونها ويعتبرونها من باب الكسب الحرام. ولعل هذه النظرة لم تكن خاصة بالمسلمين وحدهم ولا مقصورة على هذا العصر الذي ندرسه بل هي نظرة نجدها عند رجال الكنيسة منذ القديم وقد حدثنا البكري عن كنيسة قائمة في عصره على الطريق الرابطة بين مصر وبرقة يقال لها " ابامينى " قد رسم على جدرانها

---

1) السقطي ــ آداب الحسبة ــ ص 47 ــ 50

صورة تاجر الرقيق ورقيقه معه وبيده خريطة مفتوحة الاسفل وهي تعني ان تاجر الرقيق لا ربح له (1) ولهذه الصورة دلالة رمزية وهي لا تعني خسارة النخاس في ميدان التجارة وانما تدل على ان مكاسبه تذهب سدى لانها من أبواب الحرام. واما الاتهام الثاني فهو فساد الخلق بمخالطتهم للرقيق المؤنث وللغلمان مما يجعلهم محل شبه اخلاقية عديدة كممارسة الزنا والفاحشة او التوسط للغير في ممارسة البغاء السري ، وقد رايدا في الفصول السابقة كيف كانوا يتواطؤون مع " الاميلة " بالاسواق على تجاوز حدود الشرع في البيوعات.

كانت لهذه السمعة اذن صلة بسلوك هؤلاء التجار في واقع معاملاتهم مما دعا رجال الحسبة الى التشدد في مراقبتهم والى اشتراط جملة من الخصال الاخلاقية في متعاطي هذا النوع من التجارة كالامانة والعفة والصيانة فذكروا انه " ينبغي الا يتصرف في سمسرة العبيد والجواري الا من ثبتت عند الناس امانته وعفته وصيانته وان يكون مشهور العدالة لانه يتسلم جواري

---

1) البكري ــ المغرب ــ ص 3

الناس وغلمانهم وربما اختلى بهم في منزله . . . " (1) لكن النخاسين الذين كانوا محل انتقاد من حيث سلوكهم وربما احتقار من اجل تهافتهم على الربح متوخين في ذلك انتهاك القيم الخلقية قد كانوا محسودين من حيث غناهم وثروتهم (2) بل الغريب انهم كانوا موضع تزلف من قبل الناس بسبب هذه الثروة .

وقد يجتمع الجاه مع المال لدى النخاس فترتفع قيمته الاجتماعية بحكم ارتفاع قيمة البضاعة الموجودة بين يديه اولا اذ لا جدال في ان قيمة التاجر مرتبطة بقيمة بضاعته في نظر الناس وثانيا بحكم تعامله مع طبقة معينة من الوجهاء ونحن نعني بالقيمة هنا منزلته في السلم الاجتماعي وانتماءه الى فئة محظوظة من الفئات الاجتماعية . ولا ريب في ان اغلب النخاسين قد عاشوا في نعيم وترف وامكنهم ان يخالطوا علية القوم بحكم مهنتهم وهي مهنة كبار التجار . فكان الكثير منهم على صلة وطيدة بالبلاط ومعرفة بشيء غير قليل من اسراره اما بصورة مباشرة اوعن طريق جواريه وغلمانه . ومن كانت هذه

---

1) ابن الاخوة ــ معالم القربة ــ ص 152ــ153

2) برنشفيك ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ مقال عبد - ج 1 - ص 33

حالـه لم يقف دون تحقيق ايـة رغبـة يصبو اليهـا مـا دام بيـده المـال الوفير والجـاه العريض وكان محط آمـال من يحيطون بـه ومحسودا فـي نظر العوام ، ثـم لا يخفـى ان من كان منهم مالـكا لحسان القيـان ورائعـات الجواري يصبـح من المرغوب في مخالطتهـم والاتصال بهم لمـا في حوزتهـم من بضاعـة مغريـة ، وقد ساهمت كـل هـذه الاعتبارات في جعل مهنـة الدخاس من اهـم المهن في المدن الاسلاميـة .

وقد وصف لنا الجاحظ المنزلـة التي يتمتـع بهـا الدخـاس " المقين " اي بائـع القيـان ومربيهن فـي الوسط الاجتماعي الـذي يعيش فيـه . فبين لنـا حرص الخاص والعام على ربط الصلـة معـه وزيارتـه فـي بيتـه ومجاملتـه عنـد الحاجـة وتملقـه اذا استدعى الامر بالهدايـا والتحايـا مما يجعل لـه كثيرا من الدالـة علـى معاشريـه ومما يعلي من مقامـه فـي نظرهـم .وقد شبـه الجاحظ هذا النوع من الدخاسين بالخليفـة لانـه محل تقديـر وتملق يقـول في ذلك (1):

---

1) الجاحظ ـ رسالة القيان ـ رسائل الجاحظ ج 2 ص 177ـ178

" ومن فضائل مالك القيـان ان الناس يقصدونـه في رحلـه بالرغبـة كمـا يقصد بها الخلفـاء والعظمـاء. فيزار ولا يكلف الزيـارة ويوصل ولا يحمـل على الصلـة ويهدى لـه ولا تقتضـى منـه الهديـة وتبيت العيون ساهرة والعيون ساجمـة والقلوب واجفـة والاكباد متصدعة والاماني واقفـة على ما يحويـه ملكـه وتضمـه يـده مما ليس فـي جميع ما يبـاع ويشترى ويستفـاد ويقتـنى بعد العقد النفيسـة. فمـن يبلغ من الثمـن ما بلغتـه حبشيـة جاريـة عون مائـة الف دينـار وعشرون الف دينار ؟ . . . ويرسلون الى بيت مالكهـا الهدايـا مـن الاطعمـة والاشربـة ، فاذا جاؤوا حصلوا على النظر وانصرفـوا بالحسرة ويجتني مولاهـا ثمـرة ما غرسوا ويتملى بـه دونهـم ويكفـى مؤونـة جواريـه ، فالذي يقاسيـه الناس من عيلـة العيال ويفكرون فيـه مـن كثـرة عددهـم وعظـيم مؤونتهـم وصعوبـة خدمتهـم هو بمعزل عنـه لا يهتم بغلاء الدقيـق ولا عوز السويق ولا عـزة الزيت ولا فسـاد النبيذ قد كفـي حسرتـه اذا نزر والمصيبـة فيـه اذا حمض والفجيعـة فيـه اذا انكسر ثم يستقرض اذا اعسر ولا يرد ويسال الحوائج فلا يمنـع ويلقـى ابدا بالاعـظام ويكـنى اذا نودي ويفدى اذا دعـي ويحيـا

بطرائف الاخبار ويطلع على مكنون الاسرار ويتغاير الربطاء عليه ويتبادرون في بره ويشاحون في وده ويتفاخرون بايثاره ولا نعلم هذه الصفة الا للخلفاء ".

الا ان هذا الاعتبار الذي يتمتع به الدخاس ليس في الواقع سوى اعتبار ظرفي لانه مرتبط بالحاجة اليه ولانه يتعدى شخصه الى ما يرغب فيه الناس من بضاعته المغرية ولذلك كانت علاقته بغيره قائمة في الاغلب على النفاق والمجاملة للحصول على المرغوب ومشوبة بالغبطة والحسد لما يتمتع به من ثروة رغم ما يعرف عنه من عبث بالقيم . وبذلك يمكننا ان نفهم هذه الازدواجية التي استقرت في الراي العام الاسلامي حول قيمة الدخاس .

ب. ثـروة الدخـاس :

وقد اغدقت تجارة الرقيـق على الدخاسين ثروات طائلـة لان الغنم فيها كان كبيرا في اغلب الاحيان ولان تجارتهم من اربح التجارات بسبب رواج بضاعـة الرقيق في شـتى ميادين الحياة الاقتصاديـة و تـزايـد الطلب لها فـي مختلف الخدمات الاجتماعيـة. وقد كانت ارباحهم ضخمـة خصوصـا اذا تاجروا بالرقيـق الممتاز اي ذلك الرقيق الرفيـع فـي جنسـه وجمالـه وتكوينـه المهـني اوالفـني والثقـافـي (1) وهـو مـن النـوع الذي ترتفـع اثمانـه ويـدر على باعتـه الربح الجزيل ، وقـد كانت الدولـة واعيـة دائمـا بقيمـة هذه التجـارة ودورهـا الفعـال في ميدان الاقتصـاد مما جعلها تولـي عامـلا خاصـا علـى هـذه الشـؤون هو قـيم الرقيـق (2).

ومن اسباب ثـراء الدخاسين علاقـة تجارتهم بظاهرة الترف والبذخ في المجتمعات الاسلاميـة. وقد اشار كل من الجاحظ في كتاب التبصـر بالتجارة والدمشقـي فـي كتاب الاشارة الى محاسن التجارة الـى ان

---

1) نجاة باشا.. التجارة في المغرب الاسلامي ص 114ـ115

2) بروكلمان.. تاريخ الشعوب الاسلاميـة - ج 1 ص 104

الدخاسة هي ضرب من تجارة الترف التي يتهافت عليها كبار الموظفين والاثرياء ورجال البلاط ويرصدون لها الاموال الطائلة لاقتنائها (1) ومن الطبيعي ان تزداد ثروة الدخاسين اذا كانوا من من المزودين للبلاط ببضاعتهم وذلك بسبب كثرة ما يطلبه منها وبسبب ما يدفعون فيها من اثمان باهضة لا تخضع عادة لنظام الاسعار العادية او لحوالة الاسواق .

ولا ريب في ان الدخاسين قد انتفعوا من عاملين هامين في ممارسة هذه التجارة اولهما ما كانوا يتوخونه من حيل وخدع لترويج بضاعتهم واستدرار اكثر ما يمكن من ارباح . وقد شرحنا وسائلهم هذه في فصول سابقة وبينا اساليب الغش التي مهروا فيها والتي مكنتهم من شراء البضاعة بالرخص وبيعها بالغلاء(2) وثانيهما ما اتصفت به اسعار الرقيق من تحرر وقبول للمساومة وعدم خضوعها في حالات عديدة للمراقبة بسبب ممارسة هذه التجارة خارج الاسواق الرسمية . وقد وجد هذا التحرر مساندة على

---

1) الدوري ــ تاريخ العراق الاقتصادي - ص 77 - 79

2) انظر الفصل المتعلق بالغش والتدليس من هذه الدراسة ص 654-670

الصعيد العملي من قبل رجال الدولة انفسهم اذ كانوا يبذلون في سبيل ما يروق لهم من الرقيق الجيد مبالغ خيالية.

ويبدو ان حركة التوريد او الجلب للرقيق هي التي لعبت دورا اساسيا في ثراء " الجلابين " من النخاسين وهم كبار تجار الرقيق الذين يستفيدون من الفارق الموجود بين سعر الجلب وسعر البيع ويبدو ان بعض الاجراءات الجبائية الاسلامية قد ساعدتهم وشجعتهم على عملية التوريد هذه. فقد كان المسلمون والذميون من التجار يتمتعون ببعض التسهيلات بالقياس الى التجار الاجانب اذ كانوا لا يؤدون الا ربع العشر او نصفه بينما يدفع " الحربيون " اي التجار الاجانب العشر كاملا على ما بلغت او تجاوزت قيمته مائتي درهم. كما كان يسمح لهم بتكرار عمليات التوريد مع الاقتصار على دفع الضريبة مرة واحدة في السنة ولم يكن هذا الامتياز شاملا للتجار الاجانب الذين كانوا يجبرون على دفع العشر مع كل عملية توريد. يقول ابو يوسف في كتاب الخراج :

" فاما الحربي خاصة فاذا اخذ منه العشر وعاد ودخل في دار الحرب ثم خرج بعد شهر منذ اخذ منه العشر فمر على

العاشر فانه ياخذ منه اذا كان ما معه يساوي مائتي درهم اوعشرين مثقالا من قبل انه حيث عاد الى دار الحرب فقد سقطت عنه احكام الاسلام " (1) ويزيدنا ابو يوسف توضيحا عندما يقول ان ما يؤخذ من التجار المسلمين هو على سبيل الصدقة في نظر الشرع اما ما يؤخذ من التجار الاجانب فسبيله سبيل الخراج . وان القصد من فرض العشر على تجار دار الحرب هو المعاملة بالمثل مع الامم الاجنبية التي كانت تعشر تجار المسلمين ايضا (2) ولا يخفى ايضا ان نقل التجار لبضاعة الرقيق بين شتى الاقاليم الاسلامية قد كان يوفر لهم فرصا عديدة للفوز بالاسعار التي تناسب طموحهم وتقتضيها حاجة الاقليم الى نوع من الرقيق المتوفر في الاقاليم الاخرى.

لقد ساهمت اذن كل هذه العوامل مجتمعة في تكوين ثروات بايدي اغلب الدخاسين مع وجود تفاوت في ذلك بينهم طبعا شانهم في ذلك شان سائر التجار.وقد امكن للكثيرين منهم ان يعيشوا عيشة

---

1) ابو يوسف ـ كتاب الخراج ـ ص 133
2) المصدر نفسه ـ ص 134 ـ 135

الملوك (1) منذ اقدم العصور اذ يروى ان عبد الله بن جدعان وهو احد مشاهير الدخاسين قبل الاسلام قد كان احد اربعة من قريش يملك كل واحد منهم قنطارا من الذهب (2) اما بالنسبة الى العصر الذي يهمنا فان رحالة كابن حوقل شهد بثراء اهل خوارزم بسبب رواج تجارة الرقيق عندهم وممارستهم لها (3) كما شهد المقدسي بان اهل عدن قد اثروا بفضل تجارة الحبش والخدم (4) ونجد عند البكري شهادات شبيهة بذلك و خاصة بالنسبة الى تجار اودغست (5) وقس على ذلك سائر التجار بمختلف المدن التابعة لشتى الاقاليم الاسلامية.

ولعل من احسن الاوصاف لنعيم هؤلاء التجار وسعة عيشهم هذه العبارات الواردة على لسان الجاحظ حين يقول

---

1) بروكلمان ــ تاريخ الشعوب الاسلامية - ج 1 ص 93
2) ابن الزبير ــ الذخائر والتحف ص 201
3) ابن حوقل - صورة الارض - الترجمة الفرنسية ترجمة كريمر وفيات Kramers et Wiet. طبعة باريس 1964 ج 2 ص 463
4) المقدسي ــ احسن التقاسيم ص 97ــ98
5) البكري ــ المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب - تحقيق دي سلان De Slane الجزائر 1857 ص 158ــ159 و ص 3

فـي وصف بعضهم:" فالذي يقاسيـه الناس من عيلـة العيـال ويفكرون فيـه من كثـرة عددهـم وعظـيم مؤونتهـم وصعوبـة خدمتهـم هو بمعزل عنـه : لا يهـتم بغـلاء الدقيـق ولا عـوز السويـق ولا عـزة الزيت ولا فسـاد النبيـذ قـد كفـي حسرتـه اذا نـزر والمصيبـة فيـه اذا حمض والفجيعـة فيـه اذا انكسـر ثـم يستقرض اذا اعسـر ولا يـرد ويسال الحوائج فلا يمنع ويلقـى ابـدا جبلا بالاعظام ويكفـى اذا نـودي ويفدى اذا دعـي ويحيـا بطرائـف الاخبـار ويطلـع على مكنون الاسرار . . . . " (1) ولا ينبغي لنـا ان نغتر فنعتبـر ان الشـراء الفاحش قـد كان من نصيب كل النخاسين فهم لا شك مختلفون ومتفاوتـون من حيث الدخل شانهم فـي ذ لك شان سائر التجار ، فتجارة الرقيـق الشعبي العادي لا تدر من الارباح مـا تدره تجارة الرقيق الاستقراطـي الجيـد . كمـا ان احوال التجار تختلف باختلاف مقادير الرقيق في الاسواق قلـة وكثـرة وباختلاف تكاليف جلبـه من مصـادره المتنوعـة .

---

1) الجاحظ ـ رسالة القيان ـ رسائل الجاحظ ج 2 ص 177ـ178

ج) انـــــواع النخـاسيـــــــن

أ-تجـار الســـــــوق الداخليـــــــــة

لقـد كـان النخاسـون اصنافـا شأنهـم في ذلك شأن سائـر التجار فمنهـم من يقتصـر على البيـع والشراء بالاسـواق الداخليـة وهؤلاء هـــــم اشبـه شيء بتجار البيـع بالتفصيل بالنسبة الى التجارات الاخـرى. ومنهـم من يتولى مهمة تجارية على نطاق اوسع فينقـل بضاعـة الرقيـق بين مختلف البلاد الاسلاميـة. ومنهم من يتولىّ عمليـة التوريد لهذه البضاعـة من وراء حـدود العالم الاسلامـي. وسبب اختـلاف هـذه الاصناف هـو تفاوت مابأيدي اصحابها من رؤوس اموال تمكنهـــم من الخوض في هـذا الميدان التجـاري .

امـا النـوع الاول من النخاسين فـهـم المقتصـرون على الاسـواق الخاصـة بالرقيـق ويمكن أن نعتبـر من بينهـم كـلّ من لـه مهمـة بهـذه السوق من ((قيّم)) و ((امينـة)) و ((كـاتب)) يسجّـل الصفقـات المبرمـة (1) وكـان هـذا النـوع من النخاسـين يشتـرون الرقيـق من اصحابه ليبيعـوه بثمـن اغلـى ممّـــا اشتروابـه وقـد يكـون لاحـدهـم بيت خاص يعرض فيـه مـا يشتريه لتجارتـــه من الجـواري فتراه مثلا يشتري الرقيـق الواقـع في الميراث ليبيعـه بارباح اكثر(2) وكـان الناس يودعون عبـدهم عند هـؤلاء النخاسين ليبعـوه لهـم بمقابـــل وبذلـك تصبـح مهمّتهـم اقرب الى مهمّـة الوسطـاء السماسرة منها الى مهمـــة

1) بروفنسال ــ تاريخ اسبانيا الاسلامية ج - 3 - ص 314-316

2) ابن القيم الجوزية ــ اخبار النساء ــ ص 113. 114

التجار المالكين لبضائعهم وقد يتولون ايضا بيع ما يجلبه اليهم غيرهم من تجار التوريد. ونحن نجد في فتوى لابن ابي زيد القيرواني ما يدل على طبيعة عمل هذا النوع من النخاسين (1) الذين كانوا يتقاضون اجرة على عملهم سواء ابيعت البضاعة او لم يقع بيعها. وقد وجدت مجادلات كثيرة من قبل الفقهاء في شأن الاجرة التي يتقاضاها هؤلاء الوسطاء كما كان هؤلاء النخاسون السماسرة يعقدون شركات فيما بينهم (2) .

ولا يقتصر هذا الصنف من النخاسين في نشاطهم التجاري على ارتياد الاسواق والمتاجرة فيها، بل اننا نجد لهم نشاطا خارج الاسواق ايضا فكثيرا ما كانوا يعقدون صفقات مع الخواص وكان تعاملهم هذا جاريا في الغالب مع طبقة الخاصة من رؤساء واصحاب جاه وسلطان ومال . اذ كانت عادة هؤلاء ان يكلفوا النخاس مثلا باختيار جارية بعينها من صاحبها فيقوم بربط الصلة بين البائع والمشتري . وقد روى لنا ابن بطلان في رسالته اخبارا تفيد ان بعض الملوك والخلفاء كانوا يكلفون النخاسين ببيع رقيق معين لوزرائهم وولاتهم قصد التجسس عليهم او اغيالهم ويحذر المؤلف بسبب ذلك رجال الدولة من شراء جارية او عبد من رقيق السلطان حتى لا يتعرضوا الى ما يكرهون (3)

---

1) الونشريسي ـ المعيار ـ ج 8 ص 199 . 211 . 212
2) المصدر نفسه ـ ج 5 ص 176 . 177 وج 8 ص 198 . 199
(انظر فتوى ابن ابي زيد القيرواني (ت 386 هـ/ 996 - م)
والقابسي (ت 403 هـ/ 1012 م) وابي بكر بن عبد الرحمان (ت 432
435 هـ/ 1040 . 1043 م) وابي عمران الفاسي (ت 430 هـ/ 1038 م)
3) ابن بطلان ـ الرسالة ـ ص 358 ـ وما بعدها

وليس هذا هو المثال الوحيد الذي يقوم فيه النخاس بدور الوسيط او السمسار فان كتب التاريخ والادب تروي العديد من الاخبار حول توسط نخاس بين صاحب جارية او غلام ورجل من الخاصة متيم يرغب في الشراء ولا يجد اليه سبيلا. وقد يتساءل المرء عن الربح الذي ينتظر النخاس في هاته الحال : انه من غير الممكن ان يقاس بمقياس اسعار السوق اذ لديه مجال متسع للربح في هذه الوساطة لا يقدر الا بمدى الرغبة في البضاعة المطلوبة . وهكذا يصبح هذا النوع من النخاسين اشبه شيء ((بالوكلاء من السماسرة الطوافين)) (1).

ويمكن ان نضيف الى هذا النوع من النخاسين اولئك المغنين الذين كانوا يقتنون الجواري ويعلمونهن الغناء لترتفع بذلك الصناعة قيمتهن ويصبحن من القيان اللائي يقتنين باثمان باهضة . فهم بذلك يمارسون تجارة رابحة اذ يشترون بثمن ويبيعون باخر اكثر ارتفاعا من الاول ويغنمون من تجارتهم ارباحا طائلة فكانوا يجعلون بيوتهم مدارس لتعليم الجواري وتخريج القيان منتهزين بذلك فرصة رواج هذه البضاعة وكثرة طلبها والتهافت عليها من قبل فئات عديدة من مجتمع ذلك العصر (2).

---

1) الونشريسي ـ المعيار ـ ج 8 ص 199. 212

2) ابن قتيبة ـ عيون الاخبار ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ـ دار الكتب المصرية ـ (1348هـ/ 1930 م) ج 10 ص 99. 100

الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بولاق ج 10 ص 135

ب - تجـــار الاقاليـــم

وكـــان من بين النخاسين صنف شان ابلـغ اثرا في ترويج بضـاعـــة الرقيـق واقـدر على ترويـد الاسواق الاسلاميـة الداخليـة بهـذه المادة التجارية ونعنـي بهـم تجار الاقاليم اي اولائك النخاسين الذين ينقلـون الرقيـق من مقاطعة اسلامية الى اخرى ويقومـون بمهمّـة تبادل هـذه البضاعـة الآدمية بين الاسواق والامارات والدول الاسلامية . وقـد كـان هـؤلاء التجار يقصـدون الثغـور ويرافقـــون الغـزاة في حروبهـم ليشتروا منهـم ما يقـع من اسرى وسبي وغنائم ثم ينقلونهـــا الى اقليمهـم الذي انطلقوا منـه ليبيعـوهـا بالاسـواق بأسعـار مربحـــــة وقـد تعـرض الفقهـاء الى الاحكـام التي يحـق للنخّـاس بقتضاهـا شـــراء اسـرى الغنائم ونجـد شـرحـا مفصلا لهـذه الاحكـام عنـد صاحب كتـاب السيـر الكبيـر في فصـل بعنـوان ((باب التجار وغيرهـم ما يحـلّ لهـم من الغنيمة))(1).

ولعلّ المهمّـــة الكبرى التي اضطلـع بهـا هـذا الصنف من التجّـــار هي عمليـة توزيـع الانـواع المختلـفة من الرقيـق بين شتى البلدان الاسلاميـــة من المشرق الى المغرب مخترقيـن بذلـك الحـدود والحواجز الجغـرافيـــة والسياسة التي كانت قائمة بينهـا في هـذا العصـر.فكـان تجار العراق يعقدون عـلاقات تجارية مـربحـة مع البربر بشمال افريقيا واهم ما يطلبونـه منهـم الذهب والرقيـق وكـانـوا يشاركـون مسلمي المغرب في نشاطهـم التجاري ، وقد استقرت منهم

---

1) الشيباني ـــ السير الكبير ـ ح 4 ص 1181

جالية بسجلماسة (1) وكان تجار البصرة والكوفة وبغداد يقصدون سمرقند ويستقرون بها في شكل جالية تجارية ايضا لها دور فعال في تجارة الرقيق (2) وقد اشتهر التجار البصريون بكثرة تجوالهم بين الاقاليم وقد نوه كل من الجاحظ والرحالة ابي بكر الهمذاني بهذه الخاصية عند تجار البصرة كما روي ان خالد بن صفوان وهو بصري قد قال لعبد الملك بن مروان (66 - 85 هـ/ 685-705م) منذ القرن الاول للهجرة مفتخرا بتجارة البصرة ((نحن اكثر الناس عاجا وساجا وخزا وديباجا وبرذونا هملاجا وخريدة مغناجا)) ولذلك سميت البصرة في ذلك العهد ((خزانة العرب)) (3).

والواقع ان نشاط تجار البصرة ليس سوى مثال على نشاط غيرهم من تجار المدن والعواصم الاسلامية الاخرى في مجال ربط العلاقات التجارية بين الاقاليم في شتى انحاء العالم الاسلامي. وفي اقوال الجاحظ وابي بكر الهمذاني ما يدل على ذلك. يقول الجاحظ: ((ليس في الارض بلدة واسطة ولا بادية شاسعة ولا طرف من اطراف الدنيا الا وانت واجد به البصري والمدني)) (4) ويقول الهمذاني في كتاب البلدان: ((وابعد الناس نجعة في الكسب بصري

1) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص 150. 154
2) المرجع نفسه .
3) سعيد الافغاني - اسواق العرب - ص 405
4) الجاحظ - البخلاء - طبعة مصر 1323هـ ص 160

وحميري ومن دخل فرغانة القصى شرقا والسوس الاقصى غربا فلا بد ان يس فيها بصربا او حميريا)) (1) ففي هذين القولين شهادة على نشاط تجار عواصم اسلامية اخرى ويمكن ان نضع في نفس السياق تجوال تجار القيروان ببلاد المشرق وترحال تجار بلاد فارس نحو المغرب والاندلس وقس على ذلك نشاط التجار بسائر الاقاليم وكذلك نشاط وكلائهم بشتى الاقطار.

فهذا احد تجار الري باقليم فارس وهو المسمى محمد بن موسي الراني يرتحل الى افريقية في عهد ابراهيم بن الاغلب (261 - 289 هـ/ 875 - 902م) ويؤم الاندلس سنة (271 هـ/ 884م) مصحوبا بجارية يونانية الاصل متعلمة للغناء والادب وحافظة لدواوين من الشعر الجاهلي والمخضرم والاندلسي وكانت غايته ان يبيعها للامير محمد الاول (238 -273هـ/ 852 -886م) بالاندلس ثم نراه يرجع الى المغرب ويمارس التجارة بسجلماسة ويعود من جديد الى الاندلس ليموت بها سنة(277هـ/ 390 م) (2) وامثال هذا التاجر من تجار الاقاليم كثيرون وقد كان لهم كما قلنا دور كبير في ترويج بضاعة الرقيق ونشرها وتوزيعها بين شتى انحاء العالم الاسلامي

---

1) ابن الفقيه الهمذاني - كتاب البلدان - طبعة ليدن - 1886
ص 51 الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي
ص 133 . 137

2) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية
ج 3 ص 314-317

ح- النخاسون الجلابون

اما النخاسون الجلابون اي القائمون على توريد الرقيق من مصادر خارجة عن حدود العالم الاسلامي فامرهم لا يختلف كثيرا عن سائر تجار التوريد من المسلمين وذلك لانهم لم يكونوا يقتصرون على جلب الرقيق بل كانوا يجلبون معه بضائع اخرى في آن واحد حتى يمكنهم تحقيق الربح واسترجاع تكاليف تجهيز القوافل التجارية وتكاليف السفر خصوصا اذا ادركنا طول المسافات التي يقطعونها وصعوبة المسالك التي يجوبونها وهي مسالك لم تكن دائما مأمونة من الخطر فسواء اكان اتجاههم نحو بلاد السودان بافريقيا او الى الهند والصين او نحو بلاد الخزر والبلغار او نحو سواحل فرنسا وايطاليا وسواء اكان سفرهم برا او بحرا فهم يواجهون صعوبات جمّة وتكاليف باهضة. وقد وصف لنا الرحالة والجغرافيون رحلات القوافل التجارية عبر الفيافي مدة طويلة من الزمن في ظروف قد لا يتوفر فيها حتى الماء أحيانا فضلا عن وجود قطاع الطرق بالسبل البريّة والقراصنة بالمسالك البحرية.

وقد ذكر صاحب كتاب حدود العالم ان التجار بمصر كانوا يقضون ثمانين يوما على ظهر الابل ليصلوا الى بلاد السودان ولا يوجد على طول هذه الطريق الا مكان واحد به ماء وعلف (1) ويصف ابن حوقل الطريق التجارية بين مصر وغانة وهي طريق جنوبية صحراوية عسرة تتعرّض القوافل خلالها الى قطاع الطريق والعواصف الرملية الهوجاء فتهلك في كثير من الاحيان ولذلك

1) مؤلف فارسي مجهول ـ حدود العالم ـ الطبعة الانكليزية ترجمة ـ ف ـ مينورسكي - V. Minorsky
لندن 1937 ص 165

وقع التخلي عن هذه الطريق وصارت القوافل تسلك طريق سجلماسة (1) ويلاحظ الادريسي نفس الظاهرة في وصفه لمجابات عديدة ببلاد السودان قليلة المياه يعسر السفر فيها وتشتد فيها الحرارة (2) ومن هذه المجابات صحراء "نيسر" التي يمر بها المسافرون الى اودغست وغانة وهي صحراء يقضي بها التجار اربعة عشر يوما دون ان يجدوا ماء او يخترقونها في الخريف فيسيرون فحرا الى مطلع الشمس ثم ينيخون في القيلولة لشدة الحر ثم يسيرون بعد العصر الى العتمة ثم ينيخون الى الفجر وهكذا دواليك (3) وكانت التجارة الخرساء التي وصفها لنا المسعودي في غانة واسحق بن الحسين في الحبشة (4) تشكل صعوبة اخرى ايضا اذ يذكر المسعودي ان لاهل غانة حدا لا يتجاوزه من يقصد ارضهم من التجار وعلى ذلك الحد تقع المعاملات التجارية فيضع التجار بضاعتهم ويأتي السودان ويضعون عليها مقابلها من الذهب فان وافق التجار اخذوا الذهب وتركوا البضاعة وان لم يوافقوا فعلوا العكس وان ارادوا الزيادة في الذهب همّوا بالانصراف واذاك يزيد السودان في كمية الذهب وقد يحدث ان يغدر بهم التجار واذاك يلاحقونهم ومن ظفروا به قتلوه .

---

1) ابن حوقل — صورة الارض — طبعة كريمر - J.H. Kramers
ليدن - Leyde - 1938 ج 1 ص 90 . 103
2) الادريسي — نزهة المشتاق — ترجمة القسم الخاص
بالمغرب واسبانيا — دوزي - Dozy - ودي غوية De Goje -J
ليدن - Leyde - 1864 . 1866 ص 161
3) المصدر نفسه — ص 103
4) المسعودي — اخبار الزمان - مقتطفات من ترجمة
يوسف كمال في Monumenta - القاهرة - ليدن — 1926 . 1951
ج 3 ص 629 اسحق بن الحسين - آكام المرجان - الترجمة الايطالية -
كودازي - A. Codazzi - روما 1929 عن كوك ص 29 . 30

فهذه نماذج من الصعوبات التي كان يواجهها تجار التوريد ببلاد السودان وقد كانوا يواجهون اشباهها في متجارتهم مع البلاد الاسيوية والاوروبية وقد وصف ابن فضلان في رسالته نماذج اخرى من هذه الصعوبات في سفرهم الى بلاد البلغار والخزر (1) ولم تكن رحلاتهم البرية والبحرية الى الهند والصين والى جنوب ايطاليا وفرنسا تخلو من مشاق المسافات الطويلة وويلات القرصنة . ولذلك نفهم انه لم يكن من صالح هؤلاء التجار ان يقتصروا على جلب بضاعة واحدة هي الرقيق خصوصا اذا ادركنا ما يكلفهم جلبه من مؤونة وعناية لا تستوجبها البضائع الجامدة واذا علمنا انهم كثيرا ما يتورطون في سرقة رؤوس من هذا الرقيق وتهريبه من بلاده عن طريق الاختطاف وليس عن طريق الشراء متواطئين في ذلك مع اهل البلاد نفسها .

لم يكن اذن امر هؤلاء النخاسين الجلابين يختلف عن امر تجار التوريد لشتى البضائع وكان منطق الربح يفرض عليهم ان يجلبوا مع الرقيق بضائع اخرى هي غالبا التبر المستورد من بلاد السودان وبضائع

---

1) ابن فضلان ـ الرسالة ـ ص 83

التـــرف والتوابـــل المستـــوردة من البلاد الاسويـــة الا انه من واجبـــنـــا ان نعـــرف الى اي حـــد قـــد اعتمـــد النخـاســـون المسلمـــــون على انفسهـــــم في جلـــب الاجنـــاس المختلفـة من الرقيـــــــــق الذي زوّد الاســـواق الاســلاميـة والى اي مـــدى كـانـــت استعانتهـــم بالنخـــــاسين الاجـــانب. ان الجـواب عن هـــذا السـؤال مرتبـــــط في الواقـع بحـــدود الرقعـــة التي انتشـــرت فيهـــا التجـــارة الاســـلاميـة وبالعـــلاقـــات التـــي كـانـــت سائـــــدة اذاك بيـــن العـــالم الاســـلامي وســـائـر بـــلاد العـــالم ومـــن المفيـــد ان نـلاحـظ منـــذ الآن ان النخـاسيـــن المسلمين قـــد بـــذلوا معظـــم جهـود هـم في جلـب الرقيـــق الافريقي والاســـي وان التجـــار المسلميـــن قـد صـرفوا عنـايتهـــم خـاصـة نحـــو الشـــرق والغـــرب والجنـــوب وقلمـــا تـــوغلـــوا في الشمـــال فلـم يكـــن لهـم دور كبيـــر مثـلا في جلب الرقيـــق الاوروبـــي وكـــأنهـم فـــوضـــوا هـــذه المهمـــة الى نخاسيـــن احـانب كـما سوف نـــرى .

3) التخاسون اليهود

أ- اليهود الرهادنة :

ومن اشهر التخاسين الذين قاموا بمهمة توريد الرقيق الاوروبي الى العالم الاسلامي التجار اليهود الذين عرفوا باليهود الرهادنة وقد كانوا من الجلابين للرقيق الصقلبي خاصة ولعل اهم نص بقي لنا عن هؤلاء التجار وعن تنقلاتهم في انحاء العالم المعروف اذاك هو ما نجده في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة الذي وصف لنا نشاطهم في منتصف القرن الثالث الهجري اي التاسع الميلادي وهو يسميهم " الراذانية " (1) بينما يسميهم ابن الفقيه " الراهدانية " (2) وقد اختلف الباحثون حول معنى هذه التسمية اذ يرى " دي غوية " De Goeje ويسانده في ذلك " هايد " Heyd انها تدل على كثرة تنقلاتهم وتعنى " المهاجرين الذين يجوبون البلدان "(3) ويرى " كليمان هوار " Clement - Huart ان كلمة " راهدانية " من الفارسية " راه ـ دان " بمعنى العارف بالطرق والمسالك (4) لكن هذا

---

1) ابن خرداذبة ـ المسالك والممالك ـ ط- دي ميناردB DeMeynard - ص 514-515

2) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ـ ص 252

3) دي غوية - De. Goeje - تاريخ العرب المكتبة الجغرافية العربية ـ الفهرس ص 251
هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق Hist du Com du Levant - ج 1 ص 127

4) كليمان هوار - Cl. Huart - تاريخ العرب ج 2 ص 109 ـ 110

المعنى لا يعيننا على تحديد اصل هؤلاء اليهود اما "باربيي دي ميار" Barbier de Meynard - فيرى انه لقب يدل على اصلهم (1) وقد ارجع هايد -Heyd- نسبة هؤلاء التجار الى الغرب وذلك لان ابن خرداذبة يرسم طرق رحلاتهم من الغرب الى الشرق ثم يرسم خط رجعتهم من الشرق الى الغرب (2) والارجح انهم اصيلو اوروبا الغربية وعلى وجه التحديد من وادي الرون La vallée du Rhône (3) فالتسمية بالرهادنة -Radanites- هي نسبة الى هذا الوادي الذي استقروا به -Rhodanien (4) ثم كون هؤلاء اليهود مجموعات انتشرت على خط نهر الموز La Meuse ونهر الصون - La Saône - والرون - Rhône - وتفرقوا بين مدينة فردان - Verdun - ونربونة Narbonne (5) وتجمعوا في المدن التجارية دون غيرها مثل مرسيليا - Marseille - وآرلس Arles وجنوة Gênes وغيرها من المدن الغربية المشهورة

---

1) باربيي دي ميار Barbier de Meynard - كتاب المسالك والممالك Le Livre des Routes - المجلة الاسيوية - J A - سلسلة عدد 6 ج 5 ص 512

2) هايد -Heyd- تاريخ تجارة الشرق Hist de Com. du Levant - ج 1 ص 127 ــ 128

3) صوردال -Sourdel- حضارة الاسلام القديم - باريس 1968 ص 317 ــ 323

4) المرجع نفسه

5) هايد -Heyd- تاريخ تجارة المشرق Hist du Com du Levant - ج 1 ص 125 ــ 126

بالتجارة اذاك (1) وقد وجدت حاليات يهودية في مدن مقاطعة سكسونيا الشرقية La Saxe orientale مثل مدينة مجديبورغ Magdebourg ومرزبورغ Merzebourg وكان نشاطهم مركزا على تجارة الرقيق (2).

ب. مادة تجارتهم :

وكانت الغزوات الكبرى بالغرب سببا في ثروة هؤلاء اليهود فبينما كانت الشعوب تتحارب كانوا يحيئون ويذهبون دون ان يجلبوا على انفسهم الريبة ويحرزون الارباح الطائلة دون ان يتعرضوا لخطر وكان نشاطهم الاقتصادي يكاد ينحصر في التجارة (3) ولا سيما تجارة الرقيق التي مكنتهم من تزويد العالم الاسلامي بهذه البضاعة ومن ان يكونوا على اتصال مستمر بالمسلمين ووسطاء تجارة بينهم وبين العالم الاوروبي، اذ كانوا يبيعون لهم الرقيق الذي يجلبونه من اوروبا ويستنزون من عندهم بضائع الترف وملحقاته ليبيعوها لملوك العائلة الجرمانية ، ويذكر ابن خرداذبة ان البضاعة التي كان هؤلاء

---

1) المرجع نفسه
2) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 263 - 269
3) هايد Heyd - تاريخ تجارة المشرق Hist. du Commerce du Levant ج 1 ص 125 - 126

اليهود يحملونها من الغرب الى الشرق تتمثل في الخصيان والرقيق المذكر والمؤنث والفراء والسيوف والحرير اما ما يرجعون به من الشرق الى الغرب فالمسك والكافور و الصبر L'aloès و القرفة La Cannelle وغيرها (1) ولم يقتصروا في معاملاتهم هذه على تلك البضاعة بل كانوا يتاجرون ايضا بالبضائع الاسلامية من اقمشة ومنتوجات حريرية وذهب وتوابل وادوية (2).

لقد امكن لهؤلاء اليهود اذن ان يتاجروا بعدد وفير من الرقيق وان يصدروه الى البلاد الاسلامية متحدين بذلك تعاليم الكنيسة ومستغلين العداء القائم بين الشرق والغرب وقد ذكر الاسقف "آجوبار" Agobard. انهم كانوا يسرقون اولاد النصارى الفرنسيين او يشترونهم من آبائهم ويبيعونهم الى مسلمي اسبانيا (3) وروي ان القديس " ادلبارت" Adelbert قد اعتزل منصبه الاسقفي سنة (379 هـ/989م) بسبب عجزه عن عتق جميع المسيحيين الذين اشتراهم تاجر رقيق يهودي (4) وفي هذا

---

1) ابن خرداذبة — الممالك والمسالك. ص 512-515 -(ط - دي ميناردDe Meynard)
2) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص 268 — 269
نجاة باشا — التجارة في المغرب الاسلامي ص 104 — 107
3) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 - ص 301
4) المرجع نفسه .

دليل على وفرة ما بايديهم من هذه البضاعة ، كما كانوا يشرفون على عمليات الخصاء للرقيق حرصا منهم على تلبية ارباحهم فيحملون الرقيق من براغ Prague ويرجعون به عن طريق نهر الرون وقطلونية الى ثغر بجانة بالاندلس حيث يقع الخصاء (1) او بمركز " فردان " - Verdun - الذي كان يزودهم بالخصيان ايضا .

ج-الوساطة بين الشرق والغرب :

ومما ساعدهم على قيامهم بهذه الوساطة التجارية معرفتهم بلغات الشعوب التي كانوا يمرون بها ويتعاملون معها فهم يتقنون لغات الشرق والغرب مما لعب دورا كبيرا في تمهيد السبل التجارية لهم ومن هذه اللغات التي كانوا يتكلمونها العربية والفارسية والروسية والافرنجية والاندلسية والصقلبية (2) ولا غرو فقد كان من اليهود مترجمون رسميون في خدمة النصارى يقومون بترجمة المعاهدات التجارية المبرمة بين المسلمين والمسيحيين الى عصور متاخرة ولدينا امثلة من هذه المعاهدات المبرمة في العهد الحفصي مع السلط الاوروبية وممن اشتهر بترجمة المعاهدات من اليهود المسمى موشي التونسي الذي كان كاتبا لبلدية

---

1) خوان بيرنيط - هل هناك اصل عربي اسباني لفن الخرائط البحرية ص 73 وما بعدها .
2) ابن خرداذبة - المسالك والممالك - ص 92 - و153
زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 40

جنوة باللغة العربيـة سنة (- 666 هـ/ 1267م) وبذلك نفهم ان ممارسـة التجارة قد احوجت اليهود الى معرفـة لغات عديـدة سواء في هـذا العصر او العصور المتاخرة عنـه (1).

ومما سهل على هؤلاء التجار الاضطلاع بهذا النشاط التجـاري الواسع ومكنهم من ان يكونوا مزودين حقيقيين للعالم الاسلامـي بالرقيـق اختصاصهم بعمليات الصرف وغيرها من العمليات البنكيـة المتنوعة خصوصا ان تجارة الرقيق تستدعـي رؤوس اموال عظيمـة وتحويلات نقديـة مستمـرة اضف الى ذلك ان انتشار اهل ملتهم من البلاد الاوروبيـة والاسلاميـة قد مكنهم من الحصول علـى ما شاؤوا من اموال للقيـام بمعاملاتهـم تلك رغـم الحدود والحواجز الـتي كانت مضروبـة بين " دار الاسـلام" و " دار الحرب " (2).

وليس من المستبعد ان يكون هؤلاء اليهود قد تمتعوا بضمانات في نشاطهم التجاري العالمي وذلك على غرار الضمانات التي احرز عليهـا التجار اليهود في عصور متاخرة لسلامـة اشخاصهم وتجاراتهم ومن امثلة

---

1) نجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ص 104 ـ 107
2) المرجـع نفسـه .

هاتـه التاميـنـات ما نصت عليـه المعاهدة المبرمـة سنـة (-758-هـ/1360م) بين مملكـة آراغون والبلاد التونسيـة من بنود تتضمن الالتزام بالسهر على سلامـة التجار اليهود وبضائعهم من قبل الطرفـين المتعاقدين (1) وقـد تحدث الفقهاء في القرن الرابع للهجرة عن احكام الحربـي الذي يدخـل دار الاسلام للتجارة وراوا ان حكمـه هو حكـم المستأمن وحددوا شـروطا لتعاملـه واقامتـه فيها ضمانات لتجارتـه وللمجتمع الاسلامي (2).

ومهما يكن من امر فقـد دخل هؤلاء اليهود البلاد الاسلاميـة في هذا العصر وتنقلوا في شتى الموانـيء والمدن التابعة لبلاد الاسـلام مشرقـا ومغربـا وكان لهم دور وفنـادق واحيـاء يستقرون بها وامكن لهم ان يتجاوزوا حدود دورهـم المتمثل فـي توريـد الرقيق للسوق الاسلاميـة الى الاتصال بالبلاط العباسي والبلاط الفاطمـي خاصـة وصاروا يتعاملـون مباشرة مع ذوي السلطان ويجلبون لهم ما يرغـبون فيـه من رقيق، وقـد كان الامراء والخلفاء مضطرين احيانـا الى التعويل على خدمـات اخرى لهؤلاء اليهود لمتانـة صلتهم بالبلاد الاوروبيـة ولوجود مصارف لهم بالبـلاد المسيحيـة فاعتمدوا عليهـم فـي مهام تبـادل الاسرى مع الروم وفدائهم

---

1) برنشفيك - Brunschvig - دائرة المعارف الاسلامية — مقال عبد - ج 1 ص 33-34

2) كنار - M. Canard - المسلمون وبيزنطة - فصل 12 - ص 54

منهم خصوصا انهم كانوا عارفين بالتقييم المادي للبشر بحكم متاجرتهم بالبضاعة الآدمية (1) وكان هؤلاء التجار يقومون بالمهمة نفسها لدى الملوك المسيحيين وقد واصل اليهود القيام بدورهم هذا الى العصر التركي ومن المعلوم ان يهود " القرانة " بتونس هم الذين كانوا يكلفون بهذه المهمة (2).

وقد اثارت حظوتهم التجارية هذه غيرة العديد من اصحاب مهنتهم من المسلمين حتى هجا بعضهم الملوك والامراء لانهم جعلوا قصورهم اسواقا لتجار اليهود ومن اسباب هذه الغيرة ايضا انهم كانوا من ذوي الثراء الواسع وهم في ذلك لا يقاسون بالنخاسين المسلمين لان اليهود كما هو معلوم من المرابين سواء أتعلق الربا بتجارة الرقيق او غيرها من التجارات في حين كان الربا محرما على المسلمين واذا علمنا ان هؤلاء اليهود كانوا يتعاملون مع نخاسين مسلمين ادركنا كم كانوا يغنمون من هذا الوضع وكيف فرضوا ارادتهم على الاسواق .

وقد اعتمد هؤلاء التجار اعتمادا كبيرا على شبكة متصلة الحلقات من المجموعات اليهودية التي كانت تربط الدورة التجارية بين العالم الاسلامي

---

1) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 1 ص301

2) نجاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي - ص 104 - 107

والعالم المسيحي وهي مجموعات انتشرت بالمغرب والمشرق الاسلاميين ، كما وجدت بها المدن التجارية الاوروبية .وقد امكن لبعض افراد هذه الجاليات اليهودية من ان يلعبوا دورا تجاريا كبيرا في هذا المجال ومن ان يتصلوا برجال الدولة ومنهم من تمكن من تبوأ بعض المناصب السياسية ذات الخطر ، فقد كان بمصر مثلا جالية يهودية على غرار ما وجد في البلدان الاسلامية الاخرى وكان يشتغل بعض افرادها وكلاء للتجار العراقيين وكان منهم يعقوب بن كلس الذي صار وزيرا للخليفة الفاطمي العزيز (365-386هـ/ 975-996 م) وقد كان يهوديا بغداديا بدأ حياته في القاهرة وكيلا للتجار (1) وقد اعتمد التجار اليهود على هذا النوع من ذوي الجاه من اهل ملتهم كما اعتمدوا على ذوي المال منهم للقيام بوظيفتهم التجارية كما سنوضح ذلك فيما يلي .

---

1) عبد العزيز الدوري ــ تاريخ العراق الاقتصادي ــ ص 150 ــ 254

د- رحلاتهم التجاريـــة :

لقد كان لهؤلاء التجار جولات واسفار طويلـة بانحاء العالـــم فـي هذا العصر وقد اشتهر امرهـم باعتبارهم وسطاء بين الشرق والغرب فكانوا يجوبون البر والبحر بانـواع التجارات وخاصـة منها تجارة الرقيـق وكانت الغايـة القصوى لهذه الجولات الهنـد والصين .وقد وصف لنـا ابن خرداذبـة الطرق البحريـة الـتي يمر بهـا هؤلاء التجـــار اليهود (1) فذكر انهـم كانـوا يغـادرون بـلاد الافرنـج بحرا ويصلـون الى " الفرمـا " بمصر ويخترقون السويس فـي خمسـة ايـام ثم يعبـرون بحر القلـزم ويمـرون امـام ميناء " الجار " وهو ميناء المديـنـة وامـام ميناء " جـدة " وهو ميناء مكـة ثـم يتوغلون بعد ذلك فـي المحيط الهندي متجهين نحـو الصين كما كانـوا يسلكون طريقـــا بحريـة ثانيـة فيتصلون بالقـارة الاسيويـة عن طريق مصب نهر الأورونت L'embouchure de L'oronte فيحلون بسوريـا ويذهـبون الى انطاكيـة وحلـب فينزلون عن طريـق الفرات الـى بغـداد مستعملين القـناة الرابطـة بـين دجلـة والفـرات ومن هناك يدخلون المحيط الهندي عن طريـــق دجلـة والخليج الفارسـي .وكان هدفهـم جميعـا هو الوصول الى نهـر

---

1) ابن خرداذبـة ـــ المسالك والممالك - ص 94 وص 153

الهندوس L'Indus اليمروا عن طريقه الى الصين برا (1)

والملاحظ ان اكبر قسم من هذين الطريقين يقطعه هؤلاء اليهود بحرا وعند رجوعهم من الشرق الى الغرب يتبعون هذين الطريقين ايضا لكنهم لا يرجعون جميعا الى فرنسا وانما يقف بعضهم ببضاعتهم في القسطنطينية . وربما كانت لبعضهم سفن تنقلهم على متن الانهار والبحار فضلا عن استقلالهم لبواخر الدول التي يمرون بها فقد ذكر " جريجوار دي تور " - Grégoire de Tours عن احدهم انه كان يملك اسطولا يخترق المسافة من " نيس " Nice الى " مرسيلية " (2) كما كانت لهم سفن ترسو بموانيء " نربونة " - Narbonne - في زمن الكارولنجيين (3) .

ويشير ابن خرداذبة الى الطرق البرية التي يقطعها هؤلاء اليهود في سفرهم الى العالم الاسلامي وذهابهم الى الصين فيذكر انهم ينطلقون من فرنسا او اسبانيا ويخترقون المانيا

---

1) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ص 252 - كليمان هوار - Cl. Huart
تاريخ العرب - Histoire des Arabes - ج 2 ص 109 ـ 110

2) هايد - Heyd - تاريخ تجارة المشرق
ج 1 ص 125 ـ 126

3) المرجع نفسه ج 1 ص 128

والبلاد السلافية ويصلون الى " اتل " عاصمة الخزر على مصب نهر الفلجا ثم يجتازون بحر الخزر - Lamer Caspienne ويقصدون " بلخ " باقليم ما وراء النهر ثم يواصلون طريقهم الى الصين بواسطة بلاد " التغزغز " - OuiGoures - بآسيا الوسطى (1) كما كانوا يسلكون طريقا برية ثانية الى الصين وهي ذهابهم عن طريق مضيق جبل طارق بعد انطلاقهم من فرنسا واسبانيا الى شمال افريقيا ثم سوريا والعراق ومقاطعات بلاد فارس الجنوبية وكرمان الى ان يبلغوا الهند والصين (2)

ويذكر ابن الفقيه ايضا تنقلات هؤلاء التجار الذين كانوا يمثلون همزة وصل بين العالم الاسلامي

---

1) المرجع نفسه ج 1 ص 77
ابن خرداذبة ـ المسالك والممالك - ص 93-

2) المصدر نفسه

وبقيـة انحـاء المعمورة فيحدد لنـا طرقهـم على النحو الذي وضعـه ابن خرداذبـة (1) وقـد امكن لهـم ان يتجولوا فـي الاقاليـم الاسلاميـة مستعينين فـي اسفارهـم بالمجموعـات اليهوديـة المنتشـرة من اسبانيـا الى الصـين لانهـم كانـوا يحتاجون في رحلاتهـم الـى معلومـات جغرافيـة لم تكـن اذاك متوفـرة الا فـي العالم الاسلامـي وخصوصـا فـي النقطـة المركزيـة منـه اي بغـداد (2) ولاشـك ايضـا فـي انهـم قـد استعانـوا بمجموعـات يهوديـة استقـرت بمناطق عديـدة من الغرب واستطاعـوا ان يحلوا بمـدن تجاريـة كبرى مثـل نربونـة Narbonne - ومرسيليـا Marseille - وآرلس Arles - وجنوة Gênes ونابولي Naples - وبلرم Palerme وغيرهـا. (3).

---

1) ابن الفقيـه ـ مختصر كتـاب البلدان ص 252

2) هايد - Heyd. تاريخ تجارة الشرق Hist du Comm du Levant ج 1 ص 127 ـ 128

3) المرجع نفسـه ج 1 ص 125ـ 126

لقد اتضح اذن ان نشاط التجار اليهود قد كان حثيثا في هذا العصر وانهم قد لعبوا دورا كبيرا في تزويد العالم الاسلامي بالرقيق ، لكن الاوروبيين قد بدأوا منذ بداية القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد يستغنون شيئا فشيئا عن وساطة اليهود الرهادنة فصار الكتلانيون والبندقيون والجنويون واهل بروفنسا يمارسون بانفسهم التجارة مع العالم الاسلامي ولذلك نجدهم فيما تلا من عصور يبرمون معاهدات مع الدولة الحفصية مثلا تهدف الى تمكين التجار النصارى من الاستقرار ببعض الموانئ المغربية والاتجار فيها (1).

وهكذا توقف نشاط اليهود الرهادنة بعد ان كان على اشده خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ونفدت

---

1) لوترنو - R. Le Tourneau - المغرب الاسلامي من القرن السابع الى نهاية القرن الخامس عشر - ص 165

L'occident musulman du 7e à la fin du 11e siècle - AIEO - 16 - ALGER - 1958 - P. 165

بضاعة الرقيق الصقلبي التي كانت من اهم بضائعهم (1) وشرع التجار الايطاليون يتعاملون مباشرة مع العالم الاسلامي غير مقتصرين على الناحية المغربية منه كما كانوا خلال القرن الثالث والرابع وانما لفتوا انظارهم نحو المشرق وعقدوا علاقات تجارية مع الفاطميين بمصر وتغيرت بذلك الدورة الاقتصادية بين العالمين الاسلامي والمسيحي او بين الشرق والغرب واتخذت اشكالا جديدة مغايرة للاوضاع التي كانت عليها في هذا العصر ونحن لا نعني بذلك ان المجموعات اليهودية المنتشرة في المعمورة قد انقطعت عن المتاجرة مع المسلمين بل تواصلت معاملتهم معهم الى عصور متاخرة فيهود مرسيليا Marseille وايطاليا مثلا كانوا خلال القرن الثالث عشر للميلاد يتاجرون مع افريقية كما ان يهود افريقية كانوا يتعاملون مع تجار سرديليا - sardaigne - اذاك (2)

---

1) كلود كاهان - Cl. Cahen - الشعوب الاسلامية في التاريخ الوسيط ص 357

2) برنشفيك - Brunschvic - بلاد البربر الشرقية في ظل الحفصيين ج 1 ص 409 - وما بعدها
نجاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي ص 104 - 107

4) الخاسرون الروس

أ- اصلهم الروسي :

كان هؤلاء الروس من اصل اسكندنافي وهم يتالفون من المجموعات السويدية التي نزحت منذ منتصف القرن التاسع للميلاد من السويد وانتشرت على ضفاف خليج فنلندة والبحيرات المجاورة وامكن لها ان تختلط شيئا فشيئا بالصقالبة وتنصهر في جنسهم وقد انشات على طول الطريق التجارية الرابطة بين بحر البلطيق والبحر الاسود والتي يمر بها نهر الدنيبر محطات تجارية وعسكرية ستصبح بعد ذلك مدنا وحاميات للسفن التجارية من غارات البرابرة ومن اشهر هذه المحطات " نوفجرد " NovoGorod و " سمولنسك " SmoLensK و " ليوبتش " Lioubetch و " كييف " Kiev و " بريسلاف " Pereiaslav وقد اشتهر منها في القرن العاشر للميلاد مركز كييف لانه ملتقى القوافل التجارية الاتية من بحر الخزر وبحر " ازوف " AZOV والبحر الاسود ومن اشهر امراء هذا المركز " اسكولد " AsKold و " اولغ " - OLeG - و" ايغور " IGOR وقد بسطوا نفوذهم على صغار الامراء السويديين وكونوا امارة كبرى خلال القرن الرابع للهجرة سميت اذاك امارة روسية لانها استقرت بالارض التي ستنشأ عليها روسيا فيما بعد [1] .

---

1) لويس هالفن - Louis Halphen - البرابرة من الغزوات الكبرى الى الفتوحات التركية في القرن الحادي عشر للميلاد - ص 318 - 320 Les Barbares des Grandes Invasions aux Conquêtes Turques du XI^e Siècle

وقد وصف الجغرافيون العرب ثلاث جماعات من الروس فذكروا امارة "كويابة" وهي "كييف" Kiev واشادوا بنشاطها التجاري وسموا الجماعة الثانية "الصلاوية" وهم السكان الاصليون لنوفجرد Novogorod اي "السلوفيني" Slovenic اما الجماعة الثالثة فهم الارثانية ويعيش ملكهم في "ارثا" Erza ووصفوهم بانهم همج يقتلون الغرباء (1) ويبدو انهم يعنون بهذه الجماعة الثالثة الفرع الشرقي للشعب الفنلندي "موردفا" Mordova وهو الذي يعيش في حوض "سورة" Soura احد روافد نهر الفولجا الى الغرب من "قازان" Kazan ومديريتهم "ارزا" Erza هي التي يسميها العرب "ارثا" (2) ومهما يكن من امر فان دولة اسكندنافية روسية قد نشأت في هذا العصر على يد مؤسسها السويدي "روريك" Rurik واستقرت بجوار منابع الفولجا وسيطرت على روافده وتعاملت مع الشعوب المجاورة له (3) ولذلك نجد الاصطخري وابن حوقل يجعلان الروس بين البلغار والصقالبة ونرى المسعودي في مروج الذهب يطلق على البحر الاسود اسم بحر الروس لانهم الشعب الوحيد الذي يمخر عباب هذا البحر ويعيش على شاطئ من شطانه (4).

---

1) ابن حوقل ـ المسالك والممالك ـ الاصطخري ـ المسالك والممالك ـ الادريسي نزهة المشتاق عن مختبات الاسكندر صايبل A. Seipel ـ اخبار امم المجوس ص 56ـ86

2) مينورسكي ـ V. Minorsky ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية مقال : روس ص 226

3) كليمان هوار Cl. Huart ـ تاريخ العرب Histoire des Arabes ـ ج 2 ص 105 ـ 107 هايد Heyd تاريخ تجارة الشرق Hist du Com du Levant ج 1 ص 60 ـ 61 وص 67 ـ 69

5) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج 2 ص 15 ـ ف ـ مينورسكي ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية مقال روس ـ ص 226

ب- خاصيتهم التجارية :

وكان هؤلاء الروس يسمون " الفاريجيين " Varègues ومعناها التجار لان اهم انشطتهم تتمثل في التجارة اذ لم يكن لهذا الشعب الذي بعد عن موطنه اكثر من الف وخمسمائة كلم ليكتفي بالاستقرار في " كييف " Kiev وانما كانت له اهداف تجارية اوسع من ذلك (1) وقد عرفهم العرب بهذا الاسم ايضا فدعوهم " ورنك " وهو تعريب للكلمة الروسية القديمة Varegue ومعناه "عضو في اتحاد للتجار ارتبط بالقسم " من الكلمة الاسكندنافية " فار " Var اي العهد او العقد وقد وردت هذه التسمية عند ابي الفداء و البيروني وفسرت بانها تدل على الشعب الذي انتشرت مجموعاته من البحر البلطي (البلطيق) الى شمال الصقالبة حتى وصل الى جوار البلغار المسلمين (2) وهكذا بسط هؤلاء " الورنك " Varègues نفوذهم على السلاف وانشؤوا مستودعات محصنة تدعى " جورود " (Gorods) وصارت هذه المستودعات

---

1) لويس هالفن - Louis Halphen - البرابرة ص318-340

2) مينورسكي - V-Minorsky - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية - مقال روس - ص: 228
ابو الفداء - الجغرافية - طبعة رينو Reinaud ص 35
البيروني - التفهيم - طبعة رايت - R - Wright - 1934 - ص 121

بعد ذلك مدنا ذات حضارة في وقت لم يكن الغرب يعرف فيه سوى الاقتصاد الفلاحي (1)

وقد اكد فازيلياف -vasiliev- بحق ان هنالك تماثلا بين النرمان و " الفاراق " varègues الذين انشؤوا اول دولة روسية (2) فالنرمان كانوا يغزون الامبراطورية الكارولنجية والفاراق كانوا يغزون الامم المجاورة لهم وخاصة الامم السلافية وكانوا جميعا غزاة وتجارا في آن واحد ولم يكونوا مجرد قراصنة بل كانوا يسعون الى انشاء قواعد وجاليات تجارية في الخارج وكان من اهم الموانيء التي انشؤوها ميناء " فولين " volin على البلطيق وهو اذاك من اكبر الموانى باوروبا حسب قول مؤرخ عربي (3).

---

1) لويس بريي Louis Bréhier - الحضارة البيزنطية - ص 202
هـ - بيران - H. Pirenne - المدن في العصر الوسيط - بروكسال Brukelles 1927 ص 46-52
ايك - ECK - التجارة المتوسطية بعد الغزو العربي - المجلة التاريخية للجنوب الشرقي الاوروبي - بوخارست 1941 ص 37-38
H. Pirenne - Les villes au Moyen age - Bruxelles 1927 p 46-52
ECK - le Commerce Méditerranéen après l'invasion arabe - Revue Historique du Sud est Européen - Bucarest - 1944 - p 37-38

2) لويس بريي - Louis Bréhier - الحضارة البيزنطية La civilisation Byzantine ص 202 - فازيلياف vasiliev - الهجوم الروسي - The Russian Attack - ص 3 ومابعدها
3) لويس بريي - L. Bréhier - الحضارة البيزنطية ص 203 ايك - ECK - التجارة المتوسطية ص 35

ج- مـادة تجارتهـم :

وقد وصف الرحالـة المسلمون بضائع هؤلاء التجار واهمها الفراء وجلود السمور الاسود والعسل الذي كان يعوض السكر والرصاص والرقيق (1) وكانوا يحصلـون على بضاعـة الرقيق عن طريق الشراء والجلب او الاغـارة والغزو اذ كانوا ينظمون حملات على بلاد الصقالبـة ويعيشون على ما يحرزونه من غنائم وقد عرف العرب من بين هذه الحملات ما شنـه "سفياتوسلاف" sviatoslav على شعوب اوروبا الشرقيـة (البلغار والبرطاس والخزر) من هجومـات. ويجعل ابن حوقل تاريخ هذه الحملات سنـة (358 هـ/ 968-969م) بدلا من عام (355 - هـ/ 966م) كما جاء في الحوليات الروسيـة غير ان بارتولد Barthold قد بين بحق ان هذا التاريخ يشير فـي الواقـع الى البحث الذي قام بـه ابن حوقل عن هذه المسالـة في جرجان (2) وقد وصف ابن رستة هذه الحملات التي كانت توفر للتجـار

---

1) الاصطخري ـ المسالك والممالك ـ المكتبة الجغرافية العربية ـ دي غوية - De Goeje ليدن 1927 ص 226 - ابن خرداذبـة ـ المسالك والممالك ـ عن الاسكندر صايبل A.Seipel اخبار امم المجوس ص 49
لويس بيريبي - Louis Bréhier - الحضارة البيزنطية ص 202

2) مينورسكي V.Minorsky - دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ مقال روس ص 227

الروس الرقيق الصقلبي بقوله " الروس يغزون الصقالبة ويركبون السفن حتى يغزوهم ويسبوهم ثم يحملونهم الى خزران وبلكار حيث يبيعونهم وليس للروس مزارع انما ياكلون مما يستوردونه من ارض الصقالبة .والروس يحسنون الى ما يملكونه من رقيق"(1) .

وبذلك كان اغلب الرقيق الذي يجعل منه هؤلاء الروس مادة لتجارتهم هو الرقيق الصقلبي ولكن ذلك لم يمنع من ان يوجد بايديهم من حين لاخر رقيق من صنف اخر خصوصا انهم كانوا يحاربون الروم والبلغار والخزر ويأسرون منهم الا ان هذه الانواع تعتبر غير ذات بال بالقياس الى وفرة ما يحرزون عليه من الرقيق الصقلبي الذي يصدرونه الى العالم الاسلامي .

وقد قدم لنا ابن فضلان في رسالته وصفا لمتاجرة الروس بالرقيق في " اتل " itil عاصمة الخزر وقد كان شاهد عيان لتلك المبايعات وذلك خلال سفارته الى ملك البلغار من قبل الخليفة المقتدر (295-320هـ/908-932م) فحكى في رسالته ما عاينه منذ انفصل عن بغداد الى ان عاد اليها

---

1) ابن رستة ـ الاعلاق النفيسة ـ المكتبة الجغرافية العربية ـ ج 7 نشر دي غوية - De Goeje ليدن 1892 ص 145
الاسكندر صابيل - A. Seippel - اخبار امم المجوس ص 51

وجاء في هاتـه الرسالـة ما يلي : " ورايت الروسيـة وقد وافوا بتجاراتهـم فنزلوا على نهر اتل ..... وهو نهر كبير ويبنون على شاطئـه بيوتـا كبارا من الخشب ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والاقل والاكثر ولكل واحد منهم سرير يجلس عليـه ومعـه جواريـه الروقـة للتجـارة فينكح الواحد جاريتـه ورقيقـه ينظر اليـه وربمـا اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحالة بعضهم بحذاء بعض وربمـا يدخل التاجر عليهم ليشـتري من بعضهم جاريـة فيصادفـه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي اربـه .. وساعـة موافاة سفنهم الى هذا المرسى يخرج كل واحد منهم ومعه خبـز ولحم ولبن وبصل ونبيـذ حتى يوافـي خشبـة طويلـة منصوبـة لها وجـه يشبـه وجـه الانسـان وحولها صور صغار وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت في الارض فيوافـي الى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقـول : يارب قد جئت من بعد ومعي من الجواري كذا وكذا راسا ومن السمـور كذا وكذا جلدا ..... " (1)

---

1) ابن فضلان ـ الرسالة ـ ص 150 ـ 153 ـ الاسكندر صايبل A. Seipel
اخبار امم المجوس ـ ص 90 ـ 91

د- اتصالهم بالعالم الاسلامي :

لقد كان هؤلاء التجار الروس يزودون العالم الاسلامي اذن ببضاعة الرقيق ويسلكون طرقا نحو هذا العالم وصفها لنا الرحالة والجغرافيون المسلمون وقد كانوا في الواقع همزة وصل بين تيارين تجاريين احدهما التجار المتجه نحو البلطيق والبلاد الاسكندنافية وثانيهما التيار المتجه نحو البحر الاسود وبحر الخزر وكانوا بحكم استقرارهم بين القسطنطينية وبغداد يتلقون تاثير حضارتين حضارة الخلافة العباسية والحضارة البيزنطية ويقومون بدور المزود التجاري لهما وكانوا يبيعون ما يجلبونه من فراء وعسل ورقيق من بلاد الصقالبة للتجار المسلمين والبيزنطيين في آن واحد وان النقود البيزنطية والعربية التي عثر عليها في روسيا لدليل على هذا التبادل التجاري (1)

لقد اتجه التجار الروس اذن نحو القسطنطينية ونحو البلاد الاسلامية في آن واحد ذلك ان التيار التجاري المنطلق من الشمال والمتسرب

---

1) لويس بيربيي - Louis Brehier - الحضارة البيزنطية - La civilisation Byzantine - ص 202
هـ - بيران - H. Pirenne - المدن في العصر الوسيط - Les villes au moyen Age
بروكسيل - Bruxelles - 1927 ص 46 - 52
ايك - ECK - التجارة المتوسطية اثر الغزو العربي - Le Commerce Mediterranneen après l'invasion Arabe
المجلة التاريخية لجنوب شرقي اوروبا - Revue historique du Sud Est Européen
بوخارست - Bucarest - 1941 ص 37 - 38

عن طريق " الدنيبر " Dniepr كان يرمي الى غاية محددة هي البحر الاسود ثم البوسفور - Bosphore - والقسطنطينية ولذلك نرى امراء " كييف " Kiev يسعون الى فتح السوق البيزنطية على مصراعيها ويستعملون من اجل السلاح ان لزم الامر ، وفعلا نراهم يقومون خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد بخمسة هجومات على الامبراطورية البيزنطية ليفرضوا على الاباطرة معاهدات تجارية ترضي مطامحهم وذلك سنوات (246 هـ/ 860 م) و (294 هـ/ 907 م) و (330 هـ/ 941م) و (333 هـ/ 944م) و (360 هـ/ 971م) وهددوا القسطنطينية وفرضوا ارادتهم وحققوا علاقات تجارية بين بلاد البلطيق وعاصمة البوسفور (1) .

هكذا دخل الروس الامبراطورية البيزنطية للمتاجرة ومن المرجح ان تجار " كييف " Kiev قد استقروا بالقسطنطينية لاول مرة بعد الغزو الروسي سنة (349 هـ/ 960م) ثم نقلوا بعد ذلك الى ربض القديس " ماماس " Faubourg de Saint-Mamas حيث استقر التجار البلغار في القرن

---

1) لويس هالفن - Louis Halphen - البرابرة من الغزوات الكبرى الى الفتوحات التركية في القرن الحادي عشر للميلاد - ص 318 - 320
Les barbares des Grandes Invasions aux Conquêtes Turques du XI^e siècle

العاشر للميلاد (1) ولم تكن الحروب الناشبة بين الروس والبيزنطيين لتحول دون هذه العلاقات التجارية خصوصا اذا علمنا ان هدنات عديدة قد ابرمت بين الطرفين وكانت غايتها المصالح التجارية مثل معاهدة " اولاغ " OLeG مع ليون السادس - Léon VI (273-300 هـ/886-912م) سنة (299 هـ/ 911م) ومعاهدة " ايغور " IGOR - مع الامبراطور رومانوس ليكابانوس - Roman Lécapène (307-333 هـ/ 919-944م) سنة (333- هـ/ 945م) ومعاهدة " سفياتوسلاف " SviatosLav - مع يوحنا الدمستق Jean Tzimiskès (366- هـ/ 969-976م) سنة (360 هـ/ 971م) ومعاهدة " ياروسلاف " Iaroslav مع الامبراطور قسطنطين التاسع (434-445 هـ/1042-1055م) سنة (436 هـ/ 1046 م) وهي كلها معاهدات تنص على اتفاقيات تجارية عقدت بعد هجومات الروس (2) وعلى كل فقد سمحت هذه الظروف بدخول النخاسين الروس الى العالم البيزنطي والى القسطنطينية على وجه الخصوص وكانت اهم البضائع التي

---

1) لويس بيريي - Louis Brehier - الحضارة البيزنطية ص 85
أ - فازيلياف - Vasiliev - الهجوم الروسي على القسطنطينية سنة 860 للميلاد - The Russian Attack of Constantinople in 860 - كامبردج - Cambridge - 1946 ص 229

2) لويس - بيريي - Louis Brehier - الحضارة البيزنطية ص 203

يدلبـــونهـا اليهـا العـرو والروميـــس وكـان دخولهـــم اليهـــا في العالب عن طريـق ميناء "تشيـــرسون" في القرم (1) .

امـــا اتصـــال التجـار الروس بمسلمي الشـــرق فيرجـع في الـــواقع الى القرن الثانـــي للهجـره كما تـدل على ذلـــك القطـــع النقدية لكـن اردهـار هـذه التجـارة كـــان في اواخـــر القـــرن الثالث وبـدايه القرن الرابع للهجـــرة ودلـــيلك عنـدمـــا اسأ الروس الاسكندنافيون مملكـة "روريـك" - RURIK - وانشاوا مراكـــز تجارية في "اتل" ITIL على بحـر الخـــزر واتصلـــوا بالبلغار المسلمين (2) وكـان هؤلاء التجـــار الروس يسيطـــــرون بسفنهم على تجاره نهـــر الفولجـــا - VOLGA - فيحملـــون بضائعهم ومنهـــا الرقيق الى بـلاد الخـزر فيبيعونهـــا في "اتـل" - ITIL - عاصمه الخزر او بعيرها من المدن الواقعـة على ضفاف بحـر قـــــزوين (3) وقـــد يواصلـــون طريقهـم بهذه البضاعـة فيجتازون بحـــر الخزر ويدخلون بلاد

---

1) ارشيبالد لويس - A.Lewis - السيادة الاسلامية ص 73 — 74
2) هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق 1 ص 67—66
3) المسعودي — مروج الذهب — 2 ص 9 و 11 كليمان هوار Cl.Huart - تاريخ العرب — Histoire des Arabes — 2 ص 105 107
هايد — Heyd — تاريخ تجارة الشرق 1 ص 60 61

الاسلام عن طريق جرجان ثم ينقلون بضاعتهم على الابل الى ان يوافوا بهـا بغداد ، وقد وصف ابن خرداذبـة سفن الروس في بحر الخزر وذكر انهـم كانوا اذا دخلوا بلاد الاسلام ادعوا انهم نصارى ودفعوا الجزيـة كاهـل الذمـة واصطحبوا معهم خدما صقالبـة ليترجموا عنهم يقول في ذلك :

" الروس جنس من الصقالبـة يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السـود من اقصى صقلبـة الى البحر الرومـي فيعشرهم صاحب الروم وان ساروا فـي نـهر الصقالبة (تنيس) مروا بخليج مديـنة الخزر فيعشرهم صاحبهـا ثم يصيرون الى بحر جرجان فيخرجون في اي سواحلـه احبوا وربما حملـوا تجاراتهم من جرجان على الابل الى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبـة ويدعون انهم نصارى فيؤدون الجزية " (1) ويفهم من كلام ابن خرداذبـة وابن الفقيـه (2) ان هؤلاء التجار كانوا يتجاوزون هذه المدى في رحلاتهم ويتوجهون الى الهند والصين .

لكن ابن خرداذبة الذي وصف لنا الطريق البحرية التي يمر بهـا التجار الروس يذكر لنا طرقا بريـة تذهب تارة من طنجة الى دمشق وبغداد

---

1) ابن خرداذبة ـ المسالك والممالك ـ عن الاسكندر صايبل A. Seybel
اخبار امم المجوس ص 49

2) ابن الفقيـه ـ مختصر كتاب البلدان ـ ص 271 ـ مينورسكي ـ V. Minovsky
دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ مقال روس ص 225

والبصرة ثم الى الهند والصين وطورا من المناطق الواقعة شمالي رومة مرورا ببلاد الصقالبة للوصول الى حاضرة الخزر وبلخ وبلاد التغزغز والصين (1) فهل معنى ذلك ان هؤلاء التجار الروس الشرقيين هم انفسهم الذين كانوا يجوبون هذه الطرق كلها شرقا وغربا وبحرا وبرا ؟ وهل نفهم من ذلك ان تزويدهم للعالم الاسلامي بالرقيق قد كان عبر هذه المسالك كلها ؟

الواقع اننا لا نجد دليلا واضحا على ذلك والارجح ان ابن خرداذبة الذي اعتبر الروس " جنسا من الصقالبة " قد استعمل مصطلح " روس " في معنى ومدلول اوسع اي للدلالة على امم الشمال الاسكندنافيين الذين نزحوا شرقا وغربا وجنوبا فكان منهم شرقا " الفاراق " Les Varegues وهم الذين استوطنوا "كييف" Kiev وصدروا رقيق الصقالبة الى مسلمي الشرق وكان منهم غربا " الفيكنك " Les Vikings وهم " المجوس " الذين استوطنوا السويد Suède والنرويج Norège وهجموا على بريطانيا وايرلندا وداهم خطرهم الاندلس مرات وكان منهم جنوبا النرمان Normands الذين انتشروا في اواسط اوروبا (2) وقد اطلق الرحالة والجغرافيون المسلمون

---

1) ابن خرداذبة ــ المسالك والممالك-ص 154-ميناورسكي-دائرة المعارف الاسلامية ــ الترجمة العربية مقال ــ روس ص 225

2) لاروس الكبير ــ الموسوعة ــ ج 10 ص 820

كلمة " مجوس " على هذه الامم الشمالية كلها وقد يكون ذلك لاشتراكهم في طقوس عقائدية مثل عبادة النار او احراق الموتى (1) كما جمع هؤلاء الرحالة والجغرافيون بين كلمتي " مجوس " و " روس " في مناسبات عديدة مثلما نجد عند ابن فضلان في رحلته الى بلاد الصقالبة (2) وعند اليعقوبي في حديثه عن هجوم المجوس المعروفين بالروس على اشبيلية سنة (229 هـ/ 843-844م) (3) وعند المسعودي في ذكره للحوادث التي جرت بالاندلس حوالي عام (300هـ/ 912-913م) (4) فلا غرو اذن اذا ما وجدنا نفس هذا الاستعمال عند ابن خرداذبة.

ومهما يكن من امر فان التجار الروس الشرقيين قد كانوا يزودون العالم الاسلامي بالرقيق الصقلبي بصورة مباشرة كما رأينا اذ وصلوا الى بغداد كما كانوا يزودونه بطرق غير مباشرة وذلك من خلال تعاملهم مع البلغار اذ كان العرب على صلة ببلاد البلغار ولهم معها علاقات

---

1) مينورسكي - Minorsky - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية - مقال روس ص 223 - نلاحظ ان المسلمين اطلقوا على الفرس اسم مجوس ايضا

2) ابن فضلان - الرسالة - ص 163 - 164

3) اليعقوبي - كتاب البلدان - المكتبة الجغرافية العربية ج 7 ص 354

4) المسعودي - مروج الذهب - ج 1 ص 364 - 365

تجارية وهذا ابن حوقل يذكر لنا ان التجار الروس كانوا يقصدون بلاد البلغار ويتاجرون فيها وذلك قبل ان يخربوها سنة (358هـ/ -969- م) (1) وكانوا يجلبون اليها ما بايديهم من فراء ورقيق وهي بضاعة كانوا يبيعونها هناك اما للعرب مباشرة لوجود تجار عرب بتلك البلاد واما للبلغار انفسهم وقد كانوا اذاك يتاجرون مع العرب (2) وقد يصل الروس ببضاعتهم الى بلاد الخزر ويتسلمها منهم التجار المسلمون هناك. وقد ذكر ابن حوقل ان مصب التجارة الروسية في " خزران " لم يزل على حاله تلك في عهده اي القرن الرابع للهجرة (3) .

---

1) ابن حوقل ــ المسالك والممالك ـ الاصطخري ــ المسالك والممالك ـ عن الاسكندر صايبل A Seippel اخبار امم المجوس ــ ص 56 و ص 73 ــ 75

2) هايد -Heyd- تاريخ تجارة المشرق ــ ج 1 ص 62

3) ابن حوقل ــ المسالك والممالك ــ عن الاسكندر صايبل A.Seippel اخبار امم المجوس ص 73ــ 75

5) التجـــــــار البلغـــــار

وممن لعب دورا فعالا ايضا في ترويج تجارة الرقيق الصقلبي وتصديره نحو الاسواق الاسلامية البلغار وهم شعب تكونت منه دولة على نهر الفولجا منذ اوائل القرون الوسطى (1) وينتمي هذا الشعب الى الجنس التركي التتري (2) وذلك قبل نزوحه نحو شبه جزيرة البلقان وانصهاره في الجنس السلافي (3) وقد عرف المسلمون هذا الشعب واتصلوا به وكان يطلقون عليه اسم ((برجان)) احيانا كما نجد ذلك عند اليعقوبي وياقوت الذي اورد في معجمه هذه الكلمة مضمنة في بيت من الشعر (4) وقد دخل المسلمون ((بلغار)) عاصمة البلغاريين وقد كانت هذه المدينة توجد بين قازان (5) وسمبرسك (6) وهي اذاك مستودع تجاري بين آسيا وشمال اوروبا . وقد حدد الجغرافيون العرب مواقع هذا الشعب فقالوا انها تجاور بلاد الخزر من جهة وبلاد الصقالبة من جهة اخرى وانه لا يفصلها عن الخزر الا شعب ((البرطاس)) او ((البرداس)) الفنلندي الاصل (7)

---

1) وبارتولد ـ مقال بلغار ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ ص88

2) Turco.Tatare

3) كـ هوار ـ تاريخ العرب ـ ج 2 ص 105 . 107 . هايد ج 1 ص 60 . 61

4) وـ بارتولد ـ مقال بلغار ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ص 90

5) Kazan

6) Simbirsk ـ انظر ـ ك ـ هوار ـ تاريخ العرب ج 2 ص 105 . 107 وـ هايد ج 1 ص 60 . 61 . ج ـ لبون ـ حضارة العرب ص 439 . 441

7) وـ بارتولد ـ مقال بلغار ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ ص 93 . 94

وقد كانت لهؤلاء البلغار تجارة مع الصقالبة المجاورين لهم وكانوا يجلبون من عندهم انواعا من البضائع مثل الفراء واللبود والرقيق والعنبر كما كان التجار الروس يأتون الى عاصمتهم ويبيعون لهم الرقيق والفراء فيبيع البلغار هذه البضاعة بدورهم الى العرب القاطنين بمدينتهم او الوافدين عليهم لغرض التجارة وقد يصدرونها عن طريق نهر الفولجا الى اتل عاصمة الخزر حيث يوجد التجار المسلمون فيشترون منهم تلك المواد التجارية (1). فقد وجدت اذان جاليات اسلامية باتل وبلغار كما تدل على ذلك الكتابات الكوفية الموجودة بروسيا (2). وهكذا كان التجار البلغار يقومون بدورهام في ايصال بضاعة الرقيق الى الاسواق الاسلامية. وكانت اكثر طلباتهم التجارية بمملكة السلافيين لاسباب جغرافية. فكانوا يزودون البلاد الاسلامية بالرقيق عن طريق هذه الامارة التي كانت تمتد نفوذها اذاك على ما وراء النهر (3)

ومما يسر هذا النوع من المعاملات التجارية بين مسلمي الشرق وبلاد البلغار اعتناق البلغار للاسلام فقد وصفهم ابن رستة بانهم مسلمون صالحون عندهم مساجد ومدارس ومؤذنون وائمة وذكران ملابسهم ومقابرهم تشبه ملابس المسلمين ومقابرهم (4) وقد تحدث عنهم ابن فضلان في رسالته

---

1) هايد ج 1 ص 60. 61. 62 ـ ك ـ هوار ـ تاريخ العرب ج 2 ص 105. 107.

2) و ـ بارتولد ـ مقال بلغار ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ص 96. 97.

3) كان البلغار كاهل خوارزم يغطون رؤوسهم بالقبعات المرتفعة التي يسميها العرب القلانس ـ انظر ـ و ـ بارتولد ـ مقال بلغار ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ ص 91. وص 96.

وذكرانهم اسلموا قبل ذهابه اليهم سنة (309هـ/210هـ/ 921م.922م)
وكانت المهمة التي ارسله الخليفة المقتدر من اجلها اليهم هي تفقيههم
في الدين وتعليمهم شرائع الاسلام وقد وصف لنا هذا الرسول ما بذله من
جهد في تعديل امور الخطبة في المسجد وفي فصل النساء عن الرجال
في السباحة (1) . وقد كان من نتائج انتشار الاسلام بين
افراد هذا الشعب ان تواجع فرع آخر منه
حتى وصل الى نهر ((اتل)) الاوسط وذلك
بسبب ضغط الاعداء عليه لانه قد
اعتنق الاسلام وظل مدة طويلة من الزمن يجسم
طلائع المسلمين في ناحية الشمال - وقد حدثنا
المقدسي ايضا عن المعالم الاسلامية
بمدينة ((بلغار)) فوصف مسجدها
الجامع الذي كان يقوم في سوقها (2)
وهكذا يسر انتشار الاسلام في تلك
الربوع المعاملات التجارية بينها وبين
ربوع الشرق الاسلامي .

---

1) ابن فضلان ص 117 . 110 وص 120 . وص 134
2) و - بارتولد - مقال بلغار - دائرة المعارف الاسلامية
الترجمة العربية - ص 90 . و 95

6) النخاسون النصارى

ومن النخاسين الذين كانوا يقومون بعملية تصدير الرقيق الاوروبي الى العالم الاسلامي النخاسون النصارى فقد كان تجار دلماسيا - Dalmatie والبندقية من اهم القائمين على هذه العملية عن طريق حوض البحر الابيض المتوسط. فكان الايطاليون والفرنسيون وهم تجار البندقية ومرسيليا يحظون بانفسهم ما يجمعونه من رقيق مسيحي وغير مسيحي الى اسواق البلاد الاسلامية (1) وقد توسع نشاط هؤلاء التجار خاصة ابتداء ا من القرن الرابع للهجرة عندما تقلص دور اليهود الرهادنة اذ بدأ الاوروبيون من كتلانيين وبندقيين وجنويين يستغنون عن وساطة اليهود وامس تجار بروفنسا - Provence - يتاجرون مباشرة مع المغرب الاسلامي وقد استمر نشاطهم التجاري عمو ما حتى عصور متأخرة اذ تشهد بذلك المعاهدات العديدة المبرمة بين الدولة الحفصية والدول الاوروبية وهي معاهدات تنص على كيفية تنظيم الاتصال بين التجار النصارى وبلاد المغرب وضمان اقامتهم في مرانئه ومدنه (2).

1) برنشفيك - Brunschvig - مقال عبد - دائرة المعارف الاسلامية ج 1 ص 33
نجاة باشا - التجارة في المغرب الاسلامي - ص 115. 116.

2) ر-ل-تورنو - المغرب الاسلامي - ص 165
R. Le Tourneau - L'occident musulman du 7e et la fin du 15e siècle
AIEO - Alger - 1958 - T 16 - p 165.

7) النخاسون المسلمون

لقد امكن للنخاسين المسلمين الجلابين للرقيق من البلاد المجاورة للعالم للاسلامي ان يتوغلوا في بلاد السودان وان يصلوا الى مناطق عديدة من القارة الافريقية ليتمكنوا من جلب الرقيق الاسود فقصدوا اشهر المدن التجارية بغربي افريقيا وشرقيها واواسطها وتنقلوا بين الامارات والممالك والقبائل الموجودة اذاك . وقد تيسر لهم ذلك بفضل ازدهار التجارة الصحراوية الاسلامية (1) وكان هؤلاء النخاسون ينطلقون من جهات مختلفة نحو الصحراء الافريقية وخاصة من افريقية والمغرب ومن جنوب مصر واليمن و موانيء الخليج الفارسي .

وقد كان للقبائل البربرية بافريقية والمغرب دور اساسي في الاضطلاع بمهمة جلب الرقيق الاسود وخاصة منها تلك القبائل المجاورة لبلاد السودان والقاطنة على تخوم الصحراء . وقد وصف لنا اليعقوبي هذا الدور الذي لعبه بربر زويلة وكوار قائلا ((ووراء ذلك (اي ودان) بلد زويلة مما يلي القبلة وهم قوم مسلمون اباضية كلهم يحجون البيت الحرام . . . ويخرجون الرقيق السودان من المعريين والزغاويين والمرويين وغيرهم من اجناس السودان لقربهم منهم وهم يسبونهم. وبلغني ان ملوك السودان يبيعون السودان من غير شيء ولا حرب . . . ووراء زويلة على خمس عشرة

---

1) كلود كاهان - Cl. Cahen - الشعوب الاسلامية - ص 349 - 357

مرحلة مدينة يقال لها كوار بها قوم من المسلمين من سائر الاحياء اكثرهم بربر وهم ياتون بالسودان ...)) (1)

ويبدو انه منذ الحملة التي نظمت انطلاقا من السوس الاقصى نحو اودغست سنة (116 هـ/ 734 م) وهي حملة يقول عنها المؤرخون انها كانت ناجحة لم يرجع العرب الى تلك المنطقة وعوضهم البربر فسيطروا على الطرق والاسواق .وقد حدثنا نفس المؤلف عن النشاط التجاري الذي اضطلعت به بعض قبائل صنهاجة وخاصة منها((انبية)) لوجودها على الطرق المؤدية من سجلماسة الى اودغست مما سمح لها بان تساهم في جلب الرقيق من بلاد السودان(2)كما حدثنا ابن حوقل الذي زار سجلماسة واودغست سنة (340 هـ/ 951م) عن القبائل البربرية التي كانت تمارس التجارة الصحراوية في هاتين المدينتين وبينهما فذكر قبائل نفوسة التي كانت تتقاضى اموالا على التجارة التي تمربها لوجودها على الطريق الرابطة بين المدينتين كما ذكر ايضا دور سكان اودغست وهم بربرصنهاجة في هذا الميدان (3)

وقد تواصل نشاط التجار البربر فيما بعد فهذا البكري يحدثنا عن تاجر وجد قبل عهده باودغست يقال له ابورستان من جبل نفوسة من الاباضية ويفهم من حديثه عنه أنه كان من تجار الرقيق ، ويضيف ان السلطة باودغست كانت

---

1) اليعقوبي ـ كتاب البلدان ـ المكتبة الجغرافية العربية دي غوية ـ De Goeje ـ ليدن-1892 ج 7 ص 345

2) نفس المصدر ـ ص 360

3) ابن حوقل ـ صورة الارض ج 1 ص 90 . 103

لرجل من صنهاجة يدعى تمن يورتان بن وسنوين نزار وكانت مدة ملكه من (350هـ/ 961 م) الى سنة (360 هـ/ 971 م) كما يقول ان اكثر من عشرين من ملوك السودان يرضخون له ويدفعون له الجزية وكان يسبي منهم الكثير. ويتعرض البكري ايضا الى انتشار البربر من صنهاجة في اودغست وبينها وبين بلاد السودان ويصف قبائل لمتونة على بعد عشر مراحل من بلاد السودان مشيرا الى اضطلاعهم بفريضة الجهاد في تلك البقاع (1) وقد تجاوز البربر المسلمون هذا الحد من توغلهم في ارض السودان اذ بلغوا غانة التي يقول عنها البكري انها كانت سنة (460هـ/ 1067. 1068م) تتكون من مدينتين يسكن احداهما المسلمون (2)

وقد كان تجار تاهرت في عهد الائمة الرستميين يتاجرون مع بلاد السودان. وقد ذكر ابن الصغير سفارات وقعت بين الطرفين في اطار تسهيل العلاقات التجارية (3) على ان سيطرة البربر المسلمين على هذا النوع من التجارة مع بلاد السودان الغربية والوسطى لا يعني عدم وجود تجار عرب وان كان عددهم قليلا فسجلماسة على حد قول ابن حوقل نجد فيها تجار العراق والبصرة والكوفة وكذلك تجار بغداد وقد اكتسبوا ثروات طائلة من تجارتهم (4) ويقول المهلبي الذي توفي سنة (380هـ/ 990م) ونقل عنه ياقوت في معجمه ان اودغست يقصدها

---

1) البكري المسالك والممالك ـ طبعة دي سلان Deslane 1965 ص 159

2) المصدر نفسه ص 163. 165 - 175

3) ابن الصغير ـ تاريخ الائمة الرستميين بتاهرت ـ ص 108 ـ كوك Cuoq ـ مختصات ـ 19-20

4) ابن حوقل ـ صورة الارض ج 1 ص 90. 103

التجار من كل صوب وان سكانها قد اسلموا في عهد عبيد الله المهدي (1) ومن المعلوم ايضا ان بعض القبائل البربرية المهتمة بالتجارة مع بلاد السودان قد اختلطت بالعرب فالبكري يشير الى ان باودغست عند ما هجم عليها المرابطون بربرامن زناتة وعربا وكان لهم كثير من الرقيق حتى ان الواحد منهم يملك اكثر من الف راس من العبيد (2) ويحدثنا نفس المؤلف عن الاموبين الذي استقروا بعد ان طارد هم العباسون ببلاد كانم وهي بلاد توجد بعد صحراء زويلة (3).

واذا ما كان التجار البربر هم المسيطرون على تجارة بلاد السودان الوسطى والغربية فان عرب المشرق هم الذين كانت بيد هم تجارة بلاد السودان الشرقية فقد كانوا ينطلقون من جنوب مصر ويتوغلون في بلاد النوبة والبجة مرورا بمدينة اسوان ووادي العلاقي وكان اغلب التجار بتلك النواحي ينتمون الى قبائل عربية استقرت بمعدن الزبرجد ن التبر ومارست تجارة الرقيق في الوقت نفسه فاكثر ((من بالعلاقي قوم من ربيعة من بني حنيفة من اهل اليمامة انتقلوا اليها بالعيالات والذرية ووادي العلاقي وما حواليه معادن للتبر وكل ما قرب منه يعتمل فيه الناس لكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان يعملون في الحفر ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الاصفر ثم يسبك)) (4) ومن هذه القبائل المهتمة بتجارة الرقيق والتبر بلي وجهينة وبنوسليم وقوم من مضر وكان التجار المسلمون يصلون بتجارتهم الى مدينة علوة ببلاد النوبة والى مدينة هجر ببلاد البجة (5)

---

1) ياقوت الحموي - معجم البلدان - مادة - اودغست - راجع ايضا ابو الفداء. جغرافية - ترجمة رينو - Reinaud - طبعة باريس 1848 ج 2 ص 174 175

2) البكري - المسالك والممالك - طبعة - دي سلان De slane 1965 ص 170. 173

3) المصدر نفسه ص 10. 11

4) اليعقوبي - كتاب البلدان - المكتبة الجغرافية العربية - طبعة دي غوية DeGoje 1892 ص 334

5) المصدر نفسه ص 335. 337

وكان التجار العرب يقصدون سواحل شرق افريقيا انطلاقا من الحجاز واليمن فيدخلون بلاد الحبشة وبلاد الزنج انطلاقا من عدن وزبيد ومدن الحجاز وقد وصف لنا المقدسي دور تجار عدن في ربط الصلة ببلاد السودان (1) امّا تجار العراق فكانوا يخرجون من بغداد والبصرة وسيراف وسائر موانيء الخليج الفارسي وكذلك كان يفعل تجار عمان اذ كانوا يركبون البحر ويخترقون المحيط الهندي محاذين جنوب الجزيرة العربية الى ان يصلوا الى سواحل شرق افريقيا (2).

---

1) المقدسي - احسن التقاسيم - ص 97 - 98

2) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 145 - 150

وكان التجار المسلمون يذهبون الى بلاد الروس ويتاجرون مع البلاد الاسكندنافية وكانت القوافل تربط بين اذربيجان وبلاد الفولجا والبلطيق فيتوغل اولئك التجار في البلاد السلافية ويصلون الى ممالك البلطيق والمناطق المجاورة لنهر الفولجا الاعلى والاوسط وكذلك نهر الدنيبر - Dnieper حيث عثر على كنوز من النقود العربية منها ما هو بوهيمي ومنها ما هو ساساني ومنها ما هو ساماني واغلب هذه النقود يرجع تاريخه الى الفترة المتراوحة بين سنة 909م وسنة 914م (1) ويبدو ان التجار السلافيين كانوا اكثر تردداً من غيرهم الى تلك المناطق الشمالية وذلك ان القطع النقدية المعثور عليها بروسيا والسويد يرجع اكثرها الى الدولة السامانية التي سيطرت على ما وراء النهر وخراسان منذ الربع الاخير من القرن الثالث الى نهاية القرن الرابع للهجرة. وتحمل تلك النقود اسماء مدن مثل سمرقند وبخارى والشاش ((طشقند)) وبلخ ونيسابور وغيرها وفي هذا دليل على تجارة السلافيين مع الروس والشعوب الاسكندنافية (2) وقد ذكر كل من الاصطخري وابن حوقل ان التجار المسلمين كانوا يدخلون مدينة "كويابة" كييف Kiev الروسية للتجارة. يقول الاصطخري ((الروس ثلاثة انواع صنف هم اقرب الى بلغار وملكهم يقيم بمدينة تسمى كويابة وهي اكبر من مدينة بلغار وصنف ابعد منهم يسمون الصلاوية وصنف يسمون

---

1) ك. هوار-تاريخ العرب ج 2 ص 105 . 107 ـ هايد - Heyd - تاريخ تجارة الشرق - ج 1 ص 60 . 61 ـ صودال ص 317 . 323

2) هايد - ج 1 ص 59

الارشانية وملكهم مقيم بارشا والناس يبلغون في التجارة الى كويابة فاما ارشانهم يقتلون من يدخل ارضهم من الغرباء)) (1).

وكان التجار المسلمون ينطلقون ايضا من اقليم ارمينية الى روسيا ويدل على ذلك القطع النقدية التي يرجع جزء منها الى البلاد الواقعة على الساحل الجنوبي لبحر الخزر مثل جرجان وطبرستان والديلم وتحمل هذه النقود اسم مدينة برذعة الواقعة في منطقة الران (2) وقد اشار الادريسي الى دخول التجار المسلمين من ارمينية الى كويابة فقال (وكويابة هي مدينة الترك المسمين روسا والروس ثلاثة اصناف احدها بروس وملكهم يسكن مدينة كويابة والصلاوية وملكهم يسكن مدينة صلاوة والارشانية وملكهم بمدينة ارشا . ويبلغ تجار المسلمين من ارمينية الى كويابة)) (3).

لكن التجار المسلمين لم يكونوا يذهبون دائما الى تلك البقاع البعيدة فغالبا ما تراهم يكتفون بالذهاب الى مراكز تجارية مثل اتل الواقعة على هضب نهر الفولجا او باب الابواب (دربند) الواقعة على بحر قزوين او الجرجانية جنوبي بحر ارال فيشترون منها بضاعة الرقيق التي يجلبها الروس والبلغار الى تلك المناطق (4) الا انهم لم يقنعوا دائما بهذه الوساطة

---

1) الاصطخري ـ المسالك والممالك ـ وكذلك ابن حوقل ـ المسالك والممالك ـ الاسكندر صايبل ـ ص 56

2) هايد ح 1 ص 59

3) الادريسي ـ نزهة المشتاق عن الاسكندر صايبل ص 86

4) صودال ـ ص 317 . 323

ونراهم يصعدون نهر الفولجا ويصلون الى بلغار خصوصا ان ملكها وشعبها كانوا قد اعتنقوا الاسلام (1) ويذكر ابن حوقل في هذا الصدد ان التجار الخارزمية كانوا يذهبون كثيرا الى بلغار والصقالبة كما كانوا يغيرون عليهم ويسبونهم (2) فكانت سفن المسلمين التجارية تصل الى بلاد البلغار وتدفع العشور - وكان البلغار يتعاملون بالنقود الفضية التي ياتيهم من بلاد المسلمين ويدفعونها ثمنا للبضائع التي يستوردونها من بلاد الروس والصقالبة. ويرى بارتولد ان اختفاء العملة الفضية في اواسط آسيا في القرن الخامس الهجري وفي جهات اخرى من العالم الاسلامي في عهد متأخر نوعا ما قد ظهر اثره في بلاد البغار (3).

ولعل من احسن الادلة على متانة الروابط بين الخلافة الاسلامية بالمشرق وبلاد البلغار سفارة ابن فضلان في القرن الرابع للهجرة من قبل الخليفة المقتدر الى مدينة البلغار. فقد غادر هذا الرسول بغداد في الحادي عشر من صفر عام 309هـ (21 حزيران عام 921 م) ووصل الى عاصمة البلغار على نهر اتل يوم السبت الثاني عشر من المحرم عام 310هـ (12 ماي عام 922 م) وكانت الطريق التي سلكها هذا السفير هي نفس الطريق التي كانت تسلكها تجارة الرقيق اذ نراه يمر بالجرجانية بالقرب من المدينة

---

1) كاهوار - تاريخ العرب ج 2 ص 105 - هايد ج 1 ص 60.61

2) ابن حوقل - المسالك والممالك نقلا عن الاسكندر صايبل ص 73.75

3) بارتولد - دائرة المعارف الاسلامية - مقال بلغار - الترجمة العربية ص 97

المعروفة بـ ((كنيه اوركنج)) في خيوة ويذهب من خوارزم الى المجرى الادنى لنهر اتل ثم يدخل منه الى ارض الخزر ثم البرطاس الى ان يصل الى مدينة البلغار وقد ارسل الخليفة رسلا اخرين الى ملك البلغار منهم سوسن الرسي الذي كلفه بالمهام السياسية بينما كلف ابن فضلان بالمهام الدينية وبارس الصقلابي وتكين التركي (1).

وهكذا لم تنقطع العلاقات في هذا العصر بين مسلمي بغداد ومدينة بلغار فقد وجد ابن فضلان عند وصوله اليها خياطا بغداديا في بلاط الملك واستقى منه بعض المعلومات عن المملكة وشعبها (2) وقد اضاف المسعودي في مروج الذهب ان احد ابناء ملك البلغار قد حج الى مكة في عهد المقتدر اي قبل عام (320هـ/932م) فاغتنم الفرصة ومر الى بغداد وقدم فروض الطاعة للخليفة (3).

ولم تكن هذه العلاقات الدينية والسياسية الا اطارا رسميا لعلاقات امتن واهم وهي العلاقات التجارية فالتجار المسلمون قد كانوا سفراء دائمين الى هذه البلاد وخاصة منهم التجار الساطنيون الذين كانوا اوثق اتصالا ببلغار من غيرهم (4).

---

1) سوسن الرسي هو مولى نذير الخرمي وكان كما يبدو من نسبه من بلاد الروس وقد جلب رقيقا ثم تعلم العربية وحسن اسلامه وصار حاجبا للمكتفي (289-295هـ/902-908م) وبارس الصقلابي هو غلام اسماعيل بن احمد حاجب خراسان واسمه ونسبه دليلان على اصله . وتكين التركي كان حدادا في خوارزم وقد وقف على بيع الحديد في بلد الكفار وهو الذي اقنع نذير الخرمي بايصال كتاب ملك الروس الى الخليفة المقتدر بالله .
انظر ـ سامي الدهان ـ مقدمة رسالة ابن فضلان ص 23.24 ابن فضلان الرسالة ص 68.69 ـ و.ـ بارتولد ـ مقال بلغار ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ص 92.

2) ابن فضلان ص 124.

3) بارتولد ـ مقال بلغار ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ص 96

4) المرجع نفسه ص 96.97

لكن هؤلاء النخاسين الذين امكنهم ان يصلوا بتجارتهم الى بقاع مختلفة من بلاد السودان ونواح شتى من القارة الافريقية واستطاعوا ان يتجولوا على سواحل وموانئ الهند والصين وان يتغلغلوا في بلاد الاتراك وبلاد الخزر والبلغار وان يساهموا بتجارتهم في ربط الصلة بين بيزنطة والعالم الاسلامي وان يتاجروا مع جنوب ايطاليا وفرنسا لا نجدهم يتوغلون في القارة الاوروبية الا قليلا ولا ينزحون نحو الشمال الا غرارا بل نراهم يفوضون عملية جلب الرقيق من اوروبا الى النخاسين الاجانب غالبا وخاصة منهم اليهود كما رأينا .

ويبدو على العموم ان مسلمي شمال افريقيا واسبانيا قد تاجروا قليلا مع الغرب اللاتيني مفضلين ترك مثل هاته التجارة بايدي المدن الايطالية القائمة اذاك وايدي اليهود الذين جابوا الطرق من فرنسا الشمالية وبراغ الى اسواق الرقيق الاسبانية ولم يكن المسلمون يرون ضرورة للسفر الى البلاد الاوربية والرحالة المسلم الوحيد الذي زار ((ماينز)) « Mainz » في اوائل القرن العاشر للميلاد ووصف بدهشة السلع المعروضة للبيع هو من شواذ القاعدة فيما يظهر (1) وربما كان استغلال التجارة الصحراوية والشرقية قد استنفد طاقات التجار المسلمين كما يمكن ان تكون غاراتهم على السواحل المسيحية وغارات اعشاش القرصنة من امثال ((فركسينتوم)) قد كفتهم مؤونة الاضطلاع بالمتاجرة مع الغرب الاوربي (2).

---

1) صابي - Sabbe - بعض النماذج من تجار القرنين التاسع والعاشر للميلاد المجلة البلجيكية - 1934 عدد XIII ص 178 - 180
Sabbe - Quelques types de Marchands des IX et X siècles in Revue Belge - 1934. N° XIII

2) ارشيبالد لويس - Archibald Lewis - دراسات اسلامية ص 32 . 83

8) مشاهير النخاسين

الملاحظ اننا لا نجد اهتماما من قبل المؤلفين القدامى بتراجم هذا النوع من الرجال لان الراي العام لم يكن ينظر اليهم نظرة تقدير واحترام ولانهم لم يكونوا يمثلون فرعا من فروع الثقافة ولعل اصحاب الحرف والمهن جميعا لم يحظوا بعناية كتاب التراجم لان هؤلاء المؤلفين لم يكونوا يعيرون اهتماما الا لارباب العلم والفكر امثال اصحاب الاعمال اليدوية كالنجارين والحدادين والتجار فلم يعتنوا بهم . وليس من الغريب ان تكون ثمة صلة بين موقفهم هذا وما استقر في المجتمع الاسلامي من عادات تكرّم رجال العلم واهل الصنائع الفكرية وتفضلهم على غيرهم من الممتهنين للصناعات اليدوية وهي عادات قديمة لم يتخلص منها المجتمع الاسلامي تخلصا تاما في شتى عصوره ولهذه الاسباب يجد الباحث عسرا في التعرف على تجار الرقيق في العصر الذي نهتم بدراسته وفي غيره من العصور الاسلامية ايضا .

واذا ما تعرّض المؤرخون والاخباريون واصحاب كتب الطبقات الى بعض النخاسين في عصر من العصور ففي سياق حديثهم عن مشاغل لا علاقة لها بتجارة الرقيق وفي معرض كلامهم عن جوانب اخرى من شخصيات اولئك النخاسين ، لا صلة لها بموضوع النخاسة مثلما فعلوا في تعرضهم لعبد الله بن جدعان التيمي الذي كان تاجر رقيق قبل الاسلام وبعده اذ

كانت الغاية من ذكره في كتبهم اعتباره ضمن الصحابة ورئاسته لقريش في حرب الفجار (1) اما بالنسبة الى عصرنا فان الصدف التي جعلت من بعض النخاسين اناسا مساهمين في بعض ميادين العالم والمعرفة في طور من اطوار حياتهم قد دعت اصحاب التراجم الى الحديث عنهم في عداد الزهاد او الشعراء او الفقهاء وبذلك اتيح لنا التعرف على عدد قليل منهم ومن زاوية ضيقة لا تلقي اضواء كافية على دورهم في مهنة النخاسة. كما ان حديث كتب التاريخ والادب عن شهيرات الجواري قد اشار بطرق غير مباشرة الى بعض مشاهير النخاسين الذين ارتبطت اسماؤهم بفن تخريج القيان وبيعهن وشرائهن.

ونظرا لما قدمنا من معطيات لا يسعنا الا ان نقدم بعض الامثلة على من عرف بالمشرق والمغرب من النخاسين دون ان يكون غرضنا الاستقصاء او التعريف الكامل لتعذره في مثل هاته الحال. ففيما يخص المشرق تشير المصادر الى وجود تفاوت في القيمة والشهرة بين النخاسين، والى وجود درجات اختصاص في مهنة النخاسة. فمن تجار الرقيق بالمشرق من كانت له الرئاسة في هذه المهنة ويعتبر مستشارا فيها ومرجعا يرجع اليه في الدقيق من امورها. ويذكر كل من ابن بطلان والسقطي نخاسا وجد قبل عصريهما آلت اليه هذه الرآسة بالمشرق وتجاوزت شهرته حدود المشرق الى المغرب وهو نخاس يكنى ((أبا عثمان))

---

1) شمس الدين الذهبي ـ سير اعلام النبلاء ـ طبعة مصر 1957 ج 2 ص 10. 16 المسعودي-مروج الذهب طبعة مصر 1304 هـ في جزئين ح 1 ص 282 زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي-ج 4 ص 19. 21 ـ الزبيري ـ نسب قريش ص 291 293 ـ الزركلي ـ الاعلام ج 4 ص 204

ترى عنه اقوال ماثورة في التمييز بين الجيد والرديء من الرقيق لخبرته وطول تجربته. يقول السقطي : ((حكى عن ابي عثمان رئيس النخاسين بالمشرق والشأن اليه هنالك لكثرة الخبرة والمداولة على القوم ...)) (1) ومن اقواله المشهورة قوله : ((اذا وجدت المرأة بنت تسع حجج كتامية الام صنهاجية الاب مصمودية المنشأ قد جلبت الى المدينة واقامت بها ثلاث حجج وبالعراق عشر حجج فتلك التي جمعت حسن الجنس الى كمال القصد وقليل ان تخفى في اجفان العيون)) (2) من الواضح اذن ان ابا عثمان هذا من مشاهير النخاسين الا ان المصادر لا تسعفنا بمعلومات اضفى عن ظروف حياته المهنية .

وتشير المصادر الى بعض تجار الجواري والقيان بالمشرق وخاصة منهم اولئك الذين اهتموا بتعليم الاماء قبل بيعهن ومعظم هؤلاء من مشاهير المغنين . وقد اشتهر في هذا العصر ((ابن رامين)) الذي كان صاحب قيان يقصد بيته الشعراء والتجار لولعهم بما احتوى عليه من شهيرات الجواري اللائي ذاع صيتهن بالعراق مثل سلامة الزرقاء (3) ولم تستنكف بعض

---

1) السقطي ـ آداب الحسبة ـ ص 50
2) المصدر نفسه ـ ص 51 . 52 ـ ابن بطلان ـ
رسالة في شري الرقيق ـ ص 374
3) ابن قتيبة ـ عيون الاخبار ـ دار كتب المصرية القاهرة ـ
1348هـ / 1930م الطبعة الاولى ج 10 ص 99 . 100
الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بولاق ـ ج 10 ص 135

النسوة ايضا من فتح بيوتهن سوقا للجواري المغنيات ومنهن ((بربر)) التي كانت لها دار معروفة يتردد عليها اصحاب الشغف بالاماء من شعراء ونخاسين وغيرهم وقد كان الشاعر مطيع بن اياس يتردد الى هذه الدار لاعجابه باحدى جواريها التي كانت تدعى ((جوهر)) (1) وقد اورد صاحب كتاب الاغاني اخبارا كثيرة عن مشاهير المغنين الذين كانوا يمارسون تجارة الرقيق ويختارون منه اجوده ليشرفوا على تعليمه ثم بيعه بارفع الاثمان (2)

وقد عرف بالمشرق ايضا وبالعراق على وجه الخصوص محمود بن حسن الوراق (3) الذي مارس النخاسة في مرحلة من مراحل حياته ثم تخلى عنها وسلك طريق الزهد وقد نقلت المصادر اخباره باعتباره شاعرا مجيدا وان كانت قد اشارت الى ممارسته لتجارة الرقيق في وقت ما . وقد يشير المؤرخون احيانا الى بعض النخاسين الذين اتصلوا برجال السلطة لاهتمامهم في الغالب بتاريخ الملوك والاسر الحاكمة . اذ تحدثوا من حين لاخر عن تاجر رقيق مشهور مثل محمد ابن موسى الراني اصيل مدينة الري وكان محمد هذا من كبار التجار المتجولين بالآفاق فقد سافر الى افريقية في عهد ابراهيم بن الاغلب (261 - 289 هـ/ 875 - 902 م) وكان ابراهيم على علاقة طيبة مع محمد الاول الاندلسي (238-273هـ/852-886م) فارسل اليه محمد الراني مصحوبا بمجموعة من الهدايا فصار محمد صديقا للامير الاندلسي ومكث عنده مدة من الزمن ثم رجع الى العراق.لكن المودة التي توثقت

---

1) فلهاوزن -Wellhausen- ج - الدولة العربية.تعريب ابي ريدة ـ 1953 ص264

2) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة بيروت - 1964 - ج18ص 93

3) توفي سنة (230هـ/ -845 - م) ـ(الزركلي ـ الاعلام) .

بين الرجلين قد دعت الامير الى استقدام صديقه التاجر مرة اخرى سنة(271هـ/ 884م) فلبى نداءه وقدم عليه بجارية يونانية الاصل من عائلة امراء متقنة للغناء والادب وحافظة لفصيح الشعر قديمه و حديثه واراد بيعها لصديقه لكن بلاط الامير لم يول هذه الجارية اهمية كبرى فغضب التاجر وغادر الاندلس قاصدا سجلماسة حيث تاجر بالرقيق هناك.وعند ما توفي الامير محمد الاول سنة (273هـ/ 886م) وتولى المنذر (273-275هـ/ 886-888م) مكانه تلقى الراني الدعوة من البلاط الاندلسي مرة اخرى فسارع بالذهاب الى قرطبة ولكن مقامه بها لم يدم طويلا لان المنذر لقي حتفه امام حصون ((ببشتر)) فقرر التاجر العودة الا انه مرض بألبيرة وتوفي بها سنة (277هـ/ 890م) (1).

امّا فيما يخص النخاسين بالمغرب فان بعض الاحداث الكبرى التي جرت بافريقية في عهد الامام سحنون من خلاف بينه وبين الامير الاغلبي حول ما وقع من سبي للحرائر في الحملة على تونس قد كانت مناسبة لاهتمام بعض المؤلفين بمن ساهم في المتاجرة بذلك السبي من غزاة ونخاسين ولهذه الاسباب نجد ذكرا عند المالكي في رياض النفوس لبعض الاسماء مثل ((حاتم الجزيري)) الذي اعطى ما بيده من سبايا مقابل سبعة دنانير تحت الضغط المسلط من قبل القاضي ورجال الحسبة. ومثل النخاس المسمى ((منصور)) الذي انتزع المحتسبون من يده بعض الحرائر اللائي جلبهن من تونس للبيع كما جرى ذكر بعض القادة مثل ((زوكاي بن زيرخ)) الذي جلب سبيا من جزيرة ابن شريك (2) لكن المصادر قلما حدثتنا عن هؤلاء النخاسين لذاتهم

---

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا الاسلامية ج 3 ص502-503

2) المالكي - رياض النفوس - ج 1 ص 280 . 281 . 282

وقلما اولتهم عناية خاصة بهم ومن هذه الاحوال النادرة حديث الرحالة البكري عن نخاس مشهور باودغست وجد قبل عهده يقال له ابورستان النفوسي وهو تاجر بربري الاصل كما تدل على ذلك تسبته وقد كان من الاباضية (1) ويذكر ابن حوقل الذي زار سجلماسة سنة (340هـ/ 951م) و وجد بها تجار العراق والبصرة والكوفة وبغداد انه صادف بينها وبين اودغست بربر نفوسة من صنهاجة يتقاضون اموالا على التجارات المارة بهم ومنها تجارة الرقيق (2) ويتعرض كل من ابن حوقل والبكري الى نفس الظاهرة بالنسبة الى بربر مسوفة الذين انتشروا بوادي درعة بين سجلماسة وغانة وكانوا يتقاضون مكوسا على تجارة بلاد السودان (3) فقد كانت قبائل البربر في الجملة مسيطرة على طرق هذه التجارة وقد شاركهم العرب كما راينا سابقا في ممارسة تجارة رقيق السودان .

---

1) البكري ـ المسالك والممالك ـ طبعة دي سلان - De slane. 1965 ـ ص159

2) ابن حوقل ـ صورة الارض طبعة ليد- Leyde. — 1938- نشره كريمر ـ J. H. Kramers - في جزأين ج 1ص90 . 103 (opus Géographicum autore Ibn Haukal)

3) البكري المغرب ص 149
ابن حوقل- صورة الارض= الترجمة الفرنسية ـ لفياـ Wiet وكرامرز Kramers ج 1ص48ـ52

الفصل الثاني

شراة الرقيق

شـــــــــراة الـــرقيـــق

واذا ما تساءلنا عن شراة الرقيق في هـــذا العصر لاحظنا ان حظوظهم من هذه المادة التجـــارية كانت متفاوتة حسب اوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية كتفـــاوت حظوظهم من المواد التجارية الاخرى وخاصة منها مواد تجارة الترف ووسائل الانتاج . وذلك لان مجتمع هذا العصر قد اتسعت خلاله الفوارق الاجتماعية بين الفئات حسب موارد ها وامكاناتها المادية ولان توزيع الثروة لم يكن بصورة عادلة مما آل الى تجمع الثروات بين ايدي فئة اثرت ثراءا فاحشا وحرمت منها اخرى عاشت في فقر مدقع وقد انعكس هذا الواقع في آداب العصر بصورة واضحة (1) وبما ان الرقيق كان مادة ضرورية في هذا المجتمع وكان متفاوت الاثمان ايضا رأينا من المفيد ان نتساءل عن حظوظ الفئات الاجتماعية منه كما وكيفا.

---

1) الهمذاني ـ المقامات ـ طبعة 1346هـ/1928م (مصر)
التوحيدي ـ الامتاع والمؤانسة ج1ص105 ـ ج2ص26
آدم متز A.MEZ ـ الحضارة الاسلامية ـ ج2ص209ـ267

ا) طبقـــــــة الخـــاصـــة

من البـديهي ان نقـول ان سراة القوم واثريـاءهـــــم هـم الذي كـانـوا اكثـرا قتنـاءالـه من غيـرهـم بحـــــكم ثرواتهـم الضخمـة ومـا تتطلبـه حياتهم المترفـة من خدمات يسخرون الرقيـق للقيـام بهـا ومـن متـع ومـلاذ يتخـذ ون الجواري الحسـان والغلمـــان المقـدودين مـادة لهـا وسيلـة لتحقيقهـا . وكثيـــرة هـي الروايـات التي تصور لنا وجود القوم عنـد خروجهـم فتصفهـــم محفوفين بكوكبـة من الغلمـان ابهـة وخيلاء وربمـا استعمـل احد هـم خـدمه للدفـاع عنـه عنـد الحاجـة ولا براز قوتـه وجبروتـــــه حتى امس الا ستكثـار من هؤلاء الرقيق عنوانـا للجاه والثروة ولم يكن هـذا السلوك خـاصـا بالمسلمين في هـذا العصـر اذ نجـد وجهـاء الروم البيزنطيين يتوخونـه ايضـا معاد عـا الوعـاظ الى النهي عنـه في شتى العصور وامتـداد امن القرن الخامس الى القرن الرابـع عشـــــر الميلاد ويمكننـــا ان نذكـر على سبيـل المثال بالقديس ((يوحنـا كريزوستوم)) - saint jean chrysostome - (القرن الخامس) وبالقديس ((ايزود ور تسالونيكا)) Isodore de thessalonique القـــرن الرابـع عشـــر) الذين ثارا ضد كبرياء هؤلاء الوجهـــاء الذين كـانـو يتبختـــرون في شوارع المـدن بعـديـد مـــــن الـــــــرقيـــــق (1)

---

1) لويس برييي - Louis Bréhier -
الحضارة البيزنطيـــة civilisation Byzantine - ص 15

وطبقة الخاصة هي اكثر الطبقات الاجتماعية حظا في هذا المجال وهي تتكون من رجال البلاط وكبار الموظفين كالوزراء ورؤساء الكتاب وقواد الجند والولاة وكبار التجار (1) ومن الطبيعي ان يكون الخلفاء والامراء واسرهم في مقدمة رجال هذه الطبقة لان طاقتهم الشرائية تتجاوز كل الحدود وتقدر على شراء انفس انواع الرقيق والآلاف المؤلفة منه وقد رأينا امثلة مما يبذله رجال البلاط من نفقات طائلة لهذا العرض لان حياة القصر الملكي تتطلب العديد من الوظائف والخدمات التي يعول فيها على الرقيق في المقام الاول لاسباب سياسية ومهنية وفنية متنوعة . وكان رجال البلاط يكلفون اعوانا للقيام بمهمة شراء ما يرغبون فيه من رقيق شأنهم في ذلك شان حكام الدولة البيزنطية الذين كان لهم تجار مكلفون بشراء الرقيق من المناطق الحدودية وخاصة من القوقاز (2)

---

1) الدوري ـ تاريخ العراق الاقتصادي ص225

2) لويس بريهيي ـ L. Bréhier ـ المؤسسات Les institutions ص 252 :

وكان ولاة الاقاليم وامراؤها يذهبون مذهب الخلفاء والوزراء والطلون والحجاب وقواد الجند وامهات الاولاد بالبلاط الملكي في الاستكثار من مادة الرقيق ويكلفون اعوانا لجلبه واقتنائه مثلما كان يعمل عبد الله بن طاهر امير خراسان اذ كلف رجلا يدعى ((ابا السمراء)) ليشتري له بعض الجواري من بيروت النخاسين وجرت بينهما مكاتبات في ذلك (1) وكان الرقيق في متناول ايدي هؤلاء الولاة والعمال قبل ان يكون في متناول غيرهم اذ منهم من يلي عملا او ولاية تكتسط بالرقيق لقربها من صادره واسواقه الاجنبية مثل ولاة دولة السامانيين بما وراء النهر فكانوا ينتقون منه أجوده ويهدون منه الى الخلفاء والطلون ما يرونه لائقا بمقامهم . ويمكن ان نضرب مثلا بما تركه ابو الحسين علي بن احمد الراسبي والي جند نيسابور والسوس وماذاريا من رفيقه الخاص بعد موته سنة (301هـ/ 913 م) فقد خلف 114 اربعة عشر ومائة من خدم السودان وثمانية وعشرين ومائة و 12 من الغلمان البيض وتسعة عشر و 1 من الخدم الصقالبة والروم واربعين 40 غلاما بآلاتهم وسلاحهم ودوابهم (2) وقد تكثر مادة الرقيق في ولاية احدهم كثيرة تجعله يرسل الجواري الى مركز الخلافة في شكل

---

1) ابن القيم الجوزية - اخبار النساء ص 113-114

2) احمد امين - ظهر الاسلام - ج 1 ص 105-106
الثعالبي - يتيمة الدهر ج 2 ص 105

رؤوس من الرقيق واحسن مثال على ذلك ولاة خراسان (1).

وقد اورد صاحب المحاسن والمساوي اخبارا حول ما كان يشتريه ولاة المأمون (198 - 218 هـ/ 813 -833م) وقضاته من الرقيق فقد روي عن بشر بن الوليد انه قال : ((كنت عند المأمون فقال ولينا رجلا قضاء دمشق وا جرينا عليه الف درهم اشار علي به محمد ابن سماعة فأقام بها اربعة عشر شهرا فوجهنا من يتتبع امواله في السر والعلانية ويتعرف حاله فاخبرانه وجد ما ظهر من ماله في هذا المقدار من دابة وغلام وجارية وفرس واثاث قيمته ثلاثة آلاف دينار ولينا رجلا نهاود فاقام بها اربعة وعشرين شهرا فوجهنا من يتتبع امواله واخبرنا ان في منزله خدما وخصيانا بقيمة الف وخمسمائة دينار)) (2) .

وبصورة عامة يمكن القول بان طبقة الخاصة هي التي كانت تمثل اهم الطالبين للرقيق فكبار التجار كانوا ينعمون بالشرف الذي ينعم به رجال الدولة بل انهم كانوا يستمدون اكبر نصيب من ثرواتهم من تعاطيهم مع الطبقة

---

1) الدوري - مقال : نظام الضرائب في خراسان - ص 79
2) البيهقي - المحاسن والمساوي - ص 163

الحاكمة وبذلك كانت الدولة على حد قول ابن خلدون هي السوق الاعظم. وهي ((ام الاسواق كلها واصلها ومادتها في الدخل والخرج فان كسدت وقلت صارفها فاجدر بما بعدها من الاسواق ان يلحقها مثل ذلك واشد منه وايضا فالمال انما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم اليه ومنه اليهم فاذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية سنة الله في عباده)) (1).

ان هذا القول ليصح تماما بالنسبة الى تجارة الرقيق فالدولة هي فعلا السوق الاعظم لهذه التجارة في هذا العصر لان احوال الترف والنظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي التي تحف بالدولة الاسلامية كانت تقتضي في مرحلة من مراحل حياتها اقتناء مادة اساسية وضرورية لحياتها وهي مادة الرقيق و((الموالي والصنائع)) (2).

:

---

1) ابن خلدون - المقدمة - ص 204

2) المصدر نفسه - ص 124 - 125

ج) الطبقة المتوسطة

وكانت الطبقة المتوسطة من المجتمع وهي التي تشمل عامة التجار والموظفين وأصحاب الملكيات الصغيرة والاراضي تقتني الرقيق وتستعمله في خدماتها الخاصة او المهنية لكن امكانات ابناء هذه الطبقة المادية لم تكن تسمح لهم باقتناء مجموعات كبيرة من الرقيق وانما كان يكتفي الواحد منهم بعدد محدود حسب حاجياته العائلية أو ما تستدعيه تنمية موارده الاقتصادية في ميدان التجارة او الصناعة او الفلاحة وسائر الانشطة الاجتماعية . واذا ما تأملنا في مستوى الدخل العادي بالنسبة الى افراد هذه الطبقة وفي مقدرتهم الشرائية امكننا ان نعرف الى اي مدى يمكنهم ان يمتلكوا هذه البضاعة .

فمن الامثلة التي تصور لنا مستوى عيش هذه الفئة الاجتماعية في هذا العصر ما ذكره سبط ابن الجوزي من ان فقيها ولد سنة (252 هـ / 866 م) قد قرر ان يحسن مستقبل ابنه فعمل على تخصيص دينار له في كل يوم طيلة حياته ادراكا منه ان دخل الفرد يكفي الرجل المتوسط العمال ويبقى له كما فكر في ان يدخر له مبلغا يعادل دخل الانسان العادي (1) وهكذا نستنتج منه ان ثلاثين دينارا في

1) المقريزي - إغاثة الأمة - ص 85
الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 245-246

الشهر كانت تكفي لمعيشة عائلة من الطبقة المتوسطة في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع للهجرة . وروي ان احد التجار قد افلس وذلك عام (301هـ / 913 م) فاعطاه الوزير علي بن عيسى اربعمائة دينار فدفع مائتين منها لدائنيه وانشغل بالباقي ولم تفته السنة الا وكان عنده الف دينار (1) وذلك يكون صافي ربحه خلال سنة ثمانمائة دينار .

فهذه الصورة عن مستوى الدخل الشهري تدل على تمكن صاحبه من اقتناء بعض الرؤوس من الرقيق وذلك بالمقارنة بين معدل سعر هذه البضاعة ومعدل الدخل. وقد اورد القاضي التنوخي بعض الاخبار التي تصور لنا ما يقتنيه ابناء الطبقة المتوسطة من رؤوس الرقيق فمن ذلك خبر رجل بدد ثروته ثم ورث ثلاثين الف دينار فعزم على الارتفاق بها طيلة حياته وتوزيعها على ابواب معينة بحصص مقدرة وهو ذا يصف لنا حسن تدبيره بقوله : ((اعتقدت ان لا ابذر وان ادبر واعيش بها الى ان اموت وانفقها على اقتصاد . فعمرت هذه الدار واشتريت جميع ما فيها من فرش وآلة وثياب ومركوب وجوار وغلمان بخمسة

1) الدوري ـ تاريخ العراق الاقتصادي ص246 ـ 248

آلاف دينار وجعلت تحت الارض خمسة آلاف دينار عدة للحوادث وابتعت ضياعا وستغلات بعشرة آلاف دينار تغل في كل سنة مقدار نفقتي ... ويفضل لي في كل سنة الى وقت ورود الغلات شيء آخر حتى لا احتاج اقترض ولا استدين)) ويقول التنوخي ان الدار كما وصفها صديق له تحتوي على ((اربعة غلمان قد جعل خدمتهن الى كل واحد منهما وخادم شيخ ... جعله بوابا وشاكري وهو سائسه)) (1).

واضح من خلال ما سبق ان الخدم والغلمان والجواري كانت من الضروريات التي يمتلكها رجل من الطبقة المتوسطة لتتقيم شؤونه العائلية والمهنية. وهذه رواية ترجع الى العقد الثالث من القرن الرابع للهجرة وتصف كالرواية السابقة احوال هذه الطبقة وفسادها ان رجلا افلس ثم ورث اربعين الف دينار فحاول ان يدبر امره باقتصاد وحدث بذلك صديقه فقال ((فعمرت هذه الدار بالف دينار واشتريت من الالة والفرش والثياب والجواري ما تراه وغيره بسبعة الاف دينار وسلمت

---

1) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة ج 2 ص 17
آدم متز ـ A.MEZ ـ الحضارة الاسلامية ج 2 ص 209
الدوري ـ تاريخ العراق الاقتصادي ص 255 ـ 256

الى بعض التجار الثقات الذي دينار يتجر لي فيها)) وكان لهذا الرجل ثلاثة غلمان وخادم اقامه على حرمه وشيخ بواب ووكيل يتسوق له (1)

كان اذن لابناء هذه الطبقة ما يمكنهم من اقتناء الرقيق واستخدامه للمتعة والخدمة وذلك بمقدار يتفاوتون فيه ولكنه دون ما كان يتمتع به ابناء طبقة الخاصة من قدرة على استعمال مجموعات ضخمة من الرقيق في حياة الترف والاستثمار الاقتصادي او الابهة والقوة العسكرية ... ولا بد ان نتمثل ايضا من حظ طبقة العامة من هذه البضاعة أن نقارن بينها وبين الطبقة المتوسطة والخاصة في هذا المجال حتى يكتمل تصورنا لعملية توزيع هذه المادة التجارية بين شتى اصناف الفئات الاجتماعية في هذا العصر .

3) طبقة العامة

ان طبقة العامة هي الطبقة الفقيرة في بنية هذا المجتمع وهي تشتمل على الفلاحين واهل الحرف والصناع والباعة المتجولين والمكدين وهؤلاء من الكادحين في سبيل الحصول على القوت ويمثلون اليد العاملة التي تعتمد عليها الحياة الاقتصادية فلم يكن بامكانهم ان يحولوا على غيرهم في القيام بشؤونهم ولذلك

1) التنوخي - نشوار المحاضرة - ج 1 ص 91 - 93
الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 255 - 256

كانوا ابعد الناس عن اقتناء الرقيق واعجزهم عن امتلاكه بل كان مستوى عيشهم دون مستوى عيش بعض الفئات المسترقة التي تعيش في كنف ارباب الطبقة الارستقراطية . ويحسن بنا ان نلقي نظرة على معدل دخل افراد هذه الطبقة حتى تكون لنا فكرة عن قدرتها الشرائية

فيحدثنا التنوخي مثلا عن دخل الباعة المتجولين و ((من يبيع بيعا يسيرا مثل نقلي وهداري ومن راس ماله دينار ودينار او ثلاثة)) ويبين لنا ان واردهم كان ضئيلا (1) وان منهم من كان يبيع على قارعة الطريق اشياء رخيصة بدرهم او درهمين (2) وان من البقالين من لم يكن لديه من الوفر مائة فلس (حوالي خمسة دراهم) نقدا (3) وتدل اخبار الزجاج النحوي على اوضاع الصناع المادية في أواخر القرن الثالث للهجرة اذ كان وهو شاب يشتغل بخرط الزجاج ويكسب ((في كل يوم درهم وانقين او درهم ونصف)) وقد اراد ان يدرس النحو على المبرد الذي كان ((لا يعلّم النحو مجانا ولا يعلّم باجرة الا على قدرها)) فقال الزجاج للمبرد ((اريد ان تبالغ في تعليمي وانا اعطيك في كل يوم درهما واشرط لك اني اعطيك اياه ابدا الى ان يفرق الموت بيننا استغنيت عن التعليم

---

1) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص246-248
2) المرجع نفسه -
3) المرجع نفسه -

او احتجت اليه.)) فوافق المبرد (1) ويفهم من ذلك ان الزجاج لم يكن قادرا على دفع الاجرة العادية التي تبلغ الدرهمين او الثلاثة في اليوم .

وفي دخل الاجراء ايضا صورة لهذا المستوى العادي ففي سنة (397 هـ/ 1006 م) اشتغل احد الزهاد بالحراسة عند احد اليهود وطلب ان تكون اجرته ثلاثة ارطال خبز ودانقي فضة في اليوم (2) وجاء رجل فقير الى البصرة في اواسط القرن الرابع للهجرة وطلب عملا من صاحب حانوت فاستخدمه كاتبا لحساباته مقابل اجرة نصف درهم في اليوم اضافة الى طعامه وكسوته (3) فهذه كلها اشارات الى مستوى الدخل بالنسبة الى ابناء هذه الطبقة وهو مستوى لم يكن يسمح لهم باقتناء الرقيق .

واذا ما كان رجال الفكر من ادباء وعلماء وشعراء واطباء يعيشون في الغالب على فتات موائد طبقة الخاصة ويحظون احيانا ببعض الامتيازات فتجد عند بعضهم الجارية او الخادم فانهم كانوا في بعض الفترات وخاصة في القرن الرابع للهجرة باقليم العراق يعيشون

1) التنوخي - نشوار المحاضرة - ج 1 ص 274
2) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي - ص 249 - 250
3) المرجع نفسه -

عيشة الخصاصة والفقر وقد وصفهم ابو حيان التوحيدي كما وصف نفسه في حال يرثى لها من جراء غلاء المعاش في ظل البويهيين (1) وفي سنة (352 هـ/963 م) ذكر ابن ابرونا طبيب الوزير المهلبي احد وزراء البويهيين انه كان قبل ان يستخدمه الوزير يدور من باب الى آخر ليعالج المرضى ويأخذ دانقا ونصفا ويبيع درهم من كل مريض يعالجه (2) وتزداد حالة هؤلاء سوءا في اوقات الازمات الاقتصادية فيصبحون رغم علمهم وثقافتهم في فقر مدقع يجبرهم على الارتحال من بلاد اسلامية الى اخرى بحثا عن موارد الرزق وقد نقل لنا ابن خلكان وصف الحالة بعضهم مثل كبير فقهاء المالكية عبد الوهاب البغدادي المالكي وذكر كيف ضاقت به سبل المعيشة في بغداد اذ لم يجد قوت يومه فخرج منها طالبا للرزق وعند ما شيعه اكابرها قال لهم ((لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلت عن بلدكم)) ثم انشأ يقول :

---

1) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة ج 1 ص 105 - ج 2 ص 26

2) مسكويه - تجارب الامم - ج 2 هامش ص 198

سلام على بغداد في كل موطن وحق لها مني سلام مضاعف

فوالله ما فارقتها عن قلى لها وإني بشطي جانبها لعارف

ولكنها ضاقت علي بأسرها ولم تكن الارزاق فيها تسامح

وكانت كخل كنت أهوى دنوه وأخلاقه تنأى به وتخالف

فلما وصل الى صرمات لاول ما وصلها من اكلة اشتهاها فزعموا انه قال وهو يتقلب (لا اله الا الله اذا عشنا متنا))

(1) فاذا كانت هذه احوال العلماء فما بالك باحوال المكدين والمتسولين الذين لم يكونوا يجدون قوتهم اليومي الا بصعوبة

وهكذا يتبين لنا ان طبقة العامة لم يكن لها من مستوى العيش ما يمكنها من اقتناء الرقيق ولم يكن لها من الدخل ما يسمح لها باستعماله . وتفيد اخبار هذا العصر ان بعض افراد هذه الطبقة لم يصلوا الى الحد الادنى من العيش المقبول ففي سنة (282هـ/895م) اراد الخليفة المعتضد (279 - 289هـ/ 892 - 902م) اغراء لص ليعترف بسرقة فقال له : ((متى اقررت اجريت لك في كل شهر عشرة دنانير تكفيك لاكلك و شربك

---

1) ابن خلكان ـ وفيات الاعيان ج 1ص 431

وكسوتك وطيبك) (1) فعشرة دنانير هي رمز لهذا الحد الادنى وهي بالقياس الى اسعار الرقيق لا تمثل طاقة شرائية كفيلة بمواجهة تكاليف هذه المادة التجارية .

4) اهل الذمة وتجارة الرقيق

ولاهل الذمة دور في تجارة الرقيق لايقل اهمية عن دور المسلمين وذلك لأنّ المشرّع الاسلامي قد اعتبر "الذمة" عقدا بين المسلمين والكفار شرطه دفع الحرية ونتيجته المساواة في الحقوق وقد أشار الرسول الى ذلك في قوله "فاذا قبلوا عقد الذمة فأعلمهم ان لهم ماللمسلمين وعليهم ما على المسلمين" (2) ومن تلك الحقوق المعاملات التجارية التي يعتبرها الاسلام جائزة مع الكفار . فالبيع أو الشراء حق للمسلم والكافر وما يجوز لأحدهما فيه لا يجوز لآخر مع استثناء التعامل بالربا والخمر والخنزير فانها لا تجوز للمسلم فقط ولدليل بقية استثناءها من عقود اهل الذمة .

---

1) الدوري - تاريخ العراق الاقتصادي ص246 - 248

2) الشافعي - الأم - ج 4 - ص 173

أما بخصوص تجارة الرقيق فاننا نلاحظ انّ الفقهاء قد أفردوا حق اليهود والنصارى في شراء الرقيق وبيعه وملكه واستخدامه ورهنه ومؤاجرته وعتقه والتصرف فيه كغيرهم من مواطنيهم المسلمين وحرصوا مع ذلك على منع شراء الكافر للعبد المسلم ويدخل في معنى "الكافر" هنا من كان من أهل الذمة. وهم يعتمدون في ذلك على ما جاء في القرآن من رفض لسلطان الكافر على المسلم. فقال تعالى " ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا " (1) وبناءا على ذلك قال جمهور الفقهاء من الشافعية والحنابلة والمالكية بعدم جواز امتلاك النصارى واليهود للرقيق المسلم أو الصغير السنّ (2)

---

(1) قرآن - سورة النساء ايية - عدد 141

(2) ابن قدامة - المغني - ج 4 ص 41

وبجواز امتلاكهم للرقيق النصراني أو اليهودي مع اشتراط البلوغ فيه لأنّ العبد الصغير يمكن لمالكه أن يغرر عليه دينه بالتهديد والغصب (1) أمّا اذا كان مرفوعا بأحد والديه النصرانيين او اليهوديين فلهم شراؤه وامتلاكه (2).

ويرى هؤلاء الفقهاء انّ أهل الذمة اذا تحاوزوا هذه الأحكام بأن اشتروا عبدا مسلما أو صغيرا منفصلا عن أقاربه وكذلك اذا أسلم من في ملكهم من رقيق أجبروا على البيع او الهبة او العتق كما قالوا بفصل العبد المدبر عن سيّدة الذمّي مدة تدبيره وبان يؤاجر عند غيره وليس لسيّده منه الا ثمن المؤاجرة الى أن يموت (3)

---

(1) السغطي ـ آداب الحسبة ـ ص 52 ـ خليل بن اسحق ـ المختصر ـ ص 3 ـ 5

(2) المصدر نفسه

(3) مالك بن انس ـ المدونة الكبرى ـ ج 8 ـ ص 19

وقد استكرهوا اياها مؤاجرة عبد مسلم لدمّي ولو مدّة قصيرة (1) .

وهكذا فان هذا التشريع قد كان يخول لأهل الذمة أن يمارسوا على الاقل تجارة الرقيق المعتنق لديانتهم وقد كان لهم بذلك دور لايستهان به في تنشيط هذه التجارة فهم الذين كانوا يشترون في الغالب ما يبيعه الغزاة بالثغور من أسرى غير مسلمين يدفعهم الى ذلك عاملان أساسيان أولهما رغبتهم في انقاذ أهل ديانتهم من ايدي المسلمين وثانيهما ما يواجههم من صعوبة افتناء رفيق مسلم (2)

---

(1) المصدر نفسه - خليل بن اسحق - المختصر - ص 349

(2) المصدر نفسه - السرخسي - شرح السير الكبير - ج 4 - ص .

ومن الأمثلة المشهورة على هذا الدور الذي اضطلعوا به شراؤهم لعدد كبير من الاسرى المسيحيين الذين أسروا في ثورة ابن حفصون بالاندلس (1) .

لكن أهل الذمة لم يكونوا يجدون صعوبة دائما في اقتنائهم للرقيق المسلم وذلك لأن مخالفة الاحكام الشرعية في هذا المجال قد كانت أمرا واقعا ممّا دعا رجال الحسبة الى التشدد في مراقبة تلك المخالفة والتنبيه اليها في مؤلفاتهم يقول السقطي "ولا يبيعون صبيّا ولا صبية من أحد من أهل الذمة اليهود أو النصارى الا ان يكونا مع امّهما من تهوّدهما ....." (2) وقد اضطرت السلطة الى التدخل في الموضوع أحيانا مثلما فعل المتوكل (232-247هـ/ 847-861م)

---

(1) بروفنسال - Provençal تاريخ اسبانيا المسلمة ج-3- ص208-214

(2) السقطي - آداب الحسبة - ص 52

حين اتخذ سنة (236 هـ/ 850م) وسنة (240 هـ/ 854م) بعض التدابير الخاصة بأهل الذمة ومنها أن يميّزوا رفيقهم بعلامتين من اللون الأصفر احداهما من قبل والاخر من دبر (1) وتذكر المصادر بعض الأمثلة على وجود رقيق مسلم بيد النصارى بالمغرب الاسلامي اذ نجد في فتوى لأبي الفرج التونسي (ت 443 هـ/ 1051م) حديثا عن مسيحي توفي وخلف عبدا مسلما مدبّرا (2) .

لكنّ مخالفة الاحكام الشرعية لم تكن المنفذ الوحيد الذي خوّل لأهل الذمة شراء الرقيق المسلم بل كان لهم في اختلاف الفقهاء ايضا مجال لممارسة تجارة الرقيق المسلم خصوصا في النواحي التي انتشر فيها المذهب الحنفي من العالم الاسلامي

(1) فيليب حتي Philippe - HITTI - تاريخ العرب - ص 115

(2) الونشريسي - المعيار - طبعة فاس 1314 هـ (في 12 مجلدا) ج 9 ص 140 - 141

- روجي ادريس - H.R.IDRIS

بلاد البربر ج 2 ص 576 وص 685 احالة رقم 493

وذلك لأن الحنفية كانوا يجوّزون خلافا لسائر المذاهب الفقهية شراء الكافر للعبد المسلم مقرّين بذلك تشريعا أكثر تلاؤما مع العمليات التجارية وأوثق صلة بالواقع الاجتماعي.

وقد استشهدوا على موقفهم هذا بقوله تعالى "واحلّ الله البيع" (1) واعتبروه مبدأ عاما لا تمييز فيه بين مسلم وكافر كما استشهدوا بأن الكافر له اهلية العقد والتصرّف وبأن الرقيق مال يتعامل به.

واستندوا الى ماكان يجري في واقع المعاملات التجارية بخصوص رقيق أهل الذمّة الذي يبقى على ملك اسياده اذا أسلم ويرثونه اذا مات (2)

---

(1) القرآن - سورة البقرة - آية عدد 275

(2) السرخسي - المبسوط - ج 3 ص 130

وهكذا يمكننا أن نستخلص أنّ اهل الذمة قد امتلكوا الرفيق المسلم على الاقل في النواحي التي انتشر فيها المذهب الحنفي . وانهم قد شاركوا في تنشيط تجارة الرفيق بشتى احناسه ومعتقداته في حين كانت القوانين في الدولة الرومانية البوزنطية تحرّم على غير النصارى أن يتخذ رقيقا من النصارى (1)

---

(1) آدم متز - A.METZ - الحضارة الاسلامية - ح 1 ص296

5) شـــــراء الرقيـــق للـــــرقيـــــق

لقد كان استهلاك المجتمع الاسلامي لمادة الرقيق عظيمـــا فـــلم يكـن الأحرار وحدهم شراة للرقيق بل ان نسبة كبيـــرة من الرقيـــق في المجتمـــع الاسـلامي كانت تشتري الرقيـق ايضا . وبعبـارة اخرى كانت هـذه البضاعة فضلا عن استهلاكها من قبل الاحـرار مستهلكـة من قبـل المسترقيـن انفسهم فصارت اشبه بالبضـاعـــة التي تستهلك نفسها بنفسها. واذا مـادل هـذا الوضع على شيء فانمـــا يـدل على تفاقم الحاجـة الى هـذه المادة وتزايد الطلب باستمرار.

ذلـك ان التشريع الفقهي قد جوز في صور عديدة ملك الرقيـــق للرقيـــق ففي خصـوص العبد القن اي المطلق العبـوديـة نرى الملكيـة يخالفـون الحنفيـة والشافعيـة والحنابلـة في قولهم بحقـه في الملكيـــة اعتمـادا على قـول الرسول (من اعتق عبدا ولـه مـال فمـال العبـد لـه الا ان يستثنيـه السيـد) (1) ونـراهـم يوسعـون من نطـاق هـذه الملكيـة فيجـوزون للعبـد ان يشتـري امـة من مـالـه وان يتسـرى بهـــا

---

1) الترمـــذي ـ صحيح ـ ج 6 ص 3

د ون اذن سيده . يقول مالك :(يجوز ان يتسرى العبد في ماله ولا يستأذن سيده) (1) كما يقول :(وان كانت للعبد سرية قد ولدت منه علم السيد بذلك ام لم يعلم فان سرية العبد للعبد وان اولاده ارقاء لسيده) (2) .

ويذهب الظاهرية نفس المذهب في الاعتراف بحق الملكية للعبيد ويستندا بن حزم في ذلك الى خبر رواه مسلم بن عاصم عن ابن عباس قال :(حجم النبي عبد لبني بياضة فاعطاه النبي اجره وكلم سيده فخفف عنه ضريبته) (3) ويستنتج من هذا الخبر ان مال هذا العبد الحجام ملك له وان من حق العبد ان يشتري بماله ويبيع منه ما شاء بغير اذن سيده . يقول في ذلك :(وبيع العبد وابتياعه بغير اذن سيده جائز) (4) ثم انه يجوز اعتمادا على كل ذلك ان يتخذ العبد سرية له وان يستولدها فتصبح ام ولده واذا ما اعتق بقيت في ملكه (5) .

---

1) مالك بن انس - المدونة الكبرى ج 2 ص 210

2) المصدر نفسه ج 3 ص 217 وج 14 ص 44 . 45

3) ابن حزم - المحلي ج 9 ص 53

4) المصدر نفسه ج 9 . ص 52

5) المصدر نفسه

ولئن كانت بقية المذاهب لا توافق على هذا الراي بالنسبة للعبد القن فان ذلك لا يمنع من ان يكون المذهب المالكي والظاهري قد شهدا بعض صور التطبيق لموقفهما في مجال الواقع الاجتماعي بالنسبة للحيز الجغرافي الذي انتشرا فيه . ثم ان تلك المذاهب الرافضة لملكية العبيد الاقنان كانت موافقة على ملكية غيرهم من العبيد اي اولائك الذين وجدت فيهم شائبة حرية ولم يكونوا مطلقي العبودية وكان وضعهم القانوني يجعلهم في مرتبة وسطى بين العبودية والحرية . ومن هذا النوع العبد المبعض شلا . فالعبد المبعض اي من تحرر جزء منه دون سائره يجمع الفقهاء على انه يملك بقدر نصيبه من الحرية ويحرم يقدر نصيبه من الرق يقول ابو جعفر الطوسي (العبد اذا كان بعضه حرا وبعضه مملوكا فانه يرث بحساب الحرية ويحرم بحساب الرق) (1) وما الارث هنا الا صورة من صور ملكية هذا العبد اذ يرى الشافعية شلا ان له الحق في ملك العبيد بما يكسبه من مال بجزئه الحر فاذا ما ملك امة جاز له ان يستخدمها الا انه لا يجوز له وطؤها لان الوطء على حد قولهم يكون بكامل البدن لا بجزئه

---

1) البغدادي-الاشراف ج 2 ص 39

فلا يجوز له ان يتسرى لان بقيه بدنه مسترق لا يطلك (1) لكن الرقيق لا يشتري لغاية الوطء فحسب فبامكان هذا المبعض اذن شراءه لغايات اخرى كالخدمة والمؤاجرة وغيرها .

ويتفق الفقهاء ايضا على ان العبد المكاتب له الحق في العمل والكسب لحسابه وبالتالي في الملكية مادام مكلفا بجمع مال مكاتبته لسيده وفاء بالعقد الذي بينهما ورغبة في التحرر فهو عبد في طريقه الى الحرية اطلقت يده في الكسب وقيت رقبته . ولذلك عرفت المكاتبة عندهم بانها (اطلاق يد في الحال ورقبة في المآل) (2) وقد اعتبر ابن رشد صحة الملكية وارتفاع الحجر عن المكاتب في تصرفاته شرطا من الشروط الواجب توفرها فيها فقال :(واما المكاتب فاتفقوا على ان من شروطه ان يكون مالكا صحيح الملكية غير محجور عليه (3) كما يرى مالك ان المكاتب يحرز ماله بالمكاتبة فيصير مالكا حقا (4) وتخول له هذه الملكية ان يكون مطلق التصرف في شراء ما يريد من الرقيق وليس لسيده ان يمنعه من ذلك ويرى الشافعي ان ليس للسيد ان يمنع مكاتبه من شراء ما يريد من العبيد الا اذا كان يشتري منهم من

---

1) الشربيني الخطيب - مغني المحتاج ج 2ص102
2) الاوزجندي - الفتاوى الهندية ج 5 ص 2
3) ابن رشد - بداية المجتهد ج 2ص 317
4) مالك بن انس - المدونة الكبرى ج 3ص250 . 251

يعتقون عليه من ذوي قرباه لان ملك ذوي الارحام المحرمة حرام وسبب المنع اذا كان هو ردع المكاتب عن اتلاف مال هو في حاجة اليه لدفع بدل الكتابة وعتق رقبته اما في غير هاته الحال فله ان يتسرى بالجواري ويتسولد هن ويشتري العبيد ويستخدمهم (1).

وما يقال في العبد المحض والمكاتب يجوز قوله في العبد المأذون له في التجارة اذ يجمع الفقهاء على ان له الحق في عقد صفقات البيع والشراء وممارسة كل الاساليب الكفيلة بتنمية راس مال سيده بالارباح ومن بين هذه الاساليب شراؤه للرقيق واستعمالهم في التجارة كما يسمح له الفقهاء بان ياخذ من ذلك المال لنفقته الخاصة وان يبتاع رقيقا لنفسه ليتسرى بالاماء. للرقيق اذن من الوجهة القانونية الحق في شراء الرقيق وامتلاكه ولا مراء في ان هذا الحق لم يكن نظريا فحسب وانما كان واقعا يمارسه العبيد في المجتمع الاسلامي.

---

1) الشافعي-الام-ج 7ص385 . 386

القسم الثالث

آثار تجارة الرقيق الاجتماعية ومآلها بعد القرن الرابع للهجرة

الباب الاول

آثار تجارة الرقيق الاجتماعية

الفصل الاول

الآثار الايجابية

تجارة الرقيق وآثارها في المجتمع الاسلامي

لقد حاولنا في الفصول السابقة من هذا البحث ان نجيب قدر الامكان وفي حدود ما سمحت به المصادر المتوفرة لدينا عن جملة من التساؤلات حول الظروف والملابسات التي حفت بتجارة الرقيق عند المسلمين خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ونعتزم في خاتمة هذا البحث ان نتحسس آثار هذه التجارة وما خلفته من نتائج على صعيد المجتمع الاسلامي وان نتساءل عمّا اذا كانت قد قدّمت عطاءا ايجابيا الى الحضارة الاسلامية ام تسبّبت في عرقلة مسيرتها ونموها . وهو ما يؤدي بنا الى تقييم هذا النشاط التجاري وتحليل ابعاده الاجتماعية والحضارية

الاثر الايجابي

لا مجال لانكار الدور الايجابي الذي اضطلع به الرقيق في بناء الحضارة الاسلامية والمهام الجليلة التي قام بها في شتى الميادين ومن ابرز هذه المهام طبعا تعزيزه لقوى المسلمين العسكرية واستماتته في الدفاع عن حمى دار الاسلام وقد شهد التاريخ الاسلامي في هذه الفترة ابطالا ممتازين في الفنون الحربية وقواد اللجند كان لهم الفضل في توسيع رقعة العالم الاسلامي وقد كان العديد منهم من رقيق الترك أو الصقالبة أو السودان أو غيرهم من الاجناس المسترقة المنضوية تحت لواء الاسلام (1) وقد اضافوا

1) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية - ج 1 - ص 311

جميعا تجارب حضاراتهم الاصلية في فنون القتال و تعبئة الجيوش الى تجارب المسلمين وامكن بفضل هذا التلاقح ان تبلغ القوى الاسلامية اشدها وان تكون في مستوى العصر وقادرة على مواجهة اعدائها ومنافسيها وعلى تحقيق التوازن بين القوى المسيطرة على العالم في ذلك العصر.

وقد حقق الرقيق بشتى اجناسه هذا التلاقح الحضاري في مختلف ميادين الحياة لانه قد جلب معه مميزات حضارات اخرى متنوعة الاتجاهات وادخل في صلب الحضارة الاسلامية ضروبا من الفنون والثقافات والعلوم والصنائع التي اختصت بها الشعوب المغلوبة فكان ذلك كله بمثابة الغذاء والمدد الحضاري الذي تمكن المجتمع الاسلامي من هضمه واستيعابه واستعان به على التجدد المستمر واثراء تراثه ومدنيته حتى امس لبعض الاقاليم الاسلامية طابعها الحضاري الخاص كما كان الشأن بالنسبة الى المجتمع الاندلسي الذي يشهد بتأثره بالعنصر الصقلبي في كثير من وجوه التمدن (1).

وممّا اعان الرقيق على ان يلعب مثل هذا الدور الهام انتماء بعضه الى مدنيات وحضارات عريقة ودراية الكثير منه بالاعمال

---

1) بروفنسال - Provençal - تاريخ اسبانيا المسلمة - ج 3 ص 117-119

الفنيـة المختصـة وامتيازه بمواهب وملكـات تحتاج اليهـا الحضارة الاسلامية اذاك فقـد كـانت الدولـة وطبقات الخاصـة تنتخـب منـه ذوي الموهبـة والاختصاص لتنتفـع بـه في الاضطـلاع بخـدمـات جليلـة في مختلـف الميـادين كميـدان العلم والتعمير والطب وغيـرهـا من الميادين الثقافيـة والصناعيـة وربمّـا الفنيـة ايضا وقـد كـان ذلك شبيهـا بمـا كـان يحـدث في رومـا اذ كـان الاثـرياء واولو الجـاه يشتـرون النخبـة الممتـازة من الرقيـق وفيهـم المثقفـون والاطبـاء والموسيقـيـون والمهندسون فيعهـدون للمثقفيـن بتربيـة اولادهـم ويعتنـي الاطباء بشؤونهـم الصحيـة ويشرف المهندسـون على بناء قصـورهم . وهكـذا استطـاع هـذا الرقيـق ان يحمـل الى رومـا حضارات مختلفـة امتزجـت فيمـا بينهـا واخرجـت حضـارة رفيعـة هي حضـارة رومـا في العالم القـديـم (1).

وقـد كـان الشأن في البلاد الاسلاميـة قريبـا من ذلك اذ ظهـرت هـذه التقاليـد في اصطفـاء النخبـة من الرقيـق منـذ القرن الاول للهجـرة وازدادت رسوخـا بعـد ذلك حتى صـارت سنـة ثابتـه وتقاليـد منظمـة في القرنين الثالث والرابع للهجـرة . فمن هـذا الرقيـق الممتاز مثلا ما انتخبـه الاغالبـة

---

1) موريس لنجلي - M. Lengellé - الرق - ص35

36 - عبـد السلام ترمانيني - الرق ماضيه وحاضره ص49

50

لضرب السكة اذ استخدموا نخبة منه في دار السكة وقد كتبت اسماء افرادها على القطع النقدية فكان من بينهم ((موسى)) وقد كتب اسمه اسفل ((ابراهيم الاول)) (184 - 196 هـ/ 800 - 812 م) و ((مسرور)) اسفل ((زيادة الله الاول)) (201 - 223 هـ/ 817 - 838 م) وقد كتب كذلك اسم ، ((خلف)) اسفل ((ابو العباس)) (226 - 242 هـ/ 841 - 856 م) و ((خلف)) هذا هو الذي ينسب اليه البكري بناء سور مدينة سوسة (1) كما كتب اسم ((حسن)) اسفل ((ابو الغرانيق)) (250 - 261 هـ/ 863 - 875 م) و ((بلغ)) و ((شاكر)) اسفل ((ابراهيم الثاني)) (261 - 289 هـ/ 875 - 902 م) و ((خطاب)) اسفل ((زيادة الله الثالث)) (290 - 296 هـ/ 903 - 909 م) ولم تذكر القاب هؤلاء فهم موالي الامير ورقيقه الذين يثق بهم ثقة كاملة ويفوض اليهم القيام بمهمة ضرب السكة(2).

ولا شك في ان هذا الرقيق قد كان ماهرا في الاضطلاع بمهام اخرى فهذا الجاحظ يذكر ان الناس كانوا يرغبون في اقتناء اصناف منه لمهارتها في رعي الابل (3) وكذلك لبراعتها في الخدمة داخل البيوت خصوصا اذا كانت من الخصيان وقد اشار نفس المؤلف الى كثرة

---

1) جورج مارسي -Marçais- G - بلاد البربر الاسلامية والمشرق في العصر الوسيط - ص 87 1946

2) المرجع نفسه - ص 32

3) الجاحظ - كتاب الحيوان ج 3 ص 434

الخصيـــــان من الروم بالرغـم مما يوجـد عند النصارى من ايمـــــان باللطـف والرحمـة (1) وتعـرض لخصائـص اخـرى تميـز بهـا هـــــذا الجنـس منهـا مـا هـو منقول عن ارسطو ومنهـا ما يعتبر نتيجـة تجـــارب وممـارسـة ومـلاحـظـة (2) واشار ايضـا الى اصنـاف اخـرى من الرقيـــق امتـازت بمهـارتهـا في فنـون الصـرف والمعـامـلات الماليـة مثـــل رقيـــق السنـد (3) ويوسعنـا ان نستنتـج من جملـة هـذه المـلاحظـات وغيـرهـا ممـا اوردتـه كتـب الحسبـة ان جانبـا لا يستهان بـه مـــن الايـدي العاملـة المسترقـة قـد كـان قادرا بمـا توفر لـديـه من مهـارات وقـدرات واختصاصات على ان ينمّي الحضارة الاسلامية ويطورهـا .

وفـي الجملـة يمكننـا القول بان الحياة الاقتصادية الاسلامية قـد كانت تعتمـد اساسـا على الايدي العاملـة المسترقـة لان المجتمع كان في حاجـة الى هـذه الطاقـة المستمـدة من كـد الرقيـق لاستخـدامهـا في المصانـــع والمناجـم والمزارع . فهـو مجتمـع يستمد قـوتـه من هـذه الطاقـة البشريـة التي تمثـل الدورة الدمويـة في حياتـه اليوميـة وفي بناء صرح مدنيتـه وازدهاره وانـه لشبيـه في هـذا المجال بالمجتمعات الحـديثـة المصنعة التي تسعى الى

---

1) المصدر نفسـه ـ ج 1 ص 124 ـ المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج 8 ص 148

2) الجاحظ ـ كتاب الحيوان ج 2 ص 260 و ج 4 ص 229 كتاب البخلاء ـ ترجمة بلاّ Ch. Pellat ـ ص 259

3) الجاحظ ـ فخر السودان ـ الرسائل ـ ج 1 ص 224 - 225

جلب المواد الخام والايدي العاملة والطاقة الضرورية لاقتصادها من البلاد الضعيفة اقتصاديا او المتخلفة حضاريا بلغة اليوم . ذلك هو الدور الذي لعبته الحضارة الاسلامية وكذلك البيزنطيتقي هذا العصر تجاه غيرهما من حضارات الشعوب الاخرى قصد المحافظة على مكانتهما الاقتصادية والعسكرية والسياسية في العالم الوسيط.

وقد استطاع المجتمع الاسلامي ان يستفيد من تجارة الرقيق استفادة كبرى في نشاطه التجاري وتوازنه الاقتصادي والمالي وان يجعل من مادة الرقيق عملة صالحة للمبادلات مع انحاء العالم : فقد كان المسلمون بحكم وضعهم الجغرافي والحضاري يسيطرون على طرق التجارة نحو الشرق الاقصى ونحو اوروبا وافريقيا ويشرفون على المسالك البحرية الرابطة بين المحيط الهندي والبحر المتوسط . فتسنى لهم بذلك ان يقوموا بدور الوسيط التجاري بين الهند والصين والعالم البيزنطي والاوروبي . وقد اضطلع بهذا الدور كل من مسلمي الشرق عن طريق الخليج الفارسي ومناطق آسيا الوسطى ذهابا نحو القسطنطينية ومسلمي المغرب عن طريق البحر الاحمر ومصر وافريقية ذهابا الى جنوب ايطاليا (1) وقد امكن بهذه الصورة ان تصل بضائع الشرق الى الغرب اما مباشرة او عن طريق بيزنطة والمدن الايطالية (2) فكانت البلاد الاوروبية

---

1) جوستاف لوبون - G - Lebon - حضارة العرب ص435 - 436

2) ارشيبالد لويس - A. Lewis السيادة الاسلامية ص 65 . 66 . وص 72 . 23 وص 81

وكـذلك الافريقيـة تطلق بديـلا تجاريا عن الرقيق الذي تصدّره الى العالم الاسلامـي ويتمثـل هـذا البديل فيمـا تزوّدهـا به البلاد الاسلاميـة من مصنـوعـات محليـة وكـذلـك فيمـا تنقلـه اليهـا من مواد الترف الشرقية التي كـانت اوروبـا وبيزنطـة تستهلكـانهـا بكميـات كبيـرة . وهكـذا وجـد تيـار تجاري كـان الرقيق يستعمـل فيـه عـملـة صالحة للمبادلات (1).

وقـد استفـادت من هـذا التيار التجاري ايضا البلاد المصدّرة للرقيق وذلك باحرازهـا على بـديـل تجاري هام وضروري لاقتصادهـا المحلّي وهـو البديل المتمثل في بضائـع الشرق الثمينـة وصادرات العالم الاسلامـي (2) وقـد عـزا ارشيبـالد لويس - Arshibald .Lewis - استقرار الاوضاع الاقتصادية وسلامتهـا بالمـانيا الى هـذا التبادل المذكـور عن طريق المدن الايطالية كمـا عـزا استمرار الفـوضى الاقطـاعيـة بفرنسا الى بعـدهـا عن هـذا التبادل واكّـدان البلاد الايطاليـة قـد افادت كثيرا من وساطتهـا التجاريـة بين العالم الاوروبّي والعالم الاسلامـي لكنّ هـذا الازدهـار الذي شمل ايطاليا لم يشمل بلاد اوروبـا الغربيـة الاخـرى فالشاطيء المسيحـي الممتدّ من برشلونة الى نهـر التيبر Tibre قـد توقفت بـه العمليـات التجاريـة التي ازدهرت في عهـد شرلمـان charlemagne (165 - 199 هـ/768-814م) و لويس التقـي Louis Le Pieux (199 - 225 هـ/ 814 - 840م) وبقيت برشلونـة Barcelone ونربونة Narbonne و مرسيليـة Marseille وجنـوة Gêne وحتى بيـزا - Pise - مراكـز قليلـة السكـان لا تكـاد تحمـي نفسهـا من الغارات المتقطعـة التي كـان

---

1) الطالبي ـ الامارة الاغلبية ص396 وما بعدها

2) جوستاف لوبون - G.Lebon - حضارة العرب ص439. 441

صورد ال .Sourdel - حضارة الاسلام القديم ص317. 323

يشنهـا المسلمـون من اسبانيا وفركسينتوم - Fraxinetum - قاعدتهم الامامية .
ولم يكـن كـذلـك لجـزر سـردينيـا sardaigne وكورسيكـا Corse
اهمية تجارية كالتي تمتعت بها صقلية وحـوض البليار واسبانيا يقول ارشيالـد
لـويس A.Lewis - متحدثـا عن هـذا الوضـع :

((قـد يـوضـح ذلـك شيئا من تسا ؤلنا لماذا حافظت المانيا في اواخر القـرن
التاسـع واوائـل القـرن العاشـر على قـرار من النظام والحكم ولم تكابـد مـا
كابـدتـه فـرنسا من الفوضى الاقطاعية . ان الالمان حافظوا على ارتباطات هامـة
مع الشرق عن طريق ايطاليا وناهيك بعلاقاتهم مع بلدان البلطيق اما فرنسـا
فقـد كانت اقل حظا من ذلك كلـه ومـع هذا يجـب ان نعترف بان مدى هـذه
التجـارة انمـا كان جـد محـدود . فقـد كانت ممرات الالب كافيـة
لسلـع الترف الشرقيـة كالحريـر والمطـررات والتوابل اضف الى ذلك الاسلحـة
والرقيق التي كان يسهـل شحنهـا من البندقية على ان ذلك لم يكن للتصـدير بكميات
ضخمة . وقـد تكـون مثـل هـذه التجارة التي تتوفـر عبـر هـذه الطريـق
في وضـع يسمح للبندقيـة وللمبارديا بان تكـونا على مستـوى نقـدهـا الذهبي
وان تتمتعا بالكثيـر من الازدهار الا انهـا لم تستطـع ان تغير من الطابع الاقتصـادي
للاحـداث في بقية انحاء اوربا الغربية . ان اوروبا الغربيه لم تستطع ان تحلي وراءها
وضعيتهـا الزراعية ومستوى نقدهـا الفضي الكارولنجي وان تتكتـل اقتصاديـا
للتعامل مع العالمين الاسلامي والبيزنطي المتقدمين في البحر الابيض المتوسط الا بعد
ان توفرت طرق تجارية اسهل واقرب منالا مثل طريق وادي الرون واصبحت عملية احتيازها
ثانيـة ممكنـه من الوجهـة التجـاريـة)) (1) .

---

1) ارشيبالد لويس - Lewis - A - السيادة الاسلامية ص82

ولا يخفى ايضا ان افواج الرقيق المختلفة الجنسيات قد استفادت من هذه التجارة بانصهارها في صلب المدنية الاسلامية واعتناقها للدين الجديد بعد ان كان الكثير منها عرضة في بلاده الاصلية الى ويلات الجوع والجهل والخصاصة وفريسة لضروب من العدوان فكان دخولها في حظيرة العالم الاسلامي في شكل رقيق نوعا من الكفالة لها والاخذ بيدها خصوصا اذا علمنا ان رقيق المسلمين قد كان في اغلب الاحيان عاملا في نطاق الاسرة وقلما عرف النمط الاستغلالي الاقطاعي الذي يفرض عليه اعمال السخرة ويحطّ من قيمته الاجتماعية والانسانية (1) كما ان المجتمع الاسلامي قد فتح امامه آفاقا للتحرّر والترقي في السلّم الاجتماعي والمساهمة في شتى ميادين الحياة حتى برع منه الكثيرون وتألقت اسماؤهم في شتى الميادين

---

1) جوستاف لوبون - Gustave Le.bon - - حضارة العرب ص 493 - 496

الفصل الثاني

الآثار السلبية

الأثـــــــر السلبـــــــــــي

لكنّ هـذا الـدور الايجـابـي الذي لعبتـه تجـارة الرقيـق على مختلـف الاصعـدة قـد كـان صحيـحا في الوقت نفسه ببعـض الظواهـر السلبيـة التي جنتهـا الحضـارة الاسلاميـة من جـراء ممارسة هـذا النشـاط التجاري . فقـد رأينـا كيـف وجـد المسلمـون في عمليـة جلب الرقيق حـلا لمشكـل الطاقـة الضروريـة لبنـاء كيانهـم الاقتصـادي والاجتماعـي الا ان هـذا الحـل الذي سمحـت بـه ظـروفهـم انذاك في شيء من اليسـر لم يكـن امـرا متـاحـا بصـورة مستمرة وبنفـس السهـولـة في العصـور الموالـيـة . وقـد كـان لا بـد للطاقـة من ان تكـون في تجـدد مستمـر ومن ان تتواصـل عملية التوريد لكنّ هـذه العمليـة قـد تصاعـدت تكاليفهـا شيئـا فشيئـا بحكـم تغيـر ظـروف المسلمين وتطور علاقاتهـم بغيـرهـم من الشعـوب المحيطـة بهـم والمزودة لهم بالرقيـق . وقـد ساهـم هـذا الوضـع في اختـلال الميزان التجاري تدريجيـا خصوصـا في الوقت الذي لم تكن الصادرات فيـه تعادل الواردات مما اضطرت الدول الاسلاميـة معـه الى البحث عن التوازن بتصدير العملة الصعبة وكان من نتائج هـذه الحال ان شوهـد نزيف قوي في الذهب (1) ثم ان المرء ليتساءل بالاضافة الى ذلـك عمّا اذا لم يكن امر هـذه الطاقة المستمدة من الايدي العاملة المسترقة قد شكـل حلا لاوضاع المسلمين الاقتصادية والاجتماعية وصرف انظارهم في الوقت نفسه عن اكتشاف الالة الكفيلة بتعويض المجهود الانساني باحداث منعرج حاسم في وسائل الانتاج . فهل كانت تجارة الرقيق بعبارة اخرى حائلا دون اقتراب المسلمين من عهد التصنيع وعاملا من عـوامل تأخر حلول هذا العهـد . ذلك هو السؤال المطروح (2)

1) نجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ـ ص 118 . 119

2) كلود كاهـان Cl. Cahen ـ الشعوب الاسلامية ـ ص 339 - 344

٩) التصدع السياسي

ولقد رأينا كيف كان هدف ارباب السلطة من تجنيد هم للرقيق كسر شوكة العصبيات المنافسة لهم وحماية مراكزهم من صولاتها ورأينا كيف استكثروا من هذا الرقيق في جيوشهم وحرسهم الخاص واعتمدوا في ذلك على اجناس شتى من الارقاء ومنحوهم ثقتهم وفوضوا اليهم احيانا كثيرة النظر في امورهم واقصوا الجنس العربي عنهم . لكن الخلفاء والملوك الذين بحثوا عن مناعتهم في ظل مستر قيهم قد سقطوا آخر الامر فريسة لحماتهم اذا استبدوا بالنفوذ والحكم دونهم واطمأنهم على ذلك ابناء جنسهم من الجواري والغلمان بدسائسهم التي كانوا يدبرونها داخل البلاط فصار صاحب الامر العسكرية في ايديهم يأتمر بامرهم ويخشى صولتهم وصاروا يمنعونه من التصرف في السياسة العامة ولا يتركون له من النفوذ سوى ما يتعلق بشؤون حياته الخاصة . فكان من جراء ذلك ان استسلم الخلفاء لمجونهم واهملوا شؤون رعاياهم واذا ما اتفق ان بدر من احدهم عزم على مسك مقاليد الامور بحزم رد عوه بالعنف وساموه شر العذاب وخلعوه وقتلوه وربما شلوا به فسملوا عينيه ثم ولوا مكانه من وافق هواهم من ابناء اسرته . وقد وصف احد شعراء العصر حال الخليفة في هذه الظروف بقوله :

خليفـــة في قفـــص بين وصيف وبغـــا
يقـــول ما قـــالا لـه كما يقـول الببغـــاء

ويكفـــي ان نـذكر بان المتـوكـل (232 - 247 هـ/ 847 - 861 م) والمستعيـــن (248 -252 هـ/ 862 - 866 م) والمهتـدي (255-256هـ/ 869 -870م) قـــد قتلـوا بايـدي عبيـدهـم وان القـاهـر (320 - 322 هـ/932 - 934م) والمتقـــي (329 - 333هـ/ 940 - 944م) والمستكفـي (333 - 334 هـ/944-946م) والراشـــد (529 - 530 هـ/1135-1136م) والطـائـع (363 - 381 هـ/974 - 991م) قـد شـــل بهـم مما ليكهـم حتى يتضح لنـا مدى تجبّـر الرقيـق المستبد (1) وقـــد اشـار ابن بسّـام الى ان قتـل الملـوك بايـدي رقيقهـم قـد صـار امرا مألـوفـا فقـال : ((ان قتـل الملـوك والائمـه بايـدي عبيـدهـم واصحـابهـم كثيـر يشـــق احصـاؤهـم)) (2) وقـد بلـغ الرقيـق في الدولـة البويهيـة درجـة من السطـــوة والتغلـب صـاروا معهـا يفرضـون على الخليفـة رسمـا لمبـايعتـه فلا تتـم تلـــك المبـايعـة الا بمقـابـل مقـاديـر معينـة من المـال فـاذا كـان الخليفـــة عـاجـزا عن ادائهـا ثـاروا عليـه وخلعـوه واقتحمـوا حريمـه (3) ولم يقف الامـــر عنـد حـدّ السيطـرة على الخليفـة بل تعـدّى هـذه الحـدود الى اثـارة البلبلـة

---

1) السيـوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ طبعـة القاهرة (د . ت) . ص 397 ـ الذهبي ـ العبر في اخبار من غبر الكويت 1963 ج 2 ص 9 . 11

2) ابن بسام ـ الذخيرة ـ القسم الاول ـ القاهرة ـ 1939 ج 1 ص 83

3) ابن الجوزي - المنتظم - ج 7 ص 148 - وص 157

في اوساط الرعايا والهجوم على الاحياء ونهبها وقتل اهلها وسبي نسائها (1) وادى بهم العبث الى ان سمحوا لكبار اللصوص بان يعيثوا فسادا في عاصمة الخلافة وان يفرضوا على سكانها اداء خمسة وعشرين الف دينار شهريا وكان ((ابن حمدي)) من اشهر اللصوص الذين تواطؤوا معهم على هذا الصنيع (2) .

وقد تفطن العلامه ابن خلدون الى هذا الاثر السلبي الذي تركه الرقيق على النظام السياسي وذلك عند حديثه عن الدور الثاني للدولة ذلك الدور الذي يتكثر فيه صاحب الامر لاهل عصبيته وينفرد بالامر دونهم ويدافعهم عنه بالراي مستعملا في ذلك الموالي والصنائع فاكد ان هذا السلوك ((مؤذن باختلال الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التي كان بناء العلب بها)) (3) وقد اوضح رايه هذا بمثال اقامه على المقارنة بين دولة بني امية ودولة بني العباس فقال : ((واعتبر ذلك في دولة بني امية كيف كانوا انما يستظهرون في حروبهم وولايه اعمالهم برجال العرب مثل عمرو بن سعيد ابن ابي وقاص وعبيد الله بن زياد بن ابي سفيان والحجاج بن يوسف والمهلب ابن ابي صفرة وخالد بن عبد الله القسري وابن هبيرة وموسى بن نصير وبلال بن ابي بردة بن ابي موسى

1) المصدر نفسه . ج 8 ص 228 . 229 ـ الذهبي ـ العبر ج 3 ص 140 . 141 التنوخي ـ نشوار المحاضرة ج 1 ص 314
2) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص 396
3) ابن خلدون ـ المقدمة ص 131

الا شعري ونصر بن سيار وامثالهم من رجالات العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها ايضا برجالات العرب فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوبخت وبني طاهر ثم بني بويه وموالي الترك مثل بغا ووصيف وباكباك وابن طولون وابنائهم وغيرهم هؤلاء من موالي العجم فتكون الدولة لغير من مهدها والعز لغير من اجتلبه سنة الله في عباده والله تعالى اعلم))(1).

ويرى ابن خلدون ان من نتائج الاستظهار بالموالي والصنائع تداعي اركان الدولة وهرمها لان هؤلاء الموالي لا تربطهم بصاحب الامر رابطة نسب تحطهم على الاستماتة في الذب والمدافعة كما يستميت اهل العصبية في ذلك بسبب رابطة الدم (2) بل تراهم ينقلبون على السلطان فيحجرون عليه ويستأثرون بتسيير الامور دونه ويوهمونه بان الملك هو الجلوس على السرير ومجالسة النساء والجواري والتمتع بالترف وعوائده فيحجبونه بذلك عن رعيته ويفرضون عليه ارادتهم(3) فتصاب الدولة بمرض لابرء لها منه . ويرى العلامة ايضا ان هذه العناصر المستبدة بالحكم من موال ورقيق لم تحسن التصرف فيه بل هي في رايه عاجزة عن تاسيس الدول القوية لانعدام العصبية في صفوفها ولكونها اشتاتا تابعة لساداتها

---

1) الصدر نفسه
2) الصدر نفسه ص 131. 132
3) الصدر نفسه . ص 133

ومالكيها ولفقدانها شرعية التصرف في السلطة . يقول في ذلك :((فاذا ذهب الجيل الاول والثاني واخذت الدولة في الهرم لم تستقل اولئك الصنائع والموالي بانفسهم في تاسيس الدولة وتمهيد ملكها لانهم ليس لهم من الامر شيء انما كانوا عمالا على اهلها ومعونة لها فاذا ذهب الاصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من القوة واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الاسلام))(1)

وهكذا تتطابق نظرية ابن خلدون حول اسباب هرم الدول وتداعيها مع واقع التاريخ الاسلامي اوقل هي مستوحاة ومستمدة من ذلك الواقع التاريخي وفيها دلالة واضحة على الاثر السلبي الذي تركه عنصر الرقيق في الساحة السياسية الاسلامية ويمكن الاكتفاء في هذا السياق بضرب مثال على ذلك من سلوك الارقاء الاتراك في ظل الخلافة العباسية فقد ظهر جهروتهم بعد اثنتي عشر سنة من تاريخ جلبهم وكان من اسباب استيدادهم تفويض الخلفاء عظائم الامور اليهم وتكليفهم باهم الشؤون في سياسة الدولة . فبعد ان كان ((ايتاخ)) التركي غلاما طباخا رفع المعتصم (218 - 227هـ/ 833-842م) منزلته وزادها الواثق (227 - 232 هـ/ 842 - 847 م) بعده تدعيما فضمت اليه من اعمال السلطان اعمال كثيرة وعهد اليه الخلفاء

---

(1) المصدر نفسه ـ ص 125.124

بقتـــل غـرمـائهـم ومنافسيهم مثـل اولاد الأمـون(198 -218هـ/ 813 - 833م) ومحمـــد بن عبد الملك الزيـــات وغيرهـم ثم ضمـوا اليه الجيـــش والمغـاربـة والاتراك والموالي والبربـر والحجابـة ودار الخـلافـة" (1) وقـــد كـان شأن الخلفـاء مع قـواد الاتـراك الاخـرين شأنهـم مع ((ايتـاخ)) فصـارت امـور الدولـة بايـديهـم واستغلـوا هـذه الفرصـة لقهـر الاجنـاس الاخرى ولافتكـاك السلطـة من اسيادهـم فحجروا على الخلفاء ومنعوهـم من التصـرف ولـــم يتـركـوا لهـم اكثـــر من السكـة والخطبـــة (2).

وهكـــذا امســوا الحاكمين الحقيقيـين في الدولـة يولون من شاؤوا ويعزلون من شاؤوا واذا استشعـروا مقـاومـة من احـد عملـوا على قتلـه والتنكيـل بـه مثلمـا فعلـوا مع المتوكـل (232 - 247هـ/ 847 - 861م) عنـد مـا اراد التخلـص منهـم بقتـــل ((وصيـف وبغـا)) وغيرهمـا من قـواد الاتـراك فقطنـوا لمخططـــه وقام كـل من ((باغر)) و ((بغا الصغيـــر)) بقتلـه غيلـة (3) ومنـذ ذلـــك الحيـن تـوالت اعتـداءاتهـم على حرمـة الخلافـة حتى روي عن المعتـز (252-255هـ/ 866 - 869م) انـه كـان لا ينـام الا ومعـه سيفـه فلمـا سئـل عن سبب ذلـــك قال ((اني لاخـاف ان ينزل عليّ بغا من السماء او يخرج علي من الارض)) (4) ولم تقتصـر مفاسـد الاتراك على تعطيـل دواليب الحكم وتخريب المؤسسات السياسيـة بل كـانـوا

---

1) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ج 11 ص 33
2) ابن طباطبا ـ الفخري في الاداب السلطانيـة ص 38
3) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ج 11 ص 63
4) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج 2 ص 336

يمتصون اموال الرعايا ويصادرون ذوي الثروة منهم واستعطفوا هذا الاسلوب مع الامراء والوجهاء والكتاب والولاة ظلما وعدوانا ومن اشهر من تعرض لمصادراتهم ((قبيحة)) ام المعتز (252 - 255هـ/ 866 - 869م) وزوجة المتوكل (232 - 247هـ/ 847 - 861م) فقد نهبوا اموالها وقتلوا ابنها فهربت الى مكة وشوهدت متضرعة الى رب البيت من ظلمهم (1) ومنهم محمد بن عبد الملك الزيات وعمر بن فرج الرخجي وابراهيم بن الجنيد النصراني واحمد بن ابي دؤاد وبختيشوع وغيرهم (2) وقد كان بهم نهم كبير الى الاموال وتبذير لها واسراف في الشهوات فقد قال لهم المهتدي (255 - 256 هـ/ 869 - 870م) قبل قتله ((خبروني عنكم هل تعلمون انه وصل الى من دنياكم هذه شيء ؟ اما انك تعلم يا بايكباك ان بعض المتصلين بك ايسر من جماعة اخوتي وولدي ؟ تعرف ذلك فانظر هل ترى في منازلهم فرشا اوصائف او خدما اوجواري اولهم ضياع وغلات ؟ سوأة لكم ؟)) (3) وقد صرح المستعين (248 - 252هـ/ 862 - 866م) بما كانوا يبتزونه منه من اعطيات وارزاق فقال لهم : ((انتم اهل بغي وفساد واستقلال للنعم الم ترفعوا الى في اولادكم فالحقتهم بكم

---

1) ابن الاثير - الكامل - ج 7 ص 70
2) الطبري - تاريخ الامم والملوك ج 11 ص 68
3) المصدر نفسه ح 11 ص 194

وهم نحو من الفي غلام ؟ وفي بيناتكم فامرت بتصييرهن في عداد المتزوجات وهن نحو اربعمائة آلاف امرأة وفي المدركين والمولودين وكل هذا قد أجبتكم اليه وادررت لكم الارزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة ومنعت نفسي لذتها وشهوتها كل ذلك ارادة لصلاحكم وانتم تزدادون بغيا وفسادا وتهددا وايعادا)) (1).

وقد تسببوا ايضا في آفات اجتماعية باعتدائهم على الاخلاق العامة وهتكهم لحرمات النساء وقد اورد القاضي التنوخي روايات تصف انحراف الجند التركي واقترافه للفواحش فمن ذلك ما رواه عن خياط بسوق الثلاثاء فقد مر ذات يوم بتركي جالس على باب داره وقد اجتازت امامه امرأة جميلة فتعلق بها وهو سكران يروم ادخالها منزله وهي ممتنعة تستغيث ولا احد يغيثها وتقول ((ان زوجي قد حلف بالطلاق الا ابيت خارج بيتي فان بيتني هذا اخرب بيتي مع ما يرتكبه مني من المعصية ويلحقه بي من العار)) قال الخياط : ((فجئت الى التركي ورفقت به وسألته تركها فضرب راسي بدبوس كان في يده فشجني وآلمني وادخل المرأة داره فجمعت جمعا وجئنا فضججنا على بابه فخرج الينا في عدة من غلمانه فاوقع بنا الضرب وذهبت الى بيتي ولم ازل افكر في هذه المرأة ...))(2) وادهى من ذلك اعتداؤهم على زوجة المتوكل

---

1) المصدر نفسه ج 11 ص 98

2) التنوخي ـ نشوار المحاضرة ج 1 ص 152

(٢٣٤ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٦١ م) بعد ابتزاز اموالها اذ صرّحت بأنّ صالح ابن وصيف التركي قد نال من عفافها وابتهلت في مكة قائلة ((اللهمّ اخز صالحا هتك ستري وقتل ولدي وشتت شملي واخذ مالي وغربني عن بلدي وركب الفاحشة منّي)) (1) .

وقد اشار عبد الله بن المعتزّ في ملحمته المشهورة الى جملة المفاسد التي اقترفها الاتراك ولخصها في هذه الابيات :

كلّ يوم ملك مقتول اوخائف مروع ذليل

او خالع للعقد كيما يعنى وداع ادني للردى وادنى

وكم امير كان راس جيش قد نغصوا عليه كل عيش

وكلّ يوم شغب وضرب وانفس مقتولة وحرب

وكم فتاة خرجت من منزل فغصبوها نفسها في المحفل .....

... ويطلبون كلّ يوم رزقا يرونه دينا لهم وحقا

كذاك حتى افقروا الخلافة وعوّدوها الرعب والمخافة (2)

وقد شعر ادباء العصر بابعاد هذه الكارثة ولنا في ديوان البحتري اصداء حية لوعي الناس بجلل المصاب وصورة لحنينهم الى العهود الاسلامية السابقة

---

1) ابن الاثير ـ الكامل ـ ج 7 ص 70

2) ابن المعتز ـ الديوان ـ ص 153 154

مقتنعين بان الاتراك قد خربوا هذه الحضارة وبأنهم لم يكونوا ذوي مدنية كالفرس(1) يقول البحتري في حالة خشوع امام ايوان كسرى رمز عظمة الفرس

حضرت رحلي الهموم فوجهتالى ابيض المدائن عنسي

اتسلّى عن الحظوظ وآسى لمحلّ من آل ساسان درس

ذكرتنيهم الخطوب التوالي ولقد تذكر الخطوب وتنسي

ثم نراه ينفي عن نفسه التعصب للفرس ويذكر بانه ليس من جنسهم وبان اهوال عصره هي التي جعلته يتذكر محاسن السلطان الفارسي :

ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي

غير نعمى لاهلها عند اهلي غرسوا من ذكائها خير غرس

ايّدوا ملكنا وشدّ قواه بكماة تحت السنور حمس

واراني من بعد اكلف بالاشرا ف طرا من كل سنخ واسّى (2)

وما قيل في الرقيق التركي يمكن ان يقال في اجناس الرقيق الاخرى مثل الصقالبة الذين تنصروا للدولة فتغلب عليهم الحاجب المنصور (346 - 394هـ/ 938 - 1002م) بالعصبية البربرية (3) فقد كان للرقيق بمختلف اجناسه

---

1) احمد امين - ظهر الاسلام - دار الكتاب العربي بيروت 1388هـ/ 1969م ج 1 ص 44 . 45

2) البحتري - الديوان : ج 1 ص 190 - 194

3) المقري - نفح الطيب - ج 1 - ص 274

ونوعه المذكر والمؤنث يد في تخريب كيان الدولة والميل برجالها الى الانحراف وذلك بسبب اشرافه على حياة الخلفاء الخاصة وتصرفه في شؤونهم الداخلية . فقد كان لرجال السلطة العديد من السراري والغلمان الذين امسكوا بزمام سادا تهم وقادوهم نحو اللهو والعبث حتى اهملوا امور الحكم وتركوها نهبا لدسائس الجواري والخدم فمثلا يروى عن المتوكل (232 - 247هـ/847 - 861م) انه امتلك اربعة آلاف سرية وانه وطئهن جميعا (1) وكان للامير نصر الدين امير ديار بكر وميافارقين ثلاثمائة جارية وكان يخلو كل ليلة من ليالي السنة بواحدة منهن ولم يكف ذلك بل واصل شراء الجواري بارفع الاثمان (2) ويروى ان ابا الفتح بلكين الصنهاجي (ت 373 هـ/ 984 م) نائب المعز العبيدي(341-365هـ/ 952 - 975م) كان له اربعمائة سرية وان الملك الناصر محمد بن قلاوون (684 - 741هـ/ 1285 - 1341م) كان عنده الف ومائتا سرية (3).

وقد تسبب ذلك في ظهور التنافس بين امهات الاولاد من اجل ضمان ولاية العهد لابنائهن ومن اشهر الامثلة على هذا التنافس ما جرى بين ابناء الرشيد (170 - 193 هـ/ 786 - 790م) رغم تحريه في وصيته بجعل

---

1) الذهبي ـ العبر ـ طبعة الكويت 1963 ـ
ج 2 ص 322

2) المصدر نفسه ح 2 ص 362

3) ابن تغري بردي ـ النجوم الزاهرة ج 9 ص 210

الامر تماما للامين (193 - 198هـ/ 790 -813م) والمأمون (198 - 218هـ/ 813 - 833م) والمعتصم (173 - 208هـ/ 790 - 823م) لكن الفتنة قامت بين الاخوة واجج نارها الرقيق باذكائهم نار العداء بين العنصرين الفارسي والعربي فكان قاتل الامين طاهر بن الحسين الذي اقطعه المأمون بعد ذلك خراسان قد أنشأ دولة انفصلت عن الخلافة تدريجيا . وقد كانت اعمال الدس والجوسسة التي قام بها المحظوظون من رقيق البلاط عاملا هاما في اعانة الاجناس الاجنبية على دحر العنصر العربي وافتكاك السلطة من يده ((فسقط اسم العرب من الديوان)) (1) وقد تواصل التناحر بين مختلف الاجناس وذلك لان الاكثار من امهات الاولاد قد ادى الى كثرة الابناء الطامعين في العرش فافضى بهم الامر الى التعصب والتقاتل واثارة الاجناس ضد بعضها بعضا فهذا المنتصر (247 -248هـ/ 861 -862م) يتآمر على ابيه المتوكل (232 - 247هـ/ 847 -861م) ويقتله لانه عهد بالامر لاخيه المعتز (252-255هـ/ 866- 869م) ارضاء لامه ((حبشية)) وايثارا لها على ((قبيحة)) ام المنتصر (2) ويعتبر هذا المثال بسيطا بالقياس الى امثلة اخرى من التناحريين ابناء امهات الاولاد ذلك التناحر الذي اضر بكيان الدولة مثلما اضر بكيان الاسرة كما سنرى

---

1) السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص 258 . 259
2) ابن شاكر الكتبي - فوات الوفيات - طبعة القاهرة 1923 ج 1 ص 202

ع) التصدع الاجتماعي

وقد أسفرت تجارة الرقيق عن آفات اجتماعية اوهنت المجتمع العربي الاسلامي كما تسببت قبل ذلك في وهن المجتمع اليوناني والروماني وغيرهما من المجتمعات القديمة وذلك لان الرقيق باختلاطه وامتزاجه بالاسرة قد حطم كيانها واحدث بها تصدعا وانحلالا . ففي المجتمع اليوناني راجت سوق اللهو والمجون بالجواري وظهرت ((العازفات على القيثارة)) مصدر غواية للشباب بعهرهن واشتهرت كذلك ((الخليلات الموحيات)) Les Maitresses inspiratrices اللائي كن يسمين ((الهيتار)) Hitaire فتهافت اليونانيون بما فيهم المثقفون والفلاسفة على هؤلاء العاهرات (1) واعرضوا عن الحرائر فقبعن في بيوتهن ولم يكن يسمح لهن بمقابلة الرجال فصرن فريسة لمرض السحاق وعرفن باسم ((اللسبوسيات)) Lesbiennes - وقد تحدث الشاعر اليوناني ارسطوفان Aristophane عن امرأة تدعى ((سافو)) sapho قد اسست في جزيرة (لسبوس)) Lesbos مدرسة لتعليم الحرائر المساحقة (2) فكان ذلك عاملا من عوامل انحلال الاسرة اليونانية .

---

1) ول ديورانت - W. Durant - قصة الحضارة - تعريب زكي نجيب محمود ومحمد بدارن - القاهرة - 1956 ج 2 مجلد 2 ص104 - توطانيني الرق ماضيه وحاضره - ص 42

2) ول - ديورانت - W. Durant - قصة الحضارة - ج 1 مجلد 2 ص281

كما تسبب الرقيق في انحلال الاسرة الرومانية اذ اهتم الرومان باللهو بالجواري والاماء وتخلوا من الزواج وعزفوا عن النساء الحرائر فعمدن الى عقد علاقات مع العبيد (1) وقد ادى هذا الوضع بالامبراطور اوغسطس Auguste (63 ق.م / 14 م) الى اتخاذ جملة من التدابير والقوانين لحفظ الاسرة الرومانية من الانحلال فمنع الحرائر من الخروج الى الاستعراضات الرياضية ومنع الاحداث من ارتياد دور اللهو وفرض الزواج على الرجال والنساء وسن عقوبات على الزنا واعفى من الضريبة كل من انجب ثلاثة ابناء ولكن هذه التدابير لم تستطع الوقوف في وجه التيار ولاسيما ان الامبراطور لم يكن في سيرته الخاصة قدوة للناس(2) وقد اصيب المجتمع الاسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة بنفس هذه الافات الاجتماعية التي اصيبت بها المجتمعات الرومانية واليونانية وتعرضت الاسرة الاسلامية الى نفس الصير.

---

1) المرجع نفسه - ج 2 مجلد 3 ص 29 - وص 317

2) ك - جرنبارج K.Grimberg - التاريخ العالمي
الترجمة الفرنسية في (12 جزءا) باريس 1963 ج 3 ص 134

ففي صدر الاسلام الاولى كانت الاولوية في حياة الرجل للمرأة الحرة ويمكن ان نصور هذه الاولوية من خلال هذه الرواية التي اوردها ابن قيم الجوزية في كتابه ((اخبار النساء)) وهذا نصها ((ضرب البعث على رجل من اهل الكوفة فخرج الى اذربيجان فاشترى فرسا وجارية وكان ملكا بابنة عمه فكتب ليغريها :

الا بلغا ام البنين بانني ... فنينا واغتنا الغطارفة الجرد

بعيد مناط المنكبين اذا جرى ... ويضاء كالتمثال زينها العقد

فهذا لايام الغدو وهذه ... لحاجة نفسي حين ينصرف الجند

فلما ورد كتابه دعت بالدواة وكتبت اليه :

اذا شئت فغاني غلام مرجل ... ونازعته في ماء معتصر الورد

وان شاء منهم ناشيء مدكفه ... الى كبد طفاء او كفل نهد

فما كنتم تقضون حاجة اهلكم ... شهودا نتقضوها على النأي والبعد

فعجل علينا بالسراح فانه ... منانا ولا ندعوك الله بالرد

ولا تقفل الجند الذي انت فيهم ... وزادك رب الناس بعداً على بعد

فلما ورد كتابها لم يزد على ان ركب الفرس واردف الجارية ولحق بها فكان اول شيء بدأها به ان قال لها : بالله اكنت فاعلة ماقلت ؟ فقالت:الله في قلبي اعظم واجل وانت في عيني احقر واذل من ان اعصي الله فيك . ثم قالت له كيف ذقت طعم الغيرة؟ فوهب لها الجارية ورجع الى مكانه)) (1)

---

1) ابن القيم الجوزية - اخبار النساء - ص 93 . 94

لكن هذه اللحمة العائلية قد بدأت تتفكك عراها عندما اقبل المسلمون على الحواري والغلمان واغرقوا في اللهو والمجون فأحست الحرة من حراء تطور هذه الاوضاع بانها امست في المقام الثاني ولم تعد تثير اهتمام الرجال وقد اورد كتب الادب اخبارا كثيرة عن خوف الحرائر من العنس بسبب تعدهن في السن دون وجود خاطب لهن فدعا هن ذلك الى هتك حجابهن والتصدي لمن يشبب بهن من الشعراء حتى يمكنهن الترويج (1) ومن هاته الاخبار ما روي بالاندلس في عهد الحاجب المنصور (366-392هـ/938-1002م) من ان الاباء كانوا يجهزون بناتهم ترغيبا للرجال في الزواج بهن وخوفا من كسادهن (2) لكن الحرة لم تستطع الصمود طويلا امام هذا التيار فدفع بها الكبت الى العواية والانحراف ومحاكاة الاماء في لهوهن وخلاعتهن . ومما رواه التنوخي في هذا الصدد ان حاجب شرطة بغداد ايام المأمون (198-218هـ/813-833م) والمعتصم (218-227هـ/833-842م) وهو اسحق ابن ابراهيم المصعبي قد هم بقتل خمسة من بنات الوزراء والرؤساء ضبطن مع رجال على ريبة لكن احد شيوخ بغداد حال دون ذلك والعى اللوم على اباتهن واشار عليه بان يكتم هذا العار وان يزوجهن من خمسة ابناء لاحد فوادة (3)

1) الاصفهاني ـ الاغاني ـ طبعة القاهرة ـ 1929 ج 1 ص 377
2) خالد الصوفي ـ تاريخ العرب في اسبانيا في عهد المنصور ـ القاهرة ـ (د ت) ص 115
3) التنوخي ـ نشوار المحاضرة ج 3 ص 101 ـ 103

والواقع ان الرقيق قد كان له دور اساسي في اشاعة الانحراف والتفسخ الخلقي في مختلف الاوساط وكان محور حياة اللهو والخلاعة فعجت به مجالس الانس ودور الغناء والملاهي الليلة وتفشت بسببه ظاهرة البغاء بالرغم من تشدد الشريعة في منعها وصراحتها تجاه العزوبة وتأكيدها على تحريم الزنا (1) فكان من الجواري من بلغ بهن المجون الى حد ممارسة الخنا والدعارة واشتهر من الاماء المغنيات من كانت تشتغل في النهار بدينارين وفي الليل بدينار واحد (2) وقد سبق ان رأينا كيف وصف الجاحظ اساليب القيان في اغراء الشبان واقتناصهم (3) وكيف لعب الغلمان دورا هاما ايضا في نشر الشذوذ الخلقي (4) وكأن المرأة الحرة لم تستطع ان تجاري الرقيق في هذا التيار لموانع اجتماعية عديدة فكان هناك رد فعل من جانبها تمثل هذه المرة في الانطواء والتستر عن اعين الناس تساميا عن الحياة المتدنية والخليعة التي كان يحياها الجواري كما بادر ارباب الاسر الى حماية بناتهم وزوجاتهم من اخطار هذا الوضع .

1) آدم متز - A. MEZ - الحضارة الاسلامية ج 2 ص 173
2) الاصفهاني - الاغاني - ج 19 ص 136
3) الجاحظ - رسالة القيان - الرسائل ج 2 ص 171 . 175
4) راجع الفصل الخاص بالغلمان من هذا البحث - ص 754 - 771

وهكذا تجسّم رد الفعل في ظهور نزعة رجعية رمت بالمرأة الحرة الى قعر بيتها ونادت بحرمانها حق المشاركة في حياة الناس وعمد رجال الدين والوعاظ نحو التزمت في وعظهم فحرموا النظر الى المرأة وجعلوا هذا التحريم من اركان الدين وعقد فريق منهم مناظرة في حكم النظر الى قلامة ظفر المرأة وانتهوا الى ان القلامة اذا كانت في اصبع اليد جاز النظر اليها واذا كانت في اصبع الرجل لم يجز لان النظر الى القدمين غير جائز (1) وفي هذا العصر نجد رجلا كالجاحظ يرى ان المرأة يكفيها من العلم القراءة للقرآن ولا يحسن ان تستمع الى شعر الغزل واحاديث الطرب (2) .

ولسنا نجد بعد شهادة الجاحظ احسن من شهادة المعرّي الذي يرى ان المرأة حسبها الغزل والردن تابعة في ركن بيتها وهو يقدم لنا في ديوانه ((اللزوميات)) صورة سوداء عن المرأة في عصره (3) ويرى الغزالي ان من واجب المرأة ان تكون ملازمة لمغزلها والا تكثر من الصعود الى سطح الدار والتطلع منه وان تكون قليلة الكلام لجيرانها والا تخرج من بيتها الا باذن زوجها فاذا خرجت فلتكن في حالة رثة ولتسلك طريق خاليا من المارة (4)

---

1) ابن خلكان - وفيات الاعيان - القاهرة - 1948 ج 4 ص 215
2) الجاحظ - كتاب الحيوان - ج 3 ص 291
3) المعرّي - اللزوميات - ج ١ - ١٧٧ - ١٨٢
4) الغزالي - احياء علوم الدين - القاهرة - (د ت) ج 2 ص 61

وقد كانت كل هذه المواقف بمثابة ردّ فعل على تيار الانحلال الذي تسبب فيه الرقيق ورأى فيها اصحابها علاجا للاوضاع المتردّية ازاك وحماية للحياة العائلية والخلقية عموما لكنّ تلك التدابير المتشددة قد اساءت الى المرأة في حد ذاتها حتى صار بعضهم يقول اذا رأى امرأة تتعلم : ((افعى تسقى سمّا)) (1) كما عزلتها عن المجتمع وحكمت عليها بالجهل واوشكها الكبت فصارت تتحيل على هذا الضيق بفرصة الخروج الى الحمام واشار الشعراء منذ ذلك العصر الى ((علّة الحمام)) فقال البحتري يهجو ابن قطّاش صاحب البريد بزوجته التي تدعي الذهاب الى الحمام عند لقاء عشيقها :

دهتك بعلة الحمام خشف ... وطال بها الطريق الى سعيد

ارى اخبار بيتك عنك تخفى ... فكيف وليت اعمال البريد (2)

وقد نقل الجاحظ قول بعضهم في النهي عن ذهاب النسوة الى الحمام ومنه هذان البيتان من الشعر :

اذا كنت ذا عرس تضن بحلها ... فلا تخرجنها تهتفي ليلة القدر

ولا تدخل الحمام عرسك انني ... اخاف من الحمام قاصمة الظهر (3)

وقد عيّر المتنبّي ايضا النساء الحضريات بخروجهن من الحمام صقيلات ((العراقيب))(4)

---

1) القلقشندي ـ صبح الاعشى ـ القاهرة 1928 ـ ج 4 ص 215
2) الخالديان ـ الاشباه والنظائر ـ القاهرة 1965 ج 2 ص 64
3) الجاحظ ـ كتاب الحيوان ـ ج 3 ص 290
4) المتنبي ـ الديوان - ص 447

تلك هي بعض وجوه التصدع التي احدثها الرقيق في كيان الامة الاسلامية وفي الاخلاق العامة بصورة اشمل وقد تسبب جلبه في انواع اخرى من التصدّع الاجتماعي كالثورات والانتفاضات والحروب الاهلية . ولنا مثال على ذلك فيما قام به الزنج المستوردون من سواحل شرق افريقيا من حروب اهلية طاحنة دامت اربعة عشر عاما واربعة اشهر اي من سنة (255هـ/ -869- م) الى سنة (270هـ/ -884- م) وكانت حروبا عنصرية مدمّرة زعزعت اركان الدولة العباسية وتناحر فيها السود والبيض مما اذكى روح العنصرية بينهما وقد انضمت الى هؤلاء الزنوج في فتنهم الفرقة السودانية في الجيش العباسي فتفاقم البلاء وازهقت مئات الالاف من النفوس لا سيما ان قائد الثورة قد اعتنق مذهب الازارقة في قتل الصغير والكبير والذكر والانثى (1) وقد وصف المسعودي جانبا من هذه المجازر بقوله :

((وقد كان (اي صاحب الزنج) اتى بالبصرة في وقعة واحدة على قتل ثلاث مائة الف من الناس . . . . . وقد تكلم الناس في مقدار ما قتل في هذه السنين من الناس فمكثر ومقلل فاما المكثر فيقول انه افنى من الناس ما لا يدركه العدد ولا يقع عليه الاحصاء ولا يعلم ذلك الا علام الغيوب فيما فتح من هذه الامصار والبلدان والضياع واباد اهلها والمقلل يقول أفنى من الناس خمس

---

1) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج 8 ص 31

مائة الف نفر وكلا الفريقين يقول ذلك ظنا وحسبانا اذ كان شيئا لا يدرك ولا يضبط)) (1) وهذا فضلا عن الحرائق التي اشعلتها هذه الثورات في المدن مثل الاهواز والبصرة وعادان والابلة وواسط حيث ساءت احوال الاهالي وخضعوا لحالة طوارئ فضيعة اختفوا خلالها في دورهم مدة طويلة وكانوا لا يظهرون الا ليلا لصيد الكلاب وذبحها واكلها وكذلك الغربان والسنانير ثم لم يجدوا بعد ذلك مناصا من ان يأكلوا بعضهم بعضا .

فقد ذكر صاحب مروج الذهب ان هؤلاء الاهالي ((كانوا اذا مات الواحد منهم اكلوه وراعي بعضهم موت بعض ومن قدر منهم على صاحبه قتله واكله وعدموا مع ذلك الماء العذب . وذكر عن امرأة منهم انها حضرت امرأة تنزع ومعها اختها وقد احتوشوها ينتظرون ان تموت فيأكلون لحمها . قالت المرأة : فما ماتت حتى ابتدرناها فقطعنا لحمها واكلناه ولقد حضرت اختها قد جاءت الى النهر ونحن على مشرعة عيسى بن أبي حرب وهي تبكي ومعها راس اختها فقيل لها ويحك مالك تبكين قالت اجتمعن على اختي فما تركوها تموت حسنا حتى قطعوها وظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئا الا راسها هذا وهي تشتكي ظلمهم لها في اختها ومثل هذا اكثر واعظم مما وصفنا)) (1) وقد وصف الشاعر ابن الرومي اهوال

---

1) الصدر نفسه ـ ج 8 ص 61

2) الصدر نفسه ـ ج 8 ص 59 . 60

ثـــــورة الزنـــج ومـا احـدثته من ضـارّ وكـوارث ذلك في قوله:

كم فتاة مصونة قد سبوهـــا بارزا وجهها بغير لثـــام
من رآهن في المساق سبايـــا دامياتِ الوجوه للاقـــدام
من رآهن في المقاسم وسط الـز نج يقسمن بينهم بالسهـــام
من رآهن يتخذن امـــــاء بعـد ملك الاماء والخـدام
ربّ بيع هناك قد ارخصـــوه طالما قـد غلا على السـلام
اين تلك القصور والدور فيهـا اين ذاك البنيان ذو الاحكام
بدلت تلكم القصور تـــلالا من رماد ومن تراب رکـام ...(1)

---

1) ابن الرومي ـ الديـــوان ـ ج 5 ص 2111

الباب الثاني

مآل تجارة الرقيق

بعد القرن الرابع للهجرة

تطـــور الاوضـاع بعـد القـرن الرابـع

وقـد اخـذت تجـارة الرقيـق منـذ اواخـر القـرن الرابـع للهجـرة منعرجا جـديـداحتمـه تطـور الاوضـاع العالميـة وتغيـر ظـروف المسلمين وعـلاقاتهـم بغيـرهـم من الامم والشعـوب . وقـد تجلى هـذا المنعـرج بالدرجة الاولى فـــي عمليـــة تـزويـد العالم الاسلامي بمـادة الرقيـق اي في مسألة تـوريـد هـذه البضاعة من صـادرهـا التي ذكرنـاهـا خـلال بحثنـا هـذا . وذلك لان انتشار المسيحيـة والاسلام ســواء بالقـارة الاوروبيـة اوالافريقيـة اوالآسيويـة قـد كـان من نتائجـه تضـاؤل تصـدير الرقيـق وايـذان معينـه بالنضوب مما سيـــضطر معـه المسلمـــون الى مـواجهـة مشكـل التزود من جـديـد والبحـث عن صـادر جديدة لحـــل مشاكـلهم الاقتصـاديـة (1) ولا يخفى ان انتشـار النصـرانية والاسلام قـد كـــان عـامـلا اساسيا من عـوامـل القضـاء على هـذه التجـارة في صـورتهـا الرسميـــة على الاقـل وحافـزا للشعـوب المعتنقـة لهـا على معـارضـة هـذا النـوع من التبادل التجـاري . هـذا بالاضافـة الى مـا في الدينين من مانعـة الاصحـاب الملـــة الواحـدة من استرقـاق اخـوانهـم في العقيـــــــدة .

---

1) برنشفيك ـ دائرة المعارف الاسلامية . مقال عبد ـ ج 1 ص 33-34

فمنذ القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد اخذ مصدر الرقيق الصقلبي في التضاؤل حتى انقطعت مادته تدريجيا اذ ما فتئت المسيحية ان انتشرت بين البرابرة تحت تاثير الامبراطوريات البيزنطية او الكارولنجية فتقصر البلغار شيئا فشيئا لاسيما في عهد القيصر ((بوريس)) Boris (358 -361 هـ/969 - 972م) و ((سيميون)) siméon (280-315 هـ/ 893 - 927 م) ويمكن ايضا للامة المجرية ان تعتنق هذا الدين تحت تاثير دعاة من المانيا وان تنشئ كنيسة مجرية بفضل مجهودات ((جيزة)) Géza (او ((جيشة)) Geycha : (361 - 387 هـ/ 972 - 997 م) دوق المجريين ذلك في اواخر القرن العاشر للميلاد . وكذلك بفضل مجهودات ابنه ((فايك)) Vaïk (387-429 هـ/ 997.1038 م) الذي ستجعل منه الكنيسة وليا صالحا . وهكذا تسمح هذا الشعب وبارك البابا سلفستر الثاني - Sylvestre II - (389 -393 هـ/ 999 - 1003م) تتويج احد ملوكه . وانتشرت المسيحية ايضا في ربوع جرمانيا في ظل الامبراطور ((اتون)) otton (324 - 362 هـ 936-973م) الذي صار مثلا المسيحية الغربية حتى قيل اذا كان القرن التاسع قرن الامبراطور شرلمان charlemagne (165 - 199 هـ/ 768 -814م) فان القرن العاشر هو قرن الامبراطور ((اتون)) - otton - وتتصر هذه الامبراطوريات تتصرت في ظلها العناصر السلافية وكان هذا الحدث

ايـــــــذانا بخـــروجهـا من طـور البرابـرة الى طـــــــور الشعـــــــوب المتحضـــــــرة (1).

ثم ان انتشـار الاسلام ببلاد الاتراك وافريقيا السو داء قـد كـان من اثـره ان تنـاءت الجهـات التي كـان يقتنص فيهـا الرقيـق فتتسـع ذلك ازمـة في ميدان الشغـــل كـان لا بـد من بحث عن حلول لهـا (2) فمن المعلوم بالنسبـة الى بلاد السودان ان الاسلام قـد دخـل الى مملكـة ((غـانـة)) منـذ بـدايـة القـرن الاول الهجـري السابـع الميلادي وكـانت قبائـل لمتـونـة هـي التي ادخلتـــه وبـدأ منـذ ذلـك الحيـن في الانتشـار الى ان صـار بغـانـة على حـد قـول البكـري اثنا عشـر 12 مسجـدا في القـرن العاشـر للميـلاد . وقـد سيطـــرت قبـائـل صنهـاجـة على هـذه المنطقـة بعـد لمتـونـة وهيمنـت علـــــى تجـارة ((اودغست)) في اواسط القرن العاشر للميلاد وقد دان لهـم في هـذا العصر ثلاثـة وعشـرون 23 ملكـا من السودان ودفعـوا الجزيـة لملكهـم . ثم جـاء بعـد ذلك عهـد المرابطين فسيطروا على المنطقـة . وكـانت مملكـة ((كوكو)) GOGO في منطقـة النيجـر الاوسط تشتمـل على عـدد كبير من المسلمين اذ يصـف لنـــا البكـري عـاصمتهـا منقسمـة الى نصفين احـدهما للمسلمين والاخر للوثنيين (3).

---

1) يلويس هالفن L. Halphen - البرابرة Les Barbares ص 328 ــ 329 وص 344 ــ 346

2) نجاة باشا ــ التجارة في المغرب الاسلامي ــ ص 116

3) البكـــــري - المسالـك - ص 183 - حمتنت Hamelitnt - اخبار موريتانيا السنيغاليـة ص 5 . 6

وكان انتشار الاسلام في هذه المناطق قد صادف نجاحا كبيرا وتغلغل بين قبائل السود بسرعة فائقة وسر هذا النجاح ان الدعوة الاسلامية لم تكن قائمة على العنف وانما اكتست صبغة سلمية تمثلت في المعاملات التجارية والاستقرار بربوع بلاد السودان لاغراض اقتصادية والمصاهرة بين البيض والسود (1).

وكان الشأن كذلك بالنسبة الى الاتراك بآسيا الوسطى اذ انتشر الاسلام شيئا فشيئا بين القبائل التركية مما صر معه استرقاق افرادها وكان لابد من مزيد التوغل في المناطق النائية من بلاد الاتراك للظفر بهذا النوع من الرقيق (2) وهو ما تسبب في ارتفاع تكاليف التوريد لهذه البضاعة اما الاجناس المختلفة الاخرى التي كانت تجلب عن طريق القرصنة او الفتوحات فقد ضعفت مقاديرها ايضا بحكم تراجع الهيمنة البحرية الاسلامية (3) فمنذ اوائل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بدأ المسلمون يفقدون ما كان لهم من سيادة على المسالك البحرية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة فتناقص بذلك نشاطهم البحري الذي كان

---

1) المرجع نفسه ـ ص 35 ـ

2) انجاة باشا ـ التجارة في المغرب الاسلامي ـ ص 118. 119

3) ارشيبالد لويس ـ السيادة الاسلامية ـ ص 80 وما بعدها

يستعمل من حين لآخر في اقتناص بضاعة الرقيق على سواحل البلاد المجاورة لهم . ثم ان عمليات الفتح العسكرية قد صارت اكثر ندرة من ذي قبل مما انقطع معه مورد الغنيمة وبالتالي مورد الرقيق فاذا اعتبرنا بالاضافة الى هذه الملابسات الجديدة ان مادة الرقيق المتداولة عند المسلمين قد كانت مهددة دوما بالنقصان والاستهلاك لاسباب مختلفة كالتحرير والاباق وغيرهما من الاسباب ادركنا ان المورد الوحيد القار هو الولادة في الرق اي المورد الوراثي وهو غير كفيل وحده بسد حاجة المجتمع المتزايدة الى هذه المادة الضرورية لحياته . فلامناص اذن والحالة تلك من ان يبحث المسلمون من جديد عن حل مناسب لمواصلة التزود بهذا النوع من الطاقة اللازمة لمسيرتهم الحضارية وان يحلوا ايضا مشكل ارتفاع تكاليف تعويد هذه اليد العاملة المسترقة مثلما واجهوا هذه القضية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ووجدوا لها الحلول المناسبة لعصرها .

*- قائمة المصادر والمراجع

1) المصادر

ابن آدم = كتاب الخراج - طبعة ليدن - Leiden 1895 م

ابن الابار = الحلة السيراء - تحقيق حسين مؤنس - الطبعة الاولى - القاهرة 1963

الابشيهي = المستطرف في كل فن مستظرف - مطبعة المشهد الحسيني - بيروت - لبنان - 1368 هـ و طبعة بولاق 1308 هـ

الاتليدي = اعلام الناس - طبعة مصر 1318 هـ

ابن الاثير = الكامل في التاريخ - تصحيح عبد الوهاب النجار - ادارة الطباعة المنيرية - مصر 1357هـ وطبعة ليد leyde نشر طورنبرج c.J.Tornberg - 1851-1876 م وطبعة مصر 1302 هـ

= اسد الغابة في معرفة الصحابة - طبعة - مصر - 1280 هـ

ابن الاخوة = معالم القربة في احكام الحسبة - تحقيق روبن ليفي = "Reuben-levy" مطبعة دار الفنون - كيمبردج 1937

الادريسي = نزهة المشتاق في اختراق الافاق - نشر مجموعة من المستشرقين طبعة رومة 1970 م

opus Geographicum- sous la direction d'E.Cerulli, F.Gabrieli G. Levi della vida, l. Petech, G. Tucci, etc .... (Instituts universitaris orientale di Napoli) وطبعة شرمادوني ودي غويه - ليدن 1866

ارسطو = كتاب السياسة - تعريب احمد لطفي السيد. القاهرة . 1947م

الازدي = حكاية ابي القاسم البغدادي - نشر آدم متز - هيد لبرج 1902م

الازرقي = اخبار مكة - طبعة مكة - 1352هـ - وطبعة ليبزج Leipzig 1858م

ابن اسحق (خليل) = المختصر في الفقه - نشره وترجمه ن. سانيات N.Seinette باريس 1911م

الاصطخري = المسالك والممالك - نشر دي غويه M.J.De Goeje المكتبة الجغرافية العربية عدد الطبعة الثانية - مطبعة بريل - ليدن 1927م وطبعة القاهرة - 1961م

* اعتمدنا اكثر من طبعة للمصدر الواحد واشرنا الى ذلك في الهوامش - وفي صورة الامساك عن الاشارة فالمقصود اولى الطبعات ورودا بالقائمة

الاصفهاني (حمزة) = تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ـ باعتناء ـ غوتوالد ـ بترسبورغ 1844: 1848م

الاصفهاني (ابو الفرج) = الاغاني ـ تحقيق ومراجعة عبد الله العلايلي وموس سليمان واحمد ابو سعيد طبعة دار الثقافة ـ بيروت ـ 1955: 1964م وطبعة القاهرة 1929 م بالنسبة الى الجزء الثالث والجزء الرابع وطبعة بولاق 1285 هـ وطبعة القاهرة 1323 هـ/ 1905م

الاصفهاني (ابونعيم) = حلية الاولياء ـ طبعة القاهرة 1933

ابن ابي اصيبعة = عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ نشر مولر Müller كونيزبرج Königsberg 1882م

افلاطون = الجمهورية ـ تعريب الدكتور فؤاد زكريا ـ القاهرة 1968م

ابن انس (مالك) = المدونة الكبرى ـ رواية الامام سحنون ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة السعادة ـ مصر 1323 هـ

= الموطأ ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار احياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاؤه 1370هـ/ 1951م

الانطاكي = تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق ـ المطبعة العامرية القاهرة 1291 هـ/

الاورخندي = العتابي الهندية ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة بولاق مصر 1310 هـ

ابن اياس = بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ نشر محمد مصطفى ـ طبعة القاهرة 1960: 1961م

البحتري = الديوان ـ طبعة دار صادر بيروت 1385هـ/ 1966م

البحاني = الصحيح ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر 1345هـ وطبعة ادارة الطباعة المنيرية ـ مصر ـ د ـ ـ

البرزلي = جامع مسائل الاحكام ـ مخطوط المكتبة الوطنية بتونس ـ الجزء الثاني الخاص بالبيوع رقم 5430 و 5372 و 3175

= المختصر ـ مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم 3178 و 3179

ابن بسام = الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ـ طبعة القاهرة 1939م

ابن بطـــلان = رسالة جلمعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد
تحقيق عبد السلام هارون -
- نوادر المخطوطات - المجموعة عـ4ـدد الطبعة الاولى - القاهرة
1954م
= رسائل ابن بطلان - نشرها ما يرهوف Meyerhof وشاخت
Schacht (ضمن خمس رسائل تبادلها مع ابن رضوان) بعنوان
مناظرة ابن بطلان وابن رضوان القاهرة 1937م
The Controversy between Ibn Butlan and Ibn Ridwan

ابن بطوطـــة = تحفة النظار - نشره وترجمه الى فرنسي C. Defrémery
وصاحبيه B R. Sanguinetti بعنوان رحلة ابن بطوطـــــــه
Voyages d'Ibn Batouta باريس 1853 1858م وطبعة
بيـــروت 1964م

البغـدادي (الخطيب) = تاريخ بغداد - مطبعة السعادة - مصر 1931م
وطبعة اخرى نشر وترجمة الى لومن Salomon باريس 1904م

البغدادي (عبدالوهاب) = الاشراف على مسائل الخلاف - مطبعة الارادة - مصر د. ت

البغـوي = مصابيح السنة - مطبعة بولاق مصر 1294 هـ

البكـري = المسالك والممالك - نشر وترجمة الى كلان M.G. De Slane
الجزائر 1911 1913م وطبعة اخرى 1965م
= المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب - جزء من كتاب المسالك
نشر دي سلان - MG De Slane الجزائر 1857م (وهو جزء
خاص بشمال افريقيا وبلاد السودان)

البـــلاذري = فتوح البلدان - نشر رضوان محمد رضوان - الطبعة الاولى مصر
1350 هـ 1932م وطبعة عبد الله وانيس الطباع بيروت 1958م
= انساب الاشراف (الجزء الاول) تحقيق محمد حميد الله المعارف مصر 1959م

البلوي (ابومحمد عبدالله) = سيرة احمد بن طولون - تحقيق محمد كرد علي مطبعة الترقي
دمشق 1350 هـ

البلوي (يوسف) = الظراف وبعده مصر 1957

البهلوي (ابومحمد بن بركة) = كتاب الحامع ـ تحقيق عيسى يحيى الباروني القاهرة .د .ت

البيـــرونـــي = الجماهر في معرفة الجواهر ـ نشر كونكو ـ حيدرآباد الدكن 1355هـ

= التفهيم ـ طبعة رايت .R. Wright 1934م

البيهقـي = المحاسن والمسا ي ـ نشر .ف. شوالي . كيسن . 1902م

التوحيدي = الامتـاع والمؤانسة ـ تحقيق احمد امين واحمد الزين مطبعة لحنة التأليف والترحمة والنشر ـ بيروت ـ صيدا ـ 1953م

الترمـذي = صحيح ـ نشر عبد الواحد محمد التاني ـ الطبعة الاولى ـ الحزء السا د س ـ المطبعة المصرية بالازهر 1350هـ1931م

ابن تغي بردي =النحوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية القا رة 1930م وطبعة القاهرة 1932م وطبعه حوينبوى Juynboll ليد ـ Leyde ـ 1855ـ1861م

ابو تمام = الديوان بشرح الخطيب التبريزي ـ تحقيق محمد عبده عزام سلسله ذخائر العرب عدد دار المعارف بمصر 1951م وطبعه القاهره 1965م

السيوطـي = العز بعد الشدة ـ طبعه القاهره ـ 1904م

= شوار المحاضرة او خامس التواريخ ـ تحقيق عبود الشالحي ـ دار صادر بيروت 1971 1975م وطبعة القاهره ـ د ...

التونسي (محمد بن عمر) = تشحيذ الاذهان بسيره بلاد العرب والسودان ـ تحقيق خليل محمود عساكر ومصطفي محمد مسعد ـ مراجعه محمد صبحي حسن حلاق ـ المؤسسه المصريه العامه للتأليف والانباء والنشر ـ الدار المصريه للتأليف والترجمه القاهره 1965م

التيجانـي = الرحله ـ نشر حسن حسن عبد الوهاب ـ تونس 1378هـ/ 1958م وطبعة تونس 1927م

ابن ثابت (حسان) = الديوان ـ مطبعه الدوله التونسية ـ تونس 1281هـ

الثعالبي = ثمار القلوب ـ طبعه القاهره 1326هـ

= لطائف المعارف ـ تحقيق ابراهيم الابياري وحسن كامل الصيرفي دار احياء الكتب العربيه مصر 1960م وطبعه دي يونج De Jong ليدن 1867م

= يتيمة الدهر ـ طبعة دمشق 1303هـ وطبعة القاهرة 1934م

الجاحظ = البخلاء ـ طبعة مصر 1323هـ

= التبصر بالتجارة ـ تحقيق حسن حسن عبد الوهاب ـ دار الكتاب الجديد 1966م

= الحيوان ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ دار الكتاب العربي بيروت ـ الطبعة الثالثة 1388هـ/ 1969م

ـ وطبعة مصطفى بابي الحلبي واولاده ـ القاهرة مصر 1958م

= رسائل الجاحظ ـ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي ـ القاهرة 1964ـ1965م

وطبعة ثالثة لنفس المحقق ـ دار الكتاب العربي بيروت 1388هـ/ 1969م

المحاسن والاضداد منشورات دار مكتبة الهلال ـ مطبعة الساحل الحديثة ـ الشياح ـ لبنان بدون تاريخ

ابن الجراح = الورقة ـ مطبعة دار المعارف بمصر 1953م

الجرجاني = التعريفات ـ مكتبة لبنان ـ بيروت 1969

الجصاص = احكام القرآن ـ طبعة القاهرة بدون تاريخ

ابن جعفر (قدامة) = الخراج وصنعة الكتابة ـ المكتبة الجغرافية العربية المجلد 6 نشرة دي غوية De Goeje ـ ليدن 1889م

الجهشياري = الوزراء والكتاب تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ـ مطبعة مصطفى بابي الحلبي واولاده ـ القاهرة 1938م

ابن الجوزي = المنتظم في تاريخ الملوك والامم ـ الطبعة الاولى مطبعة دائرة المعارف العثمانية ـ حيدرآباد الدكن 1358هـ

الجوهري = تاج اللغة وصحاح العربية ـ تحقيق احمد عبد الغفور عطار ـ القاهرة دار الكتاب العربي ـ بدون تاريخ

ابن حبيب = اسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ سلسلة نوادر المخطوطات ـ عدد ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة 1954م

ابن حبيب = المحبر ـ دائرة المعارف العثمانية ـ حيدرآباد الدكن 1942م

الحبيشي (الوصابي) = البركة في فضل السعي والحركة ـ الطبعة الاولى
مطبعة الشرق مكتبة الخانجي - مصر 1354هـ

ابن الحسين (اسحق) = آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان ـ
(المؤلف لانعرف عنه شيئا سوى انه كان حيا سنة 340هـ/
950م والف باسبانيا هذا الكتاب) نشره وترجمه الى الايطالية
كوداني A-Codazzi - في = Rendiconti della Reale Accademia
dei Lincei - سلسلة 6 - عدد 5 - ص 373-463 - روما 1929 م

ابن حزم = الفصل في الملل والاهواء والنحل ـ نشر عبد الرحمن خليفة
مطبعة محمد علي صبيح واولاده ميدان الازهر مصر 1347هـ

ابن حزم = المحلّى ـ طبعة القاهرة-1347 هـ

الحلّي (ابو القاسم) = شرائع الاسلام في مسائل الحلال والحرام ـ مطبعة الاداب
النجف 1969م

ابن حماد = اخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم ـ نشرو ترجمة فودارمايدن
M vonderheyden بعنوان «تاريخ الملوك العبيديين»
Histoire des rois 'obeidites الجزائر باريس 1927 م

الحموي (ياقوت) = معجم البلدان ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ـ 1955
1957م وطبعة وستنفلد F.Wüstenfeld ليبزج - Leipzig -
1866 : 1870م

الحموي (ياقوت) = ارشاد الاديب الى معرفة الاديب (المعروف بمعجم الادباء)
تصحيح د. س. مرجوليوث - Margoliouth - مصر 1923م

الحميري (ابوعبدالله) = الروض المعطار في خبر الاقطار ـ نشره بروفنسال E Levi Provençal
بعنوان : شبه الجزيرة الايبيرية في العصر الوسيط ـ مؤسسة دي
عوية ليد MG-De Goeje 1938م Leyde
La Peninsule ibérique au moyen age d'après le K. al-Rawd al-Mi'tar

ابن حوقل = المسالك والممالك ـ المكتبة الجغرافية العربية نشر دي عوية
ليد - Leyde - 1873م

= صورة الارض نشره كرامرز J.H.Kramers طبعة ليد Leyde 1938م
(opus Geographicum auctore Ibn-Haukal)

وترجمة الاستبراك من عياد G-Wiet طبعة 1964م

ابن حيـان = المقتبس نشره غرسية قومس Garcia.Gomez وليفي بروفنسال E.Lévi.Provençal في "الاندلس" ×1× ـ مدريد 1954م ص 295 ـ 315

الخالديـان = الاشباه والنظائر ـ الجزء الثاني طبعة القاهرة 1965

الخراساني (ابو غانم الابـاضي) = المدونة الكبرى ـ تحقيق محمد بن يوسف اطفيش الاباضي الجزائري ـ دار اليقظة العربية للتاليف والترجمة والنشر في سوريا ولبنان 1394هـ/ 1974م

ابن خرداذبة = المسالك والممالك ـ المكتبة الجغرافية العربية (4) نشر دي غوية M.J. DeGoeje ليد Leyde 1889م ونشره ايضا بربيي دي مينار Barbier de Meynard بعنوان كتاب المسالك Le livre des routes في المجلة الاسيوية J.A. سلسلة 6 ـ د ن 5 ص 512

الحراعي (دعبل) = الديوان ـ تحقيق الدكتور عبد الكريم الاشتر ـ دار الفكر بدمشق د.ت.

الخطيب (محمد الشربيني) = معني المحتاج الى معرفة معاني الفاظ المنهاج ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر د.ت

ابن الخطيب = اعمال الاعلام ـ نشر حسن حسني عبد الوهاب طبعة بالرمو 1910

ابن الخطيم (قيس) = الديوان تحقيق ناصر الدين الاسد مكتبة دار العروبة سلسلة كنوز الشعر ع2 ـ د الطبعة الاولى القاهرة 1381هـ/ 1962م

ابن خلدون = العبر طبعة بيروت 1959م وقد سردي سلان ـ De slane النصوص المتعلقة بالمغرب وترجمها بعنوان تاريخ البربر Hist des Berbères طبعة الجزائر 1852 ـ 1856م

ابن خلدون = المقدمة ـ طبعة ـ بولاق ـ القاهرة ـ 1274هـ وطبعة كاترمار E.Quatremère باريس 1858 ـ 1868م ـ وطبعة بيروت ـ 1966م

ابن خلكـان = وفيات الاعيان ـ طبعة بولاق 1299هـ وطبعة مكتبة النهضة المصرية تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة 1948م وطبعة مصر 1310هـ

ابن دريـد = الاشتقـاق ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة 1958

الدمشقي (شمس الدين) = نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ـ نشره مهرن Mehren

بعنوان Cosmographie de chems ed. din aad.dimichqi
طبعة بترسبوغ - st - Petersbourg - 1866م

الدمشقي (ابوالفضل جعفر بن علي) = الاشارة الى محاسن التجارة ـ طبعة القاهرة 1318هـ

الدميـــــري = حياة الحيوان ـ طبعة بولاق ـ 1284هـ

الذهبـــي = سير اعلام النبلاء ـ تحقيق ابراهيم الابياري ـ سلسلة ذخائر العرب ع19 ـ د د ـ طبع معهد المخطوطات العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر 1957م

الذهبـــي = العبر في اخبار من غبر ـ تحقيق فؤاد سيد ـ سلسلـــة التراث العربي طبعة الكويت 1963

ابن رستـــة = الاعلاق النفيسة ـ المكتبة الجغرافية العربية ع ـ 7 ـ د د ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة بريل لدين 1892

ابن رشـد (الحفيد) = بداية المجتهـد ونهاية المقتصد ـ طبعه بيروت ـ د . ت

الرصاع (ابو عبد الله) = شرح حدود ابن عرفة ـ الطبعة الاولى المطبعة التونسية ـ تونس 1250هـ

الرضي (الشريف) = الديوان طبعة دار صادر بيروت . د . ت

ابن الرومي = الديوان ـ تحقيق حسين نصار ـ مطبعة دار الكتب مصـــر 1973: 1979م

الزبيـدي (محمد مرتضى) = تاج العروس من جواهر القاموس ـ المطبعة الخيريه القاهـرة 1307 هـ

ابن الزبير (القاضي الرشيد) = الذخائر والتحف تحقيق محمد حميد الله مع تقديم و مراجعة لصلاح الدين المنجد ـ سلسلة التراث العربي ـ دار المطبوعات والنشر بالكويت ـ الكويت 1959م

الزبيـري (مصعب بن عبد الله) = نسب قريش ـ طبعة مصر 1953م

ابن ابي زرع = الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ـ نشره طورنبرج - Tornberg - مع ترجمة لاتينية بعنوان
Annales ReGum Mauritaniae
ابسلا - UPsala - 1843 - 1846م

الزرقانـــــي = شرح موطا الامام مالك ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة 1954م

الزهـــــي = كتاب الجغرافية ـ نشره الحاج صادق في مجلة الدراسات الشرقية -BEO- المعهد الفرنسي بدمشق -I.F.D- ج 21 سنة 1968م ص1: 132

الزوزنـــي (ابو عبدالله) = شرح المعلقات السبع ـ طبعة دار الثقافـــة بيروت ـ لبنان ـ 1388هـ/ 1969م

السبكي (تاج الدين) = طبقات الشافعية الكبرى المطبعة الحسينية بالقاهرة مصر 1324هـ/

السجستاني (ابو داوود) = السنن ـ تحقيق محمود محي الدين عبد الحميـــد مطبعة مصطفى محمد مصر ـ د.ت

السرخسي (شمس الدين) = المبسوط ـ الطبعة الثانية دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان ـ د.ت.

السرخسي (محمد بن احمد) = شرح كتاب السير الكبير لاحمد بن الحسن الشيباني تحقيق عبد العزيز احمد بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية مطبعة شركة الاعلانات الشرقية 1971

ابـــن سعد (محمد) = الطبقات الكبرى ـ دار صادر بيروت ـ الجزء الخامس والسادس 1957 1958م

ابن سعيد = بسط الارض في الطول والعرض نشره فرني حينس Juan vernet - Ginès تطوان 1958م

ابن سعيد = المغرب في حلى المغرب ـ طبعة ليدن 1894 ـ 1899م وقد نشر القسم الاول من الجزء الخاص بمصر زكي محمد حسن وسيد حسين وسيد اسماعيل كاشف القاهرة 1953م

السقطي (ابو عبد الله المالقي الاندلسي) = في آداب الحسبة نشره كولين وبروفنسال G-S-Colin - et - E. Lévi- Provençal مكتبة ارنست لورو - ERNEST-LeROUX - باريس 1931م

ابن سلام (ابو عبيد القاسم) = الاموال ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ القاهرة 1353هـ

السمعاني (عبد الكريم بن ابي بكر) = الانساب ـ تحقيق عبد الرحمان بن يحي المعلمي ـ مطبعة دائرة المعارف العثمانية الهند 1962م

السهيلي (ابو القاسم) = الروض الانف ـ الطبعة الجمالية بمصر 1332هـ/ 1914م

السيوطي = تاريخ الخلفاء تحقيق محمد عبد المتين مطبعة

المجتبائي ـ دهلي 1345هـ وطبعة القاهرة د.ت

السيوطي = المستطرف في اخبار الجواري ـ طبعة القاهرة د.ت

الشابشتي (ابو الحسن علي بن محمد) = الديارات تحقيق كوركيس عواد ـ الطبعة الثانية منشورات مكتبة المثنى ببغداد مطبعة المعارف ببغداد 1386هـ/ 1966م

الشافعي = الام ـ تحقيق محمد زهري النجار ـ مكتبة الكليات الازهرية الطبعة الاولى 1381هـ/ 1961م وطبعة القاهرة 1322 هـ/ 1904: 1905م

الشريشـــي = شرح المقامات الحريرية ـ القاهرة ـ 1300هـ/1883م

الشرواني (احمد) = حديقة الافراح طبعة القاهرة 1302 هـ

الشوكاني = نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار ـ طبعة القاهرة 1961م

الشيباني (محمد بن الحسن) = كتاب السير الكبير ـ تحقيق عبد العزيز احمد ـ نشـــر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ـ مطبعة شركة الاعلانات الشرقية 1972م

الشيرزي (عبد الرحمن بن نصر) = نهاية الرتبة في طلب الحسبة ـ تحقيق ومراجعة السيد الباز العريني دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ـ د.ت

الصابي (هلال) = تحفة الامراء بتاريخ الوزراء ـ نشر آمدروز طبعة بيروت 1904م

= رسوم دار الخلافة ـ تحقيق ميخائيل عواد ـ مطبعة المعارف بغداد 1383هـ/ 1964م)

ابن الصغير = اخبار الائمة الرستميين ـ نشره وترجمه موتيلنسكي ـ A.de-C.Motylinski ـ بعنوان تاريخ ابن الصغير
Chronique d'Ibn Saghir sur Les Imams Rostémides de Tahert

اعمال المؤتمر العالمي للمستشرقين الرابع عشر 1908م ج 3 ص 172

الصولي (محمد بن يحيى) = اخبار الراضي والمتقي (تاريخ الدولة العباسية) نشره وترجمه ماريوس كانار ـ Marius Canard ـ منشورات معهد

الدراسات الشرقية (IEO) بكلية الاداب بالجزائر
الجزائر 1946 م

ابن طباطبا (ابن الطقطقي) =الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية مطبعة محمد علي صبيح واولاده القاهرة 1962م وطبعة مصر 1317هـ وطبعة بيروت 1960م

الطبري (محمد بن جرير) = اختلاف الفقهاء ـ تحقيق يوسف شاخت J. Schacht طبعة ليدن Leyden 1935م

= تاريخ الامم والملوك نشره دي غوية De Goeje طبعة ليدن Leyden 1885م واعيد الطبع سنة 1901 وكذلك طبعة ـ المطبعة الحسينية بمصر د.ت وطبعة مصر 1326 هـ

= جامع البيان عن تأويل آي القرآن تحقيق محمد محمود شاكر طبع دار المعارف بمصر 1958م

طيفور (احمد بن ابي طاهر) = كتاب بغداد تحقيق ـ هـ ـ كلر H. Keller ـ ليبزج Leipzig 1908م وطبعة اخرى بتحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري وعز العطار الحسيني مكتبة الخانجي ـ القاهرة 1949م

العبادي (ابو بكر بن علي) = الجوهرة النيرة شرح مختصر القدوري ـ الطبعة الاولى المطبعة الخيرية 1322هـ

ابن عبد الحكم = فتوح مصر ـ نشره كامله باعتناء ش. تورای ch. Torrey ليدن Leiden ـ 1922م

= فتوح افريقية والاندلس ـ نشره حرفيا باعتناء آ. كاتو A. Gateau المكتبة العربية الفرنسية (B.A.F.) عدد 2 بعنوان Conquête de l'afrique du nord et de l'Espagne الجزائر 1947م

ابن عبد ربه = العقد الفريد ـ تحقيق احمد امين واحمد الزين وابراهيم الابياري ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1941 وطبعة اخرى بتحقيق محمد سعيد العريان مطبعة

الاستقامة ـ القاهرة 1359هـ/ 1940م وطبعة مصر 1305م

ابن العديم (كمال الدين) = زبدة الحلب في تاريخ حلب مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 1666

ابن عـــذاري = البيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب ـ نشره كولـن G.S.Colin. وبروفنسال E. Lévi. Provençal ج 1: 2 ليد Leyde. 1948: 1951م ونشر بروفنسال الجزء 3 طبعة باريس 1930م واحلنا ايضا على طبعة دوزي التي ترجمها أ ـ فانيان E.Fagnan طبعة الجزائر 1901: 1904م

ابو العرب = طبقـات علماء افريقيـة ـ نشره ابن شنب ـ منشورات كلية الاداب بالجزائر ـ الجزائر 1914

ابن العربي المالكي = عارضة الاحوذي بشرح صحيح الترمذي ـ طبعة دار العلم للجميع 1353هـ

العسقلاني (ابن حجر) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز المطبعة السلفية القاهرة 1980 ء

العبـدري = تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتعيير المناكر ـ تحقيق علي الشنوفي ـ مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي بدمشق ج 19، 1967

ابن عمر (يحي) = احكام السوق ـ تحقيق ح. ح. عبد الوهاب مراجعة محمد الشاذلي ـ الشركة التونسية للتوزيع 1975م

المسعودي = مسالك الابصار في ممالك الامصار ـ مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5867، و5868

عياض (القاضي) = ترتيب المدارك وتقريب المسالك ـ تحقيق سعيد احمد بكير بشير دار مكتبة الحياة بيروت 1967م

العيني (بدر الدين ابو محمـــد) = عمدة القارة شرح صحيح البخاري ـ ادارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة د. ت.

= رمز الحقائق شرح كنز الدقائق المطبعة الميمنية بمصر د. ت

العرناطي (ابو حامد) = تحفة الالباب ونخبة الاعجاب ـ نشره وترجمه فران G.Ferrand. المجلة الاسيوية ـ J.A ـ 1925م، 1: 145 و ر 195، 207

الغزالي (ابو حامد) = احياء علوم الدين ـ دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت لبنان د.ت الجزء الثاني. وطبعة دار الشعب ـ القاهرة د.ت الجزء السادس

العزالي (محمد) = هداية المريد في تقليب العبيد ـ سلسلة نوادر المخطوطات القاهرة 1951م

ابو الفداء = تقويم البلدان نشر رينو M. Reinaud ـ ودي سلان ـ De Slane ـ طبعة ـ باريس 1840 ـ ترجم قسم منه في الجزء الثاني من جغرافية أبي الفداء ـ لرينو ـ Reinaud ـ باريس ـ 1848

ابن فضلان = رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة (309هـ/ 921م) تحقيق الدكتور سامي الدهان مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1379هـ/ 1960م

ابن الفقيه = مختصر كتاب البلدان ـ نشره دي غويه M.J. De Goeje طبعة ليد Leyde المطبعة الجغرافية العربية 5 ـ طبعة ليدن ـ Leyde ـ 1885

ابن قتيبة = المعارف ـ تحقيق ثروت عكاشة منشورات وزارة الثقافة بالجمهورية العربية المتحدة ـ طبعة دار الكتب 1960م وطبعة مصر 1300هـ

= عيون الاخبار ـ الطبعة الاولى ـ دار الكتب المصرية القاهرة 1348هـ/ 1930م

ابن خرداذبة = المغني ـ الطبعة الثانية ـ دار المنار 1367هـ على مختصر الجوهري تحقيق محمد زايد رضا ـ الطبعة الثالثة ـ دار المنار ـ 1367 هـ

القرآن الكريم =

الغرويني = آثار البلاد واخبار العباد ـ نشره وستنفلد F. Wüstenfeld بعنوان EL. Caz wini's Kosmographie وتحقيق ـ Göttingen ـ 1848م

وطبعة بيروت 1960م

القشيري = الرسالة القشيرية ـ دار الكتاب العربي بيروت ـ لبنان د.ت

القفطي = اخبار العلماء باخبار الحكماء (تاريخ الحكماء) نشره ليبرت J. Lippert
ليبزج - Leipzig - 1320هـ/ 1903م

القلقشندي = صبح الاعشي - منشورات جامعة القاهرة طبعة دار الكتب د.ت
وطبعة القاهرة 1928م الجزء الخامس

القيرواني (ابن ابي زيد) = الرسالة نشرها وترجمها - ليون بارشي L. Bercher
المكتبة العربية الفرنسية - الجزائر 1945 وطبعة على هامش
السواكه الدواني شرح رسالة ابن ابي زيد القيرواني للنفراوي المالكي
الطبعة الاولى مطبعة السعادة مصر 1331هـ

= النوادر والزيادات على ما في المدونة من غريب الامهات مخطوط المكتبة
الوطنية بتونس رقم 191 طورم 5196

ابن قيم الجوزية = اخبار النساء - منشورات دار مكتبة الحياة سلسلة من التراث العربي
بيروت د.ت

كاتب النسونة (ابو علي الحسن بن الحاج) = مخطوطة كاتب النسونة في تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية
تحقيق الدكتور صيلي عبد الحليم - منشورات الثقافة والارشاد القومي
الجمهورية العربية المتحدة د.ت

الكاساني = بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع - دار الكتاب العربي بيروت د.ت
وطبعة القاهرة 1910م

الكتاب المقدس = طبعة بيروت 1903م

الكتاني = التراتيب الادارية - دار احياء التراث العربي - بيروت لبنان د.ت

الكتبي (ابن شاكر) = فوات الوفيات - طبعة القاهرة 1923م

ابن كثير = البداية والنهاية في التاريخ - مطبعة السعادة بمصر 1932م

= تفسير القرآن العظيم - دار احياء الكتب العربية لعيسى البابي
الحلبي وشركاؤه - مصر د.ت
وطبعة بيروت 1966م

الكتبي (محمد بن شاكر) = كتاب الولاة وكتاب القضاة طبعة ريكس - Rhuvon Gues
سلسلة جب - Gibb التذكارية 1908م وطبعة دار الثقافة
بيروت للطباعة والنشر بيروت 1379هـ/ 1959م

الحالقي (ابو الحسن) = الحدائق الغناء في اخبار النساء ـ تحقيق عائدة الطيبي ليبيا ـ تونس ـ الدار العربية للكتاب 1978م

المالكي = رياض النفوس ـ نشر حسين مؤنس ـ الطبعة الاولى ـ الجزء الاول القاهرة 1951م

الماوردي = الاحكام السلطانية ـ الطبعة الثالثة ـ مصطفى بابي الحلبي بمصر 1973م

المباركبوري (القاضي اطهر) = رجال الهند والسند ـ حيدراباد الدكن ـ 1308هـ

المتنبي = الديوان ـ تحقيق لجنة التاليف والترجمة والنشر تصحيح عبد الوهاب عزام ـ القاهرة 1363هـ/ 1944م

ابن المحاور = المستبصر ـ نشره لوفجرين Oscar LöfGreen ـ ليدن Leiden 1936م

مجهول (ق 3 هـ) = اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده ـ تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي بيروت دار الطليعة 1971م

ابو مخرمة = تاريخ ثغر عدن ـ تحقيق لوفجرين ـ Oscar LöfGreen ـ طبعة ليدن ـ Leiden ـ 1936م

المروزي = طبائع الحيوان (ابواب في الصين والترك والهند) تحقيق ـ ف ـ مينورسكي V.Minorsky لندن 1942م

المسعودي = مروج الذهب ـ نشره وترجمه ـ ب ـ دي مينار C.B.De.Meynard و ـ ب ـ دي كورتاي Pavet.de.Courteille طبعة باريس 1861ـ1877م وطبعة بولاق 1383هـ وطبعة مصر 1304هـ ـ وطبعة باريس ترجمة كارادي فو B.C.Devaux سلسلة الوثائق الشرقية MDCCC XCVII

= التنبيه والاشراف ـ نشره دي غوية DeGoeje المكتبة الجغرافية العربية عدد 8 ليدن Leyde 1894م وطبعة من تحقيق الصاوي ـ مصر 1357هـ

= اخبار الزمان ـ دار الاندلس ـ الطبعة الثانية بيروت 1386هـ 1966م

مسكويه = تجارب الامم ـ نشر آمدروز H.F.Amedroz و مرغوليوث D.S.Margoliouth القاهرة واوكسفورد ـ Oxford ـ 1920ـ1921م

مسلم = صحيح مسلم بشرح النووي ـ نشر محمود توفيق ـ مطبعة حجازي بالقاهرة ـ د.ت

ابن المعتز = طبقات الشعراء ـ تحقيق عباس اقبال ـ طبعة لندن 1939م

= الديوان ـ تحقيق محي الدين الخياط ـ المكتبة العربية بدمشق ـ د.ت

المعري = لزوم ما لا يلزم او اللزوميات ـ تحقيق امين عبد العزيز الطبعة الثانية مطبعة التوفيق الادبية مصر 1342هـ/ 1923م

المقدسي = احسن التاسيم في معرفة الاقاليم ـ نشر دي غوية De Goeje المكتبة الجغرافية العربية ع3ـدد طبعة بريل ـ ليد Leyde 1877م والطبعة الثانية 1906م

المقريزي = المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ـ طبعة بولاق 1270هـ وطبعة القاهرة 1324ـ1326هـ وطبعة اخرى نشرها فيات G.wiet بعنوان الخطط المقريزية ـ في مذكرات اعضاء المعهد الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة ـ MIFAO ـ ع1ـدد 5 ـ القاهرة 1911 ـ 1927م كما نشرنا ايضا في طبعة بولاق 1853م

= اغاثة الامة بكشف الغمة ـ نشره مصطفى زيادة والشيال القاهرة 1940م والطبعة الثانية ـ القاهرة 1957م

المقري = نفح الطيب ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت 1949م وطبعة بولاق 1279هـ

ابن منظور = لسان العرب ـ طبعة بولاق 1300ـ 1307هـ

الميداني = اللباب ـ (شرح مختصر القدوري) الطبعة الاولى ـ المطبعة الحيرية 1322هـ

ابن ناجي = معالم الايمان ـ طبعة تونس 1320هـ/ 1902م

ناصر الدين = نبذة في تاريخ الصحراء الغربي ـ وثائق نشرها اسماعيل حمت Ismaël Hamet وترجمها بعنوان Chroniques de la Mauritanie Sénégalaise وباريس 1911

ابن النديم = كتاب الفهرست ـ طبعة فلوجل FLüGeL ليبزج Leipzig 1871م

النفراوي (المالكي) = الفواكه الدواني شرح رسالة ابن ابي زيد القيرواني-الطبعة الاولى مطبعة السعادة مصر 1331هـ

النهروالي (قطب الدين) = الاعلام باعلام بيت الله الحرام ـ تحقيق وستنفيلد wüstenfeld طبعة ليبزج -Leipzig- 1857م

ابو نواس = الديوان ـ وضعه ورتبه محمود كامل فريد ـ طبعة القاهرة د.ت

النووي (ابو زكريا يحيى) = المنهاج ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر د.ت

السويدي = نهاية الارب في فنون الادب نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب بالقاهرة د.ت

ابن هشام = سيرة الرسول ـ طبعة على هامش الروض الانف للسهيلي المطبعة الجمالية مصر 1332هـ/ 1914م ـ وطبعة القاهرة 1946ـ1955م

هلال (ربيعه الرأي) = احكام الوقف ـ طبعة حيدرآباد الدكن ـ 1356هـ

الهمداني (بديع الزمان) = المقامات الطبعة الرابعة على هامش رسائل الهمداني ـ مصر 1346هـ/ 1928م

الهمداني (رشيد الدين فضل الله) = جامع التواريخ ـ عربه عن الفارسية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد ـ تحقيق يحيى الخشاب دار احياء الكتب العربية مصر 1960م

الوفاء (ابو الطاهر) = الاسرار في الاربعاء او المواريث تحقيق كمال مصطفى-مصر 1372هـ/1953م

الونشريسي = المعيار المطبعة الحجرية طبعة فاس 1314ـ1315هـ

اليعقوبي = كتاب البلدان ـ المكتبة الحيدرية العربية في النجف الاشرف

عربه ـ De Goeje ـ طبعة ليدن Leiden بطابعه بريل 1891م

= كتاب التاريخ ـ نشره هوتسما M Th. Houtsma ـ طبعة ليدن Leyde 1883م

ابو يوسف (يعقوب بن ابراهيم) = كتاب الخراج ـ طبعة بولاق 1302هـ وقد ترجمه إ. فاغنان E. Fagnan بعنوان - Le Livre de l'impôt Foncier - باريس 1921م

2) المراجع :

أ - باللغة العربية

الافغاني (سعيد) = اسواق العرب في الجاهلية والاسلام - الطبعة الثالثة - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - 1394هـ/ 1974م

الالوسي (محمد بهجت) = بلوغ الارب في معرفة احوال العرب - طبعة - القاهرة 1924م

أمين (احمد) = ظهر الاسلام - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - 1957 وطبعة دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الخامسة 1388هـ/ 1969م

بارتولد (و) W. Barthold = دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة العربية - تعريب محمد ثابت الفندي واحمد الشنتناوي وابراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس 1352هـ/ 1933م . مقال بلخ: ن 4ص88: 102

ومقال : خزر: ج -8- ص305: 311

ومقال : سلاف : ج -12- ص253: 256

باشا (نجاة) = التجارة في المغرب الاسلامي من القرن الرابع الى القرن الثامن الهجري منشورات الجامعة التونسية - 1976

باشميل (محمد احمد) = غزوة بدر الكبرى - الطبعة الثالثة - دار الفتح للطباعة والنشر - بيروت 1966

بروفنسال (ألفي) E. Lévi-Provençal = دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة العربية 1352هـ/ 1933م مقال : صقالبة = - ج -12- ص 250: 252

بروكلمان (كارل) C. Brockelmann = تاريخ الشعوب الاسلامية - تعريب نبيه امين فارس ومنير البعلبكي الطبعة الثانية - دار العلم للملايين - بيروت 1953م

برانس (محمد احمد) = البرامكة في ظل الخلفاء = دار المعارف بمصر د.ت

بلتاجي (محمود) = منهج عمر بن الخطاب في التشريع ـ طبعة دار الفكر العربي 1970

بيرنيط (خوان) = هل هناك اصل عربي اسباني لفن الخرائط البحرية ـ تعريب مختار العبادي ـ مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية العدد الاول ـ السنة الاولى ـ مدريد 1372هـ/ 1953م

ترمانيني (عبد السلام) = الرق ماضيه وحاضره ـ سلسلة عالم المعرفة ـ ع23 ـ د الكويت 1979م

الجداوي (مصطفى) = الرق في التاريخ وفي الاسلام ـ طبعة الاسكندرية 1963

جروهمان (أ) A-Grohman = اوراق البردي العربية في دار الكتب المصرية ـ 6 اجزاء القاهرة 1934 ـ 1962م

حسن (ابراهيم حسن) = تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة 1958م

= تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب الطبعة الثانية ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1958م

= المعز لدين الله بالاشتراك مع طه احمد شرف دراسة تعتمد المخطوطات والمسايرات للقاضي ابن حميدة النعمان ـ طبعة القاهرة 1367هـ/ 1948م

= النظم الاسلامية ـ بالاشتراك مع علي ابراهيم حسن ـ مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1959م

حسن (محمد عبد الغني) = بطن السمك ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية عشر 1979م

حميد الله = مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة . جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدرآبادي ونشرها بعنوان = وثائق دبلوماسية - (Documents sur la diplomatie musulmane à l'époque du Prophète et des Khalifes orthodoxes)

القاهرة 1941م واعيد الكتاب في طبعة ثانية بمطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة 1958م

الحربوطلي (علي حسني) = عشر ثورات في الاسلام ـ الطبعة الاولى ـ دار الاداب بيروت 1968م

حماد (محمد عبد المنعم) = قصة الادب في الاندلس ـ طبعة مكتبة المعارف بيروت 1972م

الدوري (عبد العزيز) = تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري الطبعة الثانية - دار المشرق بيروت لبنان 1974

= نظام الظرائب في خراسان في صدر الاسلام مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد - 11 - 1384هـ/ 1964م ص 75 - 87

ديورانت (ول) W. Durant = قصة الحضارة تعريب زكي نجيب محمود ومحمد بدران الجزء الثاني - القاهرة - 1956م

رستم (اسد) = الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب - طبعة دار المكشوف الطبعة الاولى - بيروت لبنان 1955 - 1956م

الركابي (حودت) = في الادب الاندلسي - طبعة الثانية - دار المعارف مصر 1966م

رحيلي (وهبة) = آثار الحرب في الفقه الاسلامي - الطبعة الثانية - دار الفكر بيروت 1962م

الزركلي = الاعلام - قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين دار العلم للملايين بيروت لبنان الطبعة الرابعة 1979م

زناتي (محمود سلام) = اختلاط الجنسين عند العرب - دار الجامعات المصرية 1959م

زيدان (جرجي) = تاريخ التمدن الاسلامي - مطبعة الهلال بالفجالة مصر الطبعة الاولى - الجزء الثاني - 1903م والجزء الرابع 1905م والجزء الخامس 1906م

تاريخ مصر الحديث - مطبعة المقتطف - مصر 1958م

شاخت (يوسف) J - Schacht = مهاجر ام ولد - دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ج 2 ص 640

شفيق باشا (احمد) = الرق في الاسلام - رد مسلم على الكاردينال لافيجري - تعريب احمد زكي باشا - الطبعة الثانية - مطبعة الاعتماد بمصر د. ت

شابين (اسكندر) A - Scippel = احبار امم المحوّل من الارمان وورثة الروس - صوّر جمعها المصنف ونشرها - طبعة مدينة اوسلو 1928م

واعيد الطبع بالاوفست بمكتبة المثنى ببغداد

الصوفي (خالـــد) = تاريخ العرب في اسبانيا في عهد المنصور طبعة القاهرة د.ت

الصيني (بدر الدين) = العلاقات بين العرب والصين ـ الطبعة الاولى-مكتبة النهضة المصريـــة القاهرة 1950م

العبادي (احمد مختار) تاريخ البحرية الاسلامية-بالاشتراك مع عبد العزيز سالم-الطبعة الثانية-دار المعارف-1969م

عبد الباقي (محمد فؤاد) = المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم-مطابع الشعب 1378هـ

عبد الحليم (الشاطر بصيلي) = تاريخ وحضارات السودان الشرقي والاوسط من القرن سابع الى القرن التاسع عشر للميلاد الهيئة المصرية العامـــة للكتاب مصـــر 1972م

العدوي (ابراهيم احمد) = المسلمون والحرمان ـ الطبعة الاولى-دار المعرفة 1960م

العسكري (سليمان ابراهيم) = التجارة والملاحة في الخليج العربي-طبعة القاهرة 1972م

علي (جواد) = تاريخ العرب قبل الاسلام ـ مطبعة المجمع العلمي العراقي 1376هـ/ 1957م

العلي (زكية عمر) = التريق والحلي عند المرأة في العصر العباسي-منشورات وزارة الاعلام-الجمهورية العراقية-سلسلة الكتب الحديثة رقم 99 دار الحرية للطباعة-بغداد 1396هـ/ 1976

العلي (صالح احمد) = التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول للهجرة-الطبعة الثانية ـ دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت 1969م

فازيليف A.vasiliev = العرب والروم ـ ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ـ مراجعة فؤاد حسنين دار الفكر العربي د.ت

فلهاوزن J.wellhausen = تاريخ الدولة العربية-تعريب ابو ريدة مراجعة حسين مؤنس الطبعة الثانية طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة 1968م

فنسنك A.J.Wensinck = مفتاح كنوز السنة ـ تعريب محمد فؤاد عبد الباقي-مصر-د.ت

فيصل (شكري) = تطور العرب بين الجاهلية الاسلام من امرئ القيس الى ابن ابي ربيعة-دار العلم للملايين-الطبعة الرابعة بيروت 1969م

= حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول ـ مطابع دار الكتاب العربي-مصر-1952

كاشف (سيدة اسماعيل) = مصر في عهد الاخشيديين ـ دار النهضة العربية-الطبعة الثانية القاهرة 1970م

كانار (ماريوس) M. Canard = نخب تاريخية وادبية جامعة الاخبار الامير سيف الدولة الحمداني خزانة الكتب العربية الجزء الثامن الجزائر 1934م

الكبيسي (حمد ان عبد المجيد) = اسواق بغداد دار الحرية للطباعة بغداد 1399هـ/ 1979م

كتابجي (زكريا) = الترك في مؤلفات الجاحظ ـ طبعة دار الثقافة بيروت لبنان 1972م

الكواكبي = الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ـ طبعة بيروت 1975م

لسترانج (ل) G. Le Strange = بغداد في عهد الدولة العباسية ـ تعريب بشير يوسف فرنسيس الطبعة الاولى-المطبعة العربيه ببغداد 1355هـ/ 1936م

لعبال (موسى) = الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي-ساتها وتطورها-الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ الطبعة الاولى 1971م

لويس (ارشيبالد) A. Lewis = السيادة الاسلاميه ـ دراسات اسلاميه تعريب عدد من الدكاترة . باشراف نهولا زيادة-دار الاندلس للطباعة والنشر بالاشتراك مع مؤسسه فرنكلين المساهمة ـ للطباعة والنشر بيروت لبنان 1960 ص 25ـ84

ماجد (عبد المنعم) = ظهور الخلافه الفاطمية وسقوطها ـ طبعة القاهرة 1958م

= نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ـ طبعة القاهره 1953 ، 1955م

متز (آدم) A. Mez = الحضارة الاسلاميه في القرن الرابع الهجري ـ او عصر النهضه في الاسلام ـ تعريب محمد عبد الهادي ابي ريده ـ دار الكتاب العربي بيروت لبنان ـ الطبعة الرابعة 1387هـ/ 1967م

المدور (احميل بن سحلة) = حضارة الاسلام في دار السلام مطبعة المعتمد مصر 1888م

المنجد (صلاح الدين) = بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي ـ دار الحياة بيروت 1957م

مينورسكي (ف) V.Minorsky = مقال روس ـ دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ج 10 ص 229

الندوي (محمد اسماعيل) = تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ـ دار الفتح للطباعة والنشر بيروت ـ صندوق البريد 4295

هارتمان (ر) R.Hartmann = مقال بربرة ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ج 3 ص 522: 524

هوار (كليمان) cl.-Huart مقال ديلم ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة العربية ج 5 ص 367

ب ـ بعير العربية

Barthold(W) = Turkistan down tothe Mongolinvasion- London1928
= Article = Turc - Encyc. of Islam-T 6 P.901

Bianquis(th) = La prise du pouvoir par les fatimides en Egypte (Annales Islamologiques) XI - Le caire 1972

Braunstein(ph) et delort(R) = venise, portrait historique d'une cité-Edition du seuil - Paris VI 1971

Bréhier (L) = La civilisation Byzantine . in l'évolution de l'humanité-synthése collective dirigée par henri BERR - Paris XIV^e 1950
= Les Institutions de l'empire Byzantin - in l'evolution de l'humanité - synthése collective dirigée par Henri BERR- Paris XIV^e 1949

Brunschvig(R) = article "'Abd" - EI - 1^e - Edition -Ej Brill leyde 1934 - T=I PP 25-41
=Ibn- 'Abd-el -Hakam et la conquete de l'afrique du Nord par les arabes - Etude critique - AIEO-VI 1942- 1947-PP = 108-155
=La Berbérie orientale sous les Hafsides - Paris 1940-1947

Cahen(cl) = Les peuples musulmans dans l'histoire médiévale Ed.de l'Institut français de Damas-Damas-1977
= L'Histoire économique et sociale de l'orient musulman médiéval - Studia Islamica - 1955-III-PP93-115
= Le commerce dans le monde musulman à son apogée UNEF , PGEL, 1968. 1974. PP 14.36

Canard (M) :-Byzance et les musulmans du proche orient - variorum Reprint London 1973
- Say f-al- Daula-Recueil de Texte relatifs à l'Emir Sayf-al Daula le Hamdanide avec annotations, cartes, et plans - Bibliothèca-Arabica VIII publiée par la faculté des Lettre d'Alger - Alger 1934.

Carcopino (J) - La vie Quotidienne à Rome - L'Apogée de l'empire-librairie Hachette - 1979 - corbeil - Essonnes (S. et O) 1959 .

Cenni (C) - Monumenta Dominationis Pontificiae - Rome 1760-1761

Chelhod (J) - Introduction à l'histoire sociale et urbaine dezabid.Arabi T 25 - fasc I
Février 1978 Leiden - P P 48- 88

Coindreau (R):- Les corsaires de salé - Publications de l'Institut des Etu Marocaines - T - XLVII - Paris 1948.

Guoq (J) :- Receuil des sources arabes concernant le Bilâd al-sudân depuis le VIII siècle jusqu'au XVI siècle-thèse pour le doctorat d'université-Rome 1973

Dachraoui (F):- Le califat fatimide au Maghreb - Tunis STD 1981

Decugis (H) :- Les Etapes de droit - Paris 1946

Defrémery (C):- Anciens peuples du caucase - J.A. 1849

Delafosse (M): Histoire du sahara - Hespéris - 1930 - P.58

De Manteyer(G - Pinet) : La provence du Ier au XII siècle - Paris 1908

De sacy (S) :- Le livre de l'Indication et de ladmonition -Notice Publiée avec les prairies d'or - T9-PP 301 - 376 - société Asiétique Paris 1877.

De-vallve :- La ville d'alméria à l'Epoque Musumane - Extrait des cahie de Tunisie - 1970 -T- VIII N° 60.70

Devaux (B-carra): Le livre de l'Avertissement et de la révision trad Française- société asiatique - collection d'ouvrages orier - Paris - MDCCCXCVII

Devisse (J) :- Routes de commerce et échanges en afrique occidentale en relation avec la Méditerran ée
(Revue d'histoire économique et sociale 1972)
Tedgaoust - 1970 -I- PP 109 - 166 -

Doehaerd (R) :-Méditerran ée et Economie occidentale pendant le haut moyer age - cahiers d'histoire Mondiale -I- 1954 - PP 571 - 593

Dozy (R) :- Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'andalousie par les almoravides - 711/1110/ Nouvelle Ed. vue et remise à jour par E -L - Provençal - Leyde 1932
- Supplément aux dictionnaires Arabes - Leyden 1881

Duchesne (L) :- Liber pontificalis -edition posthume - Paris 1955 - 1957.

Duri (A.A) :- Article Baghdad - EI - Nouvelle edition - T I PP 921.936.

ECK -Le commerce mediterranéen après l'invasion arabe (R.S.E)
(Revue historique du sud Est Européen) Bucarest 1941 p 34;
ELLUL(J)-Histoire des Institutions de l'Antiquité(P.U.F) Paris 1961
EVetts -Histoire des Patriarches d'Alexandrie. T I(inpatrologia orientalis.I V et X)
Fagnan(E)-Kitab al Istibçar,l'Afrique Septentrionale au XII siecle de notre ére,traduction dans=Recueil des notes et mémoires de la société archéologique de Constantine 1900
-Ibn al Athīr,Annales du Maghreb et de l'Espagne-traduction d'Extraits;Alger 1901
Ferrand(G)-Voyage du marchand arabe Suleyman en Inde et en Chine; Paris 1922
Forand(P)-Early Muslim relations with Nubia;in Der Islam XL VIII 1971
Garcin(J.C)-Un centre musulman de la haute Egypte Médiévale=Qūs thése de doctorat -Ed- de l'institut Français d'Archéologie orientale(IFAO) 1974
Gosse;(Ph)-Histoire de la piraterie-trad-P-Teillac-Ed-Payot-Paris 1933
Grand Larrousse Encyclopédique-Librairie Larousse Paris 1961
Grimberg(K)-Histoire Universelle Paris 1963
Halphen(L)-Les Barbares des grandes invasions aux conquêtes turques du XI siécle- P.U.F. cinquiéme ed 1948
Hamidullah-Muslim Conduct of state-Lahore 1945
Hartmann(R)-Article Barbara-E.I.Nouvelle Edition-T.I p 1207
Hasan(yusuf-F)-the Arabs and the Sudan From the Seventh to early Sixteenth century Edinburg 1967
Hees(R.L)-the Itinerary of Benjamen of Tudela=a twelfeth century jewish description of north Est Africa J-A-H 1964 T-6-pp 15-24
Heyd.(W)-Histoire du commerce du levant au moyen âge publié par Furcy Raynaud-Ammesterdam 1959
Hitti(Ph-K)-Précis d'histoire des Arabes-trad de M.Planiol Bibliothéque historique Payot-Paris 1950
Huart(CL)-Histoire des Arabes Paris-1912

SUWAR- al Akālīm(anoyme persan),texte persan et traduction dans les actes du 14 éme congrés international des orientalistes III-Alger 1905 pp 22-27

Idris(H-R)La Berbérie orientale sous les Zirides-X° et XII° siécles Publication de l'Institut d'Etudes orientales-Faculté des lettres et sciences humaines d'Alger N°XXII Paris 1962

-Fêtes chrétiennes célébrées en Ifriquia à l'époque Zi ride: Revue Africaine N°440-441-Année 1954 pp 261-276

Jaubert(A)-Géographie d'Edrisi-Paris-1836-1840

Jeannel(J)-La Piraterie-thése de droit Paris-1903

Kamal(Y)-Monumenta cartographica Africae et Aegypti-Lecaire-Leyde 1926-1951

Kremer(A)-the orient under the caliphs,translated by.S.khuda-Bukhush calcuta-1920

Lammens(H)-Le berceau de l'Islam-Rome 1914

-L'Arabie occidentale avant l'hégire-Beyrouth-1928

-La Mecque à la veille de l'hégire-Beyrouth-1924

-Aḥābich-J-A-1916-pp 425-482

-Les chantres des ommeyades-J-A-.Série IX-T-IV p 227

Lane-pool(S)-Ahistory of Egypt in the middle Ages(in W.M.F.Petrie, Ahistory of Egypt-T VI London 1901)

Lebon(G)-La civilisation des arabes-Ed-IMAG-Italie-Syracuse SNED-161/69

Lengellé(M)-L'esclavage-"que-sais-je?") Presses Universitaires de France Paris 1955

Le Tourneau(R)-L'occident musulman du 7é à la fin du 15é siécles A.I.E.O.-16 Alger 1958-pp-147-176

Lewicki(T)-L'Etat Nord Africain de Tahart et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIIé et au IXé siécles incahiers d'Etudes Africaines N°8-1962-pp 513-535

Lokkegaard(F)-Article-Bakt-Ei-1é Ed-TI p-996

Lombard(M)-L'Islam dans sa premiére grandeur(VIIé-XIé siécles) Paris-1971

Lopez(R.S)Naissance de l'Europe Paris 1962

Marçais(G)-La berbérie musulmane et l'orient au moyen âge collection Les grandes crises de l'Histoire dirigée par J.Calmette

-F-Aubier-Editions Montaigne-Paris 1946
Massignon(L)-article Zandj-EI-1éEditions-IVpp 1281-1282
Mauny(R)-un Itinéraire transsaharien du M.A.(Bulletin de liaison Saharienne)1953-N°12-pp 31-41
Mehren(A.F.)Manuel de la Cosmographie du M.A. Copenhague 1874
Mendelson(I)-Slavery in the ancient Near East-Newyork 1949
Miles(G.C)-Articles-Dirham et Dinar-EI.
Minorsky(V)-Hudūd-al-'Ālam,Texte persan Publié sous le titre=the Regions of the,a persian géography 373/982-Ed-V.Barthold trad-v-Minorsky-London-1937
Monier(R)-Manuel Elementaire de droit Romain Paris 1947
Monod(th)-Majābat-al-Koubra-Contribution à l'Etude de "l'empty quarter" ouest Saharien-Mém-IFAN-N°52.Dakar-1958
Monteil(V)-al-Bakrī(cordoue 1068)Routier de l'Afrique blanche et noire du Nord-Ouest(traduction des passages concernant l'Afrique occidentale)dans B.I.F.A.N-TXXX Ser.B-1968 pp 39-116
Nestor-chronique dite de Nestor-trad-sur le rexte Slavon-russe-par Louis Leger-Publications de l'école des langues orientales Vivantes Paris 1884
Pellat(ch)-Le livre des Avares Paris 1952
Pérés (H)-La poésieAndalouse en Arabe classique au XIé siécle Paris 1937.
Pirenne(H)-Mahomet et Charlemagne-Paris 1937
-Les Villes au Moyen age- Bruxelles-1927
Poupardin(R)-Le Royaume de Povence sous les carolingiens-Paris 1901
-Le Royaume de Bourgogne-Paris 1907
Provençal(E.Lévi)-Histoire de l'Espagne musulmagne Ed-G.P.Maisonneuve Paris-et E.J-Brill-Leiden-1950-1953-T. I II III
-En relisant le"collier de la colombe"Revue Al.Andal us 1950 N°XV pp357-368
Reinaud(I.T)-Relation des voyages faits par les Arabes et les Persans dans l'Inde et la Chine-Paris.1845

Sabbe : Quelques types de Marchands des IX&X siècles in Revue Be 1934 - N° XIII

Salomon (R) : L'Esclavage en droit comparé Juif et Romain - Paris - 1

Sayous (A.E.) : Le commerce des Européens à Tunis depuis le XII siècle jusqu'à la fin du XVI - Paris 1929.

Schacht (J) : The origins of Muhammadan Jurisprudence - oxford - 1950

Schaube (A) : Handelsgeschichte der Romanischen Vôlker... Munich-Berl 1906

Schlumberger (G): Un empereur Byzantin au Xe siècle - Nicéphore phocas-Pa 1890

Sourdel (D et J): La civilisation de l'Islam classique - Paris 1968

Steingass (F) : Persian-English Dictionary - London - 1930

Talbi (M) :- L'Emirat aghlabide - Ed - Faculté des Lettres de Tunis Adrien - Maisonneuve - Paris VI - 1966

- Interêt des oeuvres Juridiques traitant de la guerre p l'histoire des Armées médièvales Ifriquiennes - cahier Tunisie XV - 1956 - P.290

Théophanes continuatus : Chrongraphia - Ed - E. BEKKER - Bonn 1838 - dans volume XXXIII du corpus scriptorun Historiae Byzantinae Texte grec et traduction latine - PP1 - 484 - (voir ous Ed Deboor Leipzig 1883)

Vasiliev (A) : The Russian attack of constantinople - in 860 cambridge1

Wallon (H) : Histoire de l'Esclavage dans l'antiquité - 2 Ed - Paris Hachette et Cie - 1879

Watt (W.M) :- Mahomet à la Mecque - trad de F. Dourveil Payot - Paris 1958

- Mahomet à Médine - trad - S.M. Guillemin et F. Vaudou Payot - Paris 1959

Westermarck (E) :- L'Histoire du Marige - trad française - Paris 1934

- L'origine et le developpement des idées morales - Paris 1928

Wiet (G) :- Précis de l'Histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues TII - Le caire 1932

- Les pays - le caire 1937 - (voir aussi - stéles funérai T IV).

فهـــرس المواضيـــع

المواضيـــع	الصفحـات
توطئـــة	1_18
القســـم الاول	
تجـــارة الرقيق قبل القرنين الثالث والرابع للهجرة	19_164
الباب الاول : تجارة الرقيق قبل الاسلام	20_71
الفصل الاول : عند الامم السابقة للاسلام	21_34
1) نشأة تجارة الرقيق	22_27
2) مع الحضارات السابقة للاسلام	28_34
الفصل الثاني : عند العرب قبل الاســـلام	35_71
1) تجارة الرقيق الابيض	40_48
2) تجارة الرقيق الاسود	49_66
الباب الثاني : المسلمون وتجارة الرقيق قبل القرن الثالث للهجرة	72_164
الفصل الاول : خلال القرن الاول للهجرة	73_135
1) الاسلام وتجارة الرقيق	74_76
2) تجارة الرقيق الاسـود	77_81
3) تجارة الرقيق الابيـض	81_84
4) الفتح الاسلامي وتجاره الرقيق	85_101
5) احساس رقيق الفتح	102_135
الفصل الثاني : تغير الاوضاع من القرن الثاني للهجرة	136_164
1) تعاظم الحاجة وازدياد الطلب	137_153
2) بوادر الحلل بين العرض والطلب	153_163
3) تنشيط روافد التوريـــد	163_164

القسم الثاني

تجارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ..... 165 - 1072
الباب الاول : الطلب وتحدد الحاجة الى الرقيق ..... 166_275
الفصل الاول : بعاد الرصيد منذ القرن الثاني للهجرة ..... 167_238
1) توقف الفتح ..... 169_179
2) العتق وظاهرة استنزاف الرصيد ..... 180_226
3) ظاهرة الابـــاق ..... 223_227
4) الثورات والفتن ..... 227_238
الفصل الثاني : تجدد الحاجة الى الرقيق في القرنين الثالث والرابع للهجرة 239_275
1) الحاجة السياسية والعسكرية ..... 241_247
2) الحاجة الاقتصادية ..... 248_259
3) الحاجة الاجتماعية ..... 260_275
الباب الثاني : العرض ومصادر التزود بالرقيق ..... 265_276
الفصل الاول : رقيق الاسر والوراثة ..... 277_283
الفصل الثاني : رقيق القرصنة ..... 284_385
1) القرصنة والاسترقاق ..... 285_288
2) القرصنة والتجارة ..... 289_292
3) القرصنة والسيادة البحرية ..... 293_296
4) القراصنة المسلمون وتجارة الرقيق ..... 297_316
5) نشاط القرصنة التجاري ..... 317_325
الفصل الثالث : الجلب او التوريد ..... 326_358
1) التجارة الخارجية ..... 327_348
2) مصادر الرقيق المجلوب ..... 349_358
الفصل الرابع : توريد الصقالبة ..... 360_364

1) الصقالبة 364–360
2) بلاد الصقالبة 368–365
3) الرقيق الصقلبي قبل القرن الثالث للهجرة 371–369
4) تجارة الصقالبة في القرنين الثالث والرابع للهجرة 396–372
5) تصدير الرقيق الاوروبي الى بيزنطة 405–397
الفصل الخامس: توريد الاتراك 454–406
1) الاتراك 409–407
2) بلاد الاتراك ماوراء النهر 414–409
3) استرقاق الجنس التركي 419–414
4) المسلمون وتوريد الرقيق التركي 454–420
الفصل السادس: توريد الرقيق الاسود 518–455
1) السودان 459–456
2) المسلمون وبلاد السودان 463–459
3) اوضاع بلاد السودان 472–463
4) تجارة الرقيق ببلاد السودان الشرقية 494–473
5) رقيق بلاد السودان الوسطى 500–495
6) رقيق بلاد السودان الغربية 513–501
7) طرق توريد الرقيق 518–513
الفصل السابع: اجناس الرقيق 565–519
1) الرقيق الرومي 529–521
2) الرقيق اليوناني 531–530
3) الرقيق الرومي 534–532
4) الرقيق البلغاري 537–535
5) الرقيق الارمني 541–538
6) الرقيق الديلمي 543–542

7) الرقيق الخزري 546–544
8) الرقيق الافرنجي 549–547
9) الرقيق البربري 553–550
10) رقيق الهند والسند 558–554
11) استواق الاحرار 565–559
الباب الثالث : اسواق الرقيق وطرق المعاملات 745–566
الفصل الاول : نظام الاسواق وماديتها 645–567
1) اسواق الرقيق 593–568
2) خصائص البضاعة 645–594
الفصل الثاني طرق المعاملات 745–646
1) العرض 653–647
2) الغش والتدليس 670–654
3) وسائل كشف الغش 674–671
4) التقليب 702–675
5) شروط ابرام الصفقة 726–703
6) احكام الخيار والرد بالعيب 745–727
الباب الرابع : تجارة كل صنف من الرقيق 925–746
الفصل الاول : تجارة الرقيق المذكر 789–747
1) رواج رقيق الخدمة 753–748
2) تجارة الغلمان 771–754
3) صفات رقيق الحرس والجند 789–772
الفصل الثاني تجارة الحصيان 852–790
1) الحصاء قبل الاسلام 797–791
2) الاسلام والحصاء 806–798
3) تجارة الحصيان قبل القرن الثالث للهجرة 806–801
4) تجارة الحصيان في القرنين الثالث والرابع 852–807

الفصل الثالث : تجارة الرقيق المؤنث ..... 853_878
1) امتناء الخدم ..... 855_857
2) رواج تجارة الجواري ..... 858_878
الفصل الرابع : تجارة الرقيق المولد ..... 879_925
1) الرقيق المولد ..... 880_883
2) رقيق المهن والصنائع ..... 884_887
3) تحريج العيال والمعتقين ..... 888_925
الباب الخامس : المعاملات المالية ..... 926_967
الفصل الاول : المكوس وتجارة الرقيق ..... 927_933
1) المكوس العامة ..... 928_930
2) المكوس الخاصة ..... 930_931
3) مكوس الرقيق ..... 931_933
الفصل الثاني : اسعار الرقيق ..... 934_967
1) العوامل التجارية ..... 937_940
2) المؤثرات الاجتماعية ..... 940_944
3) العوامل الخاصة بالبضاعة ..... 944_962
4) معدل اثمان الرقيق ..... 962_967
الباب السادس : اهل السوق او الباعة والشراة ..... 968_1072
الفصل الاول : النخاسون ..... 969_1044
1) النخاسة ..... 970_984
2) انواع النخاسين ..... 985_994
3) النخاسون اليهود ..... 995_1009
4) النخاسون الروس ..... 1010_1024
5) البلغار ..... 1025_1027
6) النخاسون النصارى 1028
7) النخاسون المسلمون ..... 1029_1038
8) مشاهير النخاسين ..... 1039_1044

الفصل الثاني : شراة الرفيق ..... 1045_1072
1) طبقة الخاصة ..... 1047_1051
2) الطبقة المتوسطة ..... 1052_1055
3) طبقة العامة ..... 1055_1060
4) اهل الذمة وتجارة الرفيق ..... 1060_1067
5) شراء الرفيق للرقيق ..... 1068_1072

القسم الثالث

آثار تجارة الرفيق الاجتماعية ومآلها بعد القرن الرابع للهجرة ..... 1073_1114
الباب الاول . آثار تجارة الرفيق الاجتماعية ..... 1074_1108
الفصل الاول : الاثار الايجابية ..... 1075_1084
الفصل الثاني : الاثار السلبية ..... 1085_1108
1) التصدع السياسي ..... 1087_1098
2) التصدع الاجتماعي ..... 1099_1108
الباب الثاني : مآل تجارة الرفيق بعد القرن الرابع للهجرة ..... 1109_1114

الفهارس ..... 1115 - 1195
فهرس المواضيع ..... 1116_1121
فهرس ابجدي عام لاسماء الاعلام والاماكن
والاقاليم والمدن والملل والمذاهب والفرق
والاجناس والامم والقبائل والاسر الحاكمة ..... 1122 - 1167
قائمة المصادر والمراجع ..... 1168 - 1195